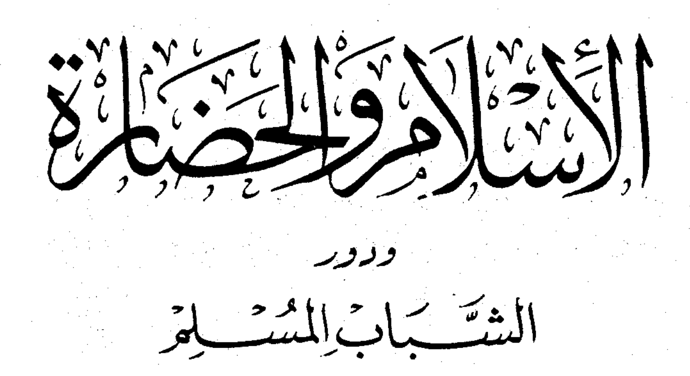
النّدوة العالميّة للشّباب الإسلامي



أبحاث ووقائع اللقاء الرّابع للنّدوة العالميّة للشّباب الإسلامي

المنعقد في الرياض من ٢٠ - ٢٧ ربيع الثاني ١٣٩٩هـ الموافق من ١٨-٢٥ مارس ١٩٧٩م

الناشر
الندوة العالمية للشباب الإسلامي
الرياض ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م



المجلد الأول

الندوة العالمية للشباب الإسلامي





بسم الله الرحمن الرحيم

ٱقْـرَأْ بِٱسْـــم رَبِّكَ ٱلَّــذِي خَلَــقَ *
خَلَــقَ الإِنْسَـــانَ مِنْ عَلَــــقٍ *
ٱقْــرَأْ وَرَبُّـــكَ الأَكْــــرَمُ *
الَّــــذِي عَـلَّـــمَ بالْقَـلَـــمْ *
عَـلَّـمَ الإنسَـــانَ مَا لَمْ يَعْـلَـمْ *
كلَّا إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَىٰٓ * أن رَآهُ اسْتَغْنَىٰٓ *
إِنَّ إِلَــىٰ رَبِّـــكَ الرُّجْـعَــىٰٓ *

« سـورة العلـق »

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الطبعة الأولى من كتاب

الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم

إنّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله محمد بن عبد الله، المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وأصحابه الغر الميامين. الذين شيدوا صرح الحضارة الإسلامية المجيدة بجهودهم المخلصة ودمائهم الزكية، فكانوا أصحاب فضل على كل من نهل من ينابيع تلك الحضارة الشامخة في نقاوتها وطهارتها، السامية في عقائدها وأفكارها وتصورها للحياة والغاية منها، وأساليبها التربوية ونظمها الاجتماعية، وكل من نعم وتمتع بخيراتها إلى يوم الدين.

وبعـــد :

ففي عصرنا الحاضر الذي بلغت فيه الاكتشافات العلمية والرقي المادي شأواً بعيداً لم يتوفر لعصر قبله، يخيم على العالم كله عامة والغربي منه خاصة جو من القلق الشامل العميق والاضطراب المتزايد والانحراف الخلقي البغيض، أفقد الناس معنى لذة ما وصلت إليه الحضارة المعاصرة من تيسير لوسائل العيش والرفاهية، ووصل إلى درجة جعلت علماء الاجتماع والنفس والطب في الغرب يقفون حيارى تجاه هذا الجو المعتم من القلق والاضطراب وما ينجم عنه من أمراض عصبية مختلفة لها أوخم العواقب على البشرية جمعاء.

وإذا أمعنّا النظر في معرفة أسباب هذا القلق والاضطراب أدركنا أنه ناشئ من الأجواء النفسية التي هيأتها الحضارة الغربية المعاصرة لأبنائها ومن أخذ مأخذهم وسلك سبيلهم. هذه الحضارة الغربية المعاصرة التي ما استوت على قدميها إلا على أساسين اثنين :

الأول : الفلسفة اليونانية المادية الوثنية.

والثاني : العداء للدين والحقد على رجاله وتنحيته بعيداً عن الهيمنة على شئون الحياة وتوجيهها، وعلى هذين الأساسين وفي ظلهما نمت وترعرعت جميع المذاهب الفلسفية والأخلاقية التي سيطرت على عقول المفكرين والموجهين لتلك الحضارة والقائمين فيها.

ولما كنا نعتقد اعتقاداً جازماً لا يتطرق إليه الشك بأن خلاص المجتمع المعاصر والانسانية عامة من الآلام والأمراض التي تعانيها ــ بما جلبته تلك الحضارة الغربية المعاصرة بماديتها ووثنيتها وعقائدها الفاسدة وأفكارها الخبيثة المنحلة ــ لم ولن يكون إلا بتسلم الإسلام زمام الأمر، ومن خلال بعث إسلامي معاصر.

لهذا كله حرصت الندوة العالمية للشباب الإسلامي، جرياً على نهجها الذي تسير عليه دائماً، على تنظيم لقاءات فكرية إسلامية ضمن مؤتمرات العمل الإسلامي كي تتيح الفرصة لنخبة من المفكرين الإسلاميين

ومن قيادات الشباب الإسلامي للبحث والدراسة في قضية من قضايا الفكر الإسلامي التي تهم الشباب والأمة، وكان الموضوع الفكري للقاء العالمي الرابع للندوة هو :

« الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم » :

وستجد أيها القارئ الكريم.. بين يديك في الصفحات التالية، خلاصة لما قدم من أبحاث ودراسات ومقترحات، وما ألقي من محاضرات، وما دار من مناقشات في ذلك اللقاء. وستجد أن معظم تلك الأبحاث والدراسات والمحاضرات والمناقشات حاولت معالجة الموضوع من خلال جوانب ستة هي :

١ ـ معرفة القيم والمبادئ الأساسية التي يقوم عليها الإسلام، والنموذج الإسلامي في الحياة الإنسانية، ووجوه عطائه وتميزه بشكل واضح شامل.

٢ ـ توضيح الآفاق المستقبلية للعطاء الإسلامي، من خلال فهم الواقع الحضاري المعاصر والمنحدرات السحيقة التي يندفع إليها.

٣ ـ الفهم العلمي الصحيح للأسس الفكرية والفلسفية والعقدية التي تقوم عليها الحضارات الكبرى في التاريخ، وخاصة الحضارة المادية المعاصرة.

٤ ـ الفهم العلمي الصحيح للأسس الفكرية والفلسفية والعقدية التي تقوم عليها الحضارات الكبرى في التاريخ، وخاصة الحضارة المادية المعاصرة.

٥ ـ دراسة للواقع الحضاري المعاصر للعالم الإسلامي، والأسباب التي وضعته في موضعه الحالي، ومخاطر هذا الوضع والمنطلقات إلى تصحيح مسار الأمة.

٦ ـ الموقع الخاص للشباب في الفهم والتعلم السليم للمنطلقات الصحيحة، والتأهيل الخاص لحمل رسالات التطور والتغيير وتصحيح المسار.

هذه الجوانب الستة هي التي عولجت منفردة ومجتمعة من قبل الاخوة الباحثين، بحيث أمكن، بفضل الله، لمجموع هذه الأبحاث والدراسات والمحاضرات والندوات والمناقشات أن تعطي رؤية واضحة متكاملة، نرجو أن تكون عوناً حقيقياً، باذن الله، لشباب الأمة وقياداتها، وأن تضع أرجلهم على الخط الصحيح للمسار في محاولتهم الدائبة لخدمة الأمة والدعوة والإنسانية عامة.

وللقضاء على عوامل الانحطاط والفساد والتبعية والضعف والهوان في كيان الأمة، لتصحيح مسارها إلى الأصالة والقوة والعطاء والريادة في منعة وعزة وكرامة بإذن الله.

اننا نرجو أن تكون هذه خطوة رائدة على هذا الطريق، نأمل أن تتلوها خطوات أخرى أثبت وأرسخ ـ بإذن الله.

وإذا كانت هذه الخطوة، التي نقدمها اليوم في هذا الكتاب، قد آتت بعض ثمارها المرجوة، فذلك من توفيق الله وفضله.

والله نسأل أن يوفقنا، وأن يسدد على الحق خطانا، وأن يلهمنا رشدنا ويهدينا سواء السبيل.. هو نعم المولى ونعم النصير..

رئيس الندوة العالمية للشباب الإسلامي

حسن بن عبد الله آل الشيخ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الطبعة الثانية من كتاب

الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم

يطيب للندوة العالمية للشباب الإسلامي أن تضع بين أيدي القراء الاعزاء والدارسين والباحثين على حد سواء الطبعة الثانية من كتاب « الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم » تلبية للطلب المستمر عليه من جانب الشباب والمنظمات والهيئات العلمية والمتخصصة بعد أن نفدت طبعته الأولى.

والكتاب يحتوي على أعمال اللقاء العالمي الرابع الذي عقدته الندوة في مدينة الرياض عام (١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م) والذي ضم نخبة من المفكرين والباحثين والعلماء والعاملين في حقل الدعوة الإسلامية وخاصة في ميدان الشباب، وكان بحق لقاءًا حافلاً مشهوداً صدرت وقائعه في جزأين ضخمين عام ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م وها نحن نعيد طباعته من جديد لتعم الاستفادة منه على أوسع نطاق.

اننا سنحاول أن نجيب على تساؤل مهم يطرح نفسه وهو : ما الذي يريد أن يقوله هذا الكتاب ؟ وما هي حصيلة هذا اللقاء كله بما فيه من بحوث ومحاضرات وندوات وتعليقات ؟ ومع الاعتراف بصعوبة التلخيص وتحديد المرمى النهائي من هذا اللقاء الضخم كله، يمكن لنا أن نصل إلى التحديد المركز التالي على أنه خلاصة اللقاء ونتيجته ومرماه :

١ ــ استطاع الإسلام في تاريخه الزاهر ان ينشئ حضارة غنية خصيبة من حيث مفاهيمها وأسسها العامة ومن حيث ثمراتها وانجازاتها في كافة ميادين الحياة وعلى الصعيدين المادي والمعنوي.

٢ ــ والعبرة التي نستفيدها من ثنايا هذه البحوث وتتأكد بكافة الشواهد والبراهين هي أن الانحطاط الذي تعاني منه الأمة المسلمة اليوم هو انحطاط في أحوال المسلمين نتيجة انحرافهم عن كتاب الله وسنة رسوله ولا يعتبر الإسلام مسئولا عما أصابهم من هوان وما وصلوا اليه من ضعف وخذلان بحال من الأحوال. بل اننا نخرج بنتيجة حاسمة : مؤداها أن هذا الدين قادر على العطاء زاخر بالتوجيهات الحية التي تميز بين الحق والباطل حافل بأسباب التقدم والأزدهار التي يمكن أن تنهض بالمسلمين إذا احسنوا التعامل معه وتعيد لهم مجدهم الغابر وحضارتهم التليدة إذا استمسكوا بتعاليمه.

هذا من جانب ومن جانب آخر فان الأمم تمر بدورات حضارية تعلو فيها وتهبط ويرتفع شأنها ويقل وتصح بنيتها وتعتل. والأمة المسلمة ليست بدعا في هذا الشأن وينطبق عليها ما ينطبق على غيرها من الأمم ولكن الخط البياني لها ــ مع الإقرار بكل السلبيات والانحرافات والمخاطر ــ آخذ بالصعود بإذن الله.

٣ ــ ان الحضارة الغربية اليوم التي تهيمن بمفاهيمها وانجازاتها على مقدرات العصر ــ مع اعترافنا بكل ايجابياتها ونقاط قوتها ــ تعاني من مشكلات خطيرة جدا يحذر منها ابناء هذه الحضارة نفسها، وهذه المشكلات تتزايد من حيث العدد، وتتباين من حيث النوع، وتستفحل من حيث درجة الحدة، مما يجعل الحكم عليها بأنها آخذة بالانحدار حكما

غير ظالم، بل تسنده شواهد كثيرة جدا تدل على أن الخط البياني يتجه نحو الهبوط بالرغم من كل البريق واللمعان. واذن فلابد من بديل حضاري جديد.

٤ ـ هنا يتقدم الإسلام، باعتباره الرسالة الصحيحة الخاتمة، والمسلمون باعتبارهم حملة هذا الدين وحماته لاستلام قيادة الحضارة البشرية من جديد.

٥ ـ ومن نافلة القول أن نؤكد أن هذا لا يتم في يوم وليلة فإن لله عز وجل سننا لا تحابى ولا تجامل، ومن لوازمها أن الدورة الحضارية ـ صعوداً وهبوطاً ـ لابد أن تأخذ وقتها المرصود، ومن لوازمها أيضا أن يبذل المسلمون جهداً أكبر للقيام بمسئوليتهم الخطيرة.

٦ ـ إن الدور الحضاري المأمول الذي يرجى أن تنهض به الأمة المسلمة هو خدمة جليلة لا للمسلمين فقط، بل للبشرية جمعاء بعد أن شقيت كثيرا في ظل القيادة الحضارية الراهنة.

٧ ـ وإذا كانت الأمة المسلمة جميعها مطالبة بأن تنهض بمسئوليتها الخطيرة والنبيلة في آن واحد، فان الشباب وهم غد الأمة ومستقبلها وطاقتها المذخورة مطالبون بجهد أكبر ازاء هذه المسئولية الكبيرة.

وبعد.. فإن الطريق طويل، والجهد شاق، وحسبنا اننا ألقينا بصيصا من الضوء على جنبات الطريق وبدأنا الخطو صوب الغاية في ثبات وإصرار حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله.

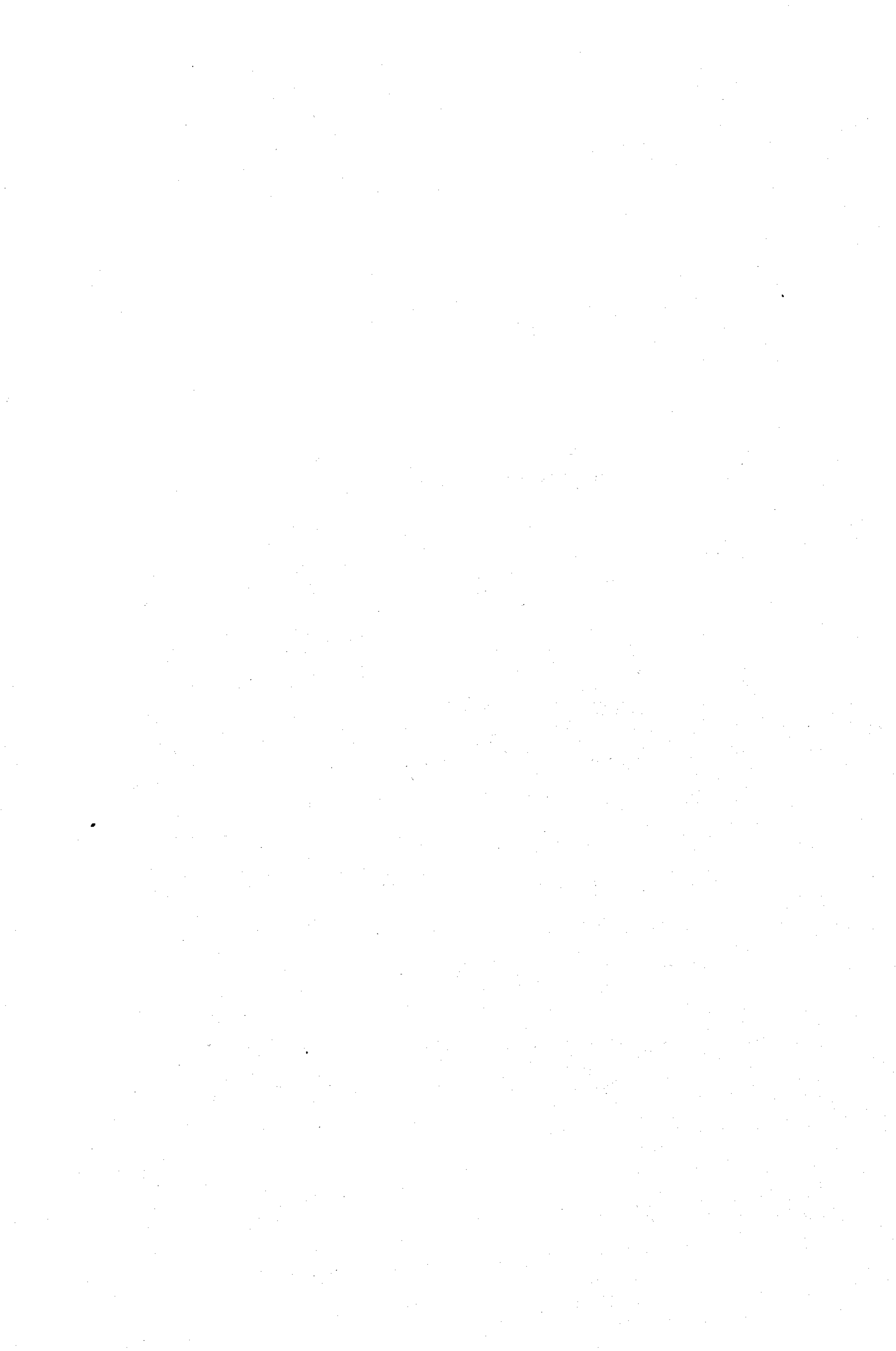
وآخر دعـوانا ان الحمد لله رب العـالميـن..



افتتاح أعمال اللقاء



كلمة صاحب المعالي وزير التعليم العالي ورئيس الندوة
الشيـخ حسـن بـن عبد الله آل الشيـخ



بسم الله الرحمن الرحيم

تم افتتاح اللقاء بتلاوة عطرة من كتاب الله ثم ألقى معالي الشيخ حسن بن عبد الله آل الشيخ الكلمة التالية :

بسم الله والحمد لله غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير..

والصلاة والسلام على محمد بن عبد الله، المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين..

أيها الإخوة في الله : نيابة عن صاحب السمو الملكي ولي العهد المعظم، أرحب بجمعكم الكريم في بلدكم الأمين، **مهبط وحيه ومهد شريعته**، في المملكة العربية السعودية ـ أرحب بكم طلائع خير ومواكب إيمان ومشاعل نور، أسأل الله أن يبدد بها وبأعمالها المخلصة ظلمات العصر التي يشقى بها الأحياء في كل مكان، وأرحب بكم رجالاً آمنوا بالله وتوفروا على العمل لنصرة دينه وإعلاء كلمته، قد هالكم ما يعانيه العالم اليوم من فتن ومظالم وانهيارات وصدامات، وعلمتم أن طوق النجاة من كل ما يلقى ويعاني هو في صدق الانتماء لعقيدة الإسلام المشرقة التي اختارها الله للعالم ورضيها وأكملها مع الإخلاص والعزيمة وبذل النفس رخيصة سهلة في ذات الله ومن أجله. ومن أجل أن يتضح هذا الواقع الصادق وتحقق تلك

الأمنية الرائعة والأمل الباسم كنتم أسرع الناس تلبية لنداء ندوتكم لهذا اللقاء، وأكثرهم حرصاً على أهدافها ودعماً لانطلاقاتها.

لقاءات ثلاث مضت كان رائدها صدق الانتماء إلى دين الله، وهدفها جمع كلمة المسلمين على الحق والعودة بهم إلى منابع دينم وإشراقة واقعهم وممارسة مسئولياتهم.. واليوم تلتقون لقاءكم الرابع، وقوى الشر والكفر تأخذ على المسلمين مسالك الطريق، وتتربص بهم الدوائر، وتنازلهم معركة المصير، لتحرمهم نعمة العدالة الاجتماعية التي منحها لهم دينهم، ولتغتال استقرارهم وأمنهم وتبدلهم به خوفاً وفتناً طاحنة لا قبل لهم بها، وكأنكم تقولون للعالم، من هنا، من بقاع الطهر هذه، لا نجاة لكم مما تلقون إلا بالعودة الصادقة إلى رحاب الله الآمنة الواسعة، وبالعمل على تحكيم شريعته المطهرة، وبكل منطلقات الإسلام والتسامي والتضحية ستظل بإذن الله جهودكم متصلة، وصفوفكم متحدة حتى تتسع رقعة الإسلام في أرض الله وحتى تستقيم، بمقوماته ومبادئه، دنيا الناس. والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

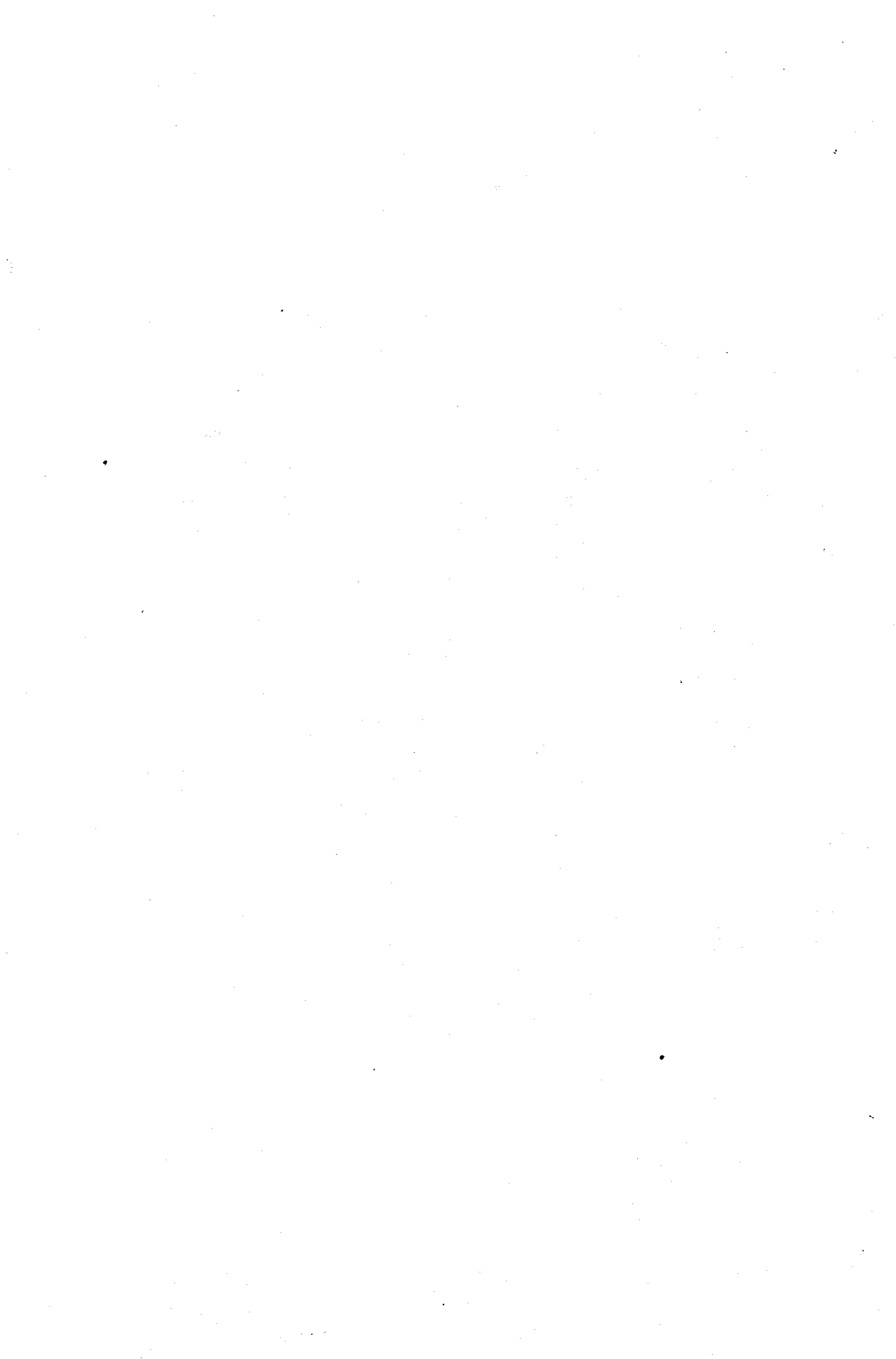
أيها الإخوة في الله : إن ندوتكم هذه هي إحدى منجزات شهيد الإسلام، فيصل بن عبد العزيز رحمه الله، وأكرم مثواه، كان يرعاها ويؤيد انطلاقاتها، ثم هي تلقى بعد رحيله كل العون والرعاية والمؤازرة من والدنا الغالي إمام المسلمين، خالد بن عبد العزيز، ومن صاحب السمو الملكي ولي عهده الأمير فهد بن عبد العزيز، فهي بحمد الله منهم ولهم، ونرجو الله أن يجعل استمرار فكرتها مما يقربهم إلى الله زلفى، ولن تقتصر المملكة على رعايتها للندوة، كجزء من مسئوليتها الإسلامية، بل دفعت بجامعاتها إلى تقديم العديد من المنح للشباب المسلم في كل المجالات، وللمساهمة في المؤتمرات واللقاءات والمخيمات الإسلامية، إضافة إلى استقبالها للوفود الشبابية الإسلامية، وزيارة شبابنا في الجامعات للعديد من بلاد العالم الإسلامي رغبة في إيجاد الروابط القوية بين أبناء العقيدة الواحدة. وستظل المملكة بإذن الله قائمة بهذا الدور بطواعية وقناعة وإيمان. وفقكم الله،

وجعل التوفيق حليفكم، ونفعكم، ونفع بكم.

والسلام عليكم ورحمة الله

حسن بن عبد الله آل الشيخ

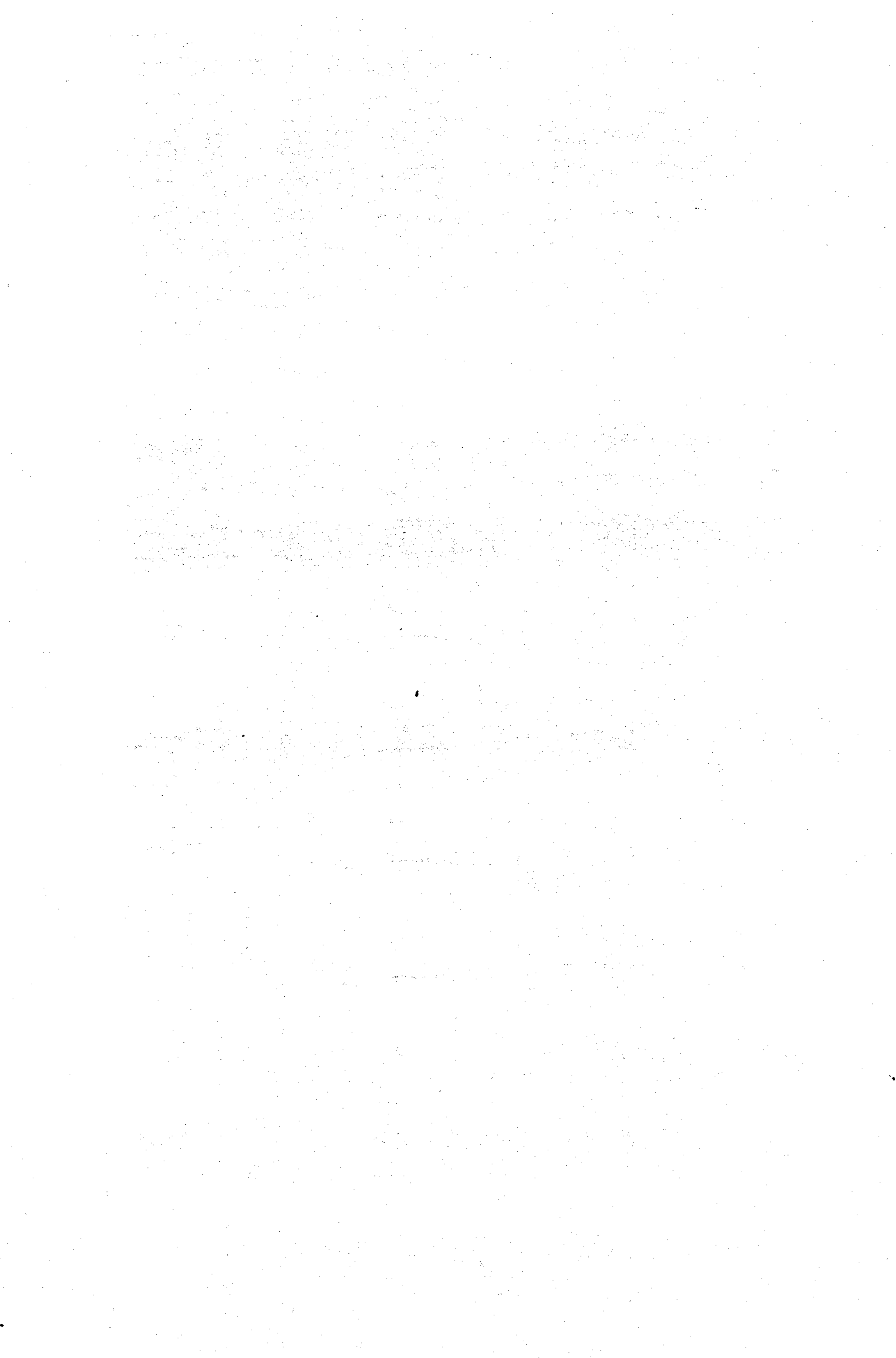
رئيس الندوة العالمية للشباب الإسلامي



كلمة الأمين العام الأسبق

للندوة العالمية للشباب الإسلامي

الدكتور عبد الحميد أبو سليمان



بسم الله الرحمن الرحيم

صاحب المعالي ـ رئيس الندوة العالمية للشباب الإسلامي ـ الشيخ حسن بن عبد الله آل الشيخ. أصحاب الفضيلة أصحاب المعالي، أيها الإخوة، ممثلي المنظمات الشبابية الإسلامية. أيها الإخوة الضيوف.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

إنها للحظة غامرة أن أقف في هذا الموضع بعد أعوام ثلاثة، أقف لأحييكم، أحيي وجوهكم، ولكي أجدد الترحيب بكم، أرحب بكم أخوة مجاهدين في سبيل الله، سبيل الخير والحق، سبيل الوجود الأفضل، الوجود الأفعل، أخوة مجاهدين في أخطر ميدان وأرحب ميدان.. الدعوة والعقيدة.. ميدان الشباب، وبناء الشباب وتضامن الشباب ـ ثلاثة أعوام، من أصل أعوام ثمانية هي عمر هذه المنظمة الشابة، المنظمة الشامخة، منظمة الندوة العالمية للشباب الإسلامي. وبفضل الله ثم بفضلكم، بفضل وعيكم، وبفضل عزمكم. وبفضل الإخلاص والبذل الذي محضتم الندوة ومحضه إياها كل مخلص وعامل ومسئول، بفضل الله ثم بفضلكم جميعاً، أمكن لهذه المنظمة أن يكتمل بناؤها، وأن ترسي قواعدها، وأن تقف اليوم عزيزة بكم قادرة في خدمة الأمة، تعمل من أجل خدمة شباب الأمة في سبيل صفاء

عقيدته وصفاء رؤيته وترقية ثقافته، وتوحيد فكره وأمانيه وتطلعاته في سبيل تحقيق الذات، وفي سبيل خدمة الأمة ورفعة الأمة وبناء الأمة ـ تعمل في خدمة الشباب بدعم نشاطاته ورعاية مؤسساته، واستكمال أدواته لتوفير المعرفة، توفير الكتاب الجيد والمحاضر الجيد، والمربي الجيد، والخبير والمدرب الجيد، تعمل في خدمة الشباب المسلم بتوفير أدواته ومخيمات عمله، وبرامج تدريبه وتوفير الموارد اللازمة لأدائه، والسعي لدى كل مخلص في حاجته وتحقيق رغباته وتطلعاته.

أيها الاخوة : لقد حققت الندوة الكثير مما تهدف إليه وأرست دعائم الكثير مما تسعى إلى تحقيقه ـ وأقامت المؤسسات المتخصصة في خدمة تلك الأهداف في ميدان الكتاب والتعليم والتمويل.

أيها الإخوة الكرام : وأنا أسلم الأمانة في هذا اللقاء، أرجو أن تواصل الندوة مسيرتها المباركة نحو غاياتها النبيلة السامية حلماً أصبح حقيقة ودرباً فسيحاً يمتد على أفق الوعي والقدرة. بعزمكم، بإخلاصكم، بقدراتكم، بشجاعتكم، بزمام المبادرة في أيديكم الشابة، سيكون بمشيئة الله غدٌ أفضل تبنون لأنفسكم وتؤهلون أنفسكم وتستكملون عدتكم وتتبينون مواقعكم، بكم وبمؤسساتكم، بوعيكم وبوحدتكم وبوضوح رؤيتكم، لن يكون غداً حال الأمة بمشيئة الله هو الحال.

أيها الإخوة : بالإيمان، بالعزم، بالصبر، بالمجالدة، بالمثابرة، بالعمل، بكم تبنى الأمم وتصاغ المصائر وتشمخ الحضارات. اسمحوا لي أيها الإخوة باسمكم جميعاً، باسم مجلس أمانة الندوة ـ إقراراً بالفضل وعرفاناً بالجميل وتقديراً للجهد والإخلاص، أن أتقدم بخالص الشكر وعظيم التقدير إلى معالي رئيس الندوة، الشيخ حسن بن عبد الله آل الشيخ، وإلى حكومة هذا البلد الإسلامي الحبيب، أن أتقدم إليهم جميعاً وإلى كل مخلص وعامل ومسئول ساهم وبذل وضحى، أن أتقدم إليهم بخالص الشكر وعظيم التقدير لما قدموه وأعانوا به من جهد وتضحيات.

أيها الإخوة : إنها بداية الطريق، إن الأمة في أرجاء الأرض تتطلع إلى اجتماعكم هذا ولتسمع منكم وتتلمس مستقبلها في خطابكم ومرمى

أبصاركم، إن العبء ثقيل والحمل شاق والمسئولية بالغة وليس لمسلم أن ينكص.

أيها الإخوة : أرجو للقائكم هذا كل التوفيق، ولمسيرتكم في خدمة الأمة والدعوة كل الفلاح، وصدق الله، « إنَّ اللهَ لا يُغَيرُ ما بقومٍ حتى يُغَيّروا ما بأنفسهم »[١] « والذين جاهدوا فينا لنهدينَّهم سبلنَا »[٢] و « ليَنصُرَنَّ الله من ينصره »[٣] و « بشر الصَّابرين »[٤].

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

---

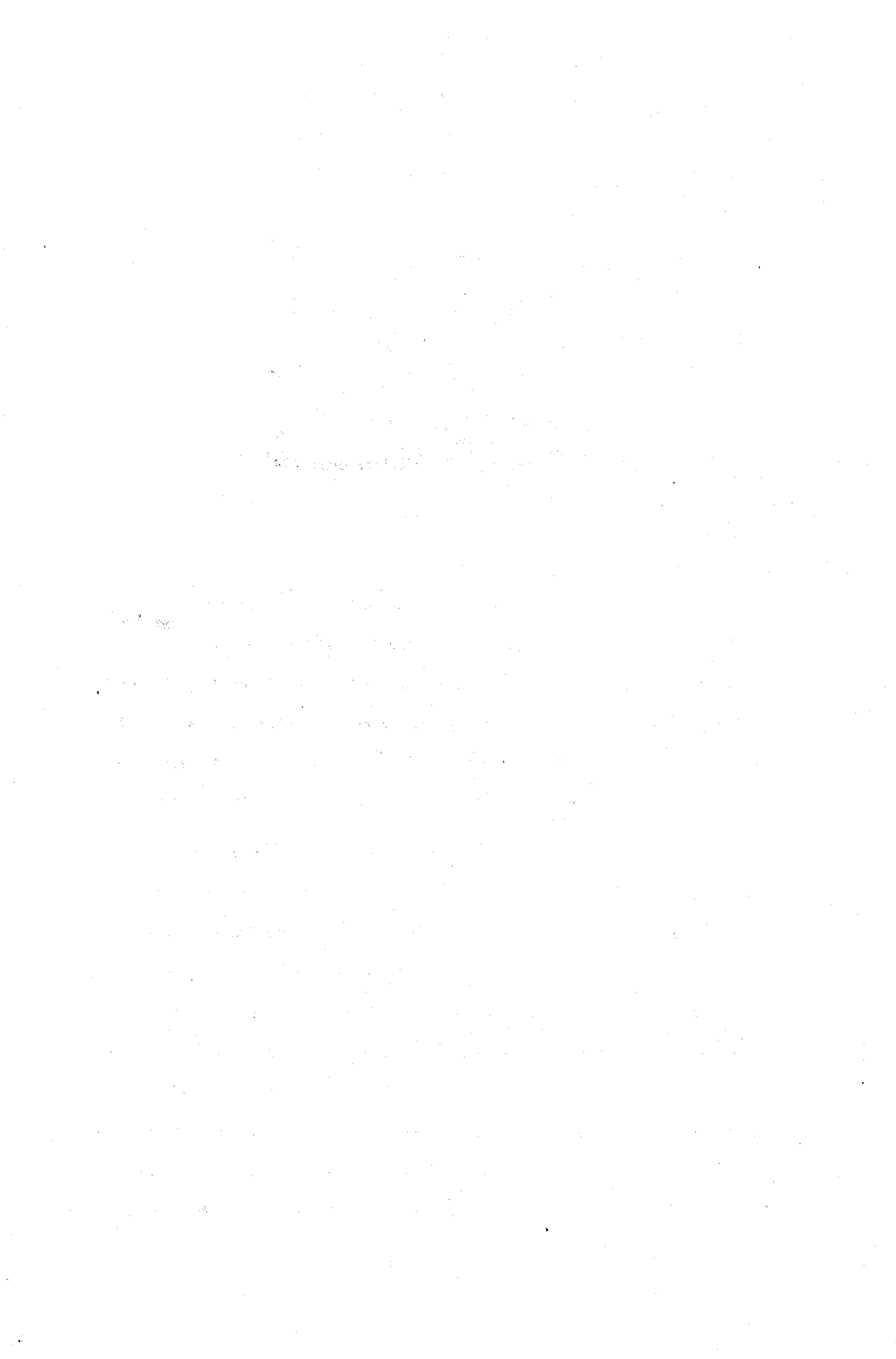
(١) سورة الرعد آية ١١.
(٢) سورة العنكبوت آية ٦٩.
(٣) سورة الحج آية ٤٠.
(٤) سورة البقرة آية ١٥٥.



كلمة الوفـــود

للأستاذ أيوب آدم باتل

ممثل جمعية الشباب المسلم في زامبيا



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أصحاب السمو الإخوة الأمراء

صاحب المعالي، الشيخ حسن بن عبد الله آل الشيخ وزير التعليم العالي ورئيس الندوة العالمية للشباب الإسلامي ـ أصحاب السماحة والمعالي والفضيلة صاحب السعادة الدكتور عبد الحميد أبو سليمان، الأمين العام للندوة العالمية للشباب الإسلامي، أصحاب السعادة، الإخوة أعضاء الأمانة العامة للندوة، أيها الجمع الكريم.. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

يسرني بهذه المناسبة الطيبة، التي يجتمع فيها الشباب المسلم من كل صوب وحدب، أن أعبر عن وافر شكري وتقديري للندوة العالمية للشباب الإسلامي، لا لأنها دعتنا إلى هذا اللقاء.. بل لما تقوم به من جهود عملية مشكورة وطيبة في خدمة شباب الأمة الإسلامية بتوفير الكتاب المسلم وعقد المخيمات واللقاءات والندوات والدراسات وكل ما يهم الشباب المسلم في حياته، ولا يخفى عليكم أن أمتنا الإسلامية تمر في هذه المرحلة بظروف حرجة وخطيرة، هي مرحلة تحول في المسار، وندعو الله مخلصين أن يكون تحول هذه الأمة في صالحها وصالح شبابها وأن يكون عند هذا المستوى وعلى قدر المسئولية الملقاة على عاتقنا، تلك المسئولية التي نص عليها القرآن بقوله تعالى « كُنتم خيرَ أمّةٍ أُخْرجت للنَّاس تأمرون بالمعروف وتنهون

عن المنكر وتؤمنون بالله »[1] ويسرني أن أقولها بكل فخر واعتزاز أن الندوة العالمية للشباب الإسلامي تقوم بتوجيه الشباب المسلم خير قيام، وتعمل على تلبية حاجاته وطلباته، وتدعمه مادياً ومعنوياً. ولا يفوتني أن أقول للإخوة الشباب أنه علينا حالياً أن ننظم أنفسنا لقيادة هذه الأمة، فشباب اليوم هم قادة الغد. لقد أتيت إليكم من قلب القارة الافريقية، من زامبيا، وقد حمّلني إخوتكم في إفريقيا شكرهم وتقديرهم لما تقوم به الندوة العالمية للشباب الإسلامي ولما تتجشمه من عناء في سبيل الدعوة في صفوف الشباب. وأحب أن أطمئن الإخوة هنا بأن العمل الإسلامي قد بدأ يقف على رجليه في زامبيا وفي أفريقيا، ولا يزال في حاجة إلى كثير من التوجيه والدعم، وأن شعارنا في المرحلة القادمة يجب أن يكون، تحكيم كتاب الله والعمل وفق شريعته، وتقصي أسباب تدهور الأمة الإسلامية وضعفها وانهيارها، واتخاذ كل ما يلزم لعلاج هذه الأمراض، وليعمل كل منا بجهد خالص وبنية خالصة لوجه الله تعـالى.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

(١) سورة آل عمران آية ١١٠.

وَرَقَــةُ العَــمَل



اللقاء الرابع

الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم

أخي في الإســــلام..

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. وبعد ـ

يسرني إعلامكم بأن موعد اللقاء الرابع (الاجتماع العام) لممثلي المنظمات الشبابية الإسلامية أعضاء الندوة العالمية للشباب الإسلامي، سيبدأ يوم الأحد الموافق ٢٠ / ربيع الثاني / ١٣٩٩ هـ ـ ١٨ / مارس / ١٩٧٩ م، ويستمر عشرة أيام، أسبوع منها لأعمال اللقاء وما يتبقى يكون لمزيد من التعارف، واداء العمرة في مكة المكرمة، وزيارة المسجد النبوي الشريف.. ان هذا اللقاء يضم ممثلي المنظمات الأعضاء في الندوة من القيادات في مجال العمل الشبابي الإسلامي، ومهمته التنظيمية الأساسية هي النظر في تقارير الأمانة العامة للندوة، وانتخاب الهيئة الجديدة لمكتب الأمانة العامة، واتخاذ التوصيات اللازمة حيال أعمال ونشاطات الندوة.

ويهدف اللقاء أيضاً إلى التعارف بين القيادات الإسلامية الشبابية لتنسيق العمل فيما بينها، وتبادل الخبرات وتخطيط التعاون بين هذه القيادات والمنظمات الإسلامية في مختلف مجالات الدعوة وخدمة الشباب المسلم في العالم.

كما يضم اللقاء عدداً من القيادات الإسلامية العاملة ذات الاهتمام والصلة بنشاطات المنظمات الشبابية، إلى جانب دعوة عدد من القيادات الفكرية الإسلامية للمحاضرة والبحث في قضايا الفكر الإسلامي ذات الصلة بعمل الشباب لتكون محور النشاط الفكري والثقافي خلال الاجتماعات، ولتكون مساهمة علمية فكرية إسلامية تثري لقاء الأخوة بما يسمعونه في الموضوع، ومن خلال مناقشاتهم وتفاعلهم وتبادل خبراتهم العملية في القضايا المطروحة.

وقد تقرر أن يكون الموضوع الفكري في لقاء هذه الدورة هو :

« **الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم** » :

وخلال فترة العمل، سيكون البرنامج الفكري حول موضوع الندوة على شكل أبحاث ومحاضرات وندوات ولجان مناقشة.

الخطوط والغايات الأساسية :

والغايات الأساسية لعلاج هذا الموضوع الخطير من الناحية الفكرية هي توعية هذه القيادات وتلاقح أفكارها مع فكر هذه النخبة المختارة من المفكرين الإسلاميين، ومن ورائهم شباب الأمة وروّادها، في هذه المرحلة الهامة من تاريخ مسيرة الأمة الإسلامية وذلك :

أولاً : لمعرفة **القيم والمبادئ** الأساسية التي يقوم عليها الإسلام، والنموذج الإسلامي في الحياة الإنسانية ووجوه عطائه وتميزه بشكل واضح شامل يعين على الفهم والرؤية، ويكون علامات بارزة على طريق البعث الإسلامي المعاصر.

ويتأتى ذلك بالدراسة العميقة الشاملة للأصول القرآنية والنبوية التي تحدد القيم والمبادئ والغايات الإسلامية في ضوء ادراك تاريخي سليم للتجربة الإسلامية في الصدر الأول من الإسلام، مما يجلو الفكرة الإسلامية ويعيد اليها صفاءها وبساطتها وفعاليتها في الحياة الإنسانية بعيداً عن ضباب الرؤية التي خلفتها المسيرة التاريخية والغزو الفكري والحضاري من داخل كيان الأمة وخارجها بما حملته من جاهلياتها القبلية والشعوبية والفلسفات

الدخيلة من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب.

وفي تجلية القيم والمفاهيم والغايات والمبادئ الإسلامية، فإن الدراسة التاريخية والدراسة الفلسفية المقارنة لها أبلغ الأثر في توضيح الرؤية وتحديد الملامح الإسلامية، حيث أن وضوح الرؤية والتحديد القاطع للملامح الإسلامية شرط أساسي سابق لأي مساهمة إسلامية فعالة في مسيرة الحضارة الإنسانية.

ثانياً : توضيح **الآفاق المستقبلية** للعطاء الإسلامي من خلال فهم الواقع الحضاري المعاصر والمنحدرات السحيقة التي يندفع اليها.

وتحديد الدور الإسلامي للمستقبل من خلال توضيح احتياجات وسبل الأداء اللازمة للعمل الإسلامي المعاصر لحمل أمانة الخلافة وتعديل المسار الحضاري المادي الغربي المعاصر في سبيل تجدد الحضارة وتعديل مسارها وتوفير الوريث المؤهل لاخصابها.

ثالثاً : الوعي الصحيح **للانجاز الإسلامي الحضاري التاريخي** من حيث الدلالات الصحيحة لتلك الإنجازات ورؤيتها بمنظار إسلامي والتعرف على جوانب القوة الحقيقية في تلك المنجزات، وبشكل مفاهيمي مقارن، وما يعود إلى ذلك من دراسة أسباب قيام وانحطاط الحضارة الإسلامية تاريخياً. ولا شك ان قطاعاً هاماً من أبناء الأمة وشبابها في حاجة إلى إدراك المنجز الحضاري الإسلامي لاستعادة ثقته بنفسه في مواجهة آثار خطط التجهيل العلمي التي نجمت عن تبعية المؤسسات العلمية في العالم الإسلامي للمؤثرات والثقافة الأجنبية التي ـ ان لم تعاد الإسلام ـ فهي لا تحفل به وتتجاهله، وكذلك لتصحيح فهم هذا المنجز ودلالاته الصحيحة من واقع المنطلق الإسلامي لا المنطلقات النقيضة والمناجزة.

رابعاً : الفهم العلمي الصحيح **للأسس الفكرية والفلسفية والعقدية التي تقوم عليها الحضارات الكبرى** في التاريخ، وخاصة الحضارة المادية المعاصرة، وبشكل علمي يوضح جوانب هذه الحضارات ويفسر للشباب المسلم معنى صرخات الذعر التي تصدر عن عدد متزايد من قادة الفكر الغربي.

ومعنى الأمراض التي يعاني منها المجتمع المعاصر، رغم كل القدرة المادية المتوفرة، بل وبسبب هذه القدرة أحياناً.

وهذا الادراك الصحيح غير المنفعل للحضارات المواجهة والمعاصرة أمر ضروري لتفهم طبيعة المهمة الملقاة على الأمة من خلال رسالة الإسلام.

خامساً : دراسة **للواقع الحضاري المعاصر للعالم الإسلامي** والأسباب التي وضعته في موضعه ومخاطر هذا الوضع، والمنطلقات إلى تصحيح مسار الأمة من التبعية والضعف والهوان والفساد إلى الأصالة والقوة والعطاء والريادة.

سادساً : **الموقع الخاص للشباب** في الفهم والتعلم السليم للمنطلقات الصحيحة والتأهيل الخاص لحمل رسالات التطور والتغيير، والقدرة على تنفيذ مخططات العمل وبناء المؤسسات واقامة الحضارات وتصحيح مساراتها.

هذه الأبعاد الستة هي التي نرجو أن يوفق الأخوة الباحثون في معالجتها منفردة ومجتمعة، بحيث تعطي مجموع الأبحاث والمحاضرات والندوات والمناقشات رؤية واضحة متكاملة فذة ـ ان شاء الله ـ سيما وان شباب الأمة وقياداتها لا تزال في أمسّ الحاجة إلى توفيرها لهم ووضع أرجلهم على خط مسارها، في محاولاتهم الدائبة لخدمة الأمة والدعوة واستعادة القوة والعزة والكرامة والتخلص من عوامل الانحطاط والفساد في كيان الأمة، والتدهور والانهيار والآلام في مسيرة الحضارة.

وفيما يلي عدد من الأبحاث المقترحة للمعالجة نترك أمر تبني جانب أو جوانب منها للأخ المفكر المشارك في هذا اللقاء :

١ ـ القيم الإسلامية الكبرى التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي والحضارة الإسلامية.

٢ ـ معالم الشخصية الإسلامية الفاعلة في الفرد والجماعة.

٣ ـ دراسة للنصوص القرآنية والنبوية في قيم مسار الحضارات ومفهومها وأسس تقويمها.

٤ ـ سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام : دراسة في الفكر والقيادة الحضارية.
٥ ـ عصر صدر الإسلام : قاعدة الانطلاق الحضاري الإسلامي.
٦ ـ التلوث والانحراف الحضاري في مسار الحضارة الإسلامية.
٧ ـ عوامل انحطاط الحضارة الإسلامية.
٨ ـ الأسس الفكرية للحضارة : دراسة مقارنة للحضارة الإسلامية والحضارة المادية الغربية.
٩ ـ المأساة الإنسانية : دراسة لآفات الحضارة الإسلامية.
١٠ ـ تجارب التغريب الفاشلة في المجتمع الإسلامي المعاصر : دارسة تاريخية للمحاولات المتكررة الفاشلة للتقليد منذ انحطاط الدولة العثمانية.
١١ ـ التجارب الإنسانية في بناء الحضارات : درس في الأصالة ووضوح الرؤية الايديولوجية.
١٢ ـ واقع المجتمعات الإسلامية الحديثة : دراسة من واقع المجتمعات الإسلامية وآفاتها وتجاربها وموقعها من الإسلام.
١٣ ـ التحديات الحضارية المعاصرة للأمة الإسلامية.
١٤ ـ القيم الإسلامية ومدى صلاحيتها للظروف المتغيرة.
١٥ ـ الانجازات الحضارية الإسلامية التاريخية في مختلف العلوم والفنون : دراسة تحليلية في فهم المنطلقات والدلالات لتلك المنجزات.
١٦ ـ المعالم الكبرى للحضارة الإسلامية الحديثة.
١٧ ـ التحدي القائم بين الحضارة الحديثة والشباب المسلم.
١٨ ـ الحضارة الإسلامية والحضارة الحديثة، دراسة مقارنة.
١٩ ـ دراسة للقيم الإسلامية وتطبيقها في العصور الحديثة.
٢٠ ـ قيم المجتمع : هل هي ثابتة أم قابلة للتغير ـ دراسة لبعض القيم الإسلامية.
٢١ ـ أثر الاتجاهات الحديثة على الشباب المسلم ووسائل مناهضتها.
٢٢ ـ الإسلام والوفاء بحاجات الإنسان الحديث.

٢٣ ـ الشباب والتغير والبناء الحضاري.
٢٤ ـ العقبات والتحديات أمام الحضارة الإسلامية :
دور الشباب، من وجهة نظر التاريخ، في مختلف الحضارات.
٢٥ ـ كيف نعين الشباب في خدمة الأمة.
٢٦ ـ دور الشباب في بناء الأمة والحضارة.
٢٧ ـ اسهام الإسلام في خدمة الإنسانية.
٢٨ ـ الإسلام علاج لأمراض البشر.
٢٩ ـ أهمية النفس والبحث في حضارة الإسلام.
٣٠ ـ كيف ننهض بالمجتمعات المسلمة.
٣١ ـ فاعلية العمل الإسلامي :
دراسة في أولويات العمل الإسلامي ومجالات الدعوة.
٣٢ ـ الإنسان غاية الحضارة :
دراسة مقارنة للإنسان في الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية.
٣٣ ـ ماهية الحضارة وموقع الحضارة الإسلامية.
٣٤ ـ حضارة الغد الإسلامية :
غاياتها وسبل تحقيقها.
٣٥ ـ تقاعد المسلمين عن الحضارة الإسلامية.
٣٦ ـ دراسات حصر تحليلية لكل ما كتب عن الحضارة الإسلامية باللغات العالمية ولغات الشعوب الإسلامية الكبرى.

أخي الكريم..

هده عناوين تعطي بعض قضايا الموضوع وتتداخل فيما بينها.. والأمل أن تأتي جملة المشاركات على عدة أشكال :

١ ـ المحاضرات العامة :

وهي عدد من المحاضرات العامة يشترك في الاستماع إليها الجمهور العام من المثقفين والطلاب والأهالي، ولذلك يراعى في اختيارها، إلى جانب سمة العمق الفكري، سمة التبسيط في العرض والشمول، وأن تكون في قضايا وبأسلوب يحسن الجمهور تلقيه وهضمه.

٢ ـ الأبحاث العلمية :

وتتناول الأبحاث القضايا المتخصصة لتقدم فيها مادة علمية مركزة ومساهمة فكرية مبتكرة وسد نقص علمي ثقافي في وجه هام من وجوه الموضوع، ويرجى ألا يهمل الجانب العملي والتطبيقي والنظرة الواقعة والأولويات الأساسية للعمل الإسلامي في معالجة تلك الأبحاث

٣ ـ النـدوات :

والندوات أسلوب للاستفادة من أكثر من عنصر علمي في قضية هامة يتكامل عرضها للموضوع ويترك مجالاً للتفكير والتفاعل بين المتحدثين أنفسهم مع الجمهور بحيث تعكس هذه العروض والمناقشات أولويات العاملين والمستمعين وتتمخض عن خبرات ونظرة أشمل وأعمق في القضايا المطروحة.

٤ ـ لجـان العمـل :

وخلال أعمال اللقاء، بما في ذلك العمل الفكري، فانه ستتكون لجان عمل لمناقشة أهم الموضوعات المطروحة على اللقاء، ومنها الجوانب الهامة والعملية للموضوع الفكري، وتكون مهمة المشرف على أي لجنة من لجان العمل فتح باب الاقتراحات للمساهمة في الاستفادة مما تم عرضه في اللقاء وفي سبيل حلول ومقترحات عميقة للقضايا المطروحة. وعضوية اللجان مفتوحة لكافة المشاركين في اللقاء بحسب أولوية اهتماماتهم والمقترحات التي يودون ابداءها.

والمطلوب من الكتّاب والمدعوين للمشاركة الفكرية في هذا اللقاء هو التفضل في خلال شهر من تاريخ هذا الخطاب بارسال موافقتهم على المشاركة في هذا اللقاء، والموضوع الذي يرغب كل منهم تناوله، والخطوط الرئيسية لبحثه، وذلك حتى يمكن للجنة المكلفة بالموضوع الفكري للقاء التنسيق بين هذه المواضيع ومنع التكرار في المعالجات وإقرار خطة البحث وتقديم الاقتراحات المناسبة للمشاركين حتى يأتي اللقاء بالصورة المشرقة التي يتوقون اليها.

كما أن الندوة على أتم استعداد لتحمل أي تكاليف تنتج عن العمل في الدراسات التحليلية لحصر المادة المكتوبة عن الحضارة الإسلامية بأي لغة أو لغات يرغب أي أخ كاتب في القيام بها أو لمن يرشحه ـ بعد موافقة اللجنة على الترشيح ـ كما سيكون موضع سرور لنا أن تقدر اللجنة مكافأة مجزية للجهد الثمين المبذول في مثل تلك الأبحاث المجهدة والتي تتطلب نوعاً نادراً من المعرفة والاطلاع والقدرة التحليلية.

اننا نرجو، بالكتابة المبكرة اليكم، أن يتوفر الوقت الكافي للجنة لكي تتمكن من تحديد أسماء ومواضيع الأخوة المشاركين من المفكرين، والاتفاق معهم على خطة البحث والتوثق من جدية العمل والفائدة المرجوة.

كما نرجو أن يتوفر لكم بذلك الوقت اللازم للمشاركة الطيبة في مثل هذا الموضوع الهام لمثل هذه النخبة القيادية المختارة.

علماً بأن كل الاخوة الكتّاب الذين تقرر اللجنة مشاركتهم الفكرية في أعمال اللقاء ستوفر لهم الندوة تذكرة سفر مرجعة من مقر اقامتهم إلى المملكة العربية السعودية وكافة تكاليف الاقامة والانتقال خلال أيام اللقاء وزيارة البيت الحرام والمسجد النبوي الشريف، كما تعلن استعدادها لدفع أي نفقات يتكبدها الأخ المشارك لانجاز البحث المطلوب.

انه من الضروري لكل أخ مشارك في الناحية الفكرية أن يقدم إلى الندوة نصاً مكتوباً بالموضوع الذي يتم الاتفاق على الكتابة فيه وذلك من أجل نشره ضمن أعمال اللقاء، حيث قد تم بحمد الله نشر كل أعمال اللقاء الأول والثاني، وأعمال اللقاء الثالث تحت الطبع ونرجو أن تكون بين أيدي الأخوة القراء في وقت قريب بإذن الله.

ولا بد أن تتلقى الندوة ذلك النص قبل موعد اللقاء بشهر واحد على الأقل كي تتمكن ـ بإذن الله ـ من طبعه واعداده وتوزيعه خلال أيام اللقاء لتسهيل متابعة المشاركين في أعمال اللقاء استكمالاً للفائدة.

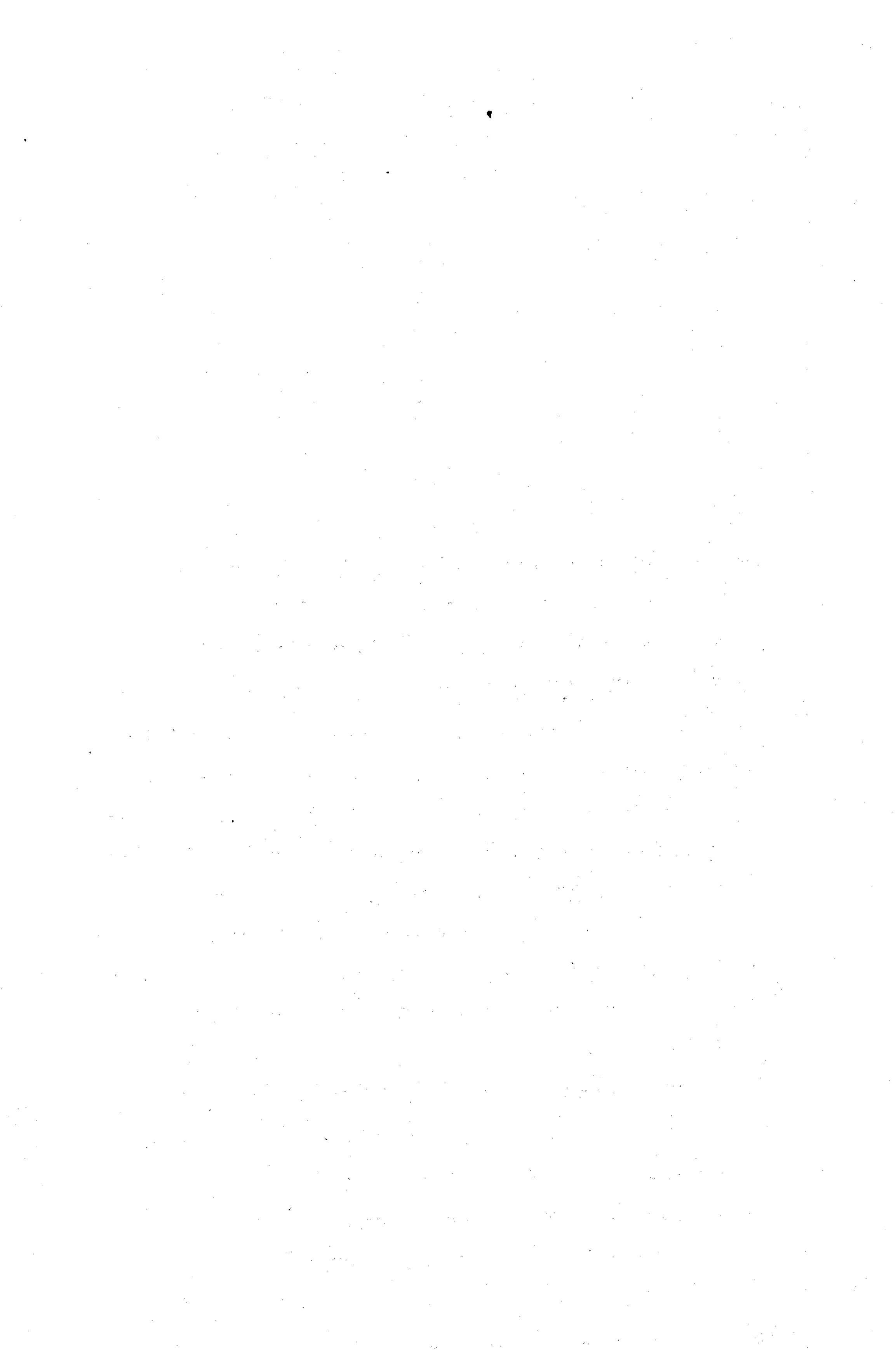
اننا كلنا أمل في كريم استجابتكم، وانجاح اللقاء بمشاركتكم الفكرية، وفي اغناء الفكر الإسلامي والاستجابة للحاجة الإسلامية الماسة في

هذا الموضوع وفي لقاء هذه النخبة من الشباب والتلاحم معهم في مهمتهم الكريمة في خدمة الأمة والدعوة والشباب المسلم في انحاء الأرض.

وفقكم الله واعانكم ونفع بكم الإسلام والمسلمين..

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

الدكتور عبدالحميد أبوسليمان



كلمة إلى الشباب المُسْلم

للدكتور أحمد عبد القادر باحفظ الله
الأمين العام السابق للندوة العالمية للشباب الإسلامي

---

(٥) انتخب الدكتور أحمد عبد القادر بَاحفظ الله أميناً عاماً للندوة في نهاية أعمال اللقاء الرابع ثم تلاه د. توفيق أحمد القصير في شغل منصب الأمين العام للندوة في الدورة الحالية.



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ...
أيها الأخوة الكرام.. شباب الأمة الإسلامية في كل مكان..

يسرني والأخوة العاملين في الندوة أن أقدم لكم ثمرة جهد فكري وروحي في قضية من أهم القضايا التي تهم الشباب والأمة وهي : « الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم »..

أيها الشاب المسلم.. ان الثمرة التي نقدمها لك اليوم هي خلاصة أبحاث ودراسات ومقترحات وأفكار توفر عليها نخبة من خيرة المفكرين الإسلاميين ومن قيادات الشباب الإسلامي من شتى أنحاء العالم.

أيها الاخوة الشباب.. انكم أمل حاضر الأمة الإسلامية وركيزة مستقبلها، وعليكم تقع مسئولية الغد وقيادة الأمة نحو الخير والحق، كما دعا إليه القرآن الكريم في قول الله تبارك وتعالى : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »..

هذه هي القضية الأساسية التي تكشف القانون الكوني وسنة الله في خلقه للاصلاح وإعمار الأرض لا تتغير ولا تتبدل.. ان حياة الأمم مرهونة بارادتها للحياة وكذلك قوتها مرهونة بتمسكها بأسباب الحق والقوة الصحيحة.. ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.. ان مستقبل

الأمة الإسلامية مرهون بعزم الشباب على أخذ نفسه وأمته بالإسلام، منهاج شامل متكامل للحياة، وطريق عمل لحاضر ومستقبل الأمة يعز ويسعد فيه المسلم باسلامه، ويتحقق فيه لغير المسلم أمنه وطمأنينته، وما ذلك إلا تصحيحاً لأفكار وأوضاع عكست في أوقات غلبت فيها الأمة الإسلامية على أمرها.

أيها الشباب المسلم.. ستجدون في السطور التي بين أيديكم وجبات فكرية دسمة وزاداً إيمانياً عميقاً ومن ورائه نرجو الله سبحانه أن يحقق هدفنا في تزويد الشباب المسلم بما يعمق فكره ومثله وايمانه بالله حتى يحكم شرع الله في أرض الله، ويقود البشرية إلى ما فيه خيرها، ويحقق للانسانية حضارة إسلامية طاهرة نظيفة، وينتشلها من حضيض هذه الحضارة المادية الماجنة الملحدة، فذلك أصبح من مسئولياتنا التاريخية ومسئولياتنا أمام الله.. « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون »..

والله سبحانه أسأل أن يهدي قلوبكم، ويمدكم بعونه وتوفيقه، ويهيىء لكم من أمركم رشداً..

الأمين العام

للندوة العالمية للشباب الاسلامي

د. أحمد عبد القادر باحفظ الله


الإسلام والحضارة
ودور
الشباب المسلم



الباب الأول

الأسس النظرية للحضارة الإسلامية

الفكر الحضاري لدى عمر بن الخطاب في أصول السياسة والإدارة الحديثة
للدكتور : سليمان محمد الطماوي

الفكر الحضاري لدى فقهـاء المسلمين
للأستـاذ : محمد عبد الله السمان

الحضـارة الإسلاميـة والإنســان
للدكتور : علي عبدِ الحليم محمود

الإسلام والتطور البشري (نموذج توضيحي)
للدكتور : عطيـة سويلـم

الحضارة الإسلامية بين التحدي والتعطيل
للأستـاذ : محمد علي ضنـاوي

الفكر العلمي الإسلامي والحضارة الإنسانية
للدكتور : عبد الحليم منتصر

من قضايا الاستدلال في القرآن (أوأهمية المناقشة والحوار في القرآن الكريم)
للدكتور : عبد الله الأوصيف

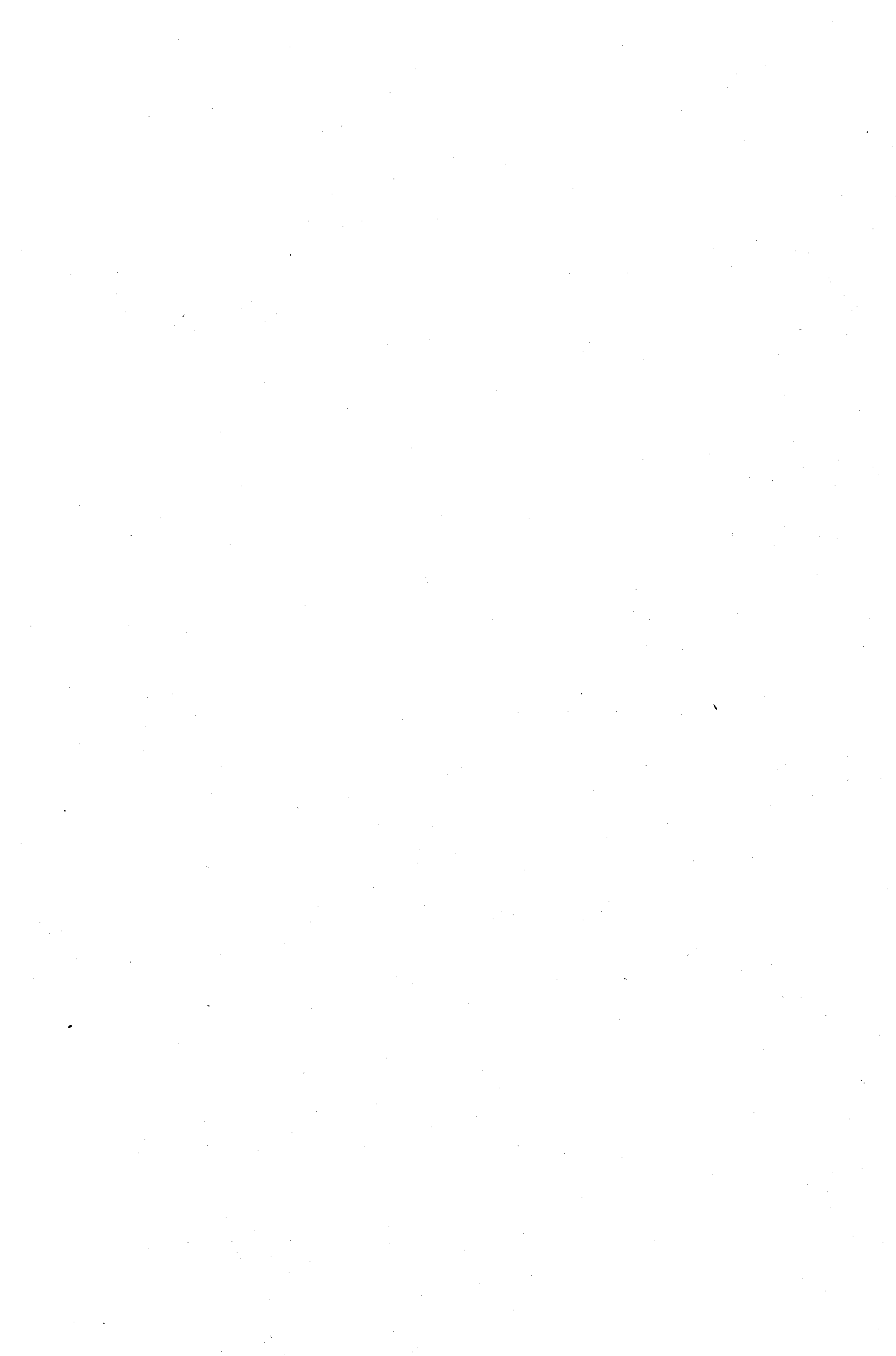
ماهية الحضارة وموقع الحضارة الإسلامية
للشيـخ : عثمان عبد القادر صافي

الصـراط الحضـاري
للدكتور : محمود محمد بابللي

هل عبادة الله واجب علمي حيوي، وما مفهومها في الإسلام
للدكتور : محمد معروف الدواليبي

القيم الكبرى التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي والحضارة الإسلامية

للدكتور محمد علي الهاشمي
الأستاذ بجامعة محمد بن سعود الإسلامية



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد، فإن رقي المجتمعات لا يقاس بما حققت من منجزات العلم، وما اكتشفت في عالم المادة من مخترعات فحسب، وإنما يقاس بهذا، وبشيء أهم منه، وهو سيادة القيم الإنسانية فيها، من عدل ومساواة وحب وتعاطف وإيثار وتضحية واستقامة ونظافة في التصور والسلوك والمعاملة.

والمجتمع الإسلامي يقوم على عديد من القيم، نطقت بها نصوص الإسلام الحنيف، من قران كريم وحديث شريف، وجعلت اعتناقها ديناً يثاب المرء عليه ويحاسب على تركه، فاستطاعت بذلك أن تجعل من الفرد المسلم الصادق نموذجاً فذاً للإنسان الاجتماعي المهذب التقي الخيِّر النظيف، وأن تجعل من المجتمع الإسلامي مجتمعاً فذاً من النمط الراقي الرفيع.

ذلك أن القيم في المجتمع الإسلامي تستند إلى أساس متين : إلى الإيمان بالله، ومن ثم كانت ثابتة راسخة دائمة، لا تعصف بها الأهواء، ولا تهزها الأزمات ولا تؤثر فيها المغريات، ولا يغير في جوهرها تطوّر المجتمعات وتتابع الدول، ولا مرور الأزمان وتعاقب العصور، ما دامت (لا إله إلا الله محمد رسول الله) سائده بمعناها وحقها في حياة المسلمين.

ومن أهم هذه القيـم :

١ ـ العـــدل :

وهو من القيم الأصيلة الراسخة في المجتمع الإسلامي، وانه لعدل فذ فريد في تاريخ الأمم والشعوب، شهد بذلك كل من سمع به من سيرة الحكام والقضاة المسلمين، أو اطلع على النصوص القاطعة التي أمرت به أمراً، لا مجال للترخيص أو الاجتهاد فيه : « إن الله يأمركم أن تؤدّوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل »(١).

وهو عدل مجرد دقيق خالص، لا يميل ميزانه بالود أو الشنآن، ولا يؤثر في نصاعته ميل إلى قرابة أو نسب : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألّا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون »(٢) « وإذا قلتم فاعدلوا، ولو كان ذا قربى »(٣).

ولقد ضرب رسول الله ﷺ المثل الأعلى في العدل حينما جاء أسامةُ ابن زيد يستشفع في المرأة المخزومية التي سرقت، وعزم رسول الله ﷺ على قطع يدها، فقال له : أتشفع في حد من حدود الله يا أسامة ؟ والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها »(٤).

إنه العدل العام المطلق الذي يطبق على الكبير والصغير، والأمير والسوقة، والمسلم وغير المسلم، ولا يفلت من قبضته أحد، وهذا مفرق الطريق بين العدل في المجتمع الإسلامي وغيره من المجتمعات. ومما وعاه التاريخ، وأنصتت له بإجلال محافل العدل في العالم كله عبر القرون، وقفةُ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه بجانب خصمه اليهودي الذي سرق درعه، أمام القاضي شريح، الذي لم يمنعه إكباره وإجلاله لأمير المؤمنين

---

(١) سورة النساء آية ٥٨.

(٢) سورة المائدة آية ٨.

(٣) سورة الأنعام آية ١٥٢.

(٤) رواه البخاري ومسلم.

أن يطلب منه البينة على سرقة اليهودي درعه، ولما لم يجد أمير المؤمنين البينة حكم القاضي لليهودي على أمير المؤمنين.

والتاريخ الإسلامي حافل بأمثال هذه الأخبار الدالة على سيادة الحق والعدل في المجتمع الإسلامي، وحرية القضاء واستقلاله في المحكمة الإسلامية. ورسالة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري في القضاء، التي حددت معالم الحق والعدل في الخصومات، لا تزال حتى اليوم من كنوز دساتير القضاء.

٢ ـ الشــورى :

وهي من القيم الكبرى في المجتمع الإسلامي، وليست الشورى فيه على غرار الشورى في المجتمعات الديمقراطية، فهذه شورى ابتدعها الإنسان، للتشاور في صيغة حكمه نفسه بنفسه، وشورى الإسلام للتداول بين أصحاب العقول الراجحة من أهل الحل والعقد للتوصل إلى الصورة المثلى في تطبيق حكم الله على البشر.

ومن ثم كانت الشورى في الإسلام مقدسة ؛ لأنها أمر رباني، لا يجوز لحاكم أن يعطلها، ليبسط سلطان طغيانه على الناس :

« وأمرهم شورى بينهم »[1].

« وشاورهم في الأمر »[2].

على حين يجوز للحاكم في الدول ذات الدساتير الوضعية أن يعطل الدستور، ويفرض الأحكام العرفية باسم ضرورات الأمن، ومن ثم يكون التسلط ويكون الطغيان.

ولأصالة الشورى في الإسلام، ولكونها ربانية المصدر، ما كان الحاكم المسلم التقي يجد غضاضة أن يسمع المعارضة تأتيه من أي فرد من أفراد الرعية، فيتقبلها بطيب خاطر، ويرد عليها بسماحة نفس، كما قال

---

(١) سورة الشورى آية ٣٨.

(٢) سورة آل عمران آية ١٥٩.

عمر للمرأة التي ردت عليه بشأن المهور : أخطأ عمر وأصابت امرأة » ؛ وكما قال أيضاً، إذ اعترضه أحد المعترضين : « لا خير فيكم إذا لم تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نسمعها ».

والشورى في الإسلام تستمد قيمتها من هدى الإسلام الحنيف، الذي لم يجعلها شورى الغوغاء وسفلة القوم من محترفي السياسة وتجارها، كما هو الحال في برلمانات اليوم ومجالس الشعب، وإنما جعلها شورى قاصرة على علية القوم من ذوي العقول الراجحة والكفاءات العلمية المتخصصة، كما يفهم من قول الرسول الكريم : « ليليني منكم أولو الأحلام والنهى »[1].

فإشارة الرسول ـ ﷺ ـ بتقديم أولى الأحلام والنهي ليكونوا خلفه في الصلاة ترشيح لهم ليكونوا من أهل الشورى والحل والعقد في المجتمع الإسلامي. وشتان ما بين شورى تعتمد في تكوينها على الشارع وما يضطرب فيه من طغام الخلق وسقاطهم وسفلتهم، وبين شورى تقوم على أعيان الفضل وغرر المجد وهامة الشرف والتقوى في المجتمع.

٣ ـ المساواة :

وهي من القيم الكبرى في المجتمع الإسلامي، وهي ليست وليدة اجتهاد فردي، أو نتاج تفكير فلسفي، وإنما هي مبدأ أصيل قرره الذي برأ الخلق والكون والحياة.

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم.. »[2].

إنها المساواة المنبثقة عن وحدة المنشأ من أبوين، تحدر البشر جميعاً منهما، فكلهم إخوة من أب واحد وأم واحدة، فلا مجال إذن لتعالي أخ على أخيه، وانها المساواة التي لا تفرق بين هذا الأخ وأخيه أياً كان لسانه ولونه وجنسه ؛ إذ ما كان هذا الاختلاف في اللغة واللون والجنس للتقاطع والتدابر والتفاضل، بل كان للتقارب والتعارف والتعاون، والاستفادة من

---

(١) رواه مسلم.

(٢) سورة الحجرات آية ١٣.

خصائص الأجناس والألوان واللغات في تلاحم أخوي يبغى عمارة الأرض وإثراءها بالخير.

ومن ثم لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأبيض على أسود، الناس كلهم في ميزان الإسلام سواء : « لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، إلا بالتقوى »[1].

« إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية[2] وفخرها بالآباء، مؤمن تقي[3] وفاجر شقي، أنتم بنو آدم، وآدم من تراب، ليدعَنَّ رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم، أو ليكونن أهون على الله من الجعلان[4] التي تدفع بأنفها النتن[5].

« الناس سواسية كأسنان المشط ».

وإذا ما تفاضل الناس في المجتمع الإسلامي، فإنما يتفاضلون بالتقوى والعمل الصالح، أي بما يسدون إلى الناس من خدمات، وما يقدمون لهم من نفع :

« الخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله »[6].

وإذا ما علمنا أن الإسلام قرر هذه القيمة في المجتمع الإسلامي منذ ظهوره، وأن الإنسانية التي لم تهتد بهدى الإسلام لا تزال تعاني إلى اليوم من مشكلة الطبقات، ومن معضلة الملونين والتفاوت الرهيب بينهم وبين البيض، أدركنا الخير العميم الذي بسطت الحضارة الإسلامية رداءه للإنسانية منذ خمسة عشر قرناً.

---

(١) رواه أحمد.

(٢) أي كبرها ونخوتها وفخرها.

(٣) أي الناس مؤمن تقي وفاجر شقي يعني أن الحسب لا مدخل له.

(٤) الجعلان : جمع جعل، وهي دويبة سوداء حقيرة.

(٥) رواه الديلمي عن أنس.

(٦) رواه البزار في مسنده عن أنس.

٤ ـ تكافـؤ الفـرص :

تكافؤ الفرص في المجتمع الإسلامي نتيجة حتمية لسيادة العدل والمساواة فيه : ذلك أن المجتمع الذي سوّى بين الناس جميعاً، وحكم بينهم بالعدل، فتح لهم بالتالي أبوابه ليلجها كل إنسان يعيش فيه، مشاركاً بناء الحضارة الإنسانية التي يظلها الإسلام، حسب طاقاته وقدراته ومواهبه.

ومن ثم تضافرت على إنشاء الحضارة الإسلامية كنوز الفكر الإنساني من جميع الأجناس والألوان واللغات، وانصبت في حياضها ثمرات قرائحه على مدى العصور والأزمان، فكانت حضارة إنسانية عامة لا تختص بجنس دون جنس ولا بلغة دون لغة، ولولا هذه النظرة الإنسانية الشاملة للمواهب البشرية لما وصلت الحضارة الإسلامية إلى الشأو الرفيع الذي وصلت إليه.

وساعد على مجرى الحضارة الإسلامية في هذا الطريق الإنساني اللاحب أن الإسلام دين البشرية جميعاً، وليس لأمة دون أمة : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين »[1]، وأنه كان يخاطب الناس جميعاً على اختلاف أجناسهم وأديانهم ولغاتهم بـ « يا أيها الناس » :

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً....... »[2].

ومن هنا كان الإنسان المواطن في المجتمع الإسلامي يجد طريق النبوغ مفتوحة أمامه، لا يعيقه عن ولوجه عائق من لغة أو دين أو قومية، أو فقر أو حطة نسب، كما نجد العوائق توضع اليوم في طريق النابغين الموهوبين في كثير من الدول، لأنهم ليسوا على دين النظام الحاكم، أو من قوميته، أو جنسيته، أو يقعد بهم فقرهم أو حطة نسبهم عن الوصول إلى تحقيق الأماني التي هفت إليها نفوسهم وتطلعت إليها مواهبهم وقدراتهم.

---

(١) سورة الأنبياء آية ١٠٧.

(٢) سورة النساء آية ١.

وليس أدعى إلى سعادة الإنسان في حياته من أن يرى مبدأ تكافؤ الفرص يظل مجتمعه، ويتيح لكل فرد فيه أن يفرغ جهده للوصول إلى تحقيق آماله الكبيرة في الحياة، وليس أهم من مبدأ تكافؤ الفرص في رقي المجتمعات وتطويرها، ودفع عجلة الحضارة الإنسانية إلى الأمام.

وتتسع دائرة تكافؤ الفرص في المجتمع الإسلامي، فتشمل كل وليد قبل ولادته، وذلك بتأمين الأبوين الصالحين القويين له، كيلا ينبت في منبت سوء وفقر وجهل وتخلف، على حين ينشأ غيره في بيئة صلاح وغنى وعلم وتقدم، فإنه لا تكافؤ في الفرص بين ناشئ في هذه البيئة وتلك، والفرصة ينبغي أن تكون متكافئة أو متقاربة على الأقل بين الناس في بيئاتهم الاجتماعية والعلمية والصحية، لتتفتح المواهب، وتَنموَ القدرات، وتنطلق الكفاءات في بناء الحضارة دونما مثبط.

٥ ـ المحبة والتآخي :

يتميز المجتمع الإسلامي بسيادة شعور المحبة والتآخي فيه، والحب الذي عرفه المجتمع الإسلامي بين أفراده لم يعرفه مجتمع بشري آخر. إنه الحبِ الأخوي الصادق الذي استمد صفاءه وشفافيته من مشكاة الوحي وهدى النبوة، فكان نسيجاً وحده في العلاقات البشرية، وكانت آثاره في سلوك الإنسان المسلم فريدة في تاريخ المعاملات.

ذلك أن الرابطة التي تربط المسلم بأخيه، مهما كان جنسه ولونه ولغته، هي رابطة الإيمان بالله : « إنما المؤمنون اخوة »[1]. وأخوة الإيمان أوثق روابط النفوس، وأمتن عرى القلوب، وأسمى صلات العقول والأرواح.

فلا عجب أن تثمر تلك الأخوة الفريدة نمطاً من الحب عجيباً في سموه ونقائه وعمقه وديمومته، يسميه الإسلام الحب في الله، ويجد المسلم الصادق فيه حلاوة الإيمان : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن

---

(١) سورة الحجرات آية ١٠.

يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النار »[1].

ولقد جاءت الأحاديث الشريفة تترى، ترفع من مقام المتحابين في الله وتصور منزلتهم العالية التي أعدها الله لهم في جنته، والشرف الرفيع الذي يسبغه عليهم يوم يقوم الناس لرب العالمين.

من هذه الأحاديث حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، ومنهم : « **رجلان تحابّا في الله، اجتمعا عليه وتفرّقا عليه** »[2].

ويؤكد الرسول الكريم في حديث آخر أن هذه المحبة بين المؤمنين شرط من شروط الإيمان الذي يدخل صاحبه الجنة، وذلك فيما رواه الإمام مسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابّوا، أولا أدلكم على شيءٍ إذا فعلتموه تحاببتم.. أفشوا السلام بينكم »[3].

لقد أدرك النبي الكريم بثاقب نظرته التربوية التي استقاها من تأديب الله إياه، أنه لا يستل سخائم الحقد من الصدور، ولا ينتزع أدران التنافس والحسد من النفوس، إلا أخوة صادقة عالية، تسود حياة المسلمين، وتقوم على المحبة والتواد، والتناصح والألفة والبشر، وينتفي منها الكيد والغل والحسد والتجهم والتباغض، ولذلك دعا إلى إفشاء السلام بين الإخوة، ليكون مفتاح القلوب للمحبة والتلاقي على الخير، وكان صلوات الله عليه يكرر هذا المعنى على مسامع أصحابه، متوخياً إلقاء بذرة المحبة في القلوب، وتعهدها بالرعاية، حتى تثمر ذلك الحب الوضيء الكبير الذي أراده الإسلام للمسلمين.

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه مسلم.

ذلك أن الحب في الله، لا لشيء آخر في هذه الحياة الحافلة بالمطامع والمنافع والشهوات، مرتقى صعب، لا يستطيعه إلا من صفت نفوسهم، وسمت أرواحهم، وهانت عليهم الدنيا بجانب مرضاة الله. فلا غرو أن يعد الله لهؤلاء من المكانة والنعيم ما يليق بسموهم في الدنيا وارتفاعهم على شواغلها وحطامها، نجد ذلك فيما رواه معاذ عن النبي ﷺ قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله عز وجل : المتحابون في جلالي لهم منابر من نور، يغبطهم النبيون والشهداء »[1].

بل لا غرو أن يحبُوَ الله عباده المتحابين فيه بما هو أجل وأسمى من تلك المنزلة وذلك النعيم، يحبوهم حبه الغالي، الذي تتقطع دونه الأعناق وتنتهي عنده معسولات الأماني، وذلك في حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ : أن رجلاً زار أخاً له في قرية أخرى، فأرصد الله تعالى على مدرجته[2] مَلَكاً فلما أتى عليه، قال : أين تريد ؟ قال : أريد أخاً لي في هذه القرية. قال : هل لك عليه من نعمة تربها عليه ؟[3] قال : لا، غير أني أحببته في الله تعالى. قال : فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه »[4].

ولقد كان الرسول الكريم صلوات الله عليه يدرك ما لهذا الحب النقي القوي من أثر في بناء المجتمعات والأمم، فكان لا يدع مناسبة تمر إلا ويدعو المسلمين إلى التحابب ويأمرهم أن يعلنوا عن هذا التحابب، لتنفتح مغاليق القلوب، وتشيع المودة والصفاء بين الصفوف. فعن أنس رضي الله عنه أن رجلاً كان عند النبي ﷺ، فمر رجل به فقال : يا رسول الله إني لأحب هذا. فقال له النبي ﷺ : « أأعلمته ؟ » قال : لا. قال : « أعلمه » فلحقه فقال : إني أحبك في الله، فقال : أحبك الله الذي أحببتني له »[5].

---

(١) رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح.

(٢) أي طريقه.

(٣) أي تقوم بها.

(٤) رواه مسلم.

(٥) رواه أبو داوود باسناد صحيح.

بهذه المحبة الناصعة بنى رسول الله ﷺ جيل الإسلام الأول الذي بلّغ رسالة السماء إلى الأرض، وكان القاعدة الصلبة التي حملت صرح الإسلام الشامخ للناس.

وبدون هذه المحبة الصافية التي تفرد بزرعها الإسلام في القلوب، ما كان المسلمون الأول ليستطيعوا التماسك والصمود في تحمل تبعات الجهاد، وتقديم التضحيات الجسيمة في بناء دولة الإسلام ونشر أعلامه في الخافقين.

وبهذه المحبة الصادقة العجيبة استطاع رسول الله ـ ﷺ ـ أن ينشئ مجتمع المؤمنين الأمثل في تاريخ الإنسانية، الذي صور تماسكه العجيب أروع تصوير بقوله : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً »[١] وبقوله أيضاً : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى »[٢]، وبقوله أيضاً : « المسلمون كرجل واحد، إن اشتكت عينه اشتكى كله، وإن اشتكى رأسه اشتكى كله ».

٦ ـ الكـرم :

الكرم خلق إسلامي أصيل، يُجمِّل صاحبه، ويسمو به، ويحبب الناس ويدنيهم منه. والكرم الإسلامي كرم نبيل موجه دوماً في سبيل الله لا في سبيل المنافع والغايات، أو الزهو والمباهاة. ومن ثم كان من وصف الأبرار الذين عدد الله صفاتهم في سورة الدهر أنهم أجواد كرماء لا يبتغون بكرمهم جزاء ولا شكورا : « ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً، إنما نطعمكم لوجه الله، لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً »[٣].

وإنه لمرتقى صعب عسير أن ينفق الإنسان ماله، لا يبتغي من وراء إنفاقه فائدة تعود عليه، ولا شكراً يوجه إليه. وقد راض الإسلام الإنسان على بلوغ هذا المرتقى العالي مرغباً إياه بما أعد له من جزاء عظيم مضاعف يوم

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم.

(٣) سورة الدهر آية ٨ ، ٩.

الحساب : « مَثَلُ الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل، في كل سنبلة مئة حبة، والله يضاعف لمن يشاء، والله واسع عليم »[1] فإذا بأبي بكر ينزل عن ماله كله في سبيل الله، وينفق عبد الرحمن ابن عوف ماله كله أربع مرات في حياته، والنماذج التي بلغت ذلك المستوى العالي في الكرم كثيرة في تاريخ الإسلام والمسلمين.

كان الاتصاف بالكرم من أحب الأعمال الصالحة إليهم، ولم يكن كرمهم مقصوراً على البذل في سبيل الله ساعة العسرة، بل كان الكرم خليقة ملازمة لهم في الحرب والسلم، والشدة والرخاء، يصور ذلك قول علي رضي الله عنه : « لأن أجمع نفراً من إخواني على صاع أو صاعين من طعام، أحب إلي من أن أخرج إلى سوقكم فأعتق رقبة »[2].

ذلك أن مثل هذه اللقاءات الودية على الطعام، توطد أواصر المحبة بين الإخوان والأصدقاء، وتقوي روح التعاطف فيهم، وتشيع في حياتهم رباط العاطفة الإنسانية الذي افتقده إنسان الحضارة المادية الحديثة، بعد أن أصبح لا يهتم إلا بنفسه ومصلحته، فإذا هو يعاني خُواءً روحياً وجفافاً عاطفياً، نتج عنهما شعور عميق بالحرمان من الصداقة والأصدقاء المخلصين. وما اهتمامه باقتناء الكلاب، وإقباله على تدليلها والعناية بها، إلا تعويض عما فقد من ري العاطفة الإنسانية الذي جففته في نفسه الفلسفة المادية التي اتخذها ديناً له، وإطاراً يتحرك ضمنه في متقلبه ومثواه. فقد جاء في تقرير نشره أحد الخبراء في تربية الكلاب في الغرب أن في انكلترا خمسة ملايين كلب، وفي فرنسا سبعة ملايين كلب، تعيش مع أصحابها كأنها من أقاربهم، ولم يعد غريباً في مطاعم باريس ولندن أن تشاهد الكلب وصاحبه يتناولان طعامهما على مائدة واحدة. ولما سئل مسؤول بجمعية رعاية الحيوان بباريس : « لماذا يعامل الفرنسيون كلابهم مثل ما يعاملون به أنفسهم ؟ » أجاب : « لأنهم يريدون أن يُحبّوا، ولكنهم لا يعثرون بين الناس على من يحبونه ».

---

(١) سورة البقرة آية ٢٦١.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد.

إن الإنسان المادي في الغرب أو في الشرق لم يعد يجد الإنسان الصديق الوفي الودود في مجتمعه ليمنحه حبه وعاطفته، فاتجه إلى هذه الحيوانات التي وجد فيها من الألفة والوفاء أكثر مما وجد في الناس الذين حوله.

فهل بعد هذا من ارتكاس عاطفي يهوي بالإنسان، فيجعله أيضاً أليف الحيوان، بعد فقده إشراقة الهدى ونعمة الإيمان ؟.

٧ ـ الإيثـــار :

إن أخوّة الإيمان ليست شعارات ترفع، ولا تبجحاً يقصد به الإعلان والدعاية، وإنما هي رابطة مقدسة، لها التزاماتها وتكاليفها وحقوقها، يعرف هذا من آمن بالله واليوم الآخر حق الإيمان، وتمثل حقائق الإسلام حق التمثل. وإننا لنجد أثر هذا الإيمان وثمرة هذا التمثل في صنيع الأنصار الذين ضربوا المثل الأعلى في الحب والإيثار لإخوانهم المهاجرين حين قدموا عليهم مهاجرين بدينهم، لا يملكون شيئاً، فقدَّم لهم الأنصار كل شيء، حتى كان أحدهم يقول لأخيه : هذا مالي فخذ شطره، وهاتان زوجتاي فانظر أعجبهما إليك فسمها لي أطلقها لتكون زوجة لك بعد انقضاء عدتها. وكان الأخ المهاجر يقابل عاطفة أخيه الأنصاري، بأحسن منها، فيقول له : بارك الله لك في أهلك ومالك، ما لشيء من هذا في نفسي حاجة، ولكن دلوني على السوق لأعمل.

وكان الأنصاري يستضيف أخاه من المهاجرين، وليس في بيته من الزاد إلّا قوت صبيانه، فيؤثره على نفسه وعياله، قائلاً لزوجته : نوّمي صبيانك وأطفئي السراج، وقدمي ما عندك للضيف، ونجلس معه إلى المائدة، نوهمه أننا نأكل معه، ولا نأكل. ويجلسون إلى المائدة، ويأكل الضيف وحده، ويبيت الزوجان طاويين. ويغدو الأنصاري على النبي ﷺ فيقول له : « لقد عجب الله من صنيعكما الليلة »[1].

وبلغ من إيثار الأنصار للمهاجرين ومواساتهم لهم بأموالهم أنهم قالوا

---

(١) متفق عليه.

للنبي ﷺ : اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل، قال : لا. فقالوا : تكفوننا المؤونة[1] ونشرككم في الثمرة. قالوا سمعنا وأطعنا[2].

وقد أكبر المهاجرون صنيع إخوانهم من الأنصار، فقالوا للنبي ﷺ : يا رسول الله : ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل، ولا أحسن بذلاً من كثير، لقد كفونا المؤونة وأشركونا في المهنأ[3]، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله. قال : لا، ما أثنيتم عليهم، ودعوتم الله لهم[4].

وحسب الأنصار ثناء الله عليهم، وتنويهه بحسب صنيعهم، إذ أنزل فيهم قرآناً يتلى، فيحكي قصة إيثارهم الفريد على وجه الزمان، ويخلدهم نماذج واقعية حية رفيعة للتحرر من شح النفوس : « والذين تبوءُوا الدار والايمان من قبلهم، يحبون من هاجر إليهم، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، ويؤثرون على أنفسهم، ولو كان بهم خصاصةٌ[5]، ومن يُوقَ شحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون »[6].

وستبقى صورة الأنصار الوضيئة في القرآن الكريم منار هداية واشعاع للإنسانية الضاربة في المطامع والأثرة والشح والإمساك، ما أقبل ليل وأدبر نهار، ودعي الناس للبذل والسخاء والإيثار.

لقد أدرك الأنصار رضوان الله عليهم ما تعنيه أخوة الإيمان حتى آخى الرسول ﷺ بينهم وبين المهاجرين، فكانوا مؤمنين حقاً، أحبوا لإخوانهم ما أحبوا لأنفسهم، ـ كما سمعوا من رسول الله ﷺ ـ فلم يمسكوا عنهم شيئاً من حطام الدنيا، بل نزلوا عن شطر ما يملكون لإخوانهم طائعين مختارين، طيبة بذلك نفوسهم، راضية قلوبهم، وكانوا في أول الهجرة يورثون المهاجرين دون أرحامهم، ليقوموا بحق الأخوة التي رفع لواءها فيهم رسول الله ﷺ، يشهد لذلك الحديث الذي رواه البخاري عن ابن عباس، قال :

(١) أي تساعدوننا في زراعة البساتين.
(٢) رواه البخاري.
(٣) أي الهنيء والذي يأتيك بلا مشقة.
(٤) أخرجه الإمام أحمد.
(٥) أي فاقــه.
(٦) سورة الحشر آية ٩.

« كان المهاجرون حين قدموا المدينة يرث الأنصاريُّ المهاجريّ دون ذوي رحمه للأخوَّة التي آخى النبي ﷺ بينهم، فلما نزلت « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض »، نسخ الميراث.. وبقي النصر والاخاء والايثار والمساواة.

ولقد بقيت روح الإيثار هذه سارية في مجتمع المسلمين عبر القرون، وتاريخنا في القديم والحديث مليء بالشواهد على إيثار المسلمين وحبهم لإخوانهم ما أحبوا لأنفسهم، ويحضرني في هذا المقام ما يتناقله شيوخ من الجيل السابق من الأحياء عن التجار في بلاد الشام، ممن تجمعهم سوق واحدة، كسوق العطارين وسوق الصباغين، وسوق الحبالين وغيرها من الأسواق المسقوفة القديمة، كان أحدهم إذا سبق إليه مشتر فاشترى منه بضاعة، ثم جاءه مشترٍ ثان، وكان جاره لم يستفتح نهاره ببيع بعد ـ قال له بلطف : اذهب واشتر ما يلزمك من جاري، فإني قد بعت، وهو لم يبع بعد.

يا لله ! كم تبدو الحياة بهيجة شائقة ممتعة في ظلال هذا الإخاء وهذا التعاطف وهذا الإيثار ! وكم يبدو الأحياء سعداء حين تسري فيهم روح الإسلام، وتسود في معاملاتهم قيمه ! إنهم حينئذ يعيشون في سمو ما وصل إليه الإنسان حين استظل بهذا الدين، الذي علمه أن « الدين النصيحة »[1]، وأنه « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »[2].

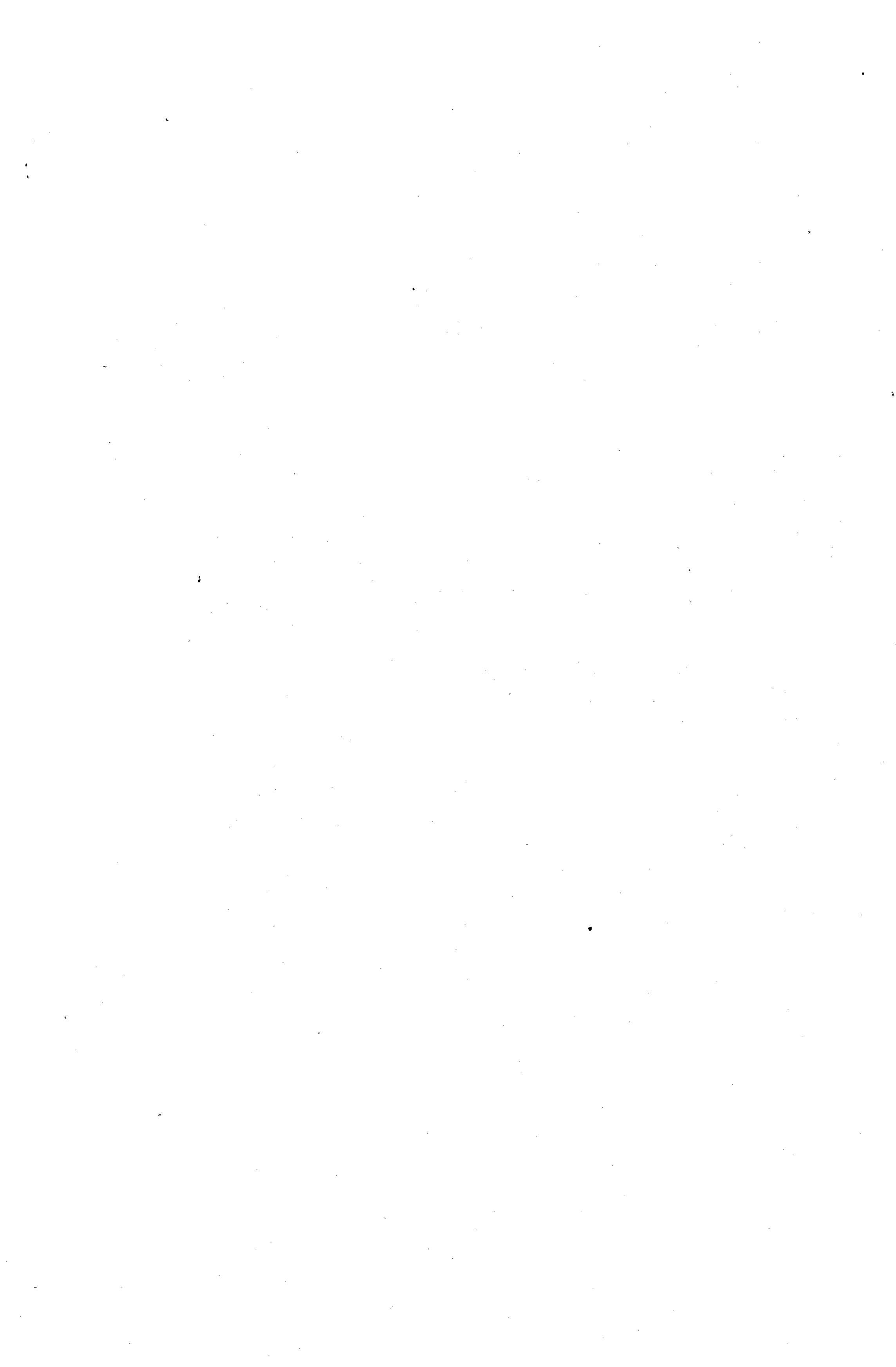
---

(١) رواه مسلم.

(٢) متفق عليه.

القيم الحضاريّة في رسالة الإسلام

للدكتور محمد فتحي عثمان
أستاذ الحضارة والنظم الإسلاميّة بكلية العلوم الاجتماعيّة
بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله . وصلى الله على رسوله الكريم

يشغل الكلام عن الحضارة أذهان الكثيرين في عصرنا.. فإذا كانت المجتمعات النامية تكدح للتقدم وتئن من التخلف وقد تعاني من بعض متاعب الطموح، فإن المجتمعات المتقدمة قد تعرضت لانفجار مشكلات متتابعة، اقتصادية سياسية حربية، ونفسية روحية اجتماعية، وغدت تعاني من ركود الطموح بعد أن استلزم التقدم التكنولوجي أعباء مالية وعلمية لإمكان الوقوف في حلبة السباق والتنافس، وتأكد أن هذه الأعباء فوق طاقة الكثيرين أفراداً وجماعات.. وكثيراً ما أدى هذا التقدم التكنولوجي إلى مشروعات رأسمالية عملاقة يملكها القليلون بينما تستغرق العامة في الاستهلاك.. فثارت التساؤلات عن حقيقة التقدم ومصير الحضارة الراهنة. وارتفعت نذر التشاؤم التي أصبح المفكر الألماني **أوزفالد اشبنجلر** **Oswald Spengler** (١٨٨٠ ـ ١٩٣٦م) علماً مميزاً معبراً عن تلك النذر بصيحته في كتابه المعروف « **انحدار الغرب** » **Decline of the West** ونظريته عن « **دورة الحضارة** » التي أعاد بها إلى الأذهان رأي ابن خلدون في « عمر الدولة »، وانتهى إلى أن حضارة الغرب قد جاوزت مرحلة الشباب

والقوة ودخلت في مرحلة الشيخوخة والتدهور. وقد حاول المؤرخ البريطاني **أرنولد توينبي Arnold Toynbee** (١٨٨٩ ـ ١٩٧٥م) أن يلطف من هذه النذر، وأن يقول إن أمراض الحضارة الغربية الراهنة حقيقية وخطيرة ولكنها قابلة للعلاج، وأن هذه الحضارة العالمية قادرة على أن تتجدد وتستمر من داخلها.

وإزاء هذه الانفجارات في واقع الحضارة المعاصرة، وما ترتب عليها من آراء متشائمة، ألحت الأسئلة على الباحثين والمفكرين بل وعلى المثقفين أجمعين : ما هي الحضارة إذن وما حقيقة التقدم إذا كانت المجتمعات المتحضرة المتقدمة تعاني ما تعانيه من انفجارات... وهل الحضارة الغربية المعاصرة التي أُصْلَت الغربيين وغيرهم ناراً حامية هي « **حضارة** » **بحق أم أن لها اسماً آخر** ؟ وهل التقدم، الذي طالما قيل خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر إنه مطرد، وأن اطراده هو سنة الوجود، مجرد تفكير متفائل **Wishful thinking** وأن الأولى القول بما قاله السابقون من أنه ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع ؟

وكما أن عالمنا المعاصر قد انقسم إلى مجتمعات متقدمة وأخرى نامية، فقد انقسم ايديولوجياً بين مذاهب متباينة متصارعة، فإلى أي مدى يقترب حضارياً مجتمع الاتحاد السوفيتي من مجتمع الولايات المتحدة أو المجتمع البريطاني أو المجتمع الفرنسي، ويقترب حضارياً المجتمع في بلجيكيا من المجتمع في تشيكوسلوفاكيا ؟ وإلى أي مدى يقترب حضارياً مجتمع الصين من مجتمع الهند، أو يقترب حضارياً مجتمع سيرالانكا (سيلان) من مجتمع كوبا ؟؟... والجميع يعيشون في ظل حضارة واحدة. وهل يصح القول مثلاً بوجود حضارة رأسمالية وحضارة اشتراكية ما دام التناقض بين الأصول الفكرية في المذهبين واسعاً وشاملاً، وقد خرج عن النطاق الاقتصادي وانعكس على مختلف الجوانب فأضحى اختلافاً جذرياً شمولياً في الفلسفة والسلوك، أم أن الأسس التكنولوجية الواحدة في عالمنا كفيلة بتحقيق الوحدة الحضارية مهما كانت الخلافات الايديولوجية ؟.

وإذا ذكرنا الايديولوجيات واختلافاتها، ذكرنا الدين، وهو العقيدة

التي لا يشاركها شيء في مدى العمق والشمول، وهنا تثور أسئلة، فهل « **الحضارة الإسلامية** » اصطلاح تاريخي يعبر عما مضى ولا مكان له في الحاضر والمستقبل ؟. وهل ثمة حضارة « مسيحية » وحضارة « يهودية »، وبالنسبة للعقائد الأخرى هل وجدت حضارة هندوكية أو بوذية أو غير ذلك ولو في فترة معينة من فترات التاريخ ؟ أم أن ارتباط الحضارة بالدين هي خصيصة مفردة لحضارة الإسلام لا تشاركها فيه عقيدة أخرى سماوية أو أرضية ؟ ويبقى بعد ذلك أن نتساءل : **هل كانت هذه الحضارة المتميزة** المفردة « تاريخية » نتيجة ظروف موقوتة معينة مضت، أم تراها حضارة حية قابلة للتجدد والاستمرار، ليس فقط في عالم الأمل والتمني والفكر المثالي المجرد بل في عالم الواقع المحقق أيضاً.

كل هذه أسئلة تلح على المثقفين في عالمنا المعاصر، وتلح أيضاً على المسلمين المؤمنين بدينهم وقيمهم وتاريخهم، ومن هنا كان هذا اللقاء من الأهمية والنفع بمكان، إذ يتصدى لتلك القضية الفكرية الحياتية الكبرى « **الإسلام والحضارة** » وللدور الحضاري أو المسئولية الحضارية لشبابنا المسلم.

ولا يستهدف هذا البحث محاولة الإجابة على كل هذه التساؤلات الكبرى، ولا أظن لقاءنا هذا يستهدف مثل ذلك، وإنما قد نعرض لشيء من هذا القبيل في طريقنا إلى هدفنا الذي حددناه للقائنا، وإلى الهدف الذي قصدته من بحثي عن « القيم الحضارية في رسالة الإسلام »، ونحن نعرض لذلك في مرور عابر بقدر ما يخدم هدفنا المقصود. وإنما نريد، بإثارتنا هذه التساؤلات، بيان أهمية القضايا الحضارية في فكرنا وواقعنا المعاصر، واحتياجنا إلى معالجة هذه القضايا من وجهة إسلامية ومنهج إسلامي. وعلى الله قصد السبيل.

* * *

الحضـــارة

ولا بأس أن نحاول تعريف « الحضارة » في مستهل هذا البحث وما أدقها من محاولة...

وقد عرف العرب من قديم المقابلة بين الحضر والسفر وهو التنقل والترحال، فكأن المقابلة بين الحضارة والبداوة هي مقابلة بين الاستقرار والتنقل، ويوصف أهل الحضر بأنهم أهل القرار، كما يقال : قراري للحضري الذي لا ينتجع ولا يتنقل طلباً للكلأ في مواضعه. كذلك يوصف أهل الحضر بأنهم « أهل المدر » وهو قطع الطين المتماسك، أو « أهل الحجر » لأنهم يسكنون بيوتاً متينة ثابتة، خلافاً « لأهل الوبر » الذين يسكنون الخيام من وبر الإبل أو صوف الغنم أو شعر الماعز.

ويذكر ابن خلدون (المتوفي سنة ٨٠٨ هـ/١٤٠٦ م) في « مقدمته » **حقيقة التاريخ** « أنه خبر عن **الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم**، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل **التوحش والتأنس** والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض، **وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع، وسائر ما يحدث من ذلك العمران** بطبيعته من الأحوال » ويرى « أن الاجتماع الإنساني ضروري، ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم : الإنسان مدني بالطبع، أي لا بد له من الاجتماع الذي هو المدنية في اصطلاحهم – وهو **معنى العمران** ... فإذن هذا الاجتماع ضروري للنوع الإنساني وإلا لم يكمل وجودهم وما أراده الله من إعمار العالم بهم واستخلافه إياهم وهذا هو معنى العمران ». ثم يقرر ابن خلدون « أن اختلاف الأجيال في أحوالهم إنما هو باختلاف نحلتهم من المعاش، فإن اجتماعهم إنما هو للتعاون على تحصيله، **والابتداء بما هو ضروري منه وبسيط قبل الحاجي والكمالي**... فكان حينئذ اجتماعهم وتعاونهم في حاجاتهم ومعاشهم وعمرانهم من القوت والسكن والدفء إنما هو بالمقدار الذي يحفظ الحياة ويحصل بلغة العيش من غير مزيد عليه للعجز عما وراء

ذلك. ثم إذا اتسعت أحوال هؤلاء المنتحلين للمعاش، وحصل لهم ما فوق الحاجة من الغنى والرفه **دعاهم ذلك إلى السكون والدعة، وتعاونوا في الزائد على الضرورة، واستكثروا من الأقوات والملابس والتأنق فيها وتوسعة البيوت واختطاط المدن والأمصار للتحضر**. ثم تزيد أحوال الرفه والدعة فتجيء عوائد الترف بالغة مبالغها... **وهؤلاء هم الحضر، ومعناه الحاضرون أهل الأمصار** والبلدان، ومن هؤلاء من ينتحل في معاشه الصنائع، ومنهم من ينتحل التجارة (خلافاً للبدو القائمين على الرعي والفلاحة) وتكون مكاسبهم أنمى وأرفه من أهل البدو لأن **أحوالهم زائدة على الضروري**، ومعاشهم على نسبة وجدهم » « فالبدو هم المقتصرون على الضروري في أحوالهم، العاجزون عما فوقه، وأن الحضر هم المعتنون بحاجات الترف والكمال في أحوالهم وعوائدهم. ولا شك أن الضروري أقدم من الحاجي والكمالي وسابق عليه... فالبدو أصل للمدن والحضر وسابق عليهما.. وخشونة البداوة قبل رقة الحضارة... فقد تبين أن وجود البدو متقدم على وجود المدن والأمصار وأصل لها، بما أن وجود المدن والأمصار من عوائد الترف والدعة التي هي متأخرة عن عوائد الضرورة المعاشية، والله أعلم ».

ويقرر ابن خلدون أن الرئاسة المتسلطة أو « الدولة »، بما فيها من سلطة حاكمة ثابتة، هي من لوازم الجماعة المستقرة « **فالآدميون بالطبيعة الإنسانية** يحتاجون في كل اجتماع إلى وازع وحاكم يزع بعضهم عن بعض، **ولا بد أن يكون متغلباً عليهم... وهذا التغلب هو الملك وهو أمر زائد على الرئاسة**، لأن الرئاسة إنما هي سؤدد وصاحبها متبوع وليس له عليهم قهر في أحكامه، وأما الملك فهو التغلب والحكم بالقهر ». ومن الظريف أن القانونيين المحدثين يعبرون بما يشبه ذلك، فيرون أن من خصائص الدولة « سلطة القمع » Contrainte، وهي تتفرد بهذه السلطة وتحتكرها دون الأفراد. ويرى ابن خلدون أن للمملكة عمراً وأجلاً ودورة، وأن الملك دول بين الأقوام وفقاً لما ارتآه في شأن « العصبية »[1] وهكذا نجد عند ابن خلدون أن

---

(١) ابن خلدون : التاريخ جـ ١ وهو المقدمة ـ دار البيان ـ بيروت ـ ص ٣٥، ٤١، ٤٣، ١٢٠ ـ ١٢١، ١٣١ وما بعدها.

الملك زائد على الرئاسة، وأن الحضارة زائدة على الضروري من العمران، وأن الترف زائد على الحضارة. ويبدو أن ذهنه المنطلق المرتب يرتب كل شيء على درجات، ويرى أن التغير في الكم إذا تزايد وصل إلى تغير في الكيف أيضاً، وهكذا تتحول البداوة إلى حضارة، والحضارة إلى ترف يؤذن بانحلال الحضارة، وتتحول الرئاسة إلى ملك في أهل العصبية، لكن « نهاية الحسب في العقب الواحد أربعة آباء » أي أربعة أجيال، « واشتراط الأربعة في الأحساب إنما هو في الغالب، وإلا فقد يندثر البيت من دون الأربعة ويتلاشى وينهدم، وقد يتصل أمرها إلى الخامس والسادس إلا أنه في انحطاط وذهاب. واعتبار الأربعة من قبل الأجيال الأربعة : بانٍ ومباشرٌ له ومقلدٌ وهادم ـ وهو أقل ما يمكن. وقد اعتبرت الأربعة في نهاية الحسب في باب المدح والثناء، قال ﷺ : « انما الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم » ـ إشارة إلى أنه بلغ الغاية من المجد. « ويظهر أن الأربعين سنة أقل ما يأتي فيها فناء جيل ونشأة آخر »[1].

وما قرره ابن خلدون من أن الحضارة أحوال زائدة على « الضروري من العمران » لا يسلم به المفكرون والباحثون اليوم، كما لا يسلمون بأن البدو أو حتى المجتمعات البدائية تخلو من الحضارة، بل يميلون إلى القول **بأن الحضارة ظاهرة إنسانية عامة موجودة ما وجد الإنسان الذي انعم الله عليه بالعقل والإرادة والبيان، فالإنسان دائماً قادر على تجميع خبراته واحتوائها وتذكرها والإفادة منها ـ وهذا من دقة لفظ « العقل » في العربية ومعناه الذي يقبض على الشيء ويعقله**[2]. فالحضارة ميزة للإنسان عامة بفضل جهازه العصبي المركب الذي خلق لديه **قدرات الاستدلال والإستنتاج والتذكر واستخدام اللغة كرموز** كلامية ثم كتابتها... وهكذا لا نعرف جماعة إنسانية بلا حضارة، لأن المجتمع الإنساني ليس كقطيع من الحيوان أو الطير أو الحشرات تحكمه الغريزة مهما بلغ نتاجها من احكام، مثلما هو

---

(١) المصدر السابق : ص ١٣٦ ـ ١٣٧، ١٤٢.

(٢) حسين مؤنس : الحضارة ـ سلسلة « عالم المعرفة ـ الكويت ـ المحرم ١٣٩٨ هـ يناير ١٩٧٨ م ص ١٥.

الحال في نسيج العناكب، وخلية النحل ورحيقها، واهتداء الحمام الزاجل إلى مكانه، وإرهاف حاسة الكلب في الشم، ومحاولة أنواع راقية من القردة مثل الشمبانزي حل بعض مشكلاتها، ذلك أن عالم الحيوان على اختلاف أنواعه، إذ تحكمه الغريزة فإنها تسوقه إلى أعمال متكررة ثابتة، ويفتقد الحيوان الذاكرة التي تختزن خبراته كما تعوزه القدرة على الاستدلال والابتكار. ومن هنا يمكن القول بأن الكائنات الإنسانية هي كائنات قادرة على صنع الحضارة ودعمها، ولكل جماعةٍ إنسانية حضارتها المتميزة التي صنعتها وانتقلت من جيل لآخر[1]. والبدو ليسوا خلواً من الحضارة[2]، وهم في بلاد العرب، قبل الإسلام مثلاً، كان لهم عرفهم وقيمهم الأخلاقية، وهذه كلها نظم ترتكز في تقريرها ووسائل أعمالها وإنفاذها على فكر، وكان لهم شعر فيه تأمل وتخيل يدلان على قدرة عقلية كما كانت لهم خبرات عن النجوم والرياح والمطر بنيت على الملاحظة والاستقراء. ولقد كان العرب يرون في إرسال الطفل إلى البادية أنجب له وأعون على تنمية بدنه وحواسه وفكره ولسانه. وتتعدد الشواهد على وجود سرعة البديهة في الجواب والارتجال في الكلام عند عرب البادية قديماً وحديثاً.

كذلك فإن الترف ليس قريناً حتمياً للحضارة أو نتيجة حتمية لرقيها. فالترف أسلوب معين في استعمال ما أتيح للإنسان من إمكانات وتيسيرات، وليس هو الأسلوب الوحيد أو النتيجة الحتمية لليسر، « فالترف ليس حالة من حالات الحضارة وإنما هو موقف منها »... كما عبر بحق الأستاذ الدكتور حسين مؤنس. فقد يكون هناك من هو واسع الدخل لكنه منتظم الإنفاق، بينما قد يكون هناك من هو محدود الدخل لكنه مختل الإنفاق، وإنما يكون الترف في اختلال ترتيب الأولوية في وجوه الإنفاق، وتحديد المناسب لكل وجه. والإسراف والشطط خلل تفكيري مزاجي ليس من نتائج الحضارة بل هو سمة لأفراد أو جماعة محدودة من الأفراد،

---

(١) أحمد حمدي محمود : الحضارة ـ سلسلة « كتابك » ـ القاهرة ١٩٧٧م ـ ص ٨ ـ ١٠، أيضاً مؤنس، الحضارة، ص ١٥ ـ ٢٨.

(٢) انظر في هذا الباب : مؤنس : المصدر السابق ص ٥٥ ـ ٥٦، ١٧٩ ـ ١٨١.

والتحضر والتدرج في مراتب الحضارة لا يضعف الإنسان أو الجماعة بل يقويه ويقويها... ولكن الذي يضعف البشر هو سوء استخدامهم لنعم الحضارة... أو سيطرة أدوات الحضارة على الإنسان بدلاً من سيطرته عليها... وتسمى هذه الحقيقة من حقائق الحضارة بالقبض Maniability وبدونه لا يستطيع الإنسان الإفادة من أي أداة أو ثمرة من ثمرات الحضارة توضع بين يديه... وكل استمتاع بأطايب الحياة ومطالبها بغير ضابط يصبح ضرراً على المستمتع به... ولكن ابن خلدون حَسِبَ أن الترف من خصائص الأغنياء والأقويات وذوي السلطان، مع أنه في حقيقته نزوع يوجد في (الإنسان)... ومرده إلى ضعف الإنسان عن مقاومة رغباته ومطالبه... ومن الفقراء من لا يكادون يحصلون على قوت اليوم، والمال القليل الذي يكسبونه يسيطر عليهم... والاستمتاع بخيرات هذه الدنيا مطلب صحي سليم... وموقف الإنسان من الحضارة وأدوات الترف تحدده ثقافته وتجاربه وذكاؤه وقواه العقلية والمعنوية، أو تحدده كذلك تربيته وما نشأ عليه من قواعد أخلاقية وسلوكية... »[١] والله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده. ولقد أنكر متزهد على مؤمن فقيه أكل لون من الحلوى البالغ اللذة المعقد الصنع لأنه سيعجز عن شكر مثل هذه النعمة، فكان الرد الواعي عليه بأن المؤمن عاجز عن الوفاء بشكر نعمة شربة الماء!

ونختار من تعريفات الحضارة المتعددة ما ارتآه المفكر الفرنسي جورج باستيد George Bastide من أنها « **التدخل الإنساني الإيجابي لمواجهة ضرورات الطبيعة، تجاوباً مع إرادة التحرر في الإنسان، وتحقيقاً لمزيد من اليسر في إرضاء حاجاته ورغباته ولإنقاص العناء البشري** »[٢]. فالسلوك الإنساني الذي ينتج الحضارة هو استجابة لتحدٍّ من ظروف الطبيعة يكون هو المثير والدافع والحافز Stimulus للإنسان كي يتغلب على ما يواجهه، ومن ذلك عوامل في طبيعة الإنسان نفسها مثل حاجاته للطعام والشراب والدفء والاستقرار والأمن، وهناك منافسة الإنسان الآخر له على ذلك، ثم ما يكون من قصور ظروف بيئته المادية عن تلبية هذه الحاجات.

---

(١) مؤنس: المصدر السابق ص ٥٢ ـ ٥٣، ١٥٤ ـ ١٥٩.

(٢) جورج باستيد: المدينة ـ ترجمة عادل العوا ـ طبع دمشق ـ ص ١٢ وما بعدها.

وهكذا ترجع الحركة التاريخية إلى نوع من التفاعل بين البيئة والإنسان. وتكون الحضارة هي ثمرة تحدي الإنسان لبيئته ونوع استجابته لها ـ على ما فصّل وأفاض في ذلك توينبي مثلاً[1]..

ومن مزايا التعريف المتقدم للحضارة، أنه مثلما أوضح عواملها المادية، أبرز عواملها المعنوية التي أجملها في تطلع الإنسان للتخلص من الضغوط وتحقيق حريته، فليس كل سلوك إنساني لأجل تلبية حاجة مادية مباشرة، بل إنه قد يكون أيضاً لتلبية حاجة معنوية هي التطلع للمعرفة واكتشاف المجهول وعدم الاستسلام للواقع المحيط به الذي يفرض سيطرته على الإنسان في أول الأمر. فالحضارة تحقيق للراحة الإنسانية في جوانبها المتعددة المتقابلة المتكاملة، جسدية وعقلية ونفسية وروحية. والسلوك الحضاري هو جواب الإنسان على التحدي الموجه له : تحدي الطبيعة المادية من جهة، وتحدي حاجاته هو من جهة أخرى، وتحدي الإنسان الآخر أو المجتمع من جهة ثالثة. ويأتي هذا الجواب الإنساني على التحدي في صور نشاط متعدد الجوانب، مادي ومعنوي، وهكذا تشمل الحضارة النشاط الإنساني في شتى مجالات الآداب والعلوم والفنون، كما تشمل أيضاً صور الإنتاج المادي من عمائر وطرق وجسور وقناطر وغيرها. ومن مجالات الحضارة العقائد والعوائد والأدب الشعبي وأدب الخاصة أو الأدب الرفيع belles lettres والنظم السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية (نظم الحكم والإدارة، الملكية، الأسرة : الزواج والطلاق، الميراث... الخ)، كما لا يخرج عنها تخطيط المدن والعمارة ووسائل النقل وأساليب المأكل والمشرب والزينة والترفيه.

وإن صور النشاط الفكري الروحي التي تتجاوز العالم المحسوس **transcendantal** لتشغل منزلة من أرفع المنازل في مفهوم الحضارة كما أوضح باستيد. وفي الندوة التي عقدت في ديسمبر سنة ١٩٠١ م بمدينة نيودلهي عاصمة الهند بدعوة من اليونسكو لمناقشة « المثل الأعلى الإنساني وفلسفة

---

(١) انظر مثلا : « مؤنس : المصدر السابق ص ١١٧ وما بعدها، ص ٣٧٠ وانظر توينبي : A. Toynbee civilization on Trial وجدت ترجمته العربية بعنوان « الحضارة في الميزان » ترجمة محمد بدران، وكتابه الأوسع « مدخل لدراسة التاريخ » An Introduction to the Study of History.

التربية في الشرق والغرب »، اتفق المؤتمرون مع ما أوجبه متحدث فرنسي من التفريق بين المفهوم الحقيقي الشامل لكلمة « العقل »، الذي هو سمة الإنسان الكائن المفرد الذي نفخ الله فيه من روحه وأعطاه « شرف الغاية »، **والمفهوم الذي يقصد به « العنصر الفكري البحت**، وهو في الإنسان منفصل عن مجمل شخصيته، « وقد أشار ذلك المتحدث إلى أن هذا عينه هو وجه الاختلاف بين الفيلسوف الفرنسي باسكال (١٦٢٣ ـ ١٦٦٢ م)، (وله (خواطر) أجملت خطوطاً رئيسية للدفاع عن المسيحية كان لها صداها الواسع)، ومعاصره السابق عليه ديكارت (١٥٩٦ ـ ١٦٥٠ م)، صاحب منهج الشك الذي انتهى منه إلى اليقين ومثّله قوله : أنا أفكر إذن أنا موجود، وله الأثر المشهور (مقال عن المنهج) ». وقد أشار المتحدث الفرنسي بحق في الندوة سالفة الذكر إلى أن الشكل الأدنى للعقل البشري هو أشبه ما يكون « بعصّارة الليمون » إذ يسحق كل فكر يعارضه ويطرحه. ولقد درس عالم الرياضيات الفرنسي **هنري بوانكاريه** الفضاء والزمن وخلص إلى « **أن المنطق وحده لا يكفي**، وأن (البرهنة) ليست العلم كله، بل إن المعرفة الحدسية intuition يجب أن تحتفظ بدورها كعنصر مكمل، بل كثقل موازن أو ترياق للمنطق. « وقد أبدعت مفكرة معاصرة (هي د. تيريز بروس) خلال تلك الندوة في تصوير أزمة الإنسان في الحضارة الحديثة، وقيمها ومناهجها حين قالت : « أكبر معضلة نواجهها، **هي حاجتنا إلى وضع (علم للإنسان) لا يكون مقصوراً على (علم الحيوان الإنساني) بل يكون علم الإنسان التام بكل ما ينطوي عليه من قيم روحية** مدروسة من وجهة النظر الفردية والاجتماعية في آن واحد. فالإنسان في الواقع قد انتزع من المادة سر قواها الكونية (أقول : شيئاً يسيراً من سرها فحسب !) فإذا لم يجتهد في الناحية المقابلة لأجل تحقيق استكشاف مماثل في نفسه حتى ينشر في ضميره كل إمكاناته وطاقاته في التفاهم والحب، وإذا كانت قدرة المادة التي آلت إلى الإنسان إنما تزرع الخوف والموت، فلقد قضي على البشرية »!! وهذا ما أبرزه في تلك الندوة أيضاً مفكر تركي معاصر (هو حلمي ضيا أولكن)، أستاذ الفلسفة بجامعة استانبول) إذ يقول « كان للعلم في القرن الماضي ادعاء النظر إلى الإنسان على أنه حيوان، ولكن الإنسان لا

ينطبق تماماً على بيئته وإنما يصنع عالمه (أقول : ويُكَيِّفُ بيئته كما يتكيّفُ معها)... والإنسان يمارس نشاطاً معاكساً لنشاط الحيوان، فهو يحدد وضعه بالنسبة إلى المستقبل بالمثل العليا، ويحدد وضعه بالنسبة إلى الماضي بذاكرته وشخصيته، ويحدد وضعه في الفضاء والواقع فيصنع الأدوات ويضع النظريات... وميزة الإنسان الجوهرية هي الصراع ضد نفسه وهي تظهر بتضحية الذات في جميع الحضارات... فطبيعة الإنسان منبثقة من مبدأ معاكس للحياة (أي مناقض لمجرد الوجود الحيوي أو الحيواني) غير خاضع لتطورها : وهو الروح « ومن هنا يؤكد بحق المفكر الهندي « راس ــ فيهاري داس » أستاذ الفلسفة بجامعة سوجار بالهند أن « **الحضارة** في جوهرها تقوم على الكائن البشري لا على الأشياء المادية، والناس هم متحضرون أو غير متحضرين وفقاً لبعض مزاياهم الروحية »[1].

وهذه الأصول الفكرية النفسية الروحية في الكيان الحضاري ضرورية لتكتمل الحضارة وتكون حضارة بحق، ويحرص المفكرون المسلمون المعاصرون على تأكيد هذه الحقيقة « فبناء الكيان الحضاري يقوم على أربع قواعد : **الإيمانية الأخلاقية والجمالية الفنية، والتقنية الصناعية، والثقافية العرفانية.**، وباختلاف كنه هذه العناصر وترتيب قواعد الكيان الحضاري تختلف الحضارات الإنسانية ويكون تميزها عن سواها... **والمنطلق الإيماني الأخلاقي في الحضارة الإسلامية هو مقومها الأول** الذي يبرز مهيمناً على بقية المقومات، من فنية جمالية وتقنية صناعية وثقافية عرفانية، فهو الذي يعطيها صبغتها وسموها ويجعلها حضارة باسقة في الأرض موصولة بالسماء. وصفتها الربانية هذه هي التي تمدها بقدرة البقاء صاعدة وصامدة، فهي صاعدة في الظروف الملائمة للتألق الحضاري وصامدة في الحالات التي تقهر فيها على الانكماش والتوقف وتتميز الحضارة الإسلامية بهذه الخاصة... فالحضارة الإسلامية لها خصائصها الجذرية الدائمة وشخصيتها

---

(١) اللجنة الوطنية اللبنانية للتربية والعلم والثقافة (الرافد الوطني لمنظمة اليونسكو العالمية) : الثقافة الإنسانية وفلسفة التربية في الشرق والغرب، مباحثة دولية نظمتها الأونسكو ــ تعريب أنطوان خوري ــ بيروت ص ١٨ ــ ١٩، ٩٠، ٢٠٦، ٢٢٢، ٢٢٧ ــ ٢٢٨.

الحركية الحية، فهي وجود واحد له في نمائه وتوقفه وفي ومضه وغمضه مراحل وأطوار من الازدهار والانحسار وليس من طبيعته أن يموت. **وهذا هو سر** المواجهة العارمة المحتدمة التي تعرض لها الإسلام ويتعرض لها في المعترك الحضاري »[1].

ويلتقي مع تصور الشاعر المفكر السوري الأستاذ عمر بهاء الأميري الأستاذ بجامعة القرويين وجامعة محمد الخامس في المغرب، الأديب المفكر المغربي د. رشدي فكار الأستاذ بجامعة محمد الخامس فيقول « في تصوري أن **الحضارة الغربية حضارة تتميز بالوسائل** ويمكن أن نتطلع إليها على مستوى الوسائل. ونستطيع أن نجمل هذه الوسائل في **ثلاث : التقدم العلمي، والمعرفة التكنولوجية، والصناعة، فهي** حضارة منهج وتنسيق وتنظيم، ومحاولة استئناس للظواهر الطبيعية والتعامل معها ومع الظواهر الإنسانية بهدف السيطرة عليها أو بهدف التعامل الموضوعي لما فيه تقدم البشرية. فالحضارة الغربية يمكن أن **تباع وتشترى، ويمكن أن تكون تطلعاتنا إليها تطلعات إلى وسائل الحضارة الغربية لا إلى جوهرها... نحن لدينا بعض القصور في الوسائل،** فالإنسان الذي يتمتع بجوهر أصيل (يحتاج لأن يتبين) كيف يقوم بتنسيق حياته وتنظيمها وكيف يتعامل مع الآخرين، وكيف يكون التعامل لما فيه صالح المجتمع وكيف لا تحدث قطيعة بين ما يتبناه كقيم وما يفعله كسلوك، وهذه كلها أمور تتعلق بالمنهج (منهج الحياة)، ونحن **نعاني من أزمة سلوك وليست أزمة قيم.** ووسائل الحضارة الغربية أدت إلى **تحضر الأشياء، أما الجوهر** (بناء الإنسان والقيم التي بفضلها يتعادل – أو يتوازن – الإنسان – من قيم روحية وأخلاقية وسلوكية) فهي قضية (تحتاج إلى علاج آخر). **لهذا فالإنسان في عصرنا الحاضر أصبح ضحية أزمة الحضارة، وأصبح إنساناً ذا بعد واحد...** وأن حضارتنا ليست بغريبة على عصرها، وكل الأمر أننا نحتاج إلى تصحيح

---

(١) عمر بهاء الأميري : الإسلام في المعترك الحضاري – بيروت ١٣٨٨ هـ/١٩٦٨ م ص ١٤، ١٨، وانظر حديثاً للمؤلف نفسه منشور بعنوان : « الحق والخير والجمال في الشعر والأدب » بمجلة « الفيصل » – الرياض – ع ١٨ – ذو الحجة ١٣٩٨ هـ ص ١٢٨ – ١٢٩.

السلوك البشري عندنا أكثر مما نحتاج إلى تصحيح القيم والمبادىء (أقول : لوجود القيم والمبادىء عندنا وإنما قد نحتاج إلى تصحيح فهمها) وتصحيح السلوك البشري هذا هو الذي يأتي من خلال اللجوء للوسائل : وسائل الحضارة الغربية (في تخطيط المنهج الصحيح) لسلوك الإنسان إذا ما كان منفعلاً مندفعاً يتصرف بطريقة عفوية أحياناً وقد يجد صعوبة في التوفيق بينه وبين ظروف البيئة المادية المحيطة به أو في التوفيق بينه وبين أخيه أو جاره... ومن هذه الزاوية أرى أن لدينا الجوهر، جوهر التقدم بمعنى عطاء الأرض وعطاء الإنسان، ولدينا جوهر الحضارة : حضارة القيم التي **تبدأ من القيم الروحية (أقول : الإيمان) وتصل إلى قيم المبادىء الأخلاقية السلوكية**... إن الحضارة الغربية محتاجة لأن يتم التقدم الحضاري في حضور الإنسان لا في غيبته... إني أحس اليوم للأسف أن الإنسان، رغم أنه هو الذي يجعل الأشياء تتقدم أساساً، **يفقد ذاته من أجل أن يعطي**، وهذه قضية خطيرة... اننا نحتاج إلى تعمق : التعمق في مناقشة تراثنا وفي مناقشة الحضارة المعاصرة على السواء.. لقد امتص الفكر الإسلامي حضارة الاغريق وحدثت مواجهات كبرى خرج منها الفكر الإسلامي الأصيل مدعماً »[1].

ومما يعزز هذه النظرة ويؤكد صوابها أن نجد المتحدث الأمريكي في الندوة الدولية السالفة الذكر التي نظمتها اليونسكو في نيودلهي عن « الثقافة الإنسانية وفلسفة التربية » وهو من بلد طالما آمن « بالبراجماتية » Pragmatism أو « فلسفة الذرائع »، ونهج طريقة على أن « الحق » و« الخير » وسائر القيم المطلقة الطيبة إنما تكون فيما يتحقق نجاحه عملياً في واقع الأمر، ذلك المتحدث الأمريكي يقول في الندوة « إن الولايات المتحدة تواجه معضلات عملية عديدة، **ويخشى أن تهتم التربية اهتماماً ضخماً (بالمناهج) وترتاب من غير مبرر (بالقيم المطلقة)** ».. وكان مما أكدته توصيات تلك الندوة المشار إليها وجوب الجمع بين تعليم الدين والفلسفة من جهة وتلقين العلوم في الجامعات من جهة أخرى

---

(١) « المفكر العربي المرشح لجائزة نوبل »، حديث مجلة « الفيصل » الرياض ع ١٩ المحرم ١٣٩٩ هـ ص ١١٤ ـ ١١٥.

و « **تأليف كتب جيدة لطلاب الجامعات في الشرق والغرب تعرض تعاليم الأنبياء وأساتذة الفكر الديني والفلسفي** »[1].

من خصائص الحضارة :

وإذا كانت « الحضارة » في صورتها الحقة « **جامعة** » لمختلف الجوانب في النشاط الإنساني وتلبي مختلف حاجات الإنسان، فإنها أيضاً « **جماعية** » بطبيعتها، فهي نتاج « جماعة » مهما كان دور أي فرد أو مجموعة أفراد فيها، ولو كان أحد هؤلاء أو كانت مجموعتهم من « الصفوة » élite الرائدة أو القاعدة. وللحضارة خاصية «**الانتشار** » في الجماعة الواحدة وبين الجماعات المتعددة، كما أن لها خاصية « **الاستمرار** » والنماء والبقاء فترة كافية من الزمن بحيث تمضي الفعالية الإنسانية في إنتاج الحضارة في شتى المجالات وصيانتها وتنميتها ونشرها، إذ أنّ الطموح الإنساني لا يقف عند حد، وبلوغ أي مستوى حضاري يستثير بدوره تطلعاً لمستوى آخر أرفع، كما يستهوي نطاقاً أوسع من المجتمعات البشرية الأخرى التي تتاح لها سبيل للتعرف على المجتمع المتحضر. وإذا لم تتواصل جهود الأجيال المتتابعة في صيانة الحضارة وتدعيمها فضلاً عن إعلاء صرحها كان ذلك إيذاناً بانحلالها. ومن هنا نتبين وجهة بعض الاجتماعيين المحدثين في تعريف الحضارة بأنها « **الوراثة الاجتماعية** » ويفصل رالف لينتون Ralph Linton ذلك بتعريفه الحضارة على أنها « الهيئة العامة لأنواع السلوك المكتسبة والنتائج التي تحصل عنها والتي يلتزم أعضاء المجتمع عناصرها ويتناقلونها » ومن ثم يظهر جلياً أنه لا يخلو مجتمع ما من حضارة ومع تأكيد « ول ديورانت » W. Diurant صاحب « قصة الحضارة » « لجماعية الحضارة ».. أو « اجتماعيتها » فإنه يؤكد أيضاً الجانب الفكري أو الثقافي فيها فهو يقرر « أن الحضارة نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من انتاجه الثقافي ». ومن ناحية تأثير الحضارة (وهي جماعية

---

(١) الثقافة الإنسانية : (المصدر السابق) ص ٢١ ـ ٢٢، ٣٣.

بطبيعتها) على شخصية الفرد وسلوكه تتعاون الدراسات الاجتماعية والانتروبولوجية والنفسية الحديثة على استجلاء هذا التأثير، كما تحاول تسليط الضوء أيضاً على السلوك الاجتماعي للفرد وتبين علاقاته مع الآخرين وإزاء المؤسسات الاجتماعية القائمة[1].

* * *

الجانب المادي التكنولوجي من الحضارة

وقد أثار المعنى الشامل للحضارة وأنها جماع النشاط الإنساني المتعدد الجوانب، الذي يلبي حاجات الإنسان المتعددة، محاولات للتمييز بين الحضارة بهذا المدلول الشامل وبين الجانب المادي التكنولوجي الذي قد يطلق عليه البعض لفظ Civilisation ويترجم في العربية بـ « المدنية » وتخلص آراء جمهرة من الباحثين إلى أن دلالة الحضارة Culture الذي يمكن ترجمته « بالحضارة »، أعم وأشمل وإن اختلفوا في الدلالة الأخص لكلمة Civilisation فهي عند الباحثين من الانجليز تعني الحضارات العليا، وهي عند الباحثين من الألمان والأمريكيين تعني الجوانب المادية أو التكنولوجية من الحضارة، وغالباً ما يستعمل الألمان كلمة Civilisation للدلالة على أن الحضارة في طريقها إلى الاحتضار.

على أن هذا لا يعني بطبيعة الحال أن هناك مدنية بغير حضارة، فقد سلف البيان أن الحضارة أعم وأشمل، وأن الباحثين قد خلصوا إلى أنه لا يوجد مجتمع إنساني بغير حضارة. كذلك يمكن القول بأنه ما من حضارة إلا ولها جانب مادي أو تكنولوجي لصورة من الصور. ومن هنا نجد الفرنسيين يستعملون كلمة Civilisation للدلالة على الحضارة بمعناها الشامل العام، ويستعملون كلمة Culture لتدل على ما يقابل المعنى الشائع للثقافة عندنا في العربية بمعنى زيادة المعرفة والصقل، أو بمعنى ألوان المعرفة اللازمة لتحقيق هذا الغرض.

---

(١) عبد الكريم اليافي : تمهيد في علم الاجتماع ـ دمشق ص ٥٣٣ ـ ٥٣٥، وانظر : ول ديورانت : قصة الحضارة جـ ١.

ويذكر المعيار أحياناً أن التفرقة بين الجانب الحضاري أو الجانب المدني في شيء ما هو التساؤل : هل نريد **هذا الشيء لذاته ـ أو لغاية أبعد**، وهل تراه **يلبي لنا حاجة خارجية أو داخلية** ؟؟ ويذكر عالم الاجتماع « ماكيفر » الفروع الأساسية التي يتميز بها الجانبان، فيقول : إن **للمدنية معايير دقيقة تقيس كل ما ينتمي إليها باعتبار الأشياء وسائل لغايات**، يمكن قياس درجة كفايتها والتيقن من نجاحها في أداء مهمتها كالجرار والطيارة والثلاثة، أما **منجزات الحضارة** مثل النظم التربوية أو الاجتماعية أو السياسية **فتتمرد** على المقاييس المعروفة للمدنية **لأن الأمر لا يتعلق بقياس** كفاية هذه الأنظمة لتحقيق غايتها قياساً (خارجياً) أو (مادياً) منضبطاً، بل إلى **تقدير قيمة هذه النظم للفرد أو الحياة**.ثم التقدير هنا يتطلب فترة زمنية طويلة تكفي لتأكيد هذه (القيمة)، ويتطلب مؤشرات ودلالات أبعد عمقاً وأوسع نطاقاً. كذلك يمكن القول بأن **المدنية في تقدم مستمر لكن الحضارة ليست كذلك، ولا** يصادف تأثير المدنية ـ باعتبارها تتعلق بالجانب المادي أو التكنولوجي ـ معوقات كالتي يصادفها انتشار الحضارة أو انتقالها، **والمدنية أو** « **التقنية** » **قد تستعار** بغير أدنى تغيير وليس كذلك أمر الحضارة. **وتستطيع الحضارة أن تسخر الجوانب التقنية كأدوات لها، وقد** استفاد الأدب والعلم والفن من الطباعة والصحافة والسينما والإذاعة والتلفزيون مثلاً أيما فائدة. **وقد قسم** « ماكيفر » الناحية التقنية في المدنية إلى **تقنية أساسية وأخرى اجتماعية**، والأولى تختص بسيطرة الإنسان على الظواهر الطبيعية، أما التقنية الاجتماعية **فهي** تتبّع لتنظيم سلوك البشر وتكون تقنية اقتصادية أو سياسية.

وإذا كانت المدنية لا توجد بغير حضارة، فمن المهم أن تتوازن الجوانب المادية والروحية في الحضارة لتنمو وتبقى. وأكبر الخطر على الحضارة وعلى الإنسان الذي هو أساس الحضارة والذي تتميز الحضارة بخصائصه وتعبر عن طبيعته وعن طاقاته وحاجاته في مجموعها، أن تتجاوز طاقة الأدوات التكنولوجية التي أبدعها قدرة مبدعها الإنسان وتتخطاها. « والإنسان الغربي هو اليوم عاجز أكثر من أي وقت مضى عن الاكتفاء بالانتصارات التكنولوجية الناجمة عن تقدم العلم أو عن قواعد الأخلاق

القائمة على المنفعة أو الشهوة. لقد تخطت الإنسان قدرة أدواته نفسها، التي أحدثت تغييراً في العالم وأوجدت معضلات جديدة ومركبة حتى أمست القيم المتعارفة مغلوبة على أمرها »[٢].... ويطرح المفكر الفرنسي **أندريه مالرو** في بيان محكم مُعبِّر معضلة الحضارة الغربية المعاصرة والانسان الغربي المعاصر. ويبدو أن ارتقاء الثقافة الإنسانية في العهد الذي ادعى لنفسه اسم « عصر النهضة » انما كان ارتقاء الإنسان الذي ظن أنه يصير ملكاً للعالم بطاقاته وحدها وبخاصة سلطان ذكائه. وفي القرن الثامن عشر الميلادي أسلم الإنسان أمره للعقل « المجرد » غير المتجسد فخطا خطوة في طريق ممارسة سيطرته، **وقطع الغرب صلاته بما في الحضارات السابقة من طاقة روحية وتعبير عن هذه الطاقة، اذ أقام تقدمه على أساس « العقل البشري وأنه ينطوي على جميع الامكانات التي تحقق « مواصلة » هذا التقدم**، وأدخل الإنسان الغربي بناء على هذا المبدأ، فكرة أن كل ما كان في البدء هو « قديم »، وأن التقدم هو في كل « حديث »، ونظر هذا الانسان إلى الحضارة وكأنها انطلقت منذ الساعة التي بدأ فيها استعمال « العقل » على هذا الأساس والنهج، وأصبح كل ما بدا من تراث العصور الماضية منبوذاً كأثر مغاير للمنطق ومدموغاً بالسذاجة والتخبط. وهكذا أوصد عالم الروح منذ قام عهد « العقل » على هذا الشكل فخسرت الحضارة الغربية والانسان الغربي « حضارات روحية عظيمة » كما عبر الأديب المفكر الفرنسي أندريه روسو[٣].

* * *

---

(١) أحمد حمدي محمود : الحضارة ص ١٦ – ٢٦.

(٢) الثقافة الإنسانية.. (المصدر السابق) ص ٢٨٠ – ٢٨١.

(٣) الثقافة الانسانية .. (المصدر السابق) ص ٢١٠ – ٢١١.

الأساس المعنوي الفكري للحضارة

النظرة الجامعة إلى العالم

وإذا كانت « المدنية » هي الجانب المادي أو التكنولوجي في الحضارة، فان أساس الحضارة المعنوي الفكري الذي تقوم عليه الحضارة بمعناه الشامل الجامع Culture هوَ وجود نظرة إلى العالم أو نظرة جامعة Weltanschaung كما يقول المفكرون الألمان. وهذه هي الحضارة بمعناها الأخص، وقد يطلق عليها في تعبيرنا العربي المعاصر لفظ « ثقافة »، وهو لفظ حائر عندنا بين مدلولات مختلفة، من زيادة المعرفة والصقل وما كان يقابل « الأدب » عندنا في عصر سابق حين كان يعني « الأخذ من كل معرفة بطرف » وهو قريب مما يعنيه اللفظ Culture عند الفرنسيين إلى ما يقابل اللفظ Culture حين تعني الحضارة عند الانجليز والألمان والأمريكيين[1].

وهذه النظرة الجامعة إلى العالم، يرى فيلهلم ديلتاي Wilhelm Deltai الذي نشر فكرتها ومصطلحها في الفكر الألماني أنها تشتمل على ثلاثة

---

(١) يرى باحث عربي معاصر أن نستعمل لفظ « الثقافة » لما يكون « من صنعنا ويبرز اختلافنا كأفراد، ولذا قلما تشابهت ثقافتان، ولا تتحقق الثقافة إلا باكتمال الشعور والوعي. بينما الحضارة وتراثها أشياء نرثها وتنتقل إلى وجداننا وعقولنا بطريقة لا شعورية في الأغلب. والثقافة هي التي خلفت الحضارة، فالحضارة (تأتي إلى) المجتمع عن طريق أفراد مميزين كانوا على وعي بروح العصر وتوفرت لهم القدرة النظرية والعملية (أحمد حمدي محمود : الحضارة ص ٢٨ ـ ٢٩). ويرى حسين مؤنس أن نستعمل الثقافة « لا في الدلالة على الاطلاع الواسع والمعرفة الغزيرة، إذ أن الفلاح والعامل لديهما حصيلة من المعلومات والمفاهيم الذاتية والقيم المحلية، ولا في معنى (الأدب) أي الأخذ من كل شيء بطرف كما قال الجاحظ، بل في (مجموع) المعلومات والمعارف والممارسات والقيم الخاصة بشعب ما والتي يعيش بمقتضاها وهي التي تميزه عن غيره من الشعوب لأنها تعبير صادق عن شخصيته وملامح هذه الشخصية وطريقته الخاصة في الحياة. وهذا معنى جديد في كل اللغات عبر ثلاثين سنة... « وعلى هذا تكون لنا حضارة يشترك معها غيرنا وثقافة خاصة بنا » على أن حسين مؤنس يشير أيضاً إلى تكون ثقافة عالمية أو عامة Universal بفضل وسائل الاتصال الجماهيرية mass media إلى جانب الثقافة الخاصة بشعب ما وما يتفرع عنها من ثقافات محلية أو تحتية Sub-cultures (الحضارة ص ٣٧٠ ـ ٣٩٠).

عناصر أساسية : أولها تصور (ذهني) عام لطبيعة عالم الوقائع ومضمونه، والعنصر الثاني مستمد من الأول وهو نسق من المشاعر تميز المستمد عن المكروه ويعبر عنها في أحكام تقويمية، وثالث العناصر مستمد من الأولين كذلك ويتعلق (بالارادة) و « الواجب) وهو نسق من الرغبات والغايات والواجبات والقواعد والمبادىء العملية. ويكتسب الانسان كل هذا في نظرته الجامعة إلى العالم)، التي تضم معتقداته وعادته ومشاعره وارادته. وقد تغلب ناحية المعرفة على هذه النظرة الجامعة عند فرد (أو جماعة)، وقد تطغى ناحية الشعور، أو قد تغلب ناحية الإرادة. وهذه النظرة الجامعة إلى العالم قد تعني أحياناً ما درجنا على تسميته « بالثقافة » التي نسعى لتوسيعها وتعميقها حتى تمكننا من حل ألغاز الحياة. ويذكر المفكر الطبيب الفنان « البرت شفاتيرز » Albert Schweitzer (١٨٧٥ ـ ١٩٦٥م) أن النظرة الجامعة إلى العالم تدور حول تساؤلنا عن أهمية المجتمع الذي نحيا فيه، وأهمية الإنسان الفرد للعالم ؟ وما الذي يريد أن يفعله للعالم ؟ وما الذي يبتغيه منه، وحق الفرد ازاء الإنسانية وواجبه نحوها ؟ **فالثقافة هي جملة المعتقدات التي يهتدي إليها الفرد بتأملاته واطلاعاته عن الكون وطبيعته وغايته ومصير البشرية**[1].

وقد أوضح علّامة الهند المسلم « مولانا أبو الكلام أزاد » وزير التربية في دولته عقب استقلالها أن « مساعي الإنسان لشق حجاب الطبيعة قد أطرد نجاحها، لكن المرآة التي صنعها الإنسان تعكس جميع مظاهر الكون من غير أن تعكس ذاته الخاصة، ولا جدال في أن الإنسان لم يتوصل بعد إلى تكوين فكرة واضحة عن طبيعته، وأنه **قد أدرك أسرار الكون أكثر مما أدرك الأسرار التي تعنيه هو نفسه**... ما هو الإنسان ؟ ومن أين جاء ؟.. وإلى أين يذهب ؟... الواقع أن الإنسان لن يتمكن من ايجاد حل ملائم لمعضلاته الفردية والاجتماعية والقومية والدولية قبل أن يعرف حق المعرفة طبيعة كيانه الخاص، وقبل أن يحدد المكان الذي يحتله في العالم

---

(١) أحمد حمدي محمود : الحضارة ص ٢٧ ـ ٢٨.

الأكبر... » وقد أكد هذه الحاجة الإنسانية الأساسية مفكر بوذي من سيرالانكا من (سيلان) هو الأستاذ « مالالا زيكيرا » إذ قال « يجب أن يتحرر البشر قبل كل شيء من قانون (النفعية) الضيق.... وان صور التقدم الحاسمة للحضارة التي أسهمت في رفاهية البشرية أكثر من غيرها قد اقترنت بمعتقدات ومثل عليا دينية. فمن أجل أن نخرج من الفوضى الحاضرة يجب أن تسيطر القيم الروحية، التي علينا أن نبعثها من جديد، على القيم المادية التي تجعل من عالمنا المعاصر سوقاً تجارية ضخمة ! ولكي يسهم الدين عملياً في سعادتنا يجب أن يكون له **أثره على جميع مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والمنزلية** على حد سواء، ويجب ألا ينحصر في الكنيسة أو الهيكل، أو يكون مقصوراً على يوم الأحد أو السبت، انما ينبغي أن يغمر الدين كياننا كله، شأن الهواء الذي نستنشقه ! وليس ثمة قواعد أخلاقية فردية تتميز عن القواعد الأخلاقية الجماعية. ومن أفدح العواقب الوخيمة لعصر الآلة ذلك الرجل السطحي العاري عن كل ثقافة ومثل أعلى، المغلق عن كل ما ليس له فيه مصلحة شخصية، والذي أسهمت أدوات السيطرة الحديثة على الجماهير، من اذاعة وسينما وصحافة كبرى، في تعميم نموذجه.. وحل هذه المعضلة منوط بالبشر، وسلوك الصراط المستقيم يكون بالاقلاع عن الانتهازية، ولا يكون ذلك الا بمقدار ما نعطي الموجب الأخلاقي أساساً غيبياً (ميتافيزيقياً) **فان القواعد الأخلاقية التي لا تنبثق من نظرة معينة للكون ومن مثل أعلى لحياة أكمل لا يمكن أن يتهيأ لها أساس راسخ**. وينبغي على الإنسان بادئ ذي بدء : أن يعرف نفسه، أي أن يكوِّن فكرة معينة عن ذاته، ولا وجود لمثل تلك الفكرة إلا في إطار مفهوم عام للحقيقة الواقعية والعالم ومبادئ الحياة »[1].

وهكذا ترتبط الثقافة ارتباطاً وثيقاً بالاعتقاد، بل انها تنبني على الأساس العقيدي وتنتج عنه، سواء أكان هذا الأساس ديناً أو فلسفة أو ايديولوجية. ففي الغرب، ترتبط الثقافة في علاقة وظيفية بفلسفتهم عن

---

(١) الثقافة الانسانية ... (المصدر السابق) ص ٣٦ ـ ٣٧ ، ١٩٦ ـ ١٩٨.

« **الانسان** » و « **الانسان الفرد** » **بوجه خاص**، فالثقافة في رأي الغربيين **هي « فلسفة الإنسان » ويتبنى المجتمع هذه الفلسفة بشأن الإنسان الفرد**، وتتغلغل جذور هذا الأساس الفلسفي إلى التراث الاغريقي اللاتيني للانسانيات أو العلوم الانسانية. وفي البلاد التي تدين بالماركسية، وهي التي تترك طابعها على القيم كما هو معلوم، ورد تعريف يادانوف « للثقافة »، في **تقريره الذي قدّمه إلى مؤتمر الحزب الشيوعي في موسكو سنة ١٩٣٨ م**، بأنها ذات علاقة وظيفية بالجماعة، فهي إذن « **فلسفة المجتمع** ». وهكذا تنتج الثقافة آثارها في السلوك بحكم **ارتباطها بالأساس الاعتقادي** ولا تكون مجرد نظرية في المعرفة، ومن هنا يظهر الفارق الكبير الجذري بين الثقافة والعلم، حتى يصبح الطبيب الانجليزي مثلاً ـ كما يصور بحق مفكرنا المسلم الراحل **مالك** بن نبي تغمده الله برحمته ـ **أقرب إلى** الراعي الانجليزي من الطبيب الهندي أو النيجيري ما لم ينخلع الأخير عن ثقافته، وحتى لو فعل فهو لن يستطيع تقمص الثقافة المغايرة تماماً. وهكذا يعرف مالك بن نبي الثقافة بأنها « **مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يتلقاها الفرد منذ ولادته كرأسمال أولي في الوسط الذي ولد فيه، وتكون الثقافة بذلك هي المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته**. ويعكس هذا المحيط الحضارة السائدة ويتحرك في نطاقه الإنسان المتحضر. **ولا يمكن أن نتصور تاريخاً بلا ثقافة، والشعب الذي يفقد** ثقافته يفقد حتما تاريخه ». ويذهب مالك بن نبي إلى القول بأن الثقافة، بما تتضمنه من فكرة دينية نظمت الملحمة الانسانية في جميع أدوارها من لدن آدم، لا يسوغ أن تعتبر مجرد علم يتعلمه الانسان، بل هي « محيط يحيط به، واطار يتحرك داخله ويغذي الحضارة في أحشائه، **فهي الوسط الذي تتكون منه جميع خصائص المجتمع المتحضر، وتتشكل فيه كل جزئية من جزئياته تبعاً للغاية العليا التي رسمها المجتمع لنفسه بما في ذلك الحداد والفنان والراعي والعالم وإمام الصلاة، وهكذا يتركب التاريخ وتعطى الحضارة سمتها الخاصة** ». وفي المركب الاجتماعي للثقافة يكون لبرنامجها التربوي **عناصر أربعة** : **الأخلاق** لتكوين الصلات الاجتماعية، **والجمال** لتكوين الذوق العام، **ثم منطق عملي** لتحديد أشكال

النشاط العام، **وفن تطبيقي موائم** لكل نوع من أنواع المجتمع technique وهو ما يسميه ابن خلدون « صناعة »[1]. ويرى مالك بن نبي أن قوة التماسك اللازمة للأفراد في مجتمع يريد تكوين وحدة تاريخية تستمد أصلاً من غريزة الحياة الجماعية عند الفرد، ويستفيد المجتمع الذي يريد تكوين حضارة من نفس الغريزة، لكنه يهذبها ويوظفها بروح خلقية سامية. ويلاحظ المفكر في عمق أن كلمة religion في أصلها اللاتيني تعني (الربط والجمع). ويقرر أن الروح الخلقية منحة من السماء إلى الأرض، وهو يرى أن تتبع ما يظن أنه المظاهر المدنية (العلمانية) للحضارة الغربية يكشف عن روابطها بالأصول الدينية الأولى التي بعثت الحضارة، بل يرى مالك بن نبي أن « هذه هي حقيقة كل عصر وكل حضارة »[2]. ويمضي إلى القول بأن الشيوعية نفسها ليست استثناء مما ذهب إليه، فان الحضارة الغربية التي دخلت المسيحية في تكوين أصولها، حين تحللت على السطح وانتهت إلى ما انتهت إليه، أعطت الماركسية حيويتها. وهكذا يقرر المؤلف أننا « **مضطرون إلى أن نعتبر الشيوعية (أزمة) للحضارة المسيحية** »! ومن الناحية العملية والنفسية (السيكلوجية)، فان « الشيوعية الواقعية هي في جوهرها نشاط المؤمنين المدفوعين بنفس القوى الداخلية التي دفعت غيرهم **من المؤمنين في مختلف العصور ــ أولئك الذين يُعبِّروا عن جوهر الحضارات**، فالظاهرة متماثلة في جوهرها النفسي »[3] كما يُعبِّر مفكرنا المسلم المبرز أفسح الله له في جنته.

---

(١) مالك بن نبي : شروط النهضة ــ ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين ــ دار الفكر ــ ط ١٩٦٩/٣ م ــ ص ١٢٣ ــ ١٣٢.

(٢) المصدر السابق : ص ١٣٣ ــ ١٣٦.

(٣) المصدر السابق ص ٨٠ ــ ٨١. وقد ذهب إلى ايضاح البعد النفسي « الميتافيزيقي » لبعض الفلسفات والايديولوجيات المادية عدد من المفكرين. يقول جوستاف لوبون مثلا « لا يكون الانسان متديناً اذا عَبَد الهاً فقط بل عندما يضع جميع منابع نفسه وانقيادات ارادته في خدمة قضية أو موجود غدا غاية المشاعر ورائدها. ويمكن أن يقال ان جميع المعتقدات ذات صبغة دينية... ولا تستقر المعتقدات السياسية والاجتماعية الا باكتسابها شكلا دينياً على الدوام، ولو أمكن حمل الجماعات على الالحاد لاكتسب الالحاد ما في الشعور الديني من ولاء حتى يصبح ضرباً من العبادة بسرعة. ولنا في تطور (الوضعية) positivisme مثال طريف لذلك الذي آمن بالعدمية nihilisme فحطم صور القديسين=

ومالك بن نبي من أنصار الرأي القائل « بدورة الحضارة » ومن هؤلاء ابن خلدون في الماضين، واشبنجلر في المحدثين. وقبل ميلاد حضارة ما يكون الانسان على « الفطرة » ودوافعه النفسية (أو غرائزه) على الحال التي وهبتها الطبيعة للانسان، **وهذا الانسان الطبيعي أو الفطري homo natural**، تتولى الفكرة الدينية اخضاع غرائزه وتوجيهها conditionnement، والفكرة الدينية على هذا النحو تنظم هذه الدوافع النفسية في علاقة وظيفية مع مقتضيات الفكرة الدينية، وهكذا تنضبط الدوافع بقواعد نظام معين ولكنها لا تلغى، ويتحرر الفرد جزئياً من قانون الطبيعة المفطور عليه جسده، ويخضع وجوده في كليته إلى المقتضيات الروحية التي طبعتها الفكرة الدينية في نفسه بحيث يمارس حياته **في هذه الحالة الجديدة حسب قانون الروح**، وهو القانون الذي كان يحكم « بلالاً » حينما كان لا يفتر تحت نير العذاب عن تكرار « **أحد.. أحد** » ـ **وهي قولة لا تمثل صيحة الغريزة في هذا** الموقف بل قمة سيطرة العقيدة على تلك الدوافع نهائياً في ذاتية بلال. **وذلكم هو الطور الأول للحضارة. ثم ينشب الصراع بين الغريزة التي تحاول التملص والانطلاق والروح المسيطرة**، وفي الوقت نفسه يواصل تطوره في المجتمع الذي أخرجته الفكرة الدينية إلى النور وتكتمل شبكة روابطه الداخلية في حين يمتد اشعاع الفكرة الدينية في العالم، فتنشأ المشاكل المحسوسة للمجتمع الوليد نتيجة اكتماله كما تتولد ضرورات نتيجة اكتماله. وحتى تستطيع الحضارة تلبية هذه الظروف الحادثة **تسلك منعطفاً جديداً وتلجأ إلى العقل الذي تمثل سيادة قانونه الطور الثاني**

= وأحل محلها كتب الفلاسفة الملحدين !!.. وهكذا كان كل التحول في موضوع معتقداته الدينية، أما مشاعره الدينية فما زالت قائمة لم تمس » (انظر « روح الجماعات » ترجمة عادل زعيتر ص ٦٨ ـ ٧٠). ويشير إلى الحقيقة نفسها عباس العقاد حيث يقول : « وقد رأيت أناساً يبطلون الأديان في العصر الحديث باسم الفلسفة المادية فاذا بهم يستمدون من الدين كل خاصة ولازمة، ثم يجردونه من قوته التي يبثها في أعماق النفس لأنهم اصطنعوه اصطناعاً ولم يرجعوا به إلى مصدره الأصيل.. وهم يطلبون النعيم المقيم على الأرض متى صحت نبوءتهم عن زوال الطبقات، وتلك بداية (الفردوس) الأبدي عندهم !... ولا يخلو دين الفلسفة المادية من شيطانه ـ وهو الرأسمالية ! » ـ انظر « الفلسفة القرآنية ».

للحضارة. لكن **العقل لا يملك سيطرة الروح على الغرائز فتشرع هذه في الانطلاق شيئاً فشيئاً** بقدر ما تضعف سلطة الروح وبقدر ما يضعف ضغط المجتمع على الفرد حتى تستعيد الطبيعة غلبتها على الفرد وعلى المجتمع تدريجياً. **وعندما يبلغ انطلاق الغرائز تمامه، يبدأ الطور الثالث للحضارة، وهو طور الغريزة السافرة،** وهنا تنتهي الوظيفة الاجتماعية للفكرة الدينية في مجتمع منحل يكون قد دخل في ليل التاريخ وقد بلغت الحضارة أجلها وتفسخ الانسان وسلبت منه الحضارة[1].

التأثير الحضاري للإسلام :

ويذكر المستشرق الدنمركي « جوستاف فون جرونيباوم » G. Von Grunebaum أن الحضارة Culture، في أساسها الفكري والروحي، أو الثقافة، بمعنى الفكرة الجامعة عن العالم ـ يمكن أن توصف من بعض النواحي بأنها **نظام محدد من التساؤلات والأجوبة التي تتعلق بالكون وسلوك الانسان فيه، يقبله مجتمع بشري باعتباره نظاماً سائداً حاكماً حاسماً.** وهي تتضمن **معياراً للقيم** يقرر الوضع النسبي لدرجة الأهمية التي تكون لموضوع السؤال والجواب. وليس يعني ذلك أن تكون هذه التساؤلات والاجوبة في حضارة ما محصورة محدودة لا تقبل زيادة على مر الزمن، وإنما يعني ذلك انحصارها وتحديدها في فترة معينة من الفترات تكون هي موضع البحث والدراسة، ويأتي هذا الحصر والتحديد وفقاً لخبرات الجماعة في تلك الفترة.

وقد أجمل « جرونيباوم » التأثير الحضاري للاسلام في تغييرات أساسية أحدثها في مجال القيم بالنسبة لما كان سائداً قبله بشبه جزيرة العرب في ظل الوثنية. ومحور هذه التغييرات : **تحديد هدف الحياة وغايتها وراء هذه الحياة الدنيا،** ومن ثم تكون قيمة أي انجاز بشري هي في تقدير حسابه وجزائه في الآخرة. ولما كانت حياة المرء على هذا النحو هي موضع حساب وجزاء في الدار **الآخرة الباقية فقد تضمّن ذلك « استمرارية »** الحياة

---

(١) المصدر السابق : ص ٩٨ ـ ١٠٠.

الإنسانية بدون تقطع أو تفتت، وهكذا يتوالى السير ويتصل العمل ولا تكون الحياة تتابعاً لتصرفات جزئية متقطعة منعزلة بعضها عن بعض. كذلك **فان الإسلام ينصب الجماعة حارسة على صراط الله المستقيم المبين للناس والذي عليهم أن يلتزموا نهجه في مختلف مساعيهم ومناشطهم، وان كان الإسلام يؤكد بصفة أساسية مسئولية الفرد ويقدمها على المسئولية الجماعية**[1]. وفي ظل هذه القيم الأساسية، يطرح الإسلام أسئلة جوهرية ثلاثة يقدم أجوبته عليها كما يذكر جروينباوم وهي : **كيف تعيش حياة صحيحة، وكيف تفكر تفكيراً صحيحاً، وكيف تقيم نظاماً صحيحاً. وقد قدم الإسلام أجوبته لهذه المشكلات والقضايا في : التربية الصحيحة للفرد، والترتيب النسبي لمناشط الانسان (الواجب، المندوب، المباح، المكروه، الحرام)، وتحديد القصد والمجال بالنسبة لسلطة الحكم أو ممارسة القوة السياسية.** وكان من ثمار هذه القيم الأساسية التي قررها الإسلام، والأجوبة التي ارتآها للمشكلات الانسانية الرئيسية في ظل تلك القيم، ان استحدث الإسلام واجبات على عاتق الفرد أو عهد إلى تعديل واجبات قديمة، كما أنه قرر حقوقاً جديدة. وتتناول هذه الواجبات والحقوق شتى مجالات السلوك الانساني، سواء السلوك الفردي والسلوك الاجتماعي وعلاقات الفرد بقرابته أو الجماعة كلها. وقد أدى ذلك إلى تقويم

---

(١) يقرر القرآن مسئولية الفرد بصفة أساسية « وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً » مريم/٩٥ ـ « وكل انسان ألزمناه طائره في عنقه.. الاسراء/١٣ » « ولقد جئتمونا فرادى... وما نرى معكم شفعاءكم.. الأنعام/٩٤ » « قل انما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ـ سبأ/٤٦ » « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ـ المائدة/١٠٥ » « من اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها، ولا تزر وازرة وزر أخرى ـ الاسراء/١٥ ». ولكنه يقرر تقريراً متوازناً المسئولية الاجتماعية للفرد والجماعة أيضاً « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله ـ التوبة/٧١ ». « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ـ آل عمران/١١٠ » « وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً، قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون ـ الأعراف/١٦٤ » « ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله أولياء ثم لا تنصرون ـ هود/١١٣ »، وإلى جانب ذلك هناك أحاديث كثيرة في هذا المجال، كما ان الإسلام يؤكد وحدة الجماعة وتضامنها.

أية خبرات حضارية سابقة أو لاحقة في هذا الضوء، بحيث تكون متجاوبة مع معايير الإسلام ومقاصده[١].

تصنيف الحضارات ... ووضع الحضارة الإسلامية :

يقابل تصنيف الحضارات **حسب المكان** (بأن يُقال مثلاً حضارة الصين أو حضارة اليونان)، ويقابل مثل هذا التصنيف صعوبات منها، ما قد يحدث من انتشار الحضارة خارج موطنها الأصلي، (الحضارة الهيلينية Hellnic في بلاد الإغريق التي امتدت إلى الشرق فغدت الحضارة الهيلينستية Hellnestic مثلا ولم تتخلّ عن طابعها الإغريقي وإن امتزجت بعناصر حضارية أخرى)، كذلك فان الحضارة في موطنها ذاته تتعرض لمؤثرات حضارية آتية من الخارج. كما أن المكان المعين تعرض له دورات حضارية متباينة أحياناً بحيث يتعذر النظر إليها باعتبارها وحدة حضارية. وقد يتبع المجتمع الواحد عدة حضارات في بعض الأحوال[٢].

ويذكر مثلاً أن ثمة فصائل خمس من الحضارات الباقية إلى اليوم، وقد جرى تصنيفها حسب المكان وهي : الحضارة الغربية الأوربية المسيحية (بفرعيها اللاتيني والجرماني)، والحضارة الأوربية الشرقية المسيحية الارثوذكسية (في روسيا وجنوبي شرقي أوربا)، والحضارة الإسلامية (على الشريط الصحراوي المداري من المحيط الأطلسي إلى سور الصين العظيم ويشتمل على مناطق استوائية واسعة)، والحضارة الهندية (في شبه القارة الهندية ومعظمها استوائي)، وحضارة الشرق الأقصى (في وسط الشرق الأقصى الآسيوي المعتدل والجنوب الشرقي الاستوائي من آسيا).

وتُعَدُّ حضارات ست، دفعت الانسان قدماً في طريق التحرك الحضاري في القديم، هي : الحضارتان المصرية والسومرية، وحضارتا المايا والانديز (في العالم الجديد)، والحضارتان الصينية والمينوية Minoan (والاخيرة

---

(١) Grunebaum : Modern Islam, pp. 19, 21-25.

(٢) أحمد حمدي محمود : الحضارة ص ٧.

قامت في كريت وهي أم للحضارتين الاغريقية فالرومانية).

كما يذكر من الحضارات القديمة التي قامت في دولة عالمية Universal State مثلاً : المصرية والسومرية والاغريقية والرومانية والهندية والصينية والاندية (حضارة الانكا Inca في بيرو وغربي أمريكا الجنوبية)، والازتيكية Aztec (حضارة المايا أو الازتك في المكسيك وأمريكا الوسطى). ولتوينبي في تصنيف الحضارات وبيان الملامح الأساسية لكل منها جولات ممتعة. والدولة العالمية هي الجانب السياسي من الحضارة، إذ تنتشر الحضارة وتمتد في حماية الدولة العالمية التي تتطور نظمها هي الأخرى فتكون مظهراً لتلك الحضارة. ويرى توينبي أن الدولة العالمية في كيانها السياسي تتعرض للتفكك والتجزؤ وتبقى الحضارة العالمية التي نشأت وانتشرت معها وفي ظلها[1].

وتصنيف الحضارات حسب الزمان (كأن يقال حضارة العصور الوسطى مثلاً) يفترض طابعاً حضارياً موحداً في الفترة الزمنية المعينة، في حين قد لا تكون وسائل الاتصال الحضاري بين مختلف الأماكن بهذا اليسر، وتقوم عوامل التميز في الأماكن المختلفة التي تدعو إلى التباين في الطابع الحضاري بين المجتمعات المتعاصرة، (ومن أمثلة ذلك تباين الحضارتين الإسلامية والبيزنطية، وحضارة أوربا الغربية في العصور الوسطى). كما يصعب القول بانحصار حضارة ما في فترة زمنية معينة وانقطاعها عما سبقها من حضارة نظراً لخاصية الاستمرار الحضاري. **وقد يمكن أن يؤدي اقتران تحديد المكان مع تجديد الزمان إلى تصنيف للحضارات أكثر توفيقاً**، كأن يقال مثلاً حضارة اليونان في القرن الخامس قبل ميلاد المسيح. وقد سبقت أمثلة على تصنيف مكاني زمني للحضارات القديمة والحضارات المستمرة القائمة اليوم.

وتصنيف الحضارات **حسب العقيدة الدينية** يستلزم أن يكون الدين من العمق والشمول بحيث يطبع حضارة بطابعه، فيغلب هذا الطابع العام.

---

(١) انظر مؤنس : الحضارة ص ٨١ ـ ٨٩ ، ٢١٥ ـ ٢٤٥.

على الفروق المكانية والزمانية بين من دانوا لهذا الدين في مختلف الانحاء والعصور، وأن تسود أحكامه الشاملة زمناً غير قصير، وعلى ذلك يصعب القول مثلاً « بحضارة يهودية »، رغم **دعاوى** اليهود، وان تضمنت اليهودية تشريعاً دينياً، وذلك لقصر الفترة التي عاشتها الدولة اليهودية وعدم توفر الاستقرار والاستمرار الضروريين لقيام الحضارة[1]. كما يصعب القول « بحضارة مسيحية » متكاملة بالمعنى الاصطلاحي للحضارة وذلك لتركيز المسيحية على الجانب الروحي الاخلاقي وعدم صياغة طابع حضاري شامل موحد لمن دانوا بها في مختلف الأمكنة والأزمنة، وان كانت المسيحية عاملاً غير منكور أسهم ضمن عوامل أخرى في صياغة الحضارة البيزنطية وحضارة أوربا الغربية الوسيطة، بل أسهم بصورةٍ ما في الحضارة الغربية الحديثة نفسها.

وبالنسبة للإسلام، فان حضارته قد بدأ العرب المسلمون حمل مشاعلها منذ اعتناقهم للإسلام ونهوضهم برسالته، وقد غلبت على الحضارة الإسلامية صبغة لغة القرآن العربية. ومن هنا آثر بعض المحدثين، من الباحثين الغربيين، ومن الباحثين العرب المتأثرين بالنزعة القومية، تسمية الحضارة الإسلامية « **بالحضارة العربية** » لابراز صبغتها اللغوية الثقافية التي جمعت في نطاقها مسلمين وغير مسلمين يتكلمون جميعاً العربية، والتي كان نجاحها في الانتشار وتحويل الشعوب إليها لا يقل عن نجاح الفتوح الإسلامية في جانبها العسكري السياسي. ومع التسليم بأهمية الطابع اللغوي الثقافي العربي في الحضارة الإسلامية، فإنه يخشى مغبة الانزلاق إلى المعاني العرقية عند استعمال هذا الوصف، كما يخشى تجاهل الجماعات المسلمة العرقية الأخرى التي لم يتح لها أن يستعرب لسانها لكنها أسهمت في تشييد

---

(١) أنظر مثلا : لوبون ـ اليهود في الحضارات الأولى ـ ترجمة عادل زعيتر. ومن هنا يحاول اليهود إقامة أمجادهم الحضارية باطلاق دعاوى لا أساس لها أو مبالغ فيها عن جهودهم في الحضارات المختلفة التي لا تنتسب إليهم بصورة مباشرة ابتداء من الحضارات الهلنستية والرومانية والفارسية ـ بل وحتى الحضارة المصرية القديمة بما في ذلك عهود الفراعنة، ومروراً بالحضارة الإسلامية في الأندلس بصفة خاصة وفي أماكن أخرى، وحتى الحضارة الغربية الحديثة منذ النهضة الأوروبية إلى الآن.

صرح الحضارة الإسلامية ـ من فرس وترك وهنود وبربر. كذلك فان وصف حضارة الإسلام بأنها الحضارة العربية يغفل عن ابراز أثر رسالة الإسلام في قيام حضارته وصياغة طابع موحد لها في المجتمعات التي دانت بالإسلام، وان تنوعت التفاصيل تنوعاً في إطار الوحدة كما يقول التعبير المعروف Variety within Unity. وإن وجود عناصر غير مسلمة في تلك المجتمعات التي أظلتها الحضارة الإسلامية لا ينفي غلبة طابع معين على حضارة المجتمع ككل، وهو طابع الإسلام الذي يتجلى في الأصول العقيدية الفكرية لتلك الحضارة وفي قاعدتها البشرية العامة ومؤسساتها الاجتماعية والسياسية الملزمة وقياداتها الموجهة. بل ان العربية انما شغلت منزلتها الرفيعة في الحضارة الإسلامية بتأثير الإسلام نفسه، إذ كانت لغة القرآن، ولغة رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام، ولغة السلف الصالح من الصحابة والتابعين الذين اضطلعوا بنشر رسالة الإسلام، وهكذا تحققت للغة العربية مكانتها الاجتماعية وازدهارها الثقافي بفضل الإسلام ذاته، وقد جاءت الفتوح الإسلامية مختلفة عن الحروب القبلية. ونمت الحضارة الإسلامية في شتى الأمصار، ولا يمكن أن يقال انها استوردت من شبه الجزيرة العربية، واستمدت أصولها المشتركة في شبه الجزيرة وخارجها من رسالة الإسلام ذاتها لا من التراث الثقافي للعرب أنفسهم قبل ظهور الإسلام، وأسهم في انماء تلك الحضارة،العرب وغيرهم من المؤمنين بالإسلام. ولم ترتبط الحضارة الإسلامية دوماً بالغزو العسكري والقوة السياسية، فربما ازدهرت مع ضعف العنصر العربي أو حتى مع ضعف كيان الخلافة السياسي والعسكري بوجه عام. ولقد استمرت عناصر الطابع الحضاري الموحد لدار الإسلام رغم الانقسام السياسي للدول الإسلامية[1]. وما أصدق ذلك التقرير التاريخي الدقيق الذي حمله بين دفتيه كتاب « تاريخ الإسلام » الذي نشرته جامعة كمبردج في بريطانيا Cambridge History of Islam إذ يقول « ان الإسلام دين

---

(١) انظر في ذلك مثلا ما كتبه « جون بادو » بعنوان « دور العرب في الثقافة الإسلامية » في كتاب « عبقرية الحضارة العربية »، وانظر مواضع أخرى من الكتاب. وقد ترجمه للعربية مجموعة من المترجمين.

ومجتمع ومدنية وحضارة في نفس الوقت. وإذا كان من الصحيح أن بلداناً عدة من بين تلك الأراضي التي انتشر فيها الإسلام كانت لها مدنيات وحضارات قديمة ذات شأن، وأن حضارة الإسلام قد تشربت ما سبقها وتمثلته بطرق متنوعة، فإنه ينبغي ألا يفوتنا أن الإسلام في تمثله ما وجده من تراث حضاري متباين قد أمده بخصائص عامة جامعة، وبوجهة مشتركة في مجالات الصلة بالله وبالناس وبالعالم. وهكذا أكد الإسلام الوحدة الجامعة للمركب الحضاري « دار الإسلام » رغم التنوع في اللغات أو التراث التاريخي أو السلالات العرقية. وقد كان تاريخ الشعوب والبلدان الإسلامية مثالاً فريداً لترابط الجانبين الروحي والمادي في حضارة تقوم على أساس الدين، وقد توجد معها ثقافات دنيوية أخرى لكنها تمتصها[1] « ويلاحظ من مظاهر الثقافة الإسلامية العامة أن شخصيات السلف الصالح، الذين أبلوا البلاء الحسن في الدعوة والفتح والدولة، قد أصبحوا أبطالاً بالنسبة لكل شعب من شعوب الإسلام، وانتشر بين المسلمين اسم الرسول ﷺ[2] كما انتشرت أسماء صحابته واسم (عبد الله) وسائر أسماء الله الحسنى مسبوقة بـ (عبد). بل حرصت شعوب مسلمة عدة في افريقية وآسيا على ربط نسبها بالصحابة أو بالعرب بصورة من الصور[3] وروى الطبري في أخبار الدولة الأموية أن المسلمين غير العرب استنكروا دفع بعض الفرائض المالية المقررة بعد أن « صار القوم عرباً »[4] ـ أي مسلمين !

ويرى البعض أن تقدم سبل المواصلات في أيامنا، والطابع التكنولوجي البارز في الحضارة المعاصرة، مما يجعل حضارتنا الراهنة « عالمية » يتعذر فيها التصنيف المكاني والعقيدي. والحق أن التباين الثقافي والايديولوجي في المجتمعات التي تنتمي إلى الحضارة المعاصرة، لا

---

(١) Cambridge History of Islam, II : 369.

(٢) مؤنس : الحضارة ص ٣٩٠.

(٣) انظر مثلا عن أصل الأكراد : شرف خان البدليسي ـ شرفنامه (في تاريخ الكرد) ترجمة جميل بندي وروثر بياني. ويتناقل (اللزكي) من قبائل داغستان أنهم من أصل عربي. وغير ذلك.

(٤) انظر في تاريخ الطبري أخبار خلافة هشام بن عبد الملك في صدد السياسة المالية في خراسان وما وراء النهر أثناء ولاية أشرس بن عبد الله السليمي.

بد أن يترتب عليه تباين في الطابع الحضاري لكل منها وبخاصة على المدى الطويل، فلا يكون هذا الطابع سواء في الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي والصين وان اتّحد الطابع التكنولوجي (المادي) أو جانب (المدنية). ومن ثم يحق للمسلمين تكريس الجهود لأجل أن **تواصل الحضارة الإسلامية حياتها** وتجددها في صورة معاصرة تشارك في التقدم التكنولوجي العالمي مع تميز في الأسس العقيدية الأخلاقية التي يكون لها انعكاساتها المحتومة على الصور التنظيمية للمجتمع والدولة ومناشطهما.. بل على المنجزات التكنولوجية ذاتها. وهكذا تكون للحضارة « في التصور الإسلامي حياة مستمرة تصاحب حياة الإنسانية. وان الذي يمدها بهذا العمر الطويل الدائب الدائم : تمثّلها للخلاصات السوية من ثمرات الحضارات الإنسانية السالفة، وتلاق كامل مع الفطرة الإنسانية، وقابلية للنماء المتكيف مع الزمن... للحضارة الإسلامية خصائصها الجذرية الدائمة وشخصيتها الحركية الحية، فهي وجود واحد ــ له في نمائه وتوقفه ــ مراحل وأطوار، ولكنه لم يمت قط وليس من طبيعته أن يموت »[1]. وبذلك تستثنى هذه الحضارة من الانحلال والفناء، على نحو ما أمّل توينبي في الحضارة الغربية القائمة أو أرتأى أنها سوف تتوقى مصير الحضارات الزائلة نتيجة عالميتها وتجددها، وذلك أن « حضارة الإسلام أساسها العقيدة التي تتعاقب على حمل رايتها الأجيال، وأداتها هي اللغة العربية ــ لغة القرآن ــ وبفضله عاشت وقدر لها أن تنجو من الضياع. وبفضل الإسلام والعربية ظلت حضارة الإسلام حية، لأن العقيدة لا تبلى ما دام هناك الذين يؤمنون بها، وما دامت العقيدة حية في عالم الإسلام فاللغة العربية حية. أي أن عنصري الحضارة الإسلامية الأساسيين باقيان لا ينال منهما كر الغداة ومر العشي وتعاقب الأجناس وتغير الظروف » ومن لطيف القول، ما عقب به صاحب هذا الكلام ــ الأستاذ الدكتور حسين مؤنس ــ على عبارته سالفة الذكر حين قال : « وهذا

---

(١) عمر الأميري : الإسلام في المعترك الحضاري ص ١٦ ــ ١٨.

مبحث واسع يحتاج إلى كتاب قائم بذاته، فلنكتف بهذا القدر في هذا المجال »[1].

والحق أن رسالة الإسلام الخالدة تضمنت في ذاتها من القيم الحضارية التي لا تفتأ توجه الأبصار والبصائر إليها، وتشحذ الهمم والعزائم للعمل لها بما يحقق حضارة خالدة خلود الإسلام ذاته، ما استمسك المسلمون بدينهم والتنزموا تعاليمه.

---

(١) مؤنس : الحضارة ص ٢٧٣.

أساس القيم الحضارية في رسالة الإسلام
كرامة الإنسان

الإنسان هو محور الحضارة وأساسها، وتحديد وضعه في أي دين أو فلسفة هو منطلق الحضارة، فلا تقوم حضارة على إنسان مهين أو مضيع أو سلبي. والإنسان في رسالة الإسلام ليس مادة صماء يسير آلياً وفق قوانينها الجامدة، وليس حيواناً تحكمه الغريزة العمياء فحسب، كما أنه من ناحية أخرى ليس مَلَكاً معصوماً يستجيب ويتأثر وينفعل دون ايجابية وتأثير وفعل. ان القرآن قد أعلمنا عن الملائكة أنهم « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ـ التحريم٦ »، بينما قرر عن الإنسان « ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها. قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها ـ الشمس/٧ ـ ١٠ » فهو مخلوق له ارادته وطاقاته وامكاناته. والإيمان بالله يصون هذه الطاقات من أن يستنزفها اليأس والتواكل والسلبية، بوجه عام من جهة، أو الكبر والبطر والغرور من جهة أخرى. ومن تعاليم القرآن الكريم في الجانب الأول قوله عز وجل « ولا تيأسوا من روح الله، انه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ـ يوسف/٨٧ » « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الاعلون إن كنتم مؤمنين ـ آل عمران/١٣٩ »، « واصبر على ما أصابك ان ذلك من عزم الأمور ـ لقمان/١٧ »، « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا/آل عمران/٢٠٠ »، « وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر/العصر/٣ » « ومن يتوكل

على الله فهو حسبه، ان الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً ــ الطلاق/٣ »... وتعاليم القرآن في الجانب الثاني منها آيات القرآن البينات « ولا تمش في الأرض مرحاً، إنك لن تخرق الأرض، ولن تبلغ الجبال طولا ــ الإسراء/٣٧ »، « ولا تصعِّر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً، ان الله لا يحب كل مختال فخور، واقصد في مشيك واغضض من صوتك، إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ــ لقمان/١٨ ــ ١٩ »، « إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً، يستضعف طائفة منهم، يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم، إنه كان من المفسدين ــ القصص/٤ » « ان قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم، وآتيناه من الكنوز ما إنَّ مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة، إذ قال له قومه : لا تفرح، إن الله لا يحب الفرحين. وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا، وأحسن كما أحسن الله إليك، ولا تبغ الفساد في الأرض، إن الله لا يحب المفسدين. قال، إنما أوتيته على علم عندي، أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً، ولا يُسأَلُ عن ذنوبهم المجرمون. فخرج على قومه في زينته، قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون، إنه لذو حظ عظيم. وقال الذين أوتوا العلم : ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يُلقّاها إلا الصابرون. فخسفنا به وبداره الأرض، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين... تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون عُلوّاً في الأرض ولا فساداً، والعاقبة للمتقين ــ القصص/٧٦ ــ ٨٣ ».

وقد روى القرآن كيف خلق الإنسان، وتضمن ذلك تقرير مكانة هذا المخلوق وطاقاته وامكاناته الروحية والنفسية والعقلية واللغوية التي زوده بها الخالق سبحانه وتعالى، « فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ــ الحجر/٢٩ » « وفي أنفسكم أفلا تبصرون ــ الذاريات/٢١ »، « خَلَقَ الإنسان علّمه البيان ــ الرحمن/٢٤ »، « وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم، فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض، وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ــ البقرة/٣١ ــ ٣٣ ».

ونتيجة لما وهب الله الإنسان من قدرات نفسية وعقلية، استطاع أن يتعرف على النواميس والقوى الكونية ويستخدمها « وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره، وسخر لكم الأنهار. وسخر لكم الشمس والقمر دائبين. وسخر لكم الليل والنهار. وآتاكم من كل ما سألتموه، وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها، إن الإنسان لظلوم كفار ـ ابراهيم/٣٢ ـ ٣٤ »، « وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون. وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه، إن في ذلك لآية لقوم يذكرون. وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها، وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون. وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون. وعلامات وبالنجم هم يهتدون. أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون. وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم » النحل/١٢ ـ ١٨، « الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون. وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » الجاثية/١٢ ـ ١٣.

وبهذه الطاقات والقدرات التي منحها الله للإنسان، وبما سخر له من طاقات الكون وبما أنزل إليه من هداية الوحي، تحققت كرامة الإنسان بين خلق الله وتهيأ له أن يصنع ويبدع ويقيم الحضارة وينشرها، « ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً » الاسراء/٧٠. بل ان كيان الإنسان البيولوجي واستقامة قامته وطاقته الحركية وقدرته على النطق وغير ذلك كان مما أتاح السبيل للانسان كي يتحضّر وينشر الحضارة « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ـ التين/٤ »، « ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ـ الأعراف/١١ »، « وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات / غافر/٦٤ »، « الذي خلقك فسواك فعدلك، في أي صورة ما شاء ركبك ـ الانفطار/٧ ـ ٨ »، « ألم نجعل له عينين، ولساناً وشفتين. وهديناه النجدين ـ البلد/٨ ـ ١٠ ». وحين أبطل الإنسان قدراته النفسية والعقلية العليا، وحصر نفسه في نطاق وجوده البيولوجي وحده، فإنما أبطل

خصائصه وميزاته وارتد حيواناً لا يقيم حضارة إذ افتقد النظرة الجامعة للكون والأساس الفكري للحضارة.. « واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين. ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه، فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا، فاقصص القصص لعلهم يتفكرون. ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون.... ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام بل هم أضل، أولئك هم الغافلون ـ الاعراف/١٧٥ ـ ١٧٩ »، « أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون، إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً ـ الفرقان/٤٤ »، « فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين ـ الأعراف/١٦٦ »، « قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله، من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعَبَدَ الطاغوت، أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل ـ المائدة/٦٠ ». وعلى العكس من ذلك يرشد من يصون خصائصه وميزاته الانسانية وينميها بهداية الله « فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون ـ البقرة/١٨٦ »، « ولكن الله حبب إليكم الايمان وزينه في قلوبكم وكرَّه اليكم الكفر والفسوق والعصيان، أولئك هم الراشدون ـ الحجرات/٧ ».

والإنسان الذي كرمه الله منذ خلقه، ونفخ فيه من روحه، وعلمه الأسماء كلها، هو الإنسان باطلاق، ذكراً كان أو أنثى، وفي عقيدة الإسلام يتحمل الشيطان، لا حواء، اثم اغواء آدم وفقاً لصريح القرآن. ويجمع الرجل والمرأة وحدة الأصل ووحدانية الرب ووحدة الدين عقيدة وشريعة، فكراً وخلقاً وسلوكاً، وهذه المسئولية والالتزام والجزاء في الدنيا والآخرة... « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام، إن الله كان عليكم رقيباً ـ النساء/١ »، « فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض ـ آل عمران/١٩٥ »، « يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في

معروف فبايعهن واستغفر لهن الله، ان الله غفور رحيم ـ الممتحنة/١٢ »، « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله، أولئك سيرحمهم الله، ان الله عزيز حكيم ـ التوبة/٧١ »، « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما، جزاء بما كسبا، نكالاً من الله، والله عزيز حكيم. فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فان الله يتوب عليه، ان الله غفور رحيم ـ المائدة/٣٨ ـ ٣٩ »، « الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ـ النور/٢ »، « ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً. وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً ـ الاحزاب/٢٥ ـ ٣٦ ». وبهذا يتضافر المجتمع، رجالاً ونساء، على تشييد صرح الحضارة، ولا يكون شطره سلبياً معطلاً أو مبدَّداً مضيَّعاً لما ينهض به الرجال. وليس معنى هذا أن يكون وضع المرأة المسلمة في حضارتنا تقليداً لوضعها في الحضارة الغربية. ولقد شرعت جماعات من النساء الغربيات تتنبه إلى خطورة وضع المرأة في مجتمعهن. كما لا يعني الوضع الصحيح للمرأة في المجتمع الإسلامي الملتزم إقرار كل ما تعارفت عليه مجتمعات المسلمين من تقاليد في شأن المرأة، وإنما ينبغي أن يرد الأمر إلى الله ورسوله، وتحكّم شريعته في الرجال والنساء « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً ان تكون لهم الخيرة من أمرهم ». وشريعة الإسلام هي شريعة الأمة الوسط، الشهيدة على الناس، وهي رحمة للعالمين.

وإذ تتقرر كرامة الإنسان على أساس العقيدة في رسالة الإسلام، فان حقوق الإنسان وحرياته، في تعامله مع الإنسان الآخر ومع المجتمع والدولة، تصبح مرتبطة بالعقيدة، مترتبة عليها، فالايمان بالله يفرده سبحانه بصفات العلو والكبرياء التي لا ينبغي لاحد من خلقه أن يتطاول إليها، وهو

وحده سبحانه الذي لا يُسأل عما يفعل، لكن الناس، حاكمهم ومحكومهم، يسألون « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » ـ الأنبياء/٢٣ ». والمساواة بين البشر تتعمق في النفس المؤمنة بالله إلى حيث تتغلغل العقيدة في أغوار النفس، فالله وحده هو الذي ليس كمثله شيء ولم يكن له كفواً أحد، والناس جميعاً أشباه وأنداد. كلهم مخلوقون وكلهم عباد. وارتباط الحرية والمساواة في تعاليم الإسلام بعقيدة الايمان بالله هو الذي ألهم الخليفة الأول الصديق أن يجعل قوله الأول حين استخلف « اني وليت عليكم ولست بخيركم، فان رأيتموني على حق فأطيعوني، وان رأيتموني على باطل فقوموني. أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فان عصيت فلا طاعة لي عليكم ». وللامام مالك رضي الله عنه تعليق على هذا القول نقله السيوطي وهو : « لا يكون أحد إماماً أبداً إلا على هذا الشرط ». وارتباط الحرية والمساواة في تعاليم الإسلام بعقيدة الايمان بالله هو الذي ألهم الخليفة الثاني عمر بن الخطاب أن يقول لوالي مصر من قبله، عمرو بن العاص، في صدد شكوى وصلته من صبي قبطي في حق ابن الوالي : « يا عمرو متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ».
كذلك فان ارتباط الحرية والمساواة في تعاليم الإسلام بعقيدة الايمان بالله **يقيم التوازن بين الحق والواجب، وبين حق الفرد وحق الجماعة**، إذ يتقرر ذلك كله بميزان العدالة الالهية الذي لا يحيف، فيتوقى المجتمع شطط الفردية والأنانية والانتهازية والنفعية من جانب، كما يتوقى أن يكون الفرد مجرد واحد من قطيع أو تِرْساً في آلة في الجانب الآخر. بل يصل الايمان في تعميق الشعور بالحرية والمساواة إلى ما لا يصل إليه نظام قانوني، إذ يقرر « أخوة » المؤمنين، وليس مجرد الحرية والمساواة، « انما المؤمنون أخوة، فأصلحوا بين أخويكم، واتقوا الله لعلكم ترحمون ـ الحجرات/١٠ » ويربط بين المؤمنين حبل الله المتين، « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ـ آل عمران/١٠٣ »، وعروة الايمان الوثقى، « فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ـ البقرة/٢٥٦ »، وآيات القرآن تصل في صيانة حقوق الإنسان إلى تحريم السخرية واللمز والتنابز بالألقاب وسوء الظن (الحجرات/١١ ـ ١٢). وحديث رسول الله عليه الصلاة والسلام يسمو بواجبات الاخوة التي يفرضها الايمان إلى خلجات المشاعر

والعواطف، « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ». ولا تطمع حضارة أن تصل إلى أرفع من ذلك في تقرير علاقة الإنسان بالإنسان. وبمثل هذا العمق والشمول يقوى الشعور بالواجب وبالجماعة، وهما ضروريان لقيام الحضارة وازدهارها، دون أن يذوي الشعور بالحق وبالذات، وهما ضروريان لاستمرار الحضارة وانتشارها.

تقرير مكانة العقل واثارة نشاطه والأمر بطلب العلم وتوفير وسائل التعليم :

من الكلمات الحكيمة الهادية لمفكرنا الراحل مالك بن نبي قولته الرائعة : « **إذا كانت الوثنية في نظر الإسلام جاهلية، فان الجهل في حقيقته وثنية،** لأنه لا يغرس أفكاراً بل ينصب أصناماً وهذا شأن الجاهلية، فلم يكن من باب الصدفة المحضة أن تكون الشعوب البدائية وثنية ساذجة.. ومن سنن الله في خلقه أنه عندما تغرب الفكرة يبزغ الصنم »[1].... **ويجلّي** الإسلام أن طاقة الإنسان العقلية وقدراته العلمية الذاتية من بين ما كرمه الله به واختصه به على سائر خلقه ومنهم ملائكته « وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة، فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين. قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم. **قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم، فلما أنبأهم بأسمائهم قال، ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض، وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ـ البقرة/ ٢٤** ».

وكتاب الإسلام يحمّل الإنسان مسئولياته العقلية في التفكير وطلب المعرفة واستيعاب ثمراتها، وهو يخاطب أولي الألباب والذين يعقلون ويتفكرون ويتذكرون القرآن، وأولى آياته نزولاً « اقرأ باسم ربك الذي خلق... اقرأ وربك الأكرم.. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم ـ العلق/١ ». ويعرض القرآن عقيدة الألوهية والبعث والجزاء على عقل الإنسان « أم خُلقوا من غير شيء، أم هم الخالقون ؟ ـ الطور/٣٥ ـ ٣٦ » « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ـ المؤمنون/١١٥ » « قل إنما أعظكم بواحدة : أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ـ سبأ/٤٦ ».

---

(١) مالك بن نبي : شروط النهضة ص ٣٦ ـ ٣٧.

ويطلب الإسلام، من المؤمنين به وغير المؤمنين، الاحتكام إلى الحجة والبرهان وهو يأمر المسلمين **بالحوار المنهجي** المثمر مع الآخرين والتزام أصوله الفكرية والأخلاقية، ويطلق القرآن على مثل هذا الحوار تسمية معبرة هي « **الجدال بالتي هي أحسن** »، يقول الحق سبحانه « أَمَّن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض، أإله مع الله، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ـ النمل/٦٤ » « قل أرأيتم ما تدعون من دون الله، أروني ماذا خلقوا من الأرض، أم لهم شرك في السموات، ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين ـ الأحقاف/٤ »، « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ـ النمل/١٢٥ »، « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ـ العنكبوت/٦٤ ». وينكر القرآن أشد النكير على الذين « كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولمّا يأتهم تأويله ـ يونس/٣٩ »، ويصف هؤلاء بأنهم ظالمون، اذ ظلموا عقولهم وفرضوا عليها شيئاً بغير بينة.. « كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ـ يونس/٣٩ ». كذلك يستنكر القرآن أن يجادل بغير علم أو حجة ذلك الإنسان الذي أكرمه الله بالعقل « ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد ـ الحج/٣ »، « ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق ـ الكهف/٥٦ »، « ان الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إنْ في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه ـ غافر/٥٦ »، « ومن يدع مع الله الهاً آخر لا برهان له به فانما حسابه عند ربه، انه لا يفلح الكافرون ـ المؤمنون/١١٧ ».

وكم من مرة يدير فيها الكتاب الكريم نفس الحوار والمناقشة، مستهلاً آياته بكلمات مثل « يسألونك... »، « قالوا »، « ... يقولون »... مردفاً القضية التي أوردها بجوابه عليها، مع ذكر دعاوى المعرضين، في أمانة وثقة بقدرة الحق على بيان حجته، ازاء كل دعوى مهما كان بريقها، « **وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية، يقولون** هل لنا من الأمر من شيء، قل ان الأمر كله لله، يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك، يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلناهاهنا، قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم، وليبتلي الله ما في صدوركم،

وليمحّص ما في قلوبكم، والله عليم بذات الصدور ـ آل عمران/١٥٤ »، « لقد سمع الله قول الذين قالوا ان الله فقير ونحن أغنياء ـ آل عمران/١٨١ »، « قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ـ يس/٤٧ »، « وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ـ النحل/٣٥ »، « وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم، إنْ هم الا يظنون، الجاثية/٣٤ ». وردود القرآن على هذه الدعاوى وغيرها مثبوتة في آيات أخرى عديدة منه.

والكتاب المبين يثير طاقة العقل الإنساني، ويوجهه إلى **المشاهدة والملاحظة والادراك لشتى ظواهر الكون الواضحة لكل ذي عينين ونواميسه المعجزة** التي يسبر غورها أهل العلم بالبحث والتدبر، « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج. والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج. تبصرة وذكرى لكل عبدٍ منيب ـ ق/٦ ـ ٨ »، « إن الله فالق الحب والنوى، يُخرج الحيَّ من الميت ومخرجُ الميتِ من الحي، ذلكم الله فانّى تؤفكون. فالق الإصباح، وجعل **الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً، ذلك تقدير العزيز العليم. وهو الذي** جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر.... وهو الذي أنزل من السماء ماء فاخرجنا به نبات كل شيء، فأخرجنا منه خَضِراً نخرج منه حباً متراكباً، ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنّات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه، انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه، ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ـ الأنعام/٩٥ ـ ٩٩ »، « أَوَ لَمْ ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما، وجعلنا من الماء كل شيءٍ حيٍ أفلا يؤمنون. وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً لعلهم يهتدون.. وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتنا معرضون. وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون ـ الأنبياء/٣٠ ـ ٣٣ »، « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها، ومن الجبال جُدَدٌ بيضٌ وحمرٌ مختلفٌ ألوانها وغرابيب سود، ومن الناس والدواب والأنعام مختلفٌ ألوانه كذلك، انما يخشى الله من عباده العلماءُ ـ فاطر/٢٧ »،

« ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم، ان في ذلك لآيات للعالمين ـ الروم/٢٢ »، « وفي أنفسكم أفلا تبصرون ـ الذاريات/٢١ »، « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق، أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ـ فصلت/٥٣ ».

وقد فتح كتاب الإسلام أبصار المؤمنين وبصائرهم على ما في هذا الكون **من نظام وتوازن وإحكام، وعلى أن له سنناً ونواميس مطردة،** « ما ترى في خلق الرحمن من نفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ـ الملك/٣ »، « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون. وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين. وان من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم. وأرسلنا الرياح لواقح، فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه ـ الحجر/١٩ ـ ٢٢ »، « لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر، ولا الليل سابق النهار، وكل في فلك يسبحون/يس/٤٠ »، « وخلق كل شيء فقدره تقديراً ـ الفرقان/٢ »، «وكل شيء عنده بمقدار ـ الرعد/٨ »، « فلن تجد لسنة الله تبديلاً، ولن تجد لسنة الله تحويلاً ـ فاطر/٤٣ ». ولقد علم رسول الإسلام المؤمنين أن سنن الله مطردة لا تَنخَرِمُ، ولو لموت ابن الرسول الكريم صلوات الله عليه، « ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يُكْسفان لموت أحد ولا لحياته ».
لحياته ».

وشريعة الإسلام تتطلب الاجتهاد في تفهم نصوص القرآن والسنة وتبين دلالاتها والجمع بينها، كما تتطلب الاجتهاد فيما سكتت عنه النصوص وفق مسالك الاجتهاد الشرعية بحيث لا يتعارض الحكم الاجتهادي مع حكم منصوص عليه أو مع مقاصد الشريعة وقواعدها الكلية ومبادئها العامة. ورسول الإسلام عليه الصلاة والسلام قرر أن « طلب العلم فريضة على كل مسلم »، ويشمل هذا الذكور والإناث. وقد جعل صلوات الله عليه للنساء يوماً يجتمعن به فيه ويسألنه عن أحكام الدين. كذلك جعل ﷺ فداء الأسير من المشركين يوم بدر تعليم عشرة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة.

وكان المسجد مجمع المسلمين الذي يهيئ لكل فرد منهم سبيلاً إلى تلقي ثقافة الإسلام العامة، كما كان معقد حلقات التعليم لطالب العلم، في مرحلته الأساسية وفي دراساته العالية إلى أن اشتغلت المدارس بأبنيتها الخاصة مجاورة للمساجد في غالب الأحوال. وقد اشتمل جامع القيروان على جناحين للتعليم، أحدهما للرجال والآخر للنساء. **وازدهرت مؤسسات التعليم، ونشط البحث العلمي في مختلف المجالات في رحاب حضارة الإسلام**، بعد أن أطلق هذا الدين طاقة الإنسان وقدراته العقلية، ينميها الايمان ويزكيها ويرشدها. وكان في كبار المساجد الجامعة مكتبات، يوقف العلماء كتبهم عليها، كما كان خلفاء المسلمين وحكامهم يفاخرون بجمع الكتب، فكان بيت الحكمة في بغداد، أثناء العهد الزاهر من خلافة العباسيين وبخاصة أيام المأمون، من أكبر خزائن الكتب، وقد ظلت قائمة حتى استولى المغول على بغداد. وكان « الحَكَمُ » صاحب الأندلس يبعث إلى بلدان المشرق من يشتري له الكتب حال ظهورها. وروي أن فهرس مكتبته كان قرابة ألف صفحة تضم عناوين الكتب. وذكر « المقريزي » أن خزانة الخليفة الفاطمي العزيز في مصر كانت تضم ألف ألف وستمائة ألف كتاب (أي مليون وستمائة ألف كتاب)، وقدرها مصدر آخر بمليوني كتاب، وقال ابن الطوير أنها كانت تحتوي على رفوف يقطع الرف حواجز، **وعلى كل حاجز باب مقفل. ويقارن « آدم متز » بين حجم مثل هذه** المكتبات الكبرى وحجم ما كان في أوربا الوسيطة من مكتبات، فيضع أمام الأذهان أن مكتبة الكاتدرائية بمدينة كنستانز كانت ذخيرتها في القرن ٩م ٣٥٦ كتاباً فحسب، وكان في مكتبة دير البندكتيين سنة ١٠٣٢م ما يزيد قليلا على المائة، وفي مكتبة الكاتدرائية بمدينة بامبرج سنة ١١٣٠م ٩٦ كتاباً فقط. وكان للأفراد المسلمين الأثرياء والعلماء مكتباتهم الخاصة الحافلة، فيروى أن أحد علماء أصفهان المياسير توفي عام ٢٧٢ هـ وقد أنفق ثلاثمائة ألف درهم في شراء الكتب، وكانت الكتب في خزانة « أبي الفضل ابن العميد » بالري من الكثرة بحيث ضمت، في كل علم، وكل نوع من أنواع الحكم والآداب، مايحمل على مائة وقر. ويحكى عن أحد فقهاء الشافعية (أبي القاسم جعفر بن محمد بن حمد بن الموصلي المتوفى

٣٢٣ هـ) أنه أقام داراً للعلم في بلده جعل فيها خزانة كتب من جميع العلوم وقفاً على كل طالب للعلم لا يُمنع عنها أحد، وإذا جاءها غريب معسر أُعطي ورَقاً (بفتح الراء)، وورِقاً (بكسر الراء) أي نقوداً فضية. وأقام القاضي **ابن حبان المتوفى سنة ٣٥٤ هـ في نيسابور داراً للعلم، وخزانة للكتب**، ومساكن للغرباء من طلاب العلم، وأجرى عليهم الأرزاق، ولم تكن الكتب تعار خارج الخزانة. ونسب للشريف الرضي المتوفى سنة ٤٠٦ هـ أيضاً اقامة دار بها مكتبة فتحها لطلاب العلم وعين لهم جميع ما يحتاجون اليه[1].

العمل واجب شرعي، وعمارة الأرض من مسئولية الانسان الذي جعله الله فيها خليفة :

علمت رسالة الإسلام المؤمنين الجد في العمل والنفور من الكسل والتبطل، وعملت على مقاومة معوقات العمل النفسية والبدنية، الفردية والاجتماعية. والعمل الجاد المخلص من المؤمن هو عبادة لله سبحانه، ما دام يبتغي الآخرة بعمله في الدنيا ويرجو الله في تعامله مع الناس. **ومهمة البشر عمارة الأرض، والعمل ابتغاء من فضل الله، واتقان العمل واجب** يمليه الايمان الصحيح ومراقبة الله عز وجل، وفي الحديث، « ما أكل أحد **طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده وان نبي الله داود عليه السلام** كان يأكل من عمل يده »، « ان الله يحب اذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه »، « من غشنا فليس منا ». والعمل هو الذي يشيد صرح الحضارة، وارتباط العمل بالعقيدة يصل به إلى أبعاد لا تصل إليه بحال حوافز الكسب والطموح وحدها، والتعاون على العمل يبارك الجهود والثمار. والحضارة جماعية بطبيعتها، والإسلام لا يحض على الانسحاب من الدنيا والانزواء عن الناس، فالمسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضاً، والمسلمون مطالبون بالتعاون على البر والتقوى والتواصي بالحق والصبر. وعبادة الله في الإسلام شاملة لكل فكر مخلص وكل عمر مخلص، والعلم بالكون تسبيح للصانع

---

(١) آدم متز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ـ ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريده ـ القاهرة ١٣٦٦ هـ ـ ١٩٤٧م جـ ١ ص ٢٤٣ ـ ٢٥٠، حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام جـ ٢ ص ٣٤٨، جـ ٤ ص ٤٣٢. وانظر للتفصيل : أحمد شلبي ـ التربية الإسلامية.

الذي أتقن كل شيء وتجلية لبديع صنعه، وهكذا يخشى الله من عباده العلماء، والعمل في الكون ابتغاء من فضل الله. وما اصطلحنا على تسميته بالعبادات هي في حقيقتها الشعائر، وهي العلامات الظاهرة المتميزة المميِّزة للفرد والجماعة، وهذه الشعائر في تعاليم الإسلام موقوتة محدودة تشير وتدل على عبادة شاملة وتقوى لله في كل زمان ومكان. وهي تريح النفس وتشفيها وتصون الطاقة وتزكيها، وتقوي المؤمن على مواصلة الجهد والصبر على مشقة العمل وفتنة الظفر والفشل وايذاء البشر واغوائهم، « فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله ـ الجمعة/١٠ »، « ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات ـ الحج/٢٨ ». **والمؤمن يعبد الله ويتميز في عبادته بهذه الشعائر الموقوتة، كما يعبد الله بالفكر الراشد والعمل الصالح واستخراج الطيبات من الأرض،** « كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ـ البقرة/١٦٩ ». ومن التحدث بعظمة ما أودع الله في الكون ونعمته على الانسان أن يرى الناس هذا الخير محسوساً ملموساً جلياً شائعاً في مختلف مجالات حياتهم، وقد أخبر الرسول صلوات الله عليه « إن الله يجب أن يرى أثر نعمته على عبده »... وما أفعل هذه كلها من حوافز للعمل الذي يرفع بناء الحضارة لبنة بعد أخرى.

وقد أكدت تعاليم الإسلام **أنّ التوكل على الله ليس تواكلاً**، بل هو قرين للجد في العمل يباركه ويزكيه ويقي العامل من التوقف عن ابتغاء فضل الله وطلب رزقه بطراً أو قنوطاً. ان الصبر والمصابرة ليسا وهناً وفشلاً بل هما قرينا الرباط والسعي الدؤوب والعزيمة التي لا تفتر، وان الزهد هو أن يزهد المؤمن فيما ملكه من طيبات الدنيا بكده وكسبه الحلال فيهبه لصالح جماعة المسلمين أو للفقراء والمساكين ـ كما كان يفعل أمير المؤمنين ذو النورين عثمان رضي الله عنه وأرضاه، وليس الزهد أن يزهد المرء فيما لم تصل اليه يده ولم يدخل في ملكه. وهذا دعاء رسول الله المأثور، عليه صلوات الله، يسد على نفس المؤمن كل ثغرات الضعف، فيقضي على مثبطات تعرقل نهضته الحضارية « اللهم اني أعوذ بك من الكفر والفقر ».. ولا يرتضي التدين الصحيح بحال أن تصرف شعائر العبادة عن طلب الرزق، كما لا يرتضي أن يتيه الإنسان في دروب الأرض فينسى خالقه ورازقه وهو رب كل شيء، بل يعمل الإسلام بتعاليمه على اقامة التوازن والتكامل والتفاعل بين

شعائر العبادة الموقوتة وحقيقة العبادة الدائمة أو « التقوى » التي ينفسح لها كل عمل في الدنيا وكل تعامل مع انسان، « والله يُقَدِّر الليل والنهار، **علم أن لن تحصوه فتاب عليكم**، فاقرأوا **ما تيسّر** من القرآن، علم أن سيكون منكم مرضى، **وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله**، وآخرون **يقاتلون** في سبيل الله، فاقرأوا ما تيسر منه، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضاً حسناً، وما تقدموا لأنفسكم **من خير** تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً، واستغفروا الله، ان الله غفور رحيم ـ المزمل/٢٠ »، « ... ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج، **ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون**. واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به اذ قلتم سمعنا وأطعنا واتقوا الله، ان الله عليم بذات الصدور ـ المائدة/٦ ـ ٧ ».

ولقد علم رسول الله ﷺ أمته أن الايمان بضعة وسبعون شعبة أعلاها لا إله إلا الله، وأدناها ما تيسر من عمل صالح في دنيا الناس ولو كان اماطة الأذى عن الطريق. **وهكذا يظاهر الايمان كل عمل صالح في مختلف مجالات الخير**، « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين، وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة، **والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء** وحين البأس، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ـ البقرة/١٧٧ »، « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم، كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين ـ الحج/٣٧ ». ولقد أوردت شريعة الإسلام الأحكام العادلة لتنظيم استثمار المال من مختلف المجالات المباحة ومعاملة العمل فيه.

* * *

ومن تعاليم الإسلام، التي لها دلالتها في التوجيه إلى عمارة الأرض، حث المؤمنين على **استصلاح الموات** واحيائه وزراعته، وجعل محييه مالكاً لما أحياه، ومنع العدوان على هذا الحق الشرعي والتملك الحلال بشرط احياء الأرض بالفعل خلال المدة المناسبة وإلا عادت إلى الملك العام، فيكون محييها بالفعل هو متملكها، وفي الحديث « من أحيا أرضاً ميتة فهي له،

وليس لعرق ظالم حق »، ويروى عن عمر بن الخطاب قوله « من عطل أرضاً ثلاث سنين لم يعمرها فجاء غيره فعمرها فهي له »، « وروي عنه قوله ـ رضي الله عنه ـ لبلال بن الحارث المزني الذي كان قد طلب أرضاً من الرسول ﷺ فمنحه مساحة واسعة : « يا بلال انك استقطعت رسول الله أرضاً طويلة عريضة فأقطعها لك، وان رسول الله لم يكن يمنع شيئاً يُسأله، وأنت لا تطيق ما في يدك، فانظر ما قويت عليه منها فامسكه، وما لم تطق ولم تقو عليه فادفعه الينا نقسمه على المسلمين.. فأخذ منه ما عجز عن عمارته فقسمه بين المسلمين »[1].

كذلك حثّت تعاليم الإسلام المؤمنين على الزراعة. وفي حديث رسول الله صلوات الله عليه ما رواه جابر « من زرع زرعاً أو غرس غرساً فأكل منه انسان أو سبع أو طائر فهو صدقة »[2] ـ ولقد روي عنه ﷺ أيضاً « من أحسَّ قيام الساعة وبيده فسيلة فليغرسها ».

ولقد شهدت وقائع التاريخ أن المسلمين قد زرعوا وجدّوا في استصلاح الأرض وتنظيم الري وتحسين أساليب الزراعة وتنويع مزروعاتهم. وقد دأب الأمويون منذ عهد معاوية بن أبي سفيان على استصلاح الأراضي للزراعة، ومنها البطائح المغمورة بالمياه في أدنى نهر دجلة، وعني ولاة الأمويين على العراق، ومنهم الحجاج بن يوسف الثقفي وعمر بن هبيرة ثم خالد بن عبد الله القسري، بحفر الأنهار واقامة القناطر والسدود واصلاح الجسور والعناية بالثروة الحيوانية[3]. ولقد كان من توجيه القاضي أبي يوسف صاحب أبي حنيفة

(١) يحيى بن آدم القرشي : كتاب الخراج بتحقيق أحمد محمد شاكر ـ ط ٢ المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٨٤ هـ ص ٨٠ ـ ٨٩ النصوص رقم ٢٦٦ ـ ٢٩٤. ويلاحظ أن ثمة رواية أوردها أبو يوسف تجعل تحديد المدة التي يجب خلالها الاحياء بثلاث سنين حتى يتحقق التملك، في حديث لرسول الله ﷺ مروى عن طاوس، يقول « عادى الأرض لله وللرسول ثم لكم من بعد، فمن أحيا أرضاً ميتة فهي له ليس لمحتجر حق بعد ثلاث سنين « وعادى الأرض ما تقادم ملكه ـ انظر : أبا يوسف الخراج ـ ط ٤ ـ المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٩٢ هـ ص ٧٠ وانظر مبحث موات الأرض عموماً عند أبي يوسف ص ٦٩ ـ ٧٢.

(٢) يحيى بن آدم : الخراج ص ٧٧ ـ ٧٨ النصوص رقم ٢٥٨ ـ ٢٦٢.

(٣) البلاذري : فتوح البلدان ـ تحقيق رضوان محمد رضوان ص ٢٩٠ ـ ٢٩٢، قدامة : نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة ملحق لكتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة ص ٢٤٠ ـ ٢٤١، ابن رستة : الأعلاق النفيسة ص ١٠٥.

للخليفة العباسي الرشيد في كتابه (الخراج) : « و « على الإمام كرْي النهر الأعظم الذي لعامة المسلمين إن احتاج إلى كرْي، وعليه آن يصلح سناته ».... « وإذا احتاج أهل السواد إلى كري أنهارهم العظام من دجلة والفرات : كُرِيَتْ لهم.... ولا يحمل ذلك كله على أهل الخراج.... فأما البثوق والمسنّيات والبريدات التي تكون في دجلة والفرات وغيرهما من الأنهار العظام **فان النفقة على هذا كله من بيت المال لا يحمل على أهل الخراج من** ذلك شيء، لأن مصلحة هذا على الامام خاصة، لأنه أمر عام لجميع المسلمين فالنفقة عليه من بيت المال.... ولا يُوَلّى النفقة على ذلك إلا **رجل يخاف الله، يعمل في ذلك بما يجب عليه لله... ولا تول من يخونك ويعمل في ذلك بما لا يحل، يأخذ المال من بيت المال لنفسه ومن معه، أو يدع المواضع المخوفة، ولا يعمل عليها شيئاً يحكمها به حتى تنفجر، فتغرق ما للناس من الغلات، وتخرب منازلهم وقراهم، ثم وجه من يتعرف ما يعمل به واليك على هذه المواضع المخوفة منها وما يمسك عليها مما قد يحتاج إلى العمل وما تفجر وما السبب في انفجاره »**[1].

وهكذا نظم المسلمون شبكة شاملة محكمة للري في مصر والعراق وإيران وما وراء النهر. وكانت القاعدة العامة هي حكم الشريعة **أن الماء حق للجماعة لا يحلّ لفرد بيعه وشراؤه** ـ كما لاحظ وأوضح « بحق آدم متز » في مصنفه الجامع عن الحضارة الإسلامية، « وعلى هذا فلم يكن يجوز للدولة ولا للأفراد أن يجعلوا مسألة الري وحدها سبيلاً للكسب أو التجارة. وان الجزء الأكبر من التشريع الأوربي الخاص بالماء مقتبس من تشريع الشرق، ولقد كانت طرق الري ووسائله متنوعة تنوع البلاد، وإن كنا لا نعرف إلا القليل من المعلومات الصحيحة عن ذلك مع الأسف »[2]. وقد

(١) أبو يوسف : الخراج ص ١٠٥ ـ ١٠٦ ، ١١٩ ـ ١٢٠ و « البثق » ما يخرقه الماء في جانب النهر، « والمسناة » السد يبنى في وجه الماء، و « البريدات » اصطلاح فارسي يعني مفاتيح الماء.

(٢) آدم متز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ـ ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريده ـ ط ٢ ـ القاهرة ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨م جـ ٢ ص ٢٤٦.

قرر أبو يوسف في كتاب الخراج : « وكل من كانت له عين أو بئر أو قناة فليس له أن يمنع ابن السبيل من أن يشرب منها ويسقي دابته وبعيره وغنمه منها. **وليس له أن يبيع من ذلك شيئاً للشفة، والشفة عندنا الشرب لبني آدم والبهائم**، وله أن يمنع السقي للأرض والزرع والنخل والشجر، وليس لأحد أن يسقى شيئا من ذلك إلا باذنه، فان أذن له فلا بأس بذلك، وإن باعه ذلك لم يجز البيعَ ولم يحل للبائع والمشتري لأنه مجهول غرر لا يعرف.... **ولا بأس ببيع الماء اذا كان في الأوعية** ـ هذا ماء قد أحرز.. وان هيأ له مصنعه فاستقى منها بأوعيته حتى جمع فوقها ماء كثيراً ثم باع من ذلك فلا بأس إذا وقع في الأوعية فقد أحرزه وقد طاب بيعه. فاذا كان انما يجتمع من السيول فلا خير في بيعه. وان كان في بئر أو عين يزداد ويكثر أو لا يزداد ولا يكثر فلا خير في بيعه ولو باعه لم يجز البيع، ومن استقى منه شيئاً فهو له »[1]. وقد ذهب أبو يوسف إلى تخصيص سهم من مصارف الزكاة في « اصلاح طرق المسلمين »[2]، تأولاً فيما يبدو لقوله تعالى، ضمن مصارف الزكاة، « وفي سبيل الله وابن السبيل ـ التوبة/ ٦٠ ».

وقد كان في « مرو »، في شرقي فارس، جهاز متخصص للري يسمى **« ديوان الماء »، يرأس صاحبه عشرة آلاف عامل ويعلو منصب « صاحب المعونة »** في المدينة. وكان للماء مقاييس على مواضع متعددة من كل نهر من الأنهار الكبرى وعند السدود في دار الإسلام مثلما كان عليه الحال في مصر وفيما وراء النهر. فالمتولي للسد يلاحظ ارتفاع الماء وينفذ سعاته بخبره إلى ديوان النهر أو الماء فينفذ صاحبه الرسل إلى جميع من يتولون شعب الأنهار فيقسمون الماء بحسب ارتفاعه ». وكان على السد الذي أقيم جنوب « مرو » أربعمائة غواص، يراعونه في ليلهم ونهارهم، وربما احتاجوا دخول الماء في البرد الشديد فيطلون أنفسهم بالشمع »[3]. وانتشرت شبكة من القنوات مدت في جوف الأرض في شرقي فارس وعقدت عليها القناطر، وهو

---

(١) أبو يوسف : الخراج ص ١٠٣.

(٢) المصدر السابق ص ٨٦.

(٣) المقدسي : أحين التقاسيم في معرفة الأقاليم ـ طبعة ليدن ـ ص ٣٣٠ ـ ٣٣١.

النظام الذي عرف باسم Kariz. وفي نيسابور كان يهبط المرء سبعين مرقاة ليصل إلى تلك القنوات الجوفية ـ وهي تسقي ضياع البلد وتدور في محلاتها وتمد أهلها بماء نظيف للشرب يكون بارداً في فصل الصيف.[١] ويعلق « آدم متز » على هذا النظام للري بقوله : « كان هذا التنظيم يحتاج إلى مهارة كبيرة، إذ كان لا بد للقائمين به أن يعالجوا الطبقات الأرضية التي يجري عليها الماء في المواضع التي يجدون فيها أرضاً لا يخترقها الماء، كما كان لا بد لهم من أن يجعلوا لهذه الطبقات ميلاً يساعد الماء على سرعة الجريان عند ازدياده، وكان يستعمل من الآلات المائية (لرفع الماء إلى سطح الأرض) الدولاب أو المنجنون والدالية والغرافة والزرشوقة والناعورة »[٢]. وبنيت السدود على الأنهار من الخشب أو الحجر، وكان سد الشاذوران الحجري، جنوبي تستر، عرضه ألف ذراع، وكان يفصل نهر مشرقان من نهر دجيل. وكان « السّكْرُ » حائطاً عظيماً يبنى في عرض النهر، أساسه من الرصاص. وقد بنى عضد الدولة البويهي واحداً على نهر الكرّ بين شيراز وأصطخر « فتبحّر الماء خلفه وارتفع فجعل عليه من الجانبين عشرة دواليب وتحت كل دولاب رحى وأجرى ماءه في قنوات فسقى ثلاثمائة قرية »[٣]. وجمع الماء في اليمن في غدر مرصوفة من جوانبها تسمى « مصانع »، وبنيت سدود في المناطق الجبلية لتجميع الماء ولها فتحات من أسفلها يجري خلالها الماء فيوزع في قنوات صغيرة وقد وصفها الجغرافي ابن رستة[٤]. وكان على نهر النيل في أدناه سدان أحدهما بعين شمس يقام قبل زيادة النيل لرفع الماء وراءه وسقي ما خلفه من المزارع ويفتح عند الفيضان صيفاً، وكان السد أعظم بناء ويقع بسردوس أسفل عين شمس، وقد أفرد المقريزي في كتابه « الخطط » قسماً مفرداً لتعداد القناطر المقامة على النيل والمجاري الفرعية التي تأخذ منه،

---

(١) المصدر السابق ص ٩٢٩ وانظر أيضاً اليعقوبي : البلدان، ملحق بالأعلاق النفيسة لابن رستة (المكتبة الجغرافية ـ ليدن) ص ٢٧٤.

(٢) آدم متز : الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ٢٤٨.

(٣) المقدسي : أحسن التقاسيم ص ٤٤٤.

(٤) ابن رستة : الأعلاق النفيسة (المكتبة الجغرافية ـ ليدن) ص ١١٢.

وروى أن عبد العزيز بن مروان بنى القنطرتين على خليج مصر الكبير وبنيت احداهما بالحمراء القصوى في طرف الفسطاط سنة ٦٩ هـ(١).

كذلك لقي نظام الري بالأندلس عناية كبرى في كنف حضارة الإسلام، وأقيمت السدود وحفرت الجداول. وكان التقويم القرطبي دليلاً لزراعة النباتات المختلفة في مواعيدها، وقد انتقل من الأندلس إلى غيرها من بلدان أوربا(٢).

وزرع المسلمون الحبوب والخضر والفواكه بأنواعها المختلفة، كما زرعوا أشجار الزيتون، واستخرجوا الزيت منه ومن غيره من الحبوب الزيتية، واستخرجوا السكر من القصب حتى انتقل لفظه العربي إلى لغات أوربا. واعتنوا بتربية الأزهار واستخراج العطور، وكان خراج فارس يتضمن ثلاثين ألف قنينة من عطر الورد الأحمر ترسل إلى بيت مال الخلافة في بغداد. وإلى جانب ماء الورد وزيته استعمل المسلمون العطور المستخرجة من البنفسج **والنرجس والسوس والنيلوفر والزنبق والقرنفل والياسمين والريحان وزهر الليمون والبرتقال**(٣).

وربى المسلمون الحيوان لركوب ظهره وأكل لحمه وشرب ألبانه، كما ربوا الدواجن والحمام الزاجل والصقور، وصادوا الأسماك.

* * *

كما استخرج المسلمون المعادن والأملاح والجواهر وقطعوا الأحجار والأخشاب، واشتغلوا، استخراجاً وصناعة، في الذهب والفضة **والحديد والنحاس والرصاص والفحم والزئبق واللؤلؤ والمرجان والعقيق والزبرجد** والفيروزج والعاج وملح الطعام والشب وملح النشادر والبورق ومواد

---

(١) المقريزي : الخطط ـ مطبعة النيل ـ القاهرة سنة ١٣٢٥ هـ جـ ٣ ص ٢٣٨ ـ ٢٤٦. وانظر أيضاً آدم متز : الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ٢٥١.

(٢) حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام جـ ٢ ص ٣٠٨.

(٣) حتي : تاريخ العرب ـ ترجمة مبروك نافع ـ ط ٣ ـ القاهرة سنة ١٩٥٢م جـ ٢ ص ٤٤٠ ـ ٤٤٤. وانظر أيضاً آدم متز : الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ٢٢٠ ـ ٢٢٨ ، ٢٦٥ ـ ٢٦٦.

الصباغة[1]. **وأورد البلاذري خبر جباية ما فرض على « النفاطات »،** وهي موارد النفط في أرض شروان قرب بحر قزوين، وكان في جيوش المسلمين فرق « النفاطين » التي تستخدم النفط في حرق تحصينات العدو الدفاعية وتجهيزاته الهجومية من مجانيق ودبابات وغيرها[2].

كذلك تفنن المسلمون في **صناعة أنواع النسيج** المختلفة من حرير وكتان وصوف وقطن، واشتهر الدمقس والدبيقي (نسبة إلى دبيق بمصر)، والموصلي (الموسلين)، وأنتجوا النسيج الرقيق « كأنه المنخل » الأبيض والملون في دمياط وتيس تصنع منه عمائم الرجال وملابس النساء، وتنوعت البسط والسجاجيد التي صنعتها أيدي المسلمين والمسلمات، وجادت عند المسلمين صناعة الورق والكاغير.

وبالنسبة **للقوى المحركة** لم يفت المسلمين الاستفادة من حركة الماء، **فذكر المقدسي أن أهل البصرة أقاموا أرحية على أفواه الأنهار ليديرها** الماء، داخلاً وخارجاً، ولم يكن الناس يستعملون الدواب في إدارة الطواحين إلا حيث لا يوجد أنهار، كما انتفع من الريح في إدارة الأرحاء، كذلك حقق **المسلمون تقدماً رائعاً في صناعة الأجهزة العلمية للكيمياء والرصد الفلكي** والجراحة وغيرها[1]، وفي صناعات السلاح والعتاد والسفن وفنون عمارة المساجد والبيوت والقلاع والأسوار.

* * *

وضرب المسلمون في فجاج البر والبحر يبتغون من فضل الله في التجارة، وعنوا بالطرق البرية ومراكز البريد وأقاموا الفنادق والرباطات للمسافرين، وازدهرت أسواقهم وخاناتهم، ونشطت رحلاتهم، كما اجتذبت

---

(١) آدم متز : الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ٢٣٠ ـ ٢٤٥.

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢١١ ـ ٢١٢، وانظر خبر « النفاطين » مثلا في حملة المعتصم على عمورية عند الطبري.

(١) آدم متز : الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ٢٥٧ ـ ٢٧٠. وانظر المقدسي، أحسن التقاسيم ص ١٢٥، أيضاً حتي : تاريخ العرب، ترجمة نافع جـ ٢ ص ٤٣٢ ـ ٤٣٨ ، ٥٣٥ ـ ٥٣٨.

أسواق بلاد الإسلام التجار من شتى الأنحاء ومنهم « الراذانية » الذي قدموا اليها من أدنى حوض الرون في جنوبي فرنسا (فرنجة) وكانوا من اليهود. ومنهم تجار الروس القادمون « من أقصى صقلية يحملون الفراء والسيوف، وقد أسلم ملك وادي الفلجا وأهل بلاده اثر اتصال الخليفة به سنة ٣٠٩ هـ.

وكانت عملة المسلمين قوية مقبولة في أنحاء العالم. وقد عرفوا « **السفاتج** »، توقياً لمخاطر حمل المال في الرحلات الطويلة البعيدة. والسفتجة أمر بالدفع إلى شخص معين. وتعاملوا « بالصكوك » وتعني كثيرا من أوراق المعاملات المدنية والتجارية ومنها العقد وسند الدين وقد عرفوا الحوالة، وكان الصك في العراق أشبه باذن الدفع الحكومي، والشبه واضح بين كلمتي « صك » و « شيك ». كذلك عرف المسلمون في معاملاتهم وفقههم « الحوالة ». وشاع في مدن المسلمين وجود **الصيارفة** الذين يعملون في استبدال النقد، **والجهابذة** المحاسبين، وقد كان في أصفهان سوق للصرافين حين أتاها الرحالة ناصري خسرو، وقد كان هذا السوق يضم مائتي صراف.

وجابت سفن المسلمين البحر المتوسط، (بحر الروم)، والبحر الأحمر (بحر القلزم أو بحر الحجاز)، والمحيط الهندي (بحر الهند). ويذكر ابن خرداذبة أن سفن بحر الروم كانت تثبت ألواحها بالمسامير، بينما كانت الألواح تثبت في السفن التي تمخر بحري القلزم والهند بحبال الليف. ويعلل المسعودي عدم استعمال المسامير في تلك السفن بالخوف من أن يأكلها ماء البحر، وذكر القزويني (في عجائب المخلوقات)، والأدريسي (في نزهة المشتاق)، أن السبب هو خوف الملاحين من حبال المغناطيس. وروى اليعقوبي أن ميناء طرابلس الشام كان يتسع لألف مركب. وقد حكى الادريسي خبر « **المُغرّرين** » الذين ركبوا بحر **الظلمات (المحيط الأطلسي)** من غربي الأندلس « ليعرفوا ما فيه وإلى أين انتهاؤه.... فجروا به نحواً من أحد عشر يوماً فوصلوا إلى بحر غليظ الموج كثير الروائح كثير القروش (أسماك القرش) »... واشتهر ميناء عيذاب على البحر الأحمر في القرن السادس الهجري، فذكر ابن جبير أنّها « من أحفل مراسي الدنيا بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط فيها وتقلع منها، زائداً على مراكب الحجاج

الصادرة والواردة »، واستلفت نظر الرحالة من سلع الهند أحمال الفلفل. ووصف المقدسي عدن بأنها « دهليز الصين ». كذلك ركب المسلمون « بحر الزنج » بين ساحل عمان وساحل افريقية الجنوبي الشرقي. وكانت زنجبار محطة بحرية هامة صار ملوكها من المسلمين. وقد ارتاد المسلمون ساحل بحر الزنج جنوباً إلى سفالة وموضعها الآن في موزمبيق واليها تقصد « مراكب العمانيين والسيرافيين » ـ على حد قول المسعودي، ويستخرج منها الحديد وينقل إلى الهند حيث تصنع منه آلات عظيمة القيمة. وذكر المسعودي أنه ركب بحار الصين والروم والقلزم واليمن والزنج فكان الأخير أصعبها عليه. وقد وصلت سفن المسلمين إلى موانئ الصين، وأخذ الإسلام ينتشر هناك حتى صار لجماعة المسلمين في خانقو (كانتون) رئيس يوليه امبراطور الصين منذ أواخر القرن الثاني وأوائل الثالث من الهجرة[1].

ولقد فكر الخليفة الرشيد في وصل البحرين الأبيض المتوسط والأحمر مباشرة، بدل اتصالهما عن طريق خليج المؤمنين بين البحر الأحمر والنيل ثم فرع النيل الذي ينتهي إلى البحر المتوسط، ولكن أشير عليه بخطر ولوج سفن الروم عن طريق البحر الأحمر إلى بلاد المسلمين، وعلى الأخص الحجاز، فعدل عن تلك الفكرة[2].

* * *

هكذا جد المسلمون في طلب الرزق وابتغاء فضل الله في شتى أرجاء البر والبحر، وكبرت أقدامهم وأيديهم وحواسهم وعقولهم في التنقيب عن نعم الله ظاهرة وباطنة.... وأقاموا حضارة زاهرة تعددت مجالاتها ومنجزاتها وثمارها وآثارها.... فهل يمكن أن يقال للدين الذي انتمى اليه هؤلاء أنه يخلع الإنسان من الدنيا والعمل فيها أو ينتزعه من الحياة مع الناس ؟؟؟

---

(١) آدم متز : الحضارة الإسلامية ص ٢٧١ ـ ٢٨٠ ، ٢٨٣ ـ ٢٨٤ ، ٢٩٨ ـ ٣٠٢ ، ٣٠٨ ـ ٣١١ ، ٣١٣ ـ ٣٢٨. وانظر ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ١٥٣ ـ ١٥٤، ابن الفقيه : البلدان ص ٢٧٠ ـ ٢٧١، اليعقوبي : البلدان ـ ملحق بالمسالك والممالك لابن رسته ص ٣٢٧، المقدسي : أحسن التقاسيم ص ٣٤، رحلة ابن جبير، المسعودي، مروج الذهب جـ ١ ص ٣٢٤، جـ ٣ ص ٦ ، ٣١ ، ٣٠٨.

(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ـ القاهرة سنة ١٣٥١ هـ ـ ص ١٩٠.

الوعي بالزمن :

كتب المفكر الإسلامي مالك بن نبي يرحمه الله، في معادلاته الرياضية التحليلية للحضارة، متأثراً بتخصصه الدراسي والمهني في صدر حياته : **حضارة** = **انسان** (أقول : بما له من إرادة هي من الخصائص المميزة لانسانيته) + **تراب** + **وقت**.

« فمشكلة الحضارة تنحل إلى ثلاث مشكلات أولية : مشكلة الإنسان، ومشكلة التراب ومشكلة الوقت. ولكي نقيم حضارة، لا يكون ذلك بأن تكدس المنتجات، وانما بأن نحل هذه المشكلات الثلاثة من أساسها »[1].

وإذا كان « **الإنسان** »، في حكم تعاليم الإسلام، مخلوق قد أكرمه الله بالعقل والبيان (النطق أو اللغة) والارادة، **وكانت** « **الدنيا** » **هي الاطار** « **المكاني** » لنشاط الإنسان على اختلاف مجالاته وعبادته ربه في كل حالاته، فان الوعي **بالاطار** « **الزماني** »، لاستعمال طاقات الإنسان، له قيمته الحضارية الكبرى إلى جانب قيمتي الإنسان والمكان. ويربي الإسلام المؤمن على محاسبة نفسه على كل يوم يحياه، بل على كل لحظة من العمر، « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله، ان الله خبير بما تعلمون. ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون. لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة، أصحاب الجنة هم الفائزون ـ الحشر **١٨ ـ ٢٠** ». وعقيدة الايمان بالله تُزَكِّي المؤمن على **مراقبة ربه الذي لا تخفى عليه خافية من خلجات نفسه وفكره وحركات أنامله لحظة من ليل أو نهار،** « **ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم،** ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو منهم أينما كانوا، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة، إن الله بكل شيء عليم ـ المجادلة/٧ »، « لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو اصلاح بين الناس، ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً

---

(١) مالك بن نبي : شروط النهضة ص ٦٤ ـ ٦٦، ٨٩.

عظيماً ـ النساء/ **١١٤** ». « وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى **أجل مسمى**، ويؤت كل ذي فضل فضله، وإن تولوا فاني أخاف عليكم عذاب يوم كبير. إلى الله مرجعكم وهو على كل شيء قدير. ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه، ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون، إنه عليم بذات الصدور ـ هود/**٣ ـ ٥** ». « وقِفوهم إنهم مسؤولون. ما لكم لا تناصرون. بل هم اليوم مستسلمون ـ الصافات/ **٢٤ ـ ٢٦** ».

ويكرر القرآن ذكر « **الأجل** »، وهو الاطار الزمني المتاح للفرد والجماعة، « **ولكل أمة أجل، فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ـ الأعراف/٣٤** ». وهذا الأجل « **مسمّى** » و « **معدود** » (هود **٣** ، **١٠٤**). والاطار الزمني يحدد وجود الكون كما يحدد حياة الإنسان.. « وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ـ الرعد/**٢** » « ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى ـ الروم/**٨** ». بل ان الأجل يحدد شريعة النبي إلى قومه، وان اتحدت رسالات الأنبياء في عقيدة التوحيد، « وما كان لرسول أن يأتي بآية الا باذن الله، **لكل أجل كتاب**، يمحو الله ما يشاء ويثبت، وعنده أم الكتاب ـ الرعد/**٣٨** ».

ومن تأويل الآية أنها تشير إلى نسخ الشرائع ما يلائم أحوال الأقوام التي يبعث اليها الرسل وفقاً لاختلاف ظروف الزمان إلى أن جاءت خاتمة الرسالات فكانت شريعة الله الباقية الخالدة. ومسيرة الدعوة بالنسبة لكل رسول لها توقيتها وتحديد مراحلها، « فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور ناراً ـ القصص/**٢٩** ». ويرتبط هذا « الأجل المحدود » لكل مخلوق بعقيدة تفرد الله بالخلود، وجريان حكم الحدود والفناء على كل مخلوق، « هو الأول والآخر ـ الحديد/ **٣** »، « كل شيء هالك إلا وجهه، له الحكم واليه ترجعون ـ القصص/ **٨٨** ».

وتأتي بعد عمر الانسان المحدود على هذه الدنيا الفانية حياة خالدة في الحياة الآخرة الباقية، وسوف يكون في حياة الانسان الأخرى حساب وجزاء على ما قدمت يداه في كل لحظة من لحظات حياته في الدنيا من قبل، وهو حساب محتوم لا مفر منه، والعاقل من أعد نفسه له فحاسبها عن

الفكر والقول والعمل في كل لحظة يعيشها على ظهر الدنيا، « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ــ الكهف/١١٠ ». « من كان يرجو لقاء الله فان أجل الله لآت وهو السميع العليم ــ العنكبوت/٥ ». **وهكذا ترهف عقيدة الحساب والجزاء في الآخرة احساس المؤمن بالزمن من جهة، كما تكفل استمرار الجدّ في السعي لآخر لحظة من العمر**، ما دام الانسان يعمل لدار الخلود لا للدنيا التي يحس استحالة دوامها في كل لحظة فناء للمادة والحياة، وإن أثر الإيمان باليوم الآخر في هذه « **الاستمرارية** »، الضرورية لاتصال النشاط الحضاري وتراكم الجهود المتضافرة عليه، مما فطن اليه في براعة المستشرق « جرونيباوم » في دراسته لحضارة الإسلام. ومن هنا تعددت نصوص الكتاب والسنة وآثار الصحابة والتابعين التي تعمق وعي المؤمن بالزمن، فمن ذلك ما ورد في الحديث « ما من يوم ينشق فجره إلا ويقول : يا ابن آدم، أنا خلق جديد، وعلى عملك شهيد، فتزود مني فاني لا أعود إلى يوم القيامة »، « لا تزول قدما العبد يوم القيامة حتى يسأل عن خمس : عن جسده فيما أبلاه، وعن عمره فيما أفناه، وعن علمه ماذا صنع فيه، وعن ماله مم اكتسبه وفيم أنفقه ». ووردت آثار منها : « من لم يكن في زيادة فهو في نقصان »، « اغتنم خمساً قبل خمس : حياتك قبل موتك، وشبابك قبل هرمك، وقوتك قبل ضعفك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك ». ونبّة القرآن المؤمنين إلى أن التبلد عن الوعي بالزمن اهدار لحساسية الإنسان وادراكه المتميز « ولكنكم **فتنتم أنفسكم** وتربصتم وارتبتم **وغرّتكم الأماني** حتى جاء أمر الله، وغركم بالله الغرور.... ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل **فطال عليهم الأمد** فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون ــ الحديد/١٤ ــ ١٦ ». « **فلما نسوا ما ذكِّروا به** فتحنا عليهم أبواب كل شيء، حتى إذا فرحوا بما أوتوا **أخذناهم بغتة** فاذا هم مبلسون. فقطع دابر القوم الذين ظلموا، والحمد لله رب العالمين ــ الأنعام/٤٣ ــ ٤٤ »، « الذين اتخذوا دينهم **لهواً ولعباً وغرّتهم الحياة الدنيا**، فاليوم ننساهم **كما نسوا لقاء يومهم هذا** وما كانوا بآياتنا يجحدون ــ الأعراف/٥١ ». « ولكن متعتهم وآباءهم حتى **نسوا**

الذكر وكانوا قوماً بوراً. الفرقان/**١٨** ». « قال كذلك أتتك آياتنا **فنسيتها** وكذلك اليوم تنسى ـ طه/**١٢٦** ». « استحوذ عليهم الشيطان **فأنساهم ذكر الله، أولئك حزب الشيطان، ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون** ـ المجادلة/ **١٩** ». وتذكر يوم الحساب والجزاء والدار الآخرة لا يعني في تعاليم الإسلام الصحيح بحال شللاً لقوى الإنسان وتعطيلاً لطاقاته وانسحاباً من العمل في الحياة الدنيا، بل يعني وجوب الجد في السعي خلال عمر الإنسان المقدر في هذه الدنيا الفانية، فعلى هٰذا المسعى تكون المثوبة في الآخرة الباقية، وهكذا يتحقق استمرار جهوذ الفرد والجماعة، ومن ثم روي في الحديث : « من أحس قيام الساعة وبيده فسيلة فليغرسها »[1].

وقد وجهت تعاليم الإسلام المؤمنين **إلى التزام الاطار الزمني لكل أعمالهم**، من شعائر العبادة إلى سائر ما يعبدون الله به من قول وعمل، « أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهوداً. ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ـ الاسراء/**٧٨ ـ ٧٩**»، « **حافظوا على الصلوات والصلاة والوسطى وقوموا لله قانتين ـ البقرة/٢٣٨**». « **ان الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً** ـ النساء/**١٠٣** ». « ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم.. أياماً معدودات... شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدىٰ والفرقان، فمن شهد منكم الشهر فليصمه، ومن كان مريضاً أو على سفر فعدَّةٌ من أيام أخر، يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر، ولتكملوا العدة ـ البقرة/**١٨٣ ـ ١٨٥** »، « أُحِلَّ لكم ليلة الصيام الرفثُ إلى نسائكم، هنَّ لباسٌ لكم وأنتم لباس لهن.... وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، ثم أتموا الصيام إلى الليل ـ البقرة/**١٨٧** »، « يسألونك عن الأهلة، قل هي مواقيت للناس والحج ـ البقرة/ **١٨٩**»، « ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض، منها أربعة حرم، ذلك الدين القيّم فلا تظلموا فيهن أنفسكم.... انما النسيء زيادة في الكفر يُضَلُّ به الذين كفروا،

---

(١) رواه أحمد في مسنده.

يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدّة ما حرم الله، التوبة/ **٣٦ ـ ٣٧** »، « الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج ـ البقرة/**١٩٧** » « واذكروا الله في أيام معدودات، فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه، ومن تأخر فلا اثم عليه لمن اتقى، البقرة/**٢٠٣** »، « ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات ـ الحج/**٢٨** »، « كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ـ الأنعام/**١٤١** ».

وعلى هذا النحو يربي الإسلام المؤمن على التوقيت الدقيق، وأداء كل عمل في وقته حين يؤدي شعائر العبادة من صلاة وصوم وزكاة وحج، وغاية ذلك أن تصير هذه له عادة وسلوكاً في كل أمر، فيرعى الوقت المناسب في أي عمل أو تعامل. وقد تتابعت آيات الله وأحكام الشريعة تثبت ذلك في وعي المؤمن وسلوكه، « اذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العِدّة... فاذا بلغن أجلهن فامسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف ـ الطلاق/ **١ ـ ٢** »، « ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله ـ البقرة/**٣٣٥** ». « يأأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه... ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ـ البقرة/ **٢٨٢** »، « إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج، فان أتممت عشراً فمن عندك... قال ذلك بيني وبينك أيّما الأجلين قضيت فلا عدوان عليَّ ـ القصص/ **٢٧ ـ ٢٨** ».

ويحتاج بناء الحضارة إلى وعي بالزمن من جهة، **وطاقة « دينامية » تملأ الزمن بالحركة الحية المتجددة،** التي تتباين مجالاتها وأساليبها وفقاً لظروف الواقع المتغير واحتياجاته على هدى مبادئ الإسلام وتعاليمه. والدين وحده قادر على اطلاق الطاقة الإنسانية من أبعد الأعماق إلى أوسع الآفاق على مدى الزمن، ورسالة الإسلام أقدر على اشعاع آثارها طولاً وعرضاً بعد أن تمكنت من أغوار النفس والعقل عمقاً... وهكذا امتدت آثار الإسلام في حضارة زاهرة متعددة الجوانب والمناشط تظلل رقعة فسيحة من العالم قروناً متطاولة. وما أصدق تعبير المفكر الهندوكي « رادا كريشنان » في افتتاح ندوة « الثقافة الإنسانية وفلسفة التربية في الشرق والغرب » التي نظمتها

اليونسكو في نيودلهي اذ يقول : « ان الممارسة الدينية وحي رباني، ووعي داخلي، وتحرر مطلق... وليست الممارسة الدينية قضية ايمان بسلسلة من المعطيات فحسب، وإنما هي انتفاضة الكيان برمته ازاء المشكلات التي تطرحها العلاقات البشرية في الواقع اليومي[1]. على أن من واجبنا ألا نذهب بعيداً مع هذا القول ولا مع النزعات الصوفية فنجعل الدين « شعوراً » ونقلل أهمية تفهم العقائد وممارسة الأحكام العملية، ولكن لا بد من التوازن والتضافر بين الايمان والعمل، بحيث يُعمِّقُ العمل الايمان، ويحفز الايمان إلى مزيد من العمل، فتتفاعل في نفس المؤمن وسلوكه تعاليم الإسلام متآزرة متكاملة على النحو الذي عبر به القرآن عن رسالته وغايته بما يجمع بين الشحنة النفسية والتفضيل العملي « **هدى** للناس، **وبينات** من الهدى والفرقان ـ البقرة/**١٨٥** ». « والإيمان بضع وسبعون شعبة » كما علمنا الرسول الكريم صلوات الله عليه، وكذلك « البر » واسع الآفاق متعدد المجالات في بيان القرآن. وهذا يعني دينامية الايمان المشعة الدائمة التي تعززها وتثبتها قوالب تشكل السلوك وتميز المؤمن، دون أن تحصرها وتجمدها.

والايمان، كما أراده الله طاقة حية وحركة دائمة، هو الذي يبني الحضارة وينشرها ويجدد حياتها دائماً، في حين أن الانحصار والتجمد في الأشكال يؤدي إلى الركود والتخلف. وما أروع هذا التحليل الهادي المنير لمفكر الإسلام الراحل مالك بن نبي أجزل الله مثوبته وأفسح له في جنته إذ يقول : « في (الغرب) اضطراب نتج عن عدم الملاءمة بين حاجات الإنسان هناك وتيار الانتاج الصناعي المسرع، وهي مشكلة (حركة) مضطربة... بينما البلاد الإسلامية أزمتها في (الركود) لا الحركة، فهي مشكلة الإنسان الذي يسكنها وقد عزف عن الحركة وقعد عن السير في ركب التاريخ. فالأمر في الحالة الأولى يتعلق بحاجات غير مشبعة و (ديناميكية) مضطربة، على حين يتعلق في الحالة الأخرى بعادات راكدة وضعت الفرد في حالة (توازن خامد) وخمول تام، في الوقت الذي خطت فيه الحضارة خطوات عملاقة.. ومن

---

(١) الثقافة الإنسانية : ص ٥٤ ـ ٥٥.

(الرجل) تنبع المشكلة الإسلامية بأكملها، فالمسألة هي أننا يجب أولاً أن نصنع رجالاً يمشون في التاريخ، مستخدمين التراب والوقت والمواهب في بناء أهدافهم الكبرى ». ويرى مالك بن نبي بحق **أن هذا الركود والخمول هو الذي هيأ « القابلية للاستعمار » في شعوب المسلمين**، وهو الذي ينبغي أن ينعى عليه المسلمون ويلوموا أنفسهم لأجله قبل أن يدينوا الاستعمار ويلوموه[1]..

والتفاعل مع دين الله، على حقيقته مكتملاً جامعاً، يطلق طاقات الإنسان الضخمة لتعمل في الكون العملاق فتشغل بمنجزاتها وآثارها الزمان والمكان... وما أروع كلمات العقاد النيرة المنيرة : « ان حقائق الكون الكبرى لن تنكشف لعقل ينظر إلى الكون كأنه أشتات مفرقة بين الأرباب، يتسلط عليها هذا بارادة، ويتسلط عليها غيره بارادة تنقضها وتمضي بها إلى وجهة غير وجهتها، **فلم يكن التوحيد عبادة أفضل من عبادات الشرك وكفى، بل هو علم أصح، ونظر أصوب، ومقياس لقوانين الطبيعة أدق وأوفى**... والاله الواحد لم يكن حل مسألة، ولم يكن سر أحبار وحكماء ولم يكن خالق الكون والناس ولا مزيد، بل كان خالق الكون والناس، وحاكم الكون والناس، وكان منه الأمر والنهي واليه المرجع والمآب. كانت عبادته مسألة حية تمتزج بسرائر النفس وتنبعث منها فضائل الخير، ولا تنزوي عنها زاوية في الكون ولا في ضمير الانسان. (كانت صحبة البيت والطريق، وصحبة اليقظة والمنام، وصحبة العزلة والجماعة، وصحبة الحياة قبل المولد وبعد الموت.. هي صحبة الخلود الذي لا يعرف الفناء »[2].

اقامة الدولة وسلطتها الشرعية الضابطة المنظمة العادلة :

لا ترتضي تعاليم الإسلام أن يعيش المسلمون في فوضى وشتات، ولا ترتضي أن تحكم المسلمين الاهواء أو الطواغيت. **فالإسلام يتطلب النظام ونصب القيادة المختارة المسؤولة المطاعة حتى في الجماعة الصغيرة**

---

(١) مالك بن نبي : شروط النهضة ص ١١٣ ـ ١١٤.
(٢) العقاد : أبو الأنبياء.

والعمل المحدود، وفي الحديث، « **اذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم** ». وقد ارتأى العلّامة ابن خلدون « أن الاجتماع ضروري للنوع الإنساني وإلا لم يكمل وجودهم وما أراده الله من اعتمار العالم بهم واستخلافه إياهم **وهذا هو معنى العمران**. ثم ان هذا الاجتماع اذا حصل للبشر كما قررناه، وتم عمران العالم بهم، فلا بدّ من وازع يدفع بعضهم عن بعض... فيكون ذلك الوازع واحداً منهم يكون له عليهم الغلبة والسلطان واليد القاهرة حتى لا يصل أحد إلى غيره بعدوان. **وهذا هو معنى الملك**... **فالتغلب هو الملك، وهو أمر زائد على الرئاسة**، لأن الرئاسة انما هي سؤدد وصاحبها متبرع، وليس له عليهم قهر في أحكامه، وأما الملك فهو التغلب والحكم بالقهر... ». ويشبه كلام ابن خلدون ما قرره القانونيون المحدثون من بين خصائص الدولة ووظائفها وهو احتكار سلطة القمع Contrainte والانفراد بسلطة القضاء وتشكيل قوات مسلحة لكفالة الأمن الداخلي والخارجي تخص الدولة بولائها وطاعتها، فحقيقة الملك عند ابن خلدون ـ أو الدولة ـ بتعبيرنا « انه الاجتماع الضروري للبشر ومقتضاه التغلب والقهر ». وهكذا يمكننا تفسير كلام ابن خلدون بتعبيرنا أن الدولة هي التجسيد السياسي للجماعة أو المجتمع، وهي على ذلك ظاهرة اجتماعية وأساس حضاري. ويرى صاحب « المقدمة » أن الملك قد يكون « سياسيا » يحمل الكافة على « قوانين سياسية يفرضها أكابر الدولة وبصراؤها بمقتضى النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار، إذ الوجود وحياة البشر قد تتم بما يفرضه الحاكم لنفسه أو بالعصبية التي يقتدر بها على قهرهم وحملهم على جادته »[1]، والحق أن النظر العقلي للإنسان قاصر في تقدير المصلحة تقديراً صائباً مطرداً، ولغيره من الناس بحكم تغلغل الأهواء والمنافع الذاتية في نفوس الحاكمين لصالح الفرد أو العشيرة أو الحزب أو الطبقة، ومحدودية التقرير الإنساني للحق والباطل والخير والشر مهما زعم التجرد والصواب، في حين لا يحابي ميزان العدالة الربانية أحداً ولا يساير هوى أو

---

(١) ابن خلدون : المقدمة وهي المجلد الأول من تاريخه ـ دار البيان، بيروت ص ٤٣ ـ ٤٤ و ١٣٩ ، ١٩٠.

منفعة في شتى المجالات : اجتماعية كانت أو سياسية أو ادارية أو قضائية، كما لا يتحامل ضد أحد، « فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا، وإن تلووا أو تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيراً ـ النساء/ ١٤٠ »، « ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا، وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان، واتقوا الله، ان الله شديد العقاب ـ المائدة/ ٢ »، « قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره، والله لا يهدي القوم الفاسقين ـ التوبة/ ٢٤ ». وقد أوضح ابن خلدون شمول السياسة القائمة على أساس الدين اذ ترتبط فيها الدنيا بالآخرة، وعلى هذا تقوم « دولة الإسلام » وهي الاخلافة في تعبير ابن خلدون أخذاً من واقع التاريخ شاملة مستوعبة، فتتجاوز آفاق الملك السياسي وحدوده وقصورها، ومن ثم تضطلع الدولة التي يقيمها الإسلام بـ « حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الاخروية والدنيوية الراجعة اليها، إذ أحوال الدنيا كلها عند الشارع إلى اعتبارها بصالح الآخرة، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به، ونصب الامام واجب شرعاً على المسلمن بالاجماع[1].

وإذا كان نظام الحكم في الدولة الإسلامية « امامة » أو « خلافة » عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به، فلا يعني هذا أن حكومتها ثيوقراطية أو أن حاكمها معصوم، فمثل هذه الدعوى تعوق وتعرقل مبادرات الأمة الايجابية ونشاطها الذاتي الدائب لبناء الحضارة. ولما دعي أبو بكر الصديق خليفة الله قال : « لست خليفة الله ولكني خليفة رسول الله ﷺ ». وقد منع جمهور الفقهاء من تلقيب الخليفة بخليفة الله لأسباب، في مقدمتها ما يمكن أن يؤدي إليه مثل هذا اللقب من لبسٍ في أذهان عامة الناس، واحتمال أن يكون ذريعة لادعاء العصر وتطلب الطاعة من الرعية في الحق والباطل، « ولأن الاستخلاف انما هو في حق الغائب وأما الحاضر فلا »[2].

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٩٠ ـ ١٩١.

(٢) المصدر السابق ص ١٩١.

وإمام المسلمين سلطته محكومة بشريعة الإسلام في مبادئها العامة وقواعدها الكلية وأحكامها التفصيلية، ويجوز لرعيته أن يختلفوا معه في أمر من الأمور ويكون المرجع عند الخلاف والتنازع الاحتكام إلى كتاب الله وسنة رسوله صلوات الله عليه، **فسياسة المسلمين مشاركة ايجابية وتعاون حقيقي بين الراعي والرعية**، وبهذا وحده تقوم الحضارة وتزدهر، « يأأيها الذين آمنوا اطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم، **فان تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول** ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً ـ النساء/**٥٩** ». ولقد سمى الامام ابن تيمية هذه الآية بحق « آية الامراء » **في** كتابه « **السياسية الشرعية في اصلاح الراعي والرعية** »، **فهي** تجمل حقوق الحكام التي هي من جانب اخر واجبات المحكومين وواجبات الحكام التي هي من الجانب الآخر حقوق المحكومين. فالطاعة واجب الأمة لولي الأمر الذي هو منهم يتولى أمرهم برضاهم ويعتمد عقيدة أهل الايمان ويحكم شريعة الإسلام التي يسلم لها المؤمنون. وكما تقرر الآية حق ولي الأمر الشرعي في طاعة الأمة والتزام جماعة المسلمين بهذه الطاعة، فانها تقرر واجب ولي الأمر في تهيئة السبل للشورى وللنصيحة وإبداء الآراء في سياسته، ومنها ما قد يختلف مع سياسة الحاكم في بعض الأمور، وهذا الواجب على ولي الأمر هو حق للرعية بل هو واجب عليهم أيضاً بحكم إيجاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحة على المسلمين. ويقرر الامام ابن القيم في صدد ما ورد بصدد « آية الأمراء » كما دعاها بحق الامام ابن تيمية، « فأمر الله بطاعته وطاعة رسوله، وأعاد الفعل (أطيعوا) إعلاماً بأن طاعة الرسول تجب استقلالاً من غير عرض ما أمر به على الكتاب.... ولم يأمر بطاعة ولي الأمر استقلالاً، بل حذف الفعل (أطيعوا) وجعل طاعتهم ضمن طاعة الرسول، ايذاناً بأنهم **إنما يطاعون تبعاً لطاعة الرسول** »[1]. وقد كانت كلمات الخليفة الأول خير بيان لهذا الأساس الدستوري للسلطة الشرعية في الإسلام، ولتقرير الحقوق والواجبات التي تكون للحاكم والمحكوم، ولإيضاح العلاقة بينهما حين قال رضي الله عنه في خطبته

---

(١) ابن القيم : اعلام الموقعين ـ المطبعة المنيرية بالقاهرة ـ جـ ١ ص ٣٩.

المشهور : « اني وليت عليكم ولست بخيركم، فان رأيتموني على حق فأعينوني، وان رأيتموني على باطل فقوموني. أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فان عصيت فلا طاعة لي عليكم ». وقال عن ذلك الامام مالك : « لا يكون أحد إماماً إلا على هذا الشرط ». وإذا كانت مبادرة الرعية إلى إبداء الرأي المخالف حقاً مقرراً لهم، بل واجباً عليهم بمقتضى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فمبادرة ولي الأمر إلى **طلب الشورى** من أهلها واجبة عليه للاستدلال على حكم الله ورسوله من النصوص الشرعية المتعددة وللاجتهاد فيما سكتت عنه النصوص، « وأمرهم شورى بينهم ـ الشورى/**٣٨** ». وبهذا يسهم الحاكم والمحكومون جميعاً في بناء دولتهم والنهوض بجماعتهم ومواصلة سيرة الخير والاصلاح. وقد أوجب الإسلام، على الحاكمين والمحكومين، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتواصي بالحق. وبلغ رسول الإسلام عليه صلوات الله وسلامه أمته أن الدين النصيحة لأئمة المسلمين وعامتهم. **وهكا اقترنت رسالة الإسلام بتوفير أساس حضاري جليل، هو قيام الدولة بسلطتها الضابطة المنظمة، وإقامة شريعة الله العادلة،** وتقرير الشورى والحقوق والواجبات التي لولي الأمر وللرعية، فكانت أمصار الإسلام منارات الهداية والرعاية والعدالة والحضارة. وكانت دولة الإسلام بحق دولة الرخاء والرفاهية العامة، والتكافل الاجتماعي لا تقنع فحسب بكفالة الأمن الداخلي والخارجي.

عدالة وحضارة للإنسان، أياً كان، وللعالم أجمع :

عدالة الإسلام وحضارته للإنسان باطلاق، أياً كان أصله العرقي أو اللغوي أو طبقته أو عقيدته، **وهي حضارة تنشر أنوارها في كل فجاج الأرض وبين كل أقوام البشر، دون تمييز أو محاباة أو تحامل أو استعلاء،** « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ـ الأنبياء/**١٠٧** ». « تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ـ الفرقان/ **١** ». « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ـ سبأ/٢٨ ». فعدالة الإسلام، اذ يشرع أحكامها رب العالمين الذي تعالى سبحانه عن الانحياز والتمييز، هي للناس أجمعين وليست مقصورة على فئة، حتى انها حين تعلن الحرب على البغي، إذا

سُدَّت سبل الاصلاح، تفتح طريق الرجوع إلى الحق، فان رجع الباغي إلى الحق أخذ مكانه فوراً بين جماعة المؤمنين دون حقد أو حساسية مرضية، « فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله، **فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا**، ان الله يحب المقسطين ـ الحجرات/ **٩** ».

« ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا ان كنتم مؤمنين، فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله، **وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تَظلمون ولا تُظلمون** ـ البقرة/ **٢٧٨ ـ ٢٧٩** ». وبذلك يفتح الإسلام الطرق دوماً لتضافر الجهود وحشد الطاقات تحت لواء الحق والخير والتعاون على البر والمعروف.

وتشمل عدالة الإسلام **غير المسلمين ما داموا مسالمين**، فاختلاف الاديان يحكم فيه الديان يوم القيامة وليس مبرراً للتظالم والعدوان، « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن **تبروهم وتقسطوا اليهم**، ان الله يحب المقسطين ـ الممتحنة/ **٨** ».

بل ان الإسلام يوصي بتبادل الخير، فكما يعطي المسلمون يمكن أن يأخذوا من غيرهم، ما دام ما يأخذونه موافقاً لتعاليم دينهم، ولا ينفر المؤمن من أي شعب أو قوم، « وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ـ الحجرات/ **١٣** »، وهو يتبادل المنافع المادية والمعنوية مع البشر جميعاً على اختلاف ألسنتهم وألوانهم، محكماً فيما يأخذه ميزان الإسلام في تقديم الحق والباطل. فالقرآن يشير إلى فتح البحار « للناس » جميعاً دون تمييز للانتفاع منها، « والفلك التي **تجري في البحر بما ينفع الناس** ـ البقرة/ **١٦٤** ». ومعرفة الحق والحقيقة يسعى إليها المسلم حيثما كانت، كما أوضح الحديث « **الحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها فهو أحق الناس بها** ».

ومن ثم عرف التاريخ في حضارة الإسلام حضارة عالمية شعت أنوارها من دار الإسلام إلى شتى الآفاق، شملت غير المسلمين في دولة الإسلام وخارجها، وتقبلت ما لديهم من معارف وخبرات نافعة وفقاً لمعايير الإسلام

في القيم. « فالحضارة الإسلامية قد قامت بعملية التحديد من ناحيتها السلبية والايجابية، وصدرت فيهما عن القرآن الكريم الذي نفى الافكار الجاهلية البالية ثم رسم طريق الإسلام الصافي الذي يخطط للمستقبل بطريقة ايجابية. **وهذا العمل نفسه لازم للنهضة الإسلامية اليوم**. ولعل هذه المسألة قد أصبحت منذ زمن قريب موضوع بحث وتأمل، واننا لنجد فعلاً في روح الاصلاح التي هبت على العالم الإسلامي (في القرنين الاخيرين بوجه خاص) بشائر ذلك التحديد السلبي الذي حاول ايضاح عللنا وعوامل انحطاطنا وتحطيمها.... أما التحديد الايجابي فاننا، وان كان قد وضح لنا مجمله، إلا أنه لا يزال (في أيامنا) غامضاً غير متحدد.. والمقصود تحديد محتواه من العناصر الجوهرية اللازمة للثقافة (أو الحضارة وهي : الدستور **الخلقي، والذوق الجمالي، والمنطلق العلمي والصناعي**، بتعبير ابن خلدون، أو ما نسميه الآن technique[1].

التـذوق الجمـالي :

تعنى رسالة الإسلام بتربية التذوق الجمالي، وتؤكد ان الاستمتاع بالجمال والسعي للتجميل المقبول سمة الإنسان السوي، المرهف، الحس العميق الادراك، اللماح لروعة الخلق وعظمة الخالق وجليل نعمائه. « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، قل هي الذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ـ الأعراف/ **٣٢** ».

والقرآن يوجه النظر إلى « **الجمال** » في خلق الله إلـى جانب « **المنفعة** » : « **أفلم** ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنياها وزيّناها ومالها من فروج. والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج. **تبصرة وذكرى لكل عبد منيب**. ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد. والنخل باسقات لها طلع نضيد، رزقاً للعباد، وأحيينا به بلدة ميتاً، **كذلك الخـروج ـ ق/٦ ـ ١١ »**، « ..... **فأنبتنا به حدائـق ذات** بهجة، ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ـ النمل/**٦٠** ». « وزيّنّا السماء الدنيا

---

(١) مالك بن نبي : شروط النهضة ص ١٢٢ ـ ١٢٣.

بمصابيح وحفظا، ذلك تقدير العزيز العليم ـ فصلت/ ١٢ ». « والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون. ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون... والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة، ويخلق ما لا تعلمون ـ النحل/ ٦ ـ ٨ ». « وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها، وترى الفلك مواخر فيه ـ النحل/ ١٤ ». « انا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً ـ الكهف/ ٧ ».

وخلق الإنسان نفسه يحقق الفعالية الوظيفية كما يهيء له الجمال، « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ـ التين/ ٤ »، « الذي خلقك فسواك فعدلك ـ الانفطار/ ٧ ».

والمسلم مأمور باتخاذ الزينة عند الخروج إلى الجماعة، « يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ـ الأعراف/ ٣١ »، وهو مدعو لتجنب ما من شأنه خروج رائحة كريهة من فمه وهو ملتحم مع الجماعة في صفوف الصلاة، مندوب إلى السواك في كل صلاة، فضلاً عن الطهارة السابقة الشاملة للجسم والثوب والمكان. وقد أخبر رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام أنه قد حبب إليه الطيب، وفي الصحيح أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد تطيب قبل إحرامه لحجته بأطيب الطيب، « ورؤي وبياض الطيب في مفارق رأسه »، وروى ابن اسحق أن عبد الله بن زيد بن ثعلبة حين أخبر رسول الله صلوات الله عليه برؤياه في شأن الاذان قال له ﷺ: « إنها لرؤيا حق ان شاء الله، فقم مع بلال فألقها عليه فليؤذن بها فانه أندى صوتاً »[1]. ويصور القرآن الجنة في جمال وجلال ينفعل بها أصحاب الحس المرهف ويشيع بين المؤمنين تذوق الجمال، « وجوه يومئذ ناعمة. لسعيها راضية. في جنة عالية. لا تسمع فيها لاغية. فيها عين جارية. فيها سرر مرفوعة. وأكواب موضوعة. ونمارق مصفوفة. وزرابي مبثوثة ـ الغاشية/ ٨ ـ ١٦ ». ويعرض القرآن صورة جمالية حضارية لنور الله تأخذ بالالباب، « الله نور السموات

---

(١) سيرة ابن هشام ـ بتحقيق السقا والأنباري وشلبي ـ ط ٢ ـ مكتبة مصطفى الحلبي بالقاهرة ـ القسم الأول ص ٥٠٨ ـ ٥٠٩.

والأرض، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب دري، يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، نور على نور، يهدي الله لنوره من يشاء. ويضرب الله الأمثال للناس، والله بكل شيء عليم. في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ـ النور/**٣٥ ـ ٣٦**». وقد تأتي الصناعة بصور من الجمال الباهر في حياتنا الدنيا تتحدث بنعمة الله وتستخدم في طاعته كما ورد عن صرح سليمان الذي دخلته ملكة سبأ، « فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها، قال انه صرح ممرد من قوارير، قال رب اني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ـ النمل/ **٤٤** ».



وتربية التذوق الجمالي عند المسلمين بمثل هذه الصورة المتعددة في رسالة الإسلام تأسيس متين قويم في أعماق النفس والفكر لأصول حضارة زاهرة تؤتي ثمارها **الأدبية الفنية الجمالية** إلى جانب منجزاتها المادية النافعة. ومن آثار حضارة الإسلام المعروفة، إنشاء الحمامات والمغاسل وموارد المياه العامة استجابة لاوامر الإسلام في الطهارة والوضوء والغسل. وكان في الجانب الشرقي من بغداد وحده في القرن الثالث الهجري خمسة آلاف حمام، وروى الخطيب البغدادي انه كان في بغداد في عهد المقتدر العباسي ٢٧ ألف حمام، وصلت في عهود أخرى إلى ٦٠ ألف. ويذكر المقريزي انه كان بالفسطاط ألف ومائة وسبعون حماماً. وكان الحمام متعدد الحجرات وقد رصفت أرضه بالفسيفساء وبطنت جدرانه بالرخام، وقد أحاطت حجرات الحمام بقاعة وسطى واسعة تتوجها قبة تتخللها كوات صغيرة عليها زجاج ينفذ خلاله الضوء، وكانت هذه القاعدة تدفأ بالبخار المتصاعد من نافورة ماء في وسط الحوض، وتهيأ حجرات للاسترخاء وتناول المشروبات الدافئة المهدئة. وقد تجاوب الفن مع تعاليم الإسلام في تحريم تصوير الاحياء أو تجسيمهم فأبدع الزخارف المتميزة المستمدة من النباتات والاشكال الهندسية والتي عرفت بالزخرفة العربية (arabesque) فضلاً عن إبداع الصور الرائعة من الخط العربي واستخدامها في الزخرفة. كما بهرت الأنظار

نقوش المسلمين الزخرفية على الثياب والسجاد والخزف والقيشاني (أو الزليج). وتقدمت صناعة الميناء والزجاج وتذهيبه وتلوينه وتطعيم الخشب والنقش على النحاس، وبرز ذلك في كنوز الآثار الباقية وما اشتملت عليه من كؤوس وأوان للزهور وثريات، كما ازدهرت صناعة العطور والحلي[1].

ومن فقهاء المسلمين من أجاز الموسيقى بمختلف آلاتها. وذكر ابن حزم في « المحلى » أن بيع المزامير والعيدان والمعازف والطنابير حلال كله، ومن كسر شيئاً ضمنه... ولم يأت نص بتحريم بيع شيء من ذلك، واحتج المانعون بآثار لا تصح أو يصح بعضها ولا حجة لهم منها، وقد أورد ابن حزم في إباحة الغناء والموسيقى، كما أورد صاحب « نيل الأوطار » حجج من أباح ومن حرم : ومن حجج الاباحة ان ابن السمعاني نقل الترخيص في الغناء مع الموسيقى عن طاووس ونقله ابن قتيبة وصاحب (الإمتاع) عن قاضي المدينة سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن الزهري من التابعين، ونقله أبو سعلى الخليلي في (الإرشاد) عن عبد العزيز بن سلمة الماجشون مفتي المدينة، وحكى الروياني عن القفال أن مذهب مالك إباحة الغناء بالمعازف، وذكر أبو طالب المكي أنه سمع طنبوراً ـ وهو من آلات العزف ـ في بيت المنهال بن عمرو المحدث، وحكى أبو الفضل بن طاهر في مؤلفه في السماع أن لا خلاف بين أهل المدينة في إباحة العود. وحكى الماوردي إباحة العود عن بعض الشافعية، وحكاه الادفوي عز الدين بن عبد السلام، وحكاه صاحب (الإمتاع) عن أبي بكر بن العربي وجزم بالاباحة الادفوي. أما الغناء من غير آلة موسيقية ـ فقال الادفوي في (الإمتاع) أن الغزالي في بعض كتبه نقل الاتفاق على حله، ونقل ابن طاهر اجماع الصحابة والتابعين عليه ونقل التاج الفزاري وابن قتيبة اجماع أهل المدينة عليه، وقال الماوردي : لم يزل أهل الحجاز يرخصون فيه، وقال ابن النحوي في (العمدة) بالرواية في سماع الغناء عن جماعة من الصحابة والتابعين. ويتفق المبيحون للغناء على ألا يكون « فيه تعريض بالفواحش أو تصريح »

---

(١) آدم متز : الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ١٦٢ ـ ١٦٣ ، ٢٥٩ ، ٢٦٤ ـ ، حتي : تاريخ العرب، ترجمة نافع جـ ٢ ص ٤٢١ ـ ٤٢٢ ، ٤٣٢ ـ ٤٣٨ ، ٤٤٢ ـ ٤٤٣ ، ٥٣٥ ـ ٥٣٨.

على حد تعبير الحافظ ابن حجر في وصف الغناء المحرم في (الفتح)[1].

وفي فصل من كتاب « تراث الإسلام » الذي نشره توماس أرنولد وألفرد جيوم، كتب ج. ب. ترند J.B. Trend عن الموسيقى في الأندلس، فذكر أن المسلمين هناك علموا أوربا هذا الفن، فلا غرابة أن ينشأ فيهم ابن حزم المدافع عن الموسيقى والغناء وأوضح أن الشبه ظاهر من الموسيقى الشعبية في جنوب اسبانيا وتلك التي تسمع في بلاد المغرب وغيرها من البلدان الإسلامية الأخرى. ولا خلاف في أنه كان هناك موسيقيون مسلمون لدى ملوك قشتالة وأرغونة. وكثيراً ما جلب المسلمون آلات موسيقية إلى اسبانيا ومنها انتقلت إلى أوربا، وانعكس ذلك على تسمية تلك الآلات في اللغات الأوربية، فالعود هو lute، والقيثارة هي **guitar**، والرباب أو الربابة هي **rebeck, ribble**، والكلمتان الاسبانيتان **penearota paner** تومئان إلى علاقتهما بكلمة (بندير)، والصنوج حول هذا الدف تسمى بالاسبانية **gonja**، والآلة الاسبانية القديمة **anafil** هي النفير بالعربية. ويرى الدكتور « فارمر » المتخصص في دراسة الموسيقى العربية أن الآلة الموسيقية التي يعمل عليها عدة أشخاص تسمى **fanfare** مأخوذة من صيغة جمع لنفير هي (أنفار). والآلة الاسبانية **afogan** وتسمى باللاتينية **buccinum** مأخوذة عن البوق....

والقول بأن الاشارات الموسيقية لها قيم زمنية مضبوطة، ولها نسب فيما بينها ينسب إلى فرانكو الكولوني، ولكن فرانكو هذا يتحدث عن الموسيقى المقيسة كشيء سبقت معرفته من قبل، ويظهر أن الخليل والفارابي كانا رائدين في هذا المجال. وتحدث « والتر أدنجتون » شيخ الموسيقيين في القرن ١٣ ، عن موسيقى العرب الكبار باعجاب[2].

---

(١) انظر ابن حزم : المحلى جـ ٩ ص ٥٥ وما بعدها، الشوكاني : نيل الأوطار. وانظر لكاتب البحث في هذا الباب الفصل الخاص بالموسيقى في « آراء من تراث الفكر الإسلامي » و « الدين في موقف الدفاع ».

(٢) **J.B. Trend** فصل « الموسيقى في الأندلس » من كتاب **Legacy of Islam** وقد ترجم الكتاب للعربية مجموعة من المترجمين بعنوان « تراث الإسلام »، وترجم الفصل المشار إليه حسين مؤنس وتجد خلاصة له في المرجعين المذكورين لكاتب البحث في الحاشية السابقة.

أما بالنسبة للجمال المعنوي فقد جاءت رسالة الإسلام تتم مكارم الأخلاق وتدعو الناس إلى المسابقة في الخير والمسارعة إلى البر، وإلى تحقيق « التي هن أحسن » لا القنوع بفعل الحسن فحسب، وايثار الفضل لا الوقوف عند حد العدل، والسعي إلى « المندوب » والاحسن والاكمل وتجاوز الواجب والفرض « وأن تعفو أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم ـ البقرة/ **٢٣٧**»، « وليعفوا وليصفحوا، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ـ النور/**٢٢** »، « فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء اليه باحسان ـ البقرة/**١٧٨**»، « فامساك بمعروف أو تسريح باحسان ـ البقرة/ **٢٢٩** »، « وان كان ذو عسرة فنظرة إلى مسيرة، وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون ـ البقرة/ **٢٨٠** »، « واذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها ـ النساء/**٨٦** »، « ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده ـ الأنعام/**١٥٢**»، « وجادلهم بالتي هي أحسن ـ النحل/**١٢٥** »، « ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن، فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ـ فصل/**٣٤** ».

ولقد علم رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام أمته « **الاحسان** »، إلى جانب تعليمها الإسلام والايمان، وأمرها أن تحسن العمل وتراقب الله فيه، لانه يعلم السر وأخفى ويرى كل عمل يعمله انسان. وهو ما يجعل فضائل الاخلاق نابعة مِن أعماق النفس، فيتحقق لها الدوام والاستمرار، ويتوقى السلوك مزالق الرياء والنفاق « كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر، فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لا يقدرون على شيء مما كسبوا... ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت اكلها ضعفين، فان لم يصبها وابل فطل، والله بما تعملون بصير ـ البقرة/**٢٦٤ ـ ٢٦٥** ».

والاتقان والاحسان قيمتان حضاريتان أساسيتان، يقترنان في الإسلام بالايمان، فيرعاهما ضمير المؤمن لا أجهزة السلطة الحاكمة، وهكذا يداوم الايمان على حث المؤمن على فعل الاحسن والافضل مما يحفظ مسيرة الفرد والجماعة نحو التقدم والترقي دائماً.

أخلاقية الحضارة الإسلامية :

لقد تضمنت رسالة الإسلام القيم الكفيلة بتأسيس حضارة راسخة شامخة، أصلها ثابت وفرعها في السماء، نامية متجددة، تؤتي أكلها كل حين باذن ربها، فأكدت كرامة الانسان، وأهمية ما أنعم الله به عليه من عقل وإرادة، وواجب الجد في العمل في هذه الدنيا لنيل ثواب الآخرة، والوعي بالزمن، ووجهت المؤمنين إلى إقامة السلطة الضابطة المنظمة العادلة، وصبغت حضارة الإسلام بطابع عالمي، فكان خيرها للانسانية جمعاء، وأشاعت تذوق الجمال الحسي والمعنوي. على أن ميزة الحضارة الإسلامية الكبرى أنها في نشرها تلك القيم الحضارية كلها أقامتها على أساس معنوي عقيدي أخلاقي كان هو الخصيصة المتفردة لهذه الحضارة وقيمها، فمؤسساتها ونظمها وسائر منجزاتها تنبعث فيها روح اخلاقية يزكيها الايمان.

فحقوق الإنسان تنطلق أحكامها الشرعية في الإسلام من عقيدة الايمان في أعمال الوجدان. « فميزان العدل الالهي هو الذي أقام المساواة بين الناس على دعامتها الراسخة، وكل ما عداها من دعامة فانما هي دعائم القوة ممن يقدر عليها. وما كان للعدل بين الناس من سبيل وهم يقيسون بعضهم إلى بعض، فاذا ارتفع الميزان إلى اليد الالهية فهذا القوي مهما يبلغ من القوة والضعيف مهما يبلغ من الضعف، ندان متساويان ومخلوقان أمام خالق واحد »[1]، وهذا ما عبر عنه بوضوح الخليفة الراشد الأول : « ألا ان أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ الحق له، وان أضعفكم عندي القوي حتى آخذ الحق منه »، ومن رسالة الخليفة الراشد الثاني عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري في القضاء « آس بين الناس في خلقك وعدلك ووجهك ومجلسك، حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك ». وكان عمر اذا استعمل العمال قال لهم : « اني لم استعملكم على أمة محمد ﷺ على أشعارهم ولا على أبشارهم، وإنما استعملتكم عليهم لتقيموا فيهم الصلاة، وتقضوا بينهم بالحق، وتقسموا بينهم بالعدل. ألا

---

(١) العقاد : أبو الأنباء. وانظر أيضاً في هذا المعنى المودودي : الدين القيم، نظرية الإسلام السياسية، منهاج الانقلاب الإسلامي وانظر لكاتب البحث : الدين للواقع فصل (بصائر من ربكم).

لا تجلدوا المسلمين فتذلوهم، ولا تجمروهم فتفتنوهم ولا تغفلوا عنهم فتحرموهم ». وكان رضي الله عنه يوجب القصاص من العامل إذا ثبت عليه الحق ازاء من شكاه من رعيته بعد أن يجمع بينهما. ومن كلماته الخالدة : « والله ما أحد أحق بهذا المال من أحد، وما أنا فيه إلا كأحدهم... فالرجل وبلاؤه في الإسلام، والرجل وقدمه في الإسلام، والرجل وحاجته..... »[٢].

وأحكام الشريعة يقوم انفاذها على أساس من ضمائر الحاكم والمحكوم والقاضي والمتقاضي. وقد وجه رسول الإسلام صلوات الله عليه المتقاضي إلى أن يظهر سريرته حتى يعين القاضي على إصابة الحق، وإلّا فمن نال شيئاً بما أخفى من حق فإنما يأكل في بطنه ناراً لا يعفيه منها حكم القاضي المبني على الظاهر. ولقد ورد « البر ما اطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في الصدر وكرهت أن يطلع عليه الناس ». وكثيراً ما ترى الفقهاء يفرقون في دقة وحكمة بين ما يُحكَمُ به قضاء وما يُستحَبُ ديانة، إذ الاحسان فوق العدل والفضل يربو على الحق. **وقد ارتبطت منجزات الحضارة الإسلامية بالقيم الإنسانية التي دعا إليها الإسلام،** فتعاليم الإسلام في النظافة والطهارة قد أدّت إلى الاهتمام بتزويد المساجد بموارد المياه وإنشاء الحمامات. وبناءً على تعاليم الإسلام في رعاية الجائع والعطشان والضعيف جاء تقرير حق الشفة، كما جاءت إقامة الأسيلة أو الماء المسبّل وهو الماء المباح للناس كافة في سبيل الله. كذلك جاء إنشاء دور الضيافة والإيواء والرباطات (أو الأربطة). وتعاليم الإسلام في إيجاب طلب العلم وتيسير سبله قد ترتب عليها قيام التعليم بالمساجد ثم بالمدارس، وقيام مراكز البحث العلمي والثقافة العامة والمكتبات. وقدّم نظام الوقف شواهد معبرة لمؤسسات اجتماعية دائمة قامت على تحقيق الخير والمعروف.

ولا يرتضي الإسلام أن يجبر أحد بالقوة والسلطة على اعتناق عقيدته، وإنما يكفي البيان واقامة الحجة، ثم يحكم بين الناس، يوم الدين، أحكم الحاكمين. « لا إكراه في الدين، قد تبين الرشد من الغي – البقرة/ ٢٥٦ ». ولم تفتأ رسالة الإسلام تؤكد في نفوس المؤمنين الثقة

(٢) الطبري : باب مناقب عمر بعد خبر مقتله

بأنفسهم ودينهم، واليقين بأن منطق الإيمان قادر على إقناع كل ذي عقل مخلص لا يحجبه الهوى. وهكذا أعلن دين الله الأمان لأي كافر حتى يستمع إلى دعوة الإيمان بل وحتى يرجع إلى حيث يأمن بين قومه بعد سماعها، « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه، ذلك بأنهم قوم لا يعلمون ـ التوبة/٦ ». وضمن الإسلام لغير المسلمين في دولته حقوقهم الإنسانية في العيش الكريم وحرياتهم وفي مقدمتها الحرية الدينية، وألزم معاملتهم بالعدل والمعروف فتجنبوا العدوان على المسلمين، « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم، إن الله يحب المقسطين ـ الممتحنة/٨ ».

ولقد وضع عمر الجزية عن شيخ من أهل الكتاب رآه يسأل الناس، وفرض له من بيت المال. وكان من عهد خالد بن الوليد أهل الحيرة الذي أخبر عنه الخليفة عمر، « وشرطت عليهم أن عليهم عهد الله وميثاقه الذي أخذ على أهل التوراة والإنجيل أن لا يخالفوا ولا يعينوا كافراً على مسلم من العرب ولا من العجم، ولا يدلوهم على عورات المسلمين.. فإن هم خالفوا ذلك فلا ذمة لهم ولا أمان، وإن هم حفظوا ذلك ورعوه وأدوه إلى المسلمين فلهم ما للمعاهد وعلينا المنع لهم.... وجعلت لهم أيّما شيخ ضعف عن العمل، أو أصابته آفة من الآفات، أو كان غنياً فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه، طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين وعياله ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام »[1].

ومن السمات الأخلاقية المتميزة للدولة الإسلامية وشريعتها ومؤسساتها وحضارتها : **العناية بالضعيف**. يقول أبو الحسن محمد بن يوسف العامري المتوفي سنة ٣٨١ هـ في كتابه « الإعلام بمناقب الإسلام »، عما حققه الإسلام في هذا المجال، « وأما الضعيف فإن لحقه الضعف من جهة التركيب ـ أعني النساء ـ فليس دين من الأديان أزجر عن الإعتداء عليهن إلى الرفق بهن من هذا الدين، وذلك ظاهر من آي القرآن

(١) أبو يوسف : الخراج ـ المطبعة السلفية، القاهرة ١٣٤٦ هـ ـ ص ١٥١ ـ ١٧٢.

وفي أخبار الرسول عليه الصلاة والسلام، وإن لحقه الضعف من جهة السن ـ أعني اليتامى ـ فقد بالغ هذا الدين في الأمر بحفظهم وحماية أملاكهم، وذلك أيضاً فيما تضمنه القرآن، وإن لحقه الضعف في معاشه ـ وأعني الفقراء ـ فقد أمر هذا الدين بمواساتهم، وإن لحقه من رقبته ـ أعني الأسراء ـ فقد حث القرآن على فك رقابهم، وإن لحقه الضعف في وطنه ـ أعني الغرباء ـ فقد وجدت الوصية لأبناء السبيل في القرآن مكررة »[٢].

وكان عمر يسأل القوم عن أميرهم : هل يعود المرضى ؟ هل يعود العبد ؟ كيف صنيعه بالضعيف ؟ وهل يجلس على بابه ؟. وقد أقام دور الضيافة ورصد لها الأموال، واتخذ دار « الدقيق »، فجعل فيها الدقيق والسويق والتمر والزيت وما يحتاج اليه، ليعين من ذلك المحتاج. ووضع فيما بين مكة والمدينة، وفيما بين الشام والحجاز ما يصلح في الطريق من ينقطع به ـ وفي عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك، صاحب الفتوح الواسعة من الهند إلى الأندلس، خصصت أعطيات للمجذومين لمنعهم من الاحتكاك بالناس قدر المستطاع، كما أعطي المقعد خادماً، والضرير قائداً يأخذ بيده[١].

وإذا كانت الحضارة الرومانية قد اشتهرت بالطرق التي تربط أرجاء الامبراطورية، فإنها قد عرفت كذلك بالحواجز التي أقامتها بين الفئات المختلفة من رعاياها، إذ فرّقت في الحقوق بين سكان روما وسكان سائر إيطاليا، ثم بين الرومان وسائر رعايا البلاد المفتوحة، وبين الذين خضعوا للامبراطورية ومن كانوا خارجها الذين دعتهم « برابرة ». **أما حضارة الإسلام فقد أزالت الحواجز والمسافات بين البشر وعلى الأرض سواء بسواء،** وكانت مراكز **البريد** تعين على التنقل في أرجاء دار الإسلام المترامية. وقد أكثر الخليفة عمر بن عبد العزيز من بناء خانات البريد لإيواء المسافرين وإقامة محطات العناية بالدواب وتغييرها وأحواض الشرب. ووجدت

(٢) أبو الحسن محمد بن يوسف العامري ـ الاعلام بمناقب الإسلام ـ تحقيق أحمد عبد الحميد غراب ـ القاهرة سنة ١٣٨٧ هـ ص ١٦٤.

(١) تاريخ الطبري : مناقب الوليد بعد خبر وفاته.

« **الأربطة** » أو « **الرباطات** » بفعل الجماعة ذاتها فيما بعد، تستضيف العابرين وتقدم لهم ولدوابهم الطعام والمأوى. ويذكر الجغرافي المسلم « الاصطخري » مثلاً عن مسلمي ما وراء النهر : « وأما سماحتهم، فإن الناس في أكثر ما وراء النهر كأنهم في دار واحدة، ما ينزل أحد بأحد إلّا كأنه دخل دار نفسه.. لا تجد فيهم صاحب ضيعة إلّا كانت همته ابتناء قصر فسيح ومنازل للأضياف، فإذا حل بينهم طارق تنافسوا فيه وتنازعوا، وترى الغالب على أهل الأموال بما وراء النهر صرف نفقاتهم إلى الرباطات وعمارة الطرق والوقوف على سبيل الجهاد ووجوه الخير. وليس من بلد ولا منهل ولا مفازة مطروقة ولا قرية آهلة إلّا بها من الرباطات ما يفضل عن نزول من طرقه، إذا نزل النازل أقيم علف دابته وطعام نفسه... وقلّ ما رأيت خاناً أو طرف سكة أو محلة أو مجمع ناس في الحائط بسمرقند يخلو من ماء جمد مسبل (أي هيء للناس في سبيل الله) من بين سقاية مبنية وجباب منصوبة ».

كما تنافس المسلمون أيضاً في **رعاية المجاهدين** وتكريمهم بجهودهم الخاصة، ولم يقنعوا بما يفرضه بيت المال لهم ولذراريهم، ويرى « الاصطخري » أيضاً عن ثغر طرسوس عند الجبال الحاجزة بين المسلمين والروم أنه كان بها في إبّان قوة المسلمين زهاء مائة ألف فارس. « وليس من مدينة عظيمة من حد سجستان إلى كرمان وفارس والجبال وخورستان وسائر العراق والحجار واليمن والشعات ومصر إلّا وبها وأهلها (أهل طرسوس) دار وأكثر، ينزل أهلها إذا وردوها. وذكر الجغرافي المسلم ابن حوقل انه ما من « رئيس ولا نفيس » في شتى بلدان الإسلام إلّا وله على ثغر طرسوس ومجاهديه وقف من ضيعة ذات مزارع وغلّات أو مسقف من فنادق » فضلاً عما كان ينفذه أرباب الثقة من متبرعين[1].

ولنظام الوقف وتاريخه في الإسلام دلالته الجلية على العناية بالضعيف في المجتمعات الإسلامية، وبخاصة حين تقاعس الحاكمون

---

(١) الاصطخري : المسالك والممالك ـ تحقيق محمد جابر الخصين ص ٤٧، ١٦٢، ١٦٣، أيضاً : ابن حوقل.

المتأخرون خلال أوقات الضعف والتدهور عن النهوض بأعباء المرافق والخدمات العامة. فرصدت الاوقاف لتمويل المساجد والمدارس ومكتباتها والمستشفيات والملاجئ وموارد المياه وسائر المؤسسات التي تحارب الجهالة والعوز والمرض. وجاء في سجل وقف البيمارستان (المستشفى) المنصوري الذي أنشئ سنة ٦٨٢ هـ بمصر بأنه قد أقيم لعلاج « الملك والمملوك، الكبير والصغير، والحر والعبد ». وحكى الرحالة ابن بطوطة أن الواصف يعجز عن الوفاء بمحاسن ذلك البيمارستان. وقد تضمن أقساماً للحميات والرمد والجراحة والنساء، للمريض في كل منها فرش كامل « من التخوت والطراريح والمخدات واللحف والملاءات ». ويعمل في المستشفى الأطباء والصيادلة والخدم، وقد زود بمطبخ كبير. وكان المريض اذا برئ وخرج من البيمارستان تلقى منحة وكسوة. وقد رُتِّب صرف الأدوية والأشربة والأغذية اللازمة لعلاج المرضى الذين يلازمون منازلهم، فضلاً عمن يترددون على البيمارستان في العيادة الخارجية. وقدرت الحالات التي يعالجها المستشفى يومياً بعدة آلاف، وألحقت به مدرسة للطب. وأخبار هذا المستشفى الكبير يرويها المقريزي في (الخطط)، والنويري في (نهاية الارب).

ونصت حجة المدرسة الناصرية بمصر على أن يعين ناظر الوقف لكل مدرسة في المدرسة « من المعيدين والطلبة ما يراه من العدد. وينتصب كل معيد في من عين في جهته من أهل مذهبه لاستعراض مذهبه، ويشرح لمن احتاج الشرح منهم، ويرغبهم في الاشتغال ».

ونصت حجة وقف الغوري على أن يقوم خازن المكتبة بفتحها يومين في الأسبوع لطلبة العلم. وسمحت بعض حجج الأوقاف باعارة الكتب في الخارج لمن يوثق به « بعد أخذ خط منه »، ولا يُعار كتاب آخر إلا بعد رد الأول، على أن يتعاهد الخازن المستعير بالسؤال حتى لا يطول أمد الاعارة. كذلك رصدت الأوقاف لاقامة الحمامات العامة.

ونقرأ في حجج الأوقاف عن ألوان من الخدمات التي كفلها الواقفون تنبئ عن حساسية مشاعرهم المؤمنة. فثمة وقف في دمشق على الحيوان الهرم كي يرعى في الأرض الموقوفة حتى يموت. وثمة وقف بمصر لتعويض

الأواني التي يكسرها الخدم حتى يتجنبوا ما قد يلقونه من عقاب أو غرم جزاء كسرهم الأواني. وثمة وقف آخر رصد لترتيب من يتهامسون وراء المريض بحيث يسمعونه وكأنهم لا يقصدون اسماعه، أما كلماتهم المهموسة فتدور حول رأي الطبيب في قرب برء المريض، إيحاء بما يعزز العلاج ويعين على الشفاء. وواقف فاضل آخر حبس ماله على اعطاء العروس المحتاجة ثياب العرس وحليته. وفي تونس اوقاف متعددة على مؤن المرضى وعلاجهم ومعاونة المستشفيات على القيام بمهامها. وهناك من وقف على تقديم زوج من الماشية إلى المحتاج عوناً له على الكسب الحلال[1].

(١) انظر لهذه الأمثلة وغيرها : سعيد عاشور : المجتمع المصري في عهد المماليك، مصطفى السباعي : من روائع حضارتنا، وانظر لصاحب البحث « الأوقاف في تراثنا ومجتمعنا » نشر وزارة الأوقاف بالقاهرة.

تلك كانت القيم الإسلامية التي أنبتت حضارة الإسلام التاريخية في جذورها الراسخة وقممها الشامخة وخصائصها الاخلاقية المتفردة.. وهي كفيلة دائماً بتجدد الاثمار والعطاء، وبأن تؤتى أكلها كل حين باذن ربها، ما رعى المؤمنون بذرة الايمان في قلوبهم أفراداً وجماعة، فتتواصل حياتها ونماؤها وثمارها المباركة في كل المجالات..

وواجب شباب الإسلام أن يعوا قيم دينهم الخالدة وعطاءها المتجدد لخير المسلمين وخير الانسانية جمعاء.. ويحرصوا على اشاعة هذه القيم الحضارية في أنفسهم وفكرهم وسلوكهم، ويدفعوا اليها المجتمعات كلها، مسلمين وغير مسلمين، وأن يستجيبوا لقيم الإسلام ومعاييره، وهم يتلقون ثمار الحضارة المعاصرة، حتى يفرزوا انتاجهم الحضاري المتميز في أوانه الموقوف، **فتقوم « الحضارة الإسلامية المعاصرة » التي لا تتقوقع في قوالب من** الماضي شأنها أن تتبدل مع الزمن، ولا تتميع ازاء دفع الحاضر الغلاب. فحضارة العصر نشرت مع تقدمها التكنولوجي المادية والآلية، وكادت أن تحيل الإنسان إلى آلة أو نمط مطرد لا تفرد فيه، أو حالة مرضية مكررة من التمزق والضياع والغربة لمن شاء أن يبقى على شيء من مشاعر انسانية، ولم يغن التراكم الكمي السيء للمنتجات المادية عن أزمات النفوس والعقول والجيوب التي تعانيها المجتمعات المتقدمة والنامية على السواء، افراداً وجماعات.

« يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين. قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا، هو خير مما يجمعون. قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً، قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون. وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة، إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون. وما تكون في شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه، وما يَعْزُبُ عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين. ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، الذين آمنوا وكانوا يتقون. لهم البشرى في الحياة الدنيا ـ وفي الآخرة ـ لا تبديل لكلمات الله، ذلك هو الفوز العظيم. ولا يحزنك قولهم، ان العزة لله جميعاً، هو السميع العليم ـ يونس/**٥٧ ـ ٦٥**»

صدق الله العظيم



أساسيّات
في موضوع الإسلام والحضارة ودور الشّباب

للأستاذ محمد فريد عبد الخالق
الأستاذ المساعد بجامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلاميّة



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقـدمــــة :

الحمـد لله والصلاة والسلام على رسول الله ومن والاه .. وبعد :
فإنه يسيطر على فكري، كلما هممت بالكتابة أو التحدث في مثل هذه المناسبة، مخافة أن أزيد من تفاقم ظاهرة غير صحية طالما شكا منها عالمنا العربي والإسلامي ألا وهي تزايد الفارق في حجم الكلمات عن حجم الأعمال، وبعـد الكلمـة في كثيـر من الأحيـان عن الموضوعيـة والمنهجية، وافتقار العمل إلى التخطيط والاستمرارية، فتنزع نفسي إلـى الإحجام عن الكتابة والكلام.

بيد أني في هذه المناسبة بالذات، التي دعيت للاشتراك فيها بكلمة في الموضوع المطروح للدراسة، تغلبت لديّ دواعي الإقبال على مثبطات الاحجام، لأمور ثلاثة، اجتمعت لهذا اللقاء الكريم، وخلعت أهمية عليه من نوع خاص.

أولاً : النوعيات المشتركة فيه : من قيادات العمل الشبابي الإسلامي التي تعكس بجهودها أعز آمال الأمة الإسلامية في بناء غد يليق بها، ومن رجال الفكر وقادة الدعوة إلى الإسلام في أنحاء العالم بتجاربهم الغنية وفكرهم الناضج.

ثانياً : خطر الموضوع المطروح للدراسة النظرية والتطبيقية الجادة بأبعاده الثلاثة : « الإسلام، والحضارة، ودور الشباب المسلم »، وهي تمثل في مجموعها شجرة حياتنا في هذا العصر، جذورها الإسلام، وساقها وفروعها حضارته، والأجيال المسلمة الجديدة أزهارها المتفتحة، وثمارها التي تحمل بذور التجدد والاستمرار، بين يدي واقع متصل بالماضي يراد تحسينه، ومستقبل زاهر يهدف إليه.

ثالثاً : الغاية المتوخاة من هذا اللقاء، وتتلخص في محاولة للتوصل إلى ترشيد وتنسيق العمل الإسلامي، من أجل مزيد من توعية الشباب المسلم بدوره الإسلامي في هذه المرحلة الحرجة من تاريخنا، التي تشهد، بلا جدال، مولد يقظة إسلامية شاملة، تواجه من أعداء الإسلام مخاطر التحديات ومختلف العقبات.

تحية إذن، ملؤها التقدير والأمل، للقاء الرابع الذي تعقده اليوم « الندوة العالمية للشباب الإسلامي ».. وتحية من منطلق العقيدة والأخوة في الله للمملكة العربية السعودية التي ترعى النشاطات الإسلامية الهادفة، مَلِكاً وحكومةً وشعباً، « ولينصرن الله من ينصره، إن الله لقوي عزيز »[1].

ومن حسن الطالع أن يأتي هذا اللقاء، وقد ارتفعت بالأمس القريب راية الشريعة الإسلامية في باكستان الشقيقة، وتحولت إثرها إيران من العلمانية إلى الإسلام، وعلى مشارف الأفق أقطار أخرى تتحرك شعوبها في نفس الطريق.

أي المباحث اخترت :

ولأن المباحث المقترحة من الكثرة والتداخل بحيث يصعب الاقتصار على إحداها دون غيرها، فقد سلكت في كلمتي منهجاً يجمع بين رأسية المعالجة للموضوع وأفقية التناول لأطرافه المتعددة، سائلاً الله تعالى العون فيما اعتزمت، والتوفيق إلى شيء فيه نفع لشبابنا المسلم المعاصر..

---

(١) سورة الحج / ٤٠.

الباب الأول

أخطاء رأيت إلقاء الضوء عليها والتنبيه إليها

لشيوعها وعظم آثارها وأضرارها

أولاً خطأ الفكر الغربي خاصة، وأعداء الإسلام عامة في فهمهم الإسلام وفي نظرتهم العدائية إلى النشاطات الإسلامية، الرامية إلى نشر تعاليم الدين وتطبيق الشريعة في بلدانه :

ويرجع الموقف العدائي من الإسلام من جانب الشيوعيين، إلى إلحادهم وإنكارهم الوحي والدين بالدرجة الأولى، وإلى أنه يمثل أكبر عقبة في طرائقهم السياسية لأنه يملك من أسباب الخطر عليهم ما لا يملكه غيره من سائر الأديان، لقوته الذاتية الصادرة عن عقيدة التوحيد، وحماس دعاة الإسلام في نشر تعاليمه، بما يشهد به تاريخ الإسلام في روسيا وسيبريا منذ أكثر من تسعة قرون، حيث انتشر الإسلام بين القبائل الوثنية الأصلية، قبل أن تصبح روسيا تحت الحكم المسيحي وبعدها، على يد دعاة المسلمين من البلغار الذين وجدوا حوالي القرن العاشر الميلادي على نهر الفلجا.

يقول كارازين : « ويظهر أنه لم تكن هنالك حالات عن تحول بعض

الروس إلى الإسلام، إلّا بعد أن صدر في سنة ١٩٠٥ مرسوم ينص على التسامح الديني في كافة أرجاء الامبراطورية الروسية، وما تلا ذلك من دعاية نشيطة قام بها المسلمون، وإن ما حدث من هذه الحالات، يعزى إلى قوة التأثير الناتجة من المساعدة المادية التي قدمها التتار (المسلمون) إلى هؤلاء الداخلين في الإسلام، كما يعزى إلى القوة المعنوية التي تميز بها المسلمون أنفسهم ».

وجاء في كتاب الإسلام والإرساليات الدينية : « وكذلك نشطت الدعوة إلى الإسلام بين تتار القرم، وفي مستهل القرن التاسع عشر، كان كثير من القرعيز الذين يقيمون في السهول الفسيحة الممتدة جنوباً من مقاطعة بتلسك إلى بلاد تركستان لا يزالون على الوثنية، وسرعان ما سارت لنشر الدعوة (الإسلامية) جماعات أخرى (غير البعثات التبشيرية) لا تعتمد على حسن نية أية حكومة، كما كانت أكثر غيرة وإدراكاً، واحتلت هذا الميدان واجتذبت كافة قبائل القرعيز إلى الدين الإسلامي ». ويضيف توماس آرنولد في كتابه الدعوة إلى الإسلام، على ما أورده من عبارات مؤرخي المسيحية ـ وقد نقلت عنه بعضها في مواضع أخرى ـ قوله : « وفي القرن الثامن عشر بذلت الحكومة جهوداً جديدة لتنصير القبائل الوثنية، والتتار الذين ارتدوا عن دينهم (يقصد تحولوا إلى الإسلام)، كما بذلت الحكومة كثيراً من جهود الاقناع والإغراء لتعميدهم.. ولكنهم سرعان ما أخذوا يحاولون التخلص مما بذلت الكنيسة الأرثوذكسية من الجهود التبشيرية، وتركوا المسيحية، واعتنقوا الإسلام، وفي عبارة أخرى للكنسى « أوف .م.م » وقد دونت الأخبار كثيراً عن دخول الناس في هذا الدين أفواجاً.. مثال ذلك ما قيل أن إحدى وتسعين أسرة اعتنقت الإسلام في قرية أتومثا سنة ١٩٠٩، وأن عدداً بلغ من الكثرة حوالي ٥٣,٠٠٠ نسمة، أسلم بين سنتي ١٩٠٦، ١٩١٠، وقد قيل أن أكبر الفضل في نجاح هذه الدعوة يرجع إلى مستوى الحياة الأخلاقية في المجتمع الإسلامي الذي كان أكثر رقياً، كما يرجع إلى شعور التآخي الذي كان يشيع في هذا المجتمع، والذي كان أكثر تماسكاً وقوة ».

وفي وصف حماسة المسلمين في نشر دعوتهم في روسيا لقرون خلت، وفي القرن الحالي، تقرأ للمؤلف المسيحي « بوبروفيلكوف » : « ومن جهة أخرى سارت الدعوة الإسلامية قدماً في حماسة بالغة، فقد كان كل مسلم ساذج أمي داعية إلى دينه، وعجزت القبائل الفقيرة الجاهلة الأمية من الوثنيين، أو أشباه الوثنيين، عن أن تقاوم هؤلاء الدعاة، وفي كثير من القرى التي عمّد أهلها انطلق الرجال في زمن الشتاء يحترفون الحياكة في القرى الإسلامية، وهناك يتحولون إلى الإسلام، ثم يعودون إلى قراهم حمساً يجلبون معهم أفكاراً إسلامية يكون لها أثرها في بيوتهم ». كما جاء على لسان آخر « ركلس » : « ومن أهم القبائل التي تأثرت بحركة الدعوة إلى الإسلام قبيلة الفوتياك التي كان السواد الأعظم منها مسيحياً معمداً، بيد أن كثيراً منهم أصبحوا مسلمين في القرن الثاني عشر، وحتى مستهل القرن التاسع عشر، ولا يزال تأثير الإسلام آخذاً في النمو بين هؤلاء الذين يدينون بالمسيحية وبين هذه البقية اليسيرة التي لا تزال على وثنيتها ».

هذا عن حال الإسلام في روسيا القيصرية عبر تاريخ طويل، وتعرفه جيداً روسيا الشيوعية، ولا يكون من المستغرب إذن، وقد ارتدت إلى الإلحاد وماضي الوثنية التي أنقذ المسلمون منها قبائلها الأصلية، أن تناصب الإسلام والمسلمين العداء السافر أو المقنع أحياناً، داخل بلادها وخارجها، لحين زوال سلطانها، وصدق الله العظيم إذ يقول : « وتلك الأيام نداولها بين الناس »[1].

أما عن الموقف العدائي من الإسلام من جانب العالم المسيحي فيرجع هو الآخر إلى جملة أسباب نلخص أهمها فيما يلي :

١ ـ الاختلاف بيننا وبينهم في مفهوم « الدين » :

فالدين عندهم ليس أكثر من مجرد علاقة شخصية بين الله والإنسان، ذلك عند من بقيت للدين عندهم بقية، ولا محل لوجود الدين فيما وراء ذلك، من واقع الحياة والأنظمة التي تحكمها، سياسية أو اجتماعية أو

---

(١) سورة آل عمران آية ١٤٠.

اقتصادية أو جمالية، وللإنسان دائماً حرية كاملة في اختيارها، والحق المطلق في إعادة صياغتها وتغييرها حسب ما يراه وما يطرأ من تغييرات العصر والمصالح، وعلى أساس من مثالياته المادية التي تبحث عن مجتمع الوفرة والترف وحرية الاستمتاع بالجنس ومعاقرة الخمر وجمع المال وبسط النفوذ والاستغلال، متجاهلة القيم الروحية، ومتحدية في ذلك للفطرة وناموس الحياة.

في حين أن مفهوم « الدين » في الإسلام أساسه عقيدة التوحيد التي عنها تصدر كل أنظمة الحياة والقيم التي تسود المجتمع الإسلامي، والتي بها يمكن تفسير روح التجدد والإبداع في الأمة المسلمة، وتفهم الخصائص التي تتميز بها شريعة الإسلام من عالمية، وإنسانية، وربانية، ووسطية، واتساع دائرة مفهوم « العبادة » فيه ليشمل كل ما يصدر عن المسلم من قول طيب وعمل صالح ولا تقتصر دلالتها على العبادات المكتوبة.

٢ ـ رواسب النزاع التاريخي :

وهي ترجع إلى الحقبة التي شهدت صد غزوات المسيحية على العالم الإسلامي في الحروب الصليبية خلال القرون الطويلة التي تظاهرت فيها قوى معادية كثيرة من أهمها أوروبا المسيحية، وانتصر فيها المسلمون آخر الأمر في معركة حطين الشهيرة سنة ١١٨٧ م بقيادة القائد المظفر صلاح الدين الأيوبي. على أن جذوة العداء لم تخمد في نفوس الصليبيين عبر التاريخ، وقد عبر عنها « اللورد اللنبي » عند قيام إسرائيل في أرض فلسطين العربية، وضياع القدس الشريف من أيدي المسلمين، بحيلة من الإنجليز وغفلة من المسلمين، بقوله : « الآن انتهت الحروب الصليبية ».

وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى حقيقتين، تتصلان ببيان خطأ الفكر الغربي في فهم الإسلام وعداوة المسلمين، وأثر هذا الخطأ في تأجيج نـار التعصب في نفوسهم وسوء ظنهم ورصدهم لكل النشاطات الإسلاميـة الرامية إلى تحسين حال المسلمين وتطبيق الشريعة في بلادهم، وكأنها موجهة ضد الدين المسيحي وضد مصالح العالم المسيحي.

أما الحقيقة الأولى : فالإسلام بريء من إشعال نار الحروب الصليبية التي شنها العالم المسيحي وأعداء الإسلام ضده، وإنما كان دور المسلمين فيها هو صد هذا العدوان، وحماية أرضهم أو استردادها.

وأما الحقيقة الثانية : فنجدها مثبتة فيما يسمى أدب الصليبيين وسجلات الكنائس، مما يعطي صورة مختلفة عن تلك التي يعتنقها المسيحيون على وجه العموم ويتعصبون لها، وهي حين يزعمون أن الانتصارات التي أحرزها الإسلام في كسب أتباعه من أهل الأديان الأخرى وانتشاره في رقعة واسعة من العالم عبر التاريخ تحقق أكثرها بالسيف والقوة.. وقد دحض هذا الزعم وصحح وجه الخطأ فيه كتّاب مسيحيون بما لا يحتاج إلى مزيد.

ومما يستحق الذكر هنا حالات التحول إلى الإسلام بين الصليبيين، وأثرها الباقي في نفوسهم، يقول « بروتز » : « بل إن علماء اللاهوت المسيحي حين أدى اختلاطهم بالمسلمين ـ يقصد في الحروب الصليبية ـ إختلاطاً شخصياً إلى تكوين رأي أكثر إنصافاً عن ديانة المسلمين، وزعزع الارتباط بأساليب التفكير الحديثة أفكار الناس وأثار ألوان الزندقة، فليس بغريب أن ينجذب كثيرون ـ يقصد من المسيحيين ـ إلى حظيرة الإسلام ». وجاء في كتاب بعنوان : وثائق محكمة البرجواز ومؤرخي الحروب الصليبية وأورشليم : « وكان عدد المرتدين عن المسيحية في الثاني عشر كثيراً، وهي كثرة نلاحظها في سجلات الصليبية القانونية التي يطلق عليها « مجالس قضاء بيت المقدس » والتي لم تقبل بموجبها كفالتهم في حالات معينة ». ويقول « روجر هوفيدن » : ويظهر أن أخلاق صلاح الدين وحياته التي انطوت على البطولة، قد أحدثت، في أذهان المسيحيين في عصره، تأثيراً سحرياً خاصاً، حتى أن نفراً من الفرسان المسيحيين قد بلغ من قوة انجذابهم إليه أن هجروا ديانتهم المسيحية وهجروا قومهم وانضموا إلى المسلمين.. وكذلك كانت الحال عندما طرح النصرانية فارس إنجليزي من فرسان المعبد، يدعى « روبرت أوف سانت البانس » في سنة ١١٨٥ م واعتنق الإسلام، ثم تزوج بإحدى حفيدات صلاح الدين. ويقول « بندكت بيتر بروف » في عبارة متممة لسابقتها في الموضوع : « وبعد عامين غزا

صلاح الدين فلسطين وهزم الجيش المسيحي هزيمة منكرة في واقعة حطين، وكان « جوي » ملك بيت المقدس بين الأسرى، وحدث في مسار المعركة أن ترك الملك ستة من فرسانه « قد حلت فيهم روح شريرة » وفروا إلى معسكر صلاح الدين حيث أسلموا بمحض إرادتهم »، ويضيف « توماس أرنولد » في كتابه الدعوة إلى الإسلام : « ولا شك أن هذه الأخبار المبعثرة تحمل الدليل على أن تحول المسيحيين إلى الإسلام، الذي لم يصلنا عنه أي خبر، كان على نطاق واسع »، ويقول « بروتز » : « ومن المؤكد أن المسيحيين من أهالي الأرض المقدسة قد آثروا حكم المسلمين على حكم الصليبيين ».

هذا ومن يرجع إلى كتاب المبشرين ومؤرخي المسيحيين ومفكريهم، من أمثال « توماس أرنولد » في كتابه السالف الإشارة إليه، الذي استعرض فيه تاريخ نشر العقيدة الإسلامية في العالم، يذهله ما يقول هؤلاء عن روح الإسلام الحية، وسلطان تعاليمه على النفوس، وغيرة دعاته من التجار وغيرهم، على نشره بين الوثنيين والنصارى، ونجاحهم المذهل الذي أيأس المبشرين من منافستهم، وشجب كل محاولاتهم في ذلك، على اتساع العالم، منذ القرن الأول الهجري وإلى يومنا هذا، رغم تضافر كل القوى المعادية للإسلام، وفي آسيا وأفريقية وأسبانيا والهند والصين وأرخبيل الملايو، ورغم أن الكتاب لم يخل من سقطات وأخطاء، فإنه يستحق العناية بقراءته من كل داعية مسلم.

إن هذه الرواسب التاريخية تركت في نفوس العالم المسيحي حقداً على الإسلام حجب الكثير منهم عن رؤية الحق، فضلاً عن اتِّباعه، ونجد ذلك المعنى في مثل قول « رينان » : ما دخلت مسجداً قط دون أن تهزني عاطفة حارة، أو بعبارة أخرى، دون أن يصيبني أسف محقق على أني لم أكن مسلماً ».

إنهم ينفسون علينا نعمة الإسلام، وإن جحدتها قلوبهم، وهذا البروفسور « فونتيه » يقول : « الإسلام في جوهره دين عقلي بأوسع معاني هذه الكلمة من الوجهتين الاشتقاقية، والتاريخية، فإن تعريف الأسلوب العقلي بأنه طريقة تقيم العقائد الدينية على أسس من المبادىء المستمدة من

العقل والمنطق ينطبق عليها تمام الانطباق.

وهذه الظاهرة تفسر حجبهم للرسالة الإسلامية عن عالمهم المسيحي مع دراسة بعضهم العميقة للإسلام إلا فيما ندر، وإن كانوا حين تحملهم الحقيقة على الاعتراف بها نراهم ينكرون الوحي، وتجد ذلك في مثل العبارة التالية التي يتم بها « فونتيه » نفسه ما تقدمها : « والحق أن محمداً الذي كان متحمساً لدينه كما كان يمتلك غيرة الإيمان، ونار الإقناع، تلك الصفة القيمة التي بثها كثير جداً من أتباعه، قد عرض حركته الاصلاحية على أنها وحي وإلهام، على أن هذا النوع من الوحي ليس إلا صورة من العرض والتفسير ».

ولقد لعبت هذه الرواسب التاريخية والأحقاد النفسية دورها في ترسيخ العداوة التي يلقاها الإسلام من أهل الأديان الأخرى، وفي ازدياد حملات التبشير المسيحي في مختلف أنحاء العالم، وحركات الاستشراق وكتابات المستشرقين الحاقدة على الإسلام.

ومع ذلك فهناك ظاهرة تغيير في الموقف العدائي السائد لدى المسيحيين ضد الإسلام، على مستوى محدود لا يتجاوز المستويات العليا بين بعض رجال الدين عندهم، لكنه لم يتجاوزها إلى سواد الشعب المسيحي، الذين أشربت نفوسهم مشاعر الكراهية، يتوارثونها ويلقنونها للأسف جيلاً بعد جيل. وتجد كاتباً مثل « أرنولد » يعترف بذلك حتى في معرض الثناء على الإسلام، وهو يستعرض في أحد فصول كتابه « الدعوة إلى الإسلام » عوامل نجاح المسلمين في نشر تعاليم الإسلام بين الوثنيين في آسيا وأفريقية، وفي تحول أعداد من المسيحيين إلى الدين الإسلامي، فيرجع بعضها إلى : « تأثير حياة الورع والتقوى التي يحياها المسلمون، وقد يبدو ذلك غريباً في نظر جيل ـ يقصد من النصارى ـ تعود أن ينظر إلى الإسلام على أنه مستودع لكل ألوان الرذيلة، ومع ذلك لا مراء في أن كثيراً من المسيحيين، في عصور أقدم من ذلك، اتصلوا بمجتمع إسلامي وتأثروا تأثراً عميقاً بما تجلى فيه من فضائل. ويقول « موريس بوكاي » في كتابه الفذ، « الانجيل والقرآن والعلم »، الذي أصدره الوقف الإسلامي بأمريكا الشمالية في العام الماضي : « أن هناك تغيراً ملحوظاً بدأ يظهر مؤخراً في المستويات العليا من

العالم المسيحي، وأن مكتب شؤون غير المسيحيين في الفاتيكان قد أصدر وثيقة عن المجتمع الكنسي الثاني للفاتيكان سنة ١٩٧٠ م تحت عنوان « اتجاهات نحو الشرق من أجل حوار بين المسلمين والنصارى »، فلأول مرة دعت الوثيقة قارئها إلى إطراح الصورة القديمة المتوارثة عن الماضي، والمحرفة بتأثيرات التحامل والافتراء التي يحملها النصارى عن الإسلام. وأن الوثيقة قدمت كذلك إقراراً بالظلم التاريخي تجاه المسلمين، لامت عليه الغرب بمناهجه في التعليم المسيحي التي وضعها، كما انتقدت الوثيقة المفاهيم المسيحية الخاطئة بما مثلت له بالجبرية الاعتقادية، والتزمت، والتعصب. وأكدت الوثيقة على الاعتقاد بوحدانية الخالق، وذكرتنا بمدى دهشة الحاضرين بجامعة الأزهر الإسلامية بالقاهرة، عندما أعلن الكردينال « كوينج » هذه الوحدانية في المسجد الكبير خلال مؤتمر رسمي في مارس سنة ١٩٦٩، كما ذكرتنا كذلك بدعوة الفاتيكان في سنة ١٩٦٧ م المسيحيين أن يقدموا للمسلمين أطيب تمنياتهم بمناسبة نهاية شهر رمضان بتقدير وإحساس ديني صدق.

وقد أشار المؤلف إلى خطوات أخرى تمت في هذا الاتجاه، لكن الإعلام لم يعطها حقها كما يقول. ويذكر فيها الزيارة الرسمية للكردينال « بيجنيروني » رئيس مجلس الفاتيكان لشؤون غير المسيحيين في ٢٤ ابريل سنة ١٩٧٤، للملك فيصل رحمه الله بالمملكة العربية السعودية، بحكم مكانته الدينية في العالم الإسلامي. ويشير إلى ما ذكرته جريدة « لوموند » في ٢٥ ابريل ١٩٧٤ عن هذه الزيارة في سطور قليلة، وعن الرسالة التي حملها الزائر من البابا بول السادس إلى جلالة الملك، تعبر له عن تحياته، وعن عبادة العالمين المسيحي والإسلامي لإله واحد. وقد علق المؤلف على هذا الاتجاه قائلاً : « إن قلة من العالم المسيحي وعت هذه الظاهرة الدينية، وأن الكثرة من المسيحيين التي عاشت تحت تأثير العداء السافر للإسلام لا تتقبل أي شيء يخالف هذا الشعور ». ومما قاله كذلك : « أن الغرب لا يعرف عن الإسلام اعترافه بالأديان الأخرى وتمجيده لأنبيائها، ولا عما تضمنه القرآن لكثير مما جاء في الكتب السماوية السابقة، وأن الطرق كانت مسدودة لفترة طويلة أمام معرفة الإسلام على حقيقته، وأن اصطلاحاً مثل

« الدين المحمدي »، و « المحمديون »، كانت ولا تزال ذرائع للإبقاء على الفهم الخاطئ بأن المعتقدات الإسلامية وانتشارها إنما هي من عند إنسان، دون دور ما في ذلك للخالق ».

٣ ـ فهمهم الخاطئ للإسلام على أنه دين عدواني دموي :

وذلك لخطأ مفهوم الجهاد في الإسلام لديهم، ولأنهم اتخذوا منه لقرون طويلة موقفاً عدائياً، فقد ورثهم هذا الفهم الخاطئ، وإحساسهم بعقدة الذنب نحو المسلمين بما فعلوه بهم من احتلال بلادهم واستغلال ثرواتهم ومظاهرة أعدائهم عليهم، خوفاً من استعادة الأمة الإسلامية لمقومات وجودها الحضاري، ديناً، ولغة، وتقدماً علمياً وصناعياً واقتصادياً، ووحدة وتضامناً، أن يكون مؤدى ذلك ذهاب سلطانهم وضعف اقتصادهم، انتقاماً لما صنعوه بالمسلمين في ماضيهم البعيد والقريب، وما يصرون على صنعه بهم في الحاضر.

ولكن الإسلام الذي بني على السماحة والتسامح مع الأديان، على نحو ما شهد به تاريخه الطويل، يكذب مزاعمهم الخاطئة، فلا إكراه في الدين، ولا عدوان إلّا على المعتدين. ويقول الله تعالى في كتابه الكريم : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها »[1]. ورسول الله يقول لكفار قريش حين دخل مكة فاتحاً : « اذهبوا فأنتم الطلقاء ». ويمتدح الله تعالى في كتابه « العافين عن الناس ». فليس من طبيعة الإسلام الانتقام والتشفي، ولكنه يفتح ذراعيه لتعارف الشعوب وتعاونها على خير الإنسانية، وأن في قوة الإسلام وعزة المسلمين خيراً لهم ولغيرهم على السواء، ولو أحسنوا الفهم لبدلوا عداوتهم لنا مودة، ولتآزر أهل الأديان لمحاربة الكفر والإلحاد وإنقاذ إنسان العصر من الأخطار التي تهدد وجوده ومصيره من جرائهما.

على أن الحقيقة التي لبّسوها على أنفسهم أقوى من أن تحجبها قوى الأرض مجتمعة، مهما بدت في بعض الأوقات ولبعض الناس وكأنها قد اختفت إلى الأبد.

---

(١) سورة الأنفال آية ٦١.

يقول أرنولد في ذلك المعنى : « وهنالك في الوقت الحاضر عاملان رئيسيان يعملان على تنشيط الدعوة الإسلامية في العالم، أولهما انتعاش الحياة الدينية التي يبدأ تاريخها من حركة الإصلاح الوهابية في القرن الثامن عشر، وعلى الرغم من أن هذا الانتقال الجديد قد فقد كل معنى سياسي في خارج حدود نجد زمناً طويلاً، نرى تأثيرها من حيث هي نهضة دينية ملموسة في كافة أنحاء أفريقية والهند وأرخبيل الملايو حتى إلى الوقت الحاضر، كما أحيت كثيراً من الحركات التي أحرزت قصب السبق بين أقوى المؤثرات في العالم الإسلامي ». إلى أن يقول : « وأن ما أثارته هذه الحركة من حماسة متقدة، وما سكبته في النظم الدينية القائمة من حياة جديدة، وما بثته في الدراسة النظرية وتنظيم الشعائر المنسكبة من روح دافعة، إن ذلك كله قد عمل على إيقاظ روح الإسلام الفطرية التي جبلت على نشر تعاليم الدعوة، كما عمل على الإبقاء عليها.

وثانيهما : حركة الوحدة الإسلامية، التي تسعى إلى ربط جميع شعوب العالم الإسلامي برباط مشترك من المودة والتعاطف، أما معرفة ما ستحدثه هاتان الحركتان من تأثير أبعد مدى في حياة الدعوة الإسلامية، فإن المستقبل وحده كفيل ببيان ذلك. على أن مجرد نشاطهم في الوقت الحاضر دليل على أن الإسلام لم يمت، ولم يكن النشاط الروحي للإسلام، كما يزعم عدد كبير جداً من الناس، متمشياً مع سلطانه السياسي، بل على العكس من ذلك، نجد فقدان السلطة السياسية والانتعاش المادي، يعمل على إبراز أجمل الصفات الروحية التي تعد أصدق البواعث التي تحفز على القيام بأعمال الدعوة. وقد تعلم الإسلام منافع الشدائد ولما كان بعيداً كل البعد عن الانحدار إلى الرخاء المادي لكونه نذير انحلال هذا الدين، كان من المهم أن تلك البلاد الإسلامية الخالصة التي عاشت أطول وقت في ظل الحكم المسيحي، تتجلى كأشد ما تكون نشاطاً في القيام بنشر تعاليم الإسلام، ويظهر مسلمو الهند والملايو من الحماسة والغيرة في نشر الدعوة ما لا تجده في تركيا أو مراكش »، مع ملاحظة أن هذه الطبعة من الكتاب صدرت في سنة ١٩٣٠.

ثانياً : خطأ الربط عند البعض بين الإسلام كدين وحضارة متميزة وبين واقع المسلمين الراهن كشاهد على الإسلام نفسه وحجة عليه :

وهذه مغالطة مكشوفة يتذرع بها أعداء الإسلام في مهاجمته، ويروجون لها في محاولاتهم المختلفة لتشكيك المسلمين بصفة عامة وشبابهم المثقف بصفة خاصة، في قدرة دينهم وشريعتهم على العطاء الحضاري وملاحقة التطور العلمي والتقني، ولزحزحة تفكيرهم نحو العلمانية وفكرة فصل الدين عن الدولة وعن الحياة العامة.

ووجه المغالطة هي الخلط بين المبدأ والتطبيق، والمبدأ ثابت، وأما التطبيق، فيختلف أمره حسب حظه من التزام المبدأ أو عدم التزامه. فإذا كان التطبيق سليماً كان لنا أن نحكم من خلاله على المبدأ. أما إذا انحرف، كان لنا أن نحكم على مطبقيه وليس على المبدأ، ولا نكون قد جافينا الحق وأهدرنا المنطق.

نعم، فالإسلام، بالتعبير القرآني، شرعة ومنهاج، أما الحضارة التي تنتسب إليه فهي التي تكون تجسيداً لشريعته ومنهاجه في الحياة. وخير مثال لها حضارة المسلمين في صدر الإسلام، وفي كل وقت تمكنت فيه عقيدة التوحيد من نفوس المسلمين، بكل ما لها من أبعاد وآثار في دائرة حياة الفرد ومحيط المجتمع وكيان الدولة، وليس من هذا القبيل حضارة المسلمين، الذين تزعزعت في نفوسهم أركان العقيدة، واضطرب بهم منهجهم في الحياة، فاختل ميزانها وانحرف مسارها. وما أكثر ما شاهدنا صوراً منها في الماضي الذي تخلفنا فيه عن ركب التقدم لقرون خلت، وفي الحاضر الذي تعيشه أكثر بلدان عالمنا الإسلامي المعاصر، حيث ترى مجتمعات من المسلمين لا مجتمعات إسلامية حقة، وفارق كبير بين هذه وتلك. على أن المسلمين في جملتهم يريدون تطبيق الإسلام في واقع حياتهم، ولم تتح لهم فرصة تطبيقية، وسنعود إلى بيان أوفى في الموضوع، في موضع آخر من البحث.

فالإسلام إذن بشريعته ومناهجه في الحياة ومبادئه وأصوله وقيمه.. نور يهتدى به، وأما الحضارة فمضمون واقع، أو هو روح من أمر الله. ولو

شبهنا الحضارة بكائن حي تام له روح وجسد، فإن روح الحضارة الإسلامية يتمثل في عقيدة التوحيد، وأما جسدها فثمرات أعمال المسلمين في عمارتهم للأرض وخلافتهم عن الله فيها، من أجل إعلاء كلمته وخير بني الإنسان في الدنيا والآخرة على السواء.

وأجمل هنا مرجع المغالطة فيما يلي :

(أ) رؤية غير المسلمين للإسلام في مرآة فهمهم لدينهم أو كفرهم بالدين.

فالغرب اليوم علماني المذهب، قد تنحى الدين فيه عن حياته منذ عصر النهضة الأوربية، ولم يعد يبقى له من مسيحيته الأولى إلى مظاهر كنسية لا توجه حياته ولا تحكم مساره ولا تؤثر في وجدانه. انفصل عنه منذ وقفت الكنيسة موقفاً عدائياً من العلم والعلماء، وعجزت عن أن تقدم له نظاماً للحياة، فتولى ذلك بنفسه. واستبدل بالدين، الذي أيأسه أن يجد فيه حلا لمشاكله، الآلة والعلم والتقنية المتطورة التي صنعت له هذه الحضارة المادية المعاصرة على حساب الجانب الروحي فيه، فأذهلته عن حقيقة وجوده، وصدق الله العظيم إذ يقول في كتابه فيهم : « نسوا الله فأنساهم أنفسهم »[1].

وبعملية إسقاط فكري، نظروا إلى الإسلام من خلال فلسفاتهم المتهافتة، التي اصطنعوها بديلاً عن الدين، الذي خذلهم في مسيرة التطور والحياة، فظهرت فلسفة المذهب الوضعي في القرن التاسع عشر، ونظرية التطور لدارون، والماركسية الملحدة، والبراجمية الأمريكية، والوجودية، فما زادته هذه الفلسفات والنظريات إلا خبالاً.

ولئن كان للغرب المسيحي عذره في علمانيته، وانصرافه عن الدين وانقياده للمادة وحدها، وفصله الدين عن الحياة وعن الدولة، وعجز دينه عن الوفاء بحاجته في مسيرة حياته، وإحراز تقدمه، فإن الأمر يصبح على النقيض تماماً بالنسبة للمسلمين في نظرتهم لدينهم الذي ارتضاه الله لهم، وأتم

(١) سورة الحشر آية ١٩.

عليهم به نعمته حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

ومع ذلك، فقد رأينا علمانية الغرب تتفشى للأسف في أواخر القرن التاسع عشر في بعض البلاد الإسلامية، وتصطبغ بها مناهج التعليم في مدارسهم، وتظهر على أقلام بعض كتابها من دعاة المدنية الغربية من المتفرنجين، متخذين من انقلاب مصطفى كمال في تركيا مثلاً يحتذى لاطراح أسباب التخلف وبلوغ ما بلغت أوربا من ترقي مدني. وتابعوه في فكرة فصل الدين عن الدولة وتأليه الحضارة الغربية أو الانحياز إلى الماركسية الملحدة، التي أهدرت قيمة الإنسان واعتناق المادية الجدلية التي تنكر وجود الله.

ب) كما ترجع هذه المغالطة إلى جمود علماء المسلمين.. الذي أدى إلى وقف الاجتهاد، خلافاً لما دعا إليه أئمة المجتهدين في الإسلام أنفسهم، ولما هو من مقتضى أصول الإسلام ومبادئه التي تحث على الاجتهاد وتحقيق مصالح الأمة في إطار الشرع والتي اتسمت بالمرونة والثبات معاً.

وهذا الجمود الفقهي يحمل في طياته مكمن الخطر على الملة والأمة، ويتحمل هذه المسئولية علماء الأمة ومفكروها، وإن العالم الإسلامي المعاصر أحوج ما يكون إلى أمثال ابن تيمية الذي أحيا الكتاب والسنة، وبعث في الأمة الإسلامية دفعة روحية وإصلاحية لم يتوقف عطاؤها حتى زماننا هذا، حتى نجد لمشاكل عصرنا وأقضيته المستحدثة حلولاً إسلامية، كما وجدنا حلا جزئياً لبعضها في إنشاء البنوك الإسلامية وتخليص العالم الإسلامي من ربا العصر الذي خالط اقتصاده من الألف إلى الياء، وفرضه علينا وكأنه نظام لا بديل له ولا معدى عنه. وعندما أقول مع القائلين بضرورة فتح باب الاجتهاد، أقول به بشروطه الشرعية، حتى يحقق النفع المقصود ولا ينجم عنه الضرر المردود. فنحن نعيش في زمان غير الذي عاش فيه أسلافنا، ولكل زمان مشاكله، وهي سنة التطور في الحياة التي لا تتوقف.

جـ) كما يرجع هذا الخلط في أفهام الناس عن الإسلام وتحميله أوزار تخلف المسلمين إلى عدم الأخذ بأسباب التقدم الحضاري. فنحن

الآن في عصر التفوق العلمي المذهل الذي سبقنا فيه بمسافات واسعة، مخالفين في ذلك روح الإسلام ونصوصه التي تحث كلها على العلم والتعلم والتحضر، وإن الأمل في تخطي هذه المسافات التي لا تتوقف عن الاتساع معقود كله على شبابنا المسلم المعاصر، المدعو من دينه وأمته المنطلقة إلى النهوض من كبوتها، كي تلحق بركب العلم المتقدم، أن يأخذ في غده القريب بزمام القيادة فيه لخير الإنسانية عامة، وخير الأمة الإسلامية على وجه الخصوص.

وليس ذلك بالأمر السهل في واقعنا المتخلف، الذي يسمح بهجرة العقول الفذة والخبرات النادرة إلى خارج حدوده تحت إغراء عوامل مختلفة، يرجع بعضها إلى هذا الواقع وبعضها الآخر إلى تخطيط مقصود من الغرب. ولكنه يكون مع ذلك ممكناً إذا تحصن علماء الأمة من الشباب بغيرتهم على الإسلام وتضحيتهم من أجل ازدهاره ورقي أمته.

ولا يقتصر أخذنا بأسباب الحضارة على هذا المجال، ولكنه يتناول كل مقومات الحياة العصرية التي يلعب المال والاقتصاد والتصنيع فيها دوراً أساسياً تستكمل به الدولة ضرورات حياتها وتحصين وجودها من الأعداء. لا بد لنا أن نعمل بكل ما نملك من أسباب القوة على أن نتحول من شعوب مستهلكة لحضارة الغرب إلى موردة لحضارة، متميزة على نحو من السمو لا تعرفه تلك الحضارة.

إن أخذ المسلمين بأسباب التقدم الحضاري وإحرازهم نجاحاً فيه، هو في نظري الضمان الوحيد لقوة المسلمين، ولإنقاذ إنسان العصر من خطر الإبادة الذي تكمن بذوره في حضارة الغرب رغم بهرها الظاهري، وهي تدفع بالبشرية إلى أتون حرب عالمية مدمرة ثالثة وهي تدري أو لا تدري.

ثالثاً : خطأ ربط مفهوم الحضارة في أذهان بعض المسلمين المعاصرين، كباراً وصغاراً، بإنجازاتها « الشيئية »، بصرف النظر عن القيم والمبادئ الخلقية :

لا جدال في أن القرن العشرين قد صاحبته في تاريخ الحضارة الإنسانية تغيرات جذرية وأحداث كبرى في المجال العلمي والصناعي

والحضاري، خصوصاً ما بين الحربين العالميتين الأخيرتين وما بعدهما، وأن الغرب قد بلغ من التفوق المادي حداً وضع قيادة العالم في يده إلى حد بعيد وربط به مصير البشرية وشكل المناخ الذي يسود العالم المتحضر من شرقه إلى غربه.

ولكن مما لا جدال فيه أيضاً، أن هذا التفوق العلمي والحضاري الذي يتمثل في الحضارة الغربية المعاصرة اقتصر على الجانب المادي في الحياة، بل لعل تفوقه كان على حساب ضمور القيم الأخلاقية والمبادئ الإنسانية، فأورثها ظاهرة الفوضى والقلق، لمناقضة هذا الوضع لفطرة الإنسان التي لا تقبل بتجاهل نزوعها الفطري إلى الاستقرار المعنوي والأمن الداخلي، ولمناقضته كذلك لسنن الله في الكون والحياة التي تقوم على فكرة التوحيد والتوازن بين عقل الإنسان ونفسه والمادة التي يستخدمها في صنع حياته وحضارته، وهي الأساس الذي لا بديل له لتأمين حياة الإنسان في الأرض. لقد حاول العالم الغربي المتحضر أن يقدم لإنسانه بدائل عن حاجة الفطرة الإنسانية إلى عبادة خالقها، والاهتداء إلى سر الحياة والحقيقة، ورسالته في هذا الوجود، ولكن كل هذه المحاولات التعويضية، سواء من الناحية الفكرية أو المادية، لم تنجح في تحقيق هدفها، وسببت بذلك قلقاً في الأرواح، وحيرة في النفوس، وبلبلة في العقول، وأوقعت إنسانها، رغم ما أغرقته فيه حضارته من تقدم مادي، في شعور بخيبة أمل نحوها، حين اكتشف أن « الأشياء » التي أسرفت الحضارة في عطائها إياه لا تعنى سد جوع الفطرة فيه إلى غذاء الروح والنفس من روح الحقيقة وعطاء التوحيد.

وحضارة الإنسان ترتبط بمثالياته في الحياة ووجهة نظره فيها، وبذلك ترتبط الحضارة « بالشيئية » حين تكون مثالياتها ووجهة نظر الإنسان فيها مادية، وحينئذ تصبح القيم المعنوية تابعة للتمتع المادي وحده، دون اعتبار للقيم والمبادئ الخلقية في ذاتها المطلقة.

والقاعدة مطردة بالنسبة للإسلام، حيث ارتبطت كذلك حضارته بمثالياته في الحياة ووجهة نظره فيها. فلم يرتبط مفهوم « الحضارة » عنده « بالشيئية »، وإن عني بها وحث على اكتشاف واستخدام كل ما هو نافع

وميسر للإنسان في حياته، وإنما ارتبط أساساً بالقيم الإيمانية والمحتوى الإنساني، أي بروح الحضارة وجوهرها، ومن ثم ارتبط العطاء الحضاري في الإسلام، ليس فقط بالتفوق المادي والعلمي، ولكن وبالدرجة الأولى، بما يحقق للإنسان طمأنينة قلبه، وأمن نفسه، ويكفل هذا التوازن والتناسق، في كل أمر حياته، اللذين يحملان معهما للإنسان معنى السعادة والإحساس بها في أعلى درجاتها وأصدق صورها.

وهذه نقطة خلاف جوهرية بين المفهوم الغربي والإسلامي للحضارة، وتظهر أهمية هذا الخلاف في عمق ومدى ما يترتب عليه من نتائج فكرية وآثار علمية في حياة الأمة الإسلامية، وبصفة خاصة حياة الأجيال الجديدة، حين يكون علينا أن نعيش عصرنا، دون أن ننزلق إلى اعتناق هذا المفهوم المادي للحضارة الذي دان به الغرب، وفرضه على إنسان العصر من موقعه الحضاري المتفوق، ويكون علينا في الوقت نفسه أن نحتفظ بأصالتنا وبمنهج الإسلام في الحياة، ولو لم يكن لمنهج الحياة أهميته الأساسية في تحديد نوعيتها وضمان سلامتها لما ألحقه الله بالشرعة التي امتن بها على عباده في قوله تعالى : « لكلٍّ جعلنا منكم شِرْعَةً ومنهاجاً »[1].

---

(١) سورة المائدة آية ٤٨.

الباب الثاني

نظرة مقارنة للحضارة الإسلامية وغيرها

من الحضارات الكبرى بصفة عامة والحضارة الغربية المعاصرة بصفة خاصة

(أ) من حيث المفهوم العلمي لمصطلح « الحضارة » وصلته بمصطلحي « المدنية » و « الثقافة » :

لن أتوغل في تقصي التعريفات العلمية لمدلول هذه المصطلحات الشائعة الاستخدام في عصرنا على ألسنة المؤرخين وعلماء الأجناس والاجتماع، وفي تطورها خلال القرون الثلاثة الأخيرة الذي ارتبطت بفلسفات الغرب والشرق واختلاف النظرة إلى الإنسان والحياة والتاريخ.

ولمن شاء، أن يرجع في ذلك إلى « دائرة المعارف البريطانية والأمريكية »، ففيهما استعراض علمي واسع لهذه التعريفات المختلفة، والتطور الذي لحقها، والمدارس الفكرية والأزمنة التي ارتبطت بها وصدرت عنها، والغموض الذي اتسمت، به والتداخل فيها بينها.

فمن هذه التعريفات ما لم يفرق بين مفهومي، « الحضارة » و « الثقافة »، وتناولهما في إطار علم الأعراق البشرية، وذهب إلى أنهما يفيدان : هذا الكل المتشابك الذي يتضمن المعرفة والمعتقد، والفن والأخلاقيات، والقانون والعادة، وأية مقدرات وعادات أخرى اكتسبها الإنسان كعضو في مجتمع.

ومن أصحاب التعريفات من قال « باقتصار مدلولهما على شعب بعينه أو مجموعة بشرية ما ».

وقد تعرضت الدائرتان، البريطانية والأمريكية، إلى نظرة « الدورة التاريخية » والاهتمام الذي نالته خلال الفترة ما بين سنتي ١٩٢٠، ١٩٥٠، « حول دورة الحياة بالنسبة للحضارات وكيفية نشأتها ».

وقد ورد في دائرة المعارف البريطانية، في معرض كلامها عن هذه النظرية، ما رأيت الفائدة في نقله لصلته بالموضوع الأساسي محل البحث : « رجلان هما الفيلسوف الألماني « أوزوالد شبنجلر » (١٨٨٠ - ١٩٣٦)، والمؤرخ الانجليزي « أرنولد توينبي » (١٨٨٩ - ١٩٧٥)، معروفان باهتمامهما بالأفكار التي تحاول تفسير قيام وسقوط الحضارات، وبمقارنة حضارات العصور القديمة بسليلتها الحضارة الغربية المعاصرة. أعلن شبنجلر بأنه يستطيع أن يتبين الملامح الرئيسية لدورة الحياة، (مولد، وصبا، ونضج، وشيخوخة وموت)، التي تمر بها كل الحضارات. ومن وجهة نظره أن الحضارة الغربية تمر بمرحلة الشيخوخة، لأن الغرب كما يعتقد قد تجاوز بالفعل مرحلة النضج المبدعة في الثقافة من خلال مرحلة التفكير والرفاهية المادية، ولا يمكن أن تكون المرحلة المستقبلة إلا مرحلة انحدار، ولا سبيل إلى تغيير هذا المسار، لأن الحضارات كالكائنات العضوية، وأن تجديد الشباب بحق ضرب من المحال بالنسبة لها جميعاً.

وأما عند « توينبي »، فإن انحدار الحضارة ونزولها هي عملية إنهاك، ولكنه كان أقل اهتماماً بعوامل السقوط منه بالنسبة لعوامل قيامها، وهي عنده لا ترجع إلى مثل عوامل التفوق الجنسي في الصفات، أو البيئة الجغرافية، ولكنها بالدرجة الأولى إرادة التحدي في موقف خاص الصعوبة، يدفع من

يواجهونه إلى بذل جهد غير مسبوق. ويستند في تفسيره إلى قيام الحضارات على النظرية التي تقول « بأن الصعاب هي التي تحث الناس على تحقيق الإنجازات الحضارية بأكثر مما تفعله الظروف السهلة ».

وتكلمت دائرة المعارف الأمريكية في نفس الموضوع عن « اكتشاف المؤرخ الإسلامي « ابن خلدون » لنظرية مختلفة عن دورة الحياة الحضارية، حيث استخلص من التاريخ نمطاً من « الغزو القادم من الصحراء، الذي ظهر بعده فساد الحكام نتيجة للترف، وبعد ثلاثة أجيال، هيأ الفساد لغزو جديد من الصحراء، ليبدأ الدورة من جديد ». واتبعت الدائرة الأمريكية تناولها لتنبؤات شبنجلر وتوينبي – التي ذكرت في دائرة المعارف البريطانية فيما أوردته من نظرية دورة الحياة التاريخية للحضارات – عقب المصائب التي أنزلتها الحربان العالميتان الأولى والثانية، والتي شدت انتباهاً واسعاً إلى الفكرة المنذرة بانحدار وسقوط الحضارة الغربية الحتميين.

ومن بين التعريفات التي أوردتها الدائرتان، ما ربطت الحضارة بأهم الكشوف العلمية التي تمخض عنها القرنان الأخيران، وباستخدام الوسائل المتقدمة في الحياة الإنسانية، ومنها ما ذهب إلى أن اصطلاح الحضارة ينطبق فقط على المجتمعات الأكثر عدداً وتعقداً، والأكثر سيطرة على البيئة والطبيعة، من غيرها من المجتمعات الأدنى، ومنها ما نظر إلى الحضارة الإنسانية ككل، وعلى أنها مرحلة بلغها الإنسان بعد مراحل مختلفة، مر بها عبر التاريخ، نقلته إلى الرقي باكتشاف الآلة، والطباعة والصناعة التي ميزت حضارة النوع الإنساني، ومنها ما قصر مفهومها على الزمن والشعب الذي قامت فيه، وبذلك اختص كل شعب بحضارته التي تنسب إليه، حتى لو تعاصرت في أزمانها مع حضارات أخرى.

ويمكن أن تعرف « الحضارة » : بأنها حصيلة ديناميكية للجهد الدائب لمجتمع بشري، لبناء مستقبل أفضل يحقق ما ينشده ذلك المجتمع من مثل أعلى.

وأما « الثقافة »، فهي حصيلة المعرفة التي يتلقاها فرد أو شعب في مجتمع معين له بيئته، وتصح المعرفة عند انطباقها على العلم، والعلم « معرفة

الحق بدليله »، وهي إحدى عوامل الحضارة، وركائز هيكلها، ومؤشرات هويتها.

ب) بيان أهم أوجه الخلاف بين الحضارة الإسلامية وبين غيرها من الحضارات، وتحديد أهم السمات المميزة للحضارة الإسلامية :

يمكن في معادلة بسيطة أن نوضح الفارق الجوهري بين الحضارة الإسلامية وغيرها من الحضارات المعاصرة، وتمثلها الحضارة الغربية على النحو الآتي :

إنسان + طبيعة (مادة) + ايمان = حضارة إسلامية.

إنسان + طبيعة (مادة) = انتاج مادي أي حضارة غربية معاصرة.

كما يمكن توضيح الفارق بين إنسانيتهما على النحو التالي :

إنسان يعيش لفكرة علوية (عبادة الله) = مسلم : الله غايته.

إنسان يعيش لفكرة ذاتية = غربي : الرفاهية المادية والاستمتاع الدنيوي غايته.

وقد رأيت أن أتناول هذا البحث في مجموعة من العناصر، تحدد في جملتها الغاية من الشرعة أو المثالية الإسلامية، والنظم الحياتية التي تستمد من تلك المثالية وتصب فيها، كما تحدد أبعاد الاختلاف بين الواقع الحضاري الذي نعيشه، وبين الصورة التي نرجوها في مستقبلنا الحضاري الإسلامي :

١ ـ خلاف مبدئي يتعلق بالأساس الذي تقوم عليه الحضارة :

تقوم الحضارة الإسلامية على أساس من « الكتاب » و « السنة »، وما اشتملا عليه من قيم ومبادىء كلية وأحكام وعبادات مفروضة، تصدر جميعاً عن مركز الدائرة في الإسلام، وهي عقيدة التوحيد وفكرته، التي سما بها الإسلام إلى أعلى درجة عرفتها الأديان السابقة، وجعلها محور كل شيء في حياة الفرد المسلم والأمة الإسلامية، وسر الجدة والقوة في بناء حضارته ومصدر تعاليمه، والأصل الذي تميزت به خصائصه، ومنطلق مختلف الأنظمة الحياتية التي تسود حياة أمته، سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية أو

جمالية، تكون عناصر الحضارة التي تستمد كل جذورها من عقيدة التوحيد هذه.

إن عقيدة التوحيد التي حررت الإنسان من عبودية غير الله، رفعته إلى أعلى مكانة بين المخلوقات، وزودته بأكبر قوة دافعة في الحياة، واستحق بها الخلافة عن الله تعالى في عمارة الأرض، وولدت فيه الإرادة الحضارية التي لا تخبو جذوتها في قلبه وإن تعطلت يوماً في واقعه لبعده عن ربه، لسبب أو آخر، وهي دائماً على استعداد للاشتعال والانطلاق من جديد، لتحقق المعجزات في الحياة، وتتخطى كل العقبات التي توضع في سبيلها، مهما بدت في نظر غيره مؤيسه.

ولأن شريعة الله هي سنة الوجود الإنساني، كما أن نواميسه في الكون سنة الوجود المادي، فإنها، بكل ما جاء به من قيم ومبادىء، قانون أزلي لا يلحقه قصور ولا يصيبه تغير، فهي الحق من عند الله. ولأنها الشرعة الباقية إلى يوم الدين، الصالحة للتطبيق العملي في كل زمان ومكان، فقد تميزت بالمرونة في أعمال قواعدها الكلية ومبادئها الأساسية، فيما يجدُّ في حياة الناس من أقضية ومصالح لاستخلاص حكم الشرع فيها، ومن أجل هذا كان « الاجتهاد » من أصول هذه الشريعة ولوازمها، وكان في غَلْقِ بابه تفريطٌ وفتنة.

وإن في الصور الرائعة، التي عرفها تاريخ الإنسان والحضارات عن الحضارة الإسلامية التي قامت في عصوره الزاهرة، لخير دليل واقعي على أن الإسلام دين حضارة متميزة العطاء الإنساني، ترحب به كل فطرة سوية، ويقتنع به كل عقل سليم.

وأنا ممن يرون توجيه العناية إلى الكشف عن حقيقة الإسلام وخصائصه وأصوله أكثر من توجيهها إلى المقارنة بالحضارات الأخرى المعاصرة، لما يبدو من أن حضارة الغرب واقع يسود العالم الآن، وليست هناك بعد حضارة إسلامية تزاحمها، فإذا كانت هناك مقارنة، فثمة من يقول بفارق في القياس، ينسحب على الزمن والبيئة ولا يرى غناء في التغني بأمجاد الماضي.

ولكن واقع الحضارة المادية المعاصرة، بشقيها الرأسمالي والشيّوعي، يقطع باعتراف أصحابها أن جوهرها مادي في لحمتها وسداها، ومثالياتها مادية تعبدت العلم والمادة من دون الله، مصادمة بذلك فطرة الإنسان التي فطره الله عليها، ومخالفة لقانون الله وسننه في الحياة، فحملت بذلك بذور نهايتها، وورّثت إنسانها القلق والحيرة، وأسلمته إلى ظاهرة الهروب من واقعه بشتى الوسائل التي أتاحتها له، سواء بمعاقرة الخمور، أو الارتماء في أحضان المتعة ولهو الحياة، أو تعاطي المخدرات، أو بوسيلته الأخرى التي يملكها في لحظات اليأس من الحياة التي يحياها. فازداد عدد الذين يقدمون على جريمة الانتحار من أبناء هذه الحضارة وضحاياها، بصورة فردية أو جماعية.

إن عبادة المال في الغرب جلبت معها الاستغلال والاحتكار، وأفرغت الحرية الفردية من مضمونها، ونشرت الانحلال الخلقي، وفساد الذمم في المعاملات، وأهدرت كرامة الإنسان وقدسية روابط الأسرة، وقوضت أركان السلطة الخلقية في العالم الحديث.

إننا عندما نذكر هذه السلبيات في حضارة الغرب لا نجاوز الحقيقة الواقعة، ولا ننكر ما أحرزته من نجاح في مجال التقدم العلمي والتقني، وما قدمته للإنسانية من خدمات في مجالات أخرى تتصل بالعمران، والوقاية والعلاج من كثير من الأمراض والحالات المستعصية منها، وأنظمة التعليم المتطورة وطوفان المعلومات، والتصدي لأزمتي الطاقة والغذاء، وغير ذلك مما يدور في إطار الإشباع المادي ومجتمع الوفرة، ولا يجاوزه إلى الجانب الروحي في الإنسان. ونحن بذلك لا نقف منها موقف التجني، وإنما ننعي عليها جوانب النقص في كيانها، بما نعاه مفكروها ومؤرخوها، وأنذروها بسوء العاقبة بسببه.

وفي المعسكر المقابل نجد الشرق الشيوعي بفلسفته المادية التي تنكر الدين وأسسه الماركسية اللينينية في تفسير الحياة، وفي المادية الجدلية، ونظرية الصراع الطبقي، وحتمية التاريخ، ودكتاتورية الطبقة العامة، وتحريم الملكية الخاصة. وقد تعرضت الأسس الماركسية، التي أقام عليها الاتحاد السوفييتي وجوده وحضارته، لكثير من الهزات والتراجع من جراء

فداحة الأضرار التي لحقت بالمجتمع السوفييتى بسببها، حيث أصدرت روسيا عام ١٩٣٦ م قانوناً يحرم الإجهاض ويقيد الطلاق، بعد أن كان قانون الأسرة الذي أصدرته حكومة لينين يعترف بالأبناء غير الشرعيين وبحق الزوجين في الطلاق، والذي أدى إلى تفكك الأسرة وانتشار الزنا، كما رجعت عن تحريم الملكية الخاصة، فأباحتها نسبياً، وخففت من قبضتها الحديدية على حرية العبادة وأداء شعائر الأديان، في العقود الأخيرة من هذا القرن، ولا يزال ينتظرها الكثير من التراجع في الأسس تحت تأثير الحضارة الغربية الحديثة من جهة، وعوامل التفكك التي تعاني منها أنظمتها ومجتمعاتها في داخل روسيا وخارجها من جهة أخرى.

والحضارتان المعاصرتان، الغربية والشرقية، تتفقان في الأساس المادي الذي تقومان عليه، وإن اختلفتا في الأنظمة الاقتصادية والاجتماعية، وفي موقفهما من الدين بين التجاهل والإلحاد، وفي موقفهما من الحرية الشخصية بين الإفراط والتفريط.

٢ ـ خلاف في البنية الحضارية والقوة الذاتية :

يتمتع الإسلام بميزات عكستها حضارته، فتميزت هي الأخرى عن الحضارة الغربية المعاصرة وحضارة الشرق الشيوعي. ولقد سبق أن تناولنا بالبيان الدعامات التي تقوم عليها الحضارة الإسلامية، وخصائص هذه الحضارة المتميزة القائمة على التوازن بين الجانب الروحي والجانب المادي، وعلى وحدة الأمة الإسلامية، بحكم عقيدتها في التوحيد، والأخوة في الدين، ولغتها الحضارية الواحدة، فاجتمعت للحضارة الإسلامية بذلك من عناصر القوة الذاتية، والتماسك بين أبنائها ما جعل لها بنية نامية قوية ليست لغيرها، ولذلك نراها في تاريخها الطويل قادرة على التفاعل مع أي حضارة أخرى، وأخذ محاسنها دون فقدان ذاتيتها واتساقها، حتى لتبدو دائماً مدنية قائمة بذاتها، مختلفة عن غيرها، ونرى الإسلام، في عصره الأول، قد ورث أفضل ما في حضارتي الفرس والروم بعد أن أدال الله له منهما، وقضى على عرشيهما، وبنى حضارة جديدة له هي الحضارة الإسلامية المتميزة عن غيرها. ورغم ما تعرضت له حضارة الإسلام من هجمات الصليبيين والتتار والاحتلال الأجنبي

في القرنين الأخيرين، فإنها بحكم بنيتها القوية لم تفقد إرادتها الحضارية وقوتها الذاتية، فسرعان ما كانت تنهض من كبوتها، وتلم شتاتها، وتستعيد مكانتها ولو بعد حين، وترد للإسلام اعتباره.

ولو أن حضارة أخرى منيت بما تعرض له الإسلام وحضارته، التي اتسعت رقعتها في عصور الازدهار ما بين المحيطين الأطلسي الهادي، من هجمات الأعداء وتآمرهم، لانتهى أمرها ودرست كغيرها. ولكن الأمر مع الإسلام وحضارته يختلف، حيث تستمد هذه الحضارة، ذات البنية الديناميكية القوية، قوتها وجذورها من الإسلام الذي يمد أتباعه بأسباب القوة والحياة، ويسكب من روحه في أرواح المؤمنين ونفوسهم سر البقاء، فيتحقق دائماً قوله تعالى : « والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون »[1]. نعم ، ثمة ظاهرتان تفرد الإسلام بهما كما تميزت بهما حضارته، لازال الغرب حائراً في تفسيرهما، حيث لا نظير لهما في تاريخ الأديان الكبرى، ألا وهما :

أ) ظاهـرة الانتشار السريـع :

لم تمض مائة عام على وفاة النبي ﷺ حتى امتدت فتوحات الإسلام غرباً إلى أسبانيا، وشرقاً إلى أن عبروا نهر السند، وما لبث المسلمون أن وجدوا أنفسهم قادة على امبراطورية أعظم من امبراطورية الفرس والروم، في أوج قوتهما، وقد انتصروا عِليهما وقوضوا سلطانهما.

ورغم الفترة الزمنية التي تضعضعت فيها قوة الإسلام السياسية، ظلت غزواته الروحية مستمرة دون انقطاع، وتزايد عدد المسلمين، وتجاوز أبعاداً شاسعة من العالم.

وعن قوة الإسلام، التي تتمثل في قدرته على اجتذاب الناس إليه من الوثنيين وأهل الأديان الأخرى، يقول « توماس أرنولد » في كتابه « الدعوة إلى الإسلام » : « فهنالك حالتان تاريخيتان كبريان، وطيء فيهما الكفار من المتبربرين بأقدامهم أعناق أتباع الرسول، أولئك هم الأتراك السلاجقة في

---

(١) سورة يوسف آية ٢١.

القرن الحادي عشر الميلادي، والمغول في القرن الثالث عشر، وفي كلتا هاتين الحالتين نرى الفاتحين يعتنقون ديانة المغلوبين... وقد حمل دعاة المسلمين، الذي كانوا خلواً كذلك من أي مظهر من مظاهر السلطان الزمني، عقيدتهم إلى أفريقيا الوسطى والصين، وجزائر الهند الشرقية وتمتد العقيدة الإسلامية اليوم من مراكش إلى زنجبار، ومن سيراليون إلى سيبيريا والصين، ومن البوسنة إلى غينيا الجديدة.

وذهب بعض الكتّاب المسيحيين إلى إرجاع سرعة انتشار الإسلام إلى استخدام المسلمين السيف والنار في نشر دعوتهم، وهو ما يكذبه التاريخ، ولا يوافق تعاليم الإسلام التي تأبى الإكراه في الدين، وقد كذبه بعضهم ممن هم أكثر إنصافاً للحقيقة، فنجد، « جورج سيل » يقول منذ قرنين : « إنه لن يتحرى الأسباب التي من أجلها صادفت شريعة محمد ترحيباً لا مثيل له في العالم، لأن هؤلاء الذين يتخيلون أنها قد انتشرت بحد السيف وحده إنما ينخدعون انخداعاً كبيراً » .

ب) ظاهرة الصمود في مواجهة عوامل الانحلال :

إن جوهر هذه الظاهرة وسابقتها واحد، فالذي تأدى بالإسلام أن يشق طريقة خارج الجزيرة العربية التي نزل فيها القرآن، فهزم في أقل من عشر سنوات الفرس والروم، وا ستولى على السواد والشام وفارس ومصر، هو ذاته الذي تأدى به أن يصمد في وجه أعتى الغزوات التي شنها عليه أعداؤه، وأن يقاوم عوامل الضعف والانقسام التي تسللت إلى أمته، لأكثر من ستة قرون خلت، دون أن ينهار بناؤها الاجتماعي الذي استمد أساسه الأول من الإسلام، رغم ما لحقه من آثار نالت من قوته وسلطانه وتميز مجتمعاته.

ذلك الجوهر الذي حير المؤرخين أمره، لأنهم نقبوا عنه من خلال مذهبهم المادي في الحياة والتاريخ، هو هذه القوة الروحية الهائلة التي تكمن في بذرة عقيدة التوحيد، حية في ضمير كل مسلم، مستعدة دائماً أن تفجر في الأمة الإسلامية إرادة الحياة الحرة الكريمة، كما كانت في صدر الإسلام، وأن تواجه أعداءها، مهما تفوقت أسلحتهم، بطوفان الحق وسيل المجاهدين في سبيل الله، الذين يحرصون على الموت أكثر من حرص

أعدائهم عل الحياة.

وما هذا اللقاء الذي نحضره اليوم، ونظائره، من علامات البعث الراهن، إلا إرهاصات الفجر الجديد الذي طلع على الأمة الإسلامية، على موعد من إفلاس حضارة الإنسان المعاصر، وتطلع البشرية إلى من ينقذها من حمأة ضياعها الروحي، وترديها في أوحال المادية، وتعرضها للدمار على أيدي سدنة الحضارة الغربية، المارقين عن أمر الله، الغارقين في طوفان ماديات الحياة، ودوامة المطامع والأهواء.

٣ ـ خلاف في نوعية الحياة الاجتماعية التي تكفلها الحضارة الإسلامية وتلك المتاحة في غيرها :

لأن الإسلام بطبيعته دين حضارة ودولة، فقد اتخذ لنفسه منهجاً سوياً يوصله إلى ما يريد. فبدأ بإعداد الفرد المسلم وتربيته تربية إسلامية رشيدة، باعتباره اللبنة الأولى في بناء صرح المجتمع الإسلامي السليم، وعلى أساس سلامة الفرد والمجتمع أقام دولته.

ولما كانت نوعية أي مجتمع تتحدد بنوعية أفراده، فلا معدى عن إيراد لمحة عن الكيفية التي اتبعها الإسلام في إعداد أفراد مجتمعه.

لقد عمل الإسلام على العناية بتكوين الفرد المسلم، سواء من الناحية الشخصية الفردية أو الشخصية العامة، ليتحمل المسئوليتين فيهما نحو نفسه ومجتمعه، فعمد إلى تربية ضميره الديني، بما للعقيدة والعبادة من أثر في ذلك وحصوله على حقوقه المشروعة في حفظ الدين والنفس والنسل والمال والعقل، ليتحقق له الأمن والاستقرار، اللذان يوفران له مناخاً صالحاً للإنتاج وأداء واجباته في الحياة وكذلك الأمر بالنسبة لحقه في المساواة بغيره من أفراد الأمة الإسلامية، التي لا اعتبار فيها للجنس أو اللون أو السلطة، التي تمتد لتشمل غير المسلمين في الدولة المسلمة، لهم ما لنا وعليهم ما علينا، وتركهم وما يدينون به، وتأمين حرية الفرد في التفكير والتعبير والتملك، وغير ذلك من حريات، كفلها الإسلام للمسلمين وغير المسلمين في دولته، وقد جعلها مقيدة، حتى لا تؤدي إلى الاعتداء على حقوق الغير، بقيود داخلية من الضمير والإحساس بالمسئولية، وخارجية بسلطان الشرع.

وإن عناية الإسلام بإعداد الفرد المسلم، وتربيته تربية إسلامية متكاملة الجوانب على أساس أنها تبدأ من داخل النفس لا من خارجها، ليلفت انتباهنا إلى أهمية اتباع هذا المنهج الإسلامي في تنشئة الأجيال الجديدة، وتوجيه أقصى العناية، من جانب المعنيين على كل المستويات، بذلك الواجب الديني والحضاري، الذي يعتبر المعبر الوحيد لبناء صرح المجتمع الإسلامي وإقامة الدولة الإسلامية.

ولا شك أن نقطة الانطلاق في تكوين الفرد المسلم تكمن في ترسيخ العقيدة في نفسه، وفي تبصرته بدينه، وفي تعويده الحرص على أداء العبادات على وجهها، لما في هذه الركائز من عظيم الأثر في تربية الفضائل الإسلامية، وغرس القيم الدينية في وجدانه وحسه.

واتجهت عناية الإسلام إلى الأسرة، فهي نواة المجتمع، وما أكثر ما ورد من نصوص قرآنية وأحاديث نبوية صحيحة في شأنها، لا يسمح المقام بتفصيلها، ويكفي أن نشير هنا إلى موازنة الإسلام بين الحقوق والواجبات في نطاقها، فاستقرت العلاقة بين أطرافها، آباء وأبناء، على أساس من المودة والرحمة، وسهل بذلك ترابط الأسر فيما بينها، لتماثل بنائها ومكوناتها وآدابها، كما سهل تعاونها على البر والتقوى، وأداء مسئولياتها نحو المجتمع والدولة.

وبذلك قام المجتمع الإسلامي في أمسنا، كما نسعى ليقوم في يومنا وغدنا، لا تعارض فيه بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة، بل هي مصالح متوازنة. وقد تحققت له وحدته التي أمدته العقيدة بأسبابها، ووثقت العبادات والشعائر روابطه، وجعل من أفراده أمة واحدة هي خير الأمم، فهم متضامنون فيما بينهم في حمل مسئوليات الحياة كما أرادها الإسلام من أمته، متساوون في الحقوق والواجبات، متكافلون، إنسانيون في نزعتهم، أخلاقيون في كل معاملاتهم ومواقفهم.

وكان من كمال الإسلام، وقد صنع هذه النوعية الممتازة من المجتمعات البشرية التي تميزت بما تميز به دينها، أن عمد إلى إقرار مبدأ الرقابة العامة على المجتمع حتى لا يلحقه انحراف ولا يتطرق إليه فساد،

وناط هذه المسئولية بأفراده، على أساس التكليف الشرعي بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما طالبهم برعاية مصالح المجتمع، وذوي الحاجات من أبناء السبيل والمعسرين.

والخلاف بين نوعية المجتمع الإسلامي ونوعية غيره، كالمجتمع الغربي المعاصر، خلاف واضح. ومرة أخرى أذكر، ونحن في مجال المقارنة، بما سبق أن قلته، عما قد يرد على مقارنة واقع الحضارة الغربية المعاصرة ومجتمعاتها الراهنة بواقع إسلامي تاريخي مع فارق الزمن والبيئة، ومع ذلك يوجد في عالمنا الإسلامي نماذج محدودة جداً، تقترب من بعض الوجوه من الصورة التي لا مناص لنا من الرجوع إليها في الماضي، لنشهد الإسلام وتطبيقاته العملية كيف كانت، وكيف يجب أن تكون واقعاً حاضراً مرة أخرى.

ومهما يكن من شيء، حتى لو صرفنا النظر عن المقارنة، تبقى الحقيقة قائمة عندما نقلب النظر في واقع المجتمعات الغربية والمجتمعات الشيوعية المعاصرة.

نراها أولاً قد فشلت في تحقيق التوازن بين مصلحة الفرد ومصلحة المجتمع، ووقعت كلها بين آفتي الإفراط أو التفريط، حيث نرى المجتمع الشيوعي قد قدم مصلحة المجتمع على مصلحة الفرد، فانتهى بها نظامها البوليسي إلى تجريد الفرد من حقوقه، وإلى ديكتاتورية البروليتاريا نظرياً، والطبقة الحاكمة عملياً، وإلى انتشار الفساد والانحلال. في حين نرى المجتمع الغربي، قد غلّب مصلحة الفرد على مصلحة المجتمع فانتهى به الحال إلى طغيان الفرد وإلى الاستغلال، والاحتكار والأثرة، وتمزق روابط الأسرة والمجتمع، وانتشار نفس الفساد والانحلال الذي نراه في المجتمعات الشيوعية، وذلك لأخذ المعسكرين بالمذهب المادي، رغم ما بينهما من اختلافات أيديولوجية.

٤ ـ خلاف في الغاية النهائية التي يستهدفها المسلمون من حضارتهم وتلك التي تستهدفها الحضارات الأخرى بصفة عامة وحضارة الغرب بصفة خاصة :

أفردت هذا الخلاف بإيراده مستقلاً، وإن سبقت الإشارة إليه في ثنايا المعالجات السابقة، لما له من أهمية جوهرية في موضوع البحث، لأن في تحديد الغاية المتوخاة من حضارة ما، فائدة كبرى لا تقتصر على الحكم عليها وتقييمها، ولكنها تساعد على تفسير النوع الذي تختاره من النظم الحياتية وأسلوبها في تحقيق هذه الغاية.

ويحدد الإسلام للفرد المسلم الغاية من الحياة في قوله تعالى : « قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ». فغاية المسلم إذن، في كل أمر معاشه ومعاده، هي « الله جل جلاله »، أي إرادة وجهه وحده وليس سوى ذلك مما يبتغيه الناس عادة من الحياة : من جمع المال وكثرة الولد والتمتع والسلطة وغير ذلك مما عدّه الإسلام متاع الحياة الدنيا. إنها في الإسلام مباحة في حدود شرع الله، ولكن الذي يحذر الله منه عباده، أن تتحول، من كونها وسائل إلى غاية العبد من حياته، فيقع في الشرك. كما نصب الإسلام ميزاناً للتفاضل بين أفراده ومجتمعاته هو « التقوى »، وليس غيرها من أعراض الدنيا التي يتفاضل بها غير المسلمين في الحياة الدنيا، من مال أو جاه أو غير ذلك.

إن الرضى المتبادل بين المسلم وخالقه هو ثمرة هذه الغاية، حيث رضي الله لعباده الإسلام ديناً ورضوا عنه نعمة الإسلام، كما جاء في كتابه الكريم : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً »[١]. وقوله تعالى « رضي الله عنهم ورضوا عنه »[٢].

والدولة الإسلامية دولة دعوة، والغاية من تمكينها في الأرض عبادة الله ونشر دعوته، وفي ذلك يقول عزّ من قائل : « الذين إن مكنّاهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، ولله عاقبة الأمور »[٣]. وتصدر دولة الإسلام في كل أمرها عن شريعة الله، وسنة رسوله ﷺ، وتحتكم إلى الإسلام في كل ما يعرض لها.

---

(١) سورة المائدة آية ٣.

(٢) سورة البينـة آية ٨.

(٣) سورة الحـج آية ٤١.

هذه هي الغاية النهائية وما دونها من الغايات بالنسبة للفرد والمجتمع والدولة في الإسلام. غاية ترتفع بالفرد إلى أعلى مقام، وترتفع بالأمة إلى المنزلة التي تجعلها خير أمة أخرجت للناس، وترتفع بالدولة إلى أن تكون منارة الحق في أرض الله.

وهي بعد تفسر ما تكون عليه حال الفرد في الدنيا، ومنهجه في الحياة، وما تتسم به تصرفاته ومعاملته مع الغير، ونظرته إلى الكون والحياة والإنسان، وكذلك الأمر بالنسبة للمجتمع والدولة والمسلمين. إنها تفسر استقامة الفرد على أمر الله، وتفسر وحدة المجتمع الإسلامي وآدابه المرعية، كما تفسر قوة الدولة ونباهة ذكرها وإقامة الحق في أرض الله.

فإذا انتقلنا إلى حضارة الغرب والشرق، وإلى مجتمعاتها، وأفرادها، فماذا نجد ؟.

نجد الغاية المتوخاة هي « الإشباع المادي » عند الفرد، والتطلع إلى تحقيق مجتمع الوفرة بالنسبة لهذه المجتمعات، رأسمالية كانت أم شيوعية، وتحقيق « التفوق العسكري والسياسي » لدى دولها.. وعلى أساس من دخل الفرد تصنف هذه الدول من حيث التقدم والتخلف.

إن « المذهب المادي » الذي يحكم الغرب والشرق، هو الذي اتخذوه أساساً لتفسير الوجود والتاريخ، وعلى أساس هذا التفسير تحددت مناهجهم في الحياة، فقامت مدنياتهم على الأثرة والعدوان، وأصبح سلطان المال هو المحرك للفكر والسياسة والحكم وعلاقات الأفراد، واختل توازن الحياة باستغلال الأغنياء للفقراء، واحتكار رأس المال، وذبلت فكرة الحرية التي كان الغرب قد أقام عليها مجتمعه، في حين أنكرها الشرق الشيوعي أصلاً، واستشرى الفساد في هذه المجتمعات كلها بكل ألوانه وفي كل مجال، بدءاً بالفرد فالمجتمع، وانتهاء بدولها ومن تبعها في الغاية والمنهج من دول أخرى.

إنها أنظمة حياة من صنع الناس والظروف، فلا عجب إذا هي تعرضت للتبديل والتغيير، وهبط فيها معاملا « الصحة والثبات » إلى درجات متفاوتة في الغرب والشرق على السواء.

وعلى النقيض من ذلك شريعة الله، التي تمتاز « بالثبات المرن »، المحكوم بأصولها ومبادئها الكلية وقيمها العليا الثابتة، ثبات يحفظ عليها وعلى.الأمة الإسلامية إستقرارها، ومرونة تجعل شريعة الله صالحة للتطبيق في كل زمان ومكان. وإنها لتحث على النمو المادي في إطار الشرع، ولا يعتبر الإسلام مجتمعه متحضراً إذا هو قصّر في عمارة أرضه وتحقيق النمو المادي فيها، وكانت أمته ذليلة أو فقيرة أو جاهلة أو متخلفة في مجال العلم المتقدم والعمران المتطور. فالإسلام يطالب أمته أن تتسنّم القمة بين سائر الأمم، وتحرز أعلى مراتب الرقي الحضاري، ولا يرضى منها دون ذلك.

الباب الثالث

العقبات والتحديات المعاصرة للأمة الإسلامية

بلغت العقبات والتحديات، التي اعترضت طريق الأمة الإسلامية منذ بداية القرن العشرين، ذروتها في الفترة التي تلت الحرب العالمية الأولى، وانتهت فيها الخلافة الإسلامية، وتقسمت أوروبا تركة الرجل المريض، بسقوط الدولة العثمانية، واحتلت أكثر بلدان العالم العربي. وظلت في تصاعدها إلى أن ضاعت فلسطين العربية، وطرد الصهيونيون أهلها منها. ولا زال تصاعدها لا يتوقف إلى الآن، وعلى الأخص في مواجهة العالم العربي وفي هذه الفترة الحرجة التي يبدو فيها العالم وكأنه بات على أبواب حرب عالمية ثالثة حيث يعيش العالم كله في أزمة ثقة مدمرة، يعاني منها بالدرجة الأولى محور موسكو ــ واشنطون، الذي يمثل مركز الثقل في القوى العالمية المتصارعة، من أجل المطامع الاستراتيجية والاقتصادية، وحيث يشهد العالم متغيرات سياسية سريعة الإيقاع في أنحاء مختلفة فيه، كنتيجة حتمية لمطامع المعسكرين الكبيرين في كسب مناطق نفوذ جديدة كالذي تفعله روسيا، أو الاحتفاظ بمناطق نفوذ تقليدية كالذي تفعله الولايات المتحدة وأحلافها الأوربيون، أو البحث عن بدائل لما فقدته منها، ونتيجة كذلك

للانتفاضات الساخنة من جانب بعض الشعوب الإسلامية في أفريقيا وآسيا، لتصحيح مسارها أو الإبقاء على كيانها واستقلالها، كالذي تم في إيران وباكستان، والذي يجري في الشعب الفلسطيني المشرد، وفي أريتريا وفي لبنان وافغانستان.

إن وراء هذه المصائب والأخطار المحدقة بعالمنا العربي والإسلامي، أعداؤه التقليديون من الاستعمار الغربي والشرقي، والصهيوني، وإن استخدموا في ذلك وسائل تقليدية وغير تقليدية، ومع ذلك يبقى التحدي الأخطر، الذي يواجه العالم العربي والإسلامي، هو ذلك الذي يتهدده من داخله، ممثلاً في تأخره وتفرق كلمته، ونخشى أن نصل في تحديد هذا الخطر إلى القول بأن التحدي الأكبر في هذا المجال هو المسلمون أنفسهم بأوضاعهم الراهنة.

ويمكن تلخيص ما يعاني منه عالمنا العربي والإسلامي، في هذه الفترة، من هذه العقبات والتحديات على الوجه الآتي :

١ ـ تمزق المنطقة العربية وتشتت قواها :

وهذا واقع مشهود، قد بلغ ذروته في الآونة الأخيرة، في وقت هي أشد ما تكون حاجة فيه إلى رأب الصدع، وتعبئة قواها، وتضامن أقطارها، وتوحيد سياساتها واستراتيجياتها، لتواجه ضراوة المخططات العدوانية التي تحاك لها، والتي تعمل متساندة في ذلك الاتجاه. وإن المتغيرات السياسية العالمية التي دعت أمريكا والصين، بعد قطيعة تقليدية طويلة، لطرح خلافاتهما الايديولوجية والاستراتيجية، والدخول في مرحلة جديدة مثيرة من التحالف المفاجىء، يحمل في طيه مؤشرات ذات دلالة بالغة الخطر، والتي كان يجب أن تدعو الأقطار العربية الشقيقة، التي تربطها وشائج الدين واللغة والحضارة والمصلحة المشتركة من باب أولى، إلى نبذ كل أسباب الفرقة، مهما كان نوعها أو مداها، والدخول في مرحلة جديدة أخرى، من اتحاد الكلمة والصف، لدرء الخطر الداهم الذي يبيته لها أعداء الإسلام، وأعداؤها الطامعون في مواقعها الاستراتيجية وثرواتها الغنية، واعتبار ذلك ضرورة حياة للملة والأمة، كما هو ضرورة حياة لكل قطر منها.

وقد حذرنا القرآن الكريم من عواقب الفرقة الوخيمة، كما حذرنا منها رسولنا عليه الصلاة والسلام فقال : « لا تعودوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض ».

وعلى القادة والعلماء أن يتعاونوا في همة عالية، وبحكمة بالغة، لإيجاد مخرج من هذا المأزق الصعب، مهما كلفهم ذلك من تضحية.

وإذا صح العزم وضح السبيل. ولازالت الشعوب العربية المسلمة على ولائها لدينها، الذي طالما شد أزر المخلصين من قادتها في المواقف الصعبة، وعلى حبها لاستقلالها والحفاظ على أرضها، الذي طالما أرخصت في سبيلهما أرواحها إذا حزب الأمر ولم يكن من لقاء الأعداء بد. ولازال الإسلام الذي تدين به شعوبنا قادراً وحده على أن يحقق معجزة التضامن فيما بينها، وعلى بناء الجسر الذي نعبره إلى تماسك صفوفنا.

وإن في القوة التي تتحقق للصف العربي شد أزر للمسلمين الذين يواجهون خطر الاحتلال أو الإبادة في أفريقيا، وشرق آسيا، وجنوبها الغربي، وفي انتصارهم على أعدائهم قوة لنا.

٢ ـ التلوث والانحراف الحضاري في واقع المجتمعات الإسلامية المعاصرة ومسارها :

إن نظرة يلقيها أحدنا على واقع حضارة البلاد العربية والإسلامية، كفيلة بأن تكشف عن مدى بعدها بدرجات متفاوتة ـ وهي درجات عالية جداً في أكثرها ـ عن مقومات الحضارة الإسلامية الأصيلة التي تميّزها عن حضارة الشرق والغرب المعاصرة. فالدول الإسلامية التي تطبق الشريعة في وقتنا الراهن محدودة، وهي مع ذلك لايزال أمامها الكثير لتستكمل الصورة والمضمون في مواجهة طوفان الحضارة الغربية وتيارها السائد في أنحاء العالم، وأما سائر الدول العربية والإسلامية، ومنها للأسف ما يعتنق المذهب الشيوعي، فإن حظها من الحضارة مصطبغ بالعلمانية الغربية، وإن ضم أكثرها شعوباً تواقة للتخلص من هذه العلمانية، وتلك المذاهب السياسية الدخيلة من شيوعية واشتراكية وقومية، ولا تكف عن المطالبة، بكل ما تملك من وسائل، بتحكيم شريعة الإسلام، وهي من ذلك في بلاء مع ولاة أمورها.

ومن ثم فإن حضارات المسلمين الراهنة، تعاني، بأقدار مختلفة، من تسرب المدنية إلى مجتمعاتها منذ أواخر القرن التاسع عشر، لا سيما بعد حركة الانقلاب التي قام بها مصطفى كمال في تركيا، وإنهاء الخلافة الإسلامية، وتحول الاتجاه إلى العلمانية على حساب مبادىء الإسلام وتعاليمه، وما صحب هذا الاتجاه من الأخذ بفكرة فصل الدين عن الدولة، واستلهام الغرب في حركات الإصلاح بدلاً من الرجوع إلى الإسلام في أهدافها ومناهجها. وإن قامت حركات إصلاح ديني كبرى، قاومت هذا التيار، وعملت على إبطال تأثيره، وحققت بذلك انتصاراً على حركات الإصلاح العلماني لا يزال يحتاج منها إلى المزيد من البذل والجهاد حتى يتحقق وعد الله بنصر عباده المؤمنين، وتقوم للإسلام دولته.

ولكن تيار المدنية الغربية الذي ساد العالم، لم يتوقف مع ذلك تسلله إلى العالم العربي والإسلامي، وانتصر له دعاة المدنية الغربية الذين تأثرت أفكارهم بالغرب، لا سيما ونحن نعاني من التخلف، ونحاول بناء حضارة راقية، ونعيش في عصر كُسِرَت فيه حواجز المسافات، وتشابكت فيه المصالح، ولم تعد العزلة ممكنة، وقد كانت الدول التي تطبق الشريعة الإسلامية أكثر تحصناً ضد الآثار التي تحدثها حضارة الغرب في الفكر ومناهج الحياة من غيرها، ولا زالت الصعوبة قائمة في وجه كل دول العالم الإسلامي، في محاولة ربطها بين الأصالة والمعاصرة، والإفادة من علوم الغرب وتقنيته وخبراته المتقدمة، دون تسرب أفكاره ومذاهبه المادية وأمراضه الاجتماعية إلى شعوب تلك الدول النامية.

ويشكل هذا الموقف الصعب تحدياً خطيراً، على المستوى الفكري والحضاري لدى دول عالمنا العربي والإسلامي، وخطره بالنسبة للأجيال الجديدة أشد، ودورها في درء هذا الخطر عن الأمة الإسلامية أساسي ومصيري، وهي بعد أملك لأسباب القوة والتغيير من الأجيال المولية. ومن جميل صنع الله بنا وبشبابنا المسلم المعاصر ما نشهده، لا سيما منذ العقدين الأخيرين، من تفجر تيار إسلامي في أنحاء العالمين العربي والإسلامي، وفي هذا الجيل الجديد من شبابنا بالذات من الجنسين، في أكثر الدول العربية والإسلامية، وفي خارجها، ما يؤذن بإمكان تخطي هذا

الموقف الصعب، وذلك التحدي الذي تقفه منا حضارة الغرب، وإنقاذ عالمنا العربي والإسلامي من التلوث بالمفاهيم المادية والمذاهب العلمانية الوافدة، والفلسفات المستوردة التي تصطدم بشريعتنا، ولا تلائم حضارتنا، والتي أغناها الله بالإسلام عنها.

ولكن الأمر مع ذلك يحتاج إلى الأخذ بيد الشباب المسلم المعاصر في هذا الطريق، كما يحتاج منه إلى تحمل مسئولياته فيه.

وكما على بلدان العالم الإسلامي أن تحمي حدودها من تسلل الخطرين على أمنها، فإن عليها أن تعرف كيف تحمي شبابها من غزو الأفكار الإلحادية والمذاهب الهدامة، والاتجاهات الفكرية والسلوكية المنحرفة، التي لو تركت وشأنها بدون مواجهة جدية مخططة لأفسدت علينا ديننا وحياتنا، وأثرت أسوأ الأثر في معتقدات أبنائنا وسلوكهم، وكانت حجر عثرة في طريق خطط التنمية التي نقيم عليها بناء الغد، ونعلق على نجاحها كبير الآمال.

ومن العجيب أن ظاهرة التلوث الفكري والسلوكي التي صاحبت الحضارة المادية في الغرب والشرق، ونتجت عنها كعادم السيارات والمصانع الذي يصدر عنها ويلوث الجو الذي نتنفسه ـ تجتاح العالم المتمدن، وتنخر كالسوس في هيكل عظامه، وتهدد وجوده وسلامته، وقد نادى بخطره وضرورة التخلص منه مفكرو ومؤرخو الغرب أنفسهم، الذين نددوا بحضارتهم وحذروا من تعرضها للانهيار، من أمثال أرنولد توينبي المؤرخ الانجليزي المعروف، وغيره.

فأي حماقة نرتكبها حين نلهث وراء حضارة هذا شأنها ورأي مفكريها عنها، ونترك أصالتنا الحضارية المتميزة بتوازنها واعتدالها وتكاملها، لا نبحث عن أنفسنا فيها ولا نؤكد بالانتماء إليها وجودنا ونحتل المكانة العليا التي رشحنا الله لها خلافة عنه في الأرض، وانتصاراً لدينه، وإعمالاً لسنته في الكون والحياة.

إن ظاهرة التمزق الفكري والتلوث الحضاري اللذين يعيشهما المسلمون المعاصرون، وهذا التفكك الاجتماعي وغلبة الأنماط السلوكية

الغربية على حياتنا، كل هذه العلل التي اصطلحت علينا جاءتنا من إحساس بتبعية الضعيف للقوي، أفقدتنا الثقة بأنفسنا، وولدت في نفوسنا عقدة الشعور بالنقص حيال الغرب، كما جاءتنا من بُعْدِنا عن مصادر الحياة والقوة التي خولنا الإسلام إياها، ووعدنا الله، عند الأخذ بها، بالنصر على أعدائنا.

إن المسلمين الأوائل، على عهد النبي ﷺ وفي صدر الإسلام، واجهوا دولتين عظيمتين لهما حضارتان قويتان ماديتان، وفي مواجهة هذا التحدي الصعب، لم يركنوا إلى هذه أو تلك لدرء خطرهما عنهم وعن الإسلام، وإنما ركنوا إلى الله وإلى قوتهم الذاتية التي ولدتها العقيدة في نفوسهم، وخططوا للمواجهة، ونجحوا في القضاء عليهما، وورثوا حضارتيهما وأرضهما، وأقاموا صرح حضارتهم الإسلامية المتميزة. وما أشبه موقفنا اليوم من الشرق والغرب بذلك الموقف المنهجي الذي وقفه أسلافنا من دولتي الفرس والروم.

على أن مسئولية المسار تقع على عاتق الأجيال التي بيدها أزمة الأمور، بينما تقع مسئولية التصحيح على الأجيال الجديدة من شباب العالم الإسلامي، فهم غير مسئولين عن مناهج التعليم التي أشربت بالعلمانية الغربية وابتعدت عن معين الإسلام، ولا عن الإعلام واختلاط أمر مادته بين المتناقضات التي تبلبل نفوس شبابنا وعقولهم، ولا عن غير ذلك مما يعج به واقع أكثر المجتمعات الإسلامية من ألوان الانحراف عن الإسلام والتأثر بحضارة الغرب ومناهجه في الحياة.

٣ ـ تغلغل سلطان المعطيات الحضارية « الشيئية » على نفوس أبناء الأمة الإسلامية وعدم تصور إمكانية الحياة في هذا العصر بدونها :

وهذا مكمن خطر جائح، وتحدٍّ جوهري، يواجه الأمة الإسلامية المعاصرة في معركتها الراهنة مع أعدائها، ومحاولتها توكيد ذاتها، وشق طريقها، نحو بناء حضارة إسلامية متميزة تختلف عن الحضارة الغربية، في أصولها ومناهج حياتها وغاياتها، اختلافاً أصيلاً.

لقد نجح أعداؤنا في أن يضعونا في مفترق الطرق بين اختيار التبعية المطلقة لهم، ظاهرة أو مقنعة، واللهث وراء حضارتهم، وبين اختيار المواجهة

الذاتية لمأساة واقعنا المتخلف، بعد أن نجحوا في إغراقنا بكماليات المدنية العصرية المبهرة المتجددة بلا توقف، حتى لم يعد البعض يتصور إمكانية الحياة بدون سياراتهم، وتلفازهم، والكترونياتهم. كما نجحوا عبر سنين الاحتلال العسكري والغزو الفكري والحضاري، في إفقارنا وتحويلنا إلى أسواق رائجة لاستهلاك ما تنتجه مصانعهم بخاماتنا، وربما بأموالنا كذلك، بعد أن تأكد لهم عدم قدرتنا على الاستغناء عن صادراتهم، وتركونا بعد لأنفسنا نمضي في الطريق الذي رسموه لنا إلى النهاية الفاجعة.

واقع أليم ومؤسف حقاً، ونحن فيه يناهز تعدادنا قرابة ألف مليون مسلم، ولكننا نبدو وكأننا غثاء السيل لا خير فيه، وما ذلك إلا لضعف سلطان العقيدة في نفوسنا، وغلبة حب الدنيا علينا، وكراهية الموت، وتفرق جمعنا، وركون إلى أعدائنا، وكأننا عدنا منذرة وغساسنة يتقسمنا الشرق والغرب، مما تأباه علينا عزة ديننا ووحدة أمتنا.

ولكن الأمل مع ذلك معقود على شبابنا المسلم المعاصر، بنقاء فطرته وقوة شكيمته، وطموح عزيمته، في تحطيم هذه الحلقة الخبيثة التي أحكمت حول رقابنا نحن الأجيال المولية.. ومن كان أقدر على الاستغناء كان أقدر على العطاء والإغناء.. وما لا نطيقه نحن يطيقه جيل من شبابنا المسلم، مؤمن بدينه حق الإيمان، يتغنى بالجهاد في سبيل الله، لا بالأغاني المخنثة التي تطلق الإذاعات سمومها القاتلة دون حساب، ولا يفسد نفوسهم التعلق بجمع المال ومتع الحياة وترفها، وإنما تتوق نفوسهم لنصرة دينهم وإعزاز أمتهم، واستنقاذ مقدساتهم، وهم يصرخون في معارك فاصلة يتأهبون لها : « وإسلاماه ». « هبي ريح الجنة »...

ولا يفهم من ذلك أننا ندعو المسلمين عامة والشباب المسلم خاصة إلى رفض المعطيات الحضارية الحديثة، التي دخلت في كل بيت وفي حياة أكثر الناس، من الآليات المتطورة التي تسهل الحياة اليومية وتوفر الجهد والوقت، فهي من متاع الحياة الدنيا المباح. ولا ندعو الشباب إلى مفارقة العصر والتقوقع على نفسه، ولكن الذي ندعو إليه هو عدم التعلق بها تعلقاً يحولها من كونها أسباباً حياتية إلى أن تكون غاية في ذاتها، نكدح من أجل

توفيرها، أو تكون انغماساً في الترف المادي الذي يرفضه الإسلام، بحيث لا نؤثرها على ما هو أوجب منها، مما قد يطلبه منا موقفٌ نقفه من أعدائنا، يستلزم الاستغناء عن بعض هذه الوسائل المادية أو إنفاق أثمانها في سبيل الله، إن ظل هؤلاء الأعداء على عداوتهم وبغيهم.

الباب الرابع

منهج التغيير، ومعالم الطريق إلى عز الدين

وحضارة الإسلام من جديد

أولاً : حقائق في الموضوع :

١ ـ الحركات الإسلامية المعاصرة :

منذ أكثر من ستة قرون، وبينما كان العالم الإسلامي آنذاك يتعرض لنكبات الغزو التتاري، وعوامل الضعف والتأخر بدأت تفعل فعلها في كيان الأمة الإسلامية، فجر الفقيه المجتهد الثائر « ابن تيمية » المتوفى سنة ٧٢٨ هـ، أول دعوة إصلاحية سلفية لتنقية العقيدة الإسلامية مما شابها من انحرافات وبدع، ورد ضعف المسلمين وتدهور أحوالهم إلى ما أصاب العقيدة الإسلامية الصحيحة من هذه الآفات التي شابتها، ودعا الأمة إلى العودة إلى كتاب الله وسنة رسوله، دفعاً لهذا الفساد وطريقاً إلى الإصلاح.

ومن هذه الشرارة التي أشعلها « ابن تيمية » ولدت الحركات الإصلاحية الدينية الكبرى، وتتابعت بلا توقف حتى يومنا هذا، وسيكون لها

ما بعد ذلك مما ستثبته الأيام، بحول الله وقوته، من تمكين للدين وعزة للمسلمين.

وقد كانت الحركة الإصلاحية السلفية التي جاءت بعدها بأربعة قرون بعثاً لسابقتها، ودفعاً بها إلى نقطة تحول سياسي وجهاد إسلامي في تاريخ الدعوة الإسلامية عبر قرون طويلة من الضعف والاستخذاء على يد إمام الدعوة الوهابية الشيخ محمد بن عبد الوهاب في القرن الثاني عشر الهجري. أقام دعوته على نفس الأصول التي أقام عليها « ابن تيمية » دعوته، فوجه عنايته إلى تنزيه عقيدة التوحيد مما شابها في عصور التأخر من بدع وخرافات، وحرم الترف والتأنق في الملبس والمأكل، وأعلن الحرب على كل مظاهر الفساد في الأمة، وقيض لدعوته فرصة النجاح على يد أشراف آل سعود، فدانت لها الجزيرة العربية بحد السيف، وانقطعت صلتها بالدولة العثمانية، التي لم تلبث أن سقطت في أعقاب الحرب العالمية الأولى، وتحولت على يد مصطفى كمال إلى دولة علمانية.

وقد تأثر بها دعاة الإصلاح الديني في العالم العربي والإسلامي فيما بعد خلال القرنين الأخيرين، وعمت فائدتها في إيقاظ المسلمين بفضل هؤلاء الدعاة الذين يضيق المقام عن ذكر جهودهم ونتائج هذه الجهود، **وإليهم جميعاً، بعون من الله، تعزى أهم أسباب تعاظم قوة الإسلام** والمسلمين في العقود الثلاثة الأخيرة ودخولهم في مرحلة جديدة حاسمة في وقتنا الراهن فكرياً وحضارياً.

وما لقاءات الندوة العالمية للشباب الإسلامي، وجهودها المثابرة في نشر الدعوة وإعداد الأجيال الجديدة لتحمل تبعاتها، في هذه المرحلة التي تستهدف وحدة الأمة الإسلامية تحت راية القرآن والسنة، إلاّ ثمرة من ثمار الشجرة المباركة التي وضع « ابن تيمية » بذرتها، واستنبتها في واقع الحياة خلفه الإمام « محمد بن عبد الوهاب »، ورعاها من تبعهما بإحسان من قادة الإصلاح الديني ودعاة الإسلام في العالمين العربي والإسلامي. وقد شهدت الخمسون سنة الأخيرة من هؤلاء، من لقى ربه شهيداً في سبيل الدعوة إلى الإسلام والحكم بالقرآن، وقد أسس أوسع حركة إصلاحية دينية

انتشاراً في عالمنا المعاصر.

حقاً، إن العمل الإسلامي المخلص نهر لا يتوقف جريانه، وهو بالغ أمره لقوله تعالى: « ولينصرن الله من ينصره، إن الله لقوي عزيز ».[1]

٢ ـ قاعدة قرآنية: « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »:

إن التغيير الجذري الذي تريده الأمة الإسلامية لنفسها، ويعمل له دعاة الإسلام، ينقلها من حال الضعف والتخلف التي هي عليه من قرون خلت، إلى حال القوة والوحدة والترقي الحضاري، متطلعة إلى تغيير ما بالنفوس والعقول والقلوب في الأفراد من علل الضعف والتأخر، قبل أن يكون في الأوضاع الخارجية التي يراد تغييرها من حال إلى حال آخر. فما لم ننجح في تغيير النفس في الفرد لن نحرز نجاحاً في تغيير الوضع الخارجي. ولذلك كانت مهمة الإسلام الكبرى في العهد النبوي، منصبة على إعداد الفرد المسلم وتربيته على الإسلام، ليكون لبنة صالحة فيما بعد لبناء الأمة والدولة. فالوهن الذي أصاب الأمة في عصور متأخرة، سبقه وهن في داخل نفس الفرد المسلم نجم عنه الوهن في الخارج، فما لم ينصب العلاج على مصدر الداء، لن يجدي الدواء.

وهذه قضية تهم الدعاة وقادة الإصلاح الإسلاميين في توجيه نشاطاتهم ورسم مخططاتهم، وما أحراها أن تكون محل عناية كبيرة في هذا اللقاء، وأن تعالج قضية تغيير الفرد من ناحيتها العملية لا النظرية فحسب.

ولا زال الفرد هو نقطة البدء في إحداث التحولات الحضارية الكبرى في مسيرة التاريخ الإنساني، وقد كان دور الفرد المسلم في تاريخ نشر الدعوة الإسلامية في أرجاء العالم الوثني، وبين سكانه من أهل الأديان الأخرى، في القرون التي تلت نزول القرآن وقيام أمته ودولته، دوراً فذاً لا نظير له في تاريخ الأديان والحضارات، وكان غالباً ما يكون أحدهم تاجراً أو جندياً في دولة ما، أو موظفاً في حكومتها، فإن هؤلاء الأفراد المسلمين في مواقعهم بين الكفار وأهل الديانات الأخرى كانوا دعاة من الطراز الأول، تحول على أيديهم ملوك،

---

(١) سورة الحج آية ٤٠.

وقبائل، وممالك إلى اعتناق الدين الإسلامي، وعملوا بدورهم عل نشر الإسلام في هذه البلاد النائية في حماس لا نظير له.

وفي كتابات المبشرين المسيحيين، الذي أرخوا لتاريخ نشر الدعوة الإسلامية، اعترافات صريحة بأهمية الأعمال التي قام بها التجار المسلمون في الصين والهند والملايو وروسيا وأفريقيا وغيرها، عبر القرون الطويلة التي أعقبت ظهور الإسلام، إنها تسجل حقائق أذهلت العالم المسيحي ومراكز التبشير المسيحي في أوروبا، ولعلهم أرادوا من وراء تسجيلها تنبيه العالم المسيحي إلى خطر انتشار الإسلام في العالم بهذه السرعة المذهلة، وضرورة وضع هذه الحقيقة في الاعتبار عند واضعي المخططات الاستعمارية في الدول الكبرى قبل فوات الأوان.

وهذا « توماس أرنولد »، في كتابه « الدعوة إلى الإسلام »، يقول في معرض حديثه عن أساليب الدعاة في نشر الإسلام : « وإذا ما دخل الداعية المسلم، تاجراً كان أو معلماً أو جندياً أو عاملاً، قرية وثنية، فسرعان ما يلفت النظر بكثرة وضوئه، وانتظام أوقات صلاته، والعبادة التي يبدو فيها كما لو كان يخاطب كائناً خفياً. وإن ما يتحلى به من سمو عقلي وخلقي ليفرض احترامه والثقة به على الأهالي الوثنيين، الذي يبدي لهم في نفس الوقت استعداده ورغبته في مدهم بمزاياه ومعارفه السامية ».

ويقول « بليدن » : « وفي الحق يظهر أن الإسلام لم يعامل الفرد الأسود قط على أنه من طبقة منحطة كما كانت الحال، لسوء الحظ، في كثير من الأحيان في العالم المسيحي ».

ويقول « كراوفورد » عن هؤلاء الذين كانوا دعاة بطبيعة دينهم وأثرهم في تحويل الوثنيين وأهل الأديان الأخرى إلى الإسلام، في كلامه عن انتشار الإسلام في أرخبيل الملايو : « إنهم لم يقدموا على هذه البلاد غزاة كما فعل الأسبان في القرن السادس عشر، بل قدموا في زي التجار، واستخدموا كل ما لديهم من ذكاء أسمى ومدنية أزهر في سبيل نشر دينهم، أكثر من أن يكونوا قد استخدموا ذلك وسيلة لنفوذهم الشخصي أو لتنمية ثرواتهم ». ويقول « مونزلمجر » عن شخصية الفرد المسلم وعلاقته بدينه : « إن

المسلم داعية بطبيعته، وهو يقوم بالدعوة بجهده ولحسابه الخاصين ».

لقد أوردت هذه العبارات التي جاءت على ألسنة مجموعة من مؤرخي ومفكري العالم المسيحي، لما تحمله من دلالة على أهمية دور المسلم في نشر دعوته، والفضل ما شهد به الأعداء، ليدرك الفرد منا أين يقف الآن من أسلافه في أداء هذا الدور الذي ناطه الله بكل مسلم، حيث كنا نرى الداعية في زي تاجر لا التاجر في زي داعية.

٣ ـ العمل الإسلامي نية وجهاد :

ربما بدت إثارة هذا المعنى لفتة ساذجة، ولكنني أراها غير ذلك البته، وأعلق عليها أهمية خاصة، ونحن في زمان دخلت فيه الدنيا علينا من كل الأبواب وأصبحنا، فيما أرى، في حاجة إلى أن نصحح النية في كل قول وعمل يصدران عنا، تحرزاً من الشرك والرياء اللذين يدبان في النفوس دبيب النمل، وهو بعد تذكير وتحذير وليس اتهاماً أو إساءة ظن نهانا عنهما ديننا.

فإنه لن ينجح عمل إسلامي في بلوغ أهدافه القريبة أو البعيدة ما لم يتوفر للعاملين فيه صدق النية، والتجرد من الهوى، والقدوة الصالحة، والجهاد بالنفس والمال، مهما رصدت له أموال، وسخرت فيه من مهارات. إنه عبادة خالصة لله، وامتداد لرسالة النبي وسائر أنبياء الله صلوات الله عليهم وسلامه.

وصدق الله العظيم إذ يقول : « ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين ».[1]

٤ ـ العمل الإسلامي إحياء لواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

ووجه الارتباط بين العمل الإسلامي كواجب ديني، وبين واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أنهما مسئولية كل فرد مسلم نحو دينه ومجتمعه، أو هما وجهان لهذه المسئولية، في أدائها تقوية للدين في نفوس أبنائه، وتصحيح لمسار الأمة في الطريق الذي رسمه الله لها، وتمكين لدعائم الدولة الإسلامية.

---

(١) سورة فصلت آية ٣٣.

فالواجبان يستهدفان نشر العقيدة الإسلامية، واستقامة الأفراد والأمة على أمرهما، ومنع الزيغ والانحراف، ووقاية المجتمع مما قد يقع فيه أو يطرأ عليه من فساد.

وقد غفلت الأمة الإسلامية فترة من الزمن عن القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، اللهم إلّا في بلدان إسلامية محدودة وفي دوائر ضيقة، كانت فيما قبل تشمل الرقابة العامة على المجتمع في كل مجالات الحياة العامة، وكان لها نظامها ومحتسبوها المولون من قبل ولي أمر المسلمين، وهيبتها في الناس وحقها في التعزير في حدود اختصاصها، مما كان له أحسن الأثر في تأمين سلامة الفرد والمجتمع ورعاية مصالح الأمة وقوة الدولة.

وإن في نشاط العمل الإسلامي المتصاعد ما يحيي هذا النظام ويعيده على ما كان عليه في القرون المزدهرة بحكم الإسلام، بوصفه كما أسلفنا الوجه الآخر من مسئولية واحدة، كما أن في عودة نظام الحسبة، القائم على مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وازدهاره، دفعة كذلك للعمل الإسلامي، ففي قوة أحد الوجهين تقوية للآخر.

والله تعالى يقول : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ».(١)

وفي الدعوة إلى الخير إشارة إلى العمل الإسلامي، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إشارة صريحة إلى أهمية هذا الواجب، والربط بينهما في آية واحدة دلالة على ارتباطهما كما قدمنا.

وكان من نتائج غفلة الأمة عن هذا الواجب، أن عاقبها الله على غفلتها عنه بذهاب شوكتها وضياع حضارتها وتسليط أعدائها عليها، وهو بعد الواجب الذي يميز الله به هذه الأمة عن سائر الأمم، في قوله تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله »(٢)، كما ميز الدعاة من أفراده بقوله تعالى : « ومن أحسن قولاً ممن

---

(١) سورة آل عمران آية ١٠٤.

(٢) سورة آل عمران آية ١١٠.

دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين »[1].

ثانياً : دور القيادة والدعاة في العمل الإسلامي، وفي ميدان الشباب المسلم على وجه الخصوص :

١ ـ هو دور الداعية، ودور المربي، ودور المعلم، ودور الموجه، ودور المنظم ودور المحتسب، ولكل وظيفة من هذه الوظائف شروطها وصلاحياتها ورسالتها.. وهي في جملتها مهمة ثقيلة، ولكنها عظيمة الثمر كبيرة الأجر، وتتطلب من القائمين بها أن يكونوا على مستوى أدائها على وجهها، بتكوينهم الروحي والعقلي والنفسي، وبعلمهم الواسع، وبالقدوة الحسنة المؤثرة.

٢ ـ وهو دور كبير يحتاج إلى تفرغ ذويه، أو بعضهم على الأقل، لهذه المهمة الضخمة، حتى يتأتى للداعية دوام تعهد أبنائه وإخوته في الله الذين يقوم على أمرهم، والتعرف على مشاكلهم، ومعاونتهم في حلها والأخذ بيدهم في الطريق.

٣ ـ وهو دور المجاهد في سبيل الله الذي نذر نفسه للإسلام، فلا يعوزه الصبر على المتاعب، ولا تخطئه بشاشة الوجه مع المكاره، محتسباً جهده وماله وعمره عند الله، مؤثراً الآخرة على الدنيا، واعياً جيداً وصية رسول الله ﷺ لكل مسلم : « من مات ولم يغز ولم ينو الغزو مات ميتة جاهلية ».

ثالثا : دور الشباب المسلم في العمل الإسلامي :

١ ـ دور التأسي برسول الله ﷺ وبأصحابه ـ رضوان الله عليهم ـ في حمل أمانة الدعوة الإسلامية في هذا العصر، عقيدة وعبادة، ومنهج حياة، وحركة، وجهاداً في سبيل الله حتى يظهر الله دينه أو نهلك دونه.

وعليهم أن يعدوا أنفسهم لهذا الأمر من كافة الجوانب، وأن يوطنوا أنفسهم على الصبر على المكاره، واحتساب الأجر عند الله.

---

(١) سورة فصلت آية ٣٣.

٢ ـ دور الريادة العلمية والثقافية بين الشبيبة خاصة والأمة كافة، فالعلم بكل فروعه التخصصية، وخاصة العلوم التطبيقية، هو من أخطر أسلحة هذا العصر التي يفتقر إليها العالم العربي والإسلامي، في مواجهة تحديات أعدائه وتفوقهم فيه بمسافة طويلة. فالأمة الإسلامية في أمس الحاجة إلى نوابغ متخصصين، وخبراء عباقرة، من خيرة أبنائها المسلمين، من ذوي الغيرة على الدين والأمة، بقدر حاجتها إلى دعاة مخلصين واسعي الثقافة.

ولن نستطيع أن نواجه تيار الغرب إلّا بتيار أقوى منه، يرفعنا إلى مستوى علمهم المتقدم، وكفاءة اقتصادهم، إلى جانب البعد الروحي المفقود عندهم والذي تميزنا به.

إن وضوح هذا الهدف في تفكير شبابنا من النوابغ والمتخصصين، وتثبيته في نفوسهم، وربطه بعقيدتهم، أمر بالغ الأهمية في ضمان عوائد هذه العقول الممتازة أمام إغراءات الغرب التي تعمل على استقطاب الكفايات وحرمان العالم الإسلامي منها، والتي نشأت عنها ظاهرة « هجرة العقول »، وعلى العالم العربي والإسلامي أن يفكر طويلاً في وقفها، وأن يهيىء لها مناخاً علمياً وحياتياً مناسباً يحول دون هجرتها الاضطرارية.

٣ ـ دور الاستغناء بطاقاتهم الروحية القوية وتربيتهم الإسلامية العالية عن التهافت على « شيئيات » الحضارة الغربية المادية، فلا تتعلق بها هممهم وقلوبهم كما تعلقت بها نفوس أكثر الأجيال التي سبقتهم، من ضحايا فترة الوهن في الهمم والقلوب التي مرت بالمسلمين في عصور التمزق والتخلف، فعزلهم ضعف العقيدة عن مصادر القوة الحقيقية في الإسلام، وعن أصالتهم الفكرية والحضارية، وشغلوا بدنياهم عن أنفسهم وأخراهم.

وليس مؤدى ذلك، كما سبق أن قلت، العزلة عن حياة العصر، ولكن مؤداه الاستعلاء على الصغار، والبعد عن مواطن الفساد والانحراف، والتميز بالاستمساك بالدين، والاقتداء بسيرة النبي ﷺ، واتباع المنهج القرآني، والسنة النبوية، في كل قول وعمل.

رابعاً : منهج العمل الإسلامي :

١ ـ نشر الدعوة الإسلامية بين المسلمين وغير المسلمين، وتصحيح وتعميق « عقيدة التوحيد الخالص » والوعي الإسلامي.

٢ ـ تعميق وتوسيع معنى « الأخوة في الله » بين الشبيبة الإسلامية خاصة والأمة عامة.

٣ ـ نصرة الإسلام، وشد أزر المسلمين في كل مكان، بالمال والنفس، حسب خطة وأولويات تقدر بالدراسة.

٤ ـ نشر الوعي بالمتغيرات السياسية العالمية، والمخططات العدوانية ضد الإسلام والمسلمين.

ب) الوسائل :

١ ـ إقامة المعسكرات الصيفية والدورية لاستقبال الشباب المسلم من مختلف أقطار العالم، وفق مخططات مدروسة، مع توفير مختلف الإمكانات العلمية والثقافية والدينية والرياضية والتدريبية فيها، والأخذ بفكرة التوسع في هذا المجال الحيوي. فمثل هذه المعسكرات، هي بمثابة محاضن للتربية الإسلامية المتكاملة، ومصانع لإعداد الرجال والقيادات الجديدة المقتدرة.

٢ ـ تعميم « بيوت الشباب المسلم » في بلدان العالم الإسلامي، وفي الخارج، وتوفير كافة احتياجاتها على مستوى لائق، وتولي جهة مسئولة أمرها، على أن يوضع لهذا العمل مخططاته.

٣ ـ تنشيط حركة تبادل الزيارات والرحلات بين بلدان العالم العربي والإسلامي، لتوسيع دائرة التعارف، والحوار، وتبادل الرأي والخبرات، وتوثيق الصلات.

٤ ـ التوسع في سياسة تعليم اللغة العربية في البلاد الإسلامية التي لا تتكلمها، بوصفها لغة القرآن، واللغة المشتركة للتفاهم بين أكثرية المسلمين.

٥ ـ إصدار المطبوعات والمجلات والنشرات الإسلامية بمختلف اللغات.

٦ ـ تعميم استخدام الوسائل التعليمية (السمعية والبصرية) التي تخدم

شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها، وإنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون ». (يوسف ــ ٦٨) .

وهذا موسى عليه السلام يلتمس العلم. فنقرأ في سورة الكهف، « فوجد عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما. قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا. قال إنك لن تستطيع خُبْراً.
صابراً ولا أعصي لك أمراً ». (الكهف ٦٥ ــ ٦٩).

ونقرأ في القرآن المجيد عن داود وسليمان عليهما السلام ومدى العلم الذي علمهما الله : « وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم، وكنا لحكمهم شاهدين. ففهمناها سليمان، وكلاً آتينا حكماً وعلماً، وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير، وكنا فاعلين. وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم، فهل أنتم شاكرون ». (الأنبياء ٧٨ ــ ٨٠).

ويقص علينا القرآن المجيد من أخبار علم عيسى عليه السلام : « إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك، إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلاً، وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني، فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني، وتبرئ الأكمه والأبرص بإذني، وإذ تخرج الموتى بإذني، وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلّا سحر مبين ». (المائدة ــ ١١٠).

والعلم الكامل لله العلي الكبير، فهو العليم العلّام، ومن فضله تبارك وتعالى أن أذن لنا بالتعلم وأذن لنا من علمه، فالعلم والتعلم بفضله، فلنفرح بهذا، وعلينا أن نشكر ذلك.

فعلم الإنسان من الله : لنقرأ قوله تعالى : « وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم ». (البقرة ٣١ ــ ٣٢).

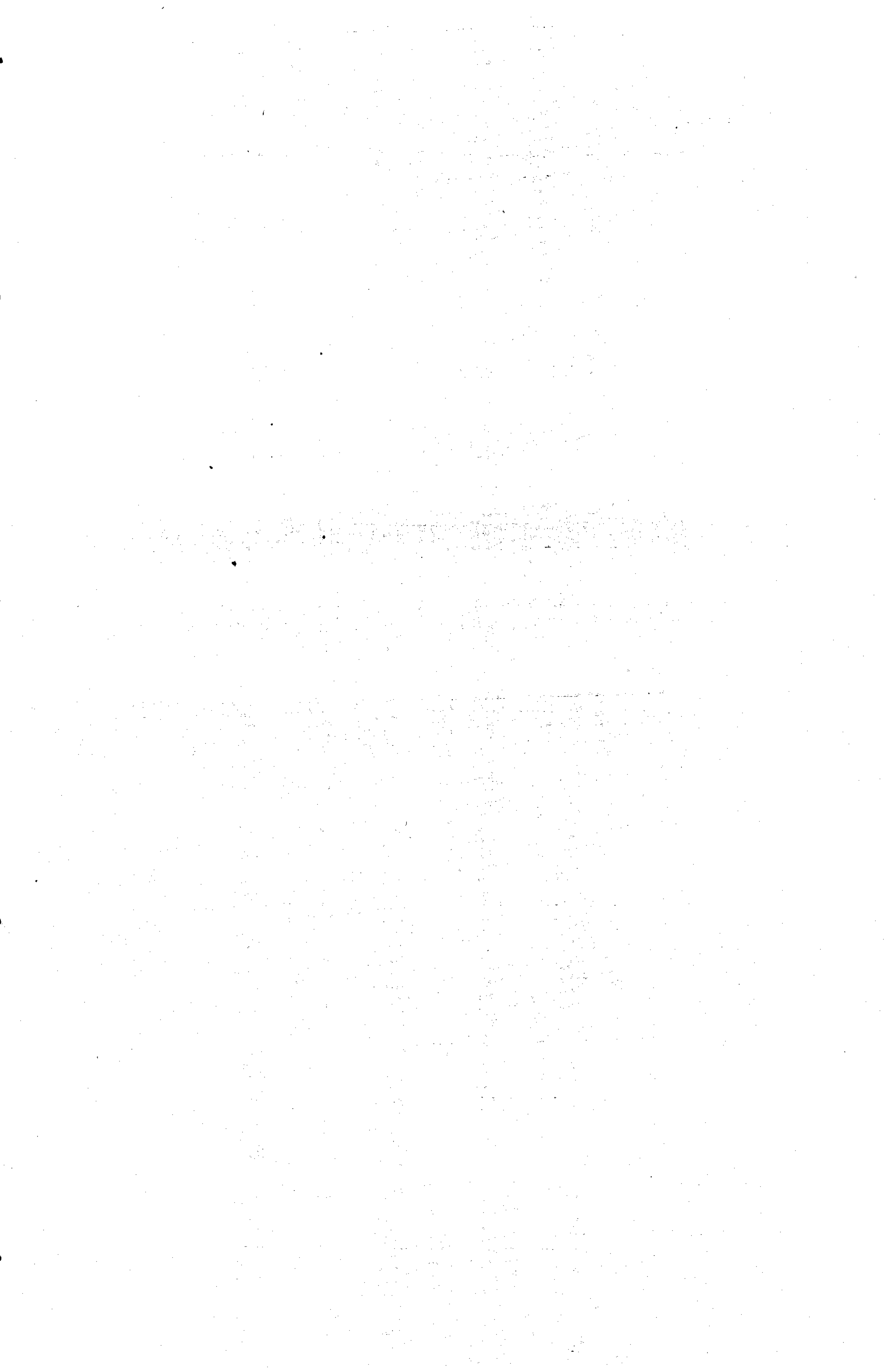
الأهداف المتوخاة.

٧ ـ توجيه بعض أنشطة الشباب في أداء أعمال نافعة في البيئات الإسلامية، مثل محو الأمية، والمكتبات المتنقلة، ونظافة الحواضر والمدن، وتجميلها، وعمارة المساجد.

والله ولي التوفيق ، وعليه قصد السبيل ...

من الأصول الإسلامية للعلم والتعلم

للدكتور محمد إسماعيل راشد
الأستاذ بكلية الهندسة - جامعة القاهرة



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أذن لنا بالتعليم وجعل العلم من فضله، فقال تعالى في سورة النساء، معدداً فضله على نبيه : « ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك، وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء، وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم، وكان فضل الله عليك عظيماً ». (النساء ــ ١١٣).

ونصلي ونسلم على خير البرية، أرسله ربه معلماً، فقال تعالى في سورة البقرة : « كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلوا عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ». (البقرة ــ ١٥١). صلى الله وسلم عليه وعلى رسله الكرام.

والعلم كله من الحق تبارك وتعالى.

فهذا يوسف عليه السلام يذكر من فضل الله عليه تأويل الأحاديث...
« ربِّ قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث، فاطرَ السموات والأرض أنت وليّ في الدنيا والآخرة، توفّني مسلماً وألحقني بالصالحين » (يوسف ــ ١٠١).

وهذا يعقوب عليه السلام يذكر الحق تبارك وتعالى فضله عليه بالعلم فنقرأ : « ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم، ما كان يغني عنهم من الله من

شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها، وإنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون ». (يوسف ـ ٦٨).

وهذا موسى عليه السلام يلتمس العلم. فنقرأ في سورة الكهف ، « فوجد عبداً من عبادنا أتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما. قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا. قال إنك لن تستطيع معي صبراً. وكيف تصبر على ما لم تحط به خُبّرا. قال ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً ». (الكهف ٦٥ ـ ٦٩).

ونقرأ في القرآن المجيد عن داود وسليمان عليهما السلام ومدى العلم الذي علمهما الله : « وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم قوم، وكنا لحكمهم شاهدين. ففهمناها سليمان، وكلاً أتينا حكماً وعلماً، وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير، وكنا فاعلين. وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم، فهل أنتم شاكرون ». (الأنبياء ـ ٧٨ ـ ٨٠).

ويقص علينا القرآن المجيد من أخبار علم عيسى عليه السلام : « إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك، إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلاً، وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني، فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني، وتبرىء الأكمة والأبرص بإذني، وإذ تخرج الموتى بإذني، وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلّا سحر مبين ». (المائدة ـ ١١٠).

والعلم الكامل لله العلي الكبير، فهو العليم العلاّم، ومن فضله تبارك وتعالى أن أذن لنا بالتعلم وأذن لنا من علمه، فالعلم بفضله، فلنفرح بهذا، وعلينا أن نشكر ذلك.

فعلم الإنسان من الله. لنقرأ قوله تعالى : « وعلم آدام الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبؤني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم ». (البقرة ٣١ ـ ٣٢).

ونقرأ في آية الكرسي قوله تعالى : « ..... ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ...... ». (البقرة-٢٥٥).

ونقرأ في سورة الملك قوله تبارك وتعالى : « قل إنما العلم عند الله، وإنما أنا نذير مبين ». (الملك ــ ٢٦).

ونقرأ في سورة غافر تسبيح الملائكة واستغفارهم للمؤمنين : « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا، ربنا وَسِعْتَ كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ». (غافر ــ ٧).

ويقرر القرآن المجيد هذا الأمر مرات ومرات، ولنقرأ على سبيل المثال قوله تعالى في ختام السورة التي ذكر فيها الطلاق « الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن، يتنزل الأمر ببينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً ». (الطلاق ــ ١٢).

والعلم بالنسبة لنا عريض وليس بعلم التوحيد فحسب وإن كان العلم بالله تبارك وتعالى بآياته وبأفعاله أشرف العلوم. فالقرآن المجيد حين يحدثنا عن علوم المادة وتطويعها يذكر لنا بعض تفاصيلها التقنية كأمثلة نستهدي بها حتى لا نغوى. لنقرأ قوله تبارك وتعالى « ولقد آتينا داود منا فضلاً، يا جبال أوبي معه والطير، وألنّا له الحديد. أن أعمل سابغات وقدّر في السرد واعملوا صالحاً، إني بما تعملون بصير. ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر، وأسلنا له عين القطر، ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه، ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير. يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات، اعملوا آل داود شكراً، وقليل من عبادي الشكور ». (سبأ ــ ١٠ ــ ١٣).

ولم التعلم ؟ وكيف نتعلم ؟ وما هذا الأمر الذي رفع الله تبارك وتعالى حملته حتى قرن شهادته مع شهادة ملائكته وشهادتهم في قوله تعالى : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط، لا إله إلا هو العزيز الحكيم ». (آل عمران ــ ١٨).

العلم جليل، كرم الله حملته أيما تكريم حتى يوم البعث، فأنطقهم

رداً على المشركين يوم تقوم الساعة، فنقرأ في سورة الروم : « ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة، كذلك كانوا يؤفكون. وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث، فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون ». (الروم ـ ٥٥ ـ ٥٦).

العلم الذي جعله الله من أسباب اصطفائه لبعض الناس. فقال تعالى منبئاً عن بني إسرائيل، ولم اختار الله طالوت ملكاً : « ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله، قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا، قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا، فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم، والله عليم بالظالمين. وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً، قالوا أنّى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعةً من المال، قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم، والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء، والله واسع عليم ». (البقرة ـ ٢٤٦ ـ ٢٤٧).

يرفع الله بالعلم أقواماً، ولنقرأ قوله تعالى : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات، والله بما تعملون خبير ». (المجادلة ـ ١١).

العلم الذي أمر الله نبيه أن يلتمسه بالدعاء : « فتعالى الله الملك الحق، ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه، وقل رب زدني علماً ». (طه ـ ١١٤).

ولكل امرئ منهاجاً. وذكر المنهاج في القرآن مع ذكر كتابه فقال تعالى : « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق، لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات، إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ». (المائدة ـ ٤٨).

فما المنهاج وما معالم الطريق الذي نسير فيه لكي نتعلم من ذلك العلم الذي أذن الله لنا بتعلمه. واننا حين نلتمس من القرآن المجيد ومن سنة

رسوله ﷺ منهاج التعلم فإنما نبغي الدين.

أول معالم المنهاج الإسلامي أن يكون التعلم والعلم لله تبارك وتعالى، لأن الأصل أن يكون كل عملنا لله، ولنستمع لقوله تبارك وتعالى : « قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم، ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً، وما كان من المشركين. قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين. لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ». (الأنعام ٢٦١ ـ ١٦٣).

وفضل التعلم كبير، وهذا هدى رسول الله ﷺ، فمما رواه أبو الدرداء قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من سلك طريقاً يبتغي به علماً سلك الله له طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء. وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب. إن العلماء ورثة الأنبياء. إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً إنما ورثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر ». ولنستمع هذا الحديث مع حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « من تعلم علماً لغير الله، إذ أراد به غير الله، فليتبوأ مقعده من النار ». ومع الحديث الذي رواه كعب بن مالك عن النبي ﷺ قال : « من طلب العلم ليجاري به العلماء أو ليجاري به الفقهاء أو يعرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار ».

ويهدينا حديث رسول الله ﷺ هذا إلى أمر آخر ألا وهو هدف التعلم. فالتعلم ليس مقصوداً لذاته، إنما مقصود به العمل النافع الذي يجلب النفع العام وبالتالي النفع الخاص. فقد يكون التعلم مذموماً إن قصد به الضرر والإضرار كما نقرأ في الآية : « واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان، وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت. وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر، فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه، وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله، ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم، ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق، ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون ». (البقرة ـ ١٠٢).

فهذا من العلم المذموم لأنه قصد به الإفساد. والإفساد بمعناه العام مذموم وأي ذم. ولنستمع سوياً لقوله تبارك وتعالى يصف فيمن يصف من تعلم واستغل علمه في تزيين الكلام وهو مفسد أيما إفساد : « ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام. وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل، والله لا يحب الفساد. وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم، ولبئس المهاد ». (البقرة ٢٠٤ ـ ٢٠٦).

وهذا قارون في قوم موسى يبغي على قومه إذ جمع ما جمع بعلمه فبغى على قومه فذهب مثلاً للمفسدين : « إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم، وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين. وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض، إن الله لا يحب المفسدين. قال إنما أوتيته على علم عندي، أَوَلَمْ يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً، ولا يُسْأل عن ذنوبهم المجرمون. فخرج على قومه في زينته، قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم. وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً، ولا يلقاها إلا الصابرون. فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله، وما كان من المنتصرين. وأصبح الذين تمنّوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر، لولا أن منَّ الله علينا لخسف بنا، ويكأنّه لا يفلح الكافرون. تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً، والعاقبة للمتقين. من جاء بالحسنة فله خير منها، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون ». (القصص ٧٦ ـ ٨٤).

وهكذا فإن مدخل المنهج الإسلامي أن يكون خالصاً لله تبارك وتعالى وأن يهدي إلى ما وضعه الله لنا من غايات. والإخلاص لله تبارك وتعالى في كل عمل هو مخ العبادة، وهي جوهر الإسلام، وهي تحقيق للآية الكريمة،

« وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » (الذاريات ـ ٥٦). وهذه العبادة في صورتها الشاملة حق الله على خلقه والتي يتحقق معها وعد الله. « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم آمنا، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ». (النور ـ ٥٥).

فما تفاصيل الهدف الذي ارتضاه الله للإنسان، وما صور العمل الذي يكون بالاخلاص فيه لله عبادة له. هذا أمر لا نحصيه ولا نقدر على معرفته كله، وكيف لنا بهذه المعرفة فهي الدين كله، وإنه لمتين، فليس لنا أن نوغل فيه إلا برفق كما نصحنا رسول الله ﷺ.

إن تعمير الأرض من أهداف الإنسان المسلم، يقول تبارك وتعالى حاكياً عن صالح عليه الصلاة والسلام، يوجه الحديث إلى قومه مذكراً إياهم بواجباتهم : « وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها، فاستغفروه ثم توبوا إليه، إن ربي قريب مجيب ». (هود ـ ٦١).

وإن مما تحمله هذه الآية من معان هي أن الاستعمار طلب العمارة، والطلب المطلق من الله تعالى على الوجوب، أي أن الله جل شأنه خلق الإنسان لعمارة الأرض، فيسر لنا ذلك بالعلم والعمل، وألهمنا عمارتها من الحرث والغرس وحفر الآبار وغير ذلك من بناء ومصانع. وقد ذكرت ثمود وما عمرت في آيات أخرى. « كذبت ثمود المرسلين * إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون * إني لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين * أتتركون في ما ها هنا آمنين * في جنات وعيون * وزروع ونخل طلعها هضيم * وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين * فاتقوا الله وأطيعون * ولا تطيعوا أمر المسرفين * الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون * قالوا إنما أنت من المسحَّرين * ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين * ». (الشعراء ـ ١٤١ ـ ١٥٤).

ومع تكليف الله الإنسان عمارة الأرض جعل تلك العمارة من عبادته.

كرم الله الإنسان أيما تكريم أن جعله خليفته على أرضه ويسر له ذلك ومكنه منها. قال تعالى : « وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك، قال إني أعلم ما لا تعلمون. وعلّم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم. قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم، فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ». (البقرة ـ ٣٠ ـ ٣٣).

وهذا الصالح ذو القرنين، حينما وصل بين السدين وطلب منه أهلها أن يقيم سداً يمنع عنهم إفساد يأجوج ومأجوج، يرد عليهم ذاكراً فضل الله عليه في أمور التمكين في عمارة الأرض، فنقرأ قوله تعالى : « حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولاً. قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض، فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً. قال ما مكني فيه ربي خير فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردماً. آتوني زبر الحديد، حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا، حتى إذا جعله ناراً قال آتوني أفرغ عليه قِطْراً. فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً. قال هذا رحمة من ربي، فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقاً ». (الكهف ـ ٩٣ ٩٨).

فما هي الأصول للتمكن من عمارة الأرض.

لنلتمس ذلك في القرآن المجيد الذي هو كتاب هداية للعالمين.

أول هذه الأصول **إيمان بالغيب** بعد الإيمان بالله.

افتتح الله سبحانه وتعالى كتابه المجيد بسورة الفاتحة، أمّ الكتاب، فيها اعتراف لله بالملك والتماس الهداية منه. وتأتي، بعد سورة الفاتحة، السورة التي ذكرت فيها البقرة، وفي مطلعها نقرأ :

« الم. ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين. الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ». (البقرة ـ ١ ـ ٣).

والإيمان بالغيب، رغم ما يثار حوله من أمور، فهو أصل من أصول الفكر العلمي. فالعلم به ليس أمر قطعي اللهم إلا القطع بوجود حقائق. أما وصف هذه الحقائق وتقنينها فهو أمر بعيد كل البعد عما يصفه رجال العلم. يعترف بذلك أهل العلم، فهم على بينة من أن وصفهم قاصر لقصور وسائل الحس ولنقص في طاقة أدوات القياس.

فالحقيقة قائمة، ولكن رؤيتنا لها ناقصة. وصورتها الذهنية لدينا أقل وضوحاً. وتجريدنا للصورة الذهنية يزيد من تشويهها. وبذلك تأتي النظرية بعيدة كل البعد عن الحقيقة.

وكل ما يمكننا أن نصف به النظريات العلمية أنها الوصف المشوه للتجريد في الصور التي تشوه الحقائق.

قد تقترب النظرية ونتائجها من إحساسنا بالحقائق، ولكنها لا يمكن أن تصف الحقائق وصفاً كاملاً دقيقاً.

ولنضرب مثلاً : قال الأقدمون إن الماء والتراب والهواء والنار هي أصول المادة. ثم جاء من أحدث منهم فقالوا بالذرة، وأنها الجزء الذي لا يتجزأ، ثم جاء متأخرون فقالوا بالنواة والكهارب، ثم جاء بعدهم من يقول بجسيمات أصغر فأصغر. ويتغير القول وسيتغير الوصف ولن نصل إلى كنه المادة. إن وصفها غيب وكنهها غيب، فإن كفر من كفر بالغيب فلعله المعني بقوله تبارك وتعالى : « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه، والله سريع الحساب ». (النور : ٣٩).

حقائق الدنيا غيبٌ وصفت أَجمل وصف تقبله عقولنا الضعيفة في قوله تعالى : « أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب، ظلمات بعضها فوق بعض، إذا أخرج يده لم يكد يراها، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ». (النور : ٤٠).

ولنضرب مثلاً آخر. قوانين الحركة التي صاغها نيوتن ظلت حقبة طويلة من الزمن مضرب المثل في الدقة حتى جاء اينشتين وفسر بعض التعارض في المشاهدات بتعديل قوانين الحركة، ولكنه جاء بأمر أشد غرابة إذ

جعل من سرعة الضوء ــ وهي محدودة ــ جعل منها حداً أعلى لما يمكن أن تصل إليه سرعة. أمر لا يقبله. فلم لا تزيد السرعة على سرعة الضوء ؟ لا يمكن الجزم بلا. ولكن يمكن الجزم بأننا لا ندري ما الحدث عندئذ.

في الماضي كانوا لا يعرفون من الحرارة إلا ما تولد عن تفاعلات كيميائية. وسنجد أهل الكيمياء في الماضي من الذين قالوا كيف يتحدث الأنبياء عن نار جهنم وأنها أشد من نار الدنيا وقدموا حساباتهم وتجرأوا على الشمس وقدروا حرارتها بحوالي أربعة آلاف١درجة مئوية. وسخر الله منهم إذ جاء من بعدهم وقدروا عن درجات حرارة أشد وأعظم، إذ عرفوا عن الانشطار الذري والاندماج الذري، وأعادوا حساباتهم على الشمس فقدروا حرارتها بالملايين.

أي عالم أو متعلم يحاول سبر غور المعرفة يجد نفسه وقد عجزت حتى عن الوصف البسيط وصدق الله العظيم : « تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير. الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً، وهو العزيز الغفور. الذي خلق سبع سماوات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت، فارجع البصر على ترى من فطور. ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير ». (الملك : ١ ــ ٤).

الأصل الثاني هو الإيمان بإرادة الله **إذ أن مما خلق خلقه لمستقر**

وهنا يجب أن نفرق بين أمرين، الأمر اللحظي والأمر المستمر. أو بين الحالة اللحظية والحالة المستمرة. وأن عمر الإنسان لقصير القصر الخادع. فيتصور الحالة اللحظية حالة دائمة مستمرة مستقرة، لأن معدل التغير مع الزمن غير* محسوس. إننا بالنسبة للمرئي من العالم فإنما نرى الماضي والماضي السحيق. فحين ينظر الإنسان إلى السماء بنجومها فانما يرى ماضيها غير المتزامن والتي أرسلت صورته عبر الملايين والملايين من السنين. أما ماضيها غير المرئي وحاضرها ومستقبلها، فهو من أمر الغيب. ووقع الإنسان في خطأ فادح حين عمم ما كان عليه أن يقصره لحدوده الصغيرة. ولنتصور الحدود الصغيرة للإنسان حين نتصور أن حجمه قد صغر حتى تمكن من العيش على كهرب من الكهارب، وأن عمره قد صغر حتى

دنا من سبعين دورة لكهرب حول نواته. فماذا يرى. سيرى شمساً هي النواة، وسيرى سيارات هي الكهارب وسيرى... وما عمره وعمر أجداده في هذه الحالة إلا لحظة صغيرة، صغراً لا نقدر على قياسها بالنسبة لما نقيس نحن من أوقات.

وهكذا أصل إلى ما أريد أن ما نبتدعه من علم ونظريات إنما هو التشبيه العقلي للصورة الذهنية لما انطبع على إحساساتنا من آثار الحقائق. إنه، أي هذا التشبيه العقلي، لا يمكن أن يكون الحقيقة بعينها، بل هو بعيد كل البعد عنها. (وأن ما لدى العلماء هو الخلط بين الحقائق التي هي غيب ديني بتشبيهاتهم العقلية).

ولنقرأ الوصف الجميل الذي يهدينا إلى أن هناك فرقاً بين ما نرى وبين الحقيقة : « وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب، صنع الله الذي أتقن كل شيء، إنه خبير بما تفعلون ». (النمل : ٨٨). « وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود، ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد، لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً ». (الكهف : ١٨). « تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم، إنه كان حليماً غفوراً » (الاسراء : ٤٤).

المصيبة الكبرى هي استغلال المنطق العلمي للضلال ولإضلال الناس فها هو موسى عليه السلام يدعو ربه : « وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا، ربنا ليضلوا عن سبيلك، ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم. قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون ». (يونس : ٨٨ ــ ٨٩).

الأصل الثالث هو أن **كل شيء بقدر معلوم** :

لنستهدي القرآن المجيد فيما ذكر فيه التقدير والحساب. « قل أئِنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً، ذلك رب العالمين. وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء

للسائلين. ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً، قالتا أتينا طائعين. فقضاهن سبع سموات في يومين، وأوحى في كل سماء أمرها، وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا، ذلك تقدير العزيز العليم ». (فصّلت : ٩ ــ ١٢).

« وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون. والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم. والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم. لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون ». (يـٓس : ٣٧ ــ ٤٠).

ونقرأ سورة الرحمن فيبرز لنا هذا المعنى :

« الرحمن. علم القرآن. خلق الإنسان. علمه البيان. الشمس والقمر بحسبان. والنجم والشجر يسجدان. والسماء رفعها ووضع الميزان. ألا تطغوا في الميزان. وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ». (الرحمن : ١ ــ ٩).

وتستمر سورة الرحمن تبرز هذا المعنى فيما تبرز وتكرر القول : « فبأي آلاء ربكما تكذبان ». ولعل ذلك ليستقر المعنى في القلوب وهذا من فضله.

ونقرأ في سورة الأنعام اتساق الخلق ونظامه :

« إن الله فالق الحب والنوى، يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي، ذلكم الله فأنى تؤفكون. فالق الإصباح، وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسبانا، ذلك تقدير العزيز العليم. وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون. وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع، قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون. وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباًمتراكباً، ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون، والرمان مشتبهاً وغير متشابه، انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه، إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ».

وتستمر الآيات لتنعي على الكفار ما ابتدعوه من شرك وكفر :

« وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم، سبحانه وتعالى عما يصفون. بديع السماوات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة، وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم. ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل. لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير. قد جاءكم بصائر من ربكم، فمن أبصر فلنفسه، ومن عمي فعليها، وما أنا عليكم بحفيظ. وكذلك نصرف الآيات وليقولوا درست ولنبينه لقوم يعملون ». (الأنعام : ٩٥ ــ ١٠٥).

ونقرأ في سورة الرعد من مطلعها تعدد آيات الله :

« المر، تلك آيات الكتاب، والذي أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون. الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر، كل يجري لأجل مسمى، يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون. وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون. وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد، ونفضل بعضها على بعض في الأكل، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون. وإن تعجب فعجب قولهم أإذا كنا تراباً أإنا لفي خلق جديد، أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال في أعناقهم، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون. ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات، وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم، وإن ربك لشديد العقاب. ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه، إنما أنت منذر ولكل قوم هاد. الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد، وكل شيء عنده بمقدار. عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ». (الرعد : ١ ــ ٩).

الأصل الرابع أن **الوسيلة للعلم هي من آيات الله وهدايته**

كيف تعلمنا قواعد الحساب، ويقول الحق تبارك وتعالى في سورة يونس : « هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد

السنين والحساب، ما خلق الله ذلك إلا بالحق، يفصل الآيات لقوم يعلمون ». (يونس ـ ٥).

ونقرأ في سورة الأنعام : « وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ». (الأنعام ـ ٩٧).

وما نعرف من القواعد إلا نتيجة للمشاهدة وتكرار المشاهدة ودرس هذه المشاهدات :

الأصل الخامس هو أن الله سخر لنا من خلقه ما ييسر لنا ما خلقنا لـــه :

نقرأ في سورة إبراهيم :

« الله الذي خلق السماوات والأرض، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم، وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار. وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار. وآتاكم من كل ما سألتموه، وإن تعدوا نعمت الله لا تحصوها، إن الإنسان لظلوم كفار ». (إبراهيم : ٣٢ ـ ٣٤).

ونقرأ كذلك :

« والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون. ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون. وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس، إن ربكم لرؤوف رحيم. والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة، ويخلق ما لا تعلمون. وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ، ولو شاء لهداكم أجمعين. هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون. ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات، إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون. وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون. وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه، إن في ذلك لآية لقوم يذكرون. وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها، وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون. وألقى في الأرض رواسي أن

تميد بكم وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون. وعلامات، وبالنجم هم يهتدون. أفمن يخلق كمن لا يخلق، أفلا تذكرون. وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها، إن الله لغفور رحيم ». (النحل : ٥ ـ ١٨).

ونقرأ كذلك ..

« الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون. وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ». (الجاثية : ١٢ ـ ١٣).

هذه أصول فما هي الوسائل..

أول الوسائل **الرؤية والسير والنظر بشمولهم..**

وصلى الله وسلم على أبينا إبراهيم، « وإن من شيعته لإبراهيم. إذ جاء ربه بقلب سليم. إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون. أئفكا آلهة دون الله تريدون. فما ظنكم برب العالمين. فنظر نظرة في النجوم. فقال إني سقيم. فتولوا عنه مدبرين ». (الصافات : ٨٣ ـ ٩٠).

ونقرأ كذلك..

« أَوَلَمْ يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده، إن ذلك على الله يسير. قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة، إن الله على كل شيء قدير ». (العنكبوت : ١٩ ـ ٢٠).

ونقرأ كذلك..

« وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى، أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم، ولدار الآخرة خير للذين اتقوا، أفلا تعقلون ». (يوسف : ١٠٩).

« أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج. والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج. تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ». (ق : ٦ ـ ٨).

« قتل الإنسان ما أكفره. من أي شيء خلقه. من نطفة خلقه فقدره.

ثم السبيل يسره. ثم أماته فأقبره. ثم إذا شاء أنشره. كلا لما يقض ما أمره. فلينظر الإنسان إلى طعامه. أنا صببنا الماء صبا. ثم شققنا الأرض شقاً. فأنبتنا فيها حباً. وعنباً وقضباً. وزيتوناً ونخلاً. وحدائق غلبا. وفاكهة وأباً. متاعاً لكم ولأنعامكم ». ٩عبس : ١٧ ـ ٣٢).

السبيل الثاني ـ **التفكر والتعقل**

في إحدى آيات القرآن طلب صريح بالتفكير، ففي سورة سبأ نقرأ قوله تعالى : « قل إنما أعظكم بواحدة، أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة، إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد » (سبأ ـ ٤٦).

ومدح الحق تبارك وتعالى المتفكرين في خلقه : « إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب. الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، ويتفكرون في خلق السماوات والأرض، ربنا ما خلقت هذا باطلاً، سبحانك فقنا عذاب النار ». (آل عمران ـ ١٩٠ ـ ١٩١).

« وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون. ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا، يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس، إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون ». (النحل : ٦٨ ـ ٦٩).

« وله الحمد في السماوات والأرض وعشَيا وحين تظهرون. يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحيي الأرض بعد موتها، وكذلك تخرجون. ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون. ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون. ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم، إن في ذلك لآيات للعالمين. ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله، إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون. ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزِّل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون. ومن آياته ان تقوم السماء والأرض بأمره، ثم

إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون. وله من في السماوات والأرض، كل له قانتون. وهو الذي يبدؤ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه، وله المثل الأعلى في السماوات والأرض، وهو العزيز الحكيم. ضرب لكم مثلاً من أنفسكم، هل لكم من ما ملكت ايمانكم من شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم، كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون ». (الروم : ١٨ ـ ٢٨).

ونعى الحق تبارك وتعالى على أقوام لا يستخدمون فكرهم ولا عقولهم، فقال في سورة الأعراف : « **ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس، لهم** قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، **أولئك** كالأنعام **بل هم أضل، أولئك هم الغافلون** ». (الاعراف : ١٧٩).

وفي نفس السورة نقرأ ..

« والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون. وأملي لهم إن كيدي متين. أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة، إن هو إلا نذير مبين. أَوَلَمْ ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم، فبأي حديث بعده يؤمنون ». (الأعراف : ١٨٢ ـ ١٨٥).

الوسيلة الثالثة هي **الكتابــة**.

ولعل خير ما ينبيء عنها ما استفتح به الوحي..

« اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم ». (العلق : ١ ـ ٥).

والكتابة، كما يقول المفسرون، عين من العيون، بها يبصر الشاهد الغائب.

والكتابة تعطي المرء الفرصة للتفكر وللتعقل..

ومن فضل الكتابة أن أقسم الله بالقلم في سورة ن.

« ن والقلم وما يسطرون ». (القلم ـ ١).

الوسيلة الرابعة هي **الصبر والمصابرة**.

ونذكر هنا قصة موسى عليه السلام حين سافر يلتمس التعلم..

« وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقبا. فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سربا. فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا. قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره، واتخذ سبيله في البحر عجبا. قال ذلك ما كنا نبغ، فارتدا على آثارهما قصصاً. فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما. **قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشداً. قال إنك لن** تستطيع معي صبراً. وكيف تصبر على ما لم تحط به خُبْرا. قال ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمركا. قال فإن اتبعتني فلا تسئلني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً ». (الكهف : ٦٠ ــ ٧٠).

وآخر وسيلة أذكرها **الإحسان.**

فمما رواه الخمسة حديث شداد بن أوس رضي الله عنه قال : اثنان حفظتهما عن رسول الله ﷺ قال : « إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته ». وهذا كحديث رسول الله ﷺ « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه ».

وأختتم كلامي بهدي من كلم رسول الله ﷺ حول العلم والتعلم :

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال، سمعت رسول الله ﷺ يقول : من سلك طريقاً يبتغي به علماً سلك الله له طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع اجنحتها رضاء لطالب العلم. وإن العَالِمَ ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء. وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب. إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً إنما ورثوا العلم فمن أخذ به أخذ بحظ وافر ».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له ».

وعنه أن النبي ﷺ قال: « إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته، علماً علمه ونشره، وولداً صالحاً تركه، أو مصحفاً ورّثه، أو مسجداً بناه، أو بيتاً لابن سبيل بناه، أو نهراً أجراه، أو صدقة أخرجها من **ماله في صحته وحياته تلحقه من بعد موته** ».

وأختتم محذراً نفسي وإياكم من الرياء أو من سوء النية، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ ـ قال الله تبارك وتعالى: « **أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته** وشركه ».

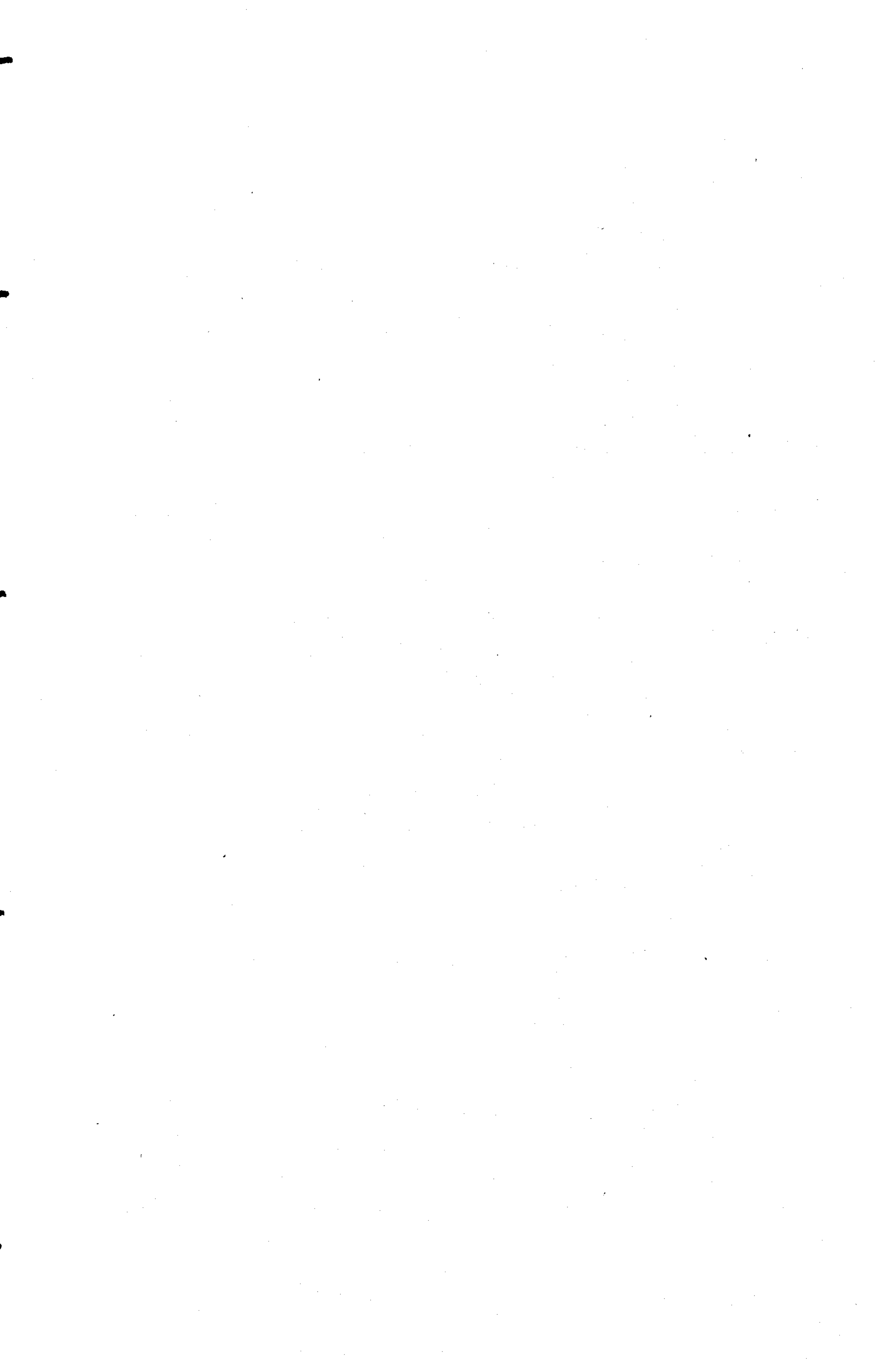
وعن أبي سعد بن أبي فضاله عن النبي ﷺ قال: « إذا جمع الله الناس يوم القيامة ليوم لا ريب فيه نادى مناد، من كان أشرك في عمل عمله لله أحداً فليطلب ثوابه من عند غير الله، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك ».

أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم، واسأله أن يتغمدنا برحمته، فلن ننال جنته إلا بها. وصلى اللهم وسلم على محمد عبدك ورسولك كما صليت وسلمت على إبراهيم إنك حميد مجيد..



النظرة الإسلامية
إلى الكون والإنسان والحياة

للأستاذ محمد المبارك رحمه الله
الأستاذ المستشار بجامعة الملك عبد العزيز سابقاً



بسم الله الرحمن الرحيم

النظرة إلى الكون

النظرة الإسلامية إلى الكون والوجود، إلى الحياة، إلى الإنسان، إلى الله، هذا الموضوع هو الموضوع الأساسي الذي عليه تقوم جميع الأبحاث الإسلامية، ذلك أن لكل دين من الأديان أساساً عقائدياً منه تنطلق سائر جوانبه، سواء قواعد الأخلاق أو تنظيم الحياة الاجتماعية، فإنها في كل دين ومذهب إنما تنبثق عن الأساس العقائدي وترتبط به وهي نتاج له. حتى أن المذاهب الوضعية البشرية إنما تقوم على أساس تصورها للوجود أو ما يسمى بالنسبة إلى المذاهب الوضعية فلسفتها، فلكل مذهب من المذاهب فلسفته التي ينظر من خلالها إلى الوجود.

هذا الأساس العقائدي، وهذه الأسس أو هذه التصورات التي من خلالها ينظر كل دين وكل مذهب إلى الوجود، ذو أثر عميق وقوي في جميع جوانب الحياة. فلو فرضنا أن انساناً يتصور أن الحياة مادية فقط، وأن ليس وراء الحياة حياة أخرى، فهو إذن سيبني أخلاقه وحياته الاجتماعية على هذا

الأساس. فالمذاهب الالحادية المادية التي تقول مثلاً : إن الإنسان مادة، وان حياة الإنسان هي هذه الحياة الدنيوية، ستنظر إلى الإنسان على أنه حيوان منتج يأكل ويشرب ويعمل وليس وراءه بعد ذلك شيء. فإذاً تصورها للإنسان وللحياة والوجود أدى إلى نتائج عملية. لو فرضنا مثلاً أبناء بلاد الهند، الهنود غير المسلمين، هؤلاء لو نظرنا اليهم وهم يقدسون أنواعاً من الحيوان كالقردة والبقر، فالقردة والبقر مقدسة عندهم، ولذلك فإن البقر لا يذبح، فكانت هنالك نتائج اقتصادية هامة، وهي أنه ليست فقط مئات الملايين من البشر تأكل وتشرب في القارة الهندية ؛ بل هنالك مئات الملايين من البقر تأكل وتشرب ولا يستفاد من لحمها لأنها مقدسة عندهم. فالنظرة إلى الوجود كله تؤثر في النظام الاجتماعي والنظام السياسي والنظام الإقتصادي والسلوك الأخلاقي.

فالسلوك الأخلاقي بالنسبة لإنسان يتصور أن الحياة حياة أخرى ومسؤولية، ليست كحياة من لا يؤمن بأن وراء هذه الحياة حياة أي : من يؤمن بأن الإنسان فيه عنصر رباني، ليس كمن يؤمن بأن هذا الإنسان هو وليد تطور قرد أوصله إلى هذه الصورة. شتان بين هذا وذاك، ليس فقط من الوجهة النظرية ؛ بل من وجهة النتائج العملية.

ولهذا فإن من المهم جداً أن نعرف النظرة الإسلامية إلى الوجود كله، هذه النظرة طبعاً نأخذها من مصدري الإسلام الأساسيين : القران كتاب الله، والسنة المفصلة لمجمله، المبينة له (لتبين للناس ما نزل اليهم). فمن هذين المصدرين سنأخذ هذه الصورة. هذا التصور عن الكون والإنسان، ذلك التصور الذي ينتهي بهذه النظرة إلى الله. أريد أن أقدم لكم نصاً يكون أساساً نستنبط منه من الآيات القرآنية هذه النظرة، ثم بعد ذلك نتوسع فيما يمكن أن نأتي به من الشواهد من الكتاب والسنة. وسألخص لكم في صورة مجملة ما سننتهي إليه وسنعود إليه حتى يكون للموضوع في جملته صورة واضحة في أذهانكم. بداية ثم بعد ذلك نهاية، ويكون التفصيل ما بين هذه البداية وهذه النهاية، وستجدون أن هذه الصورة تمثيلية، بعد أن أقرأ لكم الآيات التي أستشهد بها ـ مطابقة لما يمكن أن نستنتجه، وهذه

الصورة ستفيدكم لأنني سأقرنها بصورة أخرى تلخص لكم جميع فلسفات الدنيا القديمة والحديثة في ثلاثة أسطر. سألخص لكم من جهة في أحد هذه الأسطر وجهة النظر الإسلامية، وألخص لكم في سطرين آخرين جميع الفلسفات القديمة والحديثة. وإليكم هذه الصورة :

القرآن يخاطب الإنسان : يبتدئ بخطاب الإنسان، سواء خاطبه خطابا صريحا مباشرا (أفلا تنظرون)، (يا أيها الناس)، (يا أيها الإنسان)، أو جعله بصيغة الغائب، (يتفكرون في خلق السموات والأرض) أي : أن الإبتداء في الخطاب من الإنسان. هذا الإنسان يريد القرآن أن يوصله إلى الإيمان بالله، ومن أجل أن يوصله إلى الإيمان بالله سترون أنه سيجعله يمر بالكون وآياته. الإسلام يوصل الإنسان إلى الله، وإلى الإيمان بالله، وإلى عبادته بجميع أنواع العبادة التي شرعها.

وسترون أن هنالك فلسفات أخرى تجعل الإنسان يولي ظهره إلى الكون حتى يصل إلى الله ؛ فإما أن يؤمن بالله وإما أن يلتفت إلى الكون فيحصل عنده نوع من التناقض، فتصبح الحياة عنده لعنة، ويصبح التفكير في هذا الكون أمراً منافياً ومناقضاً للإيمان. وهكذا يكون بين حياة الإنسان الكونية وحياة الإنسان الايمانية تناقض وتعارض !

هذا التناقض والتعارض تمثله المسيحية المحرفة والبوذية وما أشبههما من الأديان التي تدعو إلى حياة الروح فحسب وتحتقر التفكير والحياة بجميع جوانبها التي أنعم الله بها علينا وتعطي لما أنعم الله به علينا من النعم وسماه نعماً وفضلاً ورزقاً صفات مخالفة ومعاكسة لهذه الصفة. ولذلك فإن هذا التعارض انتهى إلى فلسفة ثالثة هي أنه ليس هنالك إلّا الإنسان والكون ! وهنا نصل إلى الفلسفات الالحادية سواء أكانت الحادية مادية أو الحادية غير مادية ؛ المهم أنها تحذف من تصورها وجود الله !. وسنشرح نحن النظرة الأولى والتي هي :

النظـرة الإسلاميـة :

النظرة الإسلامية ــ كما قلت ــ تبدأ بالمخاطب وهو الإنسان وتنطلق به من ملكوت السموات والأرض أو من نفسه ! ونفسه ليست إلّا جزءاً من

هذا الكون، (وفي الأرض آيات للموقنين. وفي أنفسكم أفلا تبصرون ؟). ابتدأ إذاً بنا من الأرض التي نعيش عليها، وفي الأرض آيات، دلائل، وقرائن تدل على ما وراءها، على خالقها، فانظروا إليها إذاً (وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض). فالانطلاق إذاً من ملكوت السموات والأرض :
(سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق)، فترون في هذه الآيات الثلاث الانطلاق من الأرض ومن الأنفس، ومن الآفاق، ومن ملكوت السموات والأرض : (انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه، إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون) ؛ هذا النظر الذي سيوصلكم إلى الإيمان.

فإبراهيم عليه السلام أراه الله ملكوت السموات والأرض ليوصله إلى **اليقين، وليس إبراهيم عليه السلام هنا ـ وهو نبي مختار ومصطفى ـ ليس إلا** مثالاً لأي إنسان : حتى يصل إلى اليقين لا بد أن يرى ملكوت السموات والأرض وما فيهما من آيات.

المخاطب أولاً هو الإنسان ؛ ثانياً : المنطلق هو الكون، الأرض والسموات !. والإنسان داخل فيها وهو جزء منها، والهدف هو الوصول إلى **الإيمان بالله وعبادته، (وليكون من الموقنين)، (لآيات لقوم يؤمنون). الإيمان** الذي هو تصديق وإقرار وقناعة وعبادة في النهاية هو نتيجة ووسيلة للوصول إلى هذا الهدف، من المنطلق إلى الهدف وهو العقل (إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون)، (إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون)، (انظروا إلى ثمره إذا **أثمر)، (وكذلك نري) الرؤيا القلبية.**

فإذاً الأداة التي نصل بها من المنطلق، وهو الكون وآياته، إلى الهدف وهو الله والإيمان به وعبادته هو العقل الذي أنعم الله به على البشر.

واختصاراً للموضوع، سأسلك طريقة الاعتماد على النصوص لأنني قد أقول قولاً قد لا يكون لي فيه شاهد من القرآن فأكون أنا قد اخترعت فكرة وقد لا تكون صحيحة ! ولكن حينما أضع بين أيديكم نصاً من كتاب الله وأقول : هذا هو النص، وتشاركونني حينئذ فتقولون : نعم، هذا استنباط صحيح، والآية تدل على هذا ؛ يكون الأمر مشتركاً بيننا. فأختار لكم آيات قد تكون أجمع الآيات في موضوعها الذي تجدونه منشوراً في القرآن. ولكن

هذه الآيات على الخصوص كأنها جمعت الموضوع من أطرافه ! وهي ابتداء من الآية الثالثة من سورة النحل بعد الآيتين الأوليين : (بسم الله الرحمن الرحيم، أتى أمر الله فلا تستعجلوه، سبحانه وتعالى عما يشركون ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلّا أنا فاتقون). بعد هاتين الآيتين، كأن الله سبحانه وتعالى أراد بهما تهيئة النفوس يعني ترهيباً وتخويفاً وإعداداً لسماع ما سيأتي من الحجج العقلية، بعد ذلك تبدأ الآيات التي هي موضع الشاهد عندنا، (خلق السموات والأرض بالحق، تعالى عما يشركون). وكأن هذه الآية جاءت بالعنوان المجمل الذي سيفسر (خلق السموات والأرض بالحق فتعالى عما يشركون. خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين. والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون. ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون. وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلّا بشق الأنفس، إن ربكم لرؤوف رحيم).

أراد الله سبحانه أن يجعلنا نفكر في الخلق، خلق الإنسان والأنعام ؛ ولكنه ذكر شيئاً آخر هو منافع الأنعام (ستأتي بعد ذلك). ستجدون في الآية نقطتي إرتكاز : خلق أصل الشيء، ومنافعه. ستجدون في كل آية تقريباً هاتين الركيزتين : (ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون)، فهذه ركائز أولها : التعجب والتفكر في أصل خلق الشيء : (ولكم فيها جمال)، (والخيل والبغال والحمير)، والخيل معطوفة على خلقها، وخلق الخيل منصوبة لفعل محذوف ؛ وخلق الخيل والبغال والحمير لتركبوها وهذه منافع، وزينة، وهذه جمال، (ويخلق ما لا تعلمون. وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر، ولو شاء لهداكم أجمعين) ؛ وعلى الله أي : الدلالة إلى الطريق القويم بواسطة عقولكم، فقد اقتضت حكمته أن يخلقكم هكذا ؛ وأن يدلكم على السبيل ؛ وعليكم أنتم أن تفكروا، ومن هذه السبل ما هو مائل ومنحرف ومنها جائر ولو شاء لجعلكم كسائر مخلوقات الكون، فهو اما مفطور على الحركة أو على السكون أو بالغريزة، ولو شاء لهداكم أجمعين : (وهو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب)، منافع انتفاع استثمار (ومنه شجر فيه تسيمون)، ترعون أنعامكم (ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات، إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون). حينما يتفكر الإنسان

في نزول الماء وكون الماء فيه خاصة الإنبات وتحريك التراب، (وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت)، تحريك التراب ثم نمو النبات.

هذا الارتباط عليكم أن تفكروا فيه لأنكم ستسألون : من رتب على نزول الماء تحريك التراب ونمو النبات ؟ هذه سنة في الكون ولكن من وضعها، من شرعها ؟ هل الماء نفسه أعطى نفسه هذه الخاصية ؟ هل التراب أعطى نفسه هذه الخاصية ؟ هل كوَّنَ التراب والماء مؤتمراً واتفقا على أن ينبت الماء النبات بواسطة التراب ؟ فكروا في هذا ! (ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون). التفكر الأداة، أداة الوصول هي التفكر والتعقل، (وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون)، بالجمع انتقل بنا إلى العالم الفلكي وهناك العالم النباتي والعالم الحيواني والعالم الإنساني وهي جميع ما في السموات والأرض (ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون).

ثم تعود الآيات بعد ذلك إلى شيء من تفصيل ما في الأرض على الخصوص لأن صلة الإنسان بالشمس والقمر والنجوم والكواكب صلة بعيدة لا يعرف تفصيلها، وأما الأرض فهي التي هو في تماس معها ويعرف الكثير من أحوالها وأجزائها : (وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه)، هذه الأشياء المتنوعة المختلفة التي في الأرض المتعددة الألوان التي وزعها الله سبحانه وتعالى ـ خلقها موزعة في هذه الأرض والتي يشير اليها في آية أخرى حينما يتكلم عن الجبال البيض والسود وعن الأنعام والدواب، وكذا، وتنتهي الآية (انما يخشى الله من عباده العلماء). الحديث عن الألوان متكرر في القرآن أكثر من مرة، ففي سورة الروم : (ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم، ان في ذلك لآيات للعالمين)، (وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه).

اذاً هنا نأتي للكلام عن الأرض والألوان ألوان الموجودات، (وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه، ان في ذلك لآية لقوم يذكرون)، (وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها، وترى

الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون).

والكلام هنا عن البحر، وقد أشار إلى البحر من عدة نواح : أولاً : من حيث خلقه، (وهو الذي سخر البحر)، والتسخير هو نتيجة بعد الخلق طبعاً. أولاً : خلق هذا البحر، ثانياً : بعد ذلك المنافع التي سخرت لنا في هذا البحر : (لتأكلوا منه لحماً طرياً) أي : استخراج السمك (وتستخرجوا منه حلية تلبسونها)، **جمال اللؤلؤ الذي يستخرج من البحر ! هذه تلحق** بقوله (لتركبوها **وزينة**)، وقوله (ولكم فيها **جمال**). ثلاث نقاط تتعلق بالجمال (وترى الفلك مواخر فيه) ؛ عبور السفن والفلك في البحر طبعاً هو في منفعة **الإنسان، يسخره لمنفعته فينقل البضائع وينقل الأشخاص، فهذا ـ أيضاً ـ من تسخير الله البحر لمنفعة الإنسان ؛ (ولتبتغوا من فضله)**. وهذا السعي في كل هذا سواء في استخراج السمك أو اللؤلؤ أو في ركوب البحر وتسخيره لنقل البضائع، كل هذا سماه ابتغاء من فضل الله، كما ورد هذا التعبير في آيات أخرى : (وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله)، فسمى السعي والنشاط الاقتصادي ابتغاء من فضل الله ؛ انظروا كيف زين لنا العمل وحببه الينا وسماه ابتغاء من فضل الله حتى لكأن الإنسان الذي لا يعمل ولا ينشط اقتصادياً وعملياً معرض عن فضل الله !! (ولتبتغوا من فضله)، ولكن النهاية... ماذا ؟ ما النهاية في التفكير في كل هذه الأمور ؟ (ولعلكم تشكرون)، عبادة الله وشكره ! هذه هي النقطة الثالثة. (وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون. وعلامات وبالنجم هم يهتدون) الرواسي : الجبال ؛ وكلمة رواسي كلمة دقيقة جداً فان الجبال الآن من الوجهة العلمية ثلثاها مغمور تحت الأرض والقسم الظاهر يعدل الثلث ؛ وهي أشبه بالأضراس. الضرس عند الإنسان له جذر مختبئ تحت اللثة إلى الأسفل رآسي.

فالجبل الآن حينما يدرس علماء الجغرافيا وعلماء الجيولوجيا أو طبقات الأرض يبينون أن هذا الجبل له جذور وهي أكبر من الجبل الظاهر، ذلك هو راسي في الأرض ؛ (وألقى في الأرض رواسي)... كلمة مهمة جداً جمع راسي رواسي، (وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم)، أي لئلا أو خشية

أن تميد ؛ فالجبال كما يقول علماء الجغرافيا والجيولوجيا موزعة توزيعاً متناسباً على الأرض بحيث لا تميد.

وهنا أحب أن أقف وقفة قصيرة استطرادية ولكن لها صلة بالموضوع ؛ لأهميتها، أحب أن أقف عندها قليلا. بعض الناس أراد أن يستشهد بهذه الآية على ثبات الأرض، والاستشهاد هنا ـ لغوياً ـ غير صحيح ! هذه الآية ليست نصاً لا في الحركة ولا في الثبوت ! فالمنفي هنا : المَيدَانَ. ومَادَ يميد في اللغة هو الاضطراب. والمنفي اذاً هو الاضطراب. عندكم في اللغة العربية أفعال : مال يميل، وماس يميس، وماد يميد، وماج يموج، وماع يميع، (ما) حرفان ثم يأتي حرف ثالث، كلها تدل على الحركة ! ولكن خصصت ماس يميس للأشياء الناعمة ؛ وماج يموج للبحر ؛ ومار يمور للأشياء الثقيلة (تمور الجبال موراً) ؛ وماع يميع للسوائل ؛ وماد يميد للاضطراب ؛ فتقول : الصاحي يمشي ولا يميد، والسكران يمشي ويميد. وتقول : السفينة في البحر قد تكون واقعة فتضع فيها الأحمال موزعة توزيعاً سيئاً فتضع في اليمين ما هو أثقل عشرة مرات مما هو في اليسار وتضع في المقدمة ما هو أثقل خمس مرات مما هو في الخلف، فهذه السفينة ستضطرب. هذه المنضدة لو جعلنا أرجلها متفاوتة الطول ستميد يمنة ويسرة وأماما وخلفاً. فالميدان هو الاضطراب سواء أكان الشيء ساكناً أم متحركاً ؛ فالذي نفاه الله سبحانه وتعالى في هذه الآية هو : الاضطراب ؛ نفى عن الأرض الاضطراب ؛ ووزع الجبال على هذه الأرض وأرساها حتى يكون توزيعها بهذا الشكل مانعاً من اضطراب الأرض ومؤدياً إلى توازنها. فاذاً الآية هذه ليست دليلاً لا على الثبوت ولا على الحركة ولكن الاعجاز في أن تكون الأرض متوازنة بواسطة الجبال ! الاعجاز أقوى عندما تكون الأرض مع حركتها متوازنة : « وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون. وعلامات وبالنجم هم يهتدون».

جاءت النجم معنا من العالم الفلكي بجامع الاهتداء بها، كما أنه يهتدى بالسبل، وعلامات كثيرة في الأرض من الجبال كالأنهار، فكذلك يكون الاهتداء بالنجوم.

(أفمن يخلق كمن لا يخلق، أفلا تذكرون ؟) انظروا إلى النتيجة التي أوصلتنا إليها الآيات !! أولاً : نجد هنا أن الموضوع تناول الكون كله : السموات والأرض، ملكوت الله جميعاً. وجاء التفصيل المتعلق بالأرض، فجرى الحديث عن الانسان وخلقه وكيف انتقل من نطفة صغيرة إلى مخاصم فصيح يناقش ويجادل، (مبين)، يفصح !

ثم بعد ذلك الاشارة إلى خلق الأنعام ودواب الركوب، وإلى خلق الماء والنبات، وإلى خلق الشمس والقمر، وما إلى ذلك، وخلق البحر والجبال والأنهار.

الفكرة الأولى : التفكر في أصل خلق الشيء، فهنا الكون موضوع للتفكير. مدعاة للتفكير. مسرح للتفكير. وهذا التفكير هو أولاً، التفكير في الشيء نفسه. كيف ينزل الماء ؟ كيف بنزول الماء يتحرك التراب فينمو النبات ؟ التفكر في أوضاع الكون نفسها ؛ ثم هذا التفكير لا يقف هنا كما يقف تفكير الماديين، بل يطرح السؤال الذي طرح في آخر الآيات يتناول كل ما سبق : « أفمن يخلق » أي يخلق الإنسان والأنعام والنبات ... الخ. (كمن لا يخلق ؟) هل هذه الأشياء التي ذكرت خالقة ؟. هل البحر خالق ؟ هل الماء خالق ؟ ... الخ. هل الإنسان خالق ؟ وهو أقدر هذه الأشياء. ولا نعرف أن الإنسان يستطيع أن يخلق ذرة ! فهذه كلها لا تخلق : (أفمن **يخلق** كمن لا يخلق ؟!) هي اذا طرحت المشكلة التي جاءت في آية أخرى : (أم خُلِقوا من غير شيء أم هم الخالقون أم خَلَقوا السموات والأرض ؟).

إذاً لا بد من خالق. فاذاً انطلق بنا من طرح المسألة طرحاً عقلياً تماماً لننتهي إلى نتيجة ملزمة عقلياً ومنطقياً، (أفمن يخلق كمن لا يخلق، أفلا تذكرون ؟) تذكروا !! اربطوا كل هذه الأشياء !! من وضع هذه السنن وقدرها ؟؟ اذاً نلاحظ في مجموع هذه الآيات أنها شملت الكون كله، بسمواته وأرضه وما فيهما. وهذه النظرة واسعة الآفاق، وأن الكون هنا موضوع تفكير بالنسبة للانسان.. تفكير في الكون في ذاته ليقف عند كل جزء من أجزائه (وتفكير في البداية) من خلقهم ؟ فالكون هنا موضوع

تفكير، وموضوع انتفاع واستثمار.. نهتدي بالسبل والنجوم، ننتفع بالأنعام ودواب الركوب (ننتفع بالبحر... الخ. والكون أيضاً متعة وجمال : (ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون) ؛ (لتركبوها وزينة)، (حلية تلبسونها). طبعاً يلحق بهذا ما يأتي في غيرها ؛ مثلاً (حدائق ذات بهجة)، (قل من حرم زينة الله)، من الآيات التي تشير إلى الجمال.

صـــورة الكـــون :

هنا نعود بعد ذلك إلى توسيع أفق الاستشهاد بعد أن استشهدنا بآيات جامعة. نريد أن نستخرج **صورة الكون**. صورة الكون أمر مهم جداً. ربما تقولون ما لنا ولهذا البحث، نحن لم يسبق لنا في كتب العقيدة أن قرأنا بحثاً تحت عنوان الكون. وجوابي على هذا : أن كل ما في كتاب الله مهم ويجب أن يدرس. **شيء آخر يجب أن نلتفت إليه. نجد أن الله سبحانه**.وتعالى في القرآن دعانا إلى قبول وتصديق حقائق معينة أراد أن نؤمن بها ونصدقها، وهي الايمان بالله، والايمان باليوم الآخر، والايمان بالنبوة المخبرة عن ذلك.

هذه الأمور الثلاثة هي الحقائق الكبرى التي دعا القرآن، بالحاح وتكرار وتأكيد، إلى الإيمان بها ؛ وهذه نسميها عقيدة ؛ وسماها القرآن الايمان، ويمكن أن نسميها مضمون الايمان القرآني.

ما الفرق بين استعمال كلمة الايمان وكلمة العقيدة ؟ العقيدة كلمة اصطلاحية ليست في الكتاب والسنة وانما وضعت لهذا المعنى.

ما الفرق بينها وبين الايمان ؟ الايمان أوسع لأن الايمان هو تصديق عقلي ولكنه ليس فقط قناعة عقلية. فهو تحرك نفسي. أنت حينما تكون مؤمناً يترتب على ايمانك عبادة وخوف ورجاء وشكر واستعانة واستغاثة ! أما القناعة العقلية فهي إما أن تؤمن أن هذا الشيء موجود أو غير موجود. فهي مجرد تصديق. لكن الايمان فيه قرب وبعد وقوة وضعف ؛ يزداد الإنسان ايماناً.

كلمة الايمان اذاً أوسع وأشمل من العقيدة، فهي تتضمن عنصراً عقلياً وعنصراً نفسياً في آن واحد. هو تصديق عقلي، ولكن أيضاً انفعال

نفسي بهذا التصديق. فالكلمة المستعملة في الكتاب والسنة هي الايمان، والمضمون الذي طلب منا أن نؤمن به استخرجه علماء التوحيد فسموه عقيدة.

هنالك أنواع أخرى من الحقائق تمر في القرآن ولا نسميها عقيدة، ولكنها أيضاً مهمة، وهي في القرآن وسيلة إلى العقيدة. فالقرآن حينما يحدثنا عن السماء وعن الأرض وعن النجوم وعن الكواكب وعن الجبال والبحار... الخ. حينما يحدثنا عن كل هذا.. لماذا ؟ لأنها طريق إلى العقيدة، لأنه يريد أن نرى في هذه الأشياء آيات وعلامات تدل على الله وعلى قدرة الله وعلى علم الله وعلى رحمة الله... الخ.

فاذاً هذه مهمة، ولذلك ـ أيها الاخوان ـ اهتممت شخصياً بهذه الآيات منذ مدة طويلة، ولاحظت أن هذه الآيات أثرت في نفوس المسلمين وتفكيرهم تأثيراً كانت له نتائج عظيمة وفي غاية الأهمية، وأن هذه النظرات تضمنها القرآن، والقرآن لا يتضمن إلا حقائق. والقرآن أشار اليها ولفت نظرنا اليها وألح علينا في النظر اليها. هي مهمة وسترون أهميتها. ولذلك فانني أريد أن أذكر لكم خصائص وصفات العرض القرآني للكون.

الآن المحدثون في هذا العصر أحياناً يطلقون كلمة أخرى على الكون يجب أن نعرفها حتى لا نغتر بالمصطلحات ـ يستعملون كلمة الطبيعة. ويستعملونها بمعنى غير الذي كان يستعمل عندنا في كتب الفلسفة القديمة التي كانت عند المسلمين والمأخوذة عن اليونان. ان كلمة (طبيعة) بالعربية وكذلك في اللغات الأخرى يريدون بها في عصرنا كل ما في هذا الكون ! ويمكن أن نسمي هذا في اصطلاحنا الإسلامي عالم الشهادة، لأن هنالك عالمين : عالم مغيب عن حسنا، وهو عالم الغيب ؛ وعالم نشهده ؛ (وكلمة نشهده) رائعة لأنها جمعت الحواس كلها، .. فأما أن نسمعه كالرعد، وأما أن نبصره كالبرق والنجوم، واما أن نتذوقه... الخ. كل هذا يشهد !! فأنت تشهده باحدى حواسك. والله سبحانه وتعالى عالم الغيب والشهادة ؛ فهو عالم بالعالمين. وكلمة الكون كلمة استعملت قديماً ؛ وفي القرآن اشارة اليها، (انما أمرنا لشيء اذا أردناه أن نقول له كن فيكون)، فهي عملية تكوين وخلق ؛ فالكون هو الذي كونه الله وخلقه.

ما هي صفات العرض القرآني للكون أو للطبيعة ؟ ذلك ما سنفصله فيما يلي :

أولاً : ان القرآن لفت نظرنا مراراً وتكراراً إلى الكون، وأجزائه وحوادثه، كرر وألح فلا بد اذاً أن الأمر مهم !!

ثانياً : الشمول. العرض القرآني للكون لم يقتصر على البيئة التي وجد فيها محمد عليه الصلاة والسلام وقومه، وهي الصحراء، التي ليس فيها زرع ولا أنهار ؛ مثلاً : البحار المتلبدة الغيوم الموصوفة في قوله تعالى : (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء، حتى اذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه. والله سريع الحساب. أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب، ظلمات بعضها فوق بعض، اذا أخرج يده لم يكد يراها). مشهد غير موجود هنا. اذهبوا إلى جدة أو إلى رابغ لا تجدون هذا المشهد لا في الشتاء ولا في الصيف ! هذا المشهد لا تجده إلا في السويد أو النرويج أو... الخ. قال هذا الامام الشاطبي ؛ قال : لما ذكر في القرآن النخيل والأعناب والرمان والزيتون دون غيرها ؟ فأين التفاح والموز واللوز والكمثري ؟ قال : هي مذكورة ؟ ولكن الله سبحانه وتعالى أول ما خاطب خاطب العرب... خاطبهم بما يألفون من الثمار، لأنها ليست مقصودة بالذات ؛ ولكن مع ذلك تجدون مثل قوله تعالى : (وهو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون. ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب **ومن كل الثمرات**). فهي تشمل جميع الفواكه. وكذلك حينما ذكر بعض الحيوانات فقال : (والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة، **ويخلق ما لا تعلمون**)، شملت ما لم يعرفه العرب وقتها كالتمساح وغيره وتشمل من وسائل الركوب التي وجدت بعد ذلك كالسيارات والطائرات، كل هذا يشمله قوله تعالى : (ويخلق ما لا تعلمون)، وهكذا أجاب الشاطبي رحمه الله على هذه النقطة بأن الله خاطب العرب بما يألفون لأنهم هم الذين خوطبوا بالقرآن أولاً بلغته العربية ليبلغوه للناس جميعاً حتى أنه ذكر لهم في الجنة من الفواكه ما يعرفون ويألفون، ثم ذكر بعد ذلك لهم فيها ما تشتهي الأنفس، ولم يفتن عقولهم بضرب الأمثال

بأشياء لا يعرفونها.

أعود فأقول ان الصفة الثانية من صفات العرض القرآني للكون هي صفة : **الشمول** ؛ انه يشمل بحار الدنيا كلها، ونباتاتها وزروعها وحيواناتها، ويشمل السماء والأرض : (والسماء بنيناها بأيدٍ وإنّا لموسعون)، والآن يقولون : ان الكون واسع بأوسع ما يستطيع الانسان تصوره !

الصفة الثالثة : هي صفة **الحركة**. هذه الصفة مهمة. الاشارة إلى حركة الكون متكررة في القرآن بشكل يلفت النظر حقيقة. حينما يقول عن الشمس والقمر بتعميم عجيب : (وكل في فلك يسبحون)، (وترى الأرض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت) ؛ نحن لا نراها حين ينبت النبات أنها تهتز، هناك حركة. أنت تراها هامدة ؛ وهي ليست هامدة، وما أكثر خداع البصر ! (أو لم يروا أنّا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها ؟) الأرض تتحات أطرافها وتنقص. والكون في حركة وتوسع : (والسماء بنيناها بأيد)، والأيد والأيدي القوة : (وانا لموسعون)، اذاً الخلق يتوسع. هذه الحركة أمر مهم جداً.

وهنا أحب أن أنبهكم إلى فكرة مهمة جداً في الرد على الماركسيين وهي فكرة غير معروفة. « ماركس » هذا يقول هو وأصحابه : « ان أصحاب الأديان يزعمون أن الكون ثابت »، لأنه نتيجة ارادة ثابتة، فهو عالم ثابت غير متحرك ؛ والحقيقة أن العالم متحرك وليس هناك ارادة علوية » ؛ يريد أن ينفي وجود الله. ويقول : ان هذه الفكرة انما أوجدها أصحاب رؤوس الأموال ! تفسير عجيب ! فهو يزعم أنهم اخترعوا هذه الفكرة : فكرة وجود الاله وادعوا أن له ارادة ثابتة وأن الكون ــ بالنتيجة ــ ثابت من أجل ألا يتغير المجتمع لأنهم لا يريدون تغيير المجتمع !!

حينما قرأت هذه الفكرة عند الماركسيين قلت انه من المعجز أن القرآن يكرر الاشارة إلى الحركة في آيات كثيرة، وكأنه يرد سلفاً على الشبهة السخيفة ! فنقرأ في القرآن (وكل في فلك يسبحون) ؛ كلمة يسبحون هنا : عجيبة ودقيقة جداً ليس هناك أدل وأصدق وأحسن كلمة لتصوير النجوم المتحركة منها !! وكذلك حال الأجسام، فقد وجد العلماء أن ذرات الأجسام

كلها أخيراً تنتهي إلى ذرة صغيرة جداً، وهذه الذرة تتكون من ذريرات صغيرة يسمونها كهارب موجبة وكهارب سالبة تدور حول نواة لا ترى بالعين المجردة ! وهي في دوران ! ومن الأعجب أن الدوران في نفس اتجاه الطواف أي علي عكس عقارب الساعة ! وقال تعالى : (وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب)، هي على التفسيرين، سواء افسرناها على قول من يقول بأن المراد بها في الآخرة، ومن يقولون : هذه لم يرد بها الآخرة، بل الدنيا. بدليل قول الله بعدها : (صنع الله الذي أتقن كل شيء) ؛ فالاشارة إلى اتقان الصنع، الأوجه أن يكون في الدنيا وليس في الآخرة.

وفي هذا رد على ماركس وأصحابه الذين يتهمون الدين ـ وهذا لا ينطبق على الإسلام ـ بأنه يصور الكون صورة جامدة واقفة راكدة لا تتحرك. فالكون في القرآن كله في حركة (وكل في فلك يسبحون) ؛ « كل » بالتنكير والتعميم. وقد ثبت عند علماء المادة أن كل شيء يتحرك... (وكل في فلك يسبحون)، وفي هذا معجزة قرآنية.

الخاصة الرابعة : هي الاطراد والانتظام في الكون. فالقرآن الكريم يشير إلى تعاقب الحوادث بانتظام، (والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم)، تقدير دقيق، (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون)، مع أن كلا في فلك يسبحون. فلا تصادم بينها. وحينما يريد الله أن يغير هذا النظام، حينئذ يجتمع الشمس والقمر وهذا يوم القيامة.. أما الآن (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار) يعني فيه انتظام (وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا به) أي : كلما أنزلنا ماء أنبتنا، فالنبات أمر يلي نزول المطر، فقد ربط أمراً بأمر وأشار إلى ترابط الحوادث، (الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله)، حادثة وراء حادثة وراء حادثة، وكأن الله سبحانه وتعالى يشير الينا أنه خلق هذا الكون مترابط الأجزاء مترابط الحوادث.

وهنا استنبط علماؤنا وأسلافنا ما نسميه بنظام السببية، حتى أن ابن تيمية ـ رحمه الله ـ رد على بعض متأخري الأشاعرة الذين يقولون بنظرية هي

أقرب إلى الاعتباطية أو الفوضوية فيقولون ان السكين تقطع عندها لا بها، وهم كأنهم خافوا أن نقول : أن السكين هي التي تقطع فأننا بذلك، على رأيهم، ننفي قدرة الله على القطع، والأصل أن القدرة هي من الله. فالله سبحانه وتعالى أعطى السكين خاصة القطع، وأعطى الشيء المقطوع خاصة أن تعمل به السكين وأن يقطع. وجعل مثلاً الرياح تحرك السحب، وجعل السحب تتراكم، وجعل تراكم السحب مؤدياً إلى تلاحقها بواسطة الرياح، فحينئذ ينزل المطر، فرتب أمراً على أمر على أمر. قال ابن تيمية : ان الله عودنا أن يفعل بالأسباب يعني : أن يجري هذا الخلق على طريقة تعاقب الأمور بعضها وراء بعض وترابطها. هذه الخاصة التي أشار اليها القرآن مهمة جداً لأنها هي مرتكز العلوم. العلوم تقول لنا : كلما وضعنا المادة الفلانية مع المادة الفلانية ينشأ كذا، اذا حدث كذا يحدث كذا بانتظام واطراد. والعلوم المعروفة بعلوم الكون أو الطبيعة أو العلوم الكونية كالكيمياء والفيزياء وما إليها مترتبة على وجود هذه الأسباب.

وعلماؤنا المسلمون وخاصة السلفيين منهم ؛ وخاصة المعلمين منهم، أكدوا على وجود هذه الأسباب، لكن سنبين فيما بعد أن السبب ليس خالقاً، لأن الله خلق السبب وهو الحادثة الأولى والمسبب وهو الحادثة الثانية وخلق الارتباط بينهما، فلو شاء لما ولد السبب نتيجته، ويوم القيامة وبعد البعث ربما يخلق نظاماً آخر وسببية من نوع آخر. ان الله سبحانه وتعالى حينما أشار في القرآن إلى ترابط حوادث الكون التي خلقها وخلق ترابطها بعضها ببعض وانتظام هذا الكون الذي وصفه بأنه، (ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت)، هذا النظام الذي جعله على سنن مطردة يسمونها « قوانين الطبيعة » ونسميها نحن بالتعبير الإسلامي « سنن الله » في الكون ؛ وهي مبنية على مقادير وكميات محسوبة. يقول الله تعالى في كتابه : (وان من شيء إلا عندنا خزائنه، وما ننزله إلا بقدر معلوم)، (وأنزلنا من السماء ماء بقدر).. (الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد، وكل شيء عنده بمقدار).. (انا كل شيء خلقناه بقدر) أي : بمقدار كما قال ابن كثير في تفسيره : كل شيء مخلوق بكمية محسوبة، (وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام)، يعني جعلها بكميات تكفي للبشر وللحيوان،

(قوارير من فضة قدروها تقديراً)، (وقدرنا فيها السير)، (ومن **نطفة** خلقه فقدره)، (قد جعل الله لكل شيء قدراً)، قال ابن كثير : هي بمعنى (كل شيء عنده بمقدار) فالآيات الثلاث : (كل شيء عنده بمقدار) (انا كل شيء خلقناه بقدر)، (قد جعل الله لكل شيء قدراً)، كلها بمعنى واحد، (وخلق كل شيء فقدره تقديراً) يعني : جعله بأوضاع وكميات ومقادير وكيفيات محسوبة ومعلومة عند الله (الذي خلق فسوى. والذي قدر فهدى).

وعلى هذا يكون من معاني القدر أن الله سبحانه وتعالى خلق كل ما خلق بتقدير مسبق لكمياته وأوضاعه.

ورد في الحديث (وذكر هذا الحديث السيوطي في كتابه « الدر المنثور بالتفسير بالمأثور »)، « أن الله قدر مقادير الخلائق قبل خلقها بخمسمائة عام » (رواه مسلم). الله سبحانه وتعالى قدر المقادير قبل الخلق، والمهندس يضع التصميم قبل التنفيذ، ولله المثل الأعلى ولكن على سبيل التقريب ؛ المهندس قبل أن يبني البناء يرسم خريطة ويضع عليها المقاييس، **هذا بارتفاع كذا، وهذا بطول كذا. كميات كذا من الحديد والخشب ؛** الله سبحانه وتعالى كما ورد في هذا الحديث : « ان الله قدر مقادير الخلائق... ـ والمقادير جمع مقدار ـ قبل خلقها بخمسمائة عام ». طبعاً هذا زمن الله أعلم به. فاذا كان الإنسان ـ وهو مخلوق ـ يصنع شيئاً يسير بسرعة معينة وبكيفية معينة، فهو بعد ساعة ونصف وخمس دقائق يعرف أين سيكون وبأي سرعة يكون، لأنه هو الذي أعده وهيأه وصنعه وجعله بسرعة معينة، فهو قبل أن يصل هذا الصاروخ إلى مكان معين يقول : بعد ساعة وخمس دقائق يكون في كذا لأنه هو الذي أطلقه بسرعة معينة، فكيف بخالق الكون الذي خلقه وقدر كل ما فيه من أوضاع وأحوال وحركات وسرعة **وغيرها ! طبعاً حينئذ ما دام البشر، وهم مخلوقون، يعرفون ما سيكون لأنهم** هم الذين صنعوا ولم يخلقوا، والله الذي صنع الأشياء بل خلقها وأوجدها من العدم وقدر كل ما فيها، فمن السهل أن ندرك ونعقل أنه سبحانه يعلم ما سيكون من أمر هذه الأشياء التي رتبها هو بمقاديرها.

هذه فكرة المقادير بنتيجة ما سميناه انتظاماً وترابطاً واقتراناً وهو ترابط

مطرد منتظم وما نشأ عنه من فكرة السنن الموجودة في الكون في جميع عوالمه، في عالم الإنسان والحيوان والنبات والأفلاك، وأن هذا الانتظام مبني على مقادير، وهذه المقادير مرتبطة بسنن نسميها أحياناً « قوانين الكون » — هي قوانين الله أو سنن الله في الكون.

نلاحظ اشارة في هذا الموضوع، كخلاصة لما قلناه، أن الكون مبني على توازن أو مبني على القسط. فالله خلق السموات والأرض بالحق وبالقسط، (وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم)، (والسماء رفعها ووضع الميزان)، فكل شيء جعله بميزان أي : بتوازن، وعلى سبيل المثال : توزيع **الجبال على سطح الأرض توزيعاً متناسباً بحيث لا تختل حركة الأرض ولا** تميد، (وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم). موضوع القسط هذا موضوع مهم جداً، فالسموات والأرض وكل ما فيها مبني على التوازن والقسط، وان حياة الإنسان كما كلفه الله بها في تشريعه الذي أوحى به مبنية على القسط، (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط)، حتى اننا نستطيع أن نلخص الإسلام كله، بأن عقيدته وهدفه التوحيد، وقاعدته في الأخلاق والتشريع القسط.

التوحيد والقسط ذلك هو الإسلام، فالتوحيد هو خضوع الإنسان وكل شيء لله ولمنهج الله ولتشريع الله ولحكم الله، وهذا ما تعبر عنه (لا إله إلا الله)، والخضوع لله وحده والخضوع لتشريعه ودينه هو ما يعبر عنه قول (محمد رسول الله)، فالقسط الذي هو في الكون آلي، وبالنسبة للحيوان مثلاً غريزي، وأما بالنسبة للانسان فاختباري، ولذلك جاء في الآية (ولله يسجد من في السموات ومن في الأرض والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب)، كل ما ذكر مما عدا الناس يسجد لله ويطيعه : الشمس تدور في حركتها، والكون يسير في حركته، (كل في فلك يسبحون)... الخ. والشمس تشرق من الشرق وتغرب من جهة الغرب وكذا، كل هذا يسير بشكل يقول : (أتينا طائعين) ؛ إلا الانسان فأعطي جهاز الحرية ولذلك لم تستعمل في الآية لفظ كثير وكثير إلا للبشر، وأما الأخرى : فهي تطيع طاعة كاملة بلا خيار !.

ثمة خاصتان أو ملاحظتان مهمتان تتعلقان بنظرة الإسلام إلى الكون : الأولى منهما : اقصاء الخرافة عن الكون، وهنا لا حاجة لأن نذكر الأحاديث الكثيرة المتعلقة بالطيرة والرقي والتمائم والكهانة والعرافة وما إلى ذلك مما عُدّ من أنواع الشرك، **فهذه أشياء كأنها تنكر سنن الله في الكون** وتجعل الأمور اعتباطية، فاذا طار طائر إلى اليمين حصل كذا ـ وهو السانح ـ، واذا طار إلى الشمال يحدث كذا، ضرب في الرمل ! فتبين الصورة الفلانية أنه يحدث في حياة الإنسان كذا ـ قال ﷺ : « من أتى عرافا فصدقه لم تقبل له صلاة أربعين يوماً »، « الرقي والتمائم والتولة شرك »، وقال : « لا طيَرَةَ... » الخ. إلى ما هنالك من أحاديث كثيرة ذكرت بعضها في كتاب « الإسلام والفكر العلمي »، حيث ذكرت عدداً من الأحاديث الواردة في محاربة الخرافة في تصور الكون !. أما الأمر الثاني : فهو أنه يلاحظ أن الموجودات التي يذكرها القرآن نوعان : نوع يمكن أن نطلق عليه عالم الشهادة، أخذاً من قوله تعالى وصفاً لنفسه : (عالم الغيب والشهادة) « بكسر لام عالم »، الله سبحانه وتعالى عَالِم، عالمُ الغيب وعالِم الشهادة، فلنأخذ التسمية من كلمة الشهادة وهي كل ما يشهد بأي حاسة من الحواس كل ما يستطيع الإنسان أن يدركه، وعالم مغيب عنا كالروح والآخرة **ويدخل فيها الملائكة والجن وابليس وما إلى ذلك. فالقرآن أخبرنا بوجود عالم** الغيب من جملة موجوداته مثلاً الملائكة والجن وابليس، نحن لا نستطيع أن نراها، ولا أن ندخلها في مخبر الكيمياء أو الفيزياء ولا في مرصد الفلك ؛ لا نستطيع ذلك ولا يمكن ولكن ليس هذا دليلاً على عدم وجودها، ومن الخطأ **أن نقول : أن كل ما لا ندركه بحواسنا ليس موجوداً ـ فعقولنا لا تدركها** حواسنا ولكن تدرك آثارها ومع ذلك فعقولنا موجودة.

فهنا نلاحظ أن الآيات القرآنية التي تذكر الكون، الأرض، الجبال، السهول، البحر، النبات، الحيوان.. تقرر أن هذه الحوادث الكونية مرتبطة بعضها ببعض كمقدمات ونتائج، (الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً) الآية. إلى أن ينزل الماء وينبت، نجد حوادث كونية متوالية مرتبط بعضها ببعض، لكن لا نجد بينها مَلَكاً ولا جنياً مع أن القرآن مشتمل على ذكر الملائكة والجن، فكأن هذا القرآن فصل النظام الكوني عن عالم الغيب فلم

يجعل هنالك تداخلاً بين عالم الغيب وعالم الشهادة.

وقد رجعت إلى ما فسر الصحابة والتابعون به مقدمات سور (والمرسلات عرفاً) و (الذاريات ذرواً) فوجدت أقوالاً للصحابة، كعلي بن أبي طالب، تذكر أنها الرياح مثلاً، والذاريات ذروا، وأن النازعات غرقا هي الملائكة التي تنتزع الأرواح.

هذه أمور غيبية موضوعها موضوع آخر، وانما النبات حينما ينبت فقد وجه نظرك أنت أيها الإنسان إلى أن تربط بين نزول الماء الذي وصف لك نزوله وبين نمو النبات، ولم يذكر لك ما بين نزول المطر وما بين النبات جنياً أو ملكاً !

هذا الفصل مهم جداً ولا ندري فقد يكون هنالك في علم الله أمور تصل بين العالمين ولكن بحسب ما يرى الإنسان وبحسب ما أراه الله هذا الكون موصوفاً في القرآن : الرياح والسحب والماء والنبات... مترابط بعضها ببعض وكلها سلسلة من الحوادث، حوادث عالم الشهادة أو الحوادث الطبيعية، وهذا أمر مهم جداً خطا بالعلم خطوة كبيرة، بحيث أن الإنسان أصبح يستطيع أن يستنبط ارتباط هذه الحوادث التي يدركها ويشهدها بحواسه ويستنبط ارتباطاتها، أما إذا كان هنالك تدخل يجعل هذه الأمور تختل سننها وقواعدها واطرادها، فان الإنسان حينئذ لا يستطيع أن يستنبط شيئاً.

ذلك هو الكون الذي عرضه القرآن، فالقرآن لا يمر بنا مراً سريعاً بالكون ؛ بل يمر بنا متأنياً، فيرينا كل جزء من الجزئيات : (انظروا إلى ثمره **إذا أثمر وينعه)، ويجيل نظرنا في البحار والأنهار والسماء والسحب** وتراكمهما والسحب المنبسطة والسحب المتراكمة، (فيبسطه في السماء **كيف يشاء ويجعله كِسَفاً) مرة يبسطه ومرة يجعله ركاماً !.**

لفت نظرنا بدقة إلى كثير من الأشياء، لكن بعد هذه الوقفة قفزة ثانية ! فهنا نودع ونخلف الماديين المحدودين الذين لا يمتد إدراكهم إلى أبعد من الكون إذ يقفون هنا ؛ أما القرآن فإنه يسير بنا ويطرح أمامنا كبرى **القضايا التي طرحها الإنسان منذ أقدم العصور إلى اليوم. فقد طرح القرآن**

مسألتين : من خلق هذا الكون ؟ من نظمه ودبره وقدر سننه ؟. مسالتان طرحهما القرآن، المسألة الأولى : قضية الخلق. الماديون الآن كالماركسيين يقولون : لم يخلق الكون أحد ؛ بل المادة أزلية والعلوم الحديثة، التحليلات في العلوم أثبتت أن الكون **يتناقص** وأن له بداية وأن له نهاية، وهذا الاكتشاف العلمي أزعج جداً الملحدين والماركسيين، لأنهم كانوا يقولون بأزلية الكون. فإذا قيل : أنه كان معدوماً ووجد فلا بد إذن أن يعود طرح المسألة : من خلقه من العدم ؟.

والقرآن طرح المسألة بشكل واضح كطرح قضية فكرية، (أم خلقوا من غير شيء) يعني : هل خلقوا من غير خالق ؟ (أم هم الخالقون) الشيء خلق نفسه، وحينما خلق نفسه كان معدوماً أو موجوداً ؟ إذا كان موجوداً **فكيف نقول حينئذ أنه يحتاج إلى خلق، (أم خلقوا من غير شيء أم هم** الخالقون، أم خلقوا السموات والأرض، بل لا يوقنون). لنقل أحد الإحتمالات : هذا الكون اما أن بعضه خلق البعض أو أن كله خلق الكل ؛ اجتمع الشمس والقمر والإنسان والحيوان والنبات والجماد اجتمعوا جميعاً وخلقوا أنفسهم !.. المجموع خلق المجموع ! الشيء خلق نفسه ! وهذا **مستحيل لا يقبله العقل ! البعض خلق بقية الأجزاء ؛ فتعالوا نستعرض مثلاً :** فهل الشمس خلقتنا أم القمر خلقنا. الآن القمر صعد اليه وعرف أنه شيء خاضع لسلطان الإنسان، (وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض)، وفيما يبدو أن أجدر مخلوق في هذه المخلوقات هو الإنسان ؛ والإنسان عاجز عن الخلق، ولو جمعنا أعظم علماء الكيمياء والفيزياء في مكان وقلنا لهم : اخلقوا حياة ؛ بل ذرة من التراب دون أن نعطيهم مادة أولية يقولون : نحن عاجزون عن ذلك، نحن لا نستطيع خلق شيء من العدم !. نحن **نعطيهم حديداً يصنعون منه مفتاحاً أو ساعة.**

القرآن يشير إلى مسألة بداية الخلق : (انظروا كيف بدأ الخلق)، (فطركم أول مرة)، (ولقد علمتم النشأة الأولى)، (ونحن خلقناكم فلولا تصدقون)، أيها الإنسان هل أنت خلقت نفسك ؟ هل أبوك خلقك ؟ هل أمك خلقتك ؟ هذه المادة التي ينشأ منها الإنسان وهي نطفة : هل أنت خلقتها ؟ (نحن خلقناكم فلولا تصدقون أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم

نحن الخالقون) هل يستطيع أحد حتى بالعمل الصناعي أن يخلق نطفة من المني ؟ يعقبها « الذي خلق » « هو الذي يبدل ». عدد كثير من الآيات كقوله تعالى : (كيف بدأ الخلق) (كيف يبدأ الخلق) (فطركم أول مرة) (كما بدأنا أول خلق نعيده) إلى آخره.

من آيات كثيرة تشير إلى بدء الخلق والكلام في الآيات عن قضية الخلق الأول تأتي تارة من المخلوقات الكونية غير الإنسان وتارة عن الإنسان نفسه كجزء من المخلوقات، ومن الكون أيضاً ينطلق منه في قضية بدء الخلق مثل هذه الآيات : (نحن خلقناكم فلولا تصدقون)، أو مثلاً بالنسبة إلى الكون، (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل)، إلى آخر الآية (لآيات لقوم يعقلون). والآية الأخرى (لأولي الألباب)، (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب)، (ومن آياته خلق السموات والأرض وما ثبت فيهما من دابة).

فكل ما هو مبثوث في الكون مما يدب، وخلق السموات والأرض جملة، هو موضع تفكر وتأمل ولا بد من حل. هذه هي النقطة الأولى.

(والله خلق كل دابة من ماء) نحن لم نخلق أنفسنا حتى من النطفة ولا خلقنا الحيوان من ماء.

النقطة الثانية : هي التقدير أو النظام :

نرى أن هذا الكون فيه حوادث منتظمة. هذا التقدير للقوانين والسنن، هذا الترتيب ترتيب الأمور بعضها إلى جانب بعض بانتظام واطراد : هذا من صنعه ؟ من صنع سنن الكون أو قوانين الطبيعة ؟ إن القرآن يشير بوضوح إلى هذا : (أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون).

خذوا مثلاً : موضوع نمو النبات ؛ ماذا يصنع الإنسان، يحرث الأرض ويضع البذرة ويتركها وينتظر فينزل الماء إلى الأرض من السماء (أو سقاية من النهر)، وإذا بحركات تحصل في هذا النبات : (وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج)، (وأنزلنا من السماء ماء **فأنبتنا به حدائق ذات بهجة، ما كان لكم أن تنبتوا شجرها). فهل أنتم خلقتم خاصة الإنبات في الماء ؟ فإذاً تقديره هذه الأشياء، هذا التنظيم**

والتقنين الموجود في الطبيعة، هذه القوانين هذه السنن، هذه الارتباطات المنتظمة المطردة : من خلقها ؟ هذه هي القضية الثانية، (وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء، (وأرسلنا الرياح لواقح)، تعبر السحب، **فيها كهرباء موجبة وسالبة، وتكون الرياح سبباً في تلقيح** الموجب بالسالب من هذه الكهرباء الموجودة، فحينئذ تحصل الشرارة الكهربائية وينزل الماء، هذا الربط (وأرسلنا الرياح لواقح) ولواقح يمكن أن تكون بمعنى آخر بأنها هي التي تثير غبار الطلع في النبات فيعلق غبار الذكر بغبار الأنثى. (والشمس تجري لمستقر لها)، هذا الانتظام في حركة الشمس، وهنا مسألة مهمة في موضوع (والشمس تجري لمستقر لها) : لقد وجد العلماء أن الشمس ـ نتيجة بحوث علمية ـ عمرها بتقديرهم الذي مضى خمس مليارات ونصف من السنين، والذي بقي أربع مليارات ونصف من السنين، بمعنى أنهم يعتقدون أن الشمس ستنتهي، والقرآن يقول **(لمستقر لها) ؛ هنالك مستقر ستنتهي إليه وتفنى (والشمس تجري لمستقر** لها)، هنالك تقدير سابق لها من حيث بدايتها ومن حيث نهايتها. هذا **التقدير السابق من صنعه. الحركة والتبدل من طور إلى طور. قصة إبراهيم** عليه السلام الواردة : (وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين، فلما جنَّ عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي، فلما أفل قال : لا أحب الآفلين إلى آخر هذه الآيات.

فإبراهيم عليه السلام حينما نظر إلى الكوكب ورأى أنه متغير فطلب من يغيره. هذه السنة في تسييره وحركته من جعلها ـ من وضعها ؟.

فمن خلال هاتين القضيتين : من خلق ؟ من قدر ؟ يوصلنا القرآن بأمثلة وشواهد كثيرة مما يتعلق بنا، بأنفسنا وأجسامنا، أو بما يتعلق بما هو لنا من الكون، يوصلنا إلى ضرورة وجود خالق للكون نسميه باللغة العربية (الله)، وكل لغة لها طبعاً لفظ نسمي به الله خالق السموات والأرض سبحانه وتعالى.

إذاً خالق هذا الكون هو وجود مستغن عن إيجاد، لا بد أن تصل في **نهاية الدور والتسلسل إلى وجود لا يحتاج إلى موجد. العجيب من**

الملحدين الماديين أنهم قبلوا تصور مادة أزلية وهي مادة صماء لا تدرك ولا تعي ولا تعقل، ولم يقبلوا أن يتصوروا وجوداً عالماً حياً قادراً مع أن هذا التصور أسهل من ذاك، لأن انبثاق وجود عن مادة غير عاقلة ولا مدركة ولا واعية صماء عمياء هو من المستحيل ! وأما انبثاق كون أدنى في الوجود من موجده الذي يتصف بالإدراك، كما وصف الله نفسه، (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) ـ الإدراك، بأشمل ما نتصور من العلم والقدرة والحياة، أسهل من العكس ! فلذلك فإن الماديين هم المطالبون بالدليل على عدم وجود الله، فلو أخذنا إنساناً من البادية لم ير الحضر أبداً ولم ير الآلات والمعامل والأشياء الكهربائية والأشياء الأوتوماتيكية (المتحركة بنفسها) وسافرنا به رأساً بطائرة إلى أوربا أو أمريكا وأدخلناه إلى معمل آلي ليس فيه عمال وإنما فيه إنسان لا يُرى في داخل المعمل يحرك الزر فيشتغل المعمل ويتحرك. وحينما عاد الرجل إلى بلاده قال : يجب أن تلغى الجامعات كليات الهندسة لأنه لم يعد لنا من حاجة إلى مهندسين لأن المعامل أصبحت أوتوماتيكية آلية. طبعاً هذا في منتهى الجهل والحماقة والمحدودية، لأن كون المعمل أوتوماتيكياً هذ أدعى إلى مهندس صنعه وصانه ولا يزال يشرف عليه. هذا يستدعي وجود المهندس، وكلما كان المعمل عظيماً وكبيراً ومعقداً وفيه كثير من الآلات والمحركات لا يمكن أن يكون نتيجة مصادفة، وإنما لا بد أن يكون وراءه مهندس عظيم جداً.

فهذا الكون هو أعظم من كل هذه المعامل، فالعقل يوجب وجود خالق له ؛ فمن يقول أنه لا يوجد فعليه أن يقيم الدليل وليس علينا أن نقيم الدليل ـ انعكست الآية. هذا إذا وجدنا كتاباً في علم الفقه أو الأصول أو علم الاجتماع مجموعاً فالقائل يقول : إن عشرات الألوف من حروف المطبعة نثرت هكذا وجاء بالمصادفة وسقط عليه الحبر وخرج منها كتاب مطبوع في الفلسفة أو في الأصول أو في الفقه أو في علم الاجتماع !! طبعاً نقول عن هذا أنه مجنون وأنه كلما كانت هنالك دقة في الصنعة وشمول وعظم في الشيء المصنوع فهنالك تنتفي المصادفة ولا بد من وجود صانع لها. الله سبحانه وتعالى طرح القضية في القرآن بشكل عقلي، فالعقل هو الذي كان وسيلة لننطلق من الشيء الموجود، وهو الكون، من المخلوق

إلى الخالق. ولذلك تنتهي الآيات التي ذكرت في المرة الماضية عن الكون بما يدل على العقل، (خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون، خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين، والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون. ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون. وتحمل **أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلّا بشق الأنفس، إن ربكم لرؤوف رحيم.** والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة، ويخلق ما لا تعلمون. وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر، ولو شاء لهداكم أجمعين. هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون. ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات، إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون. وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون. وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه، إن في ذلك لآية لقوم يذكرون. وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها، وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون. وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون. وعلامات وبالنجم هم يهتدون. أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون)، الآيات من أوائل سورة النحل.

استعرضنا ــ فيما سبق ــ موقع الكون في النظرة الإسلامية، وخصائص العرض القرآني الإسلامي للكون، ثم انتقلنا بعد ذلك من الكون وما فيه من مخلوقات بما فيها الإنسان نفسه إلى الكون في مادته وأصله وسننه وقوانينه ثم إلى خالق الكون إلى الله عز وجل.

والله سبحانه وتعالى ــ كما تبين لنا من المحاضرات السابقة ــ هو خالق الموجودات كلها : الكون، السموات والأرض بما فيهما، وهو خالق أسبابها أي : سننها وقوانينها ؛ فإذا كان العلم الآن قد اكتشف قانون الجاذبية أو قوانين تركيب الأجسام مثلاً أو قوانين الطاقة ؛ فهذه القوانين لا يعلل بها الكون وحوادث الكون. يعني حينما يقال مثلاً : حدث الكسوف أو الخسوف بسبب وقوع القمر بين الأرض والشمس، وكان بعض الفلاسفة من الملحدين يقول : انتهينا، لا حاجة لأن ندخل الله في الموضوع، ما دمنا عرفنا العلة وهي وجود القمر بين الأرض والشمس !! فهذا أسخف كلام

يمكن أن يقال، فكما لو قيل : لا حاجة لمن وضع المسجل هنا، المسجل ينسجل، المسجل يشتغل بنفسه، ولا حاجة لأن نفترض أن هناك إنساناً صنع هذا المسجل. من جعل القمر يوجد هنا، ومن جعل الشمس ينكسف ضوؤها عن الأرض ؟ هذا الترتيب من وضعه ؟ هل الأرض جعلت نفسها هنا ؟ هل القمر جعل نفسه هناك ؟ هل الشمس، أو أن الإنسان هو الذي ركب هذا ؟ بالطبع لا.

فإذاً وجود القوانين أو ما نسميه سنن الله في الكون أدعى بأن نطالب **بمن أوجدها وأن نتصور وجوداً أعلى من وجود الكون وقوانين الكون فوجود** الكون وقوانين الكون هو وجود مفتقر، إنه يتغير فيحتاج إلى مغير، يتحرك فيحتاج إلى محرك، ومخلوق بعد أن لم يكن فيحتاج إلى محدث، فهو محتاج إلى وجود مستغن عن وجود غيره.

وبهذه المناسبة أرى أن لا نستعمل المصطلحات الموجودة في فلسفات علم الكلام فيقال : الوجود في الفلسفة ثلاثة أنواع : واجب الوجود وممكن ومستحيل. ما لنا ولهذه المصطلحات. وجود مستغن عن وجود غيره، ووجود مفتقر إلى وجود غيره، فنحن فقراء إلى الله يعني : محتاجون إلى وجود غير مفتقر إلى وجود غيره. وأما الله فهو قيوم أي : مستغن. الله مستغن.. أما الإنسان فهو غير مستغن. اذا استغنى الإنسان فقد تأله وجعل نفسه طاغوتا : (ان الانسان ليطغى. أن رآه استغنى).

ان الصفات التي يوجبها العقل لوجود لا بد منه من أجل وجود الكون وسننه وهو وجود الله ـ هذه الصفات لا حاجة لنا هنا للاطالة فيها ولكن أسردها سرداً.

الاستغنــــاء :

لا بد من وجود يغير غيره ولا يتغير، ويحول غيره ولا يتحول، ويفرض القوانين ولا تفرض عليه. هذه صفة الاستغناء أو صفة القيومية نأخذها من القرآن. الصمد القيوم الذي يصمد بنفسه لا يحتاج إلى من يدعمه ويسنده.

الوحدانيــة :

لا حاجة لنا هنا لذكر أدلتها وكلها موجودة في القرآن بحجج عقلية.

العلــــم :

الذي خلق الشيء يعرفه، (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير)، من صنع شيئاً يعرف أجزاءه : هذا أمر معقول ومنطقي.

الارادة والحيــاة :

نحن لنا ارادة فلا بد أن يكون من خلقنا ذا ارادة. الحياة : نحن لنا حياة فلا بد أن يكون من خلقنا له حياة لا نتصور لها حدوداً.

القـــدرة :

الأزلية والأبدية ؛ التنزه عن النقائص ؛ الكمال المطلق.

يمكن أن أذكر مع الوحدانية صفة ليست تماماً كالوحدانية، هي التفرد. وعنيت بالتفرد تلخيص ما في قوله تعالى : (ولله المثل الأعلى). لا يوجد لـه مثل أبـداً، (ليس كمثله شيء)، نفي المثليـة. أما الوحدانيـة فمعناها : أنه ليس لهذا الكون اله آخر. فالتفرد تفرد بالكمال والتنزه عن النقائص.

أريد أخيـراً أن أختم موضوع الصفـات بكلمـة عن موضوع آخـر هو : أن صفة السمع والبصر والكلام صفات نقلية وليست من الصفات العقلية ــ وهذا غير صحيح ؛ لأنه هو الذي خلق الأسماع والأبصار : نحن لنا سمع نسمع به الأصوات، ونحن لنا بصر نـدرك به قسمـاً من الموجودات وليس كلها ؛ فمن خلق السمع والبصر وخلق الكون كله : أليست عنده صفة ادراك محيطة بالمسموعات والمبصرات وبادراك ليس عندنا اسم نسميه بها ؟؟ العقل يوجب هذا. فالقول بأن هذه صفات نقلية وليست عقلية قول غير صحيح. هي صفات يوجبها العقل للوجود المستغني لله عز وجل، وهي نقلية أيضاً.

كذلك صفة الكلام. ما معنى الكلام ؟ الكلام الآن هو وسيلة ايصال المعاني والأفكار إلى الأذهان. فاذا كان البشر المخلوق قادراً على أن يوصلها لمثله، أليس الله خالق المخلوقات قادراً على أن يوصلها لمخلوقاته ؟ فصفة الكلام صفة عقلية ونقلية.

نكتفي بهذا القدر عن الصفات ويمكن الرجوع إلى كتب التوحيد.

الوصـول إلى الايمـان :

هنا أريد أن أقول فكرة مهمة وهي : أن القرآن نوَّع الطرق للوصول إلى إيمـان الناس بالله ـ عز وجل ـ، إلى الايمان بالله وإلى توحيد الله : توحيد الله اعتقاداً وخضوعاً، الوصول إلى الايمان بالله عن طريق العقل تكلمنا عنه (أفرأيتم ما تحرثون)، (أفمن يخلق كمن لا يخلق) ؟ (أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون) ؟

أريد هنا أن أقول : أنك حينما تريد أن تجعل انسانا يقتنع بموضوع أو بفكرة فانك لا تكتفي بايراد البراهين المنطقية. لو أردت أن تقنعه بأن يشاركك في تجارة فتقول : فلان أمين مستقيم فمشاركتك معه معقولة. هذا ربما لا يدفع إلى المشاركة. ولكن لا بد من تحسينك الأمر ببيان ما يجعله مهتماً باللجوء إلى مواطن اهتمامه وفوائده ومنافعه واستعمال شتى الطرق التي تؤثر في الانسان، فهذا لا يقدح في أصل الدليل العقلي. والله سبحانه وتعالى في القرآن ذكر لنا كثيراً من الأمور التي فيها منافع الإنسان آتية من الله سبحانه وتعالى. بعد أن اجتاز هذه المرحلة (أفمن يخلق كمن لا يخلق) ؟ ماذا قال ؟ : (وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها، ان الله لغفور رحيم)، فذكرهم بالنعم التي يستفيدون منها والمنافع التي ينتفعون بها. ولذلك ـ في كثير من المواطن ـ نجد هذه الخاصة بارزة وهي : المنافع والمصالح ؛ مثلاً : (فليعبدوا رب هذا البيت، الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف).

وهنالك ناحية غير موضوع المصالح والمنافع وهي ناحية مهمة ؛ فان سورة من القرآن كاملة عنيت بايصالنا إلى توحيد الله من منطلق المشكلات والقضايا الاجتماعية، فأصحاب المذاهب يحسنون مذاهبهم لأنها تحرر الانسان من العبودية،وبأنها تحرره من الاستبداد السياسي، وبأنها تحرره من الاستغلال المالي وتؤله المال ؛ أليست المذاهب الحديثة تحاول اقناع الناس بحسنها عن هذه الطريق ؟ وتقول للانسان : أنا سأوصلك إلى حالة تكون فيها حراً، فلا استغلال لك ولا استبداد عليك.

في القرآن سورة كاملة تنطلق نحو التوحيد من منطلق التحرر السياسي، ومن منطلق التحرر الاقتصادي، وهي سورة القصص، التحرر من سلطة ما سوى الله. وسورة القصص كما تعلمون تدور على محورين ؛ المحور الأول : انزال فرعون من ألوهيته المزعومة : (ان فرعون علا في الأرض **وجعل أهلها شيعاً، يستضعف طائفة منهم، يذبح أبناءهم ويستحيي** نساءهم، إنه كان من المفسدين). وقارون الذي تأله بماله وقال : (انما أوتيته على علم عندي) : (ان قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم)، طغيان فرعون وبغي قارون ! ما الدواء الجذري لهما ؟ هذا هو ما أوصلت اليه الآية حين أهلك فرعون بالغرق وأهلك قارون بالخسف، فهما ليسا بإلهين، هما مستبدان زائلان ؛ من الباقي ؟ الباقي كما في الآية الأخيرة : (ولا تدع مع الله إلهاً آخر لا إله إلا هو، كل شيء هالك إلا وجهه، له الحكم واليه ترجعون) ؛ فالحكم والمرجع له وليس لآلهة المال والسياسة. فالسورة بدأت بمشكلة الاستبداد السياسي والاستغلال المالي الذي يأخذ صورة التأله. ابتدأت من مشكلتين عظيمتين، احداهما في مجال السياسة والأخرى في مجال الاقتصاد والمال، وانتهت إلى التوحيد.

هذه السورة هي سورة التحرير ـ تحرير الإنسان من أنواع العبوديات السياسية والمالية. ليست قضية التوحيد قضية نظرية ـ كما يظن ؛ بل قضية حيوية.

وأنا هنا سأذكر لكم شاهداً في غاية الأهمية : يقول مفكر فيلسوف انجليزي معاصر اسمه « الدوس هكسلي »، (وليس مسلماً)، يقول : ان الغرب ليس متقدماً ؛ بل هو متقهقر منحط. وتقهقره هو نتيجة ابتعاده عن التوحيد. وهذه الجملة الأخيرة أترجمها لكم ترجمة حرفية : نتيجة ابتعاده عن التوحيد ـ فان أوربا ـ كما يقول : منيت بوثنية جديدة، فهي تعبد الأصنام، وقد اخترعت أصناماً جديدة. ويعدد هنا أنواعاً من الأصنام الحديثة كالوطنية والقومية والجماهير والعقل والعلم وما إلى ذلك ؛ فهذه آلهة الغرب، ولذلك يقول : ان التقدم ليس بتقدم الآلة، التقدم بالبر والاحسان، أو بالتقوى والأخلاق. وأوربا ليس عندها أخلاق ؛ لأنها تضطهد وتعذب البشر تعذيباً وحشياً ؛ بل ان الغربيين لا تتحرك ضمائرهم عندما يجدون إنساناً يعذب

ويمثل بانسان آخر ؛ بل ينظرون ويشاهدون ذلك في فيلم في السينما فيهشون وكأن ذلك مسلاة لهم كصراع الثيران[1]. النقطة المهمة هي قوله : ان أوربا متأخرة أخلاقياً لابتعادها عن التوحيد. ثم بعد ذلك فصل آخر من كتابه المسمى « الغايات والوسائل »، يعقد للايمان بالله ويقول عنه : « ليس الاله هو اله النصارى المجسمة ؛ بل هو الاله المنزه عن التجسيم الواحد الأحد ». يقول هذا ويشرحه شرحاً مطولاً. ثم في هذا الفصل ينتقل إلى نقطة نريد ـ أيضاً ـ أن نأخذ منها بعض أفكار، يقول : ليس هنالك الحاد، وانما هنالك ايمان بآلهة مزيفة !. ثم يذكر بعض الأسباب التي تدعو الملحدين إلى الالحاد، ويقول : الالحاد ليس أمراً معقولاً أبداً ؛ وانما هو نتيجة لأسباب عارضة، قال : أنا أذكر سببين كبيرين للالحاد أولهما : الشهوات، أي : الانطلاق مع الغريزة الجنسية إذ يدفع أهلها إلى أن يشعروا وهم يمارسون فجورهم وفسقهم براحة وبألا رقابة عليهم. حينما يكونون مؤمنين بالله يشعرون بنوع من الألم والتمزق، وهذا مصداق قوله ﷺ : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن »، يقول : حينئذ لا يجدون سبيلاً إلى راحة ضميرهم وهم يرتكبون هذه الآثام إلا بطريقة واحدة وهي أن يطردوا هذا الايمان !! فيكفرون بالله ويلحدون ليستبيحوا هذه الأنواع من الفجور. (بسم الله الرحمن الرحيم، لا أقسم بيوم القيامة. ولا أقسم بالنفس اللوامة. أيحسب الانسان أن لن نجمع عظامه، بلى قادرين على أن نسوي بنانه. **بل يريد الانسان ليفجر أمامه. يسأل : أيان يوم القيامة**). أليست هذه الفكرة نفسها ؟

السبب الآخر العارض، قال : الدكتاتورية والاستبداد، لأن هذا الرئيس المستبد يجد أن الله سبحانه وتعالى يشاركه في زعامته، فهو لا يريد زعيماً آخر منافساً له. فالناس حينما يؤمنون بعظمة الله وجبروته يتحررون من جبروت البشر وعبادة البشر، ويصبح الرئيس والملك والجميع عبيداً من عباد الله. وبما أن المستبدين يكرهون هذا لأنهم يريدون الانفراد بالزعامة والتأله ولذلك فانهم يسلكون مسلك الالحاد ! والشاهد على ذلك تأله فرعون لأنه يريد أن

---

(١) هذه خلاصة عما قاله « الدوس هكسلي » في كتابه : « الغايات والوسائل ».

يستبد على الناس ويجعل نفسه إلهاً، فاذا كان هناك إله يتحرر الناس به من عبودية الآخرين إلى الطواغيت حينئذ ينزل هو عن عرشه !.

نظرة الإسلام إلى الإنسان :

نعود الآن بعدما ذكرنا إلى الإنسان مرة أخرى لبيان نظرة الإسلام إلى الإنسان بشيء من التفصيل ؛ لأننا لم نذكر الإنسان إلا في معرض كونه جزءاً من الكون ينطلق من عجائب خلقه إلى الله الخالق. والآن نريد أن نعرف موقع هذا الإنسان في الكون حسب النظرة القرآنية.

أولاً : القرآن ـ القرآن ذكر خلق الإنسان الأول وعناصر تكوينه، عناصر تكوين الإنسان :

١ ـ العنصر الترابي : (خلقكم من تراب)، (ولقد خلقنا الإنسان من طين). وهنا أكتفي بذكر مسألة بسيطة وهي : أن التحليل الكيميائي الآن يعطينا بالضبط مم يتكون هذا الجسم الإنساني ـ من الكالسيوم والبوتاسيوم والماغنسيوم والمنجنيز والحديد... الخ. وحللوا وأخذوا حفنات من التراب وجمعوا تحليلها فاذا بعناصر التراب تقابل عناصر تحليل الجسم الإنساني تماماً ! فقال طبيب كيماوي معاصر اسمه « كاريل » في كتابه : « الإنسان ذلك المجهول »، (وهذا الكتاب خرج عام ١٩٣٦ م وهو مترجم) قال : ان الإنسان مخلوق من التراب حقيقة لا مجازاً ! وذكر هذا الذي قلته لكم الآن نقلاً عنه. ان العنصر الجسمي في الانسان فيه الناحية الترابية وفيه حتى الناحية النباتية، (والله أنبتكم من الأرض نباتاً)، نحن نتغذى الآن اما من النبات أو من أجسام تغذت بالنبات. وحينما ينمو جسمنا بعد مرحلة الرضاعة، أما أن نأكل الخضار والفواكه، أو نأكل اللحم، لحم الغنم والبقر، والغنم والبقر تتغذى من النبات. فبيننا وبين التراب تفاعل عن طريق هذا النبات.

هذا واننا نشارك الحيوان بعض المشاركة، (والله خلق كل دابة من ماء، فمنهم من يمشي على بطنه، ومنهم من يمشي على رجلين، ومنهم من يمشي على أربع).

فالله سبحانه وتعالى حصرنا بين صنفين من الزواحف وذوات الأربع، فالبشر من هذه الناحية كسائر الحيوانات في الطعام والشراب والمعدة وجهاز التنفس والتناسل، فمن هذه الناحية نحن نشارك ونشابه الحيوان (وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم). فهذه مشاركة يشير إليها القرآن. ولكن بعد هذه المشاركة الترابية العضوية ميزنا، (ثم أنشأناكم خلقاً آخر)، ما هذا التمييز وبم هذا التمييز ؟ باليد واللسان، تلك هي الحضارة. ارفعوا الآن اليد ! هل يمكن لأحد أن يصنع أي آلة حتى هذه الحقيبة البسيطة ؟ لا يمكن، اذا كنا نمشي على أربع لا تستطيع أيدينا أن تنطلق ولا تستطيع الكتابة واذا فقدت الكتابة ذهبت الحضارة. واللسان، به ينقل الفكر من المخاطب إلى الحاضر ومن جيل إلى جيل. وهذا اللسان ـ أيضاً ـ نكتب رموزه كتابة، فاذاً ننقلب إلى حيوانات لولا هذا التمييز، قال الله تعالى : (فاذا سويته ونفخت فيه من روحي)، (سواك فعدلك)، (في أحسن تقويم)، هذه التسوية وهذا التقويم هو اشارة إلى انتصاب القامة وانطلاق اليدين فليستا وسيلة للمشي ؛ بل لهما وظيفة أخرى. ان القرد، نهاية تعليمه، أن يقشر الموز أو يركب على الدراجة. أين هذا من صنع الآلات الدقيقة والصواريخ ؟ فانطلاق اليدين أمر هام جداً، والحيوانات التي يحاولون أن يدربوها لتقف دقيقة أو دقيقتين رافعة الأيدي بصعوبة ثم تقع على أيديها لأن أيديها أرجل وليست أيدي، قال تعالى : (خلق الإنسان من نطفة فاذا هو خصيم مبين).

اذاً تميز الإنسان بهاتين الخاصتين : الأولى انتصاب القامة وانطلاق اليدين. والثانية : اللسان والبيان وتتبعه الكتابة. ليس هذا فحسب ؛ بل أمر آخر معروف عند علماء الأحياء يقولون : ان صغير الحيوان يولد مزوداً بجميع خصائص الكبير، بمعنى أن عنزة تلد السخلة، فالسخلة تضع نفسها أمام النار ولا ترمي بنفسها في النار. انتهت تربيتها. (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة)، إذاً بمعنى أن هذه وسيلة التعلم. قابلية التعلم ليست موجودة إلا في حدود ضيقة جداً عند الحيوان لأنه يولد مزوداً بالغريزة. وأما الإنسان فمن خصائصه التعلم. تعلم الفرد في حياته باستمرار، قال تعالى : (وقل رب زدني علماً)، فالإسلام

يقر زيادة العلم ؛ وقوله : (لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة) فيه أمران : أولاً : أن الإنسان يولد غير متعلم فيتعلم ويكتسب العلم ؛ وثانياً : أن الحواس والعقل هذه وسيلة للتعلم. هذه اذاً ناحية أخرى وهي موضوع العلم وهذا ليس عند الحيوان، وقابلية العلم وزيادة العلم وانتقال العلم من رجل إلى رجل ومن جيل إلى جيل بمعنى أن جيل اليوم يختلف عن جيل عشرة قرون ماضية بينما حمار اليوم هو حمار الأمس وهو حمار القرون الماضية والقرون الآتية.

حينئذ نصل إلى الخاصة الثانية من خواص الانسان وهي العقل والعلم، وهذا العنصر مهم وقد أشار إليه القرآن، ولذلك جعل الذين لا يعقلون كالأنعام بل هم أضل. وهو العلم المكتسب كما قال الله سبحانه وتعالى : (أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً)، وهذا هو العنصر الثاني.

إلى هذا الحد يسير الغربيون، فهم يعاملون الانسان كحيوان عاقل. أما الإسلام فيتجاوز بنا هذا الحد إلى ما هو أعلى، يقول الله تعالى : « فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين)، وتلك هي الروح وان كنا نجهلها، (ويسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربي)، ولكن هنا توجد خاصة ربانية اختص بها الانسان حينما خلقه، فهذه الخاصة الربانية أو الروحانية ناحية مهمة وعلى هذا يتكون من ثلاثة عناصر : العنصر الجسمي الترابي، والعنصر العقلي العلمي، والعنصر الروحي.

خرجنا إذاً بنظرية انسانية كاملة من هذه النظرة القرآنية. الانسان الكامل هو من نمت فيه العناصر الثلاثة مع ترتيبها في الأهمية، فالروح هي أعلى من العقل، والعقل أعلى من الجسم ؛ ولذلك فالجسم خادم للعقل، والعقل خادم للروح. فالروح هي التي تؤمن الأخلاق والصلة بالله، والعقل هو الذي يؤمن صلتنا بالأشياء، فهذا ضار وهذا سام... الخ وهذا لا يكفي لأنك قد تستعمل السام لنفسك ولغيرك، أما الروح وهذه الصلة الربانية فهي التي تمنعك. ومن المعجز أن نجد فيلسوفاً معاصراً اسمه « برتراند راسل » يقول : ان هنالك ثلاثة عناصر : الغريزة والعقل والروح، ولا بد من توازن هذه العناصر الثلاثة، وان نقص الحضارة الغربية أن هذا التوازن مفقود منها، وهذا التوازن

مذكور في القرآن بهذا المعنى في سورة الأعراف[1]، (قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد) إلى آخر الآية، ثم يقول : (يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا) ثلاثة عناصر : ١) الزينة، ٢) المسجد والعبادة، ٣) الأكل والشرب. فهذا اشارة إلى أن المقصود بالقسط هنا ليس القضاء بالعدل في توزيع الأموال ؛ بل هو أوسع بكثير، فالله سبحانه وتعالى أقام الوجود على القسط، وطلب من الإنسان أن يقوم بالقسط، وجعل القسط هو هدف وغاية النبوة كلها بنص القرآن، ففي سورة الحديد، (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط) ؛ القسط بعد التوحيد هو القاعدة العظمى وغاية النبوات بنص هذه الآية، وبعد ذلك، (وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس)، اشارة إلى حماية القسط والدفاع عنه بالحديد والقوة. فالله سبحانه وتعالى ذكر الإنسان وصفاته الخلقية وميوله وغرائزه وذكر الجماعات البشرية : الشعوب والقبائل، (وخلقكم أزواجاً)، واختلاف ألسنتكم وألوانكم)، (يا أيها الناس)، **تكررت في القرآن مئات المرات. في حين أن أسماء الأمم** والقبائل لم يذكر منها إلا بنو اسرائيل على سبيل الاستشهاد بقصص أنبيائهم والروم في قصة، (غلبت الروم في أدنى الأرض)، وما عدا هذين لم يذكر القرآن الأجناس والقبائل والأمم والقوميات، حتى العرب ليس لهم ذكر في القرآن لأن كلمة عرب غير موجودة في القرآن، وانما ذكرت لغتهم، (بلسان عربي مبين).

صلة الإنسان بالكون :

ما هي صلة الإنسان بالكون ؟ صلة الإنسان بالكون تقوم على فكرتين هامتين : التسخير والاستخلاف. (وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه)، (وهو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه)، (ذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون)، (وهو الذي سخر

---

(١) قال تعالى : (واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها، قل ان الله لا يأمر بالفحشاء، أتقولون على الله ما لا تعلمون، قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد). إلى آخر الآية ثم قال تعالى : (يا بني آدم) الآية.

لكم البحر)، (وسخر الشمس والقمر)، (ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض). فالكون ليس إلهاً، فمن كانوا يعبدون الكون من الشمس أو القمر أو الحيوانات... الخ. هؤلاء منحطون فكرياً فجاء الإسلام وحرر الإنسان من عبادة الطبيعة بجميع أجزائها ؛ بل جعل له سلطاناً عليها فسخرها له حتى الشمس والقمر، الكون كله مسخر لنا والانسان مستخلف في الأرض، (جعلكم خلائف الأرض)، (واستخلفكم فيها). هذا المعنى متكرر في القرآن الكريم. وخلائف الأرض أحياناً تأتي بمعنى ملوكها والمتحكمين فيها، وقد تأتي لجميع سكان الأرض، (جعلكم خلائف الأرض، فمن كفر فعليه كفره)، هذا دليل على أنه لا يقصد بها المسلمون فقط، ولا يقصد بها دولة معينة ؛ انما يقصد بها البشر عامة، (واذ قال ربك للملائكة : اني جاعل في الأرض خليفة)، فالإنسان مستخلف في الأرض، والكون مسخر له.

من هاتين الفكرتين يبدو لنا شيء مهم جداً : الكون ليس إلهاً للانسان، والانسان ليس إلهاً في الكون ؛ بل هو مكلف وموكل من الله سبحانه وتعالى، وقد أعطي سلطاناً على هذا الكون، ولكن ليس من نفسه ؛ بل من الله. أما في المذاهب الأخرى فأما أن يعبدوا الشمس والقمر كما كان الوثنيون القدماء، أو يجعلوا أنفسهم آلهة للكون كما هي الحضارة الغربية فيطغون ويبغون. أما في الإسلام : فالكون مسخر للانسان وهو ذو سلطان عليه، ولكن ينبغي له أن يتواضع ويعرف موقعه : هو عبد الله، صلته بالله صلة مخلوق وعبد ومملوك له فهو سيده ومالكه ومالك ناصيته، ولكنه أعطاه وظيفة في هذا الكون وجعله خليفة. من هاتين الصفتين نخرج إلى صلة الإنسان بالكون.

الصلة الأولى : صلة تفكير في هذا الكون، (ويتفكرون في خلق السموات والأرض، ربنا ما خلقت هذا باطلاً)، (ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم، ان في ذلك لآيات للعالمين) ــ بكسر لام العالمين ــ. فالله سبحانه وتعالى في القرآن كلما ذكر شيئاً من الكون اما في بداية الآية أو في آخرها تجدون مثل قوله يتفكرون ويعقلون ويعلمون...

الخ. وكذلك يبصرون ويسمعون، أَوَلَمْ يروا،... الخ. اذن الكون هو موضوع **للعقل والتفكير مع الاستعانة بالحواس. وهذا التفكير تفكير في أمرين :**

أولاً : التفكير في الكون نفسه : يريد منا أن نفكر في الكون أي : أن نستخرج ما فيه من سنن يسمونها قوانين الطبيعة، وهي سنن الله في الكون. وهكذا انطلق المسلم ليكتشف الكون وتطور العلم بفروعه... الخ. وقفزت العلوم قفزات لم تقفزها في أي حضارة من الحضارات ؛ بل ان تطور هذه العلوم في العصر الحاضر نتيجة للحضارة الإسلامية التي ترجمت كتبها للاتينية في القرن الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر للميلاد، وعلى أثرها حصل ما يسمى بعصر النهضة في أوربا.

ولكن التوجيه القرآني إلى الكون لا يقف ؛ بل يستمر التفكير حتى يصل إلى خالق هذا الكون فتنسجم حينئذ النظرة العلمية إلى الكون مع النظرة الايمانية إلى الله، وينسجم حينئذ العلم المادي الطبيعي في استخراج سنن الكون مع الايمان بالله خالق الكون وسننه ؛ ولذلك لم يكن هناك أي تعارض بين ما يسمى علم وما يسمى ايمان في الإسلام.

والصفة الثانية في صلة الإنسان بالكون : الانتفاع والاستثمار، فلم يذكر الله سبحانه وتعالى شيئاً إلا وذكر منافعه للانسان أو أشار اليها ؛ اما في ناحية معينة أو بوجه عام : (وهو الذي أنزل لكم من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات، ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون)، (وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون). ونشير هنا إلى الآية الجامعة : (وهو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور). هذه النظرة لا تنتهي إلى الانتفاع ؛ بل تنتهي إلى نظرة ربانية أخلاقية فتذكرك : من خلق هذه المنافع فتذكره وتشكره. وإذا كانت صلة التفكير نتيجتها التقدم في العلوم ؛ فهذه كانت نتيجتها التقدم في الاقتصاد، وكان النشاط الاقتصادي اثر ظهور الإسلام نشاطاً عجيباً، فكانت الموانئ الإسلامية أعظم موانئ العالم. وقد سمى القرآن هذا النشاط ابتغاء من فضل

الله، (ولتبتغوا من فضله)، (فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله)، فالمعرض عن النشاط الاقتصادي معرض عن فضل الله، فالنشاط الاقتصادي في الإسلام جزء من العبادة اذا حقق بطريقة مشروعة.

هذه النظرة جعلت الإنسان على صلة بالكون، فكان لصلة التسخير والاستخلاف ولصلة التفكير والانتفاع نتائج عظيمة جداً.

صلـة الإنســان بالله :

الإنسان بين الله والكون، فهو بالنسبة لله عبد، وبالنسبة للكون ذو سلطان لأنه مستخلف فيه. هذا الموقع العجيب منه تنبثق جميع آفاق الحياة : الاقتصاد والحكم والسياسة، كلها تنبع من هذه النظرة : موقع الانسان بين الله ربه وخالقه وبين الكون الذي استخلف فيه. فالإنسان ليس إلهاً ؛ بل هو عبد ولكن لله لا للكون. والكون ليس إلهاً ؛ بل هو مسخر للإنسان والإنسان مستخلف فيه. ما هي صلة الإنسان بالله عز وجل ؟ الصلة الكبرى هي أنه مخلوق خلقه الله، وأنه عبد الله، فصلته صلة ايمان بأن الله خالقه، وصلة خضوع وقبول لأحكامه. الصلة الأولى : هي أن يعتقد بأن الله خالقه وبيده مصيره، والصلة الثانية : أن يخضع خضوعاً كاملاً لله دون غيره.

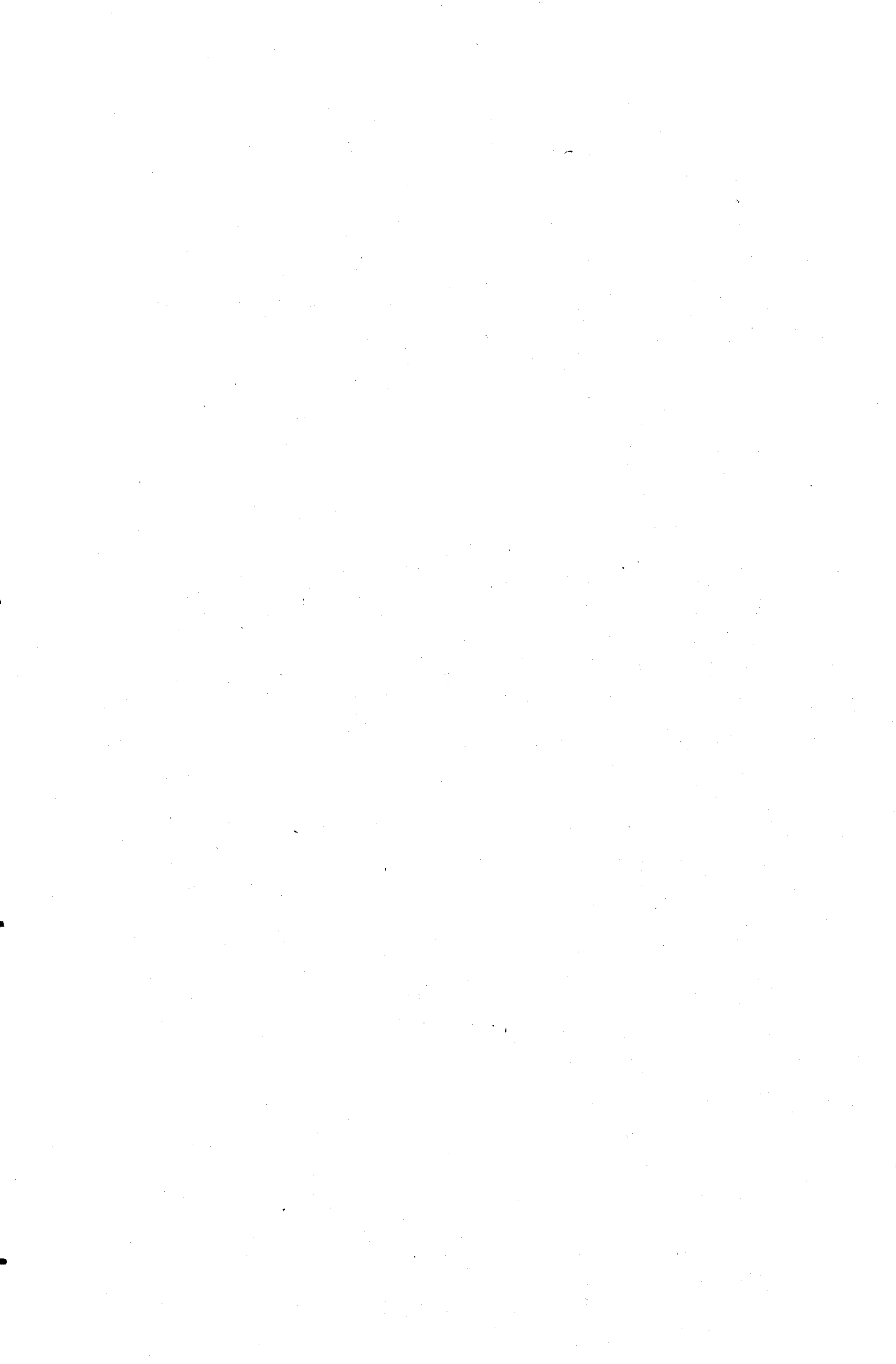
الله سبحانه وتعالى كرَّم الإنسان وأعطاه صفات لم يعطها لأحد من مخلوقاته ؛ فمنها : الحرية، حرية الاختيار، ونسب إليه الارادة والمشيئة، (من أراد العاجلة)، (ومن أراد الآخرة)، نسبت الارادة للانسان، كافراً أو مؤمناً، ولتحقيق الحرية أعطاه الارادة في حدود، ووصفه بالقوة، فعنده شيء من القوة والقدرة، وأعطاه عقلاً ليميز. واذ أعطاه سبحانه وتعالى الحرية والعقل والارادة والقدرة، كذلك كلفه، فأمره بأوامر وترك له مجال الحرية ليفعل.

وهنا أعود إلى مسألة كنت قلتها : الله سبحانه وتعالى ترك له الحرية حقيقة، قال تعالى : « فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى. وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى).

فالله سبحانه يسر للخير وللشر، وفتح الطريقين وترك لك الخيار، فالبدء منك أنت، (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم)، (فأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى)، والهداية هنا تأتي بمعنى الدلالة، والاضلال

فسح المجال لما يختاره من الشر، ولذلك تجدون اذا تتبعتم هذه الآيات أن العبد يبدأ، (ان الله لا يحب الظالمين)، (لا يحب الفاسقين)، (وهديناه النجدين)، **(انا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً)، (لو شاء الله ما أشركنا)، قول الكافرين وأرادوا بها أن الله أجبرهم على الشرك وقد كذبوا ! اذن** الإنسان مزيته أن الله أعطى له جهازاً خاصاً وهو الحرية، فقال له أنا خلقت لك الحرية لو شئت ما خلقتها، لماذا ؟ هذا هو سر القدر. أما اذا قلت لي لماذا يعاقبه ؟ أقول : لأنه أعطاه الحرية. لو أن انساناً جاء لابنه الكبير وعنده مشروع معمل كبير وأراد أن يعطي الحرية لولده في ادارة هذا المعمل، ولو أراد أن لا يعطيه لفعل ولكنه أراد، وحينما ترك له هذه الحرية لم يكن غائباً ؛ بل يرى ما يفعل بدقة. ثم قال له : سأتركك عشر سنين تفعل ما تشاء ولكن سأعطيك تعليمات، ان نفذتها كافأتك بأن سجلت لك هذا المعمل، وان فعلت غير ذلك حرمتك من كذا وكذا، فيتركه وربما هو على الأطلاع دقيقة بدقيقة ماذا يعمل من اساءة التصرف أو حسن التصرف، فهل يقال ان هذا الابن مجبر حين فعل الابن خيراً أو شراً حتى حينما فعل شراً والأب لا يريده، (الارادة التعليمية)، أعطاه تعليمات، وحينما يفعل خلافاً لما أرشده اليه فله الحق في أن يحاسبه خيراً أو شراً. فهو أعطاه الحرية ولكن لو شاء ما أعطاه، لو شاء أن يجعلنا مفطورين على الغريزة كالحيوان لفعل ولكن حكمته التي نجهلها اقتضت أن يعطينا الحرية بدون اكراه ولا اجبار مع علمه السابق بما سنفعل *.

(*) ارجع إلى كتاب نظام الإسلام ــ العقيدة والعبادة، تأليف : محمد المبارك، فصل، الإنسان حر ومسئول.



نظرة الإسلام إلى الحياة

(١)

خلـق الله الإنسان أول ما خلقه من طين أو تراب أو صلصال ــ وكان التراب والماء أي الأرض والشمس والقمر والنجوم وما في السموات قد خلق لأنه خلقه من تراب أو من طين.

هذه المرحلة من الخلق لا ندري مدتها والفاصل بينها وبين كون هذا الإنسان الأول، آدم، انساناً سوياً لأن الله يقول : (هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده). فقد قضى أجلاً لا ندري مدته، وهو في هذه المرحلة التي جعله فيها من طين. وهذه مرحلة لا مجال لمعرفتها إلا بهذا الاجمال.

ثم كان خلقه الثاني الذي هو بالتوالد والتناسل، (من سلالة من ماء مهين)، إلى آخر المراحل التي يتكون أو يمر بها الإنسان في هذا النوع من الخلق، **فيكون نطفة ثم علقة ثم مضغة مخلّقة وغير مخلّقة، ثم انساناً سوياً** معتدل القامة منتصبها مزوداً بالسمع والبصر والعقل قادراً على اكتساب العلم وزيادته.

(٢)

لقد انتقل الإنسان الأول ــ آدم ــ من المكان الذي كان فيه ــ من

الجنة ـ إلى هذه الأرض التي نعيش فيها واهبط اليها ليستأنف حياة جديدة، مبتدئاً صفحة بيضاء لا دنس فيها ولا اثم بعد أنَ غفر الله له خطيئته الأولى وتاب عليه، (ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى) ٢٠ ـ ١٢٢.

ما هذه الحياة الجديدة التي استأنفها الإنسان وعلى أي أساس جعلها الله ؟ انها حياة فيها نوع من الاستقرار ونوع من المتعة للإنسان، ولكن لها نهاية تنتهي عندها وهذا ما تعبر عنه الآية الكريمة : (ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين)[1].

ليست هي الاستقرار الكامل الدائم كما يريدها ويراها الماديون والأبيقوريون، وليست كذلك عدماً وخيالاً ووهماً لا ينبغي أن يحسب حسابها، ولا تستحق أي التفات. فالنظرة الإسلامية وسَطٌ بين هاتين النظرتين، فقد أثبت لها الوجود بل الاستقرار ولكنه نوع من الاستقرار ـ يفهم من التنكير ـ وليس كل الاستقرار وكامل الاستقرار. وهي متاع وفيها للإنسان لذة ولكنها ليست اللذة الكاملة المثالية بل هي نوع من المتاع. وأخيراً ليست هذه الحياة أبدية دائمة ؛ بل هي محدودة في الزمان، فهي ـ استقرارها ومتاعها ـ « إلى حين ». وربما كان هذا هو المقصود في الأجل الثاني في الآية الكريمة التالية : (هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده)، أي أجل انهاء حياة الإنسان على هذه الأرضِ والتي تسمى « الحياة الدنيا ».

لقد وضع الإنسان في نطاق حياة لا بد له ولا معدى له عن الحياة والسير فيها. وهو فيها محاط بحواجز لا يستطيع اجتيازها ؛ بل عليه أن يعمل ضمن نظم للكون مرسومة لا قدرة له على تبديلها، وعليه أن يعرفها ويستفيد منها ويعمل ـ لتأمين استقراره ومتعته ـ في نطاقها. فهو لا يستطيع أن يغير حركة الشمس والأرض ولا سنة تبخر المياه وتجمعها في غيوم، كما أنه لا يستطيع أن يغير نظام التنفس والهضم أو الدورة الدموية في تكوينه العضوي. ولكنه ضمن هذا النظام الكوني العام له نطاق خاص به يستطيع الحركة في داخله واستعمال ارادته وتنفيذ ما يختار.

---

(١) ومثلها قوله تعالى : (ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون) ٧ ـ ١٠.

وفي مقابل هذه الحرية وهذا الامكان المتاح له زوده الله بتعليمات يهتدي بها باختياره ليتم الاختبار وليتم التمتع بكرامة الحرية التي ميز بها الإنسان عن غيره من المخلوقات. وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة : (قلنا اهبطوا منها جميعاً فاما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والذي كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) ٢ ـ ٣٨.

وتتلخص هذه التعليمات ـ كما ورد في سورة الأعراف في قصة آدم وهبوطه إلى الأرض، ومخاطبة الله لنبيه في كلمة القسط في قوله تعالى : (قل أمر ربي بالقسط) انظر الآيات ١١ ـ ٣٠. وهي تشمل ما يقابل التطرف في كل شيء والخروج عن التوازن وضدها الفحش والفاحشة والفواحش ومنه البغي والعدوان والطغيان والاسراف والفسوق والظلم. (قل انما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن، والاثم والبغي بغير الحق، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون). أما **القسط** فاعطاء كل شيء حقه وكل جانب من جوانب حياة الإنسان ما يستحقه بحسب التعليمات الالهية. وهذا ما تدل عليه الآية الواردة في السياق نفسه وهي قوله تعالى : (يا بني آدم خذوا **زينتكم** عند كل **مسجد وكلوا واشربوا** ولا تسرفوا، انه لا يحب المسرفين)، وقد جاءت مفسرة للآية التي سبقتها، (قل أمر ربي بالقسط)، ومشيرة إلى العبادة والزينة والطعام والشراب من غير اسراف وخروج عن القسط.

ان القسط هو الأصل الذي يلخص جميع أحكام الشريعة وتعاليم **الإسلام. ويدل على ذلك قوله تعالى : (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات، وأنزلنا** معهم الكتاب والميزان **ليقوم الناس بالقسط)**، فارسال الرسل وانزال الكتب المتضمنة موازين القسط في كل مجال انما هو لتقوم حياة الناس ـ فرادى وجماعات ـ على **القسط** والتوازن.

ان في هذه الحياة الدنيا ملذات وشهوات ونعماً وطيبات ورزقاً وزينة يميل الإنسان إلى حبها وإلى الأخذ منها. وقد وردت النصوص في وصفها ووصف موقف الإنسان منها على أن ذلك وصف لواقع : (زين للناس حب

الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل **المسوّمة والأنعام والحرث، ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن** المآب) ٣ ـ ١٤ . وكذلك قوله : (انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد، كمثل غيث أعجب الكفار نباته...)[1]. وقد أباح الإسلام الأخذ من هذه النعم المستطابة وجعل هذا الأخذ بين حدين : أحدهما : الأخذ بحد أدنى منها، والثاني : هو عدم تجاوز ما يعتبر اسرافاً.

واشترط كذلك أن لا تكون متع هذه الحياة الدنيا هي الغاية المقصودة، وألا تكون مفضلة على الحياة الآخرة ملهية وشاغلة عنها، بل أن يستحضر الإنسان أنها متع زائلة وأن يقترن الأخذ بها بشكر الله عليها.

١ ـ أما الأخذ بحد أدنى فقد وردت فيه آيات كثيرة منها قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا **كلوا من طيبات ما رزقناكم** واشكروا لله ان **كنتم إياه تعبدون) ٢ ـ ١٧٢.**

وقوله : (يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً) ٢ ـ ١٦٨. **وقوله : (يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا).** بل انه تعالى يندد بمن يحرمها من رهبان بعض الأديان الأخرى أو غيرهم، فيقول سبحانه : (يا أيها الذين آمنوا **لا تحرموا طيبات** ما أحل الله لكم ولا تعتدوا، ان الله لا يحب المعتدين)، ويقول : (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة).

فسماها سبحانه (زينة الله)، وأضافها إليه وسماها **في مكان** آخر (نعمة الله)، وسماها (الطيبات)، وقال : (ويحل لكم الطيبات)، تحريضاً للأخذ منها بنصيب.

٢ ـ أما النهي عن الاسراف، فقد قال تعالى : (كلوا من ثمره إذا أثمر، وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا، انه لا يحب المسرفين) ٦ ـ ١٤١.

---

(١) سورة الحديد الآية ٢٠.

وكذلك قال : (وكلوا واشربوا ولا تسرفوا، انه لا يحب المسرفين) ٧ ــ ٣٠. وقد ندد بمن مال إلى الشهوات ميلاً عظيماً في قوله : (والله يريد أن يتوب عليكم، ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً) ٤ ــ ٢٦.

٣ ــ أما التنديد بمن جعلها غاية له فقد قال تعالى : (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون، أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار، وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون) ١١ ــ ١٥.

فان المؤمن ينبغي أن يجعل الآخرة ومرضاة الله غاية له، وهذا يتنافى مع جعل ملذات الدنيا غاية له. فقد قال تعالى : (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا).

٤ ــ ولذلك كان من كبريات النقائص والذنوب، التي هي من صفات الجاحدين الكافرين بالله، تفضيل الدنيا وملذاتها ومتعها على الآخرة. وقد كثرت الآيات التي تبين أفضلية الآخرة على الدنيا وتندد بمن يؤثر الدنيا على الآخرة، وهذا هو الذي وردت النصوص القرآنية في ذمه ؛ وأما الدنيا في ذاتها فلم يرد ذم لها، وانما المذموم حبها وتفضيلها وايثارها وجعلها هدفاً وغاية.

يقرر الله سبحانه أن ما في الآخرة أفضل مما في الدنيا وأبقى : (المال والبنون زينة الحياة الدنيا، **والباقيات الصالحات خير** عند ربك ثواباً وخير أملاً) ١٨ ــ ٤٨.

(وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها، وما عند الله خير وأبقى، أفلا تعقلون) ٢٨ ــ ٦٠.

ويندد **بايثار الدنيا على الآخرة** ويفضلها في الحب، ويتوعد من يفعل ذلك. **واليك بعض ما ورد في ذلك** من آيات :

(بل تؤثرون الحياة الدنيا، والآخرة خير وأبقى) ٨٧ ــ ١٦.

(فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فان الجحيم هي المأوى) ٧٩ ــ ٣٨. وهنا اقترن ايثارها بالطغيان.

(ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله، ولهم عذاب عظيم. ذلك بأنهم **استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة** وأن الله لا يهدي القوم الكافرين) ١٦ ـ ١٠٧.

(ان هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً) ٧٦ ـ ٢٧ وذلك بعد قوله : (لا تطع منهم آثماً أو كفوراً).

(قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها **أحب اليكم** من الله ورسوله **وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره) ٩ ـ ٢٤.**

ان الله سبحانه ينهى عن الاغترار بها والركون اليها والاستغراق في طلبها مع أنه سبحانه يصف الإنسان عموماً بأنه محب لها وميال اليها في قوله تعالى : (وانه لحب الخير لشديد) والخير بمعنى المال. وقوله : (وتحبون المال حباً جماً).

ان الاغترار الكامل بالدنيا مقترن بالهزء بالدين واتخاذه لعباً ولهواً، وهذا من صفات الكافرين. قال تعالى : (ونادى أصحابُ النار أصحابَ الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله، قالوا ان الله حرمهما على **الكافرين الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرتهم الحياة الدنيا** فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا) ٧ ـ ٥٠ ـ ٥١.

ان الاغترار بالحياة الدنيا واعتبارها دائمة باقية ونسيان الآخرة واهمالها أو انكارها أصلاً، معان مرتبط بعضها ببعض تؤدي إلى نتائج سيئة في هذه الحياة، ولا سيما من الناحية الأخلاقية، عدا ما في ذلك من إعراض عن الله وإعراض عن لقائه وحسابه. لذلك تجد هذه المعاني مترابطة ومقترناً بعضها ببعض في الآيات الكريمة التي تتعلق بهذا الموضوع وتتضمن هذه المعاني.

قال تعالى : (يا معشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي **وينذرونكم لقاء يومكم** هذا، قالوا شهدنا على أنفسنا **وغرتهم الحياة الدنيا** وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) ٦ ـ ١٣٠.

تجد في هذه الآية مثلاً ثلاثة أمور متلازمة : الانذار باليوم الآخر، والاغترار بالدنيا، والكفر.

وقال سبحانه في آية أخرى : (ونادى أصحابُ النار أصحابَ الجنة **أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله، قالوا ان الله حرمهما على الكافرين الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرتهم الحياة الدنيا، فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا)** ٦ ـ ٧٠.

وقال ـ والخطاب للكافرين :

(وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين، ذلك بأنكم اتخذتم آيات الله هزواً وغرتكم **الحياة الدنيا)** ٤٥ ـ ٣٤.

وينبغي أن نلاحظ أن التمتع بالحلال من طيبات الدنيا أو ما سماه القرآن متاعاً هو غير الاغترار به، فقد ورد في القرآن في معرض المن به على بني آدم، فلا يكون اذاً مذموماً في ذاته. فمن ذلك قوله تعالى على سبيل الاخبار والاباحة :

(ولكم فيها مستقر ومتاع إلى حين) ٢ ـ ٣٦، ٧ ـ ٢٣.

(يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى) ١١ ـ ٣.

(ومن أصوافها وأوبارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين) ١٦ ـ ٨٠.

(وعنباً وقضباً وزيتوناً ونخلاً وحدائق غلباً وفاكهة وأبّاً، متاعاً لكم ولأنعامكم) ٨٠ ـ ٣٣.

تمتع المؤمن مقترن بالنظر إلى الدنيا على أنها زائلة مؤقتة وبتذكر نعم الله عليه وشكره. وأما تمتع **الكافر** فمقترن بالاغترار بهذه الدنيا كأنها دائمة باقية. **وبالإعراض** عن ذكر الله وعن تذكر لقائه. (والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام، والنار مثوى لهم) ٤٧ ـ ١٢. وهؤلاء هم الذين قال عنهم، (ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون) ١٥ ـ ٣.

(ان المتقين في ظلال وعيون وفواكه مما يشتهون، **كلوا واشربوا هنيئاً** بما كنتم تعملون. انا كذلك نجزي المحسنين، ويل يومئذ للمكذبين. **كلوا وتمتعوا قليلاً** انكم مجرمون) ٧٧ ـ ٤١.

ان الوقوف بين حدي الامتناع والاسراف وبين الاغترار بها والانصراف

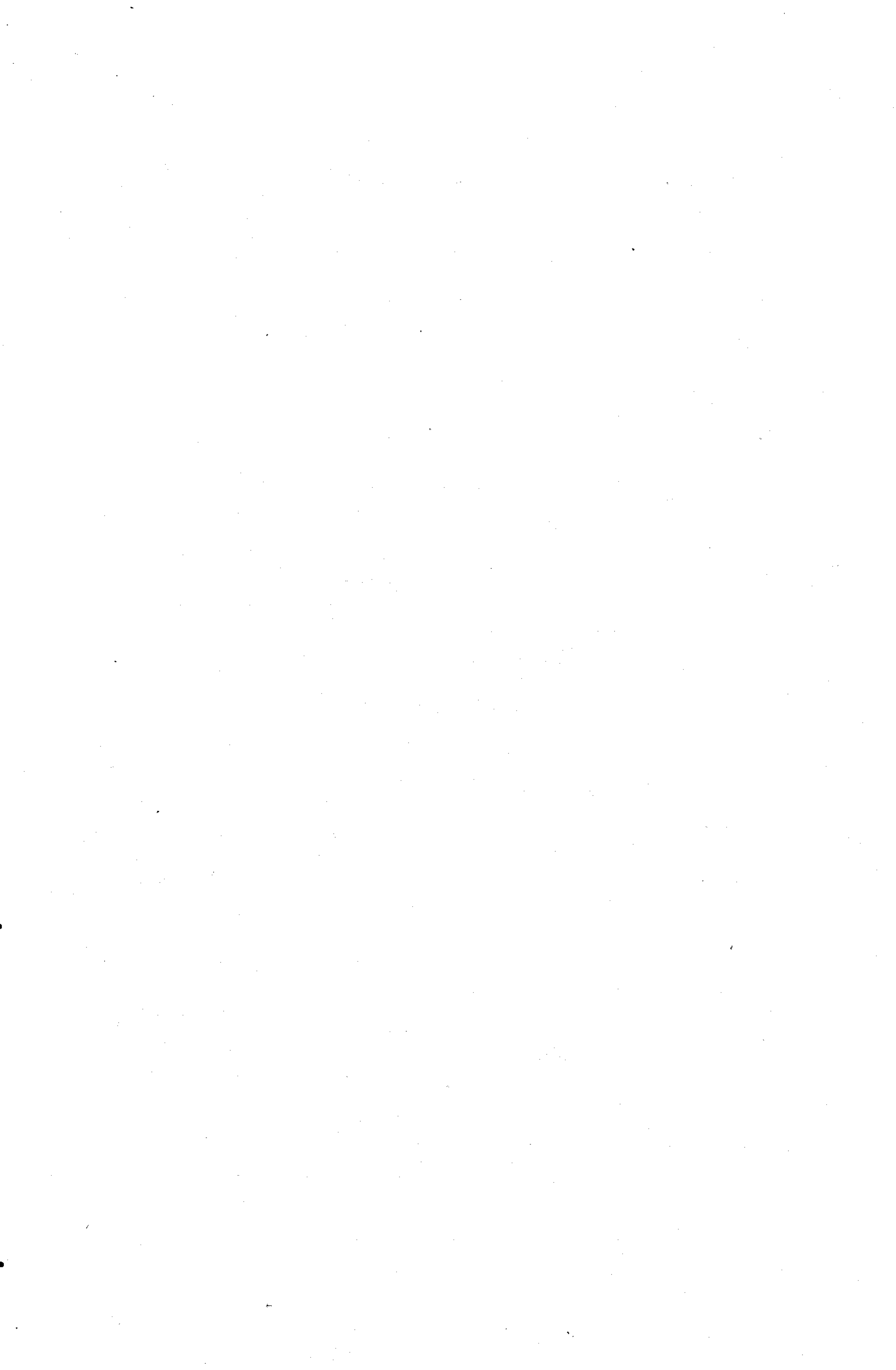
عنها كلياً بحجة النظر والتفكر في الآخـرة هو الاعتدال والتوازن الذي سمـاه القرآن **قسطاً** وأمر به وجعله غاية الرسالات.

٥ ـ وأخيراً ينبغي أن يكون كسب ملذات الحياة والتمتع بها وانفاقها والانتفاع بها خاضعاً لضوابط أخلاقية حددها الإسلام وسماها (حلالا)حين تخضع لهذه الضوابط والأحكام.

هذه الضوابط هي التي تجعل، في باب ملذات الطعام والشراب، الخنزير والخمر حراماً، وفي باب المتعة الجنسية، الزنا حراماً، والزواج حلالاً، والكسب بالبيع الصحيح والعمل حلالاً، وبالربا والغش والظلم حراماً. وسبيل معرفة هذه الضوابط التي تفرق بين الطيبات والخبائث، والحلال والحرام، هي أحكام شريعة الله التي جاءت ببيناتها نصوص الكتاب والسنة.

الأمة في دلالتها العربية والقرآنية

للدكتور أحمد حسن فرحات
الأستاذ المساعد بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نحمده، ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهد الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً. والصلاة والسلام على معلم الناس الخير، سيدنا محمد، وآله وصحابته ومن دعا بدعوته واهتدى بهداه إلى يوم الدين وبعد :

فإن المراقب العادي لما يجري في العالم من أحداث، لا يستطيع أن يتجاهل ما يتعرض له الإسلام من حرب وكيد، وما يعانيه المسلمون من ظلم واضطهاد. كما أن الباحث المتأمل لا يستطيع أن يغمض عينيه عن حقيقة **هذه الحرب وأهدافها، وعن مجالاتها وأبعادها، وانها لا تعدو في حقيقتها** كونها حرباً صليبية يهودية شيوعية شاملة، استنفر لها العدو كل ما يملك من طاقة وجهد، ووضع في خدمتها كل ما وصل اليه العقل العلمي المبدع من اكتشاف واختراع، وشحن نفوس أبنائه وجنده بكل ما تختزنه الصليبية واليهودية والشيوعية من حقد دفين على هذه الأمة.

وبناء على ما تقدم فإن الغزو الفكري الغربي قد وصلت طلائعه إلى **بلادنا، ولا نكاد نجد مجالاً من مجالاتنا إلّا وقد تأثر منه بنصيب، حتى في** المجالات التي تعتبر من أخص خصائصنا. فإننا نرى الغزو الفكري يحاول محاصرتها واقتحامها، بينما لا يعرف الكثير منا أن العدو قد وصل إلى هذه

المواقع لأنه مشغول عن ذلك بتوافه الحياة، غارق في أوهامه وأحلامه، لا يشعر بتدبير العدو وخطره، وأن عليه أن يخوض معه معركة حاسمة في كل ميدان، وأن عليه أن يعد لهذه المعركة التاريخية عدتها، وأن يحسب لها حسابها.

بل إن من أظهر آثار هذا الغزو الفكري في بلادنا مانشاهده من بعض شبابنا وأبناء جلدتنا والذين يتكلمون لغتنا، يولون وجوههم شطر الحضارة المادية الغربية، يطوفون حول اصنامها، ويخدعون ببريقها، ويتغذون من ثقافتها، يساعدهم في ذلك هوى في نفوسهم، وجهل بثقافتهم ودينهم، وثمن بخس من متاع الحياة يبيعون به أمتهم وحضارتهم.

لقد وصل الغزو الفكري إلى مجالنا الديني وثقافتنا الإسلامية،وإن العدو يركز كل جهوده على هذا المعقل الحصين الذي مازال يحفظ هذه الأمة ويمنعها من السقوط، وعلى الأمة أن تحول دون سقوط هذا المعقل بكل ما أوتيت من قوة، وإلّا فإن الكارثة سوف تكون مروعة.

ومن مظاهر هذه الغارة الغربية على ديننا وثقافتنا ما يقوم به المستشرقون من بحوث ودراسات في الثقافة الإسلامية وعلومها، ومن نشر لبعض المخطوطات المتصلة بها، وما يصاحب ذلك كله من دس وافتراء وتحريف في النصوص ودلالتها، ومن عبث بالمصطلحات الإسلامية وتشويهها. بل إنهم ليبعدون كثيراً فيما يذهبون إليه من أحكام، وما يتوصلون اليه من نتائج، حتى انهم كثيراً ما يبيحون لأنفسهم حق الفتيا، في « العربية » و « الإسلام »، في جرأة غريبة ومنطق عجيب.

ولعل خير مثال نقدمه على ذلك ما ورد بشأن مصطلح « الأمة » ـ الإسلامي ـ في دائرة المعارف الإسلامية، والتي هي عمل من أعمال المستشرقين العلمية، وفي موضوع من أوسع موضوعات الثقافة الإسلامية وأخطرها، لنرى أنموذجاً واحداً من نماذج كثيرة تحفل بها كتب المستشرقين وأعمالهم ودراساتهم، وكيف تشكل مثل هذه الأعمال خطراً على ثقافتنا الإسلامية وديننا الحنيف، ولنتبين مدى تقصيرنا في سد مثل هذه الثغرات التي ينفذ منها عدونا إلى ما يريد.

جاء في دائرة المعارف الإسلامية : ٤/٤١١ ـ ٤١٤ عن مصطلح « الأمة » الإسلامية ما يلي :

أمة : هي الكلمة التي وردت في القرآن للدلالة على شعب أو جماعة وهي ليست مشتقة من الكلمة العربية « أم »، بل هي كلمة دخيلة مأخوذة من العبرية « أمّا »، أو من الأرامية « أُمّيثا »، لذلك فلا صلة مباشرة بينها وبين كلمة « أمة » التي تدل على معان أخرى مثل : حين من الزمن ـ سورة هود : وسورة يوسف : ٤٥ ـ **أو الجيـل، وهذه نجدها في القـرآن أيضاً.** سورة الزخرف : ٢٢ وما بعدها.

وقدتكون الكلمة الأجنبية دخلت لغة العرب في زمن متقدم بعض الشيء ـ انظر ما يقوله هوروفتز عن نقش الصفا رقم ٥٢ ص : ٤٠٧ ـ **ومهما يكن من شيء فإن محمداً أخذ هذه الكلمـة واستعملها وصارت منذ** ذلك الحين لفظاً إسلامياً أصيلاً.

والآيات التي وردت فيها كلمة « أمة » ـ وجمعها أمم ـ في القرآن مختلفة المعنى بحيث لا يمكن تحديد معناها بالتدقيق. على أن مما لا شك فيه أنها تدل دائماً على فئة أو طائفة من الناس تربطهم أواصر الجنس أو اللغة أو الدين، وهم داخلون فيمن سيحاسبهم الله على ما كسبوا في هذه الحياة، ونجد دلائل تؤيد هذا المعنى حتى في الآيات التي وردت فيها كلمة « أمة » من غير نسبة إلى شيء ما، مثل آية/١٦٤/ من سورة الأعراف، وآية/٢٣/من سورة القصص.

ويطلق لفظ « الأمة » للدلالة على الجيل في آيات متفرقة ـ سورة الأعراف : ٣٨ ـ وسورة فصلت : ٢٥ ـ وسورة الأحقاف : ١٨ ـ بل وعلى جميع الكائنات الحية ـ الأنعام : ٣٨ ـ ويراد بهذا اللفظ دائماً عند إطلاقه على هذه الكائنات انها داخلة فيمن سيحشرون للحساب وانها أهل للجزاء.

وأطلق لفظ « الأمـة »، شذوذاً في آية واحدة ـ سورة النحل : ١٢٠ ـ للدلالة على فرد هو إبراهيم، ومعنى لفظ « الأمة » ـ هنا ـ أيضاً : الإمام، كما يقول علماء اللغة، أو إن إبراهيم سمي « أمة » بصفته رئيس الجماعة

التي أنشأها وذلك باطلاق لفظ الكل على الجزء. وفيما عدا هذا يدل لفظ « الأمة » دائماً على جماعات كبيرة، أو على الأقل على جماعات تنطوي في غيرها اكبر منها.

وقد أرسل الله لكل أمة رسولاً ـ الانعام : ٤٢ ـ يونس : ٤٧ ـ الرعد : ٣٠ ـ النحل : ٤٣ ، ٦٣ ـ المؤمنون : ٤٥ ـ العنكبوت : ١٨ ـ غافر : ٥ ـ أو نذيراً : فاطر : ٢٣ و ٤٢ ـ يهديهم إلى الصراط المستقيم. ولكن هؤلاء الرسل أوذوا وكذبوا، كما وقع لمحمد ـ المؤمنون : ٤٤ والعنكبوت : ١٨ ـ وغافر : ٥ ـ ولذلك سيكونون يوم القيامة شهداء على من كذبهم وآذاهم ـ النساء : ٤٠ ـ النحل : ٨٤ و ٨٩ ـ القصص : ٨٥ ـ البقرة : ١٤٢ ـ وكل أمة ستحشر للحساب الأنعام : ١٠٨ ـ الأعراف : ٣٧ ـ يونس : ٤٥ ـ الحجر : ٥ ـ المؤمنون : ٤٣ ـ النحل ٨٣ الجاثية : ٢٧.

وفي الأمم المختلفة قوم اجابوا دعوة الرسل فاهتدوا إلى الصراط المستقيم وآخرون لم يؤمنوا بما جاؤوا به ـ النحل : ٣٦ ـ يصدق هذا بنوع خاص على أهل الكتاب، ويسمى المهتدون من أهل الكتاب أمماً ـ آل عمران ١١٣/وما بعدها ـ المائدة ـ ٦٥ ـ الأعراف : ١٥٩ ـ البقرة : ١٢٨، ١٣٤ ـ الأعراف ١٦٧ ـ ١٨١ ـ هود : ٤٨ ـ وهم طوائف صغيرة في جماعات كبرى.

وكثيراً ما يتعرض محمد لبحث مسألة اختلاف الناس أمماً بعد أن كانوا أمة واحدة، ويرى أن السبب الحقيقي لهذا الاختلاف هو إرادة الله التي لا نحيط بها، « وما كان الناس إلّا أمة واحدة فاختلفوا، ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم فيما فيه يختلفون » ـ يونس : ١٩، وانظر سورة المائدة : ٤٨ ـ وهود : ١١٨ ـ والنحل : ٩٣ ـ والشورى : ٨.

ويقال احياناً أن سبب الاختلاف هو بغي الناس وشقاقهم ـ البقرة : ٢١٣ الأنبياء : ٩٣ المؤمنون : ٥٣.

وفي آية أخرى يرجع السبب إلى انقسام بني إسرائيل إلى اثنتي عشرة أمة ـ الأعراف : ٦٠ وانظر أيضا : ١٦٨.

ويظهر أن أقوال محمد هذه، وفيها من الخطابة أكثر مما فيها من المنطق، إنما كانت إجابة على اعتراضات أثارها خصومه من أهل الكتاب، وما كان النبي ليتعرض لهذه المسألة الصعبة من تلقاء نفسه.

أما فيما يتعلق بأمة محمد خاصة، فنستطيع أن نتبدل بعض الاختلاف والتبدل في معنى كلمة « أمة »، والمسألة ـ هنا ـ أسهل لأننا نعالج إلى حد ما مسألة تاريخية.

كان محمد في أول رسالته يعتبر العرب عامة ومواطنيه من أهل مكة أمة قائمة بذاتها، كما أن الله أرسل رسله ومنذريه إلى الأمم السالفة، فهو قد أرسل محمداً ليبلغ رسالة الله إلى الأمة العربية، ويبين لها طريق النجاة، ولم يكن قد بعث فيها رسول من قبل، وقد كذب وأوذي أشد الإيذاء، شأن من سبقه من الرسل.

وبعد أن قطع النبي علاقاته مع أهل مكة الوثنيين، وهاجر هو وأصحابه إلى المدينة، أسس جماعة جديدة تجعل أهل المدينة جميعاً جماعة سياسية واحدة، بمن فيهم المسلمون ومن لم يستجيبوا إلى دعوته الدينية. وينص كتاب النبي بين المهاجرين والأنصار، الذي وضعت فيه أسس هذا الحلف، نصاً صريحاً على أن أهل المدينة بمن فيهم اليهود يكونون أمة ـ ابن هشام : ٣٤١ ـ ٣٤٢ وما بعدها ـ على أن الصيغة السياسية الغالبة في هذه الأمة الجديدة إنما كانت مؤقتة.

فلم يكد محمد يحس أن مركزه قد توطد في المدينة، ويرى انتصاره في حروبه مع كفار مكة حتى استطاع أن يخرج من جماعته السياسية الدينية أهل المدينة وخصوصاً « اليهود » الذين لم يعتنقوا الدين الذي جاء به، وبمرور الزمن صارت أمته تتألف من المسلمين وحدهم، وصار يعتبر المسلمين أمة، ويؤكد صفاتهم الخلقية والدينية ـ آل عمران : ١٠٤ ـ ١١٠ ويعتبرهم غير أهل الكتاب الذين كان محالفاً لهم.

وكان من أثرقطعه للصلة بأهل الكتاب أن بدأ يميل شيئاً فشيئاً إلى أهل مكة وإلى الكعبة مركز عبادتهم ـ البقرة : ١١٩ وما بعدها وخصوصاً : ١٢٢ / والحج : ٣٥ ، ٦٦ ـ وإنما كان رجوعه إلى فكرته الأولى في إنشاء

أمة تشمل العرب جميعاً رجوعاً ظاهرياً، فالحقيقة أن النتيجة الأخيرة التي وصل اليها تختلف اختلافاً جوهرياً عن النقطة التي بدأ منها، فإن فكرة إنشاء أمة عربية، وهي الفكرة التي أخذها محمد أول الأمر قضية مسلمة لم تتم إلّا بعد جهد عظيم. على أنه إذا كانت الأمة التي أنشأها أول الأمر هي من العرب، فقد كان هذا أمراً ثانوياً. أما الأمر الجوهري فهو الأساس الديني الذي قامت عليه، فبعد أن كانت أمة من العرب صارت أمة من المسلمين، ولا عجب أنه لم يكد يموت محمد حتى انتشرت إلى ما وراء جزيرة العرب وأصبحت بمرور الزمن وحدة كبيرة تشمل أجناساً وأمماً مختلفة ».

الأمـة في اللغـة :

يرى أبو البقاء في كلياته : ٣٠١/١ : أن « الأمة » ـ في الأصل ـ : المقصود كـ « العُمْدَة » و « العُدَّة » في كونهما « معموداً ومُعَدّاً ».

وهذا يعني أن « الأمة » ـ عند أبي البقاء ـ بمعنى اسم المفعول، ولم أر أحداً من اللغويين ـ فيما علمت ـ تكلم على الوزن الصرفي لكلمة « أمة » غير أبي البقاء. لكن يفهم من المعاني التي ذكرها علماء اللغة أن « الأمة » قدتكون بمعنى اسم المفعول ـ كما هو رأي أبي البقاء ـ وقد تكون بمعنى اسم الفاعل. وسنوضح ذلك فيما بعد إن شاء الله.

الإشتقـاق اللغـوي :

وإذا كانت « الأمـة » بمعنى المقصود فإن اشتقاقها من « الأَمّ » بمعنى : القصد، وهذا ما أكده صاحب لسان العرب حيث قال : الأمة ـ في اللغة ـ : من القصد.

يقال : أممت إليه : إذا قصدته، ويشهد لقول صاحب اللسان قوله تعالى « ولا آمين البيت الحرام » أي : قاصدين. إلّا أن الأمر الذي يلفت الانتباه أن « الأمة » ـ في اللغة ـ تتصرف في معان كثيرة كما جاء في كتاب « بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز : ٢٩/٢ » ـ للفيروزابادي صاحب القاموس حيث قال :

« الأمة ـ لغة ـ : الرجل الجامع للخير، و « الإمام »، وجماعة أرسل

اليهم رسول، والجيل من كل حي، والجنس، ومن هو على الحق مخالف لسائر الأديان والحين والقامة، والأم، والوجه، والنشاط، والطاعة، والعالِم. ومن الوجه : معظمه. ومن الرجل : قومه. وأمة الله تعالى : خلقه ».

وإن تصرف الكلمة في هذه المعاني المتعددة هو الذي دفع المستشرقين إلى الزعم بأن الكلمة دخيلة في العربية، وانها ليست مشتقة من « الأم » بمعنى القصد، حيث لم يجدوا صلة اشتقاقية بين هذه المعاني على حد قولهم. ومن ثم حاولوا أن يلصقوها بالعبرية أو الآرامية.

الأصل الذي يجمع هذه المعاني :

يرى صاحب « لسان العرب » أن تلك المعاني المتعددة لكلمة « أمة » ترجع كلها إلى معنى القصد حيث يقول في ذلك : « وأصل هذا الباب كله من القصد، يقال : أممت إليه : إذا قصدته. فمعنى « الأمة » ـ في الدين ـ : ان مقصدهم مقصد واحد. ومعنى « الأمة » ـ في النعمة ـ : إنما هو الشيء الذي يقصده الخلق ويطلبونه. ومعى « الأمة » ـ في الرجل المنفرد الذي لا نظير له ـ : ان قصده منفرد من قصد سائر الناس، قال النابغة :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة
وهل يأثمن ذو أمة وهو طائع

ولو أن صاحب اللسان تابع الكلام على بقية المعاني لأعفانا من كثير من العناء في هذا الموضوع، ولكنه مع الأسف لم يستوعب كل المعاني السابقة مما يجعل مهمتنا أكثر صعوبة وتعقيداً، وسنحاول فيما يلي اكتشاف الصلة الاشتقاقية الجامعة لمعاني كلمة « الأمة »، مستعينين في ذلك بما ترك لنا علماء اللغة والمؤلفون فيها من إشارات وامارات.

تصنيف المعاني المختلفة ضمن مجموعات :

إن نظرة مدققة في المعاني المتعددة التي أشرنا اليها تفيد بإمكان تصنيف تلك المعاني في خمس مجموعات على النحو التالي :

المجموعة الأولى : تكون « الأمة » فيها بمعنى الجماعة وتشمل :

الجماعة من الناس ـ أتباع الأنبياء ـ جماعة العلماء ـ من أرسل اليهم الأنبياء من كافر أو مؤمن ـ الجيل والجنس من كل حي ـ إلى غير ذلك من أنواع الجماعات التي ذكرها علماء اللغة.

المجموعة الثانية : تكون « الأمة » فيها بمعنى « الدين » أو « الملة » أو « الطاعة » وهي ألفاظ متقاربة في المعنى.

المجموعة الثانية : تطلق « الأمة » على رجل واحد إذا كان على دين الحق مخالفاً لسائر الأديان، أو كان لا نظير له أو كان رجلاً جامعاً للخير أو عالماً أو قدوة أو إماماً أو ربانياً وهي كلها ألفاظ شبه مترادفة تعبر عن حقيقة واحدة.

المجموعة الرابعة : تكون « الأمة » بمعنى « الحين » أو « الزمن » أو « السنين ».

المجموعة الخامسة : تكون « الأمة » أسماء لأعضاء في الإنسان كـ « الوجه » و « القامة ». ويلاحظ أن المجموعات الأربع الأول هي التي ورد استعمالها في القرآن الكريم، ومن ثم سينصب جهدنا واهتمامنا عليها دون المجموعة الخامسة والتي يكفي أن نشير فيها إلى أن « الوجه » و « القامة » ليسا بعيدين عن معنى « القصد » الذي اشتقت منه « الأمة » وذلك أن « الوجه » و « القامة » كثيراً ما يعبر عن الجهة التي يقصدها الإنسان، وهكذا يقال : لا أمة لبني فلان، أي : ليس لهم وجه يقصدون اليه، لكنهم يخبطون خبط عشواء.

ونعود الآن إلى المجموعات الأربع لنرى كيف يمكن إرجاعها إلى أصل واحد :

المجموعة الأولى : أن تكون الأمة فيها بمعنى الجماعة :

اتفق اللغويون جميعاً على أن معنى « الجماعة » هو المعنى الأصلي لـ « الأمة » وأن المعاني الأخر يمكن ردها إلى ذلك المعنى الأصلي :

قال الراغب الأصفهاني في مفرداته : الأمة : كل جماعة يجمعهم أمر ما : اما دين واحد أو زمان واحد أو مكان واحد. سواء كان ذلك الأمر

الجامع تسخيراً أو اختياراً ». وقال أبو حاتم الرازي في كتابه « الزينة » في الكلمات الإسلامية العربية « : الأمة : أصلها الجماعة من الناس والدواب والطير ــ أي جماعة ــ وأصله الاجتماع على الشيء وعلى حالة واحدة ».

وقال ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن : أصل « الأمة » : الصنف من الناس والجماعة. أما كيف صارت « الأمة » : الجماعة، وصلة ذلك بأصل الاشتقاق فنجده عند أبي البقاء والطبري والحكيم الترمذي.

يقول أبو البقاء : الأمة ــ بالضم ــ في الأصل ــ : المقصود كالعمدة والعدة في كونهما معموداً ومُعَدّاً. وتسمى بها الجماعة من حيث تؤمها الفرق ».

ويقول الحكيم الترمذي في كتابه « تحصيل نظائر القرآن » /٨٢/فالأمة : هي الجماعة التي يؤمها الناس ويقصدونها، ثم يقول : « وإنما صارت « الأمة » ــ في المكان ــ : الجماعة لأن الذي يقصده الناس ويبصرونه : إنما يبصرون الكثرة المجتمعة حتى يقصدونها ».

ويلاحظ تقارب قول أبي البقاء مع قول الحكيم الترمذي وأن « الأمة » عندهما بمعنى اسم المفعول.

أما الطبري فيفهم من قوله أن « الأمة » بمعنى اسم الفاعل وذلك حينما يقول : وأصل « الأمة » جماعة من الناس تجتمع على دين واحد وملة واحدة... ثم تستعمل في معان كثيرة ترجع إلى معنى الأصل ». وكأن المعنى على قول الطبري ــ : ان « الأمة » هي الجماعة التي تقصد الدين وتلتقي عليه.

المجموعة الثانية : وتكون « الأمة » فيها بمعنى الدين أو الملة.

وكما اتفق علماء اللغة على أن « الجماعة » هو الأصل في معاني « الأمة »، كذلك اتفقوا على أن « الأمة » تكون بمعنى « الدين ». قال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة : الأمة : الدين، وحكى أبو زيد : لا أمة له : لادين له. وقال أبو حاتم الرازي في كتاب « الزينة في الكلمات الإسلامية العربية » ــ مخطوطة معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية بالقاهرة ــ قال

أبو عبيدة : أمة واحدة : ملة واحدة. ويستدلون على ذلك ببيت النابغة المشهور :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة
وهل يأثمن ذو أمة وهو طائع

يقصد بـ « ذو أمة » ذو دين.

أما كيف صارت « الأمة » : الدين أو الملة فنجده عند أبي البقاء والطبري وابن قتيبة : يقول ابو البقاء : وتطلق ـ أي الأمة ـ على الدين والملة والطريقة التي تُؤم ». فهو على اصله السابق في أن « الأمة » بمعنى اسم المفعول.

أما أبو جعفر الطبري فيقول : « والأمة : الدين. والأصل انه يقال للقوم يجتمعون على دين واحد : امة، فتقام « الأمة » مُقام« الدين »، وكذلك تعليل ابن قتيبة قريب من تعليل الطبري.

ومما هو جدير بالذكر ان « الدين » المقصود في تعريف الطبري يراد به التدين العملي الذي يتمثل في السلوك الانساني، ويؤيد ذلك ان « الأمة » ترد بمعنى « الطاعة » و « الطريقة » فهما تفسير للدين المراد هنا.

المجموعة الثالثة : وتكون « الأمة » فيها بمعنى الرجل المنفرد :

فقد جاء في لسان العرب : ان « الأمة » كل من كان على دين الحق مخالفاً لسائر الاديان فهو امة وحده... و« الأمة » : الرجل الذي لا نظير له... و « الأمة » : الرجل الجامع للخير. وذكر كثير من اللغويين الحديث الوارد في زيد بن عمرو بن نفيل وانه يبعث يوم القيامة امة وحده. ويقول احمد ابن فارس في معجم مقاييس اللغة : والأمة : الامام، ونقل ابو حاتم الرازي ان « الأمة » : القدوة والامام.

ولا شك بأن هذه المعاني والألفاظ تعبر عن حقيقة واحدة.

أما كيف صارت « الأمة » : الرجل المنفرد، فهذا ما نجده عند صاحب اللسان والراغب الاصفهاني والطبري وابن قتيبة وأبي حاتم الرازي وأبي البقاء.

يقول صاحب اللسان : ومعنى « الأمة » في الرجل المنفرد : ان قصده منفرد من قصد سائر الناس.

ويقول الراغب الاصفهاني في تفسير قوله تعالى « ان ابراهيم كان أمة » : أي قائماً مقام جماعة في عبادة الله، نحو قولهم فلان في نفسه قبيلة.

ويقول أبو جعفر الطبري : فالأمة بمعنى « الامام »، و « معلوم الخير » انما جاز تسمية الواحد فيها باسم الجماعة لاجتماع اخلاق الخير ـ الذي فيه يكون في الجماعة المفرقة ـ فيه. كما يقال : فلان امة وحده.

وأما ابن قتيبة فيقول : ثم تصير « الأمة » الامام والرباني كقوله تعالى : « ان ابراهيم كان أمة » أي : إماماً يقتدي به الناس لأنه ومن اتبعه أمة فسمي أمة لانه سبب الاجتماع. وقد يجوز ان يكون سمي أمة، لأنه اجتمع عنده من خلال الخير ما يكون مثله في أمة. ومن هذا يقال : فلان أمة وحده. أي يقوم مقام أمة.

وأما أبو حاتم الرازي فيقول : وقيل للرجل الواحد أمة، لاجتماع الناس اليه في حالة الدين. وسمي بذلك أيضاً لما اجتمع فيه من الخصال ما يكون متفرقة في كثير من الناس، مثل : العلم والعقل والدين والجود والشجاعة وغير ذلك. فلما اجتمعت فيه، قيل له : امة لأنه قام مقام جماعة من الناس، وكان يجمع الناس اليه.

وقال أبو البقاء : وتطلق أي : الأمة على الرجل الجامع لخصال محمودة... ومن هنا قيل : لو لم يبق من المجتهدين إلا واحد يكون قوله إجماعاً لأنه عند الانفراد يصدق عليه أنه أمة.

وهكذا نرى ان صاحب اللسان يعود بالكلمة إلى « القصد » بينما يجعلها الآخرون ترجع إلى سبب الاجتماع أو اجتماع خلال الخير فيه أو لقيامه مقام أمة في « عبادة الله ».

المجموعة الرابعة : وتكون « الأمة » فيها بمعنى « الحين » أو « الزمن » أو « السنين ».

قال صاحب اللسان : الأمة : الحين. وقال ابن فارس : وبعد ذلك اصول ثلاثة ــ يريد في معنى الأمة ــ وهي : القامة والحين والقصد.

أما كيف صارت « الأمة » : الحين أو السنين :

فيرى الحكيم الترمذي انها صارت كذلك لاجتماع الايام والشهور في سنين كثيرة. ولا يظهر لهذا القول صلة بالمعاني الأخرى لكلمة « الأمة ».

وأما القول القريب إلى ما نحن بصدده فنجده عند الطبري وابن قتيبة والراغب الاصفهاني وقد عبروا عنه بتعبيرات متقاربة : *

يقول أبو جعفر الطبري : وانما قيل « للسنين المعدودة » و « الحين » أمة لأن فيها تكون « الأمة ».

ويقول ابن قتيبة : ثم تصير « الأمة » : الحين، كأن « الأمة من الناس » ينقرضون في حين، فتقام الأمة مقام الحين.

ويقول الراغب الاصفهاني : وحقيقة ذلك : بعد انقضاء أهل عصر أو أهل دين.

نظرة جديدة تربط هذه المعاني :

ويمكن لنا ان ننظر إلى هذه المعاني الأربعة في كلمة « الأمة » نظرة أخرى تمثل المراحل التي تمر فيها « الأمة » عبر تاريخها فنقول :

تتمثل « الأمة » أولاً برجل واحد حينما يكون على دين الحق مخالفاً لسائر الأديان وهو النبي غالباً أو من يسير على طريقته ومن ثم يكون الرجل الذي لا نظير له لأنه الرجل الجامع للخير والذي يكون اماماً وقدوة لغيره من الناس.

فإذا استجابت لهذا الرجل فئة من الناس وسارت على طريقته ومنهجه سميت أمة لاجتماعها اليه في حال الدين أو لأنها تعبير عملي عن تعاليم الدين واحكامه مطبقة في عالم الواقع. فاذا تخلت الأمة عن دينها وعقيدتها فقدت حقيقة وجودها ومن ثم تسمى أمة باعتبار ما كان فكأن « الأمة » هنا يراد بها الحقبة الزمنية التي كانت فيها ملتزمة بدينها، وكأن القرآن يلفتنا في

هذا إلى ان التاريخ لا يكون بوحدات زمنية فقط وانما يمكن ان يحسب بوحدات دينية أيضاً يعبر عنها بـ « الأمة » ويراد بها الحقبة الزمنية التي كانت فيها تلك الأمة منسجمة مع عقيدتها ودينها. وهذا يعني ان الإسلام لا يقيم كبير اعتبار للزمن وحده وانما الاعتبار الأهم لما يجري فيه من نماذج عملية ملتزمة بطرق الهداية، ومن ثم يكثر في القرآن اطلاق لفظ « القرون » على الأمم السابقة مع أنها في الأصل لفترة من الزمان.

وقد أطلت الكلام في المعنى اللغوي لـ « الأمة » ليتبين فساد ما ذهب اليه المستشرقون في دائرة المعارف الإسلامية من زعمهم ان الكلمة دخيلة على العربية لعدم وجود صلة اشتقاقية بين معانيها المتعددة ومن ثم فقد جعلوها ترجع إلى أصل عبري أو آرامي. أما من حيث الصلة الاشتقاقية فاعتقد ان ما تقدم من الكلام كاف في دحض هذه الفرية التي أطلقها المستشرقون، وقد يكونون معذورين ــ لجهلهم بالعربية وفقهها ــ في ان لا يدركوا الصلة الاشتقاقية بين معاني هذه الكلمة، لكنهم غير معذورين في نفيهم هذه الصلة اصلاً، فهذا تَقَوُّل بما لا علم لهم به، ومن ثم كان عليهم ان يكونوا اكثر تواضعاً لانهم يتكلمون في شأن لغة يعتبرون تلاميذ في دراستها.

والأمر الآخر الذي تسرع فيه المستشرقون ــ وينبغي أن تكون لهم فيه اناة ــ زعمهم بأن كلمة « أمة » العربية ترجع إلى أصل عبري أو آرامي دون ان يقدموا على ذلك دليلاً علمياً واحداً الأمر الذي يتنافى مع الموضوعية التي يدعونها ومع المنهجية العلمية التي كثيراً ما يلهجون بذكرها، ذلك ان الزعم بأنْ كلمة ما مأخوذة من لغة من اللغات ليس بالأمر الهين اليسير، فان وجود كلمة واحدة في لغتين مختلفتين ليس شرطاً ان تكون احدى اللغتين قد اخذته عن الأخرى. ولو سلم فان القطع بان هذه اللغة هي الآخذة يحتاج إلى أدلة وبراهين دونها صعوبات وصعوبات.

ومع ذلك فان المستشرقين ــ والحق يقال ــ قد شعروا بضعف موقفهم هذا فاحتاطوا لانفسهم شيئاً من الاحتياط، فبعد أن اطلقوا دعواهم المريضة، في جرأة على العلم غريبة، ادركوا انهم ارتقوا مرتقى صعباً وان كلامهم هذا

غير كاف في إقناع الآخرين فكان عليهم ان يفكروا بطريقة يحسنون فيها الانسحاب فوجدوا المخرج في مثل هذه العبارة :

« وقد تكون الكلمة الأجنبية دخلت لغة العرب في زمن متقدم بعض الشيء، ومهما يكن من شيء فان محمداً أخذ هذه الكلمة واستعملها وصارت منذ ذلك الحين لفظاً اسلامياً أصيلاً ».

بمثل هذه الروح يكتب المستشرقون عن الإسلام والعربية، وبمثل ذلك المنطق العجيب يفكرون ويقدرون. وبمثل هذه البساطة يصدرون الأحكام في قضايا ديننا وأمتنا. وبمثل هذا العبث يملؤون الكتب والمؤلفات التي تعتبر مراجع العصر وأصوله الثقافية، ونحن عن كل ذلك غافلون مشغولون بأمور أخر، لا تقدم بل تؤخر ولا تنفع بل تضر. فمتى نضع ارجلنا على الطريق القاصد، ومتى نقدم الحقيقة ناصعة للناس كالشمس في رابعة النهار متـــى !

معاني « الأمة » في القرآن الكريم :

أشرنا فيما سبق إلى أن المعاني الأربعة التي ترجع اليها معاني « الأمة » المتعددة في اللغة العربية هي التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، وعلينا في هذا الفصل أن نتتبع تلك المعاني في القرآن الكريم، ثم نعرض للمعنى الإسلامي لـ « الأمة » في فصل مستقل.

معنـى الجمـاعــة :

قلنا فيما سبق ان معنى « الجماعة » هو الأصل في دلالة الكلمة وانه ينطوي تحته أنواع متعددة من الجماعات فما هي الجماعات التي وردت في القرآن الكريم والتي تنطوي تحت هذا المعنى.

١ ـ الجنس من كل حي :

ورد هذا المعنى لكلمة « الأمة » في الآية الثامنة والثلاثين من سورة الأنعام وهي قوله تعالى :

« وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم، ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون ».

وقد اختلف المفسرون في المراد بالمثلية في هذه الآية : فقال الراغب الأصفهاني : أي : كل نوع منها على طريقة قد سخرها الله عليها بالطبع، فهي من بين ناسجة كالعنكبوت وبانية كالسرفة ومدخرة كالنمل ومعتمدة على قوت وقتها كالعصفور والحمام إلى غير ذلك من الطبائع التي تخصص بها كل نوع. وقال أبو حاتم الرازي : أمما : اصنافا كل صنف من الطير والدواب مثل بني آدم في طلب الرزق والغذاء وتوقي المهالك والتماس السبل.

وذهب غير هؤلاء إلى انها أمم في « الدين » كما نجد ذلك عند صاحب لسان العرب حيث يقول : ومعنى قوله « أمم أمثالكم » : في معنى دون معنى ــ يريد والله أعلم ــ : ان الله خلقهم وتعبدهم بما شاء ان يتعبدهم من تسبيح وعبادة علمها منهم ولم يفقهنا ذلك. وذهب إلى ذلك ابن قتيبة وغيره. بل ان ابن تيمية له رسالة في قنوت الأشياء كلها لله سبحانه وتعالى، مما يجعل هذا المعنى راجحاً كما أن الطبري في تفسيره لهذه الآية ذهب هذا المذهب حيث يقول : قال أبو جعفر : يقول ــ تعالى ذكره ــ لنبيه محمد ــ ﷺ ــ :

قل لهؤلاء المعرضين عنك، المكذبين بآيات الله : أيها القوم : لا تحسبن الله غافلاً عما تعلمون أو أنه غير مجازيكم على ما تكسبون، وكيف يغفل عن أعمالكم أو يترك مجازاتكم عليها وهو غير غافل عن عمل شيء **دب على الأرض صغير أو كبير. ولا عمل طائر يطير بجناحيه في الهواء بل** جعل ذلك كله أجناساً مجنسة وأصنافاً مصنفة تعرف كما تعرفون وتتصرف فيما سخرت له كما تتصرفون، ومحفوظ عليها ما عملت من عمل لها وعليها ومثبت كل ذلك من أعمالها.

يقول : فالرب الذي لم يضيع حفظ أعمال البهائم والدواب في الأرض، والطير في الهواء، حتى حفظ عليها حركاتها وأفعالها وأثبت ذلك منها في أم الكتاب وحشرها ثم جازاها على ما سلف منها في دار البلاء، أحرى أن لا يضيع أعمالكم ولا يفرط في حفظ أفعالكم التي تجترحونها أيها الناس حتى يحشركم فيجازيكم على جميعها أن خيراً فخير وان شراً فشر. اذ كان قد خصكم من نعمه وبسط عليكم من فضله ما لم يعم به غيركم في الدنيا،

وكنتم بشكره احق وبمعرفة واجبه عليكم أولى لما أعطاكم من العقل الذي به بين **الأشياء تميزون، والفهم، الذي لم يعطه البهائم والطير، الذي به بين** مصالحكم ومضاركم تفرقون ».

ولا شك بأن هذا المذهب أليق وأقرب إلى الصواب من المعاني السابقة التي قالها بعض العلماء،إلا أن الأمر الذي يحتاج إلى شيء من التنبيه هو أن توحيد هذه المخلوقات وعبادتها لله أمور فطرية غريزية قريبة نوعاً ما من توحيد الإنسان الفطري الذي أشار إليه الرسول ـ ﷺ ـ بقوله : « كل مولود يولد على القطرة[1] ».

٢ ـ بمعنى الجماعة من الناس :

وردت كلمة « الأمة » بمعنى الجماعة من الناس في الآية الخامسة والسبعين من سورة القصص : « ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون، ووجد من دونهم امرأتين تذودان، قال ما خطبكما، قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير ».

فكون « الأمة » ـ هنا ـ بمعنى « الجماعة » أمر لا خلاف فيه، وكونها من الناس أمر ثابت بالنص، وقد استشهد أبو البقاء بهذه الآية عند تعريفه للأمة فقال عن الأمة : « وتسمى بها الجماعة من حيث تؤمها الفرق كقوله تعالى : « أمة من الناس يسقون ». وقد انفرد أبو البقاء في جعله « الأمة » ـ هنا ـ بمعنى اسم المفعول لأنه على هذا المعنى يكون تقدير الكلام : فلما ورد ماء مدين وجد على الماء جماعة من الناس مقصودة للسقاية، بينما المعنى الذي ذكره المفسرون : وجد على الماء جماعة قاصدة السقاية وهو ما ينسجم مع وقوف المرأتين وانتظارهما حتى يصدر الرعاء، ولو كانت الآية على المعنى الأول لسقوا للمرأتين ولم تنتظرا حتى يصدر الرعاء.

---

(١) انظر بحث « الفطرة » للمؤلف : مجلة حضارة الإسلام ـ العددان الخامس والسادس ـ السنة السادسة عشرة ـ صفحة : ٥١.

٣ ـ بمعنى الجماعة من القوم تتخذ موقفاً من الدين : وذلك نجده في الآيات التالية :

أ ـ « وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أمماً » ـ الأعراف : ١٦٠.

ب ـ « وقطعناهم في الأرض أمماً منهم الصالحون ومنهم دون ذلك » ـ الأعراف : ١٦٨.

جـ ـ « ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون » ـ الأعراف : ١٥٩.

د ـ « واذ قالت أمة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً، قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون » ـ الأعراف ١٦٤.

هـ ـ « **ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم** ولادخلناهم جنات النعيم. ولو انهم اقاموا التوراة والانجيل وما أنزل اليهم من ربهم لاكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم، منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون » المائدة : ١٦٥ ـ ١٦٦.

و ـ « لن يضروكم إلا أذى وان يقاتلوكم يولوكم الادبار ثم لا **ينصرون،** ضربت عليهم الذلة اين ما ثقفوا الا بحبل من الله وحبل من الناس وباؤوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون. ليسوا سواء : من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله اناء الليل وهم يسجدون. يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين، وما يفعلوا من خير فلن يكفروه، والله عليم بالمتقين. ـ آل عمران : ١١١ ـ ١١٥.

وواضح ان هذه الآيات كلها تتحدث عن بني اسرائيل، قوم موسى ـ عليه السلام ـ وان آية المائدة تشمل النصارى أيضاً حيث جاءت عامة أهل الكتاب وذكر فيها اقامة التوراة والانجيل. وكلها تفيد ان الأمة يمكن ان تطلق على جماعة من القوم استجابت لنبيها فوصفت بالقائمة أو المقتصدة أو غير ذلك، أو لم تستجب له فكانت أمة مجتمعة على تكذيبه وعمل

السيئات، وهذا يعني ان الجماعة من القوم تسمى أمة اذا كان لها موقف من الدين الذي جاء به النبي المبعوث اليهم، سواء أكان هذا الموقف ايجابياً أم سلبياً.

٤ ـ بمعنى الجماعة التي أرسل إليها رسول :

وذلك في مثل الآيات التالية :

« ولكل أمة رسول فاذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون ». يونس : ٤٦.

« ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت، فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة، فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ». النحل : ٣٦.

« وان من أمة إلا خلا فيها نذير ». ـ فاطر ـ ٢٤.

وهذا يعني ان كل أمة أرسل لها رسول وان دعوة الرسل واحدة، وان من الناس من يستجيب لهؤلاء الرسل ومنهم من لا يستجيب، وكأن هؤلاء الناس الذين أرسل لهم الرسل سموا أمماً لأنهم مقصودون من قبل أنبيائهم بالدعوة التي جاؤوا بها سواء استجابوا لها أم لم يستجيبوا، فهم داخلون فيما يسمى بالمصطلح الإسلامي « أمة الدعوة ».

٥ ـ بمعنى الجماعة من الناس تؤمن برسالة محمد ﷺ :

وذلك في قوله تعالى :

« وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون » ـ الأعراف ١٨١.

« وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » ـ البقرة.

وقد روي في الآية الأولى أن الرسول ـ ﷺ ـ قال : هذه أمتي : قال : بالحق يأخذون ويعطون ويقضون.

وقد قال الطبري في الآية الثانية : والمعنى : كما هديناكم أيها المؤمنون بمحمد عليه السلام وبما جاءكم به من عند الله فخصصناكم

بالتوفيق لقبلة إبراهيم وملته وفضلناكم بذلك عمن سواكم من أهل الملل، كذلك خصصناكم بأن جعلناكم أمة وسطاً.

٦ ـ بمعنى جماعة العلماء :

وذلك في قوله تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون **بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً** لهم، منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون ». ـ آل عمران : ١١٠.

وقوله تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون ». ـ آل عمران : ١٠٤.

ولقد قال أبو جعفر الطبري في الآية الأولى :

اختلف أهل التأويل في قوله : « كنتم خير أمة أخرجت للناس ». فقال بعضهم : هم الذين هاجروا مع رسول الله ـ ﷺ ـ من مكة إلى المدينة من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ ومثله عن ابن عباس.

وعن عمر بن الخطاب : لو شاء الله لقال : « انتم » فكنا « كلنا »، ولكن قال : كنتم ـ في خاصة من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ ولمن صنع مثل صنيعهم.

وعن قتادة قال : ذكر لنا ان عمر بن الخطاب قال في حجة حجها، ورأى من الناس راءة سيئة، وقرأ هذه الآية : كنتم خير أمة... ثم قال : يا أيها الناس، من سره أن يكون من تلك الأمة فليؤد شرط الله فيها.

وقال آخرون : معنى ذلك : كنتم خير أمة اخرجت للناس اذا كنتم بهذه الشروط التي وصفهم جل ثناؤه فيهم، فكان تأويل ذلك عندهم : كنتم خير أمة، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله، اخرجوا للناس في زمانكم.

وقال أبو جعفر في الآية الثانية :

ولتكن منكم أيها المؤمنون أمة يقول : جماعة ـ يدعون الناس إلى الخير يعني : إلى الإسلام وشرائعه التي شرعها الله لعباده ويأمرون

بالمعروف...... وعن الضحاك : ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر قال : هم خاصة الرواة ـ وقد ذكره ابن كثير في تفسير ٢٠٩/٢ ولفظه قال الضحاك : وهم خاصة الصحابة وخاصة الرواة، ثم بينه فقال : يعني المجاهدين والعلماء.

معنى « الملـة » و « الـدين » :

وذلك في قوله تعالى في الآية الثالثة عشرة بعد المائتين من سورة البقرة : « كان الناس أمة واحدة، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، وما اختلفت فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم »

قال أبو جعفر الطبري في تفسير هذه الآية بعد ان ذكر اختلاف المفسرين فيها : وأولى التأويلات في هذه الآية بالصواب ان يقال :

ان الله ـ عز وجل ـ اخبر عباده ان الناس كانوا امة واحدة على دين واحد وملة واحدة... على دين آدم فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين.

وكان الدين الذي كانوا عليه دين الحق كما قال أُبَيّ بن كعب...... فاختلفوا في دينهم فبعث الله عند اختلافهم في دينهم النبيين مبشرين ومنذرين وانزل معهم الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، رحمة منه ـ جل ذكره ـ بخلقه واعتذار منه اليهم. وقد يجوز ان يكون ذلك الوقت الذي كانوا فيه أمة واحدة من عهد آدم إلى عهد نوح عليهما السلام ـ كما روى عكرمة عن ابن عباس وكما قال قتادة ـ وجائز ان يكون ذلك حين عرض آدم على خلقه، وجائز ان يكون ذلك في وقت غير ذلك، ولا دلالة من كتاب الله ولا خبر يثبت به الحجة على أي هذه الأوقاف كان ذلك.

فغير جائز أن نقول فيه إلا ما قال الله ـ عز وجل ـ من ان الناس كانوا أمة واحدة فبعث الله فيهم، لما اختلفوا الأنبياء، والرسل، ولا يضرنا الجهل بوقت ذلك كما لا ينفعنا العلم به إذا لم يكن العلم به لله طاعة غير

انه أي ذلك كان، فان دليل القرآن واضح على ان الذين اخبر الله عنهم انهم كانوا أمة واحدة إنما كانوا أمة واحدة على الايمان ودين الحق دون الكفر بالله والشرك به، وذلك ان الله ــ عز وجل ــ قال في السورة التي يذكر فيها يونس : « وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا، ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما فيه يختلفون » يونس : ١٩ ــ فتوعد جل ذكره على الاختلاف لا على الاجتماع ولا على كونهم أمة واحدة، ولو كان اجتماعهم قبل الاختلاف كان على الكفر ثم كان الاختلاف بعد ذلك لم يكن إلا بانتقال بعضهم إلى الايمان ــ ولو كان ذلك كذلك ــ لكان الوعد أولى بحكمته ــ جل ثناؤه ــ في ذلك الحال من الوعيد لأنها حال انابة بعضهم إلى طاعته، ومحال أن يتوعد في حال التوبة والانابة ويترك ذلك في حال اجتماع الجميع على الكفر والشرك ».

ومن الآيات التي جاءت فيها كلمة « الأمة » بمعنى « الدين » قوله تعالى في الآية الثامنة عشرة بعد المائة من سورة هود :

« ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك » : يقول تعالى ذكره : ولو شاء ربك يا محمد لجعل الناس كلهم جماعة واحدة على ملة واحدة ودين واحد. قال قتادة : أي جعلهم مسلمين كلهم.

ومنها قوله تعالى في الآية الثالثة والتسعين من سورة النحل :

« ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة، ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء، ولتسألن عما كنتم تعملون ».

والمعنى ــ كما يقول الطبري ــ : « ولو شاء ربكم أيها الناس للطف بكم بتوفيق من عنده فصرتم جميعاً جماعة واحدة وأهل ملة واحدة لا تختلفون ولا تفترقون، ولكنه ــ تعالى ذكره ــ خالف بينكم فجعلكم أهل ملل شتى بان وفق هؤلاء للايمان به والعمل بطاعته فكانوا مؤمنين، وخذل هؤلاء فحرمهم توفيقه فكانوا كافرين، وليسألنكم الله جميعاً يوم القيامة عما كنتم تعملون في الدنيا فيما أمركم ونهاكم ثم ليجازينكم جزاءكم : المطيع منكم بطاعته والعاصي له بمعصيته ».

ومن الآيات التي وردت « الأمة » فيها بمعنى « الدين » و « الملة » قوله تعالى في الآية الثانية والتسعين من سورة الأنبياء :

« إنّ هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ».

يقول ـ تعالى ذكره ـ : ان هذه أمتكم ملة واحدة وأنا ربكم أيها الناس فاعبدون دون الآلهة والأوثان وسائر ما تعبدون من دوني.

ومن الآيات أيضاً في هذا المعنى قوله تعالى في الآيتين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين من سورة الزخرف : « بل قالوا انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون »، « وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون ».

والمعنى : وجدنا آباءنا على أمة : على دين وملة وذلك هو عبادة الأوثان، وكذلك قوله تعالى في الآية الثالثة والثلاثين من سورة الزخرف : « ولولا ان يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون ».

والمعنى : ولولا أن يكون الناس أمة واحدة : أي جماعة واحدة على الكفر على طلب الدنيا ورفض الآخرة، وبالاضافة إلى الآيات السابقة التي وردت فيها « الأمة » بمعنى « الدين » نجد الآية الثامنة والأربعين من صورة المائدة وكأنها بمعنى « الشرعة » :

«وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه، فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع اهواءهم عما جاءك من الحق، لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً، ولو شاء لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم ».

قال أبو جعفر في تفسير هذه الآية :

يقول تعالى ذكره : ولو شاء ربكم لجعل شرائعكم واحدة ولم يجعل لكل أمة شريعة ومنهاجاً غير شرائع الأمم الأخر ومنهاجهم فكنتم تكونون أمة واحدة لا تختلف شرائعكم ومناهجكم، ولكنه ـ تعالى ذكره ـ يعلم ذلك فخالف بين شرائعكم ليختبركم فيعرف المطيع منكم من العاصي والعامل بما

أمره في الكتاب الذي أنزله إلى النبي ـ ﷺ ـ من المُخالف.

والابتلاء : هو الاختبار... وقوله فيما آتاكم : فيما أنزل عليكم من الكتب، فان قال قائل : وكيف قال : ليبلوكم فيما آتاكم ومن المخاطب بذلك ؟ وقد ذكرت ان المعنيَّ بقوله :

« لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً » نبينا مع الأنبياء الذين مضوا قبله وامههم والذين قبل نبينا ﷺ على حده ؟

قيل ان الخطاب وان كان لنبينا ـ ﷺ ـ فانه قد أريد به الخبر عن الأنبياء قبله واممهم ولكن العرب من شأنها اذا خاطبت انساناً وضمت إليه غائباً فارادت الخبر عنه : ان تغلب المخاطب فيخرج الخبر عنهما على وجه الخطاب فلذلك قال ـ تعالى ذكره ـ : « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ».

٣ ـ بمعنى الرجل المنفرد الذي لا نظير له :

والمعنى الثالث لـ « الأمة » الرجل المنفرد الذي لا نظير له، وقد ورد في القرآن الكريم مرة واحدة في الآية/١٢٠/من سورة النحل في قوله تعالى « ان ابراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين، شاكراً لانعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم ». وقال الحكيم الترمذي في الصفحة : ٨٢ ـ ٨٧ من كتابه « تحصيل نظائر القرآن » :

وانما صارت الأمة إبراهيم وحده ـ في مكان آخر ـ لانه قد جمع الله الخيرات له حتى اتخذه خليلاً من اجتماع خصال الخيرات فيه وذلك : الوفاء والشكر والصبر والايمان والإسلام والحنيفية والقنوت والهدي والاجتباء والأوَّاهية والإنابة والبركة والاصطفاء والحلم واليد والبصر والحكم والنبوة والرسالة والخلة وسلامة القلب والصديقية وثناء الرب عليه والحجة والصلاح والرشد والاحسان والاخلاص، وكل ذلك مذكور في التنزيل، فقد قال الله تعالى في الآية الرابعة والعشرين بعد المائة من سورة البقرة :

« واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فاتمهن »، فشهد له بالاتمام، ثم قال أيضاً في الآية السابعة والثلاثين من سورة النجم ـ : « وابراهيم الذي وفى »،

فشهد له بالوفاء.

ثم قال ـ في الآيتين العشرين والاحدى وعشرين من سورة النحل :

« ان إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين، شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم ».

ثم قال في آية أخرى ـ الخامسة والسبعين من سورة هود عليه السلام :

« ان ابراهيم لحليم أواه منيب »

وقال في آية أخرى ـ السابعة والستين من سورة آل عمران : « وكان حنيفاً مسلماً »، ثم قال ـ في الآية الحادية عشرة بعد المائة من سورة الصافات : « انه من عبادنا المؤمنين »، ثم قال ـ في الآية الثالثة عشرة بعد المائة من سورة الصافات : « وباركنا عليه وعلى اسحاق »، ثم قال ـ في الآية الواحدة والخمسين من سورة الأنبياء ـ : « ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل »، **ثم قال ـ في الآية الخامسة بعد المائة من سورة الصافات ـ : « إنا** كذلك نجزي المحسنين ». ثم قال في الآية الثالثة بعد المائة من سورة « الصافات » : « فلما أسلما وتلّه للجبين ». ثم قال : في الآية التاسعة والعاشرة والحادية عشرة بعد المائة من سورة الصافات ـ : « سلام على ابراهيم، كذلك نجزي المحسنين، انه من عبادنا المؤمنين ». ثم قال ـ في الآية الخامسة والأربعين من سورة ص ـ : « أولى الايدي والابصار » قال : القوة والبصر في الدين والعون والتعلق بنا فانما اليد للتعلق به والبصر لمشاهدة الربوبية ».

ثم قال ـ في الآية الرابعة والخمسين من سورة النساء ـ :

« فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة ».

ثم قال ـ في الآية الرابعة والعشرين بعد المائة من سورة البقرة ـ : « اني جاعلك للناس اماماً ». ثم قال ـ في الآية الثلاثين بعد المائة من سورة البقرة ـ : « ولقد اصطفيناه في الدنيا وانه في الآخرة لمن الصالحين ». وقال أيضاً في الآية الخامسة والعشرين بعد المائة من سورة النساء ـ :

« واتخذ الله ابراهيم خليلاً ». ثم قال ـ في الآية الرابعة والثمانين من سورة الصافات : ـ « اذ جاء ربه بقلب سليم ». وقال أيضاً ـ في الآية الواحدة والأربعين من سورة مريم ـ : « واذكر في الكتاب إبراهيم انه كان صديقاً نبياً »، فاثنى عليه. ثم قال ـ في الآية الثامنة بعد المائة من سورة الصافات ـ : « وتركنا عليه في الآخرين ». يعني : الثناء عليه في الأمم. ثم قال ـ من الآية الثالثة والثمانين من سورة الأنعام ـ : « وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه ». فان قال : ان ابراهيم كان أمة ـ يعني جماعة وحده ـ فاية جماعة باعظم ممن جمع الله له كل هذه الخصال.

ومن هنا كان تفسير المعلم عبد الحميد الفراهي للامة ـ في هذه الآية ـ دقيقاً ويشمل كل هذه الصفات التي ذكرها الحكيم الترمذي حيث يقول الفراهي في كتابه « التكميل في أصول التأويل » في الصفحة التاسعة والخمسين : ان اللفظ المشترك يأتي لمعان مختلفة ولا يقضي فيه إلا بالسياق وصحة المعنى : مثلاً : كلمة « أمة » في قوله تعالى : « ان ابراهيم كان أمة » لا تؤول إلى معنى اريد به في مواضع أخر فانه لا يلتئم بالسياق ولا صحة المعنى. والمعنى المراد هنا لا نظير له من جهة اللفظ فان الأمة في باقي القرآن : اما لمدة من الزمان أو لطائفة من الناس أو للطريق ولكن اذا تمسكنا بالأصل الأول والثاني اتضح معناه.

أما الأصل الأول فان كلمة « قانتا » ـ بعدها ـ : تفسيرها فان الأمة هو الطائع بتمامه وهو اوفق بالقانت.

وأما الأصل الثاني : فلوجود نظائره لما جاء في صفاته من الطاعة الكاملة ولكن بقي علينا ان « الأمة » : هو « الطائع ».

ويوضح الفراهي ان « الأمة » : الرجل المطيع، في تعليقاته على كتاب « العمدة » لابن رشيق والتي ارسلها إليّ فضيلة الاستاذ محمد اجمل ايوب الندوى مشكوراً :

قال الفراهي : قال الطبري في تفسيره : « كقولهم للجماعة من الناس ـ أمة، وللحين من الزمان أمة، وللرجل المتعبد المطيع : أمة، وللدين والملة أمـة.

قال الفراهي : الأمة : الرجل المطيع.

قال النابغــة :

حلفت فلم اترك لنفسك ريبة   وهل يأثمن ذو أمة وهو طائع

قال الفراهي : الأمة : الطاعة.

قال عدي بن زيد : ثم بعد الفلاح والملك والأمة وارتهم هناك القبور.

قال الفراهي : الأمة : أي : المطيعين.

قال الأعشى :

ولا الملك النعمان يوم لقيتـه   بامتـه يعطـي القطـوط ويأفـق

قال الفراهي : أمته : أي : اتباعه.

وبهذا يستدل الفراهي على أن « الأمة » تأتي بمعنى الرجل المطيع، والذي الجأه إلى الشعر الجاهلي يستنطقه كون هذا المعنى غير مشهور في كثير من المصادر التي عرضت لمعاني « الأمة ».

٤ ــ والمعنى الرابع لـ « الأمة » الذي ورد في القرآن الكريم « الحين » :

وقد ورد في قوله تعالى في الآية الثامنة من سورة هود :

« ولئن اخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن : ما يحبسه، ألا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم وحاق بهم ما كانوا به **يستهزئون** ».

والمعنى ــ كما يقول الطبري :

ولئن أخرنا عن هؤلاء المشركين من قومك يا محمد العذاب فلم نعجله لهم وأنسأنا في آجالهم إلى أمة معدودة ووقت محدود وسنين معلومة......

وانما معنى الكلام : ولئن اخرنا عنهم العذاب إلى مجيء أمة وانقراض أخرى قبلها.

ومن هذا الباب أيضاً قوله تعالى في الآية الخامسة والأربعين من سورة يوسف : **« وقال الذي نجا منهما وادكر بعد أمة أنا انبئكم بتأويله فارسلون »**.

والمعنى : وادكر بعد أمة : اي بعد حين.

المعنى الإسلامي لـ « الأمة » :

عرفنا فيما سبق المعاني المتعددة لـ « الأمة » في اللغة وفي القرآن الكريم وبقي علينا أن نعرف المدلول الإسلامي لـ « الأمة » حينما تطلق أو حينما تأتي بصفة المدح :

يقول ابوالبقاء في كلياته : ٣٠١/١ ـ ٣٠٢/ :

« ـ وفي حدود المتكلمين : الأمة : هم المصدقون بالرسول دون المبعوث اليهم ». ويريد بقوله : « في حدود المتكلمين » : تعريفات علماء الاعتقاد والتوحيد والكلام. ويقول الامام أبو زكريا النووي في كتابه تهذيب الأسماء واللغات ١١/٢ : لفظة « الأمة » تطلق على معان منها :

ـ من صدق النبي ـ ﷺ ـ وآمن بما جاء به وتبعه فيه، وهذا هو الذي جاء مدحه في الكتاب والسنة كقوله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا »، و « كنتم خير أمة »، وكقوله ـ ﷺ ـ : « شفاعتي لأمتي »، وقوله : « تأتي امتي غراً محجلين » وغير ذلك.

ولا شك أن ما جاء في تعريف ابي البقاء هو عين ما جاء في تعريف النووي وان كان النووي أوفى شرطاً وتفصيلاً، وبذلك يخرج من المفهوم الإسلامي لـ « الأمة » أولئك الذين لم يصدقوا الرسل ولم يؤمنوا بما جاءت به من الهدى، وان كانوا يدخلون في معنى « الأمة » لغة كما سبق ان اشرنا إلى ذلك باعتبارهم مقصودون بالدعوة من قبل الرسول المبعوث اليهم. وهذا المعنى الآخر هو الذي صرح به النووي بعد أن ذكر المعنى الإسلامي الممدوح فقال :

ومنها ـ اي من معاني الأمة ـ : من بعث اليهم النبي ـ ﷺ ـ من مسلم وكافر ومنه قوله ـ ﷺ ـ فيما اخرجه مسلم في كتاب الايمان.

« والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي ارسلت به إلا كان من أصحاب النار ».

ويعرف الاستاذ سيد قطب ـ رحمه الله ـ الأمة بالمعنى الإسلامي في كتابه « الظلال : ٩٣/٩ » فيقول :

الأمة : هي مجموعة الناس التي تدين بعقيدة واحدة وتصور واحد وتدين لقيادة واحدة، وليست كما هي في المفهوم الجاهلي القديم أو الحديث : مجموعة الناس التي تسكن في اقليم واحد من الأرض وتحكمها دولة واحدة، **فهذا مفهوم لا يعرفه الإسلام انما هي من مصطلحات الجاهلية** الحديثة ».

وهو لا يختلف عن التعريفين السابقين إلا أنه أكثر تركيزاً على معنى القيادة الواحدة والمفهومة في التعريفين من اضافة « الأمة » إلى « النبي »، فالنبي هو نواة الأمة الذي يعمل على ايجادها وقيادتها بعد ذلك في طريق الهداية.

ولقد حرص رسول الله ـ ﷺ ـ على تأكيد المعنى الإسلامي للأمة وتميزه عن كل الأمم الأخرى في اعلانه الدستوري العظيم الذي نظم به علاقة المسلمين مع غيرهم في المدينة المنورة وذلك بعد قيام الدولة الإسلامية التي كانت تضم قبائل متعددة من اليهود، ولعل هذا الاعلان التاريخي يعتبر أول وثيقة دستورية تحدد العلاقات بين أمة المسلمين وغيرهم تحديداً دقيقاً وتبين الحقوق والواجبات لكافة الطوائف والقبائل وتحيل الأمر عند الخلاف إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وفيما يلي مقتطفات من هذا الاعلان بالقدر الذي يتصل بدراستنا :

قال ابن هشام في « السيرة النبوية » ـ ج : ٢/٣٢٠ ـ ٣٢٣ ـ :

وقال محمد بن اسحاق : كتب رسول الله ـ ﷺ ـ كتاباً بين المهاجرين والأنصار وادع فيه اليهود وعاهدهم واقرهم على دينهم وأموالهم واشترط عليهم وشرط لهم :

بسم الله الرحمن الرحيم

« هذا كتاب من محمد النبي الأمي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم انهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على ربعتهم ـ حالهم التي اتى الإسلام وهم عليها ـ يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيهم ـ اسيرهم ـ بالمعروف والقسط .

....

....

إلى أن يقول :

« وان يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وانفسهم إلا من ظلم وأثم فانه لا يوتغ - يهلك - إلا نفسه وأهل بيتـه ....

....

.... »

والكتاب كما لاحظنا يجعل المسلمين جميعاً أمة واحدة من دون الناس سواء منهم الذين كانوا في عهد النبي - ﷺ - من المهاجرين والأنصار أو الذين يلحقون بهم بعد ذلك ويجاهدون معهم، كذلك يجعل اليهود أمة مستقلة ولكنهم يجتمعون مع أمة المؤمنين في دولة واحدة ولكل أمة دينها الخاص بها.

والكتاب بالاضافة إلى أنه يميز الأمة الإسلامية عن غيرها من الأمم يبين لنا كيف يمكن التعايش بين هذه الأمم المختلفة في الدين في دولة تحكمها شريعة الإسلام فتحقق العدل بين الجميع.

وبذلك لا تصح أيضاً مزاعم المستشرقين في دائرة المعارف الإسلامية والتي تدعي أن كتاب النبي - ﷺ - بين المهاجرين والأنصار ينص على أن أهل المدينة بمن فيهم اليهود يكونون أمة وان الصيغة السياسية الغالبة في هذه الأمة الجديدة انما كانت مؤقتة وان محمداً ﷺ لم يكد يحس ان مركزه قد توطد في المدينة ويرى انتصاره في حروبه مع كفار مكة حتى استطاع ان يخرج من جماعته السياسية الدينية أهل المدينة - وخصوصاً اليهود - الذين لم يعتنقوا الدين الذي جاء به وبمرور الزمن صارت أمته تتألف من المسلمين وحدهم وصار يعتبر المسلمين أمة ويؤكد صفاتهم الخلقية والدينية ويعتبرهم غير أهل الكتاب الذي كان محالفاً لهم.

فالنص الذي جاء في الصحيفة واضح في تمييزه بين أمة المسلمين وأمة اليهود وان اليهود أمة مع المؤمنين في هذا التحالف وليسوا أمة من

المؤمنين، والظاهر أن المستشرقين لا يفرقون بين كلمة « من المؤمنين » وكلمة « مع المؤمنين »، ثم أن الذي حدث بعد ذلك من مواقف ضد اليهود لم يكن إلا تطبيقاً لما جاء في الصحيفة التي حددت العلاقات بين سكان المدينة كلهم **وان الذي ينقض ما جاء فيها لا يوتغ إلا نفسه، وفعلاً فقد بدأ** اليهود بنقض ما جاء فيها حين تآمروا مع المشركين على المسلمين وحين اخلوا بالتزاماتهم تجاه ما جاء فيها، ومن هنا كان العقاب يقع على من نقض ما تعهدوا به، وكان اخراج اليهود من المدينة متتابعاً حسب المخالفات ولم يكن دفعة واحدة. وهكذا يحاول المستشرقون الدس والتحريف للنصوص والتاريخ بمثل هذا الكلام العام وذلك الخلط العجيب الذي يتنافى مع ابسط قواعد البحث العلمي الرصين.

ومن كل تلك التعريفات لـ « الأمة » بالمعنى الإسلامي تبرز الحقائق التالية :

١ ـ ان « الأمة » بالمعنى الإسلامي هي انتماء ديني عقدي وليست انتماء عنصرياً لجنس من الأجناس أو غرق من الأعراق، ومن ثم فقد قامت الأمة الإسلامية خلال التاريخ من جميع العناصر التي استجابت لرسالة الإسلام بغض النظر عن انتسابها لجنس من أجناس البشر، فقد كان فيها من الصحابة غير العرب سلمان وبلال وصهيب، وكان فيها من الصحابة العرب كثيرون كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي، ولم يكن من هذه الأمة أبو جهل وأبو لهب واضرابهما من العرب الذين لم يدخلوا في دين الله.

ولا شك أن الدعوة الإسلامية قد قسمت العرب إلى قسمين : مؤمنين برسالة الإسلام **ومناهضين** لها، وكان الولاء في هذه الدعوة يقوم على أساس الدين وحده دون الاعتبارات الأخرى. ولم يكن هذا الأمر خاصاً برسالة الإسلام وحدها بل هو شأن كل الرسالات الإلهية، إلّا أن الفارق بين رسالة الإسلام الأخيرة وتلك الرسالات السابقة لها ان مجال تلك الرسالات كان مقصوراً على أقوام باعيانهم ومن ثم لم تعرف تلك الرسالات ما عرفته رسالة الإسلام من دخول أقوام وأجناس متعددة في دين الله فبقيت دعوتها حبيسة في إطار القوم الذين أرسل اليهم الرسول.

٢ ـ إن هذا الانتماء الديني العقدي الذي قامت عليه « الأمة » في الإسلام لا ينفي الانتماء العرقي الذي أشار اليه القرآن الكريم في قوله تعالى : « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ».

كل ما هنالك أن هذه الآية القرآنية تشير إلى حقيقة موضوعية وهي أن الناس كلهم يعودون إلى ذكر وأنثى وأن الله جعلهم في شعوب وقبائل ليتم التعارف بينهم والالتقاء، وان التفاضل بينهم لا يقوم على أساس هذا التقسيم إلى شعوب وقبائل لأنه يعود في الأصل إلى ذكر وأنثى من خلق الله وإنما التفاضل ينبغي أن يكون مرتبطاً بالعمل والخلق الصادرين عن الإنسان وهو ما تؤكده الآية نفسها : « ان أكرمكم عند الله أتقاكم ».

وإذن فالحقيقة القائمة المشاهدة هي انقسام الناس إلى شعوب وقبائل ليتم بينها التعارف واللقاء، والحقيقة التي ينبغي أن تكون والتي من أجلها أرسل الله رسله وأنزل عليهم كتبه هي التقاء الناس من القبائل والشعوب المختلفة على انتماء ديني خلقي يتفاوتون فيه ويتفاضلون بمقدار قربهم من الدين والتزامهم بقيمه واخلاقه.

وبهذا يتبين ان هذا النوع من الانتماء إنما ينفي في الواقع ما يمكن أن ينشأ عند بعض الأقوام والشعوب من نزعات التعصب والغرور والافتخار بالأحساب والأنساب والذي يؤدي غالباً إلى إثارة الاحن والعداوات الأمر الذي يتنافى مع حكمة جعل الناس شعوباً وقبائل بقصد التعارف واللقاء.

كذلك فإن هذا الانتماء العقدي لا ينفي ما يمكن أن يكون هناك من خصائص وفضائل لبعض الشعوب، إلّا ان التأكيد على هذه الخصائص وابرازها واعتبارها مقياساً للتفاضل بين الشعوب التي تشكل أمة واحدة تقوم على أساس العقيدة سيؤدي إلى نوع من العصبية التي تهدد وحدة الأمة، علماً بأنه ما من قوم من الأقوام ولا شعب من الشعوب إلّا وله خصائصه وميزاته وفضائله، وخير للأمة أن تقوم على أساس يجمع كل هذه الخصائص والفضائل والميزات التي يكمل بعضها بعضاً من أن تقوم على أساس من التعصب القومي الأحمق الذي يهدر طاقتها ويشغلها عن حقيقة اهدافها

ويقف حجر عثرة في طريق تقدمها وازدهارها.

٣ ـ سبق أن أشرنا إلى أن المعنى الإسلامي لـ « الأمة » هو نفس المعنى الذي جاء به الأنبياء جميعاً وقامت الأمم السابقة كلها عليه، غير أنه لما كانت كل رسالة من الرسالات السابقة للإسلام خاصة بقوم معينين وان القوم كلهم يسمون ـ لغة ـ أمة، باعتبارهم مقصودين بالدعوة من الرسول ـ فقد اختلط المعنى الديني للأمة بالمعنى القومي من الناحية التاريخية ولم يتضح الأمر من الناحية التطبيقية الواقعية كما هو واضح من الناحية النظرية.

ولكن الأمر بمجيء الإسلام ـ الرسالة الخاتمة ـ أخذ وضعاً آخر، ذلك أن الدعوة الإسلامية لم تكن مقصورة على قوم معينين وإنما كانت **دعوة للناس كافة « وما أرسلناك إلّا كافة للناس بشيراً ونذيراً »، هـذا من** الناحية النظرية، وأما من الناحية العملية التطبيقية فقد استجابت شعوب كثيرة غير عربية لدعوة الإسلام ومن ثم ظهر هذا المعنى الإسلامي للأمة كأوضح ما يكون في رسالة الإسلام من الناحيتين النظرية والواقعية وبالتالي لم يعرف التاريخ أمة جمعت شعوباً متعددة في أمة واحدة كما حدث بالنسبة للإسلام.

وأما ما حدث بالنسبة للنصرانية فهو مختلف تماماً، ذلك أن النصرانية في حقيقتها وصميمها كانت دعوة إلى بني إسرائيل خاصة كما جاء في القرآن الكريم في وصف عيسى عليه السلام : « ورسولاً إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم.... ـ آل عمران : ٤٩ ـ »، وكما جاء في الآية السادسة من سورة الصف :

« وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ».

بل إن الأناجيل المتداولة بأيدي النصارى تؤيد هذا حيث ورد فيها حكاية عن المسيح عليه السلام : « إنما بعثت لخراف بني إسرائيل الضالة ».

وإذاً : فالنصرانية لم تقدم تصوراً لـ « الأمة » التي تشمل شعوباً مختلفة لأنها خاصة ببني إسرائيل ومكملة لرسالة موسى عليه السلام، ومن ثم

لم تعط مفهوماً عالمياً لـ « الأمة » من الناحية النظرية.

أما من الناحية الواقعية العملية فقد خرجت النصرانية، نتيجة ظروف معينة، من إطارها القومي ـ ودون قصد منها ـ فدخلت فيها شعوب متعددة ولكن النصرانية لم تكن قادرة بمقوماتها النظرية على استيعاب هذه الشعوب في أمة واحدة لأنها لم تكن مهيأة لذلك ولا هو من أهدافها، يضاف إلى ذلك أن النصرانية في جملتها كانت دعوة روحية مكملة لما جاء به موسى عليه السلام، ومن ثمّ فلم تظهر النصرانية في التاريخ ديناً ودولة ونظام حياة كما ظهر الإسلام، وإنما ظهرت كدين **يعنى** بالقضايا الروحية والأخلاقية وقد تركت المجال مفتوحاً للقانون الروماني يحكم حياة النصارى المدنيـة، وبالتالي فلم يكن الدين في النصرانية التاريخية إلّا عنصراً واحداً من جملة عناصر تسير حياة النصارى وتوجهها، ومن هنا لم يكن الدين عندهم قادراً على تكوين أمة بمفرده مما حدا بهم أن يبحثوا عن عناصر أخرى وانتهى بهم الأمر إلى ما يسمونه بالعناصر أو المقومات اللازمة لتكوين الأمة واختلفوا في شأنها اختلافات كثيرة كما اختلفوا في تصنيفها وبيان درجة أهمية كل واحدة منها.

وبناء على ذلك لم يعرف التاريخ أمة نصرانية واحدة ـ ضمت شعوبا مختلفة ـ وإنما عرف أمماً متعددة يدين أهلها بالنصرانية في جزء من سلوكهم.

أما في الإسلام فقد وجدت الأمة المسلمة متميزة من المعنى القومي منذ نشأتها حيث دخل فيها العربي وغير العربي وكان الخطاب في كتابها الخالد موجهاً للناس جميعاً : « يا أيها الناس »، يدعوهم إلى الإيمان فإذا أجابوا دعوة الله خوطبوا بـ « يا أيها الذين آمنوا ». ثم قامت الدولة الإسلامية بعد ذلك في المدينة على هذا الأساس العقدي الايماني وما هي إلّا سنوات قليلة حتى توالت الفتوحات الإسلامية ودخلت في الإسلام أقوام وشعوب لم تلبث أن انصهرت في بوتقة الإسلام وغدت أمة واحدة تحكم بشريعة واحدة وتتجه في نظام حياتها وسلوكها اتجاهاً واحداً ولم تكن بحاجة إلى أن تبحث عن عناصر ومقومات لـ « الأمة » لأن الإسلام أغناها بعقيدته وقيمه

عن أن تتطلع إلى مثل تلك العناصر والمقومات، ولقد شارك في حكم الدولة الإسلامية عناصر تمثل تلك الشعوب المتعددة التي تكونت منها الأمة المسلمة وتنقلت عاصمة الخلافة من قطر إلى آخر مسايرة بذلك الفتوحات الجديدة وزيادة رقعة دار الإسلام وبقي الأمر كذلك ثلاثة عشر قرناً من الزمان إلى أن سقطت الخلافة تحت تأثير الضربات المتوالية والكيد الخبيث الذي مارسته الصليبية العالمية واليهودية الحاقدة وخضعت الأمة الإسلامية للاستعمار الغربي ـ الاسم الجديد للصليبية التاريخية ـ الذي بدأ ينفذ مخططاً رهيباً لتمزيق روابط الأمة بما أقام لها من دويلات متعددة وأثار في شعوبها من نزعات اقليمية وتطلعات قومية، بل انه ذهب إلى أبعد من ذلك فطرح لها أفكاراً وصيغاً جديدة لتقيم حياتها ونظامها على أساسها لكي لا تفكر بالعودة إلى صيغتها الإسلامية الجامعة، وقد نجح الاستعمار في مخططه هذا إلى حد بعيد وما زال يصر ويلح على تنفيذه كاملاً، وإننا لنرى آثار الغزو الفكري الأوروبي في ذلك الجيل من الحكام الذي تربى في مدرسة الاستعمار الفكرية وعلى عينه والذي سار في طريق تغريب بلاده بعيداً عن قيم الإسلام وثقافته، فبلغ الاستعمار بهم ما لم يستطع أن يبلغه باحتلاله العسكري.

ومن هنا بدأنا نسمع في بلاد الإسلام حديثاً عن العناصر التي تكون الأمة وهل يصلح الدين عنصراً من عناصر تكوين الأمة أو لا يصلح ؟ وهل نقول أمة إسلامية أو أمة عربية ؟ وهل الآيات التي وردت في القرآن الكريم عن « الأمة » يقصد بها الأمة العربية أو الأمة الإسلامية[1] ؟ إلى آخر ما نسمع ونرى ونقرأ من أمور لم تكن مطروحة على هذه الأمة في يوم من الأيام ولو طرحت عليها مثل هذه القضايا في تاريخها الطويل واختلفت إجابتها عليها كما تختلف الآن لما أمكنها أن تصل إلى ما وصلت اليه من أمجاد ولما استطاعت أن تقف على أقدامها في وجه البرابرة والغزاة.

---

(١) آخر ما قرأناه في هذا الموضوع ما كتبه صفوان قدسي في مجلة « المعرفة » السورية عدد ١٧٥ /أيلول/١٩٧٦م مناقشاً بعض وقائع الملتقى العاشر للفكر الإسلامي الذي انعقد في « عنابة » بالجزائر في شهر تموز سنة ١٩٧٦ م تحت عنوان « القومية البغيضة ومناقشات أخرى » قال صفوان قدسي : =

= « .... لكن القيامة قامت ولم تقعد عندما عقبت على نقطتين اثنتين وردتا في محاضرة الدكتور الفاروقي. أما النقطة الأولى فهي اجتهادي في تفسير الآية الكريمة « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً » بأن المقصود فيها هو الأمة العربية بالذات وليس أية أمة أخرى على الاطلاق فالذين استساغوا حديث الدكتور الفاروقي عن « القومية البغيضة » لم يرضهم هذا التفسير واعتبروه خروجاً على كل ما عرفوه من تفاسير لهذه الآية الكريمة فاختلفوا إلى المنصة يردون ويعترضون وعلى الرغم من أن الأستاذ الدكتور محمد المبارك قد سبقني إلى هذا الاجتهاد في كتابه « الأمة العربية في معركة تحقيق الذات » كما ذكر لي بعد انتهاء المناقشات فان الجو الانفعالي الذي ساد هذه المناقشات حال بينه وبين أن يقوم لمناصرتي في الأخذ بهذا التفسير ». ـ انتهى كلام صفوان قدسي.

ونحن نطمئن الأستاذ صفوان قدسي بأننا لم نسمع محاضرة الدكتور الفاروقي وبالتالي لم نتأثر بها ومع ذلك فان لنا معه وقفة نسائله فيها عن اجتهاده وتفسيره.

لقد أطلق الأستاذ صفوان دعوى عريضة جداً وهي المقصود بـ « الأمة » في قوله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً » الأمة العربية بالذات وليس أية أمة أخرى على الاطلاق، وأمام هذه الدعوى العريضة لم يقدم لنا دليلا واحداً على اجتهاده في هذا التفسير ونحن لا ننكر على الأستاذ صفوان حق الاجتهاد في التفسير ولكننا نطالبه بالدليل الذي اعتمد عليه في هذا الاجتهاد واذ لم يقدم لنا هذا الدليل فاننا نعتبر اجتهاده هذا من لغو القول الذي تعافه النفوس والعقول وبالتالي فانه مجرد خاطرة خطرت في نفسه فسارع بإعلانها دون أن يفطن لمنافاتها لكل عقل ونقل كان يجدر به أن يخبأها لنفسه وأن لا ينشرها عل الناس في مجلة تحمل اسم « المعرفة ».

ان ما جرى بينه وبين الأستاذ المبارك لا نخوض فيه لأننا لم نسمع ولم نعرف كل ما دار بينهما، ولكن الذي نعرفه أن ما كتبه الأستاذ المبارك في كتابه « الأمة العربية في معركة تحقيق الذات » والذي درسناه عليه في جامعة دمشق ليس فيه مثل هذا الاجتهاد في التفسير، وكان يحسن بالأستاذ صفوان أن يعود إلى الكتاب بعد عودته من الجزائر وأن ينقل رأي الأستاذ المبارك من كتابه وأن يستشهد به في مقاله، هذا ما تتطلبه أصول البحث العلمي، وإذا لم يفعل ذلك الأستاذ صفوان فانه يبقى في الميدان وحيداً باجتهاده وتفسيره وهذا يتطلب منه جهداً أكبر في البحث عن دليل لاجتهاده وتفسيره.

اذ من الأصول المقررة في فهم أي كلام مراعاة سياقه حيث يختلف المعنى باختلاف السياق ولو أننا رجعنا إلى الآية موضوع البحث وقرأناها كاملة ربما ساعدتنا على بيان المراد منها. يقول الله تعالى في الآية/١٤٣/ من سورة البقرة : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول **عليكم شهيداً** وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وان كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع ايمانكم ان الله بالناس لرؤوف رحيم ».

ان نظرة واحدة لهذه الآية تبين لنا انها خطاب للمؤمنين من المهاجرين والأنصار الذين كانوا في المدينة المنورة بعد هجرة الرسول ـ ﷺ ـ اليها ذلك ان سورة البقرة أول سورة نزلت في المدينة بعد الهجرة وسياق الآية في شأن تحويل القبلة كما هو واضح وأظن أن الأستاذ صفوان يوافقني في أن العرب الذين لم يصلوا إلى بيت المقدس ككفار قريش لا يدخلون فيها بدليل الخطاب في آخر الآية « وما كان الله ليضيع ايمانكم » اذ من المعروف أن الإيمان ـ هنا ـ يقصد به الصلاة إلى بيت المقدس وذلك رداً على اليهود الذين اعتبروا صلاة المسلمين إلى بيت المقدس ضائعة بعد أن حولت =

=القبلة إلى الكعبة.

لو احتكمنا إلى قواعد اللغة العربية في تفسير هذه الآية فماذا نجد :

ان « جعل » تكون بمعنى « خلق » وتكون بمعنى « صير » وتكون بمعنى « سمى »، فتكون بمعنى « خلق » اذا نصبت مفعولا واحداً كقوله تعالى : « الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور » ــ الأنعام : ١، وتكون بمعنى « صير ــ أو « سمى » اذا نصبت مفعولين فمما جاءت به بمعنى « صير » قوله تعالى حكاية عن فرعون « ان فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً » القصص : ٤ « ومما جاءت به بمعنى « سمى » قوله تعالى : « ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام » ــ المائدة : ١٠٣ ــ فلا يصح هنا الا معنى « سمى » لأنها ــ « البحيرة » « السائبة ــ و « الوصيلة » و « الحام » ـ من تسمية المشركين للأنعام التي لم يسمها الله بذلك ولا يصح هنا معنى « الخلق » ولا معنى « التصيير » لأنها لو كانت بمعنى الخلق لكانت : « ما خلق الله من بحيرة... » ونفي ذلك كفر لأنها نوع من الأنعام التي خلقها الله وكذلك معنى « التصيير » غير وارد أيضاً لأنه لا يصح. ولو رجعنا إلى الآية موضوع البحث نجد أن « جعل » فيها نصبت مفعولين هما الكاف في قوله « جعلناكم » و « أمة » وعلى هذا لا يصح فيها معنى « خلق » ولو كانت بمعنى « خلق » لجاز أن يراد بـ « الأمة الوسط » : العرب. فلم يبق إلا معنى « صير » أو « سمى » فاذا قلنا انها بمعنى « صير » فمعنى ذلك انكم لم تكونوا أمة وسطاً ثم صرتم كذلك وهذا يعني أنه لا بد من سبب صرتم بموجبه كذلك وليس ذلك الا بالإسلام بدليل « لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » ولا يدخل في هذه الأمة الذين لم يصيروا مسلمين لأنهم بقوا على ما كانوا عليه. واذا قلنا انها بمعنى سمى كان المراد بالأمة الوسط » الأمة المسلمة لأن هذه التسمية لم تعرف للعرب قبل الإسلام. ويدل على هذا قوله تعالى في الآية (٧٨) من سورة الحج وما قبلها حيث جاء فيهما : « يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون (٧٧) وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير (٧٨) ».

فاذا فسرنا « جعلناكم » في آية البقرة بمعنى « سمى » كان معنى آية الحج مساوياً لها :

« وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً »، « هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس »، وبمثل هذه الأدلة من اللغة والقرآن يكون الاجتهاد ويكون التفسير ولا يكون بمجرد الدعوى من غير ما علم ولا هدى ولا كتاب منير.

٤ ــ أما وقد طرحت على أجيالنا عناصر تكوين الأمة في الغرب فلا بد لنا من بيان وجهة نظر الإسلام في هذه العناصر، لا لأننا نعتبرها مقومات للأمة ــ كما يقولون ــ وإنما لبيان المعاني التي أضفاها الإسلام على هذه العناصر.

أ ـ العـــرق :

قدمنا فيما مضى شيئاً مما يتصل بالعرق حينما تكلمنا عن المعنى **الإسلامي للأمة وأنه يعتبر انتماءًا عقائدياً لا عرقياً ولا عنصرياً، وإن الإسلام** يعترف بانقسام الناس إلى شعوب وقبائل، وان حكمة ذلك هي التعارف بين الناس. غير أن الإسلام مع اعترافه بهذا الواقع فهو يسعى إلى إيجاد انتماء عقدي فكري يكون مجالاً للالتقاء والتعاون بين الشعوب ويهذب من حدة التعصب القبلي والقومي الذي ينشأ عند الناس بدافع التفاخر بالأحساب والأنساب وان الإسلام لا يعمل على إلغاء الواقع وإنما يبعده عن أن يكون مقياساً للتفاضل بين الناس ومجالاً للتفاخر والتناحر ويقيم بدلاً منه قيم الدين مقياساً للتفاضل على أساس العمل الصالح الذي يصدر عن الناس. إلّا أن هناك نقطة كثيراً ما كانت موضع جدل ومناقشة في أوساط المثقفين المعاصرين وهي فيما يتصل بعلاقة العرب كـ « قوم » بالإسلام كـ « دين »، فلا بد لنا إذن من الوقوف عند هذه النقطة والقاء الأضواء عليها باعتبارها من الأمور التي يكثر حولها الكلام.

٥ ــ إن الإسلام، وإن كانت صلته بجميع الشعوب والأقوام تقوم **على مبدأ المساواة وتحكمها نظرة واحدة ــ كما أشرنا إلى ذلك من قبل ــ** إلّا أنه بالنسبة للعرب هناك علاقة خاصة بين الإسلام والعرب ليست لشعب من الشعوب ولا لقوم من الأقوام. لقد اختار الله سبحانه نبيه من العرب، واختار لغة العرب لتكون لغة كتابه الخالد، واختار البيت الحرام كعبة المسلمين ومهوى أفئدتهم من مشارق الأرض ومغاربها ــ وهو في مكة المكرمة قلب بلاد العرب، واختار الجزيرة العربية لتكون قاعدة لدين الله، فلا يجتمع في جزيرة العرب دينان.

واذن رسول الله ــ ﷺ ــ بدعوته في مكة واستجاب له عدد قليل من العرب ودخلوا في دين الله كما دخل معهم أفراد من غير العرب الذين كانوا يعيشون في الجزيرة العربية، ولقي الرسول ــ ﷺ ــ مقاومة عنيفة من قريش **اضطرته** بعد ذلك إلى الهجرة للمدينة المنورة حيث وجد الأنصار الذين رحبوا به وبدعوته ودخلوا في دين الله أفواجاً. ولم يلبث رسول الله ــ ﷺ ــ

أن تغلب على قريش وخضعت له جزيرة العرب فخلصت للإسلام أرضاً وقوماً، ثم انطلق هؤلاء العرب المسلمون يحملون راية الإسلام إلى كل صقع وينشرون ألوية العدل في كل مكان بعد أن شرفوا بحمل رسالة التوحيد.

أما لماذا إختار الله رسوله من العرب ؟ ولماذا اختار العربية لغة لكتابه ؟ ولماذا كان الرعيل الأول الذي حملوا راية الإسلام معظمهم من العرب ؟ فمن الأمور التي يكثر الكلام حولها وخير ما يجاب به في مثل هذا الموضع أن نقول :

« الله أعلم حيث يجعل رسالته ». ولا شك بأن العرب في ذلك الوقت كانت لهم خصائص وفضائل كما كانت لهم قبائح ورذائل ـ كما هو الحال في كل شعب من الشعوب ـ ومع ذلك فلعل وضع العرب في ذلك الوقت كان أنسب من وضع غيرهم وأليق بحمل رسالة كرسالة الإسلام فاختبروا كطليعة لحمل هذه الرسالة إلى غيرهم من الشعوب والأقوام، ولقد كانوا على مستوى المسئولية حينما خرجوا مجاهدين في سبيل الله مضحين بأموالهم وأنفسهم فنجحوا في مهمتهم خير نجاح وقدموا للعالم هدايتهم فكانت خير هداية.

لقد شعر العرب المسلمون بعظم الأمانة التي أنيطت بهم فعرفوا قدر أنفسهم وفهموا حقيقة دعوتهم وأدوا واجبهم في نشر الإسلام وتبليغه دون أن يشعروا غيرهم من الشعوب الأخرى ـ التي استجابت لدعوة الإسلام ـ بفوقية أو تفضل وامتنان لأنهم لم ينطلقوا بهذا الدين إلّا امتثالاً لأمر الله ـ عز وجل ـ ومن ثم لم يكن جهادهم في سبيل المغانم المادية أو المطامع الاقتصادية وإنما كان جهاداً في سبيل الله ومن أجل أن تكون كلمة الله هي العليا.

ولقد قدر المسلمون من غير العرب لإخوانهم العرب المسلمين جهدهم وجهادهم فنظروا اليهم نظر المحبة والإكبار نظراً لما حملوه اليهم من خير وما تكبدوا في سبيل ذلك من تضحيات ومشاق، وساروا معهم جنباً إلى جنب يكتبون بدمائهم سطور ملحمة جهادية لم يعرف لها التاريخ مثيلاً.

أما ما تذكره كتب التاريخ من وجود فئات شعوبية في بعض مراحل

التاريخ الإسلامي حاولت تجريد العرب من مزاياهم والصاق النقائص بهم فهذا أمر لا يستبعد وقوعه من فئات منحرفة ذات أغراض خبيثة لتفرق بين المسلمين وتثير الأحقاد والضغائن بين شعوبهم. ولقد حاول اليهود مثل ذلك إبان انطلاق الدعوة الإسلامية في المدينة حينما حاولوا تذكير الأوس والخزرج بعداواتهم القديمة قبل أن ينعم الله بالإسلام عليهم. فهذا أمر ممكن الحدوث في كل زمان ومكان من الفئات الحاقدة التي تتضرر مصالحها وهذا لا يؤثر في الاتجاه العام من الاحترام والتقدير الذي كان هو السمة البارزة في نظرة المسلمين من غير العرب إلى إخوانهم من العرب المسلمين.

وبناء على ما تقدم فإن الميزة الأولى للعرب هي كونهم أقرب من غيرهم لفهم كتاب الله الذي نزل بلغتهم، ومن ثم فقد ورد في بعض الأحاديث الشريفة أن « العربية » : اللسان، وهذا ما دعا المسلمين من غير العرب أن يحبوا لغة العرب ويعكفوا على دراستها، بل إنهم قد برعوا في ذلك وأبدعوا وألفوا في علومها وأوسعوا وشاركوا مشاركة فعالة في علوم الإسلام المتعددة، بل إن كثيراً منهم تخلى عن لغته الأصلية أو نسيها بعد أن عرف العربية ودرجت على لسانه وكلما اقترب المسلمون من غير العرب من لغة العرب كلما تضاءل هذا الفارق بينهم وبين إخوانهم العرب المسلمين في فهم كتاب الله وشاركوهم في هذه الميزة الخاصة بهم.

ولا يطعن فيما قدمنا من حب المسلمين غير العرب للغة العربية ما قام به الاتحاديون في العهد العثماني من محاربة للعربية واقصاء لها عن ان تكون اللغة الرسمية والعمل على ان تكون اللغة التركية بديلاً عنها، اقول لا يطعن ذلك في حب العربية لان عمل الاتحاديين لم يكن موجهاً ضد العربية وحدها وانما كان مؤامرة يهودية ماكرة استهدفت الإسلام نفسه والخلافة ذاتها وهذا ما اكدته الحقائق التاريخية بعد انحلال الخلافة وتولي اتاتورك زمام الأمور في تركيا حيث سار بها بعيداً عن ثقافتها ودينها وتراثها، بل انه حاول قطعها نهائياً عن جذور تاريخها وتراثها بتغييره للحروف العربية إلى حروف لاتينية. ورغم كل هذه المحاولات الماكرة فلم تستطع تلك القوى ان تنال من ايمان الشعب التركي وعقيدته، وها هي تركيا الآن بعد ان انقضى جبل على عهد اتاتورك تسير في طريق العودة إلى الإسلام والعربية مرة أخرى.

فتنشئ المدارس العربية لتعليم القرآن واللغة العربية وبقية العلوم الإسلامية الأخرى وتقترب أكثر فأكثر من العرب والإسلام بعد ان ظن الناس في فترة من الفترات ان قلعة الإسلام في تركيا قد تحطمت وان جذوة الإيمان في قلوب الأتراك قد خبأ نورها وانطفأ أوارها، « والله غالب على أمره ولكن اكثر الناس لا يعلمون ».

ولقد استغل احفاد الصليبية انحراف الاتحاديين في محاربة العربية وعملوا على توسيع الفجوة بين المسلمين الأتراك واخوانهم العرب المسلمين كما حاولوا طرح افكار جديدة بديلة للإسلام بقصد اضعاف رابطة العقيدة الإسلامية وابعاد المسلمين عن مصدر قوتهم فأنشأوا الاحزاب الشيوعية والقومية المختلفة، فقام بعضها على أساس اقليمي ورفع شعارات اقليمية « سورية للسوريين » و « مصر للمصريين »، وحاولوا ان يجعلوا لكل اقليم تاريخه الخاص، فأثاروا الاعتزاز بالجاهليات القديمة التي عفى عليها الإسلام كالفينيقية والفرعونية وغيرها، كما قام بعضها على أساس قومي عربي بحيث حصر مجال نشاطه في بلاد العرب وحاول انشاء عقيدة قومية بديلة للإسلام حين اعتبر القومية رسالة خالدة، وحاول تفسير التاريخ الإسلامي على أساس قومي واعتبر الإسلام مرحلة من مراحل التاريخ العربي وقد أدى دوره في تلك المرحلة التاريخية ولا يستطيع في الوقت الحاضر ان يؤدي دوراً هاماً وعليه في هذه المرحلة أن ينسحب من الميدان ويخلي الطريق للعقيدة القومية الجديدة. وبعد أن ساروا شوطاً في هذا الطريق شعروا بأن القومية لا تكفي وحدها ان تكون بديلاً للإسلام فهي في حقيقتها انتماء وانتساب وهم ارادوها فكرة ورسالة ولكنها لم تقو على حمل ما حملوها مما جعلهم يقولون بالاشتراكية إلى جانب القومية.

ولكن الاشتراكية مذهب غربي والقومية انتماء عربي فكيف يمكن التوفيق بين العربي والغربي ومن هنا كان لا بد من التزاوج بين القومية العربية والاشتراكية الغربية فكان المولود الجديد : الاشتراكية العربية، وحينما سئلت الاشتراكية العربية من اين جاءت ؟ قالت انها نبعت من أرض العروبة وواقعها.

ان صلة العرب بالإسلام صلة أصيلة عميقة ولقد ربط الله بينهما بعروة وثقى لا انفصام لها ومهما حاول اعداء الإسلام والعرب ـ في الداخل

والخارج - فانهم لن يستطيعوا أن يقطعوا ما وصله الله وسيبوؤون بالفشل الذريع وتذهب جهودهم ادراج الرياح، رغم ما اوتوا من سعة الحيلة والمكر والخداع.

ولن يطول على الأمة ذلك اليوم الذي تعود فيه الأمور إلى نصابها وتطوى فيه هذه الصفحة النشاز في تاريخ امتنا الحديث، فلقد بدأ المارد المسلم يتململ داخل القمقم الذي حبس فيه في غفلة من الزمن وقد شعر أنه أُخذ غدراً وعلى حين غرة ولن يغفر للذين اساؤوا إليه وسيعرف كيف يحاسبهم على غدرهم وخيانتهم وسيلتئم شمل هذه الأمة من جديد ويعود العرب إلى أداء رسالتهم الإسلامية الخالدة وسيجدون اخوانهم المسلمين من غير العرب يقفون إلى جانبهم يشدون من أزرهم ويجاهدون معهم صفاً واحداً وقلباً واحداً وأمة واحدة.

وان هذه النظرة الإسلامية إلى العرق في أنه لا يقوى ان يكون مقوماً أساسياً في تكوين الأمة هي التي بدأت تسود العالم المعاصر حيث أصبح الالتقاء على المبادىء والأفكار والفلسفات سمة الاتجاهات الحضارية الحديثة. ومما يساعد على ذلك ويعجل به ان العالم اليوم غدا كمدينة واحدة بفضل ما اضافته يد الإنسان من اختراعات واكتشافات ساهمت إلى حد كبير في تقريب البلاد المتباعدة وازالة كثير من الفوارق بين الشعوب في انماط المعيشة ووسائلها مما يجعل العالم يقترب اكثر فأكثر من الالتقاء على عقيدة واحدة، وبهذا تبدو التجمعات القومية والاقليمية من مخلفات القرون الماضية، وبذلك يكون الإسلام قد سجل سبقاً حضارياً كبيراً حينما جعل الأمة تقوم على أساس العقيدة منذ أربعة عشر قرناً وفي وقت كان يبدو فيه مثل ذلك أمراً غريباً مستنكراً، ولعل هذا يفسر لنا شيئاً من حكمة ختم النبوة بمحمد - ﷺ - وختم الرسالات السماوية الخاصة برسالة الإسلام العامة للناس جميعاً، وان الناس بامكانهم ان يكونوا أمة واحدة تذوب بينهم الفوارق المصطنعة اذا ما جمعتهم عقيدة الإسلام، وهكذا تتطور البشرية يوماً بعد يوم لتلحق بقيم الإسلام الخالدة التي تسع البشرية كلها والزمن كله بما يجدُّ فيه من تطورات وتطلعات.

ان فكرة قيام الأمة على أساس عرقي، كما دعا اليها هتلر، لم تلق تجاوباً حقيقياً قد تمازجت واختلطت أصول الناس نتيجة التزاوج. ولا يمكن الجزم بأن عرقاً من الأعراق البشرية قد احتفظ بنقائه وصفائه، ومن ثم لم يكن لهذه الدعوة نصيب من النجاح ولعلها قد انتهت بانتهاء حياة المنادي بها. واذا كان هذا ينطبق على الأجناس البشرية في الغرب فلا شك انه ينطبق على الشرق أيضاً اذ حدث فيه من التمازج والاختلاط والتفاعل بين الشعوب ما أذاب كثيراً من الفوارق بينها وجعلها تقترب من الوحدة في كثير من شئون حياتها وبخاصة في البلاد التي كانت تنتسب إلى دين واحد أو عقيدة جامعة.

وأمام هذه الحقائق الواقعية الدامغة ترجع المنادون بفكرة « العرق »، ولم يعد يهمهم أن يتثبتوا من نقاء « العروق » وصفاء « الأجناس »، واكتفوا باعتبار التقارب الواقعي الحاضر بديلاً للتقارب العرقي المظنون وان ذلك كاف في رأيهم لان يكون أمة واحدة دونما حاجة إلى البحث في الأصول النسبية والقبلية، وبذلك يكون « العرق » فقد كونه مقوماً حقيقياً من مقومات الأمة في نظر القائلين به بل ان بعضهم ذهب إلى أبعد من ذلك حين اكتفى أن يكون للعرق دور ما في مرحلة سابقة من مراحل تكوين الأمة خلال التاريخ.

ومن كل ما تقدم نرى ان فكرة « العرق » ـ كمقوم من مقومات الأمة ـ قد طرحت أول ما طرحت في المانيا وانها انتهت بعد ذلك لان تكون وهماً وخيالاً حيث تراجع القائلون بها، إما على سبيل الحقيقة بتخليهم عنها وإما على سبيل المجاز بتأويلهم لها إلى معان جديدة لم تكن مقصودة بها أصلاً، وأياً ما كان الأمر فقد انتهت الفكرة على ايدي القائلين بها وفي البلاد التي ولدت فيها، ومع ذلك كله فقد انتقلت الفكرة على ايدي القائلين بها وفي البلاد التي ولدت فيها، ومع ذلك كله فقد انتقلت الفكرة إلى بلاد العالم الإسلامي متأخرة جداً، وبعد أن فقدت كل مبررات حياتها، إلا أن التقليد الأعمى لكل ما هو غربي في المجتمعات الإسلامية المعاصرة هو الذي دفع **المتربصين والمشككين والمرجفين إلى أن يستوردوا مثل هذه البضائع الفاسدة**

في سوق الفكر ليبلبلوا بها أفكار المسلمين وليوقعوهم في مخططات الاستعمار ومشاريعه الهادفة إلى الحيلولة دون نهضة حقيقية لهذه الأمة، وبذلك تكون لهم فرصة تاريخية نادرة ان يعبثوا بمقدرات هذه الأمة وان يحاولوا تغيير مسارها الحضاري التاريخي بعيداً عن دعوة الإسلام ورسالته الخالدة. **ومع الأسف فقد جازت مثل هذه الأفكار على كثير من المتواضعين في عقولهم وأفكارهم في عالمنا الإسلامي، وهي ان دلت على شيء فإنما** تدل على أن شبابنا المعاصر بدأ يفقد المناعة الأصيلة التي عرف بها المسلم خلال التاريخ، وذلكم لابتعاده عن مصادر ثقافته ودينه وعدم التزامه بقيمة واخلاقة، واملنا كبير في أن يعي شبابنا واقعهم ويدركوا مسؤولياتهم فيحفظوا أنفسهم من السقوط أولاً ليكونوا قادرين على مد يد العون للآخرين ثانيا وبذلك يحولون دون ما يراد لامتهم من ضياع ودمار.

ب ـ الأرض :

يراد بالأرض التي تشكل مقوماً من مقومات الأمة ـ عند القائلين بها ـ الوطن الذي يعيش فوقه أمة من الأمم أو شعب من الشعوب وان هذا الوطن قد يؤثر في ساكنيه ويمنحهم بعض خصائصه التي امتاز بها مناخه الطبيعي أو طبيعته الجغرافية بما فيها من لين أو قساوة وما إلى ذلك من آثار الأرض التي ربما تطبع سكانها بطابع مميز لهم عن غيرهم.

والإسلام ابتداء لا ينكر على المسلم ان يتعلق قلبه بحب البلد الذي نشأ فيه فهذا أمر طبيعي فطري لا يمكن تجاهله او انكاره وكذلك تأثر الانسان بالبيئة التي نشأ فيها واكتسابه من الأرض التي عاش فيها بعض خصائصها فهذه أمور تحدث بشكل عفوي لكل من يعيش على هذه الأرض.

إلا أن الإسلام لا يقف بالمسلم عند حدود الأرض التي نشأ عليها وشهدت ذكريات طفولته وصباه، بل إنه يمد عينيه إلى الأرض كلها. فالأرض كلها من خلق الله وعلى المسلم أن يخرج من حدود اقليمه الصغير ليتعرف على الكون الكبير وما فيه وليرفع كلمة التوحيد في كل مكان، فالأرض كلها بحاجة اليه بحاجة إلى عقيدته التي يحملها بحاجة إلى رسالته، فلا يجوز له

ان ينطوي على نفسه في حدود مغلقة، « ان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ». انه الخليفة في الأرض فلا ينبغي له ان يقبع في ركن من اركانها أو زاوية من زواياها يجتر ذكرياته الوطنية وينسى من حوله وما حوله، ان الأرض كلها يمكن أن تكون وطناً له حينما يحمل اليها رسالته وينقل اليها أمانته وهذه مهمته، فعليه ان يعرف قدره ويكون على مستوى المسئولية التي انيطت به.

ان فكرة الأمة التي تقوم على أساس عقدَي ديني يضم شعوباً مختلفة وأقواماً متعددة لا يمكن أن تقبل بفكرة وطن محدود، فالوطن الإسلامي ان صح التعبير ليس محدداً بقطعة من الأرض وانما هو كل مكان في الأرض وصل اليه الإسلام. والإسلام بحسب تصور المسلم لا بد له ان يعم الأرض كلها : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ». وهكذا فالدين الذي قال بأمة عالمية تضم كل الأقوام والشعوب لا يمكن ان يقبل بفكرة الوطن المحدود التي يرضى بها الاقليميون العاكفون على اجترار وطنية ضيقة حبسوا فيها أنفسهم، وهكذا يوسع الإسلام آفاق المسلم في كل شيء يخرجه من القيود والاغلال التي تفرضها النظرات والنظريات البشرية المحدودة والصادرة عن عقول قاصرة محكومة باعتبارات مكانية أو زمانية عاطفية.

وإذا كانت الأرض أو الوطن في الماضي تمنح سكانها بعض خصائصها فان هذا الأمر في عصرنا الحالي في طريقه إلى الزوال بعد أن ذابت الحدود الجغرافية تحت تأثير المواصلات الحديثة التي جعلت العالم كله كأنه بلد واحد وارض واحدة، وبعد ان استطاع الإنسان التغلب على الظروف الطبيعية القاسية بما كشفه العلم من مخترعات جعلت نمط الحياة البشرية يسير في طريق الوحدة، وكلما تقدم بنا الزمن كلما زادت هذه الوحدة وهذا التقارب، وبالتالي فان هذا المقوم من مقومات الأمة الذي هو الأرض والوطن ـ عند القائلين به ـ يبدو أيضاً وكأنه مودع لهم بعد أن أتت عليه منجزات العلم ومكتشفاته، ولن يبقى أمام البشرية إلا أن تعتصم بالمقوم الوحيد الذي يجمع الناس كلهم في أمة واحدة تذوب فيها فوارق الجنس والأرض واللون، ولن تجد ذلك إلا في الإسلام العظيم، الدين العالمي الذي لا

يعرف الحدود والقيود والذي جاء هداية للناس عامة ورحمة للعالمين شاملة.

وعلى فرض بقاء ذلك كله فالإسلام لا يمنع المسلم ان يشعر بحنين إلى وطنه الأصلي ومدارج طفولته وصباه، ولكنه لا يسمح له ان يحبس نفسه في هذا المضيق وانما يرفع من تصوره ويمده ويوسعه ويقبل منه ما يمكن أن يكون قد اكتسبه من آثار نشأته في أرض معينة أو طبيعة خاصة ما لم يتعارض ذلك كله مع عقيدته الدينية وانتمائه إلى أمة عالمية ذات رسالة تستهدف صلاح البشرية كلها. وان هذا الحنين نحو الموطن الأصلي، وتلك الخصائص والطباع التي يمكن ان تكتسب من البيئة والموطن لا تكفي في نظر الإسلام لان تكون عنصراً أو مقوماً من مقومات الأمة وانما يبحث عن ذلك ويقول به الذين لا يملكون عقيدة جامعة أو ديناً موحداً، أما نحن الذين جمعنا الله تحت لوائه وربط بين قلوبنا بحبل من عنده فلا تلفت انتباهنا مثل هذه الروابط ولا تشدنا اليها مثل هذه التطلعات لاننا نملك ما هو اقوى وامتن وصدق الله العظيم : « واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخواناً ». وصدق الله العظيم : « لو انفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم، ولكن الله ألف بينهم ».

جـ ـ التـــاريـخ :

لا يستطيع الكتّاب والمفكرون حينما يتحدثون عن الأمة والعناصر المكونة لها ان يغفلوا شأن التاريخ، وهم يقصدون به تاريخ كل أمة بما فيه من امجاد ونكبات، ولا شك بأن للتاريخ أثراً كبيراً في صياغة أجيال الأمة حيث تأخذ من امجادها الماضية حافزاً لصنع امجاد جديدة وتحاول ان تتجنب الأخطاء التاريخية التي ربما وقع فيها أسلافهم.

ولما كان مفهوم الأمة اقترن من الناحية العملية عند جميع الأمم بالمعنى القومي كما سبق ان بيناه وشرحناه فقد اختلط تاريخ الأمة ـ عندهم ـ أيضاً بالمفهوم القومي، وهكذا غدا تاريخ الأمة كأنه تاريخ القوم في كل عهودهم، ومن ثم تحرص الأمم ـ بهذا المفهوم القومي ـ على ان تبعث تاريخها القديم ـ مهما كان موغلاً في شعاب الماضي ـ بما فيه من محاسن ومساوئ وبما يضم في طياته من أمجاد تبعث على الاعتزاز ومخاز

يندى لها الجبين خجلاً، بل ربما حاولوا تبرير هذه المخازي من باب الحمية الجاهلية والتعصب الأعمى الذي لا يريد الاعتراف بالحقائق الموضوعية المرة.

وقد سرت هذه الموجة في بعث التاريخ القديم واحيائه في البلاد الإسلامية بعد ما تم القضاء على الخلافة وتمزيقها، ذلك ان الذين خططوا لذلك ارادوا فعلاً ان تنقسم الأمة الإسلامية إلى أمم، وحيث أنه لا بد لكل أمة من تاريخ ولما كان تاريخ الأمة الإسلامية واحداً فلا بد اذن من بعث تاريخ هذه الشعوب قبل دخولها في الإسلام، ومن ثم وجهت الطاقات إلى بعث تاريخ الجاهليات، ولما كان الشعور الإسلامي ينفر بطبعه من كل ما هو جاهلي أو له صلة بالجاهلية فقد اضفوا عليها اسماء حديثة وقالوا حضارات، ورصدت الأموال الكثيرة للكشف عن الأصنام والتماثيل واقامة المتاحف الضخمة للمحافظة عليها.

ان مثل هذا العمل ليس خطراً على المفهوم الديني للأمة فقط ولكنه خطر أيضاً عليها بالمفهوم القومي، لان التاريخ القديم في البلاد العربية ليس تاريخاً واحداً وجاهليته ليست جاهلية واحدة وبالتالي لن يكون التاريخ القديم الجاهلي عامل وحدة في تكوين الأمة ـ بمعناها القومي ـ ولكنه سيكون عامل تفريق لانه يظهر كل قطر من الأقطار بأن له تاريخاً غير تاريخ الآخر وبذلك لا يكون التاريخ مقوماً من مقومات الأمة ولكنه يكون معوقاً من معوقاتها وعقبة كأداء تحول دون قيامها.

وإذا كان الإسلام قد أقام « الأمة » على أساس الانتماء الديني الذي يضم البشرية بكل اجناسها وعناصرها واعتبر وطنها هو الأرض كلها ـ ما كان واقعاً منها تحت سيطرتها وما سوف يقع ـ كذلك فانه قد نظر إلى التاريخ نظرة تنسجم مع عالمية الأمة وعالمية الوطن.

ان تاريخ الأمة الإسلامية لم يبدأ منذ بعث الرسول محمد ﷺ ولكنه بدأ منذ وجد آدم على ظهر هذه الأرض واستمر بعد ذلك في كل أمة استجابت لدعوة نبيها، فهو تاريخ موصول بدأ ببعثة أول نبي ويستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، انه تاريخ الدين كله الذي هو الإسلام « ان الدين

عند الله الإسلام ». ومن ثم نجد القرآن الكريم حفل بتاريخ الأنبياء ومواقفهم ودعواتهم وبصر المؤمنين بأن الأنبياء كلهم خلال التاريخ البشري الطويل ينتظمهم سلك واحد ويصدرون في مواقفهم عن عقيدة واحدة ويتلقون الوحي من اله واحد فهم اذن أمة واحدة وان تباعدت بهم الأزمان وتعددت بهم الأوطان.

وقد أوضح القرآن هذه الحقيقة بما لا يدع مجالاً للتفسير والتأويل حين ذكر الأنبياء والرسل السابقين ثم قال لنا : « وان هذه امتكم أمة واحدة وانا ربكم فاعبدون »، وحينما قال مخاطباً لنبينا عليه الصلاة والسلام بعد ذكر الأنبياء السابقين : « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ».

واذن فتاريخ هذه الأمة تاريخ عريق ضارب في شعاب الزمان، تاريخ عريض لا يحده مكان، تاريخ مواكب الايمان يقودها الأنبياء والمرسلون في معارك متصلة مع الجاهليات في كل عصر ومصر، انه تاريخ حافل مليء بالدروس والعبر، انه ذخيرة كبيرة لهذه الأمة عليها ان تحسن قراءته وتدبره كسنن اجتماعية ثابتة تستطيع الاستفادة منه في حاضرها ومستقبلها.

ويرى المعلم عبد الحميد الفراهي الهندي ان الوقائع التاريخية تعرض في القرآن الكريم بطريقة تختلف عن طرق المؤرخين، فلقد اعتاد المؤرخون ان يعرضوا التاريخ : اما بالرواية التي هي جمع الوقائع التاريخية بحسب ترتيبها الزماني دون مراعاة الربط بينها وبيان اسبابها ونتائجها، واما بالدراية وهي : جمع الوقائع بالترتيب العقلي مع الزماني حيث يلتزم المؤرِّخ طلب السبب لكل ما وقع ليعلم ان كل متأخر نتيجة لمتقدم. والتاريخ، بكلا قسميه، ليس إلا علم ما مضى وغاب عنك من أحوال بني نوعك.

وأما الوقائع التاريخية في القرآن الكريم وفي الكتب المقدسة فاننا نجدها مترتبة ترتيباً اخلاقياً وان العالم تحت قدرة الله وتصرفه وان الأمة تسمو وتهبط حسب اخلاقها.

ومن هنا نرى القرآن الكريم يضفي على التاريخ معنى خاصاً ويقدمه لنا على أنه سنن ثابتة يحكمها ناموس واحد، ومن ثم فهو لا يحفل بالزمان والمكان والتفاصيل إلا بالقدر الذي يوضح الهدف والمغزى من الحادثة

التاريخية، كما انه لا يقصد بذلك مجرد العرض والاخبار وانما يتعدى ذلك إلى التربية بالقدوة الحسنة والاعتبار بمصير الأمم الغابرة وكشف السنن التي تحكم الحياة الانسانية والتجمعات البشرية.

ان التاريخ ـ بهذا المعنى ـ يمثل التطبيق العملي للمثل والقيم الدينية التي قامت على أساسها « الأمة » بالمعنى الإسلامي، ولا شك بانه زادٌ كبيرٌ لامتنا المسلمة تتزود منه في طريقها اللاحب الطويل المليء بالأشواك والمفاجآت، ولم تزود بذلك كله إلا لأنها وارثة الأمم والرسالات حيث ختم الله بنبيها النبوات وحفظ لها أصولها النظرية بحفظه لقرآنها وسنتها بعد ان اختار نبيها إلى جواره، وجعلها خير أمة أخرجت للناس.

اللغـــة :

يميل بعض المفكرين إلى اعتبار اللغة عنصراً أساسياً في تكوين الأمة، بينما يرى بعضهم ان هناك امماً تتكلم اكثر من لغة واحدة ومن ثم لا يقيم كبير وزن إلى عنصر اللغة.

أما نظرة الإسلام إلى هذا العنصر فهي كنظرته إلى بقية العناصر التي قدمنا الكلام عليها، فهو لا يعتبره مقوماً من مقومات الأمة لأنه يعتبر الدين هو المقوم الأول والأخير، غير انه ليس معنى ذلك ان الإسلام لا يقيم له وزناً.

لغة الدين واحدة :

لقد جعل الإسلام لغة الدين واحدة وهي العربية، ولذلك انزل الله كتابه بلغة العرب واختار رسوله من العرب، فكانت مصادر الدين النظرية، الكتاب والسنة، باللغة العربية فكان لا بد لمن أراد دراسة الدين والتعمق فيه من تعلم العربية ودراستها. وفعلا أقبل المسلمون على تعلم العربية ودراستها وتعمقوا في ذلك وبرعوا وربما نبغ عدد منهم في بعض الدراسات اللغوية والدينية والمكتبة العربية مليئة بالمؤلفات والكتب التي شارك فيها المسلمون جميعاً وهم من شعوب مختلفة في الأصل، إلا أن ايمانهم بالإسلام العظيم دفعهم إلى حب العربية ودراستها، وكثير منهم ربما نسي لغته الأصلية واعتبر العربية هي لغته.

ان هذه الصلة الوثيقة بين العربية والإسلام كانت لها آثار كبيرة على اللغة العربية لا بأس ان نلم ببعضها هنا :

إثـــراء اللغـــة :

ان اعتبار العربية لغة لكتاب الله قد أثرى هذه اللغة بالمعانـي والاصطلاحات الجديدة التي جاء بها الإسلام الحنيف، وبذلك خرجت العربية من عزلتها اللغوية التي كانت تتمثل في استعمال المفردات الخاصة بالبيئة الجاهلية إلى استعمال مفردات كثيرة فرضتها طبيعة الرسالة الإسلامية وثقافتها، وبعد ان كان تراث الجاهلية اللغوي يتمثل في قصائد ومعلقات تركها الشعراء أصبح تراثها في الإسلام ما لا يحصى من الكتب والمؤلفات والتي يدور معظمها حول رسالة الإسلام وعلوم القرآن والعربية وبقية العلوم والفنون الأخرى. ولا شك بأن هذا كان كسباً كبيراً لهذه اللغة.

لغـــة عـالميـــة :

لقد خرج الإسلام بالعربية من عزلتها المكانية في جزيرة العرب وسار بها مشرقاً ومغرباً حتى غدت لغة عالمية، ومازالت العربية إلى اليوم ترافق انتشار الإسلام في كل مكان يحط فيه رحاله، فلا يدخل قوم في دين الله إلا وتبدأ المدارس العربية بالانتشار من أجل تعليم القرآن وفهم رسالة الإسلام.

ومع أن الله ـ سبحانه ـ قد اختار العربية لغة لدينه فانه لم يجبر غير العرب على ترك لغاتهم الأصلية وبذلك تكون العربية اللغة الرسمية والمشتركة بين جميع الشعوب الإسلامية، إلا أنه مع طول الوقت والزمن نرى ان اللغات المحلية التي تتكلم بها شعوب إسلامية كثيراً ما تضعف ويقل التخاطب بها يوماً بعد يوم وبذلك تحل العربية محلها في التخاطب وبذلك يقترب المسلمون يوماً بعد يوم من العربية ويبتعدون عن لغاتهم القومية الخاصة، هذا اذا سارت الأمور سيراً طبيعياً وفي إطار الحكم الإسلامي الصحيح[1]، اما اذا

---

(١) جاء في هامش صفحة /٣٣٠/ من الجزء الأول من كتاب « الإسلام والحضارة العربية » لمحمد كرد علي :

« سألت في الحرب العامة صديقي سليمان نظيف وجناب شهاب الدين من أعظم أدباء الترك =

كانت الجاهلية هي التي تتحكم فربما سارت الأمور باتجاه معاكس كما رأينا ذلك في فترات الانحراف التي ذكرنا طرفاً منها فيما سبق.

لغــة خالــدة :

لقد أعطى الإسلام للعربية صفة البقاء والخلود حينما جعلها لغة القرآن الخالد والدين الخالد حيث قد تكفل الله بحفظ الذكر، والذكر : لفظ ومعنى، ولا يمكن فهمه إلا بلغة العرب، واذن فلابد من بقاء لغة العرب حتى يمكن فهم القرآن الكريم، ومن ثم نجد عالماً هندياً كالامام عبد الحميد الفراهي يصر على ان تكون مؤلفاته بالعربية مع حاجة قومه الهنود إلى كتابات بلغتهم ولما سئل عن ذلك قال : أردت لكتبي الخلود.

ان هذه الصلة الوثيقة بين العربية والإسلام أمر لا يمكن فصمه لأنه قدر إلهي، وقد ادرك اعداء الإسلام ما لهذه الصلة من أثر كبير في قوة الإسلام والمسلمين ورأوا أنهم اذا امكنهم اضعاف العربية او استبدالها فسيحققون نصراً كبيراً من ابعاد المسلمين عن قرآنهم ودينهم ومن ثم انطلقوا يدعون إلى اللهجات العامية لتحل محل العربية الفصحى كما دعا بعضهم إلى استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية ليقطع صلة الأجيال الحاضرة بثقافتها وتراثها وتاريخها وقرآنها كما فعل اتاتورك في تركيا.

ان المكانة التي تحظى بها اللغة العربية في نفوس المسلمين جميعاً من عرب وغير عرب أكبر بكثير من المكانة التي يحاول دعاة القومية ان

= وعلمائهم أن يمليا علي جريدة بأسماء كتب العلم التي وضعها الأتراك العثمانيون في العهد الأخير فأنكروا سؤالي وقالا : وهل تذهب إلى أننا أمة علم ومن أين نأتيك بهؤلاء المؤلفين الذين لم ينشؤوا بين أظهرنا إلى اليوم ؟ نحن أمة خيال وأدب وجل ما عندنا من هذا القبيل شعر وقصص نقل أكثره عن اللغات الأوروبية وما خلفه الموسومون بالعلم من أبنائنا في فنون الحرب والبحر والقانون والادارة فانما هو مترجمات لا يدلنا في متونها وشروحها وحواشيها الا القليل الذي لا يؤبه له. قالا ذلك وكانا يأسفان لأنه لم يتم للسلطان سليم تنفيذ منهاجه في نشر اللغة العربية وجعلها لغة الدولة الرسمية قائلين لو وفق إلى تحقيق أمنيته لكان العثمانيون غير ما هم عليه اليوم يكتبون العربية مشبعة بهواء الآستانة الجميل ورقة بيزنطة ولأدمجوا حضارة العرب فيهم وكثروا سوادهم فأتوا بمدينة جديدة توحدت فيها جميع عناصر السلطنة.

يعطوها للغة. انهم في الظاهر يجعلونها عنصراً بارزاً من عناصر تكوين « الأمة » بالمعنى القومي، ولكنهم في الواقع لا يهتمون بدراستها وفهمها كما يهتم المسلم لان ارتباط المسلم بها ارتباط ديني عقدي فهو يحرص على فهمها والتعمق في أسرارها ليفهم أسرار كتاب الله تعالى، أما الذي لا تربطه باللغة إلا رابطة قومية فربما يكتفي فيها بفهم سطحي ساذج ولا يهمه بعد ذلك ان تكلم بلهجة محلية دارجة في تدبير أموره الخاصة.

ان الإسلام وان كان يجعل الدين المقوم الأول والاخير للأمة إلا أنه قد ربط بين الدين واللغة العربية بعروة وثقى، ومن ثم كان علماؤنا يقولون ان تعلم اللغة العربية من الدين لان فهم الدين متوقف عليها.

والمعروف ان العربية الفصحى تنتشر وتعم بانتشار العلم والثقافة وهذا ما لاحظناه في جيلنا السابق، إلا أن الملاحظ في الجيل الناشيء انه ضعيف في العربية الفصحى رغم كثرة المدارس وانتشار التعليم، كما يلاحظ زحف العامية الدارجة في السنوات الأخيرة على وسائل الاعلام كالاذاعة والتلفزيون وغيرهما وهذه ظاهرة خطيرة لا يجوز السكوت عليها لان السكوت عليها جريمة بالمعنى الديني والقومي أيضاً. ومن ثم فليس هناك مبرر واحد يسمح لهذه الظاهرة بالاستمرار، وعلى العلماء والمفكرين وأصحاب النفوذ ان يبذلوا كل جهدهم لايقاف هذا الزحف العامي على لغة العلم والدين والا تعرضت بلادنا لكارثة كبيرة لا يمكن تلافيها بسهولة.

ان ولاء المسلم أولاً وقبل كل شيء، هو لعقيدته الدينية التي تضمنها كتاب الله وسنة الرسول ﷺ كما ان تاريخه وامجاده هو تاريخ الإسلام خلال العصور.

واذا اردنا اختصاراً أكثر قلنا : ان الإسلام بالنسبة للمسلم عقيدة وعبادة وشريعة وخلق ونظام حياة وثقافة وحضارة وتراث، ولقد كانت اللغة العربية وعاء ذلك كله خلال أربعة عشر قرناً من الزمان، ومن ثم كان ارتباط المسلم بالعربية ارتباطاً لا فكاك منه إذا أراد ان يحقق لنفسه فهماً في دين الله أو أراد أن يضرب في الثقافة الإسلامية بنصيب.

* * *

وهكذا نرى ان كل ما طرح على المسلمين في هذا العصر باسم « مقومات الأمة » أو « العناصر المكونة لها » لا يقوم على أساس ولا يستند إلى دليل، وقد رجعت إلى معظم ما كتب ـ في هذا الموضوع ـ باقلام من يسمون « المفكرون القوميون » فلم أر إلا كلاماً انشائياً مزخرفاً يعتمد على المغالطة حيناً وعلى التبعية الفكرية للغرب حيناً آخر، كل ذلك بغية قطع هذه الأمة عن جذورها الإسلامية الأصيلة وتحويل خط سيرها في حاضرها ومستقبلها بعيداً عن الإسلام العظيم.

أمّــة مُسْــلمة

وبنــاء على ما تقدم فقد اختار الله لهذه الأمة اسماً يعبر عن حقيقة ما قامت عليه من عقيدة ودين، فلم يختر لها اسمــاً عرقياً ولا عنصرياً لانه يريدها ان تسير في طريق العقيدة التي تحكم حياتها، ويباعد بينها وبين أسباب التعصب والعداوات التي تمزق وحدتها وتضعها فريسة سهلة أمام عدوها. نعم لقد اختار الله لهذه الأمة ان تكون أمة مسلمة، ومسلمة فقط، ولكن ماذا تعني هذه التسمية وهذا الوصف ؟

انها الصفة الأولى والأخيرة لهذه الأمة والتي غلبت عليهـا حتـى أصبحت علماً، وهي تدل علـى خضوع هذه الأمـة لخالقهـا وبارئهـا واستسلامها لشريعته وحكمه وانقيادها له في كل ما أمر ونهى وسيرها على طريقته وهداه واستلهامها لكتابه في كل ما يعرض لها من أمور ومشكلات في خط سيرها الطويل المليء بالأشواك والصعاب والمحفوف بالمخاطر والمهالك.

ومن هنا فهذه التسمية لم تأت عبثاً، والله سبحانه وتعالى هو الذي اختار لنا هذه التسمية : « وجاهدوا في الله حق جهاده، هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج، ملة أبيكم ابراهيم، هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونـوا شهـداء علـى الناس... » ـ الحج : ٧٨.

وكان وجود هذه الأمة أمنية في ضمير إبراهيم عليه السلام وحلماً يراود خياله وهو غارق في مناجاة ربه يبني البيت ويرفع منه القواعد ليكون هذا البيت مثابة للناس وامناً.

« واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن، قال اني جاعلك للناس إماماً، قال : وممن ذريتي ؟ قال لا ينال عهدي الظالمين. واذ جعلنا البيت مثابة للناس وامناً، واتخذوا من مقام ابراهيم مصلّى، وعهدنا إلى ابراهيم واسماعيل ان طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع والسجود. واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق اهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر، قال ومن كفر فامتعه قليلاً ثم اضطره إلى عذاب النار وبئس المصير. **واذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل : ربنا تقبل منا، إنك أنت السميع العليم. ربنا واجعلنا مُسلمَيْن لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرِنا مناسكنا وتب علينا، إنك أنت التواب الرحيم. ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم** يتلو عليهم آياتك، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، انك انت العزيز الحكيم. ومن يرغب عن ملة ابراهيم إلا من سفه نفسه، ولقد اصطفيناه في الدنيا، وانه في الآخرة لمن الصالحين. اذ قال له ربه اسلم قال اسلمت لرب العالمين. ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب : يا بني ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون. أم كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه : ما تعبدون من بعدي ؟ **قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق** إلهاً واحداً، ونحن له مسلمون » البقرة ١٣٣ وما قبلها.

ومن هنا تبدو اصالة هذه التسمية وعمقها ويبدو هذا التكرار : « ربنا واجعلنا مسلمين لك... ومن ذريتنا أمة مسلمة لك.... اذ قال له ربه اسلم قال اسلمت لرب العالمين... فلا تموتن إلا وانتم مسلمون... قالوا نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون... يبدو هذا التكرار امراً مقصوداً لدلالته الكبرى على صبغة هذه الأمة، « صبغة الله ومن احسن من الله صبغة ». ولا يجوز لهذه الأمة بحال ان تغير هويتها وان تسمي نفسها باسم مستعار يخفي حقيقتها ويشوه شخصيتها ويعرضها للمهانة والأذى بعد ان اختار الله هذه التسمية المطابقة لها تمام الانطباق.

والأمة المسلمة هي التي تقوم الروابط بين أفرادها على أساس العقيدة، والعقيدة وحدها دون سائر الاعتبارات والروابط التي تعارف عليها البشر، ومن ثم يلفت الله ــ سبحانه وتعالى ــ نظر ابراهيم عليه السلام إلى ذلك في قوله تعالى : « قال اني جاعلك للناس إماماً، قال ومن ذريتي ؟ قال : لا ينال عهدي الظالمين »، واذن فالأمر ليس أمر ذرية فقط وانما هو أمر الذرية الصالحة أو الذرية الظالمة، ويبدو أن ابراهيم ــ عليه السلام ــ قد استوعب هذه الفكرة بسرعة فائقة حتى انه ليقول بعد ذلك مباشرة : « واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق اهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر، قال ومن كفر فامتعه قليلاً ثم اضطره إلى عذاب النار ».

وواضح هنا دعاء ابراهيم عليه السلام : « وارزق اهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر »، فقد برزت رابطة العقيدة سافرة قوية في الوقت الذي توارت فيه روابط الأرضِ والتراب. على أن الإسلام يحترم هذه الروابط الأرضية ولا يقلل من شأنها إلا إذا تعارضت مع رابطة العقيدة، ويقول الله تعالى في ذلك : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله »، كما يقول سبحانه : « وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل »، بل انه ليقيم نظام الارث كله على أساس رابطة النسب، ولكن ذلك كله ضمن اطارة رابطة العقيدة كما قدمنا.

أما إذا تعارضت رابطة النسب مع رابطة العقيدة فحينئذ : « لا توارث بين أهل ملتين شتى »، وحينئذ لا تجوز طاعة الوالدين في الشرك : « وان جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما ».

وهذا نوح عليه السلام ينادي ابنه : « ونادى نوح ابنه ــ وكان في معزل ــ يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين، قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء، قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلّا من رحم، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين......، ونادى نوح ربه فقال رب : ان ابني من أهلي وان وعدك الحق وانت احكم الحاكمين. قال يا نوح انه ليس من اهلك انه عمل غير صالح » ــ هود : ٤٦ وما قبلها ــ هكذا انه ليس من اهلك، الذين وعدت بنجاتهم، لقد فرقت بينك وبينه العقيدة حتى لم يعد

هناك اعتبار لصلة القربى بينك وبينه.

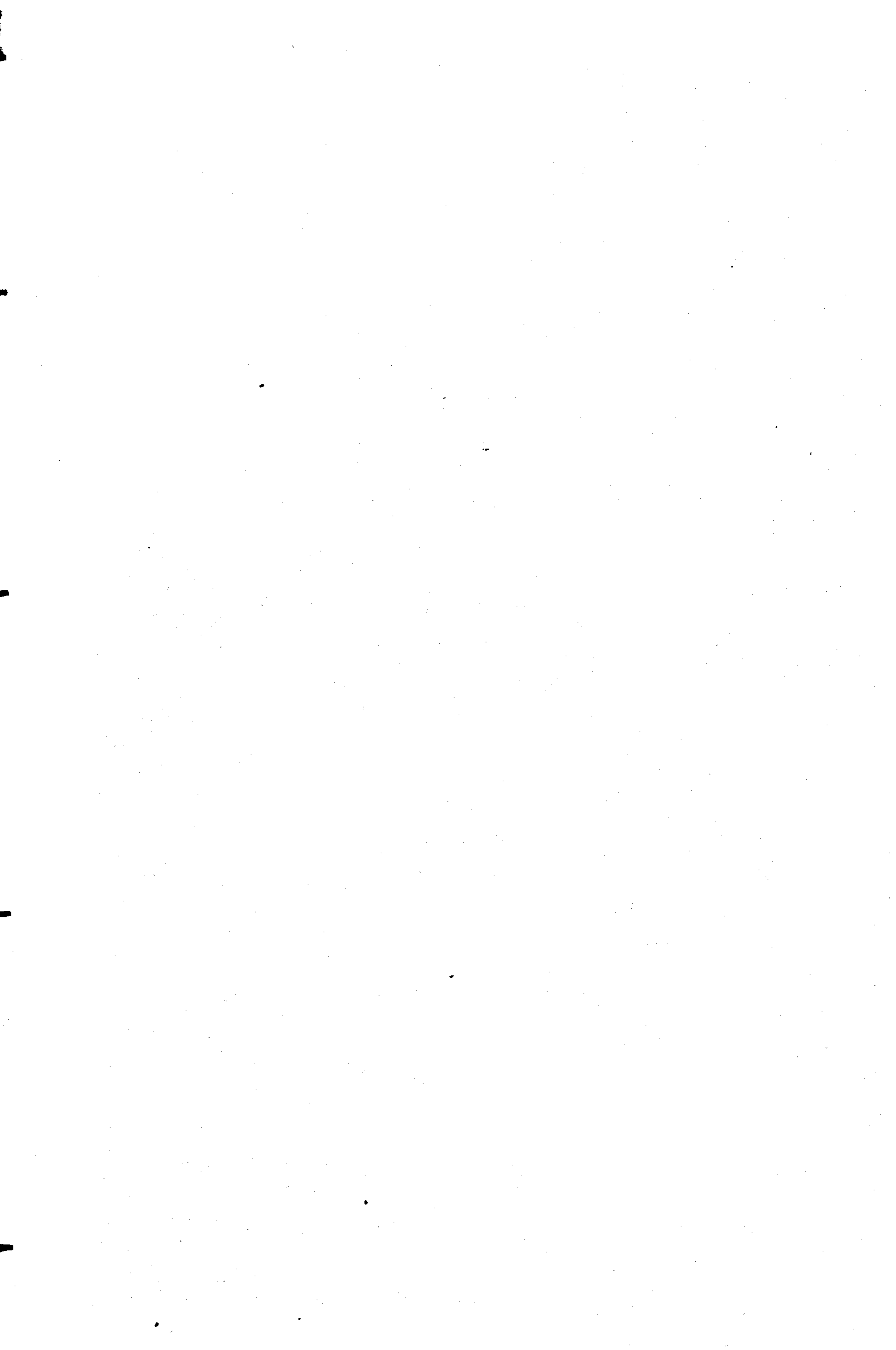
بل هذا هو ابراهيم نفسه ـ عليه السلام ـ يحب ابنه اسماعيل حباً يملك عليه نفسه وجوارحه فيأمره الله تعالى بذبحه فيستجيب لذلك مستسلماً لامر الله ويقدم على ذبح ولده بيده متقرباً في ذلك إلى الله تعالى.

انه أروع مثال عرفه التاريخ في تعارض رابطة العقيدة مع رابطة الدم، بل انه أروع مثال عرفه التاريخ في تغلب رابطة العقيدة على رابطة الدم، بل انه أروع مثال عرفه التاريخ أن يؤمر نبي بذبح ابنه تقرباً لله تعالى وتصحيحاً للقيم والروابط التي ينبغي ان تفيء إلى العقيدة وإلى العقيدة وحدها.

وبعد : هذا هو مفهوم الأمة في لغة العرب وفي القرآن الكريم وعلى هذا المفهوم قامت الأمة المسلمة خلال التاريخ، ولم تعرف الأمة الإسلامية في تاريخها الطويل مفهوماً آخر مغايراً للمفهوم الإسلامي، ولقد عرفنا محاولات المستشرقين في مطلع هذا البحث، والتي تهدف إلي التشكيك في اصالة وعربية هذه الكلمة، بحجة ان لها معان كثيرة لا تجمع بينها صلة اشتقاقية، وقد بينا خطأ ونتائج هذا الاتجاه الاستشراقي بالادلة القاطعة، وانه لم يوقعهم في هذا الخطأ الا حقدهم على هذه الأمة وعلى تراثها وتاريخها.

قيم المجتمع هل هي ثابتة أم قابلة للتغيير ؟

للدكتور احمد عبدالرحمن ابراهيم
أستاذ الثقافة الإسلامية المساعد
بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية



بسم الله الرحمن الرحيم

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمـٰن الرحيم.
أحمد الله وأستهديه، وأستعيذ به من فساد الرأي وإملاء الهوى.

أيها الإخوة الأبرار، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد...

فإنه يحسن بنا، قبل بحث الثبات والتغير في قيم المجتمع المسلم، أن نلم بمعنى القيمة في الإسلام، وأن نقف على ضروبها ودرجاتها، وندرس نماذج منها ؛ بعد هذا يصبح بحث الثبات والتغير أيسر، وأقرب إلى التناول والفهم، وهذا هو المخطط الذي أعتزم السير على هداه، وإن خالف عنوان البحث من حيث الترتيب.

تصنف القيم عادة في ثلاثة أنواع رئيسية :

أ) قيم مادية.
ب) قيم أفعال.
جـ) قيم مبادئ، وهي التي تحدد قيم الأفعال.

وبعبارة أخرى، يمكن القول بأن ما له قيمة بالنسبة لحياة الفرد والجماعة لا يخرج عن : أشياء مادية، أو أفعال، أو مبادئ.

وبوسعنا أن نلاحظ داخل هذه الأنواع الثلاثة خمسة أضرب من القيم :

١) المال، وهو القيمة التي تقدر بها الأشياء المادية من النوع الأول.
٢) والمكانة الاجتماعية، وهي مختلطة من النوع الأول والثاني.
٣) والحياة، وتشمل الجسد والمواهب والقدرات العقلية والروحية، من النوع الأول.
٤) والأفعال البشرية، وهي قوام النوع الثاني.
٥) والدين، بما ينطوي عليه من نظم ومبادىء وعقائد، يضم النوع الثالث بين جنبيه.

هذه القيم هي قوام حياة الفرد والمجتمع، وإذا ما أحسن فهمها وتوجيهها، كفلت إشباع حاجات الإنسان، وارتقت به، وحققت له إنسانيته، ومثله العليا، أو في كلمتين اثنتين : سعادة الدنيا والآخرة، أو سعادة الدارين.

وقيم الأشياء، وكذلك قيم الأفعال محايدة في ذاتها.

إنها لا تعني شيئاً في ذاتها، وهي تكتسب القيمة الإيجابية عندما تستهدف تحقيق الخير للفرد أو الجماعة، أو كليهما، كما أنها تفقد هذه القيمة الإيجابية، وتكتسب قيمة سلبية حين تستهدف إزالة الخيرات والمنافع التي ينعم بها الأفراد والجماعات.

فثمّة شروط أو قيود حسب تعبير الأصوليين هي التي تجعل لطم الغلام مرة ظلماً ومرة تربية، فالشيء المادي ربما يفيد وربما يضر، ربما يتخذ وسيلة إلى النفع أو إلى الضرر، وهذه بدَهية.

والشيء نفسه يقال على الأفعال الإنسانية، فهي من حيث هي محسوسة ليست على حال، يعني لا شر ولا خير.

أما بالنسبة لقيم المبادىء الاجتماعية الإسلامية فالوضع مختلف، فالمبادىء التي تنظم وتهدي الحياة الاجتماعية الإسلامية مبادىء دينية : أي هي جزء من تعاليم القرآن الكريم والسنة المطهرة، وهذه هي وحدها التي توصف في القرآن الكريم بأنها « قيِّمة » ـ أي ذات قيمة.

لقد وردت هذه الصفة في القرآن الكريم عدة مرات محمولة على الدين وحده دون أي شيء آخر، ولهذا ينبغي أن ندرك جيداً أن القيم الحقيقة الجديرة بهذه الصفة الرفيعة، هي المبادىء الدينية، دون الأشياء والأفعال البشرية.

يقول الحق تبارك وتعالى : (ذلك الدين القيِّم، فلا تظلموا فيهن أنفسكم) (التوبة ـ ٩).

ويقول : (إن الحكم إلّا لله، أمر ألا تعبدوا إلّا إياه، ذلك الدين القيِّم) (يوسف ـ ٤٠).

ويقول : (الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب، ولم يجعل له عوجاً. قيّماً لينذر بأساً شديداً من لدنه) (الكهف ـ ١ ـ ٢).

وفسر القرطبي لفظ « القيِّم » بأنه يعني : القائم المستقيم ؛ وفسر الآيتين الأولى والثانية من الكهف فقال : (ولم يجعل لها عوجاً) ـ أي معتدلاً لا اختلاف فيه[1].

وقال عز وجل : (فيها كتب قيِّمة) (البينة ـ ٣). وفسرها القرطبي فقال : « أي مستقيمة مستوية محكمة »، وأضاف : « والكتب هنا بمعنى الأحكام، وقيل : الكتب القيِّمة هي القرآن »[2]، والأحكام هي المبادىء الدينية ؛ والمبادىء الدينية هي المنظمة والهادية للمجتمع الإسلامي وهي ما نسميه هنا قيم المجتمع ؛ هذا هو ما ينبغي أن نفهمه من هذه النصوص القرآنية.

وقيم المجتمع المسلم ـ تبعاً لهذا ـ هي مبادىء مستقيمة مستوية، عادلة منصفة، لا اعوجاج فيها ولا ظلم ولا جور، وهذا يتضمن أن كل مبدأ اجتماعي يعاند قيم المجتمع المسلم أو يناقضها أو يخالفها أو يعطلها هو مبدأ معوج وجائر، ومن ثم يتحتم علينا نحن المسلمين أن نبذل قصارى جهدنا لإزاحة ذلك المبدأ الغريب المعوج، وإفساح المجال لتطبيق القيم

---

(١) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، ١٣٤/٨ ، ٣٤٨/١٠.

(٢) المصدر نفســه ، ١٤٣/٢٠.

مستويات، وإلى أن تبلغ حد الإيثار، الذي يعني البذل والعطاء مع حاجة الباذل إلى ما يبذل والمعطي إلى ما يعطي، ولو وقف الناس عند حدود العدل لما عرفت المجتمعات الإنسانية معنى القيم العليا أو معنى الإيثار والتضحية بكل ما هو مرتخص وغال، فالإنفاق يتجاوز العدل لأنه عطاء لا يحتمه العدل، والعفو تنازل عن حق يعطيه لنا العدل، والوفاء للصديق تجاوز للعدل لأنه عطاء بلا مقابل، والرحمة تجاوز للعدل لأنها تعني البذل بكل ضروبه من أجل مشاركة الآخرين تحمل أعمالهم وتخفيف العذاب وكشفه عنهم.

كل قيم المجتمع العليا تخرج عن نطاق العدل المجرد وتتجاوزه صُعداً إلى آفاق أرفع.

والعدل هو الذي يجب أن يحكم التشريع، لا العكس، وهذه حقيقة أخرى بالغة الأهمية.

ولهذا لم تكن المشروعية، بالمعنى الوضعي البشري، مساوية للعدل، وكثير من القوانين الوضعية ظالم جائر، ولا مسوغ له إلّا مصالح واضعيه، سواء كانوا إقطاعيين أو بورجوازيين أو اشتراكيين.

الشرعية الإسلامية هي التي تساوي العدل، لأن المشرع فيها ليس حاكماً أو هيئة أو طبقة تسعى لفرض مصالحها، وإنما هو الله عز وجل.

ومرة أخرى نجد الفرق شاسعاً بين قيمة العدل في فلسفة أفلاطون وأرسطو، وفي الإسلام. إن أفلاطون يوحد بين العدل والمشروعية، « حتى لو كانت القوانين قدوضعت لتحقيق مآرب طبقة الحكام »[1]. ومعنى هذا أنه يجيز الظلم القانوني، أو القوانين الظالمة، فأفلاطون يحترم القانون حتى لو كان ظالماً، بينما الإسلام لا يعترف بالقانون إلّا إذا كان عادلاً، وأما القوانين الظالمة فالإسلام ينكرها بشدة ويوجب على أبنائه مقاومتها وإحباطها.

وهذا فرق شاسع دون ريب.

ويقول أرسطو بالشيء نفسه تقريباً، فهو يرى أن « العمل العادل هو

---

(١) محاورات أفلاطون، ص ١٣٧ ـ ١٤٢.

الإسلامية والمبادىء الإسلامية، وصولاً إلى رفعة المجتمع المسلم وسعادته.

وهذه هي قضية القضايا اليوم، وهي قضية الشباب الإسلامي بالذات.

ذلك أن قوى الغزو الثقافي، من تنصير واستعمار وصهيونية واستشراق وإلحاد، قد أفلحت في إخضاع مجتمعاتنا الإسلامية لقيم نصرانية وإلحادية، فألفناها، وعطلت القيم الإسلامية، فجهلناها ونبذناها وراءنا ظهرياً، والأمل في الشباب قبل غيرهم – فهم قد جاؤوا إلى الحياة وأصداء اليقظة الإسلامية تتردد من حولهم، فلم يألفوا القيم الغربية، ولم يجهلوا قيم المجتمع المسلم. والسبيل أمام الشباب واضحة، عليهم أن يدرسوا الإسلام ويفهموه ويطبقوه ويدعوا غيرهم إليه، مقتدين بصاحب الدعوة وقائدها عليه الصلاة والسلام.

ونحن لن نفصل القول في تعداد قيم الأشياء المادية، فهي لا تحصى : (وإن تعدو نعمة الله لا تحصوها)، وبصفة عامة كل ما خلق الله في الأرض من أشياء هي لنا، (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً) (البقرة – ٢٩).فقيم الأشياء المادية ليست موضوعنا، وإنما كان ذكرها هنا من أجل اكتمال التصنيف وإدراك أبعاده.

إن ما نركز عليه هنا، ضارعين إلى الله أن يهدينا إلى فهمه وبيانه، هو قيم المبادىء الاجتماعية، خصوصاً تلك التي تمس أخطر قضايانا الاجتماعية المعاصرة ويحتدم حولها الجدل والنقاش، والتي بسببها سقطت نظم وانهارت مجتمعات، وشقيت أمم وتخبطت مذاهب ونظريات وفلسفات ؛ وهذا هو بالتحديد ما يتضمنه عنوان هذا البحث.

فإذا وفقنا إلى فهم قيم المبادىء الاجتماعية، أمكننا حل مشكلة من أعقد المشاكل وأبعدها أثراً في الحياة الاجتماعية، وأعني بها مشكلة تقويم أو وزن، الأفعال، والأقوال، والنظم السياسية، والاجتماعية، والتربوية، بما في ذلك أفعالنا وأقوالنا ونظمنا الإسلامية.

إنك لا تستطيع بحال أن تتخذ موقفاً مؤيداً أو مناهضاً لتقليد اجتماعي معين أو عادة فردية معينة، إلّا إذا ملكت في يدك القيمة الاجتماعية أو المبدأ، أو الميزان الإسلامي الذي يكشف لك حقيقة قيمة هذه العادة أو ذلك التقليد.

ومعنى هذا أن الجهل بالقيمة يشل العمل، ويدفع بالإنسان إلى السلبية، أو إلى الحيرة والتخبط، ويتضاعف الخطر عندما يكون موضوع التقويم مذهباً اجتماعياً أو نظاماً سياسياً أو مذهباً فلسفياً. فلنحاول إذاً أن نعرف بعض القيم الاجتماعية الإسلامية في أصولها القرآنية والحديثة.

وقد انتخبت القيم التالية موضوعاً لهذا البحث :

١) العـــدل.

٢) والانفـاق الخير.

٣) والصـــدق.

وسوف نرى مسوغات هذا الانتخاب خلال البحث.

ومع هذا فإنني أجد من المفيد أن أشير إلى تلك المسوغات هنا في هذا التمهيد.

فالعدل قضية اجتماعية بالغة الحيوية.

وجهاد الشباب يجب أن يتجه إلى رفع الظلم الاجتماعي الذي أرهق الجماهير الإسلامية في بقاع عديدة من عالمنا الإسلامي المعاصر.

لا بد أن ندرك جميعاً، والشباب على وجه الخصوص، معنى العدل في الإسلام وسموه البعيد إذا ما قورن بأي مذهب فلسفي أو اجتماعي، ولا بد أن نقف جميعاً، والشباب خاصة، على الوجوب المطلق الذي يعطيه ديننا للعدالة، وعلى الإدانة المنكرة التي يصم بها كل ألوان الجور والظلم.

وفي هذا كله عصمة لنا من مزالق الدعايات الشيوعية الزائفة التي تصور للناس أنها هي وحدها التي تضمن رفع الظلم الاجتماعي وإرساء العدالة على أساس وطيد.

أما الانفاق الخير بضروبه المختلفة، ابتداء بالزكاة وانتهاء بالإيثار عند القيمة السامقة، فهو الرد الإسلامي على الأنانيـة القاتلـة التـي تفتـرس المجتمعات غير الإسلامية، أوربية وغير أوربية.

فالإسلام لا يقف عند حدود العدل، كما تقف الشيوعية مثلاً، لكنه يرتفع بالمسلم صُعداً إلى آفاق أسمى.

وهذه القيمة الاجتماعية الإسلامية النبيلة هي إحدى الضمانات الكبرى لسعادة المجتمع وتكافله وتكامله وتآزره.

ويجب علينا جميعاً، والشباب على وجه الخصوص، أن ندرب أنفسنا على ممارستها، حتى يجني مجتمعنا ثمارها الثرة الوفيرة، وحتى لا نقف عند مجرد التشدق الأجوف بالحديث عنها.

وأما الصدق فهو صوان المعرفة والحق.

وهذان هما أساس كل حياة اجتماعية راقية متحضرة.

ومجتمع اليوم يواجه سيلاً من الأكاذيب والأباطيل يغطي وجه الكتب والمجلات والصحف والإذاعات والتلفاز، ويحجب الحقيقة وراء دخانه الأسود الكثيف.

كيف يقف الإسلام من هذه الأضاليل ؟

كيف يدين النفاق والبهتان ؟

وكيف يوجب الصدق ؟

وما موقفه من ضرورة تصديق الصدق والجهاد لبلوغ الصدق ودعمه والعمل به ؟

كيف يواجه شبابنا المسلم هذه الأكاذيب ؟

وما قيمة تصديق الصدق وتكذيب الكذب بالنسبة لاستقامة المجتمع الإسلامي وازدهاره وتقدمه ؟

هذه كلها أسئلة حيوية هامة ومطروحة، ولا بد من الإجابة عنها.

أيها الأخوة الأبرار :

هذه إشارة مقتضبة لمسوغات اختياري لهذه القيم الاجتماعية من بين قيم أخرى عديدة يجب بحثها أيضاً، فقد كانت أمامي قائمة لقيم المجتمع المسلم يغطي استقصاؤها كتاباً كاملاً.

فلم أجد مفراً من الاختيار الذي أرجو أن أكون قد وفقت فيه.

* * *

أولاً : العــــدل

أيهــا الأخوة الكرام، لقد اخترت أن أبدأ هذا البحث بقيمة العدل، فلمـــــاذا ؟

إن العدل أخطر قيم المجتمع على الإطلاق، وأبعدها حيوية وأهمية. والإسلام لا يعد المجتمع صالحاً إلّا إذا خضع لقيمة العدل وتبناها، أما مجتمع الظلم فليس بمجتمع صالح، والإسلام يحرص على تغييره وتخليصه من الظلم والظالمين ؛ والسنة الشريفة تتوعد الذين يسكتون علي الظلم والظالمين أشد العذاب.

قال النبي ﷺ : « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله تعالى بعذاب منه »[1].

والمقصود بالمجتمع العادل هو أن تخضع أمور الناس لنظم الإسلام ومعاييره العادلة.

والعدل في الإسلام هو : أن ينال كل امرىء ثمرة عمله، وأن يتحمل كل امرىء تبعة خطئه ؛ والظلم تبعاً لهذا هو : أن يغتصب امرؤ ثمرة عمل غيره، أو أن يحتال لإلقاء تبعة خطئه على الآخرين.

وإن أردنا ترجمة هذا التصور بلغة الشعارات قلنا : خذ ثمرة جهدك، واحمل تبعة خطئك. ولو وفق الشباب إلى فهم هذه القيمة وتطبيقها لاستطاع بذلك أن يدحض الشعارات الشيوعية الزائفة، التي تدغدغ عواطف الجماهير الفقيرة الكادحة، بألفاظها الطلية وليس وراءها في الواقع إلّا سراب خادع.

من أين لنا بهذا التصور لقيمة العدل الاجتماعي في الإسلام ؟.

ليس من تراث الفلسفة والكلام، فليس في هذين كبير عناء، وإنما من الكتاب العزيز، يقول الحق تبارك وتعالى : (ألّا تزر وازرة وزر أخرى، وأن ليس للإنسان إلّا ما سعى) (النجم ٣٨ ، ٣٩)، ويقول أيضاً : (ولا تزر وازرة

---

(١) رواه أبو داود والترمذي والنسائي (انظر : الآداب الشرعية ؛ ١/١٩٢ ـ ١٩٣).

وزر أخرى، وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يُحمل منه شيء، ولو كان ذا قربى) (فاطر ـ ١٨).

هذا هو سندنا فيما أوردناه من تصور لقيمة العدل الإسلامي، نسأل الله الصواب، ونستغفره ونتوب إليه من سوء الفهم والرأي.

بهذه القيمة المحددة الواضحة يواجه الإسلام أخطر قضايا المجتمعات الصناعية العصرية، وهي قضية الظلم الاجتماعي الذي تصطلي بناره الجماهير الإسلامية في بقاع واسعة من عالمنا الإسلامي، ويشغل قلوب الشباب وعقولهم.

وأقول أخطر قضايا المجتمعات المعاصرة لأن صواب قيمة العدل الإسلامية واستقامتها وأحكامها يفضي حتماً إلى إنقاذ قيم اجتماعية أخرى عديدة وأساسية، فالأمن ـ مثلاً ـ مرهون بالعدل، وها هي الاضطرابات الدامية تندلع هنا وهناك، فإذا أمعنت النظر في علتها وجدت الظلم والجور قبل أي شيء آخر، واختلال الأمن يهدد كل القيم، يهدد الحياة والعرض والمال والدين، وفي هذا قال بعض الحكماء: «الأمن أهنأ عيش، والعدل أقوى جيش، لأن الخوف يقبض الناس عن مصالحهم ويحجزهم عن تصرفهم، ويكفهم عن أسباب المواد التي بها قوام أودهم وانتظام جملتهم»[1]، هذا قول صحيح إلى حد بعيد.

وفي القرآن والسنة التوكيد على حيوية وأهمية قيمة العدل بما لا يدع أدنى ريب. في القرآن والسنة أمر بالعدل، ونهى عن الظلم، وتوعد شديد للظالمين، وتحريم مساندتهم، وحض على مقاومتهم، وحث قوي على نصرة المظلوم.

وفوق هذا كله يقرر القرآن الكريم أن إقامة العدل بين الناس هي هدف الرسل والرسالات السماوية، يقول عزّ وجل: (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان، ليقوم الناس بالقسط) (الحديد ـ ٢٥)، إنه ولا ريب ليس الهدف الوحيد، ولكنه أحد الأهداف الكبرى للرسل والرسالات.

---

(١) الماوردي، أدب الدنيا والدين، ص ١٢٢.

أما الأمر بالعدل فجاء في آيات عديدة نذكر منها قوله تعالى[1] :

أ) (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى.......) (النمل ٩٠).

ب) (قل : أمر ربي بالقسط.......) (الأعراف ــ ٢٩).

جـ) (وإذا حكمت فاحكم بينهم بالقسط، إن الله يحب المقسطين) (المائدة ٤٢).

د) (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط.....) (النساء ١٣٥).

ونهى الإسلام عن الظلم والجور بشدة، قال تعالى :

أ) (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي) (النحل ــ ٩٠).

ب) (ومن يظلم منكم نذقه عذاباً كبيراً) (الفرقان ــ ١٩).

جـ) (إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق، أولئك لهم عذاب أليم) (الشورى ــ ٤٢).

وفي الحديث القدسي : (ياعبادي، إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته محرماً بينكم، فلا تظالموا)[2].

وقال الرسول صلوات الله وسلامه عليه : (يكون في آخر أمتي مسخ وقذف وخسف ويبدأ بأهل المظالم)[3]، وأدان عليه السلام أعوان الظالمين حتى أخرجهم من الإسلام، فقال : (من مشى مع ظالم ليعينه ــ وهو يعلم أنه ظالم ــ فقد خرج من الإسلام)[4].

ويقول ابن تيمية : (إن الله عز وجل ينتصف من العباد، ويقضي بينهم بالعدل وأن القضاء بينهم بغير العدل ظلم يتنزه الله عنه، وأنه لا يحمل على أحد ذنب غيره)[5].

---

(١) وأيضاً : (النساء ٣، ١٢٩) + (المائدة ٨) + (الأنعام ٧٠ ، ١٥٢) + (النحل ٧٦)، وغيرها.

(٢) البخاري، الأدب المفرد، باب ٢٢٥.

(٣) البزاز، والطبراني في الأوسط.

(٤) حديث صحيح، رواه الطبراني في الكبير.

(٥) منهاج السنة النبوية، ص ٣٣/١.

هذا التقدير الكامل لقيمة العدل، والإدانة الشديدة للظلم، هما اللذان يفسران لنا عدل الفاروق رضي الله عنه، إلى الحد الذي لا يمكن أن يتخيله المنظرون الاجتماعيون المعاصرون، وهما اللذان يفسران هروب فقهاء المسلمين من مناصب القضاء، حتى بلغ الأمر بالولاة الاضطرار إلى سجن وضرب بعض العلماء لحملهم على قبول منصب القضاء[1]، فالمنصور العباسي حبس الإمام أبا حنيفة، رحمه الله، وضربه بالسياط بسبب إصراره على رفض منصب القضاء[2]، وقصة المنصور مع أبي حنيفة ليست الوحيدة في هذا الباب[3].

وبسبب الحيوية البالغة لقيمة العدل أوجب الإسلام التضحية بأية قيمة أخرى تتعارض مع مقتضياتها في أي موقف من مواقف الحياة الاجتماعية.

يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿وإذا قلتم فاعدلوا، ولو كان ذا قربى﴾ (الأنعام ١٥٢)، ومعنى هذا أن قيمة العدل مقدمة على قيمة الرحم وصلة الرحم، فلو أن العدل اقتضى تضييع أية قيمة على ذي رحم، فإن الإسلام يوجب الالتزام بالعدل وتضييع تلك القيمة.

بل إن العدل مقدم على بر الوالدين.

يقول الحق سبحانه : ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء، ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين﴾ (النساء ١٣٥).

وقال عليه الصلاة والسلام : (أعن أخاك ظالماً أو مظلوماً، إن كان مظلوماً فخذ له بحقه، وإن كان ظالماً فخذ له من نفسه)[4].

وقال ابن حزم : (إذا رأى المسلم أباه الباغي، أو ذا رحمه كذلك، يريد ظلم مسلم أو ذمي، فَفَرْض عليه منعه من ذلك، بكل ما لا يقدر على منعه إلّا به، من قتال أو قتل، فما دون ذلك)[5].

---

(١) الذهبي، كتاب الكبائر ص ١٣٠ + عبد الحليم الجندي، الإمام الشافعي ص ٢٢٤.
(٢) أبو زهرة، أبو حنيفة، ص ٤٦ ـ ٥٠.
(٣) آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ص ٣٦٠.
(٤) رواه البخاري.
(٥) المحلى، ١١/٨٩.

هذه المكانة العظمى لقيمة العدل في المجتمع الإسلامي تمثل ثورة تقدمية اجتماعية وأخلاقية، وقفزة هائلة يسمو بها فوق جميع النظم الاجتماعية المعاصرة، فالعدل هنا قيمة مطلقة صارمة، لا تسمح بأي عبث، ولا أحد يستثنى من قيودها الصارمة، لا صغير ولا كبير، ولا مسلم ولا كافر، ولا رئيس حزب أو عضو لجنة مركزية، ولا سيناتور ولا نائب، ولا عضو مجلس ثورة، ولا غيره ؛ وكذلك ظلاله تمتد لتشمل كل هؤلاء، بلا استثناء، وبلا تفرقة ثقافية أو عرفية.

فهل يملك العالم المعاصر قيمة اجتماعية إنسانية بهذا السمو وهذه الرفعة ؟.

ونمضي إلى اكتشاف جانب آخر من هذه القيمة الاجتماعية العظمى فنجد أنها في الإسلام قيمة شاملة، بمعنى أنها مبدأ ينبغي التقيد به بصرامة من جانب الإمام والوزير، والرئيس والمرؤوس، والأب والابن، والقاضي والشاهد، والبائع والمشتري، وكل من يأخذ ويعطي، يثيب ويعاقب، بصرف النظر عن مقدار ما يأخذ أو يعطي، كل فرد في المجتمع يجب أن يحترم شعار : خذ ثمرة عملك، ودع لغيرك ثمرة عمله، احمل تبعة خطئك، ودع غيرك يحمل تبعة خطئه.

هذا أدنى مستوى مقبول من أي فرد في المجتمع، وهناك مستوى آخر أسمى لا بد من الارتفاع إلى مشارفه على أقل تقدير، وإلّا أدين المسلم بالهبوط الأخلاقي وذلك هو موضوع القيم الأخرى التي سنتكلم فيها هنا.

ولبيان هذه الحقيقة الأخيرة نقارن قيمة العدل بقيمة الإنفاق الخير، (الزكاة، والصدقات، والكرم، والإيثار).

إن الإنفاق بذل للآخرين من ثمرة عملنا، من أقوالنا أو جهودنا أو تفكيرنا، دون أن يقتضي العدل ذلك بطبيعة الحال، ولهذا كانت قيم الإنفاق معبرة عن مبدأ الغيرية، أو مبدأ الإيثار، الذي يحتمه الإسلام لإصلاح أي خلل قد ينتج عن تطبيق العدل المجرد.

إن ثمرة جهد فرد في الجماعة ربما تجاوزت حاجاته، وربما قصرت

ثمرة جهد فرد آخر عن هذه الحاجات. وربما وصل التفاوت إلى درجات تفوق الخيال، فهناك المليونير والبليونير، وهناك البؤساء الجياع المطحونين، والإسلام لا يريد للمجتمع المسلم أن يتخذ مثل هذه الصور الطبقية، مع أنه يعترف بالفروق والتفاضل بين الأفراد. فلا بد إذاً من قيم أخرى تكمل العدل، وتحقق الإيثار والغيرية، وتضمن التعاطف والتكامل والتماسك الاجتماعي، وهذه القيم الأخرى هي التي انتخبنا بعضها لدراسته ضمن هذا البحث، وفي الجزء التالي مباشرة.

لكننا نجد من الضروري أن نقف قليلاً ها هنا، قبل الشروع في دراسة القيم الأخرى، كي نقارن نظرة الإسلام إلى قيم المجتمع، بنظرة الفلسفة اليونانية إليه، فإن لذلك مغزاه ودلالته.

لقد رأى أفلاطون أن العدل ينطوي على معظم القيم الاجتماعية، وتساءل : (أليس مرجع كل ذلك أن كل قوة من قوى نفسه الداخلية « أي الإنسان » تلتزم عملها الخاص باعتبار العلاقات المتبادلة بين الحاكم والمحكوم ؟)[1].

وقال أرسطو إن العدل هو : (الفضيلة كل الفضيلة)[2].

وجرياً وراء أرسطو قرر الغزالي أن العدل : (هو عبارة عن جملة الفضائل)[3].

لكن العدل في الإسلام مجرد قيمة أساسية، تحكم التشريعات الاجتماعية، وتحدد المستوى الأدنى الذي يتحتم على كل مسلم أن لا يتدنى إلى ما دونه، لأن ما دون العدل هو الجور، والجور محرم مطلقاً في مجتمع الإسلام وشرعته.

ومن الجلي أن نظرة الإسلام هي الأسمى، بمعيار العقل المجرد، فقيم المجتمع العليا كلها، وبلا استثناء، تتجاوز حدود العدل إلى ما فوقه من

---

(١) الجمهورية، ترجمة خباز، ك ٤ ـ ص ١٤٢ ـ ١٤٣.

(٢) الأخلاق، ك ٥ ب ١ ف ١٩.

(٣) ميزان العمل، ص ٢٧٢.

الذي يطابق القانون والمساواة، والعمل الظالم هو اللاقانوني وغير المطابق للمساواة »[1]، فالعدل في النهاية هو العمل بالقوانين الوضعية.

وليس هذا هو العدل الإسلامي الذي يراد له أن يحكم أساس التشريعات في المجتمع البشري، إن القوانين الوضعية ظالمة، ولا تحقق إلّا مصالح واضعيها، وقد أدرك الفلاسفة المعاصرون هذه الحقيقة فنادوا بنبذ كل قانون، قالوا : « هل يجب أن نفرض القوانين على الناس فرضاً لا لشيء إلّا لأنها صيغت على هذا النحو، ولأن نفراً من الناس قد أقرَّ صوابها، وهي ليست بالصواب ؟ »[2]. وقالوا أيضاً : « لا ينبغي أن تعلّموا الناشئة احترام القوانين بقدر ما يجب أن تعلموهم احترام الحق »[3].

وهذا رفض للنظرية الفلسفية اليونانية، واتجاه نحو قيمة العدل الإسلامية، ولا أقول اتفاقاً أو تطابقاً، لأن ثمة فروقاً عديدة، والمهم هنا هو ملاحظة ضعف القناعة بالمشرع الإنساني ومنطقه، فهو إنسان، ولا بد أن يعبر عن مصلحته الشخصية أو مصالح طبقته أو حتى وطنه على حساب الحق العادل، فللآخرين الحق في رفض هذه التشريعات وانتهاكها ووضع غيرها مكانها. أما العدل الإسلامي فيستند إلى الوحي وإلى العقيدة الدينية، ومن ثم يتمتع بالثقة الكاملة والقبول الحسن والاحترام العظيم.

ولا يفوتنا هنا أن نبين أن التشريع الإلهي هو وحده الذي يكفل الكرامة للإنسانية، لأن خضوع الإنسان لتشريعات إنسان آخر عبودية، سواء كان فرداً أو هيئة، أما الخضوع لشرع الله فكرامة حقيقية، لأن الجميع في ذلك سواء الإمام والوزير مثل أصغر فرد في الأمة في الخضوع للشرع ووجوب طاعته.

ولقد ذكر أرسطو، وكثير من رجال الفلسفة والاجتماع والقانون والمحدثين، أن العدل هو المساواة، وتابع أرسطو في ذلك عدد من

---

(١) الأخلاق، ك ٥ ب ١ ف ٨.

(٢) د. زكي نجيب محمود، حياة الفكر في العالم الجديد، ص ٨٤.

(٣) نفســـه.

المفكرين المسلمين[1]، فهل العدل مساواة حقاً ؟.

الحق أن العدل مساواة بين المتساوين، كما أنه لا مساواة بين اللامتساوين، فإذا تساوى اثنان في جهد كانت الثمرة متكافئة متساوية، ولقد كان المجاهدون متساوين في أنصبتهم من الغنائم، كما أن الأخوة متساوون في الميراث لتساويهم في الصفة (البنوة).

حقاً إن الإسلام يغفل الفروق العنصرية في تطبيق قيمة العدل على المجتمع، لكنه لا يغفل الفروق الناشئة عن الجهد الفردي الحر. قال تعالى : (فَضَّلَ اللهُ المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة) (النساء ـ ٩٥). ولقد كان نصيب الفارس أكبر من نصيب الراجل، لأن الأول يقدم جهده وجهد فرسه، بينما الآخر يقدم جهده هو فقط.

وهذا هو العدل الحق في ضوء العقل والبداهة والتجربة، وأما المساواة المطلقة فظلم صراح، لأنها تسوي بين العامل والخامل، فتقتل في الأول روح المبادرة والجهاد، وتنمي في الآخر عوامل التراخي والتنطع والكسل، وقد ظهرت هذه الحقيقة بوضوح في النظم الشيوعية والاشتراكية، فتدنى الإنتاج إلى أدنى معدلاته، وماتت روح المبادرة والإبداع، وفترت الهمم وخارت العزائم، وأخذ المنظرون الشيوعيون يكدون عقولهم بحثاً عن حوافز للعمل، بعد أن قتلوا كل حافز فعال بحكم الطبع والجبلة، بنظريتهم المعاندة للحق الإلهي والعدل الإلهي ـ نظرية المساواة ـ وهكذا انتقم الحق لنفسه، وسوف ينتقم حتى يفوز في النهاية، وينهار المجتمع الشيوعي الذي قام على أساس إغفال الفرق في الجهد والتمسك بوهم المساواة العمياء باعتبارها تمثل قيمة العدل الاجتماعي على الحقيقة.

ولعل هذا يكفي للبرهنة على استقامة وإحكام وصحة قيمة العدل في الإسلام، غير أننا لا بد أن نضيف حقيقة أخرى، هي خلو قيمة العدل الإسلامية من جميع ألوان التفرقة الثقافية والعنصرية، فليس العدل الإسلامي لجنس معين، أو أهل دين معين دون غيرهم. العدل في المجتمع المسلم

---

(١) أحمد بن مسكويه : الهوامل والشوامل، ص ٨٤ + الراغب الأصفهاني : الذريعة ص ١٤٥.

واجب على المسلم في تعامله مع الجميع، مسلمين وأهل كتاب ومشركين أيضاً. يقول ابن تيمية : « إن العدل واجب لكل أحد، على كل أحد، والظلم محرم مطلقاً، لا يباح قط بحال »[1]، وجاء في تفسير المنار أن المساواة في العدل : « بين المؤمن والكافر، والبر والفاجر، والغني والفقير، والقريب والغريب »[2].

وهذا ليس مجرد رأي لابن تيمية أو نظرية لرشيد رضا، وإنما هو تعليم قرآني محض.

يقول الله تبارك وتعالى : (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله، شهداء بالقسط، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألّا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى..........) (المائدة ــ ٨). **فالقرآن يأمر بالتزام العدل إزاء كفار مكة** الذين ارتكبوا ضد النبي والمسلمين أفظع الجرائم وأبشعها، ولم يعرفوا معهم غير الظلم الفاحش والجور الفادح.

ويقول عزّ وجل : (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين، ولم يخرجوكم من دياركم، أن تبروهم، وتقسطوا إليهم، إن الله يحب المقسطين) (الممتحنة ــ ٨) هنا، القرآن يوضح أنه لا ينهى المسلم عن بر غير المسلمين ــ والبر درجات فوق العدل المجرد، طالما هم مسالمون غير معتدين، وبيّن أن الله يحب لهم أن يكونوا عادلين مقسطين معهم.

وليست هذه شعارات يتشدق بها المسلمون، دون أن تعرف طريقها إلى المجتمع المسلم.

فقد سجل التاريخ أن النبي ﷺ قد قتل مسلماً بذمي[3]، وأمكن الفاروق رضي الله عنه غلاماً قبطياً من أن يصفع ابن حاكم مصر ــ عمرو بن العاص ــ قصاصاً لنفسه، وقال الفاروق قولته الحاسمة : « منذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » ؟

---

(١) منهاج السنة النبوية، ٣/٣١.

(٢) تفسير المنار، ٩/٥٧٢.

(٣) روح المعاني، جـ ٦/١٤٨.

فعدل المسلمين ليس للمسلمين وحدهم، ولا للعرب دون غيرهم، ولكنه واجب لكل إنسان يستظل بالمجتمع المسلم، بصرف النظر عن جنسه ولونه وعقيدته الدينية.

وهذه هي القمة السامقة التي يتطلع إليها علماء الاجتماع والسياسة والفلسفة كهدف بعيد ورفيع للتقدم البشري، وقبل الإسلام لم يسمع أحد بشيء من هذا، لم يعرف اليهود هذا ولا عرفه فلاسفة اليونان وحكماء الهند ورهبان النصرانية، ولا حتى منظرو الثورة الفرنسية، وبعد الإسلام بثلاثة عشر قرناً من الزمان بدأت المجتمعات غير الإسلامية تسمع عن مثل هذه القيمة الإسلامية، مجرد كلام يتشدقون به، أما إذا ملكوا، كما ملكت فرنسا وبريطانيا وروسيا وأمريكا (في الجزائر والهند الصينية والهند ومصر ودول البلقان والعالم الجديد)، فليس لديهم غير الظلم والاستغلال والنهب لثروات الشعوب الملونة.

مثلاً في الثقافة الهندية تحكم المجتمع قيم عنصرية متخلفة في عنصريتها، فطبقاً لقانون « منو »، المجتمع خمس طبقات أعلاها البراهمة وأدناها الـ « جندال » ـ وينص قانون « منو » على أنه : (إذا مد أحد من المنبوذين إلى برهمي يداً أو عصاً ليبطش به، قطعت يده، وإذا همَّ أحد من المنبوذين أن يجالس برهمياً كويَ ظهره ونفي من البلاد، وإذا مسه بيد أو سبه يقتلع لسانه، وإذا ادعى أنه يعلمه سقي زيتاً فائراً، وكفارة قتل الكلب والقطة والضفدعة والوز والغراب والبومة ورجل من الطبقة المنبوذة سواء)[1]. فهل ثمة أبعد من هذا الظلم الاجتماعي ظلماً وجوراً ؟، مثل آخر جاء في التلمود، (إن اليهود يفضلون الأمميين، كما يفضل الإنسان البهيمة........)[2].

وأوروبا الحديثة والمعاصرة وقعت فريسة العنصرية أيضاً، وبذلك خلقت مبرراً للظلم والجور في معاملة الأجناس الأخرى، ووضعت إسفيناً في قلب المجتمعات المختلطة، كإسرائيل وجنوب أفريقيا والولايات المتحدة،

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص ٥١.

(٢) البروتوكولات، ص ٥٠.

بحيث يصعب جداً بلوغ الاستقرار والوئام الاجتماعيين، لأن التفرقة ظلم فادح، ولا استقرار ولا أمن مع الظلم الاجتماعي « المشروع »، وكان المبشرون بالعنصرية بين شعوب أوروبا عديدين نذكر منهم : جوزيف آرثر J. Arthur، والكونت دي جوبينو Conte de Jobineau، وهاوستن ستيوارت H. Stuart، ورديارد كبلنج Rudyard Kipling، وألفريد روزنبرج Alfred Rosenberg، وأدولف هتلر وغيرهم[1].

هذه النزعة العنصرية الظالمة مرفوضة في الإسلام رفضاً قاطعاً، لأنها متخلفة وخاطئة وظالمة في آن. الإسلام لا يعرف مجتمع التفرقة أو التمييز، لا في العدل ولا في أية قيمة اجتماعية أخرى.

وهذا هو أبلغ رد على ادعاء الذين يعارضون تطبيق الشريعة الإسلامية بحجة التخوف على غير المسلمين، وحقيقة أمرهم أنهم لا يعرفون شيئاً عن قيم الإسلام غير ما لقنه لهم أساتذتهم المغرضون من المستشرقين الغربيين، أو المستغربين الشرقيين.

---

(١) انظر : دائرة المعارف البريطانية، مادة Racism.

ثانياً : الإنفـــاق

أيهـا الأخـــوة،

الإسلام لا يعرف الجور، ولا يقر الظلم، ويدفع بأبنائه إلى قتال الظالمين دون تردد أو وجل.

وفي الوقت نفسه، لا يقف الإسلام بالمجتمع المسلم عند حدود العدل المجرد، وإنما يفرض أن يرتفع إلى آفاق أرفع، تحاشياً لأية إفرازات سلبية ربما تنتج عن التزام العدل وحده. فتصيب المجتمع بخلل صغير أو عظيم.

شعار العدل كما ذكرت هو : خذ ثمرة جهدك، ودع للآخرين ثمار عملهم.

وهذا لا يكفي لصلاح المجتمع المسلم، لأنك إن تأملت هذا المعنى أو هذا الشعار أدركت أنه يخلو من كل إشارة إلى مبادئ الإيثار والتضحية التي لا غناء عنها في بناء المجتمع المسلم المتكافل المتضامن المتآخي المتراحم، شعار العدل لا يطالب بالتفكير في غيرنا، في جيراننا، في مواطنينا، في أمتنا ككل، إنه فقط يمنعنا من العدوان على الآخرين، يمنعنا من ظلمهم، أي اغتصاب ثمار أعمالهم، كما يمنعنا من إلقاء تبعات أخطائنا على كاهلهم.

وليس هذا هو الموقف الاجتماعي المثالي للمرء المسلم.

ربما يصلح هذا الموقف لمواطن في مجتمع براجماتي أو نفعي فردي أناني، ينظر إلى الغيرية أو الإيثار على أنها قاعدة مشئومة[1]، لكنه لا يصلح لامرئ مسلم يؤمن بقوله تعالى : (....... حريص عليكم، بالمؤمنين رؤوف رحيم) (التوبة ١٢٨).

---

(١) د. توفيق الطويل، مذهب المنفعة العامة، ص ٢٢.

روى الإمام أحمد في كتاب الزهد أن النبي ﷺ حدث أصحابه يوماً فقال : « إن الله عز وجل رحيم، لا يضع رحمته إلّا على رحيم، ولا يدخل الجنة إلّا رحيماً. قالوا يا رسول الله، إنا لنرحم أموالنا وأهلينا. قال : ليس ذلك، ولكن ما قال الله عز وجل : (حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم).

فالرسول ﷺ يعلم صحابته رضوان الله عليهم أن الرحمة الإسلامية الحقة ليست اقتصار رحمة المرء المسلم بنفسه وماله وأهله، وإنما هي الرحمة الواسعة التي تمتد إلى سائر الناس، وهذا معناه، بعبارة أخرى، أن الأنانية، أي العمل للمصلحة الذاتية فقط، ليست كافية، وأن العمل الجدير بالقيمة الحقيقية هو ذلك الذي يمتد إلى تحقيق مصالح الآخرين وسعادتهم، فالشعار هنا هو : اعط غيرك، وليس مجرد : خذ ثمرة عملك.. نعم.. هذا هو العدل، ولكن لا بد أن تصعد خطوة إيجابية أخرى بعد أخذ ثمرة عملك، لا بد أن تمنح الآخرين من هذه الثمرة، من جهدك، ومن مالك، ومن فكرك، وهذه هي الغيرية التي تطبع الحياة الاجتماعية في الإسلام، والتي تمثل القاعدة الأساسية والخاصية الفارقة للأخلاق الإسلامية.

وإنما أمراضنا الاجتماعية نتائج حتمية لإغفالنا لهذه القيمة الإسلامية الأساسية، إننا لا نبذل، ولا نعط، وربما هبطنا إلى مستوى العدل ووقفنا عنده، وربما تدنينا إلى ما دون العدل من ألوان الظلم ودرجات الجور، وبذلك نفتح الباب على مصراعيه للشيوعية والإلحاد.

إن لدينا القدرة، ولدينا الأموال، ولكننا نضن بهذا وذاك، لقد تعلمنا الأنانية والفردية الضيقة من ثقافة الغرب، ونسينا قيمنا الإسلامية، الأفراد وقعوا في هذا، والحكومات والهيئات وقعت فيه، ونحن نجني الآن الثمار المرة لتخلينا عن هذه القيم العظيمة النافعة.

لقد عرفنا من السلف الصالح أمثلة رفيعة مضيئة لمعنى الإيثار والتضحية.

خرج الصديق رضوان الله عليه مع رسول الله ﷺ ومعه ماله كله، خمسة آلاف أو ستة آلاف درهم.

وخطب النبي ﷺ فحث على جيش العسرة، فقال عثمان رضي الله عنه : عليَّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها ـ أي بكل ما عليها، ثم عاد وتبرع بمائة أخرى، ثم بثالثة، حتى قال النبي ﷺ : « ما على عثمان ما عمل بعد هذا »[١].

وكان بذل عبد الرحمن بن عوف، وحكيم بن خزام، وابن عمر، رضي الله عنهم أجمعين، أمثلة أخرى رفيعة ومضيئة[٢].

والإنفاق، والإيثار، والبذل، والتضحيات في الإسلام لا قيمة لها إلّا إذا تنزهت عن انتظار العوض أو الأجر أو المقابل.

إن فينا من يعطي ويبذل ويجود، فينا أسخياء كثيرون، لكن الآفة المهلكة التي تبدد قيمة إنفاقهم هي انتظارهم للعوض، على نحو أو آخر، الأفراد ينتظرون الاحترام والطاعة، وربما التبعية والمذلة، والحكومات والهيئات تنتظر أكثر من هذا.

وهذا ليس إنفاقاً إسلامياً، وإنما هو أقرب ما يكون إلى الكرم الجاهلي.

كان الكرم الجاهلي يستهدف الحفاظ على شرف القبيلة وعلو ذكرها، وجاء الإسلام بالإنفاق والإيثار، ووضع له بواعث وغايات ومعايير جديدة، باعدت بينه وبين الكرم الجاهلي أشد التباعد، وهذا أمر طبيعي بعد التغيير الجذري في العقيدة الدينية والنظام الاجتماعي والتشريعي الأخلاقي.

لم نعد في الإسلام مطالبين بالكرم الجاهلي المغرض، ولكننا ملزمين بواجبات متعددة الدرجات والأهداف، فلدينا الزكاة، والصدقة، والكرم، والإيثار، ولم يعد أمر الإنفاق متروكاً لأريحية الفرد، ولكن تحتم أن يمارس البذل بدرجة معينة، هي الزكاة، وأصبح الانفاق على هذا المستوى جزءاً وركناً ركيناً لا تصح عقيدة المسلم بدونه.

---

(١) أخرجه أحمد والبيهقي.

(٢) الكاندهلوي، حياة الصحابة ، ٢/١٥٠ ـ ١٥٦.

وأضحى إكرام الضيف واجباً على المضيف وحقاً للضيف، يأخذه أخذاً إذا تقاعس المضيف عن أدائه.

وانقلبت الغايات والأهداف من وراء الانفاق انقلاباً كاملاً ؛ لم يعد ثمة مجال لاسم القبيلة وعلو ذكرها، لقد عُرف الآن هدف جديد نبيل عظيم، هو مرضاة الله، وأوضح النظام الجديد أن أي إنفاق أو بذل يستهدف الغايات الجاهلية القديمة هو محبط وعديم القيمة. إن للإنفاق الإسلامي بضروبه المتعددة آداباً وأصولاً يجب أن تراعى بدقة وحذر، فأي منٍّ أو أذى يحبطه، وأي تكبر على المستفيدين يحيله إلى فساد كريه، فما بالكم بشروط السيطرة والتبعية ثم المن والتكبر بعد ذلك ؟

إن مجتمعاتنا الإسلامية اليوم تعاني أشد العناء من البخل والضن بالمال والجهد دون انتظار لعوض. لا أحد يدرك أنه يجب أن يعمل دون انتظار لعوض، كل أحد يريد الأجر على كل عمل ـ الأجر لكل البشر في هذه الدنيا، وهذه هي الأنانية القاتلة المدمرة.

النصارى يبذلون المال بسخاء على المبشرين والمستشرقين، والدول النصرانية وحتى الملحدة تبذل الكثير لتهيئة الفرصة للعلماء والمهندسين والأطباء للبحث والدرس والاختراع وتطوير الصناعة والزراعة، وحماية الثقافة القومية وتنميتها، وأما العالِم المسلم والطبيب المسلم والمهندس المسلم فغارق في همومه الشخصية وواجباته الأسرية، لا أحد يفكر في مستقبل الأمة، لا أحد يريد أن يبذل وأن يعطي وأن يسخو من أجل تطوير المجتمع المسلم، من أجل قوته ونصرته، كما فعل عثمان رضي الله عنه، وكما فعل غيره من الصحابة رضوان الله عليهم، وكما كان يفعل السلف الصالح. هناك من ينفق ويبذل، ولكنه يريد المقابل لنفسه أو لحزبه أو لتنظيمه، أما مستقبل الأمة وحياة المجتمع فلا ! وهكذا بقينا عالة على نتائج الفكر الغربي والعلم الغربي ؛ وكل هذا طبعاً له ثمنه الفادح الباهظ : تبعية ذليلة في الصناعة والزراعة والسياسة والثقافة جميعاً.

والقرآن يدين البخل والبخلاء، ويتوعدهم بالويل والثبور، ويسميهم المشركين، ونحن نعرف ذلك، فقراء وأغنياء، قال تعالى : (وويل للمشركين،

الذين لا يؤتون الزكاة) (فصلت ـ ٦، ٧). وقال أيضاً : (والذين يكنزون الذهب والفضة، ولا ينفقونها في سبيل الله، فبشرهم بعذاب أليم) (التوبة ـ ٣٤).

وقال النبي ﷺ : « أول ثلاثة يدخلون النار : أمير مسلط وذو ثروة من مال لا يؤدي حق الله تعالى من ماله، وفقير فخور »[1].

وفي مقابل الضن على الأهداف الاجتماعية الكبرى، تفجعنا أنباء الإسراف الأحمق على ضروب المتع وألوان العبث والمجون، إلى درجات تتجاوز العقل إلى الجنون ! وأضحى المسلمون أضحوكة لأعدائهم من الصهاينة والملحدين والمستعمرين والمستغلين وغيرهم.

يجب أن يعود الانفاق الإسلامي إلى أهدافه الاجتماعية الكبرى، وأن تصان الأموال الإسلامية عن الضياع على النزوات الفردية الأنانية.

ولست بهذا أطلب تناسي المستفيدين الشرعيين من الزكاة والصدقة، ولكنني أتصور غايات اجتماعية بعيدة وبالغة الأهمية لما بعد الصدقة والزكاة. الآية ستون من سورة التوبة حددت مستحقي الصدقات، قال تعالى : (إنما الصدقات للفقراء، والمساكين، والعاملين عليها، والمؤلفة قلوبهم، وفي الرقاب، والغارمين، وفي سبيل الله، وابن السبيل، فريضة من الله، والله عليم حكيم). بعد الزكاة والصدقات هناك درجات عديدة قمتها الإيثار، والإيثار هو إنفاق المرء للمال مع حاجته إليه.

ولقد ذكر القرآن الكريم الإيثار في آية واحدة امتدح فيها الأنصار الذين آثروا إخوانهم المهاجرين، قال عزّ وجل : (والذين تبوّءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) (الحشر ـ ٩).

هذه هي قمة هذه القيمة الإسلامية العظمى ـ الإنفاق ؛ والإسلام لا يفرض على أحد ضرورة الصعود إلى القمة، وإن حث أبناءه على محاولة

---

(١) رواه ابن خزيمة وابن حبان في صحيحهما.

ذلك. ومن المؤكد أن من بين المسلمين من بوسعه ذلك ! إن ما تفرضه هذه القيمة الاجتماعية العظمى درجات فوق درجات، وينبغي أن ندرب أنفسنا على صعود هذه الدرجات وارتقائها، وعلى أغنيائنا أن يسبقوا فقراءنا إلى ذلك، من أجل الفوز بالسعادة الأخروية، والسعادة الدنيوية أيضاً. والتدريب واجب التربية، فعلينا أن نشرع في إصلاح نظامنا التربوي، كي يستطيع غرس الإحترام لهذه القيم الرفيعة، وجعلها معياراً اجتماعياً للحكم على أقدار الأفراد والهيئات والمنظمات، ونبذ معيار القوة المادية والثراء الذي يسود كل تقويمنا الاجتماعي والأخلاقي، والذي أدخله التغريب على حياتنا في غفلة منا.

أيها الأخـــوة ،،،

بهذه القيمة الإسلامية تستقيم أوضاع كثيرة لا يصلحها العدل المجرد. العدل المجرد لا يقضي على الأنانية والأثرة، « ولا محل في الإسلام لأي نوع من أنواع الأثرة، إنه لا محل فيه للأثرة الفردية، أو العائلية التي نراها في بعض الأمم الشرقية، والأقطار الإسلامية »[1]، فلا بد أن نرفع شعار : اعط غيرك، وأن نربي أنفسنا وأبناءنا عليه، وأن يكون كبراؤنا قدوة لجميعنا، وأن نجند كل قوانا التوجيهية من إعلام ودعوة إلى إقناع الناس بفائدته العظمى وجدواه البالغة.

---

(١) الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص ٤١٢.

ثالثاً: الصِّـــدْق

ننتقل بعد هذا أيها الأخوة إلى قيمة أخرى من قيم المجتمع الإسلامي، لو طبقناها، واحترمناها، لقفزنا إلى الأمام خطوات وخطوات، وأعني بذلك قيمة الصدق والحق والعلم.

قيمة الصدق، بل الأحرى أن نقول قيم الصدق والمعرفة والحق، هي القيم الاجتماعية الإسلامية التي لم تفهم حتى اليوم، لا من حيث خطورتها الاجتماعية وحيويتها الحياتية، ولا من حيث امتداداتها، وأنماط السلوك الاجتماعي التي تضبطها. والحق أنها لا تقل بحال عن العدل أو الإنفاق، لأن الحق والمعرفة قوام الحياة.

وهذا ولا ريب ادعاء عريض يحتاج إلى سند من القرآن والسنة، (ومن التراث الفلسفي والاجتماعي والأدبي)، وما كان لي أن أسمح لنفسي بهذا الادعاء إلّا بعد أن تبلور السند الديني عندي وفرض نفسه فرضاً على مسار البحث ونتائجه.

إن المعرفة قوام حياة البشر الدينية والاجتماعية والعقلية والمادية والسياسية. هذا حق لا نرتاب فيه.

والوصول إلى قيمة العدل واجتناء ثمارها مرهون بالمعرفة والحق، وقد عرفنا خطر قيمة العدل بالنسبة للمجتمع، فلسنا بحاجة إلى ترديد شيء مما قلنا.

والصدق هو القيمة التي تضبط وتضمن المعرفة الصحيحة، وحيويته الاجتماعية ترجع إلى حيوية المعرفة وأهميتها في حياة الفرد والجماعة في كل آفاقها العلمية والثقافية والاجتماعية والسياسية والدينية.

وقد برزت أهمية قيمة الصدق وخطورته البالغة في عصرنا هذا، وتضاعفت أضعافاً مضاعفة، بسبب اختراع الوسائل الجديدة للنشر والإذاعة، وقدرتها على إيصال الحق، أو الزيف والبهتان، إلى كل بيت في كوكبنا هذا البائس الحزين.

وآغدقت الدول والهيئات والمنظمات والاحزاب والشركات آموالها على الصحف والمجلات والإذاعات وشركات السينما وفرق المسرح، وفرضت سيطرتها عليها كي تضمن صياغة وجدان الجماهير البائسة وفق أهوائها وأهدافها وسياساتها وأطماعها.

ولقد وجدت قوى الشر في هذه الوسائل الحديثة منفذاً واسعاً بعيد الأثر في عقول الناس وقلوبهم فبذلت جهوداً جبارة للسيطرة عليها وبث الأكاذيب والافتراءات التي تسوغ لها الغلبة على الحق وأهله، والفوز بالغنائم من كل لون، وفي كل مجال ـ ثقافي أو مذهبي أو سياسي أو اقتصادي أو عسكري.

وقوى الحق تجاهد وتحاول أن تصمد، وأن تبلغ المعرفة الصحيحة إلى الناس، فتضيع جهود المجاهدين وسط جلبة الباطل وضجيج البهتان.

والإسلام الذي يقدر قيمة المعرفة الصحيحة، ويتأسس من أوله إلى آخره، يقيم للمجتمع المسلم نظاماً دقيقاً متماسكاً ومتكاملاً من شأنه أن يصون هذه القيمة الكبرى للمجتمع، ويكفل لها الغلبة.

إننا ندرس هنا قيمة الصدق، ولكن الصدق في الإسلام يمتد ليشمل مجموعة من القيم الاجتماعية التي تترابط وتتماسك معاً بأوثق الروابط وأمتنها، فهناك إلى جانب الصدق بمعناه الواسع قيم : تصديق الصدق، والوقوف إلى جانبه، والدفاع عنه وعن القائلين به، ثم تحريه وتبينه، وتكذيب الكذب ومجالدة المروجين له مهما كانت سطوتهم وقوتهم السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية.

وهذه هي الآفاق الواسعة لهذه القيمة الاجتماعية ـ الآفاق التي لم يفلح أحد في إبرازها وتحديد معالمها، فانخسف معنى الصدق إلى مجرد موعظة للأفراد بأن لا يقولوا إلّا الحق، حين يتكلم الواحد منهم إلى الآخر أو حين يُسأل فيجيب، أما الكاتب والصحفي والمؤلف والنائب والشاعر والمخرج والعالم والفيلسوف، فخارج قيم الصدق ومبادئه.

والإسلام لا يدين الكذب وحسب، ولكنه يميز بين ضروب من

البهتان والافتراء والزور والنفاق، كلها عدوان على المعرفة الصحيحة والحق المستقيم، ويدينها جميعاً.

وأنا لا « أضع » هنا مبادىء للإسلام من عندي، حاشا لله، وإنما كل همي أن أفهم قرآن ربي وسنة نبيي، مستعيذاً بالله من سوء الفهم وفساد الرأي وإملاء الهوى.

هذا تمهيد لا بد منه، وحقائق يجب وضعها في الاعتبار قبل الشروع في صميم بحثنا.

أيها الأخوة الكرام،،،

ثمة إجماع بين المسلمين على أن الصدق قيمة أساسية، وهو إجماع على الحق دون أدنى ريب.

فالقرآن الكريم يوجبه بأوامر صريحة.

قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً) (الأحزاب ــ ٧٠).

والقول السديد هو الصدق المعبر عن المعرفة الصحيحة.

وقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) (التوبة ــ ١١٩).

و « كونوا مع الصادقين » تعني أن يلتزموا الصدق، وأن يقفوا مع الصادقين في مواجهة الباطل والزيف. فها هنا واجبان أحدهما لا يقل خطورة وأهمية على الآخر.

ومن المثير للإهتمام والجدير بالإحترام والتمحيص، أن الله عز وجل يصف أنبياءه بالصدق، ثم يتبع ذلك مباشرة بوصفهم بالنبوة.

قال تعالى : (واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً) (مريم ــ ٤١).

وقال تعالى : (واذكر في الكتاب ادريس إنه كان صديقاً نبياً) (السورة نفسها ــ ٥٦).

وامتدح القران الكريم الصادق، كما امتدح مصدقه، ووعدهما جزاء المحسنين، (ومن المهم أن نتيقظ هنا لدور المصدق للصدق، فهو خطير جـــداً).

قال تعالى : (والذي جاء بالصدق وصدق به، أولئك هم المتقون. لهم ما يشاؤون عند ربهم، ذلك جزاء المحسنين) (الزمر ٣٣ ـ ٣٤).

وقد كان رسول الله ﷺ يلتزم الصدق حتى في مزاجه، قال عليه السلام : « إني لأمزح ولا أقول إلّا حقاً ».

وفي الشريعة الإسلامية، إذا قذف مسلم مسلماً، وأثبت صدق قذفه،فلا إثم عليه[١].

ومن جهة أخرى، يحرم الإسلام الكذب ويندد بالكذابين، ويتوعد المفترين، (والظلم هو هدف الكذب الرئيسي).

يقول تبارك وتعالى : (ويلكم ! لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب، وقد خاب من افترى) (طه ـ ٦١). ويقول : (فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون) (آل عمران ـ ٩٤).

والسنة الشريفة تفضح بواعث الكذب وغاياته، وتبرز الفلاح والنجاح من وراء الصدق، وتؤكد اقترانه الدائم بالإيمان بالله. قال ﷺ : « يا علي، لا تكذب، وعليك بالصدق، فإن ضرك في العاجل كان فرحاً في الآجل ». وقال أيضاً : « لا تدخل حلاوة الإيمان قلب امرىء حتى يترك بعض الحديث خوف الكذب، وإن كان صادقاً، ويترك المراء وإن كان محقاً ». وفسر عليه السلام الآية الكريمة : (إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون) على أنها تفيد امتناع اقتران الكذب والإيمان. وفي حديث آخر قال ﷺ : (إن الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل، ولا يعد الرجل ابنه ثم لا ينجز له، إن الصدق يهدي إلى البر » الحديث.

ونشير بسرعة إلى تعريف الصدق، وتمييزه من الحق، ثم ما بينهما من ارتباط، فلذلك أهميته هنا.

---

(١) عبد القادر عوده : التشريع الجنائي الإسلامي، ٢/٤٥٥ ـ ٤٥٦.

الصدق تطابق بين اعتقاد القائل وتعبيره عما يعتقد.

والحق تطابق بين : اعتقاد القائل، وتعبيره عما يعتقد، ثم الواقع أو ما عليه الأمر.

والصدق تطابق بين حدين، والحق تطابق بين ثلاثة حدود، ففي الحق تطابقان، وفي الصدق تطابق واحد، والحق يشمل الصدق ويزيد عليه[1].

أما قيمة الصدق دون الحق فمحدودة جداً ؛ والصادق الذي كلامه لا يطابق الواقع هو المخطئ الذي لا يعرف الحقيقة العينية، ويخبر الناس باعتقاده الخاطئ، ظاناً أنه صائب ! مثل هذا الصدق هو صدق شكلي لا يحقق غاية الصدق المشروعة، وهي إيصال المعرفة الصحيحة إلى الفرد والمجتمع.

إن المعرفة الصحيحة هي القيمة النافعة التي يسعى الصدق إلى إيصالها إلى الفرد والمجتمع، وعلى هذه المعرفة الصحيحة يبني الناس آراءهم وعواطفهم، ويعطون تأييدهم أو يطلقون استنكارهم، بل إن الناس تحارب وتسالم استناداً إلى ما يقدم إليهم من معرفة ؛ ونجاح الفرد والمجتمع في التفكير وفي العمل مرهون بما لديهم من معرفة صحيحة، والصدق بدون الحق، أعني الصادق المخطئ، لا يقدم للناس شيئاً من هذا. وهذا برهان على خطورة هذه القيمة وحيويتها التي لا تقل عن العدل والإنفاق.

أما الكاذب، الذي يعرف الحقيقة، ثم يحجبها، ويقول للناس ما يخالفها، فمجرم، خصوصاً إذا كان من الكتاب أو الوزراء أو النواب، أو غيرهم من الفئات التي تخاطب الأمة أو الإنسانية،وتسجل أقوالهم في الكتب، فيمتد الضرر إلى أجيال متعاقبة لا يعلم عددها إلّا الله.

والإسلام لا يعرف وسطاً في الحفاظ على هذه القيمة الاجتماعية والأخلاقية الحيوية للفرد والمجتمع.

فالجمهور على أن الصدق ليس وسطاً بين رذيلتين، كما زعم أرسطو

---

(١) إرشاد الفحول، ص ٤٤ + الذريعة، ص ١٠٤.

ومشايعوه من الفلاسفة المسلمين[1]، وكل محاولة للانحراف عن تطابق الاعتقاد والتعبير هي كذب، وليس من الضروري أن يجيء التعبير مخالفاً كل المخالفة للاعتقاد ليكون كذباً، **تكفي المخالفة الجزئية. بل إن المخالفة** الجزئية هي أخطر أنواع الكذب، لأنها مزج بين صدق وكذب بقصد ترويج الكذب ! وهذا المزج أقدر على إحداث الخداع ؛ وقد أسماه القرآن الكريم التلبيس وأدانه إدانةً منكرة.

وهذه هي الآفة المهلكة التي تهدد المجتمع المعاصر، فجل ما **يكتب ويذاع هو من قبيل التلبيس، والهدف هو التعمية والتعتيم على** الجماهير ؛ هنا تستعمل القيمة كمطية للاختلاق والتزييف، ومن ثم كان الكذب الصراح أهون ضرراً على المجتمع من التلبيس.

وهذا يضاعف من واجباتنا، وينبهنا إلى ضرورة الحرص والحذر وإعمال أقصى طاقاتنا في النقد والتمحيص والاعتصام بكتابنا وسنة نبينا **الصحيحة، كي نتبين مواقع أقدامنا فلا تزل. وفي هذا الصدد واجب الكتّاب** المسلمين خطير وثقيل ويتطلب منهم تضحيات كبرى، لأن أهل التلبيس أقوياء مادياً ومالياً واجتماعياً، وقد أفلحوا بالفعل في شراء أقلام وصحف ومجلات وأبواق لا عدد لها في عالمنا الإسلامي.

وهذا كله يبين لنا مبدأ آخر أو قيمة إسلامية أخرى، هي : كيف يجب أن يستقبل المسلم الصدق والكذب ؟.

إن الإسلام يحتم على المسلم أن يتحرى الصدق، ليس فقط فيما يقول، ولكن أيضاً فيما يقرأ ويسمع، فلا يقر شيئاً ولا ينقله ولا يذيعه ولا يؤيده ولا يستنكره، قبل الاستيثاق من صدقه أو كذبه، قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة، فتصبحوا على ما فعلتم نادمين) (الحجرات ٦)، فالقرآن الكريم يأمرنا بالتبين، والتبين يعني التحقق والاستيثاق والنقد والتقويم. فإذا اقتنعنا بصدق قول أو دعوى أو قضية وجب علينا ألّا نقف متفرجين، لا بد لنا أن نشمر لنشر الصدق واقناع الناس

---

(١) إرشاد الفحول، ص ٤٤.

به، والدفاع عنه، والموت دونه. هذا هو العمل الإيجابي المطلوب ؛ أما مجرد التصديق أو مجرد القبول أو الموافقة دون عمل ونصرة وتأييد فلا قيمة له. ولولا التزام الصحابة رضوان الله عليهم بقيمة العمل والجهاد لما كان شأن الإسلام ما كان من الذيوع والغلبة والتمكن. والشباب هم أقدر الناس على النهوض بهذا الدور الإيجابي الخطير، وبهم وحدهم يتمكن الحق ويغلب.

والوجه الآخر لهذا الجهاد العظيم يتمثل في التصدي للكذب ودحضه وإحباطه. وهذا أيضاً واجب الشباب قبل غيرهم.

وهذا الواجب لا يقل ثقلاً عن الدفاع عن الصدق، (وهما في الواقع **متلازمان ومتكاملان)، وعلة هذا ليس مجرد عسر كشف الكذب والتلبيس** وحده، وإنما سلطة الكذابين والمستفيدين من الكذب، الذين ربما يكونون في قمة النفوذ الاجتماعي أو المالي أو السياسي.

في مثل هذه الظروف يصبح التصدي للكذب مغامرة خطرة بحق، ولعل هذا هو ما أراده الرسول ﷺ بقوله : « إن من أفضل الأعمال كلمة حق تقال عند سلطان جائز »[1]. هنا لا بد من قمة في الشجاعة والتضحية، ولهذا ندر من يستطيع الوصول إلى مثل ذلك، خصوصاً حين يكون السلطان الجائر بعيداً عن روح الإسلام وأخلاقياته وتشريعاته. ولكن المجتمع المسلم عرف هذه القيمة الرفيعة، وهذه القمة السامقة، وحفظ لنا **التاريخ مواقف كثيرة قيلت فيها كلمة الحق عند سلاطين ظلمة. وإن الأمة** التي تعرف هذه القيمة وتجد من بين أبنائها من يلتزم بها لهي بحق أمة عريقة في الحضارة والأخلاق، كما أن الأمم والمجتمعات التي ينكص رجالها عن التضحيات التي يقتضيها قول الحق في وجه الجور هي مجتمعات بائسة تعيسة منكودة مصيرها إلى الضعف والتدهور والمذلة.

وفضلاً عن هذا كله، ندد القرآن الكريم بالسماعين للكذب. لأن السماع للكذب آفة اجتماعية خطيرة ومهلكة. وقد كانت فاشية بين اليهود الذين عاصروا فجر الدعوة الإسلامية في المدينة المنورة. قال تعالى : (ومن

---

(١) أدب الدنيا والدين، ص ٧٨.

الذين هادوا سماعون للكذب) (المائدة ـ ٤١). وقال أيضاً : (سماعون للكذب أكالون للسحت) (السورة نفسها ـ ٤٢). ومما يؤسف له أن الآفة **نفسها منتشرة اليوم بين المسلمين لجهلهم بدينهم وعصيانهم لقيمه ومبادئه** وتحللهم من أخلاقياته. كان اليهود يستمعون إلى كذب قادتهم، ويكذبون الصادق الأمين صلوات الله وسلامه عليه، وبعضنا اليوم يستمع إلى كل ناعق يأتينا من الشرق أو الغرب، ويرفض قيم ديننا ومبادئه ونظمه ويعمل على طمسها والترويج للقيم المناقضة لها.

وهكذا نجد الإسلام ينظر إلى المعرفة بوصفها مسئولية مشتركة بين الجميع، الجميع ينشدها ويناضل للوقوف عليها، وإيصالها للآخرين الذين يصغون إليها ويقفون معها ويناضلون الباطل الذي ينكرها، وصولاً إلى تحقيق خيرات المجتمع والفرد، تلك الخيرات التي تتعدد وتتباين، ولكنها في النهاية تستند إلى المعرفة الصادقة الصحيحة.

والإسلام يبين لنا القيم السالبة المحرمة المناقضة لقيم الصدق والحق والمعرفة الصحيحة، ثم يفصل القول في ضروبها ودرجات الإثم فيها ومدى الأضرار التي تسفر عن اقترافها وتصيب الفرد كما تصيب الجماعة.

وأهم هذه الضروب أو الشرور : الافتراء، والقذف، والنفاق. وبحث هذه الضروب مفيد وطريف.

أما الإفتراء فهو في جوهره كذب، فهو تعبير مخالف للاعتقاد.

غير أن للافتراء خاصتين تميزانه من الكذب ؛ هاتان الخاصتان هما :

أ) الاختـــلاق.

ب) الطعن في الآخرين الأبرياء.

ففي الكذب ربما ينتقص من المعرفة أو يزاد عليها، وربما تنفى المعرفة الثانية الصحيحة، وتثبت « المعرفة » الزائفة الخاطئة.

لكن في الافتراء لا يكون للخبر عادة أي سند من الحقيقة ! فالمفتري يبتكر الاتهامات ضد الأبرياء، ولا يقف عند مجرد التحوير أو التزيين أو الترقيع أو النفي والإثبات على نقيض ما هو مستقر في اعتقاده.

والمفتري لا يقصد تضليل المستمع أو القارئ وحسب، ولكنه يستهدف إنساناً بريئاً في دينه أو عرضه أو عدالته. مثال ذلك، الافتراء على شيخ الإسلام ابن تيمية بالمناصحة للتتار، أو على الشيخ الإمام محمد عبده بمراقصة امرأة أجنبية، أو على الإمام حسن البنا بالتعاون مع الانجليز، هذه أمثلة وبقية القائمة عندكم !

ويدين الإسلام الافتراء إدانة منكرة.

ويكفي أن نعلم أنه يعتبر الشرك ضرباً من الافتراء، لأنه اختلاق وجود شركاء لله تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً يقول عزّ وجل : (ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً) (النساء ـ ٤٨) (والأعراف ـ ١٥٢)، فالافتراء على الله ورسوله كبيرة من الكبائر[١]، والافتراء على الأبرياء من عباد الله ربما يبلغ مستوى الكبيرة[٢]، وقد لاحظنا ما يفسر لنا هذه الإدانة الشديدة المنكرة في الأمثلة التي أوردناها. فالافتراء على حسن البنا كان هدفه الطعن في الدعوة الإسلامية السلفية، والافتراء على الشيخ محمد عبده كان هدفه القضاء على القيادة الدينية الواعية اليقظة، والافتراء على شيخ الإسلام ابن تيمية كان هدفه الوقيعة بالإمام الذي سلطه الله على البدع والخرافات ووفقه إلى نصرة الدين الحق والسنة الصحيحة.

فالافتراء سلاح مألوف واجهه المؤمنون المجاهدون في مختلف العصور، سلاح شهره أعداء الله، وأعداء الإنسان وأعداء القيم الدينية العادلة المستقيمة، وعلينا تبعاً لهذا أن نتيقظ له ونكشفه ونقاتله قتالاً مستميتاً.

ولا بد أن نذكر هنا بأن إنكار الإسلام للافتراء لا يفتر مطلقاً إذا كانت ضحيته من غير المسلمين. وهذه هي النزعة الإنسانية السمحة التي يكفل الإسلام بها سعادة أهل الذمة وكرامتهم وطمأنينتهم.

ويذكر التاريخ حادثة مشهورة، ذات مغزى عظيم هنا، كان ضحية الافتراء فيها رجلاً من اليهود في المدينة المنورة، يقال له « زيد بن السمير »،

---

(١) ابن تيمية ، كتاب النبوات ، ص ٢٢٩.
(٢) منتخب كنز العمال ، ص ٢٨٤.

وكان الجاني رجلاً مسلماً يقال له « طعمة بن أبيرق ». اقترف طعمة جريمة، ثم أراد إلصاق التهمة باليهودي البريء، فنزل قوله تعالى : ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً) (النساء ـ ١١٢).

فسواء كانت الضحية من المسلمين أو من غيرهم ممن يشاركونهم مجتمعهم فالإدانة واحدة هي هي، أليس الإسلام قد جاء لكل الناس، ولكل زمان ومكان ؟ أليس الإسلام قد حرم الظلم تحريماً مطلقاً، وأليس الافتراء ظلم ؟.

ليس في الإسلام كما جاء في التوراة : **(لا تشهد على قريبك الزور)**[1]، فهذه تفرقة ثقافية مرفوضة.

في الإسلام شهادة الزور محرمة إطلاقاً بصرف النظر عن كل الفروق الثقافية والعرقية. وهذه هي التقدمية الحقيقية، والحضارة السليمة، والثقافة الإنسانية التي ينبغي أن تعتنق وأن تتخذ وأن تُتَبنى في كل المجتمعات الإنسانية، إذا أريد للبشرية أن تفوز بالكرامة والطمأنينة والسلام. وهذا هو ردنا الإيجابي على الجهال الذين يرمون الإسلام بالاتهامات الظالمة البلهاء من رجعية وتخلف وتعصب ودموية.

وأما القذف فهو أيضاً ضرب من الكذب، وربما أسميناه الإفك، فالكلمتان بمعنى واحد. وهو آفة شائعة بيننا اليوم. قال تعالى : (إنْ هذا إلّا إفك افتراه) (الفرقان ـ ٤).

والقذف هو رمي المحصنات بالزنا، إنه اختلاق لواقعة الزنا دون أن تقع وإلصاقها بمسلم حر عفيف[2]. والقاذف عقوبته الأخروية اللعنة، وهذا هو الدليل على أن القذف كبيرة، وأما العقوبة الدنيوية فهي الجلد ثمانون جلدة ـ وهي عقوبة رادعة تماماً. يقول عز وجل : (إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة) (النور ـ ٢٣).

---

(١) سفر الخروج ـ فصل ٢٠.
(٢) الذهبي، كتاب الكبائر، ص ٩٢.

ويقول : ﴿والذين يرمون المحصنات، ثم لم يأتوا بأربعة شهداء، فاجلدوهم ثمانين جلدة، ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً﴾ (السورة نفسها ـ ٤)، ومع ذلك يرمون الإسلام بالتساهل !!

وقد عطلنا نحن المسلمين هذه القيم السامية، فاستهان المسلم بعرض أخيه، وهان القذف وانتشر، ولم يعد يأمن أحدنا على نفسه أو على عرضه، وجنى المجتمع كله ثماراً مرة، خصوصاً حين يصل الأمر إلى الصحف والمجلات التي تجد في القذف والنيل من الأعراض مادة محببة إلى نفوس محرريها، أو تستخدمه كسلاح تشهره في وجه الأحرار والمجاهدين لرفع كلمة الله، والمناهضين للظلم الاجتماعي، والاستبداد السياسي الذي أهلك البلاد والعباد وقضى على الحرث والنسل.

الإسلام يردع كل هؤلاء ردعاً عنيفاً حاسماً، ولا يتساهل معهم بحال، كما يدعى « كولي » أو غيره من المستشرقين.

وفي الوقت نفسه يحرم العفو عنهم، من قبل المجنى عليهم، ومن قبل ولي الأمر على السواء[1]. لماذا ؟. لأن العرض قيمة رفيعة عند المسلم. والنيل منه يقض مضجعه ويقضي على هنائه وسعادته، وربما كان سبباً في تحطيم أسرته وتشريد أفرادها، وإهدار كرامتهم، والإسلام حريص على ضمان هذه القيم وكفالة السعادة للفرد والأسرة والمجتمع.

والضرب الثالث أيها الأخوة، من أخطر وأفتك الآفات الاجتماعية والسياسية التي تنخر في أوصال المجتمع المسلم اليوم، وتعد بحق سبباً أساسياً من أسباب تأخره وشقائه وضعفه، ألا وهو : النفاق.

إن المنافق لا يقول ولا يكتب إلّا ما يرضي المستمع أو القارئ، أعني الرقيب أو الحاكم (لا القارئ العادي) الذي يملك المال ويملك السلطة، فإذا كانت الحقيقة ترضي الحاكم (وهذا ربما يحدث) قالها المنافق وأكدها، لا لأنها الحقيقة الصادقة ولكن لأنها ترضي الحاكم القوي الذي يملك الإثابة والعقاب. أما إذا كانت الحقيقة تغضبه فإن المنافق يحجبها ويزين

---

(١) عبد القادر عوده، السابق ؛ ١/٨١.

الباطل للناس ويكد ذهنه للبرهنة على كذب الحق وصدق الباطل، وإذا غير الحاكم رأيه أو تبدلت رغباته، سارع المنافق إلى نفي ما كان يثبته وإثبات ما كان ينفي ! هذا كله وأبشع منه حدث في بلادنا الإسلامية ولا يزال يحدث على نطاق واسع، وكلنا يذكر أمثلة مخجلة حديثة جداً من النفاق والمنافقين، ولا داعي لتشنيف آذانكم بأسمائهم !

وهكذا يتضح البوْن الشاسع بين قيم الإسلام الاجتماعية، والقيم السالبة السقيمة المهترئة السائدة اليوم بيننا، ويحسبها الأجانب من الإسلام، وهو منها براء.

وعلينا جميعاً، والشباب بوجه خاص، أن نعرف واجباتنا تجاه هذه الانحرافات، وأن يكون هدفنا صوغ مجتمعاتنا طبقاً للقيم الإسلامية، وأن نضع لذلك الخطط، ونشرع في العمل والجهاد. إن النفاق ينشأ نتيجة لحب الدنيا، **والتعلق البالغ بحطامها، مع نسيان الآخرة وثوابها، والخور** الروحي، والأنانية ! والهبوط الخلقي هو غذاء النفاق وبيئته، ولا علاج لهذا إلّا بجهد جهيد نغطي به كل المجالات التربوية والإعلامية والثقافية[1].

أيها الأخوة... هذه هي بعض قيم المجتمع المسلم ؛ ومعرفة هذه القيم يسيرة، **لكن المعرفة وحدها لا تبلغنا الهدف : العمل، والعمل الجاد،** والتضحيات هي التي من شأنها أن تحقق أهدافنا ؛ فلا بد أن نعمل، أن نخطط، وأن نلتزم وأن ننطلق عن وعي ومعرفة ويقظة، وأن نتسلح بالصبر والاحتمال، وأن نثق بموعود الله أن النصر للإسلام وقيمه المستقيمة المحكمة، وللعاملين المؤمنين.

---

(١) نرجئ بحث « المعاريض »، إلى الجزء الأخير من البحث، والخاص بالثبات والتغير في قيم المجتمع، للصلة بينهما.

رابعـاً : قيم المجتمع، هل هي ثابتة أم قابلة للتغيير ؟

والآن لعلنا نستطيع بتوفيق الله أن نجيب على السؤال الذي طرحه عنوان هذا البحث علينا :

هل قيم المجتمع الإسلامي ثابتة أم قابلة للتغير ؟

إن دراستنا لقيم العدل، والإنفاق، والصدق، سوف تعيننا على الإجابة الصحيحة ؛ ولهذا كانت خطتي تقديم دراستها على الإجابة عن هذا السؤال ؛ فبوسعنا الآن أن نكون أكثر تحديداً، فنسأل : هل العدل ثابت أو قابل للتغير ؟ وهل الصدق ثابت أم قابل للتغير ؟.......... الخ.

سأحاول أن أجيب عن هذه الأسئلة الجزئية أولاً، على أمل أن يكون حاصل جمع إجاباتي لها ممثلاً للجواب عن السؤال الكبير الشامل.

بالنسبة لقيمة العدل، هل يتصور أن تتغير ظروف المجتمع المسلم بحيث يحتاج في تقدمه إلى أن نكسر أو نغير مبدأ : خذ ثمرة جهدك، ودع لغيرك ثمرة جهده ؟؟ هل يتصور أن تنشأ حاجة أو حاجات اجتماعية تتطلب أن نغير هذه القيمة ونقول : خذ ثمرة جهد غيرك، أو : لا تدع لغيرك ثمرة جهده ؟

إن تغييراً كهذا معناه الظلم والجور ؛ والظلم والجور مرفوضان رفضاً قاطعاً مطلقاً في الإسلام. وعلى هذا فالجواب واضح وحاسم، وهو أن **قيمة العدل ثابتة وراسخة، وشعار العدل مرفوع على الدوام، ورايته خفاقة إلى يوم الدين.**

غير أن الحدود الفاصلة بين ثمرة جهدي وثمرة جهدك ليست محددة واضحة بارزة في جميع الأحوال. إن الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والأدبية تتباين تبايناً لا نهاية له، وكثير من هذه الأنشطة يؤدَّى بأيد كثيرة متعددة، كالمشاركة في الزراعة والتجارة، والعمالة في الصناعة، والاستثمارات المالية، وحتى المشاركات الفنية والأدبية.

هنا تتداخل النتائج والثمار، ويعسر التمييز بين الأدوار التي أنتجتها، وأهمية كل دور في ذلك، ففي عمل مسرحي ـ مثلاً ـ هل يمكن تحديد ثمرة جهد الكاتب وتمييزها بصورة دقيقة من ثمرة جهد المخرج والممثلين والفنيين ؟ وفي الشركات الصناعية الحديثة، وهي متباينة في أشكالها تبايناً بعيد المدى، هل يمكن أن نحدد ثمرة جهد صاحب الآلة، أي المالك، وثمرة جهد العاملين من مهندسين وعمال ؟

لو أمكننا ذلك لما شهدنا الخلافات العنيفة والثورات الدامية التي اندلعت بسبب زعم كل فريق بأنه مظلوم، وكل طبقة بأنها صاحبة الجهد والأحق بثمارها كلها أو جلها.

فالخلاف هنا ليس على مبدأ العدل نفسه، ولكن على أهمية دور كل شريك. وتبعاً لذلك، على النسبة التي يحق له الحصول عليها من الأرباح. والقضاء على هذه الخلافات يتطلب الوصول إلى وسائل من شأنها أن تكفل تحقيق قيمة العدل لفئات المجتمع وأفراده وطبقاته، وذلك بتحديد النسبة المستحقة لكل شريك أو عامل، ولا ريب أن هذه الوسائل لن تكون إلّا القضاء ؛ فالقاضي المسلم هو وحده الذي يستطيع أن ينهض بهذه التبعة الاجتماعية الخطيرة.

والنسبة العادلة المستحقة للشريك أو العامل نسبة متغيرة متبدلة متباينة في الوقت نفسه، فدور العامل في طور الصناعة اليدوية غير دوره في طور الصناعة الآلية أو عصر الانتاج الكبير، ورأس المال الذي كان مطلوباً لتشغيل عامل واحد في طور الصناعة اليدوية يقل كثيراً عن رأس المال المطلوب لتشغيل عامل واحد اليوم. وكذلك دور العامل العادي، أقصد غير المدرب، يختلف عن دور العامل الماهر المدرب، ومن ثم كان من الضروري أن تتغير النسب المستحقة لصاحب المال، وللعمال، من عصر إلى عصر، ومن مهنة إلى أخرى، وصولاً إلى تثبيت قيمة العدل التي تقتضي أن ينال كل امرئ ثمرة جهده.

فالثبات إذاً ليس ضد التغير، والتغير ليس ضد الثبات ؛ ولكن التغير هو من أجل الثبات وفي داخل إطاره. الثبات بحاجة إلى التغير، وبدون التغير

ينتهك الثبات انتهاكاً ؛ العدل بحاجة إلى تغير نسب الاستحقاق التي ينالها الشركاء والعمال وإلّا فإن ظروف العمل والمشاركة ـ مع الإبقاء على نسب معينة ـ لا بد أن ينتهي إلى الظلم الصارخ.

بهذا الفهم لثبات القيم الاجتماعية وتغيرها نقضي على وهم كبير وضلال بعيد سيطرا دهوراً على فكرنا الاجتماعي، مما حمل الكثيرين على نبذ فكرة التغير ومعاداتها باعتبارها خروجاً على القيم الدينية الثابتة.

إن العدل ميزان يجب أن يبقى معتدلاً، فإذا مال يمنة أو يسرة كان **علينا أن نعمد إلى الطرح من هذه الكفة والإضافة إلى الكفة الأخرى حتى** نعيد إلى ميزاننا اعتداله المنشود الذي نحرص على ثباته واستمراره ودقته.

وهنا سؤال يطرح نفسه عنوة، ولعله سبقَ إلى أذهانكم، باعتباره نتيجة منطقية لهذه النظرة التي نظرتها إلى التغير داخل الثبات، ومن أجل الثبات، هذا السؤال هو : على أي أساس يكون القاضي المسلم ؟ كيف يتيسر له أن يحدد النسبة المستحقة للشركاء والعمال بما يكفل العدل.

وربما مضى المتسائل فقال : إن كل طرف يريد الفوز بنصيب الأسد، ويزعم أن إرادته هي العدل، وأن ما سوى ذلك ظلم صراح ؛ وإذا نحن راجعنا النصوص للاعتصام بها لم نجد سوى قيمة العدل التي قدمناها، وهي لا تحسم الخلاف وحدها، وإن عاونت على حسمه إلى حد كبير ؛ وإذا رجعنا إلى تراثنا الفقهي وجدنا أن الربح في أنواع الشركة يوزع على حسب اتفاق الشريكين أو الشركاء. ولا جدال أن صاحب الحاجة سوف يقبل شروط الطرف الآخر وإن كانت ظالمة. ففي شركة المضاربة ربما فرض صاحب المال شروطه، وربما العكس. وفي شركة العنان أيضاً ربما تحكم طرف في الآخر، على الرغم من أن الطرفين مشتركين بالمال والجهد، بدعوى الامتياز في الخبرة، أو بأي دعوى أخرى. والشيء نفسه ربما يقع في شركة الوجوه، وشركة الأبدان، بل هو يقع حقيقة وفعلاً.

هذا اعتراض لا بد من مناقشته هنا وإلّا كانت قيمة العدل الإسلامي وهماً رفيعاً لا سبيل إلى بلوغه.

إن القاضي المسلم يستطيع دون ريب أن يحسم مثل هذه الخلافات مستهدياً تصور العدل الذي بيناه، ومستنداً إلى مبدأ المصلحة الاجتماعية، أو ما يسمى في علم الأصول بالمصالح المرسلة.

إن المصلحة أيها الأخوة هي الأصل الذي يُستَند إليه في حسم الأطماع والخلافات بين الشركات، يقول ابنْ القيم، في هذا المبدأ أو الأصل الحيوي الهام : « الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها »[1].

وقال الشاطبي أن الإسلام : « لا يأمر بمضرة، ولا ينهى عن مصلحة »[2].

وقال الشيخ أبو زهرة إن : « المنفعة أو المصلحة تصلح مقياساً ضابطاً لكل ما هو مأمور به في الدين أو منهي عنه »[3].

وذهب الطوفي الحنبلي إلى القول بأن المصلحة أصل من أصول التشريع، إلى جانب النص والإجماع، بل ويقدم عليهما في حالة التعارض « بطريق التخصيص والبيان لهما، لا بطريق الافتئات عليهما والتعطيل لهما، كما تُقدم السنة على القرآن بطريق البيان »[4].

فإذا كانت أجور العمال ـ مثلاً ـ منخفضة إلى درجة من شأنها خلق طبقة تموت من الجوع وأخرى تهلكها التخمة، وجب رفع هذه الأجور. فمثل هذا الوضع الفاسد لا ينتج إلّا في غياب العدل الإسلامي، أو على أنقاضه، فهو ظلم يجب دفعه، ومفسدة يجب القضاء عليها. وأما إذا ارتفعت الأجور وبولغ فيها إلى درجة الإضرار بالزراعة والصناعة (وهو ما لم يقع كظاهرة عامة في المجتمع الإسلامي) فإن هذه الأجور يجب أن تقف عند

---

(١) اعلام الموقعين، ١٤/٣ ـ ١٥.

(٢) الموافقات، ١٤٨/١.

(٣) أبو زهرة، مالك، ص ٣٦٩ ـ ٣٧٠.

(٤) رسالة الطوفي (ضمن كتاب : مصادر التشريع الإسلامي، لعبد الوهاب خلاف) ص ١٠٩.

حد، أو تخفض بما يضمن مصلحة المجتمع الحقيقية العامة، بما في ذلك مصالح العمال أنفسهم.

بهذا الأصل التشريعي الحيوي، وهو المصلحة الاجتماعية العامة الحقيقية، وفي هدي قيمة العدل والنصوص الدينية التي تشرحها، بوسع القاضي المسلم أن يحسم الخلاف بين الشركاء والعمال وأصحاب الأعمال، وأن يعطي لكل امرئ ثمرة جهده، ويمنع غيره من اغتصابها عنوة ؛ القاضي المسلم هو الذي يُرجَع إليه في تحديد الجهد وتحديد النسبة المستحقة لكل طرف ـ هذه النسبة المتغيرة المتباينة بتغير الظروف والأوضاع الاقتصادية والصناعية.

وهكذا نرى بوضوح أن التغير ليس ضد الثبات، ولا خروجاً عليه، ولكنه من أجل الحفاظ عليه وصيانته، هذه هي الحقيقة الجديدة التي غابت طويلاً عن فكرنا الاجتماعي فوهمنا أن التغيُّر ضد الثبات، وضد القيم الدينية الثابتة الخالدة.

وأما بالنسبة لقيمة الإنفاق: وتشمل الزكاة والصدقات والكرم والإيثار، فإن وجود الثبات إلى جانب التغير فيها أشد وضوحاً.

فالزكاة، كما نعلم جميعاً، ركن من أركان الإسلام الخمسة، لا يصح إسلام مسلم بدونه، فليس يتخيل من مسلم أن يقول إن التغير في قيم الإنفاق قد يصل إلى درجة تعطيل الزكاة.

ذلك كفر صراح لا يقول به مسلم بحال، وهذا هو الحد الثابت في هذه القيمة الكبرى، وسوف يبقى للزكاة مكانها، وسوف تظل الحاجة إليها قائمة، مهما تغيرت ظروف المجتمع وتبدلت وتطورت، ومهما بلغت درجة ثراء الأفراد ؛ فإن علماء الاجتماع قد قرروا أن الفقر والفقراء مسألة نسبية ؛ فالنمو الاقتصادي لا يتوقف، وفقير اليوم ربما كان أحسن حالاً من غني الأمس، كما أن فقير الغد ربما كان أحسن حالاً من غني اليوم. ومع هذا سوف يظل في كل مجتمع غني وفقير، وسوف تظل الحاجة إلى البذل والعطاء قائمة.

وكما تعلمون، مصارف الزكاة في الإسلام عديدة، فهي (للفقراء، والمساكين، والعاملين عليها، والمؤلفة قلوبهم، وفي الرقاب، والغارمين، وفي سبيل الله). فإذا اختفت من المجتمع فئة من هؤلاء فلن تختفي الفئات الأخرى بحال، ولهذا فإن قيمة الإنفاق ـ والزكاة ضرب من الإنفاق ـ قيمة ثابتة في وجودها، وثابتة في جذورها الاجتماعية، وثابتة في مكانتها الوطيدة بين القيم الإجتماعية الإسلامية.

وفي مقابل هذا الثبات على الزكاة، نجد التغير والتبدل في الحد الأعلى الذي ينبغي أن يقف عنده الإنفاق فبتغير ظروف المجتمع المسلم وحاجاته الفردية والجماعية يعلو الحد الأعلى للإنفاق ويهبط، وقد كنت منذ قليل أطالب بمزيد من البذل من أجل النهوض بأمتنا الإسلامية من كبوتها التاريخية، أطالب بالارتفاع والتغيير في الحد الأعلى للإنفاق، ذلك أننا اليوم أمام جيوش عسرة، لا جيش عسرة، ولا بد من أن نطالب أغنياءنا بمضاعفة العطاء، وأن نحث فقراءنا على البذل مع الحاجة، أي على الإيثار الذي هو القمة الرفيعة في الإنفاق ؛ وفي غير هذه الظروف، حيث لا جيوش عسرة، ولا حاجات ملحة، لا نشتد في الطلب، وندع للجميع الوقوف عند حدود الله لا يتجاوزونها، وهي حدود الزكاة.

ومرة أخرى نجد أن مصلحة الأمة الإسلامية هي القيمة العليا الثابتة التي تضبط التغير والثبات في قيم المجتمع المسلم. فها هنا، كما شاهدنا في قيمة العدل، التغير في الحد الأعلى للإنفاق صعوداً وهبوطاً، هدفه الحفاظ على بقاء مصالح الأمة مصونة ؛ فالتغير هو من أجل الثبات وفي إطاره، لا كسراً للقيمة العليا ولا انفلاتاً من قيودها بحسب الأهواء والأغراض الفردية.

وبعد أيها الأخوة، أظنكم تنتظرون مني كلمة في الثبات والتغير في الصدق، كي نفرغ جميعاً من هذا البحث.

أجل، هنا أيضاً ثبات وتغير ؛ هذا من جهة، وذاك من جهة أخرى.

فلقد رأينا عند الكلام عن الصدق أن القرآن الكريم يحرم الكذب ويدينه بضروبه كلها من افتراء وزور ونفاق.

كلنا يعلم أن ليس في القرآن آية واحدة تجيز الكذب، ومعنى هذا أن الصدق، بحكم كتاب الله، قيمة ثابتة لا تتغير بتغير الزمان والمكان، ولا تتباين بتباين المجتمعات والأمم.

والوضع في السنة الشريفة لا يكاد يختلف عن حكم كتاب الله عـز وجـل.

فهناك حديث ينسب إلى الصادق الأمين عليه الصلاة والسلام يقول : « لا يصلح الكذب إلا في ثلاثة مواضع : الحرب فإنها خدعة، والرجل يصلح بين اثنين، والرجل يرضي امرأته ». وثمة حديث آخر أيضاً جاء فيه : « الكذب مكتوب إلّا ما نفع به مسلم أو دُفع به عنه ».

الحديث الأول رواه الطبراني، وفيه محمد بن جامع العطار، وهو ضعيف.

والحديث الآخر رواه البزاز، وفيه ضعفاء.

وعلى هذا يمكننا القول بأن السنة الصحيحة ليس فيها أي نص يجيز الكذب، وأن الصدق، من ثمة، قيمة ثابتة مطلقة لا تقبل أي تغيير، وأن البهتان والافتراء، والقذف والزور والنفاق كلها رذائل منكرة في مجتمع الإسلام.

ومع هذا كله فإن الناس يتساءلون ـ ولهم الحق في ذلك ـ : ماذا يجب أن نفعل إذا أيقنا أن الصدق سيؤدي إلى ضرر عظيم بالجماعة أو الأفراد ولن يحقق أية فائدة للآخرين ؟ ماذا يجب على المسلم أن يفعل إذا واجه موقفاً معقداً ـ هو نادر الحدوث حقاً ولكنه يقع فعلاً ـ أيقن فيه أن الصدق سيفضي إلى إلحاق الضرر بالآخرين، ووجد أن ضميرة الديني وحسه الخلقي يدفعانه إلى حجب الحقيقة أو التورية أو اللجوء إلى المعاريض ؟ هل يصدق أم يكذب ؟ وأي السبيلين يحقق مرضاة الله ؟

هذا التساؤل تجيب عليه السنة العملية لرسول الله ﷺ، لا السنة القولية.

فمن الثابت أنه ﷺ حجب الحقيقة عن المسلمين في أثناء غزوة

الأحزاب، حين بعث سعد بن معاد رضي الله عنه إلى كعب بن أسد زعيم يهود قريظة يسأله ويستوثق منه إن كان حقاً قد نكث العهد وانضم إلى الجيوش الغازية التي حاصرت المدينة، حين عاد سعد بنبأ نكث العهد لم يخبر الناس بالحقيقة انصياعاً لتوجيهات رسول الله ﷺ، وورّى قائلاً : **عَضَلٌ والقارَة، وكانت تلك العبارة تعبيراً عن نكث قريظة للعهد باعتبار أن** عضل والقارَة رمز للخديعة والغدر، إذ هم القوم الذين قتلوا ستة من أصحاب رسول الله عند البئر المعروفة باسم « الرجيع » على الطريق بين المدينة ومكة، بعد أن غدروا بهم ونكثوا عهد النبي عليه الصلاة والسلام.

ومن الجلي أن النبي ﷺ لم يحجب الحقيقة عن المسلمين إلّا بسبب الأضرار الكبرى التي كانت مؤكدة الوقوع لو علموا بنكث قريظة لعهدها مع النبي وانضمامها إلى جيش الكفر المتربص بهم. كانت روحهم المعنوية معرضة للانهيار لو علموا أن ظهورهم قد انكشفت لقريظة، وأن العدو الشرس القوي، الذي كبح الخندق جماح خيله، بوسعه الآن أن ينطلق إلى قلب المدينة من خلال قريظة وبمعاونتهم أيضاً.

ودفْع المفسدة عن المجتمع المسلم يأتي قبل الصدق ؛ وإذا تعارض الصدق مع المصالح الكبرى للأمة فإن من الواجب حجب الحقيقة أو اللجوء إلى التورية أو المعاريض، كما فعل قائد الأمة ونبيها عليه الصلاة والسلام ؛ فإذا زالت الأسباب الموجبة لحجب الحقيقة وجب كشفها فوراً ودون إبطاء، وإلّا فإننا نكون خارج قيم الإسلام الاجتماعية. وهكذا يبدو واضحاً أن مصلحة الأمة ـ مرة ثالثة ـ هي الضابط الأعلى الذي يمسك بزمام الموقف الأخلاقي كله، ويحدد بوضوح نطاق التغير والثبات داخل القيم الجزئية. وهكذا يتضح أيضاً أن جواز حجب الحقيقة عن المسلمين هو جواز مؤقت، يبطل فوراً بذهاب أسبابه، وتعود الفعالية بسرعة إلى قيمة الصدق ومقتضياتها. فالسنة ـ إذاً ـ تجيز تعطيل قيمة الصدق تعطيلاً لحظياً، وعلى مضض، وصولاً إلى صيانة قيمة اجتماعية أعلى وأشمل، وهي المصلحة الاجتماعية العليا للأمة.

ولا بد أن نلاحظ هنا أن هذه الإجازة قاصرة على ضرب واحد، هو

« حجب » الحقيقة أو التورية أو المعاريض، ولا تمتد مطلقاً لجواز الزور والبهتان والافتراء والنفاق. هذه ملاحظة هامة جداً كي لا تتخذ السنة الشريفة، خطأً ذريعة إلى فتح باب الأكاذيب والأباطيل المضللة الخادعة. فإذا أضفنا هذا إلى ما بيناه من أن حجب الحقيقة هو حجب وقتي سريع الزوال، أدركنا مدى التضييق الذي يُحكِمه الإسلام على هذه الرذائل الفاسدة المفسدة، وهو التضييق الذي يؤكده خلو القرآن الكريم والسنة الصحيحة من أي نص يجيز الكذب.

وقد ذهب الأصوليون إلى إقرار هذا التخريج، أو ما يقرب منه.

قال ابن القيم : « كل ما حُرم بيانه فالتعريض فيه جائز، بل واجب، إذا أمكن ووجب الخطاب »[1]، وقال أيضاً : « ولا ريب أن من كان علمه بالشيء يحمله على ما يكرهه الله ورسوله كان تجهيله به، أو كتمانه عنه، أصلح له وللمتكلم »[2]، فهو يجيز التعريض لتفادي بيان شيء محرم، بل يوجب ذلك إذا كان في وسع المسلم، وكان محتماً عليه أن يتكلم بتأثير سلطان أو موقف قسري أو إلجائي. وأمثلة ذلك : الأسير الذي يُسأل عن جيش بلاده، والطبيب يَسأله مريضه عن خطورة علته، وصاحب الدار يسأله معتد ظالم عن بريء مختبئ بداره، هل يجب عليهم الصدق أم الكذب ؟

ونحن لا يجب أن نضيق نطاق القيم الإسلامية، أو نقصرها على الأفراد غير المؤثرين على الأمة ككل. إن القيم الإسلامية، وقيمة الصدق من أهمها، يجب أن ترسم منهج حياتنا الاجتماعية، وقيمة الصدق كما بيناها هنا، منهج كامل للتربية والإعلام والفن، وكل وسيلة خطاب وتأثير في الأمة. إن كل مسئول في هذه الدوائر يجب أن يعلم أن الإسلام لا يجيز الكذب أو الزور أو الافتراء أو النفاق، ويجب أن يتعلم أن دينه ينكر كل هذه الرذائل المنكرة ويدينها أشد الإدانة، كما يجب أن يتعلم أن بعض الحقائق يجب أن يُحجب عن الناس لحظات، ربما تقصر أو تطول، لكن لا بد أن تأخذ الحقيقة طريقها إلى العقول والقلوب في نهاية الأمر. ومما يؤسف له أننا بعيدين جداً عن هذا النهج الإسلامي العظيم ؛ فالكذب والافتراء والنفاق هي

---

(١) اعلام الموقعين، ٣/٢٤٧.

(٢) نفسه، ٣/٢٤٨.

القيم السائدة. والحقائق الضارة والمدمرة، كأنباء الجرائم وأخبار السفهاء والتافهين من الفنانين والراقصين، تزيّن وتقدم إلى الناس دون إدراك للأضرار المهلكة التي تلحقها بأخلاق المجتمع ووجدانه. وأما إذا حجبت الحقيقة فإنما يكون ذلك للحفاظ على ماء وجه حاكم فاسد أو قائد منحرف أو وزير خائن أو غني فاسق.

. نستطيع أيها الأخوة أن نخلص بعد هذا إلى أن قيمة الصدق قيمة ثابتة في الإسلام، وأن مجال التغير فيها محدود جداً، ومحكوم بالمصالح العليا للأمة، تماماً كما رأينا في العدل والانفاق.

وهنا أيها الأخوة، ربما يثور في وجوهنا ذلك الاتهام المشهور بأن القيم الإسلامية لا بد أن تكون نسبية، ما دامت قامت للتغير من وقت إلى آخر، ومن مكان إلى آخر، تماماً كما كان مذهب السوفسطائية قديماً ومذهب نيتشه حديثاً.

والحق أن هذا الاتهام زائف ولا أساس له من الصحة.

ذلك لأن التغير الجائز في تطبيق قيم العدل والانفاق والصدق هو من أجل ثبات قيمة أعلى وأبعد نفوذاً في عالم القيم الاجتماعية، وأعني بذلك المصالح الاجتماعية العليا الحقيقية للأمة الإسلامية ـ فتغير أنصبة الشركاء في الربح، وتغير الحد الأعلى للإنفاق، وإجازة حجب الحقيقة، ليست نسبية سوفسطائية تحكّم الهوى في القيم، وليست انفلاتاً للشهوات من ضوابط الأخلاق والتشريع، ولكنها صيانة للقيمة الاجتماعية ذاتها، وحفاظ على القيمة النهائية العليا ـ فالتغير في العدل من أجل ثبات العدل، والتغير في الانفاق هدفه سد الحاجات والخلات، وسد الخلات هو نفسه هدف الإنفاق أصلاً، والتغير في الصدق هدفه تحقيق هدف الصدق الأصيل، وهو المصلحة الحقيقية العليا للمجتمع المسلم.

فالتغير في تطبيق القيم هو من أجل الثبات، وداخل إطاره، لا خروجاً عليه، ولا معارضة لأهدافه العليا، وليس معنى تغير الأنصبة في العدل أن الإسلام يغير قيمة العدل بالإجازة والإيجاب والتحريم، باختلاف المكان والزمان، كما أن تغير الحدود العليا للانفاق لا يعني مطلقاً أن الإنفاق فضيلة

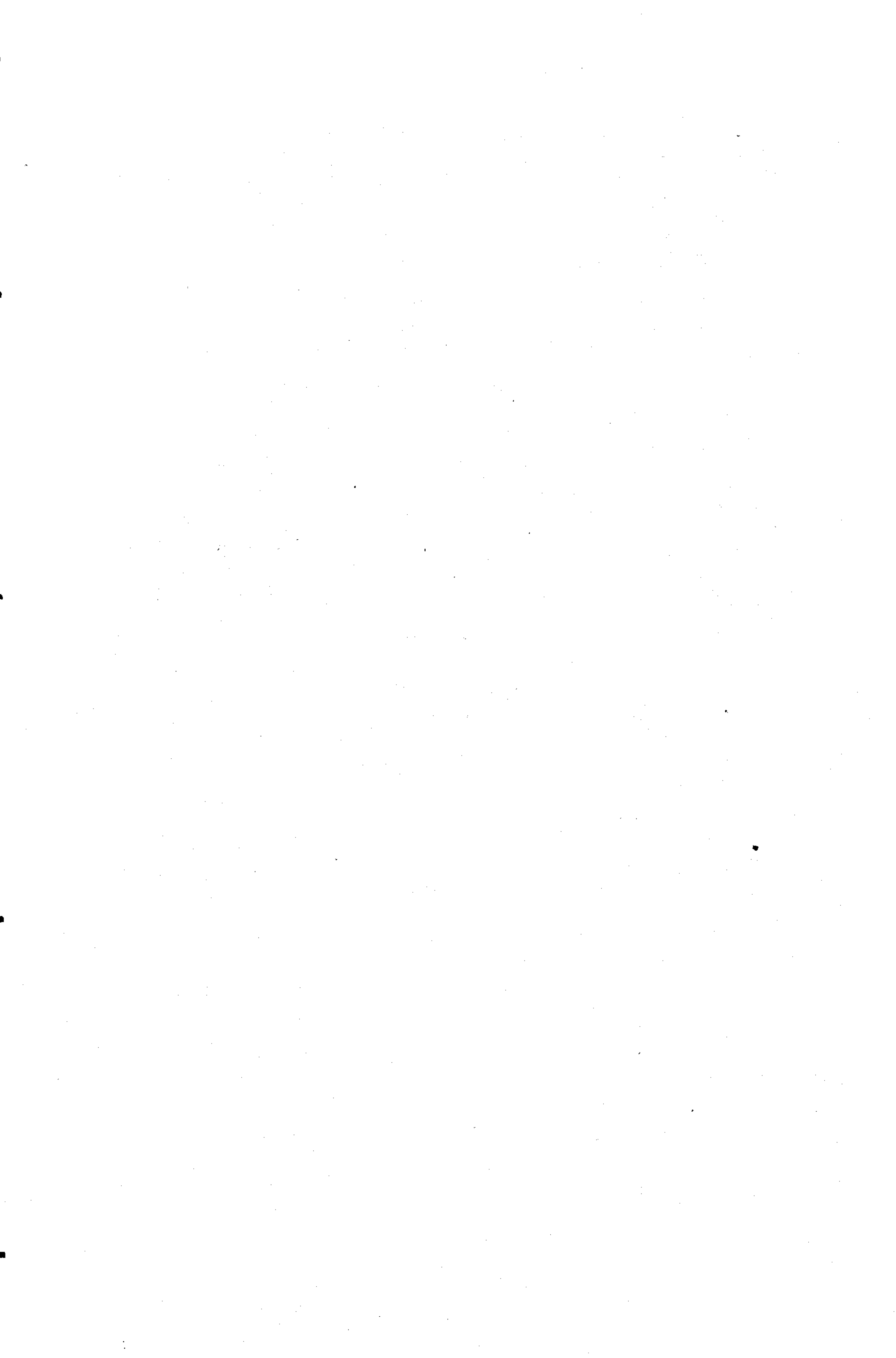
في زمان ورذيلة في زمان آخر، كما أن إجازة حجب الحقائق لا تعني أبداً أن الكذب يمكن أن ينقلب فضيلة.

إن القيم الإسلامية ثابتة في أصولها وأهدافها، ونظام القيم في الإسلام محكوم بقيم عليا نهائية، وهو نظام متسق ومذهبي. لكن جهود الإنسان محدودة، ولهذا ـ يعجز أحياناً عن النهوض بمقتضيات القيم كلها معاً، كما **هو الحال في جواز حجب الحقيقة نظراً لتعقد الموقف العيني ؛ هنا لا** مناص من تكريس الجهد للقيمة العليا النهائية، والتضحية مؤقتاً بالقيمة الأدنى ـ وهذا لا يمكن أن يعني بحال التنكر لهذه القيمة أو النظر إليها **على أنها تغيرت أو انقلبت إلى قيمة سالبة، ان المسلم يضحي بهذه القيمة** آسفاً، وسرعان ما يعود إليها بالتبني والإنجاز بمجرد زوال الموقف المعقد الذي فرض عليه تجاهلها.

هذا النظام المذهبي المتسق الذي يكفل للقيم الاجتماعية الثبات، والتغير داخل الثبات، ومن أجل الثبات، هو الذي يكفل لنظام المجتمع الإسلامي الرسوخ والتوطد، ويضمن له ـ في الوقت نفسه ـ القدرة المتجددة على استيعاب التغيرات الاجتماعية والحاجات الحيوية اللامتناهية.

وهذه النتيجة النهائية، التي وصلنا إليها من خلال تحليل القيم الثلاث، هي البرهان العلمي على أن هذا الدين العظيم صالح ومصلح لكل زمان ومكان... والله أعلم....

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،،،

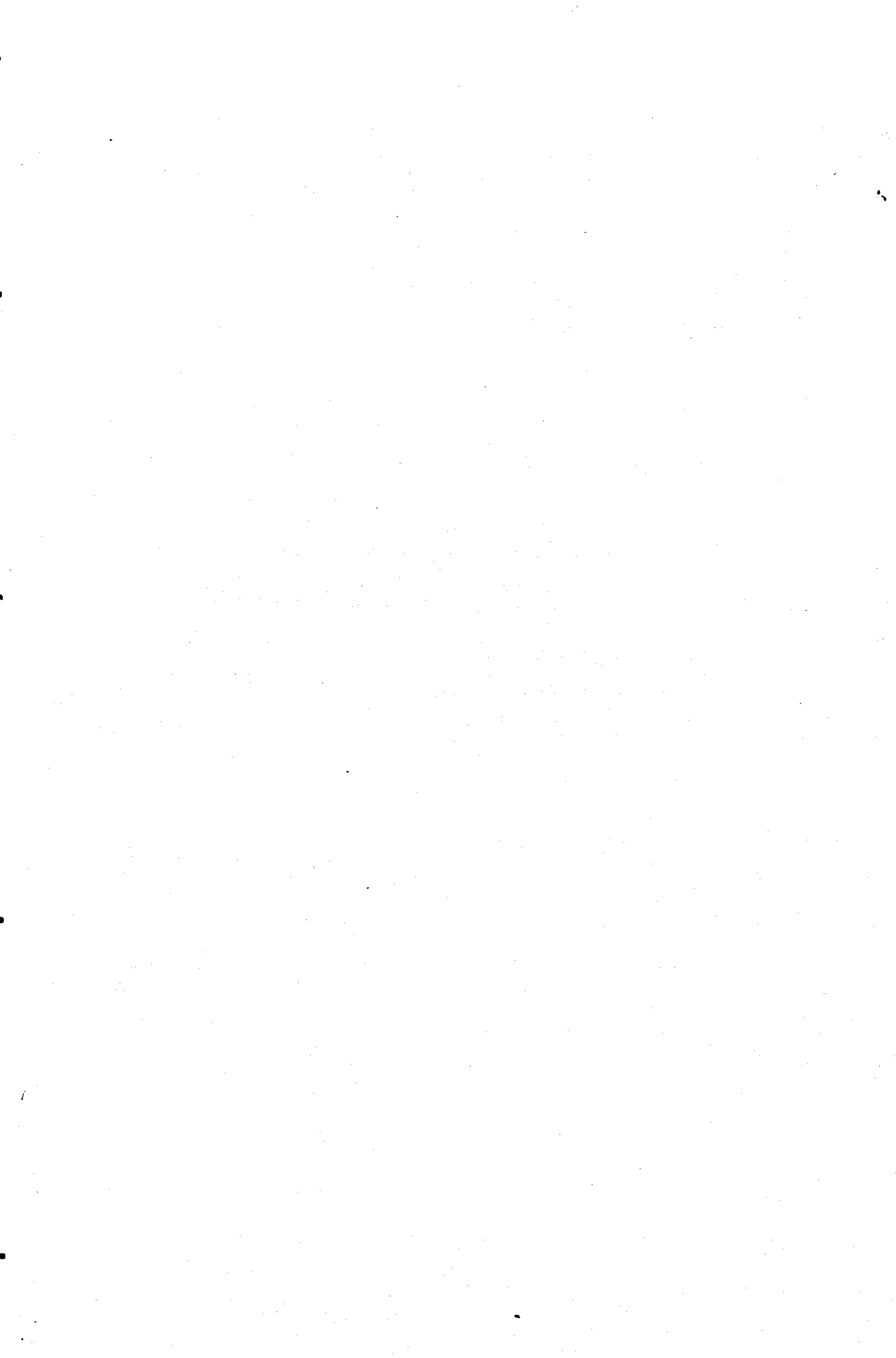


الفكر الحضاري لدى عمر بن الخطاب

في أصول السياسة والإدارة الحديثة

للدكتور سليمان محمد الطماوي

عميد كلية الحقوق - جامعة عين شمس - مصر



بسم الله الرحمن الرحيم

مما لا ريب فيه، أنه لن يختلف اثنان في أن أكثر فترات التاريخ العربي إشراقاً، وأقربها إلى الخلود، إنما هي فترة صدر الإسلام، وأيام حكم الفاروق عمر بن الخطاب بالذات، هذه الشخصية المتعددة الجوانب، ذات الضوء الباهر، والتي لا تكاد تبصر العين أبعادها.

ولقد أعجبت أيما إعجاب ـ وأنا أدرس هذه الفترة ـ بشخصية عمر، وزاد إعجابي به حين تخصصت في فرع من القانون، كان عمر فارسه الذي لا يباري، وهو ما يتصل بعلم السياسة والإدارة، وحينما أدخلت مادة « الإدارة العامة » في برنامج الدراسة في كليات الحقوق، فلقد استرعى انتباهي أن أساتذة هذه المادة من الأجانب لا يقنعون بدراسة الأفكار النظرية المجردة، التي تقوم عليها تلك المادة : من تنظيم وقيادة تنسيق وتخطيط... ولكنهم يكملون دراساتهم بعرض علمي لكبار رجال السياسة والإدارة الناجحين، في محاولة لتقصي أسباب نجاحهم، ويستوي في ذلك أن يكونوا من المعاصرين أو القدماء، ذلك أن الحقيقة العلمية التي انتهى إليها فقهاء هذه المادة من مختلف الدول، أن القيادة والإدارة تجمع بين خصائص العلم والفن معاً، وإذا كان العلم متاحاً للجميع، فإن الفن موهبة شخصية تختلف من فرد إلى آخر، ولا يمكن تحديد أبعادها إلا بدراسة شخصية الفنان، وأسلوبه في الحياة وفي التصرف وفي مواجهة المشاكل.

ونحن إذا تلفتنا في رحاب تاريخنا الطويل، برزت لنا شخصية عمر، وحجبت كل شخصية غيرها، بل لقد تضاءل بجوارها ما قدمه الفقهاء الأجانب من شخصيات.

والحق أنه ليس في التاريخ الإسلامي ـ بعد رسول الله ﷺ ـ رجل تردد الألسن اسمه ما تردد اسم عمر بن الخطاب، وهي تردده وتقرن به ـ في إعجاب وإكبار ـ ما عرف عن عمر من جليل الصفات، وعظيم المواهب، فإذا ذكر الناس الزهد في الدنيا، مع المقدرة على النهل من أنعمها، ذكروا عمراً، وإذا ذكروا العدل المطلق ـ غير مشوب بشائبة ـ ذكروا نزاهة عمر، وإذا ذكروا العلم والفقه، ذكروا عمرَ ودينه وفقهه، وأنت تتلو من أنباء ذلك في الكتب، ما تحسب الكثير منه مبالغة لا يكاد العقل يصدقها، فهي أدنى إلى المعجزات التي تنسب إلى الأنبياء منها إلى ما عرف عن أكبر العظماء سمواً، وجلالا وقدراً. ونحن إذا أردنا الرد على الشبهة التي يثيرها البعض، تلك التي تعتبر الدين، إلى حد ما، عقبة في سبيل إقامة دولة عصرية، وخلق مجتمع متحرر، سوف نجد الرد العملي في حياة عمر، منهجه، وسلوكه وفقهه.

لقد لحق الرسول بالرفيق الأعلى ـ بعد أن أدى الرسالة، وبعد أن أكمل الله الدين لعباده، ثم جاء أبو بكر فقضى على الردة، وأرسى دعائم الوحدة، وسلم الراية إلى عمر ليكمل البناء، وهنا تبرز شخصية عمر، فهو قد آمن بالإسلام إيماناً لا يفوقه إلا إيمان أبي بكر ـ وذلك إذا سلمنا بأن الكمال مراتب ـ وهو قد فهم الإسلام نصاً وروحاً بما لا يتطرق إليه شك، ثم هو بعد ذلك أرسى أسس دولة دنيوية، وأقام نظماً إدارية، ورتب علاقات اجتماعية، كل هذه في ظروف لم يشهدها رسول الله ﷺ ـ ولم يعاصرها الخليفة الأول، وذلك كله في رحاب الإسلام، على هدي من مبادئه وتعاليمه، فكيف نجح في ذلك عمر ؟، وهل تعتبر مهمة عمر في ظروفه تلك أيسر من محاولة إقامة العلاقات الاجتماعية الجديدة على هدي الإسلام ومبادئه ؟، إنني لا أتردد في القطع بأن مهمة عمر كانت أصعب كثيراً من محاولتنا اليوم، فكيف نجح عمر وتعثرنا ؟، هل يرجع العيب إلى العقيدة ؟، أم إلى عدم فهم العقيدة على وجهها الصحيح، وإلى قصورنا عن الاجتهاد الذي

يسمح بالملاءمة بين أصول العقيدة الثابتة وبين واقع المجتمع المتغير ؟.

لقد أشار فقيهان من أكبر فقهاء الإدارة العامة المعاصرين، هما الأستاذان « لوثر جيوليك، وجيمس بولوك » في تقرير قدماه إلى اللجنة المركزية لتنظيم الإدارة الحكومية في جمهورية مصر العربية ـ أشارا إلى أنه لا يمكن بحث خطط إعادة تنظيم جهاز أية حكومة أو إجراءاتها بمعزل عن تعرف التيارات العامة التي تسود حياة الأمة، والمعتقدات الأساسية التي تدين بها »، وبعد أن لخص الفقيهان الأسس العامة التي يقوم عليها الدين الإسلامي قالا : « **ويتجلى من تعمق هذه النقط أن الثقافة الإسلامية من أصلح الأسس للحكم الناجح في العصر الحديث، وليس هذا فحسب، بل إنها تقدم للشعب المبادئ التي يمكن أن يقيم عليها ديمقراطيته الجديدة،** التي تتميز بالقيادة الإيجابية الفعالة، ومشاركة الشعب في الحكم وتحري استخدام الثروة الخاصة والعامة لخير الأمة....... » .

وعمر بعد ذلك ـ وبغض النظر عن وضعه الإسلامي ـ هو قائد سياسي وإداري من أكفأ من عرفته البشرية في تاريخها المعروف، وهو بهذا يستحق وحده الدراسة المتخصصة من حيث مواهبه السياسية والإدارية، ليكون قدوة للعاملين في هذا المجال في مختلف الأمكنة والأزمنة.

إن جوانب العظمة في شخصية عمر أكثر من أن تحصى، وهي جوانب ترسم صورة دقيقة الملامح لمفتاح شخصيته، إلى علمه وثقافته وفقهه، ورجاحة عقله وبعد نظره، فلقد آلت إلى عمر شريعة الله أن يطبقها، وأن يستنبط قواعدها، فأصبح فارسها المجلى. وإذا كان الرسول ـ عليه السلام ـ هو الذي أرسى أسسها نقلاً عن ربه، فإن عمر بن الخطاب قد واصل أسلوب تطبيقها، واستمداد الأحكام الجديدة منها لمواجهة ظروف المجتمع المتغيرة، وهنا تكمن عظمة عمر، والعظمة الكبرى المستفادة من دراسته، والإحاطة بأساليبه في الحكم والإدارة، لقد جمع عمر بين الإيمان الراسخ، وبين المرونة التي تستجيب لحاجات الناس المشروعة، ومن ثم، فقد سجل الفقهاء فضل عمر في هذه الناحية، فعبد الله بن مسعود يقول مثلاً : « كان عمر أعلمنا بكتاب الله، وأفقهنا في دين الله ». بل كل ما فسر به عمر آي القرآن في معرض الحكم والعظمة، فهو التفسير الراجح في وزن

العقل والدين، وكل ما استخرجه من أحكام الشريعة فهو الحكم الواضح الصحيح.

إن جانب القيادة هو أبرز الجوانب في شخصية عمر، والقيادة البارعة هي روح السياسة والإدارة، وإذا كانت القيادة ـ سواء في مجال السياسة أو الإدارة ـ تقوم على أسس وقواعد علمية مسلم بها، وتدرس في الجامعات والمعاهد المتخصصة، فإنها من حيث الممارسة يغلب عليها طابع الفن، بل إن القيادة فيما مضى كانت أقرب إلى الفن منها إلى العلم ذي القواعد المؤصلة، وهذا يصدق تماماً في حالة عمر بن الخطاب.... لقد تجلت مشاكل السياسة والإدارة بصورتها كاملة في عهد عمر، وامتد به الأجل وبسطة العمر، لكي يضع لها الحلول الجذرية التي كشفت عن عبقرية فذة، يزيد من جلالها أن عمر لم يكن له سابق خبرة أو تجربة في هذه الميادين التي أصبح اسمه علماً عليها فيما بعد....

ومن المسلم به، أن القيادة تتصل بالأهداف وبالوسائل، أما الأهداف فليس عمر مبتدعها، بل تقررت في دعوة الإسلام كما فهمها عمر من الرسول عليه السلام، فشأنه شأن الخليفة الأول الذي كان يقول : إنما أنا متبع ولست بمبتدع، إلا أن هناك فارقاً كبيراً بين النظرية وبين التطبيق، فكم من نظرية سليمة على صعيد الفكر المجرد تتعثر من حيث التطبيق، وقد تفشل، فالتطبيق لا يقل أهمية عن رسم الأهداف الكبرى وتخطيطها، بل إن الدولة في أول شأنها، قد تكون في حاجتها إلى التطبيق السليم المبصر الرشيد، أكثر من حاجتها إلى نظريات وشعارات، وإن كان الأمران لا ينفصلان ـ ولقد نجح عمر ـ كما يسجل التاريخ ـ بل بلغ قمة النجاح في أن يجعل التطبيق في مستوى روعة الأهداف الإسلامية، حتى أصبح أسطورة تاريخ العالم...

كانت القدوة الحسنة هي المميز الأساسي لأسلوب عمر في القيادة، إلا أن هذا الأسلوب ـ من حيث كونه فناً عمرياً يميزه عن غيره من الحكام ـ لا يستقيم إلا إذا ربطناه بميزتين أخريين، كان لهما أيضاً فضل تحقيق النجاح الكبير الذي انفردت به قيادة عمر، وهما : حرصه على الإحاطة

بشئون الرعية بنفسه مباشرة في جميع شئونها، ثم إشراكه المسلمين معه في شئون الحكم، بما يطلق عليه اليوم اصطلاح « ديمقراطية الإدارة ». كان عمر قدوة في حياته الخاصة، نقصد بذلك أسلوبه في الحياة، وفي هذا المجال تفيض كتب التاريخ بأمور قد يعدها البعض اليوم من قبيل المبالغة، ولكن من تمعن في حياة عمر، يجد أنها أمر طبيعي، وأن عمر قد وضع لنفسه خطاً معيناً لا يتجاوزه، وهو أن يحيا حياة عامة المسلمين، بل دون ذلك في كثير من الحالات، وحجته في ذلك قاطعة لا سبيل إلى الرد عليها، عبر عنها بنفسه عام الرمادة، قال : « كيف يعنيني شأن الرعية إذا لم يُصِبْني ما أصابهم ؟ »، ويقيناً، إن هذه الحقيقة التي عبر عنها عمر ببساطة، هي مفتاح الحكم الصالح في كل عصر وزمان، أما القدوة العامة في حياة عمر، فنعني بها سلوكه كخليفة ورئيس دولة، لقد استودع السلطة العامة، وصار حفيظاً على أموال المسلمين. وهنا أيضاً نجد أن عمر قد جعل من نفسه ومن آله، قدوة حية على مدى العصور، لقد رأى عمر مثلاً رأياً في خلافة أبي بكر في مسألة راتب الخليفة، ذلك أن أبا بكر لم يخطر بباله حين أصبح خليفة أنه سوف يؤجر على عمله، وظنها حسبة لوجه الله تعالى، ولكن مطالب الحياة اضطرته إلى ممارسة التجارة، فانشغل بذلك عن أمور المسلمين، فطلب إليه عمر التفرغ على أن يؤجر على عمله من بيت مال المسلمين. فلما آل الأمر إلى عمر، جمع الناس يستشيرهم في مرتبه، وأجمعوا على رأي علي بن أبي طالب، « ما يصلحك ويصلح عيالك بالمعروف يا عمر »...

قلت : إن جوانب العظمة في شخصية عمر أكثر من أن تحصى، ولا سيما في مجال السياسة والإدارة، حيث تجلت عبقريته أكثر ما تتجلى، وبرز فقهه أكثر ما يبرز في موقفه من السلطات العامة في الدولة، ومن النظام الاجتماعي، ففترة حكم الخليفة عمر تعتبر ــ ولا شك ــ المثل الأعلى للفكر الإسلامي من حيث نظام الحكم، سواء على الصعيد النظري أو التطبيق العملي، ولئن كان كل من القرآن والسنة قد أرسى الأسس الكبرى لنظام الحكم، فإن تفصيل هذه الأسس، وملاءمتها للظروف المتغيرة، كان عملاً شخصياً للخليفة، يكشف عن عبقرية فذة، وفكر حضاري، واستعداد فطري

للقيادة. يقول الأستاذ العقاد في مؤلفه عبقرية عمر : « ندر في الدولة الإسلامية من نظام لم تكن له ـ أي عمر ـ أولية فيه، فافتتح تاريخاً، واستهل حضارة، وأنشأ حكومة، ورتب لها الدواوين، ونظم فيها أصول القضاء والإدارة، واتخذ لها بيت مال، ووصل بين أجزائها بالبريد، وحمى ثغورها بالمرابطين، وصنع كل شيء في الوقت الذي ينبغي أن يصنع فيه، وعلى الوجه الذي يحسن به الابتداء، فأوجز ما يقال فيه : إنه وضع دستوراً لكل شيء وتركه قائماً على أساس لمن شاء أن يبني عليه ».

فوفقا للتقسيم العصري، يجري الفقه الدستوري المعاصر على إرجاع وظائف الدولة إلى أنواع ثلاثة : هي التشريع والتنفيذ والقضاء، وبالرغم من حداثة هذه المصطلحات، فإنها في نظرنا لا تتعدى الصياغة، فكل دولة منظمة ـ قديماً وحديثاً ـ عرفت جهة ـ أياً كانت تسميتها ـ تولى التشريع، وعرفت أجهزة تقوم على تنفيذ القانون، وعلى تطبيقه بين الأفراد المتنازعين.

إنه من المسلم به أن هناك مصادر أربعة للتشريع هي : الكتاب والسنة والإجماع والقياس، وهناك مصادر أخرى مختلف عليها، منها : الاستحسان والمصالح المرسلة، والعرف، وشرع من قبلنا، وقول الصحابي والاستصحاب. ولو أننا تركنا ما يثار حول هذه المصادر من خلاف، ونظرنا إليها في مجموعها، لوجدنا أن مصادر الشريعة يمكن ردها إلى ثلاثة، هي : القرآن والسنة ثم الرأي. وقياساً على تعريفات العصر، فإننا يمكن أن نعتبر القرآن والسنة بمثابة التشريعات الدستورية، أما المبادىء التي تستقى من غيرهما من المصادر، « والتي تجمع تحت تسمية الرأي »، فإنها بمثابة التشريعات العادية، وعلى أن هذا الشبه إذا صح في خطوطه العامة، فيجب أن يوضح من عدة نواح :

الأولى : أن القواعد والأحكام المستمدة من القرآن والسنة تتسم بالخلود، ولا يمكن أن تتغير بحال من الأحوال، لكن يجب أن تفهم القاعدة السابقة في ضوء مما ورد في القرآن والسنة من أحكام، فهي في الحقيقة أحكام تقتصر على وضع ضوابط وأصول عامة تصلح للتطبيق في مختلف الظروف والبيئات والأزمنة، على أنها إذا تضمنت أحكاماً مفصلة اتسمت تلك الأحكام بالثبات العام.

الثانية : أنه مهما كانت حرية أهل الرأي في استنباط الأحكام التفصيلية من القرآن والسنة، فإن ثمة فارقاً جوهرياً بينهم وبين المشرعين في الدول الحديثة، فالمشرع الحديث يستطيع أن يضمن تشريعاته ما يشاء من أحكام ـ إلا ما استبعده الدستور صراحة ـ، أما الرأي في التشريع الإسلامي فيجب أن يدور في نطاق الأحكام الخالدة التي تقررت في كل من الكتاب والسنة.

الثالثة : بالرغم من الأهمية البالغة لكل من القرآن والسنة، فإن الرأي هو المصدر الحقيقي للقواعد الجديدة التي تحتاج إليها جماعة المسلمين لمواجهة الظروف المستحدثة.

فمثلاً : الاجتهاد الذي عرفه الإسلام له مظهران : جماعي وفردي، فالجماعي هو أن يعرض ولي الأمر المسألة على مجتهدي عصره، فيبحثونها ثم يجمعون فيها على رأي، وهذا هو الإجماع الذي اعتبر المصدر الثالث للتشريع الإسلامي، وهو مصدر ملزم للأحكام الشرعية. أما المظهر الفردي، فهو اجتهاد كل مسلم تتوافر فيه شروط الاجتهاد، وحكم هذا الاجتهاد الفردي : أنه لا يكون حجة ملزمة إلا لصاحبه، إلا أن هذه القاعدة لا تصدق على **إطلاقها** إلا بالنسبة للمجتهدين الذين لا يشغلون وظائف عامة، أما إذا تقلد المجتهد ولاية عامة كالخلافة أو الوزارة أو القضاء مثلاً، فإنه سيؤخذ بما انتهى إليه اجتهاده، فيما يعرض عليه من مسائل وحينئذ سيصبح اجتهاده ملزماً لمن تشملهم ولايته.

ووصول المجتهد إلى رأي معين في موضوع بعينه، لا يمنعه من الرجوع عن هذا الرأي إذا أدى اجتهاده اللاحق إلى رأي آخر، لكن إذا كان المجتهد حاكماً فليس له أن يرجع باجتهاده إلى الماضي، وهي القاعدة التي يعتنقها التشريع الحديثة بعنوان « عدم رجعية التشريع ».

فهل يا ترى **حدَّت** تلك القيود من حرية الحركة لدى عمر، وعاقته عن بلوغ أهدافه ؟.

لقد بلغ عمر في اجتهاده مرتبة لم يبلغها سواه، حتى عدت أولياته بالعشرات. ذكر الاستاذان علي طنطاوي وناجي طنطاوي في مؤلفهما عن

عمر، أولياته منها :

- أن عمر أول من عس في عمله بالمدينة، وأول من حمل الدرة وأدَّبَ بها.
- أول من مسح السواد وأرض الجبل، ووضع الخراج على الأرض.
- أول من مصَّرَ الأمصار : الكوفة والبصرة، والجزيرة والفسطاط بمصر.
- أول من استقضى القضاء في الأمصار، ودون الدواوين وأحصى الناس.
- أول من زاد في مسجد رسول الله، وألقى فيه الحصا.
- أول من نهى عن بيع أمهات الأولاد، وأول من وضع العشر في الإسلام.
- أول من جمع الناس على التراويح في رمضان.
- أول من أخذ زكاة الخيل، وأول من وضع التاريخ.
- أول من قضى في ميراث الأم وأعطاها ثلثي الباقي في مسألتين : زوجة وأبوان، أو زوج وأبوان.

وإليكم بعض صور من اجتهاد عمر في مختلف نواحي الحياة، لندرك كيف أمكن لهذا العبقري أن يوفق على أحسن نحو ممكن، بين أصول الإسلام الثابتة وحاجات المجتمع المتغيرة. ومن الجدير قبل أن نعرض لهذه الصور أن نذكر : أن أصول الفقه لم تكن قد وضعت، وأن الاجتهاد لم يكن يقصد به مواجهة فروض نظرية واحتمالية، ولكن كان وسيلة لمواجهة احتياجات المجتمع الإسلامي المتغيرة، وأخيراً، إن المسلمين في الصدر الأول للإسلام لم يكونوا كثيري السؤال، فلم يكونوا يعرضون للمسألة إلا عند الضرورة، فلقد نهاهم القرآن عن كثرة السؤال، لهذا قال ابن عباس : « ما رأيت قوماً قط كانوا خيراً من أصحاب رسول الله.... ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة في القرآن حتى قبض، وما كانوا يسألونه إلا عما ينفعهم، وكان عمر بن الخطاب يلعن من سأل عما لم يكن ».

أما اجتهادات عمر، فحسبنا أن نذكر منها :

أولاً : مسألة جمع القرآن في مصحف واحد، فهو الذي اقترح هذا على أبي بكر بعد موقعة اليمامة، التي استشهد فيها عدد من حفاظ القرآن.

ثانياً : مسألة الأموال العامة، فقد كانت موارد الدولة على عهد عمر تنحصر في : الزكاة، والفيء ثم الغنائم، ولكل مورد من هذه الموارد جهات

صرف محددة، ومن اجتهادات عمر في هذا المجال : تأخيره جمع الزكاة عام الرمادة، فلم يبعث الجباة لجمعها. ووقفه سهم المؤلفة قلوبهم، ورفضه تقسيم الأرض التي فتحها المسلمون عنوة في العراق والشام ومصر، بين الفاتحين، وفرضه الخراج عليها ثم استحداثه للعشر، ضريبة تفرض على التجار الذين يفدون من أرض الحرب للمتاجرة في أرض المسلمين.

ثالثاً : ولعمر في مجال العبادات اجتهادات : جمع الناس على صلاة التراويح في رمضان، وفي مجال العقيدة، قطع الشجرة التي تمت تحتها بيعة الرضوان بعد أن بلغه أن الناس يأتون إليها فيصلون عندها، وقال : أراكم أيها الناس رجعتم إلى العزى. « وخرج عمر إلى الحج مرة ـ وبعد أن صلى الفجر بالناس ـ مرَّ بهم على مسجد فأسرع إليه الناس، فقال عمر : ما هذا ؟، قالوا : هذا مسجد صلى فيه النبي ﷺ. فقال عمر : هكذا هلك أهل الكتاب قبلكم، اتخذوا آثار أنبيائهم بيعاً، من عرضت له صلاة فليصل، ومن لم تعرض له صلاة فليمش ».

رابعاً : وكان لعمر في مجال الحدود اجتهادات، فلقد وردت آيات التشريع في القرآن الكريم محدودة، كما أن الجرائم التي وضع لها القرآن عقوبات محددة محصورة، إلا أن المجتمع الإسلامي في عهد عمر تطور إلى تطور جوهري وكان عليه أن يعمل جاهداً على منع الانحرافات، والقضاء عليها في مهدها بالقرآن والسلطان معاً، ومن هنا كثرت العقوبات التي سنها عمر، والتي لم يكن لها مقابل في عهد الرسول أو أبي بكر. وعمر يعتبر أول من حد شارب الخمر ثمانين جلدة، أخذاً برأي (عليٍّ) الذي رأى أن يحد حد القذف، وقال : « **إن الرجل إذا شرب سكر، وإذا سكر هذي وإذا هذي افترى** »، بل إن عمر جلد الشارب في نهار رمضان ثمانين جلدة حداً، وعشرين أخرى تعزيراً، وعمر هو الذي جعل حد من زور خاتم الدولة وحصل من ذلك على أموال، الضرب والحبس ومقاسمة ماله، بل إن عمر عاقب على أفعال لا يعتبرها الفكر القانوني المعاصر من قبيل الجرائم، وذلك لما بين التشريع الإسلامي والشرائع المعاصرة من فروق، فالتشريع المعاصر يعتمد على العقل والمنطق المجرد أما التشريع الإسلامي فأساسه الوازع

الديني، والضمير الذي يحرك الإنسان في نطاق الجماعة وفقاً لقيم عامة واسعة، فلقد أوسع عمر رجلاً ضرباً لأنه خطب فتاة على أنه شابٌّ وقد خضَّب شعره، فاستعدى أهل الفتاة عليه عمر الذي أوجعه ضرباً، وهو يقول له : غررت القوم. وعندما سمع عمر صوت بكاء في بيت، دخل ومال على أهله ضرباً حتى بلغ النائحة فضربها حتى سقط خمارها، ثم قال لغلامه : اضرب النائحة، إنها لا حرمة لها، لأنها لا تبكي بشجونكم، إنما تريق دموعها على دراهمكم، إنها تنهى عن الصبر، وقد أمر الله به، وتأمر بالجزع وقد نهى الله عنه.

على أن اجتهاد عمر في هذا المجال يتجلى في مبدأين أساسيين، استنهما عمر، ثم صارا من المبادئ المسلمة في التشريعات الحديثة وهما : تعطيل الحدود في حالة الضرورة، وتعطيل الحدود في الشبهات، ومن مأثور قوله في هذا الخصوص : « لأن أعطل الحدود في الشبهات، خير من أن أقيمها في الشبهات »، ومن القضايا التي طبق فيها عمر المبدأين : تعطيل حد السرقة بالنسبة للمكره ـ كما حدث في عام المجاعة ـ وكان يأمر قواد الجيش بألا يحاولوا تنفيذ الحد على مسلم إلا إذا بعدوا عن بلاد الأعداء، لأنه كان يكره أن تحمل المحدود حمية الشيطان على اللحوق بالكفار.

ثم إن عمر أدرك القاعدة الحديثة والقائمة على تفسير الحدود تفسيراً ضيقاً والاقتصار على تنفيذ العقوبة المقررة دون غلو أو إسراف، لذلك غضب على أبي موسى الأشعري حين جلد شاباً، وحلق شعره، وسود وجهه، ونادى في الناس ألا يجالسوه أو يؤاكلوه، لأن حد الشراب ثمانين جلدة ـ كذلك كان يأبى عمر المجتهد أن يكون تنفيذ العقوبة سبباً لتجمهر الناس، لمجرد المتعة وإشباع الفضول.

أما موقف عمر من النظام الاجتماعي، فنشهد له بعبقرية فذة، وفكر حضاري، وحسبنا أن عمر لم يغب عنه أن حاجات الناس متغيرة، وأنه يقع على عاتق كل جماعة أن تجتهد لنفسها، لأنها أدرى بحاجتها ومصالحها، ومما يروى عنه قوله : « الناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم ».

إن ظروف تطبيق النظرية الإسلامية التي واجهها عمر، كانت بالغة

القسوة، فلقد ظل تطبيق النظرية، حتى وفاة الرسول ووفاة الخليفة الأول، محصوراً بصورة أساسية في البيئة العربية، بظروفها التقليدية، حقيقة أن الإسلام أحدث تغييراً جوهرياً في العلاقات الاجتماعية، لكنه تم في نطاق البيئة العربية التي ألفها العرب، فلما جاء عمر، تغير كل ذلك رأساً على عقب، كان عليه أن يطبق النظرية الإسلامية خارج نطاق الجزيرة، وعلى شعوب ألفت مدنية لم تتح للعرب، بعد أن عاش المسلمون، العرب الفاتحون، حياة تختلف تمام الاختلاف عما ألفوه في الجزيرة العربية، ومن هنا كانت صعوبة مهمة عمر، وكانت عبقريته الفذة في الوقت ذاته، ولقد بدأ اهتمام عمر الكبير ـ في هذا الصدد ـ بالعمل على وحدة الفكر في الدولة الناشئة، وإذا كان المثل الأعلى لوحدة الفكر، يقضي بمطاردة الأفكار الأخرى والقضاء عليها، باعتبارها فكراً مضاداً، ومن هذا المنطلق، فإن النظريات السياسية المعاصرة، إنما تقوم على عدم السماح بالفكر المضاد باعتباره ثورة مضادة، وهكذا فإن المعسكر الماركسي مثلاً، لا يسمح بالاجتهاد إلا في نطاق النظرية الماركسية، بحيث يعتبر كل اجتهاد خارجها خيانة يعاقب مرتكبها بأشد أنواع العقاب، فإن الإسلام له من هذا الأمر موقف أصيل، يكشف عن سماحة وحرية لم تعرفهما البشرية قبله، يتمثل هذا في قوله تعالى: « لا إكراه في الدين »[1].

لقد تعايشت الأديان السماوية الثلاثة في عهد الرسول وفي عهد أبي بكر في الجزيرة العربية وخارجها، وإذا كان الرسول قد أخرج بعض اليهود وقاتلهم حتى قضى عليهم، فلم يكن ذلك بسبب تمسكهم بدينهم ورفضهم الإسلام، ولكن لأنهم نقضوا العهد، وقاتلوا المسلمين وأعانوا عليهم، أما عمر فما واجهه من اعتبارات قد أدت به إلى أن يجتهد، فيميز بين شبه الجزيرة العربية من ناحية، وبين أرجاء الدولة الإسلامية من ناحية أخرى، فقد جعل الدين واحداً في شبه الجزيرة، فأجلى اليهود بعد اعتدائهم على المسلمين، وأجلى نصارى نجران، الذين عاهدهم كل من الرسول وأبي بكر على ألا يفتنوا في دينهم، ما رعوا العهد، ونصحوا ولم يأكلوا الربا، لكنهم نقضوا

---

(١) سورة البقرة آية ٢٥٦.

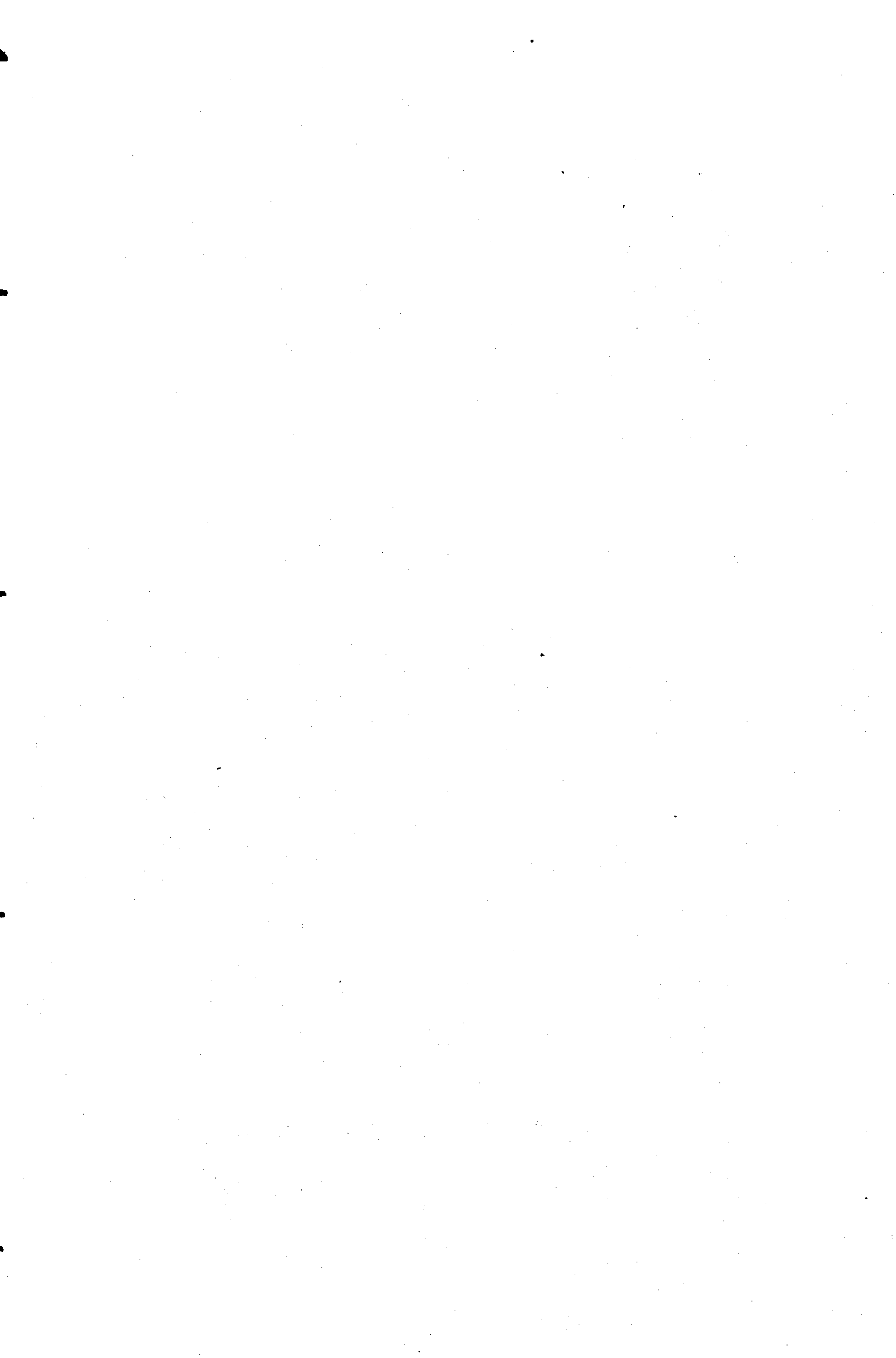
العهد، وقويت شوكتهم، وكان عمر عادلاً معهم فأعطاهم أرضاً كأرضهم، إقراراً لهم بالحق ووفاء بذمتهم، واستقر بهم المقام بالكوفة، وكتب لهم عهداً يفيض رحمة وعدلاً.

وبالرغم مما أثاره بعض المستشرقين من نقد لموقف عمر، إلا أن موقفه يقدره كل منصف، ولو أننا أخذنا الأمر بعين السياسة المجردة، لالتمسنا العذر لعمر، فالدولة التي تُقْدم على تغيير شامل في نظمها، وتتعرض لخطر محدق بأمنها ـ بل وبقائها ـ من حقها أن تؤمن نفسها بكل الطرق.

ونختم هذا البحث بموقف عمر من الأخلاق العامة، وواضح أن عمر في هذا المجال متبع وليس بمبتدع، لكن بالنظر إلى القواعد التي أرسى الإسلام أسسها، وإلى مرونة هذه القواعد، فإن مجال الاجتهاد في تطبيقها متسع، لتواجه ظروف المجتمع المتغيرة، وفي هذا المجال ـ كما هو الشأن في المجالات الأخرى ـ تتضح نظرة عمر الواقعية، كرجل دولة، يدرك تماماً متطلبات الحياة المثالية لشعب يحمل رسالة عالمية، والحاجة إلى التوفيق بين متطلبات الحياة، وبين المثل الأعلى الذي رسمه الله للناس. كان عمر يعلم أن الدين بصفة عامة، والإسلام بصفة خاصة، ليس مجرد أفكار نظرية يعتنقها الناس، وأنه ليس مجرد عبادات يتقرب بها المسلم إلى ربه، ولكنه ـ أولاً وقبل كل شيء ـ أسلوب كامل في الحياة، كما وصفه الرسول : « ما وقر في النفس وصدقه العمل ».... ومن هنا جاء اجتهاد عمر ـ في نطاق الفروع ـ لكي يجعل من تعاليم الإسلام دستوراً للحياة، وقد نجح في ذلك بصورة لم يبلغها المجتمع الإسلامي إلّا في عهده.

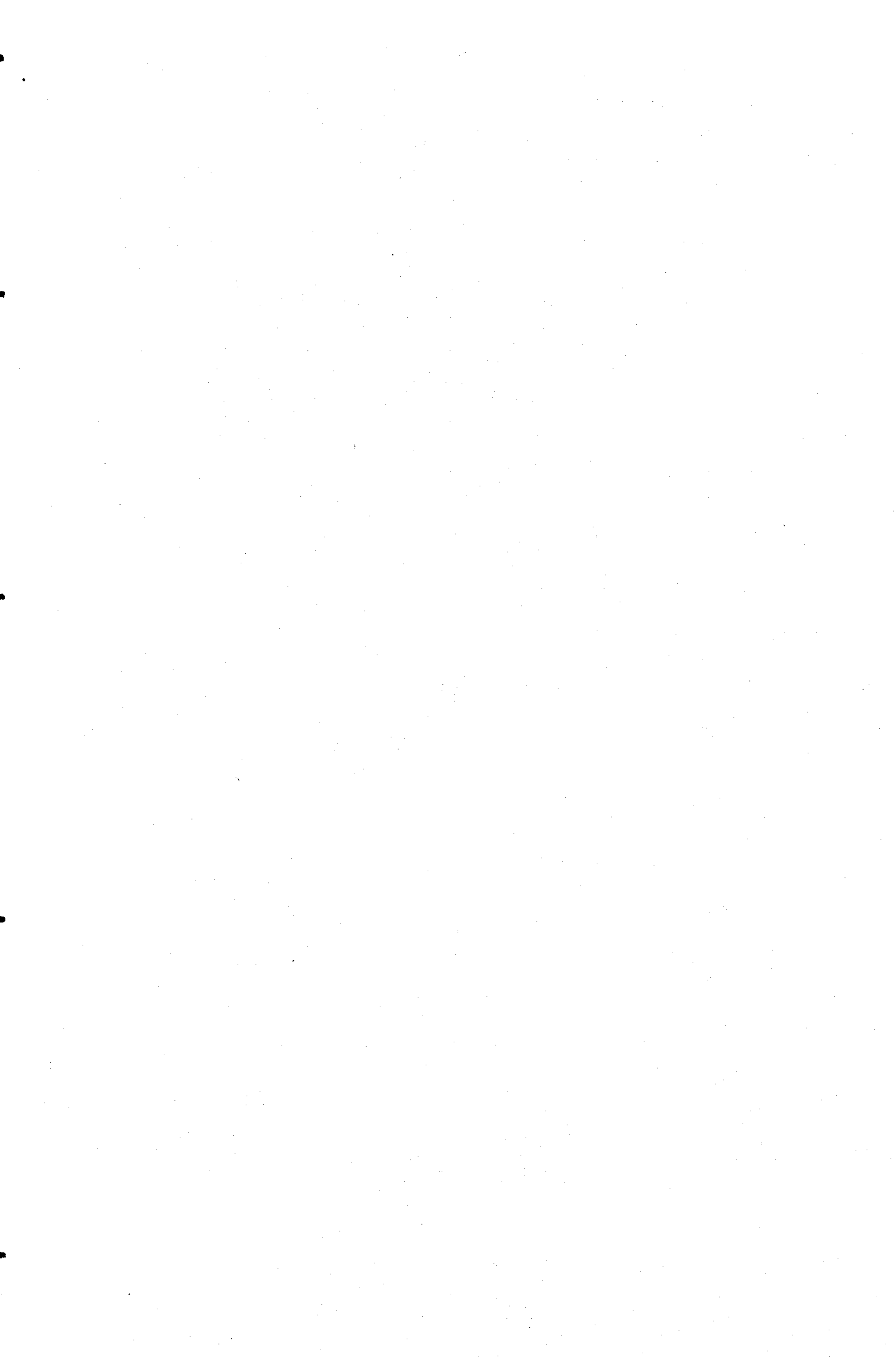
لقد كان عمر عبقرياً، ما في ذلك شك، وكان الرائد المسلم العربي الأول في مجال السياسة والإدارة، وما نود أن نؤكده في السطور الأخيرة : أن على الشعوب التي تجدُّ في البحث عن القيادة الصالحة، أن تجدَ نفسها أولاً، ومن هنا لا نؤمن إطلاقاً، بأقصوصة « المستبد العادل » كوسيلة لإصلاح الشعوب، إن القادة لا يصنعون الشعوب، ولكن الشعوب هي التي تصنع القادة، وعمر ـ رضي الله عنه ـ كان ثمرة ناضجة للشعب المسلم الذي غرز الرسول بذرته، وتعهده بالرعاية طيلة ثلاثة عشر عاماً.

ونؤكد ثانياً : أنه مهما حسنت نية القائد، فإن النظم الكفيلة بسلامة الحكم ومنع الانحراف ضرورية في جميع العصور، وأن وجود قائد كفء ورع مثل عمر، ما كان يغني عن وضع أسس هذه النظم، ولهذا فكر عمر في كل النظم التي تكفل سلامة الحكم وأرسى أسسها، ومما لا جدال فيه أن معظم ما يرد من مصطلحات حديثة في مجال الحكم والإدارة، كان له ما يقابله على أيام عمر، وكان عمر هو المنشئ والمؤسس، وأن الخلاف ـ في الحقيقة ـ إنما يرجع إلى الصياغة لا إلى الجوهر والوظيفة.



الفكر الحضاري لدى فقهاء المسلمين

للأستاذ محمد عبد الله السمان
كاتب إسلامي



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة :

مما لا جدال فيه أن للحضارة مكاناً مرموقاً في تاريخ الإسلام والمسلمين، ويوم أن كانت أوروبا تعيش عصر الظلام، كانت شمس الحضارة الإسلامية تشرق على العديد من الآفاق، وليس هذا راجعاً - فحسب - إلى ما كانت تتمتع به الدولة الإسلامية من الاستقرار السياسي والازدهار الاقتصادي، بل أيضاً إلى أن الإسلام كان يساير التطور، ولا يعترض طريقه ولا يعوق مساره.

ومما لا جدال فيه أيضاً أن حضارة أوروبا، بعد عصر الظلام الذي ساد أوروبا، إنما هي مدينة بالفضل للحضارة الإسلامية، ولسنا مدعين في هذا، فالمنصفون من مفكري أوروبا ذاتها لا يسعهم إلا الاعتراف بهذه الحقيقة، وحتى غير المنصفين من مفكري الغرب لم يستطيعوا إنكار هذه الحقيقة التي هي بمثابة المسلَّمَة من المسلَّمات، وإن كانوا قد أضافوا إليها، وأدخلوا عليها ما يقلل من شأنها.

وليست أوروبا وحدها هي التي تأثرت بالفكر الحضاري الإسلامي، بل آسيا أيضاً، ولا سيما الهند، فالدكتور « تارا » يقرر في مؤلفه : تأثير

الإسلام على حضارة الهند.. أن للعقلية الإسلامية والشريعة الإسلامية تأثيراً في أخلاق الأمم، اجتماعياً وتشريعياً في أوروبا النصرانية، وفي الهند الوثنية بعد الفتح الإسلامي، تراه وتلمسه في الاتجاه إلى التوحيد، ونزعات الاحترام للمرأة وحقوقها، والاعتراف بمبدأ المساواة بين طبقات البشر، إلى غير ذلك مما سبق إليه الإسلام وامتازت به شريعته ومدنيته.

وما أكثر ما لدينا من شهادات مفكري الغرب ـ ولا سيما المنصفون منهم ـ على تأثير الفكر الإسلامي على مسار الأفكار في أوروبا وآسيا، سواء منها ما كان سابقاً على الإسلام أو ما جاء بعده ـ لكن لا مجال هنا في هذا البحث الذي نحن بصدده، لتسجيل مثل هذه الشهادات، وما هو جدير بالإشارة إليه ـ في هذا البحث ـ أمر ذو أهمية خاصة، هذا الأمر هو أن معظم الذين أرَّخوا للحضارة الإسلامية ـ من المسلمين وغير المسلمين، قد أعطوا الأهمية الكبرى لسائر ألوان الحضارة : الفكرية منها وغير الفكرية، ولا سيما الابتكارات العلمية، والفن بشتى فروعه، وغفلوا ـ دون قصد ـ عن الفكر الحضاري لدى فقهاء المسلمين.

إن نظرة سريعة إلى الثروة الفقهية الضخمة من التراث، تقنعنا بأن هذه الثروة ليست إلا نتاج فكر حضاري متقدم، كان لدى فقهاء المسلمين، هذه الثروة الفقهية شملت الحياة الإسلامية بأسرها، نظمت وجود الفرد والأسرة والمجتمع والدولة، عقائدياً واجتماعياً وسياسياً، واقتصادياً وأدبياً وفكرياً، مما وهب للحياة استقرار أبنائها.

وإذا كان واقع المسلمين اليوم لا يشير إلى أدنى استقرار ـ فليس الذنب ذنب الفقه الإسلامي القائم بيننا نظراً لا تطبيقاً، وإنما الذنب ذنب الأمة الإسلامية ذاتها، هذه التي تحللت من شريعة الله وتخلت عنها، واستبدلت الذي هو أدنى بالذي هو خير، أهملت تراثها واعتزلته، واستوردت من الغرب ومن الشرق شرائع وقوانين ومبادىء، تمتد بعض جذورها إلى عصور الجاهلية الأولى.

إن مفهوم الحضارة المتبادر إلى الأذهان، إنما يؤدي إلى الارتقاء البشري مادياً وروحياً وفكرياً، والذي يعنينا في نطاق هذا البحث من هذه

المجالات الثلاثة هو ـ فحسب ـ المجال الفكري، بل ليس المجال برمته، فإن ما يعنينا جانب واحد منه هو فكر الفقهاء المسلمين، هذا الفكر الذي لم ينل حظه من التقدير الجدير به لدى معظم الذين أرخوا للحضارة الإسلامية، ولست أدري كيف يمكن أن يتجاهل مثل عقليات الأئمة :

أبي حنيفة ومالك، والشافعي وأحمد، وابن حزم وابن تيمية، وابن القيم، وابن قدامة والشاطبي والشوكاني، وابن رشد والسرخسي، وكثيرين غيرهم من الفقهاء المجتهدين.

إنه لمن المتفق عليه أن المصدرين الأساسيين للتشريع الإسلامي، واللذين لا يختلف عليهما مسلمان، هما الكتاب والسنة، إلا أن نصوص هذين المصدرين الأساسيين هي بمثابة المادة الأولية، وكان دور الفقهاء ليس قاصراً ـ فحسب ـ على التصنيع والصياغة والتقنين، بل أيضاً كان لهم اجتهادهم في طرق الاستدلال والاستنباط من هذين المصدرين. وقد أدى اجتهاد الفقهاء ـ في إطارهما ـ إلى إبراز مصادر أخرى ثانوية، وقد ألحق بهذين المصدرين الأساسيين الإجماع والقياس، واعتبرا أقرب المصادر إليهما، والعجيب أن مفكراً إسلامياً له شأن كابن خلدون يقف عند حدود هذه المصادر الأربعة، فيقرر في مقدمته : أن ما عداها من طرق الأدلة الأخرى التي عني بها الأصوليون قليل الأهمية، لا حاجة به حتى إلى الإشارة إليها، يقول في المقدمة : « واتفق جمهور العلماء على أن هذه هي أصول الأدلة ـ يعني الكتاب والسنة والإجماع والقياس ـ وإن خالف بعضهم في الإجماع والقياس، إلا أنه شذوذ، وألحق بعضهم بهذه الأربعة أدلة أخرى لا حاجة بنا إلى ذكرها، لضعف مداركها وشذوذ القول فيها ».

أما بقية طرق الأدلة التي لم يعبأ بها ابن خلدون فمنها : الاستصحاب والاستقراء والاستحسان، والمصالح المرسلة، والأخذ بأقل القليل، وقول الصحابي وإجماع أهل المدينة، والعرف، وسد الذرائع، ثم شرع من قبلنا. والحق أن للرد على رأي ابن خلدون أهميته، لأننا نرى أن مثل طرق الأدلة هذه، كان نتاج فكر حضاري لدى فقهائنا الذين اعتبروا هذه الأدلة وقدروها حق قدرها، ولم يشذ من الفقهاء إلا الظاهرية. صحيح أن فقهاءنا لم يجمعوا

عليها، لأنهم لم يجمعوا إلا على المصدرين الأساسيين، وهما الكتاب والسنة، ولكنهم استوعبوها جميعاً ما عدا مسألة الأخذ بأقل القليل، حيث أخذ بها الشافعية وحدهم، ومسألة إجماع أهل المدينة، حيث انفرد بها الإمام مالك وخالفه بقية الفقهاء.

خطـة البحـث :

إن موضوع : الفكر الحضاري لدى فقهاء المسلمين موضوع متشعب الجوانب يضيق به مثل هذا البحث الذي روعي فيه الإيجاز، والتركيز على معالم الموضوع وخطوطه الرئيسية مع شيء قليل من التفصيل، حسبما تقتضيه الحاجة، لذلك اخترت من هذه المعالم أو الخطوط الرئيسية ثلاثة :

١) كثرة طرق الأدلة والاستنباط.
٢) الاجتهاد لدى الفقهـاء.
٣) الخـلاف بين الفقهـاء.

* * *

أولاً : كثرة طرق الأدلة والاستنباط :

وكما بدأت بمقدمة كمدخل للبحث، ختمت بخاتمة، خصصتها للرد على بعض شبهات أثارها بعض المستشرقين وعملائهم من المسلمين حول الموضوع الذي نحن بصدده.

يجدر بنا في هذه الزاوية من البحث أن نفرق بين مصطلحات ثلاثة هي : الشريعة والفقه، ثم أصول الفقه. يقول الدكتور محمد يوسف موسى في رسالته : « الإسلام ومشكلاتنا الحاضرة »(*) :

« ينبغي أن نفرق بين الشريعة وبين الفقه، فإن الخلط بينهما يجر إلى خطر كبير، وذلك بأن مخالفة شريعة الله قد تؤدي إلى الإلحاد بل إلى الكفر أحياناً، ولكن الخطأ في الفقه عن اجتهاد لا شيء فيه، ففي المأثور : أن للمجتهد إن أصاب أجرين، وإن أخطأ فله أجر واحد، إن الشريعة هي كل ما شرعه الله لعباده من الدين والأحكام، فهي في الإسلام تشمل كل ما جاء في القرآن، وعن الرسول، من ناحية ما يجب أن يعتقد في الله وذاته وصفاته وصلته بالعالم، وأحوال الدار الأخرى، وهذا ما يسمى بعلم « الكلام »، أو « التوحيد »، ومن ناحية أحكام الله لأعمالنا من الحل والحرمة والصحة والفساد، إذا كانت هذه الأحكام قد بينها الكتاب أو السنة فلا يختلف فيها أحد، مثل حل البيع وحرمة الربا، وهذا جانب من الفقه بلا ريب، ومن ناحية تهذيب المرء نفسه وأهله وأولاده، وما يجب أن يكون عليه من سلوك، وهذا ما يعرف بعلم الأخلاق.

أما الفقه، فهو العلم بأحكام الشريعة التي تتناول أحكام الإنسان وتصرفاته، سواء في هذا العبادات والمعاملات على اختلاف ضروبها، مثل الحكم بأن هذا التصرف جائز أو غير جائز، وهذا العقد صحيح أو غير صحيح.

وأما أصول الفقه، فهي علم مؤداه ـ كما يقول ابن خلدون في مقدمته ـ النظر في الأدلة الشرعية من حيث تؤخذ منها الأحكام والتكاليف،

(*) العدد الرابع من سلسلة الثقافة الإسلامية ـ لمحمد عبد الله السمان سنة ١٩٥٨ ـ القاهرة.

ثم يقول : « واعلم أن هذا الفن من الفنون المستحدثة في الملة، وكان السلف في غنية عنه، فلما انقرض السلف وذهب الصدر الأول، انقلبت العلوم كلها صناعة.. احتاج الفقهاء والمجتهدون إلى تحصيل هذه القوانين والقواعد، لاستفادة الأحكام من الأدلة، فكتبوها فناً قائماً برأسه، سموه أصول الفقه ».

إن ما قاله ابن خلدون في العبارات الأخيرة، هو بيت القصيد، إنه يؤكد لنا أن فقهاء المسلمين لم يقفوا مكتوفي الأيدي إزاء تطور الحياة، لقد أدى بهم الفكر الحضاري الذي كان لديهم أن يبتكروا طرقاً جديدة في الأدلة، ومهما بلغ اختلافهم عليها، فهي عمل له تقديره، وجهد فكري له إكباره، إذ ليس عجيباً أن تختلف آراء الفقهاء، بل العجيب ألا يختلفوا، لأننا نعد الخلاف بين الفقهاء في الرأي أحد مقاييس الفكر الحضاري لديهم.

ويجدر بنا ثانية أن نلم إلمامة يسيرة ببعض طرق الاستدلال لبيان مفاهيمها ومضامينها، ولكي يتضح لنا أن الفكر الحضاري لدى فقهاء المسلمين كان وسيلتهم إلى إدراك مقاصد الشريعة، وأهمها : المرونة والتيسير، لا الجمود والتضييق. ومما لا يجهله مسلم، أن المصدرين الأساسيين المجمع عليهما هما : الكتاب والسنة. لذلك نمر مروراً عاجلاً بطرق الاستدلال المختلف عليها ومنها :

١ ـ الإجمــاع :

« وهو اتفاق المجتهدين من الأمة الإسلامية ـ في عصر ـ على الحكم في أمر من الأمور ».

وهذا التعريف أصح تعريف ـ كما يقول الشيخ أبو زهرة[*] ـ وهو الذي اختارته الجمهرة الكبرى من علماء الأصول، وهو الذي ذكره الشافعي في رسالته.

هذا ويعتبر الإجماع : القولي منه أو السكوتي ـ أصلاً من أصول الفقه الحنفي ويعتبر كذلك عند مالك، وإن كان يراه إجماع أهل المدينة، وخالفه الفقهاء والشافعي، واما الإمام أحمد فيقرر مع شيخه الشافعي ـ أن

(*) « أبو حنيفة للشيخ أبي زهرة، القاهرة ١٩٥٥.

الاجماع حجة، ولكن لا يقبل ممن يدعيه ويقدمه على النصوص لمجرد تلك الدعوى، وربما ـ لذلك ـ لم يعد ابن القيم « الإجماع » ضمن أصول الفقه الحنبلي، بينما نرى الامام ابن تيمية في فتاواه أكثر توضيحاً للقضية حيث يقول في الجزء الأول : « معنى الإجماع : أن يجتمع علماء المسلمين على حكم من الأحكام، واذا ثبت إجماع الأمة على حكم من الأحكام، لم يكن لأحد أن يخرج عن إجماعهم، فإن الأمة لا تجتمع على ضلالة، ولكن كثيراً من المسائل يظن بعض الناس فيها إجماعاً، ولا يكون الأمر كذلك، بل يكون القول الآخر أرجح ».

٢ ـ القيـــاس :

هناك تعريف جامع مانع للقياس، مؤداه : أنه بيان حكم أمر غير منصوص على حكمه بأمر معلوم حكمه بالكتاب، أو السنة، أو الإجماع، لاشتراكه معه في علة الحكم، « إلا أن الأصوليين قد اختلفوا في تعريف القياس تبعكا لاختلافهم في مضمونه : أهو دليل شرعي كالكتاب والسنة، نظر فيه المجتهد أو لم ينظر، أو هو عمل من أعمال المجتهد فلا يتحقق إلا بوجوده ؟ »[١].

لقد أكثر الإمام أبو حنيفة من الأخذ بالقياس، وهذا شيء بدهي، فاجتهاد الإمام ومسلكه في فهم النصوص، مع البيئة التي عاش فيها ـ كما يقول الشيخ أبو زهرة ـ من شأنه أن يجعله يكثر من القياس، وهكذا كان شأن الإمام مالك، كان القياس أمـراً لا بد منه لمثله، فقد تصدى الإمام للفتوى أكثر من نصف قرن، وكان يقصد من مشارق الأرض ومغاربها للاستفتاء، أما الشافعي فيكفي أنه كان أول من ضبط قواعد القياس وبين أسسه، وأما الامام أحمد فمجمل موقفه من القياس : أنه يقول به، ولكن لا يتوسع فيه، وعندما يأخذ به يأخذ به عند الضرورة، وهناك كلمة مشهورة عنه : إن القياس لا يستغني عنه فقيه، ويرى الشيخ أبو زهرة في مؤلفه عن

---

(١) مذكرة في أصول الفقه للدكتور محمد أبو النور ــ القاهرة ١٩٥٣م.

ابن حنبل : أنه كان في موقفه من القياس بين ذلك قواماً، فهو لم ينف القياس نفياً باتاً كما فعل الظاهرية الذين حكموا بالنصوص دون سواها، ولم يغال في القياس مغالاة العراقيين الذين وقفوا العلل المطردة ـ في زعمهم ـ في مقام المعارضة للنصوص وفتاوى الصحابة ».

٣ ـ الاستصحاب :

عرفه ابن القيم في « أعلام الموقعين : أنه استدامة إثبات ما كان ثابتاً، أو نفي ما كان منفياً، بمعنى بقاء الحكم القائم نفياً وإثباتاً، حتى يقوم دليل على تغيير الحالة........ ».

وبعبارة أخرى : أن كل أمر علم وجوده ثم حصل الشك في عدمه، فإنه يحكم ببقائه ـ بطريق الاستصحاب ـ لذلك الوجود حتى يقوم دليل على تغيير الحال، وكل أمر علم عدمه ثم حصل الشك في وجوده، فإنه يحكم بعدمه بطريق الاستصحاب لذلك العدم، إلى أن يقوم دليل على تغيير الحال »[١].

هذا وقد اختلف الفقهاء الأُصوليون في حجية الاستصحاب، فمنهم من ذهب إلى أن الاستصحاب حجة صالحة في حالتي النفي والإثبات، ومن متأخري الحنفية من اعتبر الاستصحاب حجة ـ فحسب ـ في النفي الأصلي، مثال الحكم ببراءة الذمة حتى يقوم الدليل على شغلها، أما بعض المتكلمين، وأكثر الأُحناف، فعلى أن الاستصحاب ليس بحجة أصلاً، لا لإثبات أمر لم يكن، ولا بقاء ما كان على ما كان.

٤ ـ الاستقراء :

جاء في « المستصفى » للغزالي، وغيره : أن الاستقراء هو تتبع أمور جزئية ليحكم بحكمها على أمر كلي يشغلها، على عكس القياس عند المناطقة، حيث أن القياس عندهم عبارة عن الاستدلال بثبوت حكم الكلي على ثبوته للجزئي.

---

(١) بحوث في الأدلة المختلف فيها عند الأصوليين، للدكتور محمد السعيد عبد ربه ـ القاهرة ـ ١٩٧٧م.

هذا ويقسم الأُصوليون الاستقراء على قسمين : استقراء تـام، يفيد القطـع في إثبات الأحكام باتفاق العلماء وهو عبارة عن تتبع جميع الجزئيات ليحكم بحكمها على أمر كلي يشملها، ثم استقراء ناقص مختلف في إفادته للحكم عند الأُصوليين، وهو عبارة عن تتبع أغلب الجزئيات، ليحكـم بحكمها على أمر كلي يشملها، ولذا كان يفيد الظن[1].

٥ ـ الاستحســـان :

خلاصة أقوال علمـاء الأُصول في الاستـحسان : هو أن يعـدل المجتهد عن الحكم في المسألة بمثل ما حكـم به في نظائرها، لوجه أقوى يقتضي العدول عن الأول.

هذا التعريف قال به أبو الحسن الكرخي الحنفي، ولفقهاء المالكية تعريفات أخرى للقاضي ابن العربي وأشهب وابن رشد، وللحنابلة والشافعية تعريفاتهم أيضاً، وكلها تعريفات متقاربة.

أما موقف الفقهاء من الاستحسان، فبينما الأحناف والمالكية يعتبرونه حجة حتى لقد نسب إلى الإمام مالك قوله : الاستحسان تسعة أعشار العلم، إذ رفض الشافعية الاستحسان كحجة، حتى لقد نسب إلى الإمام الشافعي قوله : « من استحسن فقد شرع ». وأما الحنابلة فهم بين مؤيد للاستحسان وبين منكر له، ومما هو جدير بالذكر، أن لكل من مؤيدي الاستحسان ومعارضيه أدلته من الكتاب والسنة والإجماع.

٦ ـ المصالـح المرسلـة :

عرف الغزالي المصلحة في كتابه « المستصفى » : بأنها جلب منفعة أو دفع مضرة، هذا في الأصل، وليس هذا هو المقصود، فإن جلب المنفعة ودفع المضرة مقاصد الخلق، وصلاح الخلق في تحصيل مقاصدهم، لكن معنى المصلحة هو المحافظة على مقصود الشرع، ومقصود الشرع من الخلق خمسة، وهو أن يحفظ عليهم : دينهم وأنفسهم وعقلهم ونسلهم

---

(١) المرجـع السـابـق.

ومالهم، فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول فهو مصلحة وكل ما يفوت هذه الأصول فهو مفسدة ودفعه مصلحة ».

هذا وللأصوليين تعريفات أخرى للمصلحة، وتقسيمات لها، وآراء في حجيتها وعدم حجيتها، والذين أقروا بحجيتها منهم، اشترطوا شروطاً يجب توافرها، ومن الذين قالوا بأنها لا تصلح أن تكون حجة مطلقة، الحنفية وجمهور الشافعية وبعضِ المالكية بالإضافة إلى أهل الظاهر.

ولقد كتب الشيخ محمد أبو زهرة ـ رحمه الله ـ بياناً مفصلاً عن المصالح المرسلة في مؤلفه القيم عن الإمام مالك، وفي هذا البيان غناء وشفاء، وقد ختم بيانه بخلاصة رأيه، ومؤداه : أن مقام المصلحة في الفقه الإسلامي هو المقصد الأول من شرائعه في معاملات الناس، قد أجمع الفقهاء على اعتبارها ـ أي المصلحة ـ واتفقوا على الأخذ بها، وكان اختلافهم ـ لا في إثبات أصلها ـ بل في مقدار اعتمادهم على العقل وحده في إدراكها من غير استعانة بالنصوص.

٧ ـ الأخذ بأقل القليل :

إن مضمون هذا، هو أن توجد للفقهاء عدة أقوال في مسألة من المسائل، وليس هناك دليل من كتاب أو سنة يدل على واحد منها، أو يرجح أحد هذه الأقوال على الآخر، وتكون ـ أي الأقوال ـ متفقة ضمناً على قسط معين فيما بينها، وهو الأقل، ومختلفة فيما زاد عنه، فيتمسك بهذا القسط الذي هو أقل ما قيل من الأقوال.

ويشير الدكتور محمد السعيد عبد ربه في مؤلفه : « بحوث في الأدلة المختلف فيها عند الأصوليين »، إلى أن هذا الدليل بحثته كتب أصول الشافعية، واعتبر حجة في إثبات الأحكام الشرعية، وأنه أصل من الأصول المقبولة عند الإمام الشافعي، وقد اشترطوا للعمل به شروطاً ثلاثة :

أ) ألا يوجد دليل غيره يدل على اعتبار الأقل أو الأكثر.

ب) ألا تكون الذمة مشغولة بما ورد فيه الخلاف، فإن كانت الذمة مشغولة بالمختلف فيه، أخذ بالأكثر، لأنه الأحوط حينئذ.

جـ) أن تنحصر الأقوال بحيث يكون الأقل جزءاً من الأكثر ومتفقاً عليه بين جميع أصحاب الأقوال في المسألة ـ وبعبارة أخرى : أن يكون مجمعاً عليه ضمن هذه الأقوال.

ومثال ذلك : اختلاف الفقهاء في دية الكتابي، على ثلاثة أقوال : ثلث دية المسلم، ونصف ديته، ثم ديته، فاختار الشافعي ثلث دية المسلم للكتابي، لأن هذا القدر مجمع عليه من الفقهاء.

٨ ـ قـول الصحـابي :

من المسلم به عند الأصوليين : أن مذهب الصحابي في مسألة من المسائل الاجتهادية ليس حجة على صحابي مجتهد آخر، لأن مخالفة الصحابة بعضهم بعضاً جائز، إذ لو كان مذهب الصحابي حجة على غيره لما جاز لغيره مخالفته، واتفق الصحابة على أن رأي الصحابي لا يكون أيضاً حجة إذا ظهر رجوعه عنه، فإذا كان رأي الصحابي عن سماع من الرسول، فهو من قبيل السنة ويجب قبوله، أما إذا صدر قول الصحابي عن الرأي والاجتهاد فهل يكون حجة على من جاء بعده من المجتهدين كالتابعين مثلاً ؟.

هنـاك آراء ثلاثة :

أ) رأي يقول : إنه حجة مطلقاً خالف القياس أو وافقه، وعلى هذا الرأي مالك كما هو منسوب إليه، وبعض أصحاب أبي حنيفة، والشافعي في المذهب القديم، وبعض روايات عن الإمام أحمد.

ب) رأي يقول : إنه ليس بحجة مطلقاً، وهذا الرأي منسوب إلى جمهور الأشاعرة والمعتزلة، وإلى الإمام الشافعي في الجديد، وإلى الإمام أحمد في إحدى الروايتين عنه، ثم لأبي الحسن الكرخي من الحنفية.

جـ) رأي يرى : أنه يكون حجة إذا خالف القياس، ولا يكون حجة إذا وافق القياس(*).

(*) الأحكام وإعلام الموقعين وغيرهما.

٩ ـ إجمـاع أهل المدينـة :

في الأحكام للآمدي، هو اتفاق المجتهدين من أمة محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ في عصر من العصور، بعد وفاته على حكم شرعي، لواقعة من الوقائع.

ويرى بعض الفقهاء أن إجماع أهل المدينة مقيد بالقرون الثلاثة التي جاءت بعد وفاة الرسول للحديث الوارد : « خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم »، والحديث في صحيح البخاري وغيره، ومن هؤلاء الفقهاء ابن تيمية، حيث ورد في كتاب « **صحة أصول مذهب أهل المدينة** ».

والمعروف أن الإمام مالكاً هو الذي ذهب إلى أن إجماع أهل المدينة حجة ملزمة لغيرهم، بل إن الإمام مالكاً قدمه على القياس، وعلى خبر الآحاد، وخالفه جمهور الفقهاء : الحنفية والشافعية والحنابلة، وقالوا : إن إجماع أهل المدينة ليس بحجة على من خالفهم.

١٠ ـ العــــرف :

جاء في « المستصفى » للغزالي : أن العرف والعادة، ما استقر في النفوس من جهة العقول، وتلقته الطباع السليمة بالقبول.

وخلاصة موقف الفقهاء من العرف : أن أبا حنيفة يأخذ بالعرف مصدراً من مصادر الاستنباط، وأصلاً من الأصول، ولكنه لا يرجع إليه إلا إذا لم يكن سواه، بمعنى إذا لم يكن ثمة نص من كتاب أو سنة، ولا إجماع، ولا حمل على النصوص بطريق القياس أو الاستحسان بشتى طرائقه.

ومذهب مالك موافق للأحناف، بل إن مالكاً أكثر أخذاً بالعرف، إلى درجة ترك القياس إذا خالف العرف، واعتبار العرف مخصصاً للعام، ومقيداً للمطلق، والشافعية يقولون بالعرف إذا لم يكن هناك نص محرم. وكذلك بعض فقهاء الحنابلة.

١١ ـ سـد الذرائـع :

الذريعة هي الوسيلة، وسد الذرائع رفعها، ومؤدى هذا : أن وسيلة

المحرم محرمة، ووسيلة الواجب واجبة، فالفاحشة مثلاً حرام، فيكون النظر إلى عورة الأجنبية حرام، والجمعة مثلاً فرض، فيكون السعي إليها فرض كذلك، يقول ابن القيم في « اعلام الموقعين » : (ولما كانت المقاصد لا يتوصل إليها إلا بأسباب وطرق تفضي إليها، كانت طرقها وأسبابها تابعة لها معتبرة بها)، ومعنى هذا أن مبدأ الذرائع، لا ينظر ـ فحسب ـ إلى النيات والمقاصد الشخصية، بل المقصود هو النفع العام أو دفع الفساد العام أي النظر إلى المآلات والنتائج. فالله سبحانه نهى عن سب الأوثان، بالرغم من أنها باطل في باطل، فقال تعالى : « ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله، فيسبوا الله عدواً بغير علم »........ فمنع الجائز لدفع ضرر هنا.

أما مواقف الفقهاء من سد الذرائع، فالإمام مالك أكثر من العمل به، وتلاه في ذلك أحمد بن حنبل، ويخالفهما في ذلك أبو حنيفة والشافعي، ويرى بعض الفقهاء أن من أسباب انتشار مذهبي مالك وأحمد، الأخذ بسد الذرائع.

١٢ ـ شــرع من قبلنــا :

أي ما نقل إلينا من الأحكام التي شرعها الله ـ عن طريق أنبيائه ورسله ـ للأمم السابقة، فهل مثل هذه الشرائع مشروعة لنا أيضاً فيلزمنا العمل بها أم غير مشروعة لنا، فلا يلزمنا العمل بها ؟.

ومؤدي مواقف الفقهاء من هذا، آراء ثلاثة، كما في الأحكام للآمدي وغيره :

أ)القبـول، وهو المختار عند الأحناف والمالكية.

ب)الرفض، وهو عند الشافعية.

جـ)الرفض والقبول، في روايتين عن الإمام أحمد.

* * *

عرضنا لبعض الأدلة المختلف فيها عرضاً سريعاً، لأننا نهدف ـ فحسب ـ إلى إبراز ثراء الفقه الإسلامي في المجال الخاص بالأصول، وأصول الفقه هي الروافد التي أمدت الفقه ذاته بالثراء العريض. هذا الثراء نتج

عن فكر حضاري لدى فقهاء المسلمين أنفسهم، والمعروف أن الإمام الشافعي ـ كما يقول الشيخ أبو زهرة* : كان فقهه يمثل تمام التمثيل الفقه الإسلامي في عصر ازدهاره وكمال نموه. فهو يجمع بين فقه أهل الرأي وفقه أهل الحديث بمقادير متعادلة، وهو الفقيه الذي ضبط الرأي، ووضع موازين القياس، وأول من حاول ضبط السنة ووضع موازين لها ومقاييس، ووضع الطرق لفهم الكتاب والسنة، وبيان الناسخ والمنسوخ، وبهذه المحاولات، وسائر ما وضعه من أصول الفقه، قد وضع المبادىء الثابتة لصناعة الاستنباط، وأصول التخريج. والمعروف أن الإمام الشافعي الذي ولد سنة ١٥٠ هـ، قد دون ما دون بعد عصر الصحابة وعصر التابعين، وأثبت أن الفقه الإسلامي لم يعرف ولن يعرف الجمود، بل شأنه الحركة الدائبة لتدوم له الحياة، ويدوم له البقاء.

وحسبنا أن نرجع إلى التراث الذي تركه لنا الفقهاء الأوائل وتلامذتهم من بعدهم، في مصادر الفقه وطرق الاستدلال والاستنباط، ليتأكد لدينا أن هذاالتراث ليس إلا ثمرة فكر حضاري، لنا مثلاً أن نرجع إلى « الاستصحاب » لنرى فقهاء الأصول قد عرضوا لأنواعه، أو أدلوا بأدلتهم قبولاً ورفضاً، ووسطاً بين القبول والرفض، ثم قعدوا القواعد الفقهية المبنية على القول بالاستصحاب ومنها : الأصل بقاء ما كان على ما كان حتى يثبت ما يغيره ـ أن ما يثبت بيقين لا يزول إلا بيقين مثله ـ أن كل شيء لم يقم فيه دليل شرعي يبقى على حكم الأصل. ولنا أيضاً أن نرجع إلى المصالح المرسلة « لنرى الأصوليين قد قسموا « المصلحة » إلى مصلحة ضرورية، وحاجية، وتحسينية، أو تزيينية، أو كمالية، وهذا تقسيم للمصلحة من حيث قوتها في ذاتها، وهناك تقسيم ثان لها من حيث الشمول، فمنها ما يتعلق بمصلحة عامة في حق الخلق كافة، ومنها ما يتعلق بمصلحة الأغلب، ثم منها ما يتعلق بمصلحة لشخص معين في واقعة نادرة. أما التقسيم الثالث، فهو من حيث اعتبار الشارع لها وعدم اعتباره لها، فمنها المصلحة

(*) الشافعي لأبي زهرة ـ القاهرة ١٩٦٧ م.

المعتبرة، وهي التي يرجع حاصلها إلى القياس، ومنها المصلحة التي شهد الشرع لبطلانها، ثم منها المصلحة المرسلة، وهي مما لم يشهد الشرع لا لبطلانها ولا لاعتبارها.

أجل حسبنا أن نرجع إلى هذا التراث الفكري الحضاري، الذي أكده تعمق الفقهاء المسلمين في البحث والاستقصاء وغزارة الإعطاء، لقد دونوا المدونات في كل دليل من الأدلة واجتهدوا واختلفوا، فكانت اجتهاداتهم واختلافاتهم دليلاً على عقلية متقدمة متطورة، وفكر حضاري مستنير.

ثانياً : الاجتهاد لدى الفقهاء :

يقول الدهلوي :

« حقيقة الاجتهاد : استفراغ الجهد في إدراك الأحكام الشرعية التفصيلية الراجعة كلياتها إلى أربعة أقسام : الكتاب والسنة، والإجماع والقياس ».

ويقول الغزالي : إنما يحصل الاجتهاد ـ في زماننا ـ بممارسة الفقه، وهي طريق تحصيل الدراية في هذا الزمان، ولم يكن الطريق في زمن الصحابة رضي الله عنهم ذلك.

ويسجل الدهلوي في رسالته شروط الإمام البغوي صاحب معالم التنزيل في التفسير ـ في المجتهد، فالمجتهد عند الإمام البغوي، هو من جمع خمسة أنواع من العلوم :

أ) علم كتاب الله : يعلم الناسخ والمنسوخ، والمجمل والمفصل، والخاص والعام، والمحكم والمتشابه، والكراهة والتحريم، والإباحة والندب والوجوب.

ب) علم السنة، ما يعلمه من القرآن، ويعرف منها الصحيح والضعيف، والمسند والمرسل........ إلى آخره.

جـ) أن يعلم أقاويل السلف، إجماعهم واختلافهم.

د) علم اللغة.

هـ) علم القياس.

هذا وقد قسم الفقهاء المجتهدين إلى قسمين : مجتهد مطلق، وهو المتبحر في شتى مذاهب الفقهاء، ومجتهد منتسب، أي من سلم بأصول شيخه، واستعان بكلامه كثيراً في تتبع الأدلة، وهناك المجتهد في المذهب، المقلد لإمامه فيما ظهر فيه نصه، ودون هؤلاء في المرتبة، مجتهد الفتيا، وهو المتبحر في مذهب إمامه، المتمكن من ترجيح قول على آخر[1].

إن الاجتهاد قضية مسلم بها، كان أصحاب رسول الله يجتهدون، وكان عهد عمر هو عهد الاجتهاد الذهبي، كان الصحابة ــ بعد لحوق الرسول بالرفيق الأعلى ــ متفقين في الاعتماد على الكتاب أولاً، وثانياً على السنة الصحيحة إن وجدت، وإلا اتجه المشهورون من فقهائهم إلى الاجتهاد في الرأي، وقد بلغ من حرص بعض أصحاب الرسول على التحري من الأحاديث النبوية أنهم كانوا يؤثرون الفتاوى بآرائهم، على أن يتحملوا تبعة الأحاديث، ولقد قال ابن مسعود بعد أن أفتى في مسألة برأيه : « أقول هذا برأيي، فإن كان صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان ».

إن الاجتهاد لم ينقطع منذ عصر الصحابة حتى عصر التدوين وما بعده، فهو يمثل ضرورة تهب للفقه الإسلامي التطور والبقاء، وها هو ذا الشهرستاني يقرر في كتابه : الملل والنحل : أن الحوادث والوقائع في العبادات والتصرفات مما لا يقبل الحصر والعدد، ونعلم ــ قطعاً ــ أنه لم يرد في كل حادثة نص ولا يتصور ذلك أيضاً، والنصوص إذا كانت متناهية، والوقائع غير متناهية، وما لا يتناهى لا يضبطه ما يتناهى، علم قطعاً أن الاجتهاد والقياس واجب الاعتبار حتى يكون بصدد كل حادثة اجتهاد، ومن أجل ذلك كان الصحابة بعد وفاة النبي ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ أمام حوادث لا تتناهى، ولا تحصر، فإذا لم يجدوا لا في كتاب الله ولا في سنة رسوله ما يحكمون به على حادثة من الحوادث اجتهدوا آراءهم، ومثلهم في ذلك مثل القاضي المقيد بنصوص قانون، إذا لم يجد في النص ما يحكم به في قضية بين يديه طبق ما يراه عدلاً وإنصافاً.

---

(١) « عقد الجيد في الاجتهاد والتقليد » سلسلة الثقافة الإسلامية رقم ٥١ ــ القاهرة ١٩٦٥ م.

وإذا كان الاجتهاد أمراً مقرراً في الإسلام، فما هو ليس بمقرر إنما هو التقليد، فنحن إذا نظرنا إلى أصحاب المذاهب الفقهية المشهورة وفي مقدمتهم الفقهاء الأئمة الأربعة : أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد، نجد جميعهم لا يقرون أحداً على تقليدهم، وحسبنا أن مثل أبي حنيفة ومثل الشافعي لم يدونا مذهبيهما في الفقه بل تلامذتهم من بعدهم، وأن الشافعي عندما دخل عليه الربيع ــ وهو مريض ــ فذكر ما وضع من كتبه، قال ــ أي الشافعي : « لوددت أن الخلق تعلمه، ولم ينسب إلي منه شيء أبداً »، بل كان يقول : « كل ما قلت لكم ــ فلم تشهد عليه عقولكم وتقبله ــ فلا تقبلوه، فإن العقل مضطر إلى قبول الحق ». وان الإمام أحمد كان يوصي أصحابه : « لا تقلدوني ولا مالكاً ولا الشافعي ولا الأوزاعي، وخذوا من حيث أخذوا »، بل إن هناك ما هو أدق في التحرز من التقليد، أن أبا حنيفة مثلاً كان يأخذ برأي الصحابي، وهو حر بالأخذ بآراء التابعين، ويقول : هم رجال ونحن رجال، وان لنا أن نجتهد كما اجتهدوا، وكان كذلك مالك، إلا أن بعض التابعين كان لهم عند مالك اعتبارهم، لمقامهم في الفقه أو لسابقاتهم في الإسلام. وكان موقف الشافعي : أولاً من أقوال الصحابة، إن وجدهم مجمعين اعتبر اجتماعهم حجة، وان وجدهم مختلفين اختار من أقوالهم ما يراه أقرب إلى الكتاب والسنة وأصحَّ في القياس، وذلك ميدان للاجتهاد متسع الآفاق، أما أقوال التابعين فلا مكان لها في أصول مذهب الشافعي، والتي حصرها في الكتاب والسنة والاجماع وأقوال الصحابة والقياس ».

أما الأمام أحمد، فهو أكثر الأئمة أخذاً بأقوال التابعي، لأنه كان في معظم الأحايين يباعد الاجتهاد بالرأي تورعاً، لذلك ــ كما يقول الشيخ أبو زهرة ــ كان يقبل فتاوى بعض كبار التابعين كابن المسيب، وغيره من فقهاء المدينة السبعة الذين انتهى إليهم عمر وابن عمر، لكنه لم يكن يأخذ بهذه الأقوال على أنها أصل فقهي، بل للاحتياط والاستئناس.

كان باب الاجتهاد مفتوحاً على مصراعيه في عهد الصحابة والتابعين وتابعي التابعين، وعدة أجيال أخرى بعدهم، لكن فريقاً من العلماء المتأخرين

أوهموا أنفسهم أولاً ثم أوهموا الناس ثانياً أن باب الاجتهاد قد أغلق نهائياً، ومثل هذا الوهم، كان أحد المعوقات لمسار الفقه الإسلامي ليأخذ مكانه اللائق به في حياة الأمة المسلمة، ولا جدال في أن القائلين بغلق باب الاجتهاد، برهنوا على عجزهم الفقهي وقصورهم الفكري. ومثل هذا الكلام سبق للغزالي أن قاله منذ عشرة قرون، وقاله غيره ـ قال :

« والمجتهد لا يكاد يوجد من أمد بعيد، لتوقف الاجتهاد على أمور يتعسر وجودها لشخص ما في تلك الأزمنة، ليس ذلك لاستحالته عقلاً، لأنه أمر يمكن في ذاته فلا مانع من تحققه لمن أراد الله من عباده، وإنما ذلك لقصور الهمم، وتقاصر العزائم عن البحث والتنقيب ».

وشاء الله بعد زهاء قرنين من وفاة الغزالي أن يوجد فقيه مجتهد يرد إلى الاجتهاد اعتباره، أنه ابن تيمية الفقيه المستقل الرأي والفكر والتفكير، يقول الشيخ أبو زهرة ـ رحمه الله :

« وإن القارىء لفقه ابن تيمية، يلمح فيه عقلية المجتهد الذي تحرر من القيود المذهبية في دراسته، ولا يلمح فيه المقلد التابع من غير بينة وبرهان، فهو في فتاواة متخير مستنبط، كما هو في اختياراته، بيد أنه في اختياراته لا يتقيد بمذهب، وفي فتاواة يتقيد بالمذهب الحنبلي، وترى أنه في مقارناته فقيه مستنبط، عليم بأوجه القياس ومصادر الشريعة ومواردهـا، مستقيم المنهاج في المقارنة ».

ولقد حمل ابن القيم رحمه الله على التقليد بغير دليل حملة قاسية، وكذلك الشوكاني، وغيرهما من الأئمة الفقهاء، ونعى الشيخ المراغي شيخ الأزهر الأسبق[1] على العلماء الذين يرفضون الوثوق بأقوال غير الأئمة الأربعة : أبي حنيفة ومالك، والشافعي وأحمد، لأنه ـ على حد تعبيرهم ـ لا توجد كتب مدونة لنقل مذاهبهم، وان وجدت فلا يمكن الثقة بها، لأنها لم تنقل إلينا بطريق موثوق به، ولم ينقلها الناس عن الشيوخ، فهي كتب منقطعة الإسناد. ويعقب الشيخ المراغي بقوله : « إن أمهات الكتب في جميع العلوم ما عدا الحديث ـ منقطعة الإسناد، فهل نرد الكتب التي تيسرت لنا، أو نرد

(١) الاجتهاد في الإسلام : سلسلة الثقافة الإسلامية رقم ١١ ـ القاهرة ١٩٥٩ م.

كل الكتب المذخورة من أسلافنا في المكاتب في العالم جميعه، لأنها كتب منقطعة الإسناد ؟ هل نرد مثال : كتاب « الأم » للإمام الشافعي، و « المدونة » للإمام مالك، ومثال « المبسوط » و « بدائع الصانـع »، و « الموافقات »، و « دلائل الإعجاز »، و « لسان العرب »، وكل كتاب طبع أو لم يطبع بعد، لأن هذه الكتب لا يوثق بها لعدم تلقيها عن الشيوخ، ولأنها كتب منقطعة الإسناد.

لقد قال الامام محمد عبده في تعليقاته على « العقائد العضدية » :

(ومن المعلوم أن من سلك طريق الاجتهاد، ولم يعول على التقليد في الاعتقاد، لم تجب عصمته ، فهو معرض للخطأ، ولكن خطأه عند الله واقع موقع القبول حيث كانت غايته من سيره، ومقصده من تمحيص نظره، أن يصل إلي الحق، ويدرك ويستقر اليقين).

* * *

ثالثاً : الخلاف بين الفقهـاء :

من المسلمات في تاريخ التشريع الإسلامي، أن الخلاف في الرأي كان قائماً في عهد أصحاب رسول الله ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ فما انقضى عهد النبوة حتى تفرقوا في البلاد ـ كما يقول الدهلوي[1] ـ وصار كل واحد مقتدي ناحية من النواحي فكثرت الوقائع، ودارت المسائل، فاستفتوا فيها، فأجاب كل واحد حسب ما حفظه واستنبطه، وان لم يجد ما يصلح للجواب، اجتهد برأيه، وعرف العلة التي أدار رسول الله ﷺ عليها الحكم في منصوصاته فطرد الحكم حيثما وجدها لا يألو جهداً في موافقة غرضه عليه السلام، فعند ذلك وقع الاختلاف بينهم ».

ثم يشير الدهلوي إلى أنه، إزاء اختلاف مذاهب الصحابة، وجدت للتابعين مذاهبهم المختلفة، وانتصب في كل بلد إمام مثل : سعيد بن المسيب، وسالم بن عبد الله بن عمر في المدينة، وعطاء بن أبي رباح بمكة، والنخعي والشعبي بالكوفة، والحسن البصري بالبصرة، وطـاوس باليمـن،

---

(١) الانصاف في بيان أسباب الخلاف ـ سلسلة الثقافة الإسلامية رقم ٥٠ ـ القاهرة ١٩٦٥م.

ومكحول بالشام، فأظمأ الله أكباداً إلى علومهم، فرغبوا فيها، وأخذوا عنهم الحديث وفتاوى الصحابة وأقاويلهم ».

ويقول الشيخ أبو زهرة في مؤلفه عن أبي حنيفة :

« لقد وجد من لدن وفاة النبي ﷺ إلى عصر الشافعي، جماعة من الفقهاء اشتهروا بالرأي، وجماعة اشتهروا بالرواية، فكان من فهاء الصحابة من اشتهر بالرأي، وجماعة منهم اشتهروا بالحديث وروايته، وكذلك التابعون وتابعوهم، ثم الأئمة المجتهدون، وفقهاء الأمصار، هذا وقد جاء في كتاب عمر لأبي موسى الأشعري : الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة، اعرف الأشباه والأمثال وقس الأمور عند ذلك ».

وليس عجيباً بعد ذلك أن نرى خلافاً بين مالك وأبي حنيفة، وبين الشافعي ومالك، وبين أحمد والشافعي، وأن تلميذي أبي حنيفة : أبا يوسف ومحمد بن الحسن يختلفان مع شيخهما، وأن يختلف أحمد مع الشافعي، مع تقديره للشافعي، كان أحمد يقول : « الشافعي رحمة من الله لأمة محمد، وما رأيت أحداً أفقه في كتاب الله من هذا الفتى القرشي » ـ يعني الشافعي، رحمهم الله جميعاً.

ويعتبر ابن تيمية متتلمذاً على أحمد، وابن القيم متتلمذاً على ابن تيمية، والشوكاني متتلمذاً على ابن القيم، ومع هذه التلمذة، لم يكن هناك مانع يحول دون وقوع الخلاف في الرأي، لقد كان للإمام أحمد موقف وسط من القياس، فلم ينفه نفياً باتاً كالظاهرية الذين حكموا النصوص دون غيرها، ولم يغال ـ من جهة أخرى ـ مغالاة العراقيين، إلا أن تلامذته من بعده أعطوا القياس من العناية أكثر مما أعطى هو، وقد دفعتهم إلى ذلك حاجة الزمان ـ كما يقول الشيخ أبو زهرة ـ فإن الناس قد جدت لهم أحداث اضطروا فيها إلى أن يفتوا، وأن يقيسوا على فتاوى الصحابة والأمور المنصوص على حكمها، واضطروا إلى أن يخرجوا على أقوال إمامهم، ولقد خص الامامان : ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، خصا القياس في الفقه الإسلامي ببيان أوفى، وأن ابن تيمية ـ رحمه الله ـ كان مثلاً يتردد في قبول المصلحة أصلاً من أصول الاستدلال، مع أن المنصوص عليه عن الحنابلة

قبول ذلك الأصل والأخذ به، قال : « القول الجامع أن الشريعة لا تهمل مصلحة قط، بل إن الله تعالى قد أكمل هذا الدين وأتم النعمة ». وعلى أساس هذا القول تكون المصالح المعتبرة عند ابن تيمية كلها يشهد لها دليل من الشارع، وتدخل في عموم القياس، ولن تجد من بعد مصلحة لا يمكن أن تدخل في قياس.

وإذا كان من المسلمات وقوع الخلاف في الرأي بين سائر الأئمة المجتهدين من أصحاب المذاهب في العديد من المسائل الفقهية، بل في مصادر الشريعة وأصول الفقه، وطرق الاستدلال والاستنباط، فمما لا جدال فيه أيضاً أن التابعين لهذه المذاهب الفقهية لم يسيروا فيها جامدين، بل لقد كانت لهم اجتهاداتهم، يقول الشيخ أبو زهرة[1] :

« ويخطىء من يقول : إن التابعين لمذهب من المذاهب كانوا يسيرون فيه جامدين، بل إنهم كانوا يحيون المذهب، ويجددونه في كل عصر من العصور، بما جد من ألوان فكرية، ويفتون فيما يقع من الحوادث بما يتفق مع الحال، ويصلح المآل، وأحياناً كانوا يخالفون إمامهم، ويقولون : هذا اختلاف زمان لا اختلاف برهان، ولو كان الإمام في عصرنا لقال مثل قولنا، ألم تر المالكية والشافعية أفتوا في القرن الرابع بميراث ذوي الأرحام، واختاروا طريق الحنابلة، وخالفوا بذلك الإمامين مالكاً والشافعي، وكان وجه المخالفة فساد بيت المال في عصرهم، وأنه لم يعط ذوي الحقوق حقوقهم فأفتوا بما يتفق مع الحال، ولم يتقيدوا بالنصوص عن الإمامين الجليلين، وعلموا أن الامامين لو كانا في عصرهم لقالا مثل مقالهم، وقبسا من أقرب المذاهب إلى الأثر وهو مذهب أحمد ».

إن الخلاف بين فقهاء المسلمين في الرأي، دليل على ما كان يتمتع به هؤلاء الفقهاء من عقليات ناضجة، وفكر حضاري متقدم، وقدرات فائقة في البحث والاستقصاء ومجالات من الدرس والتحصيل للعلم والمعرفة، تثير الدهشة والعجب. وطاقات تجل عن الوصف في استخراج الأدلة واستنباط

---

(١) ابن تيمية ، القاهرة ١٩٥٢ م.

الأحكام، حسبنا أن نقرأ كتاباً واحداً من كتب التراث الإسلامي للفقيه العالم البطليوسي المتوفى سنة إحدى وعشرين وخمسمائة من الهجرة، والكتاب هو : « التنبيه على الأسباب التي أوجبت الاختلاف بين المسلمين في آرائهم ومذاهبهم واعتقاداتهم »، وقد طبع حديثاً بالقاهرة بتحقيق عالمين باحثين هما : الدكتور أحمد حسن كحيل، والدكتور حمزة عبد الله النشرتي، ولقد قدم المحققان للكتاب ومؤلفه بمقدمة جديرة بالتقدير، أشارا فيها إلى أن هذا الكتاب أول كتاب وصل إلينا من الكتب التي ألفت في أسباب الاختلاف، وقد جاء على نمطه بعد فترة من الزمن كتاب : « الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف » للدهلوي[1] المتوفى سنة ثمانية ومائة وألف من الهجرة، والحق أن كتاب الانصاف رسالة صغيرة، ولا تعد شيئاً بالنسبة إلى كتاب « التنبيه » للبطليوسي، هذا وقد نبه المحققان إلى شيء جدير بالتنبيه عليه حين قالا : « هذا الكتاب يدل على أن المؤلف كان على قدر كبير من الفهم العميق للشريعة الإسلامية، والإحاطة بأسرارها، وقد يعد هذا أمراً عجيباً بالنسبة لرجل يعد من أساطين علماء اللغة والأدب، حتى يخيل لمن يقرأ له في اللغة والأدب أنه فرغ لهما، فكيف يبرع في الفقه وعلوم العقيدة ؟ ويجيب المحققان عن السؤال : وهذا العجب لا يلبث أن يزول حين نعلم أن الأندلسيين كان منهجهم في التعليم الإحاطة أولاً بقدر كبير من علوم الدين، من حفظ للقرآن ودراسة للحديث والتفسير والفقه، يستوي في ذلك اللغوي والفقيه والمهندس والطبيب، ولذلك كثر بينهم : النحوي الفقيه، والفقيه النحوي، والطبيب المحدث، والمحدث اللغوي، فهذا الامام الشاطبي ألف في النحو بمثل البراعة والقوة اللتين ألف بهما في الفقه والأصول، وأبو حيان فقيه ومفسر، ونحوي وأديب وشاعر، وكان لهم من ذكائهم وقوة حافظتهم أكبر عون ».

وانما أشرت إلى هذا الكتاب الذي اهتم بأسباب الخلاف من الجانب اللغوي في الأكثر، لندرك على أية درجة من رقي الفكر والتفكير كان

---

(١) سبق الاشارة إلى هذا الكتاب للدهلوي، وهو رسالة صغيرة الحجم، وقد قمت بتحقيقها وطبعها سنة ١٩٦٥م ضمن سلسلة الثقافة الإسلامية تحت رقم ٥٠.

عليها فقهاؤنا، ولم يذكر المؤلف كل أوجه الخلاف، بل اختار ـ فحسب ـ ثمانية أوجه : اشتراك الألفاظ والمعاني ـ الحقيقية والمجاز ـ الإفراد والتركيب ـ الخصوص والعموم ـ الرواية والنقل ـ الاجتهاد فيما لا نص فيه ـ الناسخ والمنسوخ ـ ثم الإباحة والتوسع ».

في الباب الثالث : الخلاف العارض من جهة الإفراد والتركيب، يقول : « هذا باب طريف جداً، وقد تولدت منه أنواع كثيرة من الخلاف، وهو باب يحتاج إلى تأمل شديد وحذق بوجوه القياس، ومعرفة تركيب الألفاظ، وبناء بعضها على بعض، وذلك أنك تجد الآية الواحدة ربما استوفت الغرض المقصود بها من التعبد، فلم تحوجك إلى غيرها كقوله تعالى : (يا أيها الناس اتقوا ربكم....) وربما وردت الآية غير مستوفية للغرض المراد من التعبد، وورد تمام الغرض في آية أخرى كقوله تعالى : (واذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان...) ـ ثم قال في آية أخرى : (بل إياه تدعون، فيكشف ما تدعون إليه إن شاء...)، فدل اشتراط المشيئة في هذه الآية الثانية على أنه مراد في الآية الأولى ».

وبعد أن يشير هذا العالم الحجة إلى أن الفقيه مضطر في استعمال القياس إلى الجمع بين الآيات المفترقة، والأحاديث المتغايرة، وبناء بعضها على بعض، كما أشار إلى أن وجه الخلاف العارض من هذا الموضع، أنه ربما أخذ بعض الفقهاء بمفرد الآية وبمفرد الحديث، بنى آخر قياسه على جهة التركيب الذي ذكرناه، بأن يأخذ بمجموع آيتين أو بمجموع حديثين، أو بمجموع آيات، أو بمجموع أحاديث، فتفضي بهما الحال إلى الاختلاف فيما ينتجانه، فعلى مثل هذا أنتجت النتائج، وركبت القياسات، ووقع بين أصحاب القياس الخلاف بحسب تقدم القائس أو بحسب تأخره وخالفهم قوم آخرون لم يروا القياس ورأوا الأخذ بظاهر الألفاظ، فنشأ من ذلك نوع من الخلاف، قال : ومما اختلفت فيه أقوال الفقهاء لأخذ كل واحد منهم بحديث مفرد اتصل به، ولم يتصل به سواه، ما روي عن عبد الوارث بن سعيد أنه قال : قدمت مكة فألفيت فيها أبا حنيفة وابن أبي ليلى وابن شبرمة، فأتيت أبا حنيفة فقلت : ما تقول في رجل باع بيعاً وشرط

شرطاً ؟ فقال : البيع باطل والشرط باطل، وقال ابن أبي ليلى : البيع جائز والشرط باطل، وقال ابن شبرمة : البيع جائز والشرط جائز، فقلت يا سبحان الله : ثلاثة من فقهاء العراق لا يتفقون على مسألة. ثم ذكر الحديث الذي احتج به كل من الفقهاء الثلاثة.

وبعد... فنستطيع أن نقرر ــ ونحن مطمئنون ــ أن الخلاف بين الفقهاء المسلمين في الرأي كان نتيجة فكر حضاري متقدم، وثمرة جهد عقلي مضن، وأن هذا الخلاف كان ضرورة اقتضتها دوافع المرونة والخلود لشريعة الله، وهذه الضرورة هي التي جعلت من توفيق الله أن يختلف أصحاب رسول الله بعد أن لحق بالرفيق الأعلى، ويكون منهم طلائع مدرسة النقل بالحجاز وطلائع مدرسة الرأي بالعراق، فالأدلة الشرعية ضربان ــ كما يقول الشاطبي في الموافقات : أحدهما يرجع إلى النقل المحض، والآخر يرجع إلى الرأي المحض، وهذه القسمة هي بالنسبة إلى أصول الأدلة، وإلا فكل واحد من الضربين مفتقر إلى الآخر، لأن الاستدلال بالمنقولات لا بد فيه من النظر، كما أن الرأي لا يعتبر شرعاً إلا إذا استند إلى النقل.

كذلك نستطيع أن نقرر ــ ونحن مطمئنون أيضاً ــ أن اختلاف الفقهاء كان رحمة للمسلمين، ولقد ذكر الشاطبي في « الاعتصام » أن عمر بن عبد العزيز كان يسره اختلاف الصحابة ــ رضي الله عنهم جميعاً ــ في الفروع، ويقول : « ما أحب أن أصحاب رسول الله ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ لا يختلفون، لأنه لو كان قولاً واحداً لكان الناس في ضيق، وأنهم كانوا أئمة يقتدى بهم ».

ويقول الشيخ أبو زهرة في « تاريخ المذاهب الإسلامية » :

« وإذا كان الافتراق حول العقائد في جملته شراً، فإنه يجب أن نقرر أن الاختلاف الفقهي في غير ما جاء به نص من الكتاب والسنة، لم يكن شراً، بل كان دراسة عميقة لمعاني الكتاب والسنة، وما يستنبط منهما من أقيسة، ولم يكن افتراقاً، بل كان خلافاً في النظر، وكان يستعين كل فقيه بأحسن ما وصل إليه الفقيه الآخر ويوافقه أويخالفه ».

* * *

خاتمة : ردٌّ على شبهات

أولاً : أصالة الإسـلام وحضارته :

يحاول خصوم الإسلام، وفي مقدمتهم المستشرقـون والمـبشرون، أن يشككوا في أصالة الفكر الإسلامي وحضارته، وهؤلاء الخصوم يكادون يجمعون في محاولاتهم على مضمون واحد مع التصرف في الألفاظ والأساليب، ولا يتسع المجال هنا إلا لعرض اليسير ـ واليسير جداً ـ من أقوال هؤلاء الخصوم، ولا سيما ما دونه في كتابه « العقيدة والشريعة في الإسلام »[1] المستشرق المجري اليهودي « جولد تسيهر »، الذي توفي في أواخر عام ١٩٢١ م بعاصمة المجر، يقول في الفصل الأول « محمد والإسلام » :

« والذي علينا، هو أن نلقي ضوءاً على العوامل التي أسهمت في تكوينه التاريخي ـ أي الإسلام ـ ذلك بأن الإسلام، كما يبدو عند اكتمال نموه، هو نتيجة تأثيرات مختلفة، تكون بعضها باعتباره تصوراً وفهماً أخلاقياً للعالم، وباعتباره نظاماً قانونياً وعقيدياً، وعلينا كذلك أن نتحدث عن التيارات التي أثرت في اتجاهات نهر الإسلام ».

---

(١) الكتاب بالألمانية، وترجم إلى عدة لغات، منها العربية ـ ١٩٥٩ م ـ قام بها الدكتور محمد يوسف وزميلان له، ورد على الكتاب الشيخ محمد الغزالي، بكتاب تحت عنوان : دفاع عن العقيدة والشريعة.

« وهناك نوعان من التأثيرات التي تحدد الاتجاه الذي يسير فيه أي نظام من النظم مهما كان نوعه ولونه ــ هنالك أولاً ــ ما في النظام نفسه من قوى داخلية ذاتية تعجل نموه التاريخي، وهناك ثانياً ــ التأثيرات الروحية التي ترد عليه من الخارج، وتضيف اليه ثروة جديدة، وتجعله خصباً، كما تعمل على أن يسير في طريق التطور حقاً، ان فعل التأثيرات الأولى، قد أُحس به بلا شك في الإسلام وتاريخه، ولكن أثر الضرب الثاني من هذه التأثيرات ــ أي التأثيرات الروحية التي جاءته من غيره واستوعبها وتمثلها، هو الذي يميز أهم عصوره في رأي الباحثين، ويبين ذلك إذا عرفنا أن نمو الإسلام مصطبغ نوعاً بالأفكار والآراء الهلينية، ونظامه الفقهي الدقيق يشعر بأثر القانون الروماني، ونظامه السياسي ــ كما تكوّن في عصر الخلفاء العباسيين ــ يدل على الأفكار والنظريات السياسية الفارسية ».

إلى أن قال : (وهذا الطابع العام يحمله الإسلام مطبوعاً على جبهته منذ ولادة محمد ﷺ مؤسسه الذي لم يبشر بجديد من الأفكار، كما لم يمدنا أيضاً بجديد فيما يتصل بعلاقة الإنسان، بما هو فوق حسه وشعوره، وباللانهاية).

ويكرر نفس القول : « ديلاسي أوليري » المستشرق الأيرلندي، في كتابه « الفكر العربي ومكانه في التاريخ »[1]، يقول : « وحدث في النهاية أن اشتملت الشريعة الإسلامية على جزء كبير من القانون المدني الروماني »، ويقول : « والحق أن الثقافة الإسلامية في أساسها وفي جوهرها جزء من المادة الهلينية الرومانية ».

وأيضاً يساند هذا الرأي، آدم متز ــ أستاذ اللغات الشرقية بجامعة بازل بسويسرا ــ في كتابه « الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري » يقول : « والواقع أنه ظهر في الميدان الفقهي ما ظهر في غيره من الميادين، وأهم ما حدث هو تسرب آراء في التشريع، مما كان قبل عهد الإسلام إلى الفقه الإسلامي، كما أحييت من جديد بعض النظريات اليونانية والرومانية القديمة،

---

(١) ترجمة الأستاذ محمد عبد الهادي أبو ريدة ــ الطبعة الرابعة ــ بيروت ٦٧ م.

وكان يمثلها الفقهاء، ويخالفهم أصحاب الحديث المتمسكون بالسنة القديمة ».

وليس عجيباً أن يفتري المستشرقون والمبشرون، وأن يتجاهلوا أن الإسلام قد ظهر في زحمة القيم التي لا تبتغي الإنسانية في عمومها، ولا كرامة الإنسان وحريته وتحريره، والأخذ بيده في طريق الرقي، نزل الإسلام المعركة، فقذف فيها بقيم جديدة ــ كما يقول الدكتور أحمد فؤاد الأهواني[1]، قذف أولاً بالقيمة الدينية الكبرى وهي التوحيد، وثانياً بالقيمة الإنسانية الكبرى، وهي كرامة الإنسان ومساواته وحريته، وهذه القيمة الإنسانية كانت جديدة على العالم كله شرقاً وغرباً، على الفرس والعرب على حد سواء، ذلك أن الانسانية رسخت أجيالاً طويلة تؤمن بانفصال الناس على الأقل طبقتين : سادة وعبيداً، وحتى الفيلسوف اليوناني أرسطو عجز عن أن يتخلص من هذا الوهم، أو أن يتصور الإنسان خلاف الواقع الذي كان يعيش عليه، فقسم الناس طبقتين، وجعل العبيد عبيداً بالطبع، فوضع بذلك الأساس النظري لأعظم خدعة في التاريخ.

أما الزعم القائل بأن الفقه الإسلامي قد تأثر بالقانون الروماني المدني والتجاري، فهو زعم يعبر عن إفلاسه، بل إن موسوعة اليونسكو[2] تاريخ الجنس البشري وتقدمه الثقافي والعلمي، جاء في المجلد الثالث منها، « أن مصادر الشريعة الإسلامية هي : القانون الروماني البيزنطي، والقانون الفارسي الساساني، وقانون التلمود، بالإضافة إلى القوانين الدينية الخاصة بالكنائس الشرقية ».

وقد تصدى العلماء لهذا الزعم المضحك، فأجرى الشيخ أبو زهرة مقارنة بين شريعة الإسلام، وقانون الرومان في رسالته « شريعة القرآن »، العدد الحادي والثلاثين من سلسلة الثقافة الإسلامية، وقال في خاتمة المقارنة : « وفي سبيل العبث بقضية العقل والمنطق، يتناسون الموازنة بين قواعد العدل التي اشتملت عليها الشريعة، وقانون الغاية الذي اشتمل عليه قانون الرومان ».

---

(١) القيم الروحية في الإسلام ــ القاهرة ١٩٦٢ م.

(٢) رددت على مفتريات هذه الموسوعة في كتاب : مفتريات اليونسكو على الإسلام ــ القاهرة ١٩٧٦ م.

ويقول الدكتور عبد المنعم ماجد في مؤلفه : تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى « القاهرة ـ ١٩٧٢م »، يقول : « مما رأيناه من نمو التشريع الإسلامي، ننبذ فكرة أن التشريع الإسلامي متأثر بتشريع الرومان أو الفرس أو غيرهم، فهو تشريع إسلامي صرف، يعبر عن طبيعة المجتمع الإسلامي المتطور، فلم يثبت لدينا ـ اطلاقاً ـ علمياً، أن التشريع الإسلامي أخذ من أي قانون آخر، أو أنه وجد فيه أي تعبير لاتيني أو فارسي أو غيره، فضلاً عن وجود نظم في التشريع الإسلامي، لا أصل لها في أي تشريع آخر ».

ثانيا : كفالة الشريعة وقدراتها :

كذلك يحاول خصوم الإسلام من المستشرقين والمبشرين التشكيك في كفالة الشريعة الإسلامية وقدراتها على إقامة نظام متكامل، يكفل لدولة ما، حياة اليمن والاستقرار، ويضع هؤلاء الخصوم عللاً تساند منطق آرائهم، منها أن الشريعة الإسلامية معقدة، وجامدة لا تساير الزمن، ولا تحل مشكلات العصر، ويبدو أن العقدة المسيطرة على هؤلاء الحاقدين، إنما مبعثها الخوف من الإسلام حاضراً ومستقبلاً، فالمستشرق الألماني « كارل بيكر » يرى أن الإسلام لما انبسط في العصور الوسطى، أقام سداً في وجه انتشار النصرانية، أما « جاردنر » فيرى أن القوة التي تكمن في الإسلام هي التي تخيف أوروبا.

ومما يدعو إلى الأسى أن بعض المنتمين إلى الإسلام بحكم شهادات مواليدهم من صنائع الفكر الغربي أو الماركسي، يتعاطفون مع خصوم الإسلام، ويؤمنون بفصل الدين عن الدولة، زاعمين الاشفاق على الدين نفسه، ومعتقدين أن الشريعة التي وضعت منذ أربعة عشر قرناً، لبيئة خاصة، لا يمكنها أن تساير العصر، أو تحل مشكلات الإنسان في عصر المادة، وهؤلاء يتجاهلون بالطبع أن شريعة الله لم تكن لبيئة خاصة، فالإسلام دين عالمي إنساني أراد الله له البقاء إلى أن تقوم الساعة، وكان من الطبيعي أن يأتي منهجه في شتى جوانب الحياة شاملاً، وقد ظلت دولة الإسلام ـ بهذا المنهج السليم الشامل بضعة قرون، قوية فتية، ولم يبدأ الضعف يتسلل إليها

إلا بعد أن تخلت عن هذا المنهج.

إن الذين يفترون على شريعة الإسلام أو يتقولون عليها، هم أجهل الناس بروح الشريعة وجوهرها، وبما دونته كتب الفقهاء المجتهدين من آراء ذات قيم حضارية مرنة، لا يمكنها أن تصطدم بالتطور، أو تقصر دون حاجيات البشر، يقول ابن عابدين في رسائله : « ان المسائل الفقهية إما أن تكون ثابتة بتصريح النص ـ وهي الفصل الأول ـ واما أن تكون ثابتة بضرب اجتهادي ورأي، وكثير منها يبينه المجتهد على ما كان في عرف زمانه، ولهذا قالوا في شرط الاجتهاد : إنه لا بد من معرفة عادات الناس، فكثير من الأحكام تختلف باختلاف الزمان لتغير عرف أهله، أو لحدوث ضرورة، أو فساد أهل الزمان، بحيث لو بقي الحكم على ما كان عليه **أولاً**، للزم منه المشقة والضرر بالناس، ولخالف قواعد الشريعة المبنية على التخفيف والتيسير، ودفع الضرر والفساد، لبقاء العالم على أتم نظام، وأحسن أحكام ».

لقد أصدر « سيد قطب » رحمه الله الجزء الأول من مؤلفه « خصائص التصور الإسلامي » وفيه ما يوضح الفكرة الكلية للإسلام، عن الله والكون والحياة، وكذلك صدر لأخي الدكتور يوسف القرضاوي كتابه « الخصائص العامة للإسلام »، وفيه خصائص المنهج الإسلامي كله، بما **في ذلك العقائد والعبادات والأخلاق والشرائع، هذا وقد اختار من هذه الخصائص سبعاً : الربانية ـ الإنسانية ـ الشمول ـ الواقعية ـ التوازن ـ** الوضوح ـ ثم الجمع بين الثبات والمرونة، وقد أشرت إلى هذين الكتابين لأنهما ردا بموضوعية على مفتريات خصوم الإسلام، ويحسن بنا أن نشير إلى كلمات قالها ـ عبد القادر عودة ـ في كتابه التشريع الجنائي، موجهة إلى الذين ما يزالون يحسنون الظن بالقوانين الوضعية، قال : « القوانين الوضعية حين تتطور مرة بعد مرة، إنما تسير في أثر الشريعة الإسلامية، وتأخذ بمبادئها، وحين يقال : إن القانون الوضعي وصل إلى الكمال، يكون قد أوشك أن يبلغ ـ فقط ـ بعض ما بلغته الشريعة الإسلامية، وأن اليوم الذي تأخذ فيه القوانين الوضعية من الشريعة قد أصبح قريباً، وأكثر مما يظن أكثر الناس ».

ثالثاً : ابن خلدون ومذهب الإمام أحمد :

قال ابن خلدون في مقدمته : « وأما أحمد بن حنبل فمقلده قليل، لبعد مذهبه عن الاجتهاد، وأصالته في معاضدة الرواية، وللأخبار بعضها ببعض، وأكثرهم بالشام والعراق من بغداد ونواحيها، وهم أكثر الناس حفظاً للسنة ورواية الحديث ».

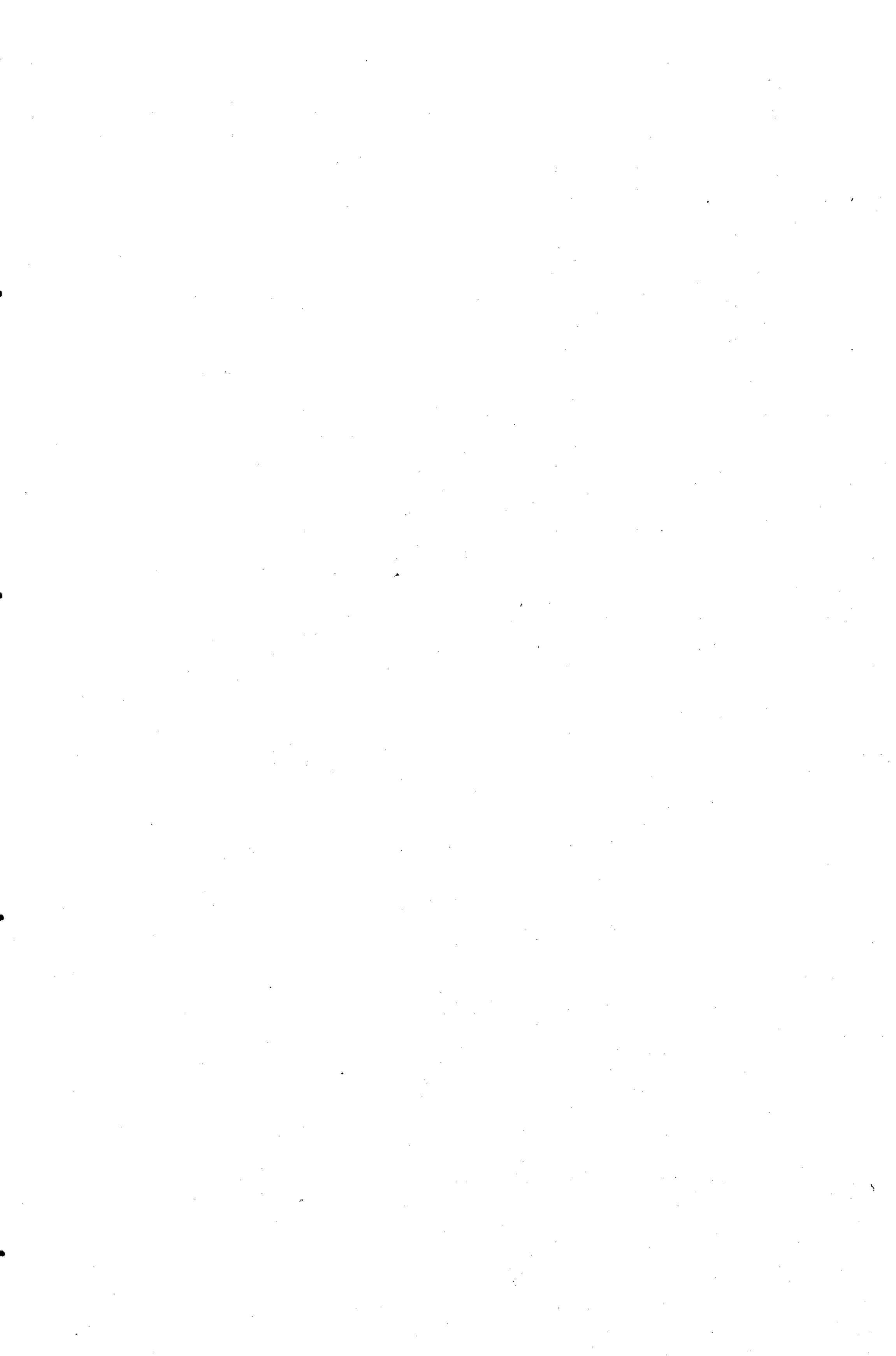
فهل يعيب مذهب الإمام أحمد معاضدة الرواية ؟، أليست السنة هي المصدر الثاني بعد كتاب الله ؟، وهل كثرة الأتباع دليل على قيمة المذهب ؟ لندع الشيخ أبا زهرة يتولى الرد على ابن خلدون، وعلى الأخص فيما يتعلق بشبهة قلة الاجتهاد، قال في مؤلفه « أحمد بن حنبل » : « إن ذلك لا يصلح تعليلاً لهذه العلة، لأن الأصل غير صحيح، فليس مذهب الإمام أحمد قليل الاجتهاد، فقد علمنا أنه المذهب الذي فتح باب الاستنباط على مصراعيه في غير النص، وأن كثرة المتقدمين أوكلهم هم الذين قرروا أن باب الاجتهاد المطلق لا يغلق قط، وأنه ظهر فيه العلماء الذين درسوا أعراف الناس في العصور المختلفة، وواءموا بينها وبين مصادر الشرع، واستنبطوا تحت ظل الكتاب والسنة ومن أضوائهما أحكاماً صالحة متناسبة، وأن مصر عندما أرادت تعديل المعمول به في الأحوال الشخصية، والوقف والمواريث والوصايا، وجدت في هذا المذهب معيناً لا ينضب من الأحكام الصالحة، فاقتبست منها الكثير ».

إن مصادر المذهب هي : الكتاب والسنة، وفتوى الصحابة والإجماع والقياس والاستصحاب، والمصالح والذرائع، فهل هي أقل من مصادر غيره من المذاهب، بل إن مذهب الإمام في حرية التعاقد هو أقرب المذاهب إلى القوانين الحديثة، وقد أردت بهذه الإشارة العابرة، نفي شبهة قلة الاجتهاد في مذهب الإمام أحمد، لأن الاجتهاد هو أبرز عوامل إثبات الفكر الحضاري لدى فقهاء الإسلام.

والله الموفق !!!.

الحضارة الإسلامية والإنسان

للدكتور علي عبد الحليم محمود
الأستاذ المشارك بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمـد لله والصلاة والسلام على محمد بن عبد الله، وعلى من سلك طريقه واهتدى بهديه إلى يوم الدين.

وبعـــد...

فإن الأمة الإسلامية في وقتنا هذا تعيش فترة من حياتها، تعد من الفترات الحاسمة في تاريخها، ذلك أن الصراع بين الأمة الإسلامية وأعدائها ـ ولا بد لها من أعداء ـ بلغ درجة فيها من الحدة والتوتر قدر كبير، ومن التوجس والترقب قدر أكبر، وبحسبنا أن نذكر في التعليل لهذه الحدة وذلك التوتر أن الأمة الإسلامية، بدأت تستفيق بعد نوم عميق وضعف شديد، تعمد أعداؤها أن يوصلوها إليهما غداة تألبوا وتحالفوا من شرق وغرب للقضاء على دولة الخلافة الإسلامية في بداية القرن الرابع عشر الهجري على وجه التقريب.

منذ ذلك التاريخ والعالم الإسلامي يغلي من الداخل، والمصلحون والمفكرون يهيبون بذلك العملاق أن يهب من رقدته، وأن ينفض عن بدنه كل أسباب الضعف، ليقوم من جديد لقيادة البشرية نحو الهدى والحق، نحو الصراط المستقيم، صراط الله.

ولم يكن عجباً ولا مخالفاً لتوقعات المراقبين، أن يجهد أعداء الأمة

الإسلامية أنفسهم في قمع كل حركة إسلامية صحيحة في أي قطر من أقطار العالم الإسلامي المترامي، لأن الحرب مستمرة وأبدية، إذ هي حرب بين الحق والباطل، بين الإيمان والكفر، بين الحضارة الإسلامية الراشدة وسائر الحضارات الضالة، ولن تضع هذه الحرب أوزارها ـ بالنسبة لنا معشر المسلمين ـ إلا يوم تسود الحضارة الإسلامية العالم الإسلامي أولاً، فلا يتحاكم إلا إليها، ولا يدين إلا بها، ثم تبدأ مواكب الحركة الإسلامية بعد ذلك ماضية في طريقها لتوصل دين الله إلى كل عباده، ولتجعل حضارة الإسلام هي معبر البشرية الذي تعبر عليه من ضلالها إلى الهدى والحق والخير.

ونحاول في هذه الصفحات أن نؤكد أن الحضارة الإسلامية هي وحدها من بين سائر الحضارات، قديمها وحديثها، هي حضارة الإنسان في أكمل صورة. ومن أجل منهجية البحث لا بد أن نبدأ بإلقاء ضوء على مفهوم الحضارة بصفة عامة.

ضوء على مفهوم الحضارة :

يرى كثير من العلماء أن الحضارة بالنسبة لأمة من الأمم تعني : ما لدى هذه الأمة من : علوم وفنون وآداب وصنائع وعمران.

ويتوسع في مفهوم الحضارة بعض الباحثين فيضم إليها : نظم المجتمع، ومقدار التمدن، ونمط الحياة السياسية والاقتصادية.

ويطوي بعض الباحثين هذه المدلولات في أوجز عبارة فيقولون : الحضارة هي كل ما أبدعه عقل الإنسان.

ويبسط هذا الطي جماعة من الباحثين فيقولون : إن الحضارة هي السكان والمال والإدارة والتجارة والعلم والفن والسياسة والاجتماع.

وعند التحقيق : نجد أن كل هذه التعريفات ما هي إلا تعريفات لمظاهر الحضارة الإنسانية، لا للحضارة نفسها، وعناية بالتعريف على أثرها لا على جوهرها ولبها.

ومن منطلق إسلامي في التعريف بالحضارة ـ والإسلام له نظرته

الشاملة ـ نقول : إن الحضارة في حقيقتها تتكون من عناصر كثيرة لا يستغني بعضها عن بعض، ولا تفهم إلا من خلال هذا التكامل بين تلك العناصر.

ومن هذه العناصـــر :

تصور هذه الحضارة للحياة البشرية، ومنزلة الإنسان في هذه الحضارة وعلاقة الإنسان في ظل تلك الحضارة بالحياة، وقيمة هذه الحياة وغايتها، وما يسود هذه الحضارة من معتقدات وأفكار ترتكز عليها وتنطلق منها إلى ممارسة الحياة، مع التأكيد على أثر هذه المعتقدات والأفكار في مشاعر الإنسان، وفي سلوكه وفي آماله وأهدافه.

ثم طريقة هذه الحضارة في تربية الإنسان وإعداده ليشق طريقه في الحياة في ظل قيم أخلاقية خاصة يلتزم بها ويدعو إليها ويضحي بماله ونفسه في سبيلها، مستهدفاً أن يجمع الناس عليها.

وهناك عنصر هام ينضم إلى هذه العناصر هو : نظرة هذه الحضارة للعلاقة التي يجب أن تربط الإنسان بأخيه الإنسان.

هذه العناصر ـ بتلك الرؤية الإسلامية الشاملة ـ هي لب الحضارة وجوهرها، أما العلوم والفنون والآداب والصنائع والعمائر والإدارة والعادات والتقاليد، فما هي إلا مظاهر لهذه الحضارة، وقشرة لهذا اللباب.

والذي أحب أن أنبه إليه بادئ ذي بدء هو : أن الحضارة الإسلامية بكل تلك العناصر تتميز عن أية حضارة قديمة أو حديثة شرقية أو غربية، دينية أو وثنية، بأنها الحضارة الوحيدة التي صنعت على عين الله سبحانه، فأوحى بكل معطياتها إلى خاتم رسله وأنبيائه محمد بن عبد الله ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ وضمن الله أن يحفظ هذه الحضارة على الأرض حتى يقوم الناس لرب العالمين، « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ».

بينما سائر الحضارات من صنع البشر، والبشر بحكم خلقتهم وفطرتهم قاصرون وعاجزون ويخطئون ويصيبون، حتى الحضارات الدينية الباقية إلى الآن كاليهودية والنصرانية، لا تسامي الحضارة الإسلامية ولا ترقى إلى مستواها لسببين كبيرين :

أحدهما أن هذين الدينين يوم أنزلهما الله على رسوليه الكريمين موسى وعيسى عليهما السلام لم يرد الله بهما أو بأحدهما أن يكون الصورة المثلى للدين، وإنما أراد لكل منهما أن يعالج من مشكلات البشرية ما كان سائداً وذائعاً وضاراً بالناس في هذه الفترة من الزمان أو هذه البقعة من المكان.

وثانيهما : أن الله سبحانه لم يتكفل بحفظ هذا الدين أو ذاك، لأنه ليس آخر الأديان ولا أكملها، وإنما هو مرحلة من مراحل الحياة الدينية للبشر، تعقبهما المرحلة الأخيرة التامة الكاملة، وهي مرحلة الدين الذي جاء به محمد بن عبد الله صلوات الله عليه وسلامه، الدين الذي قال عنه رب الخلق جل شأنه : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً »[1].

أمّا ما حاوله الإنسان في مختلف أطواره في الزمان والمكان من أن يرسم لنفسه أو لبني جنسه من معالم الحضارة، فحسبه وحسبنا أنه يفكر بعقل بشري لا تستقيم نظرته ولا تتكامل أبداً إلا أن يدعمها الوحي ويؤيدها رسول من رسل الله سبحانه.

ذاك ضوء على مفهوم الحضارة كان لا بد منه، ليكون مدخلاً إلى الحديث.

---

(١) سورة المائدة آية ٣.

موقف المسلمين من الحضارة الغربيّة

الحضارة الغربيّة والعالم الإسلامي

تكـاد تكون الحضارة الغربية ـ من بين سائر الحضارات المعاصرة ـ هي الحضارة التي يصر أهلها، منذ أزمان بعيدة، أن يسيطروا على المسلمين وأن يذيبوهم في حضارتهم التي تتخذ من النصرانية قشرة وغطاء، وتتخذ من المادية لباً وجوهراً، وتنطلق من خلال ذلك مطلقة للإنسان كل الحرية في أن يخرج من إنسانيته إلى حيوانيته، فهي حضارة تعمد إلى إرضاء رغبات الإنسان وشهواته أكثر من محاولتها توجيهه وتسديد خطاه.

وليس معنى اهتمامنا بالحضارة الغربية في هذا البحث أننا نعطيها ما يميزها عن سواها من الحضارات، أو أن نعترف لها بنوع من الفضل أو قدر من النجاح.

ولكنا نهتـم بها لأمرين :

الأول : أنها الحضارة السائدة في هذا العصر والتي يملك أصحابها من السلطان والإمكانات ما يجعلهم يتحكمون في مصاير عدد كبير من دول العالم منها كثير من بلدان المسلمين.

والثاني : أنها الحضارة التي واجهت الحضارة الإسلامية بصراعات وحروب منذ أزمان سحيقة البعد نسبياً، وأنها يوم اندحرت أمام جيوش

المسلمين في عصر الحروب الصليبية واضطرت مرغمة ذليلة لأن تغادر البلاد التي تفيض لبناً وعسلاً ـ كما تنطق بذلك كلمات ما يسمونه اليوم الكتاب المقدس ـ يوم اندحرت ذلك الاندحار، لم تستسلم وإنما غيرت أسلوب الحرب فقط[1].

وأخذت منذ ذلك التاريخ تكيد للمسلمين وتفرق كلمتهم وتذهب ريحهم وتصطنع في عالمهم المذاهب والمدارس والنظريات، وتغرقهم في بحر لجي من الفتن والاضطرابات والدسائس، واصطناع العملاء واختلاق الدعوات الضالة والأفكار المنحرفة والعادات التي تختلف مع الإسلام جوهراً وعرضاً، من سفور المرأة وعريها واختلاط الجنسين في مقاعد التعليم ـ في سن المراهقة وغيرها ـ وتشويه الحضارة الإسلامية ورميها بالعجز والقصور عن مواكبة ركب الحياة، وما لا سبيل إلى حصره في هذه الصفحات[2].

واستطاعت الحضارة الغربية بعد جولات عديدة ضد المسلمين أن تكون هي الحضارة الغالبة، وأن يكون أصحابها هم المسيطرون على بلدان العالم الإسلامي سيطرة منظورة حيناً وغير منظورة أحيانـاً.

وبدأ الاتصال الوثيق بين المسلمين وبين معطيات هذه الحضارة الغربية ـ وبغض النظر عن طبيعة هذا الاتصال، الذي كان في حقيقته اتصال الغالب بالمغلوب والقوي بالضعيف والخبيث بقصير النظر ـ بغض النظر عن طبيعة هذا الاتصال فإننا ـ معشر المسلمين ـ كان يجب علينا أن نلتقي مع تلك الحضارة ـ أو غيرها من الحضارات ـ ونحن أشد اعتزازاً بحضارتنا وأقوى إيماناً بأن ما عندنا هو أكمل وأتم ما أعطاه الله للبشر، وعندئذ كان وسيظل يجب علينا أن نأخذ من تلك الحضارة أو من غيرها ما نرى فيه نفعاً للمسلمين دون تعارض مع أسس حضارتنا وأصول ديننا، منطلقين في ذلك من مرونة أصول التشريع في ديننا التي لا تمنعنا أبداً من أن نستفيد ونفيد ونؤثر ونتأثر لكن بشرط أن نكون تحت مظلة الإسلام ومع كتاب الله وسنة

---

(١) لصاحب البحث : الغزو الصليبي والعالم الإسلامي ـ نشر دار عكاظ.

(٢) للتوسع في هذا : انظر التيارات المعادية للإسلام ـ لصاحب البحث ـ نشر دار البحوث العلمية.

رسوله ﷺ في كبير أمرنا وصغيره. ذلك واجبنا في الحاضر وفي المستقبل....

لكن ماذا فعل المسلمون مع هذه الحضارة الغربية ؟.

إن المجتمعات الإسلامية في العالم الإسلامي كله قد انبهرت بمعطيات هذه الحضارة الغربية، ثم انقسمت على نفسها إزاء الأخذ عنها إلى ثلاثة أقسام فيما أتصور :

قسم : آثر أن يغلق النوافذ والأبواب دون هذه الحضارة الوافدة، واعتبر أن كل ما جاء فيها أو جاء عنها شراً وفساداً وإفساداً، فحاربها وهو في موقف المغلوب على أمره والمقهور في أرضه، والمحاط به من كل جانب، فحارب ولم يحقق نصراً، ودفع بالأفواج تلو الأفواج في معركة غير متكافئة العدد ولا العُدد، فلم تكن النتيجة في صالحه، وإنما خرج من المعركة والتهم تنهال عليه من يمين وشمال، والدسائس تحاك له من مختلف أقطاره، والضحايا منه يقدمون لمشانق الظالمين ومن لم يحظ بالشهادة استقر في غياهب السجون.

ومن عجب أن هذا القسم كان قسمة بين بلدان العالم الإسلامي كله من أقصى شرقه إلى أقصى غربه، قلما خلت بلد إسلامية منه.

ومن عجب كذلك أن العدو حاول تشويه هذا القسم بسمة واحدة وسمه بها وهي : الجمود والرجعية والتخلف.

ولقد أغرى العدو بهذا القسم من المسلمين أعداداً كبيرة من الكتاب والصحفيين والفنانين، فسخروا منهم ومن جمودهم ـ فيما يزعمون ـ ونجح العدو حقاً في أن ينفر العامة والغوغاء والمأجورين من هؤلاء المسلمين.

والقسم الثاني : كان على النقيض من القسم الأول، فلم يكتف بفتح النوافذ والأبواب أمام حضارة الغرب، وإنما أغلق النوافذ والأبواب دون حضارته وتراثه ودينه، واندفع بقوة صاحب الحاجة إلى الحضارة الغربية يعب منها دون نظر أو تمييز، محاولاً أن ينسى حضارته، جاهداً أن ينماع في حضارة الغرب ومعطياتها.

ولقد اقتنص عدونا جانباً كبيراً من أفراد هذا القسم بأن رباهم في مدارسه ونشأهم على عاداته وتقاليده سواء في بلاد هذا العدو أو في بلادنا الإسلامية، ووعدهم ومناهم، ووفى لهم بما وعد وصدق لهم ما مناهم به، فألقى إليهم مقاليد الأمور في بلاد المسلمين ـ وكانت أغلب هذه البلاد في سلطان العدو ونفوذه ـ فجعلهم يسيطرون على الفكر وعلى الثقافة وعلى السياسة والاقتصاد، وعلى التعليم والتوجيه، وذلك ما نسميه بحركة « التغريب » للحياة الإسلامية كلها.

ولقد اندفع هذا القسم إلى الحضارة الغربية يأخذ كل ما فيها، حتى ما يتعارض مع دينه وقيمه الأخلاقية، ولقد أخذت آفة تقليد الأقوى تستبد بعامة المسلمين وقليل من خاصتهم حتى أصبح كثير من أفراد هذا القسم يباهون بأنهم يعتبرون التدين مسألة شخصية لا صلة لها بالحياة، وأن الدين، بناء على هذا التصور الضال، بمعزل عن الحياة، فانطلق ناعقوهم ينادون بفصل الدين عن سياسة الناس وحكمهم، واستبدلت القوانين الوضعية بقوانين الله، وانزوت الشريعة السمحة قابعة في منطقة الظل يتحاكم الناس إليها في الأحوال الشخصية فقط.

وخرجت المرأة المسلمة عارية كاسية مائلة مميلة تقلد المرأة الغربية، ونعق بهذا الباطل غير واحد من الضالين الذين لبس عليهم الحق فغلبه الباطل. وخرج الرجل المسلم عن خلقه الإسلامي، وأصبحت الغيرة عيباً، والتمسك بآداب الدين رجعية، واختلط حابل الناس بنابلهم، وشوه القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وشوه تراث المسلمين، وألقيت التهم على حضارتهم، وعمل الأعداء على تشويه تاريخ أعلامنا من المسلمين الأولين، وحوربت لغة القرآن، واستعجمت الألسنة، ووجد من المسلمين ومن العرب من يباهي بأنه لا يعرف العربية ولا يطيقها لسانه، وانهالت التهم جزافاً على لغة القرآن وعلى أدب الإسلام، وحل محل الحضارة الإسلامية حضارة غربية معادية، اقتلعت أصول التصور الإسلامي الصحيح للحياة والأحياء من المسلمين، وأغرقتهم في تيارات التصور الغربي القاصر للحياة والأحياء.

واستجاب لهذا القسم من المسلمين عدد كبير من أنصاف المتعلمين وأخماس المثقفين، وجيوش جرارة، ممن لقنوا التعليم على أسس مناهج الغرب وتربيته، ولا تزال طائفة من رواد هذا القسم مسيطرين متصدرين في كثير من بلدان العالم الإسلامي.

وإن وسائل هذا القسم ووسائل سادته وأوليائه في اجتذاب الشباب الإسلامي نحو الحضارة الغربية لعديدة ومتنوعة، ومغرية لقصار النظر في كثير من الأحيان.

والقسم الثالث : كان ــ في ظنه ــ أكثر وعياً وإدراكاً من القسمين السابقين، وحسب أنه بالتوسط بين القسمين يصنع شيئاً جديداً مقبولاً.

فلم يعجبه أن تهمل الحضارة الغربية كلها، ولا أن تتجاهل وسائلها في ترفيه العيش وإشباع رغبات الإنسان ــ أو نزواته في بعض الأحيان ــ ولم يعجبه كذلك أن يفقد كيانه، وأن ينماع في الحضارة الغربية ويسلم لها زمامه ويعطيها الحق في أن تصوغه على الصورة التي ترضيها.

فوقف هذا القسم بين الطرفين، أو أراد لنفسه أن يشرف عليهما من فوق جسر يشرف على الشاطئين، وأخذ يصوغ لنفسه، من حضارته الإسلامية ومن حضارة الغرب الغازية شيئاً جديداً، يجمع فيه بينهما ويلفق بين معطيات الحضارتين.

ولكن أفراد هذا القسم لم يوفقوا فيما أرادوا، ولم يستطيعوا أن يشقوا لأنفسهم طريقاً بين الطرفين، وكل ما استطاعوه هو التلفيق أو الترقيع، التلفيق بين حضارة الإسلام وحضارة الغرب، وهو تلفيق تغلب فيه الحضارة الغربية وتطفو دائماً، وهو وإن قبل في أحيان قليلة إلا أنه غير مقبول في معظم الأحيان، وهؤلاء : « خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، عسى الله أن يتوب عليهم »[1].

---

(١) سورة التوبة آية ١٠٢.

والترقيع للحضارة الإسلامية بمزق بالية من حضارة الغرب، شوهت الأصل وأساءت إلى الدخيل، ومن عجب أن هذا الترقيع لا يزال باقياً عند بعض المسلمين إلى الآن.

ولقد ضل هؤلاء الملفقون وهؤلاء المرقعون ضلالاً بعيداً، كما ضل من قبلهم عدد من العلماء المسلمين ـ في غابر تاريخنا ـ عندما أرادوا أن يوفقوا بين ما جاءت به الشريعة الإسلامية وما ارتآه بعض المناطقة والفلاسفة من غير المسلمين، فبددوا جهودهم، وضيعوا على الأمة الإسلامية أوقاتاً غالية من أعمار بعض علمائنا في محاولات لا قيمة لها.

ولهؤلاء الملفقين وأولئك المرقعين أسوق قول الله تعالى : شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً، والذي أوحينا إليك، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه، كبر على المشركين ما تدعوهم إليه، الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي اليه من ينيب »[1]. وإليهم كذلك أسوق الحديث عن الدعامة الثالثة من هذا البحث برمته، وهي دعامة فشل الحضارة الغربية في توجيه الإنسان.

وبعد : فهذا تصور لتلك الأقسام أخذته من واقع العالم الإسلامي اليوم، وهو واقع، على الرغم من مرارته، إلا أن بوارق أمل تلوح فيه هنا وهناك، وحلاوة إيمان تبدو في بعض أقطاره التي حكمت كتاب الله وسنة رسوله وحكمت بين الناس بما أنزل الله، حركة مد إسلامي تتحرك من الداخل وتوشك أن تغير وتبدل نحو الأحسن والأفضل، نحو سيادة الحضارة الإسلامية على أقطار العالم الإسلامي.

وأخيراً، فإن القسم الذي نبحث عنه، والذي نعقد عليه الأمل هو الشبيبة المسلمة، التي تؤمن بأنها صاحبة أكمل حضارة وأشمل منهج وأدق نظام وأخلده، والتي لا تلفق بين حضارتها وحضارة أخرى، والتي لا ترقع حضارتها بأي رقع من حضارة مخالفة، ولكنها في الوقت نفسه تستفيد من النافع المفيد الذي لا يعارض شيئاً مما جاء في الحضارة الإسلامية.

والأمل في شباب العالم الإسلامي أن يكون هو هذا القسم المنشود.

---

(١) سورة الشورى آية ١٣.

مَوقفُ الغَربِ مِنَ الحَضَارةِ الإسلَاميّة

سؤال وارد على كل لسان، مؤداه : إذا كانت الحضارة الإسلامية بهذا الوزن وذاك الثقل في الكمال والتمام والقدرة على إسعاد البشرية، ضرورة أنها الحضارة التي اختارها الله لعباده، وصنعها لهم بنفسه، وتلافى فيها كل قصور بشري فكمله بالوحي، وكل غرور بشري فألجمه بالفطرة السوية التي فطر الناس عليها، وكل جنوح عقلي أو فكري فرده إلى الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وبالسنّة النبوية التي فصلته وفسرته.

إذا كانت الحضارة الإسلامية بهذا الوزن، وفي الغرب بالضرورة علماء يدركون هذا ويعرفونه معرفة أبنائهم، فلماذا لم يأخذوا عن الحضارة الإسلامية، ولماذا لم يعترفوا بكمالها ؟.

ومن أجل الإجابة على السؤال أقول :

الحق الذي لا يشك فيه أحد من الباحثين المنصفين أن الغرب قد أخذ عن الحضارة الإسلامية شيئاً كثيراً، وأن الغرب ظل يعيش ظلام العصور الوسطى ـ بالنسبة له ـ غارقاً في التأخر والتخلف، يوم كان العالم الإسلامي ينعم في ظل الحضارة الإسلامية بحياة إنسانية كريمة.

ولا يشك منصف في أن أوروبا، وهي تنطلق إلى ما يسمونه بعصر النهضة كانت تتخذ من الحضارة الإسلامية مرتكزاً ومنطلقاً.

وأن الحضارة الإسلامية في الأندلس المسلمة كانت جسراً عبرت عليه أوروبا نحو الأخذ من حضارة الإسلام، كما أن الحروب الصليبية كان معبراً آخر، اعترف بهذا بعض كتاب أوروبا أنفسهم.

ونستطيع أن نلمس تأثر الغرب بالحضارة الإسلامية في الاجتماع والاقتصاد والسياسة، حيث ضعف عندهم نظام الإقطاع بعد صلتهم بالمسلمين، وعرفوا حرية الرأي، وعرفوا حدود الحاكم دينياً كان أو مدنياً.

ونستطيع أن نلمسه في العلم والأدب والفكر، فيما نقلته أوروبا عن الحضارة الإسلامية، في علوم الطب والصيدلة والفلك والهندسة وغيرها، ولو شئنا أن نشير إلى بعض كتب المسلمين التي تتلمذت عليها أوروبا في هذه العلوم لما وسعتنا هذه الصفحات[١].

وإن نظرة إلى ما دخل اللغات الأوروبية من كلمات عربية باقية فيها حتى الآن لتدلنا على مدى ما أفادته أوروبا من الحضارة الإسلامية، يقول أحد مفكريهم : « .... وإننا ـ يعني الأوروبيين ـ مدينون لبطحاء العرب وسورية بمعظم القوى الحيوية الدافعة ـ أو بجمع تلك القوى التي جعلت القرون الوسطى مخالفة في الروح والخيال للعالم الذي كانت تحلمه روما[٢] ».

وكل ما كان على الكاتب ـ لكي يكون منصفاً غير حاقد ـ هو أن يقول : مدينون للإسلام وحضارته بدل قوله : لبطحاء العرب وسورية.

وقد أكد ذلك « ماكييل » في إحدى محاضراته عن الشعر : « إن أوربه مدينة لبلاد العربية بنزعتها المجازية الحماسية ».

وكان على « ماكييل » ليكون منصفاً أن يقول : للحضارة الإسلامية بدل قوله : لبلاد العربية.

فمن حيث أخذ الغرب عن الحضارة الإسلامية قد أخذوا، ما يشك في ذلك باحث منصف، ومن حيث الاعتراف بكمال الحضارة الإسلامية أو

---

(١) لصاحب البحث : انظر الغزو الصليبي والعالم الإسلامي ـ الباب الثالث.

(٢) هاملتون جب : أثر العرب في الآداب الأوروبية ـ مجموعة تراث الإسلام.

الاعتراف بالأخذ عنها على المستوى العام، لم يحدث هذا ولا ذاك.

ولعلنا في هذه الصفحات نضع أيدينا على السر في ذلك :

تصور ـ مخطئاً ـ عدد كبير من مفكري الغرب أن الحضارة الإسلامية مقتبسة من الحضارات التي سبقتها وبخاصة حضارة اليونان، والحق أن الحضارة الإسلامية ما كانت ملفقة من حضارات سابقة عليها، وكيف تكون وهي من صنع الله الذي أراد لها أن تكون أكمل الحضارات وأتمها، وكيف يسوغ هذا في منطق الفكر أو التاريخ إذا لحظنا أن حضارة يونان وثنية في طور من أطوارها، اشتراكية في طور آخر ؟.

كيف تلفق الحضارة الإسلامية، حضارة التوحيد، من عناصر وثنية ؟؟!

وكذلك زعموا أن الحضارة الإسلامية ملفقة من حضارات أخرى قديمة كالفارسية والرومية والبابلية والسريانية والفينيقية وغيرها، وكلها كما يعلم سائر المثقفين حضارات تقوم على الوثنية ؟.

فهو الحقد الذي أعمى بصائرهم وأبصارهم، ولما خيل إليهم أن هذا الباطل لن ينطلي على ذوي العقول راحوا يلتمسون أسباباً أخرى يشوهون بها **الحضارة الإسلامية، فقالوا ـ مخطئين ضالين ـ : إن هذا الدين كله من عند** محمد ﷺ، وذهلوا عما جاء به محمد ﷺ من عند ربه وتلاه بلسانه على الناس من قول الله تعالى عن محمد نفسه : « ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين، ثم لقطعنا منه الوتين، فما منكم من أحد عنه حاجزين، وإنه لتذكرة للمتقين، وإنا لنعلم أن منكم مكذبين، وإنه لحسرة على الكافرين، وإنه لحق اليقين »[1].

عجيب والله أن يستمر أصحاب الحضارة الغربية على التهجم على الحضارة الإسلامية وهم عيال عليها منذ ما يقرب من خمسة قرون أو أكثر.

غير أن الأعجب من ذلك أن يعترف أصحاب الحضارة الغربية بالفضل عليهم للحضارة الإسلامية وهم الذين يمتصون خيرات الشعوب الإسلامية، ويتخذون من بلدان العالم الإسلامي أسواقاً لمنتجاتهم ـ بينما

---

(١) سورة الحاقة الآيات ٤٤ ـ ٥١.

يعلمون علم اليقين أن الحضارة الإسلامية تجعل المسلمين ملزمين بأن يحولوا بينهم وبين هذا الاستغلال وذاك الاستنزاف.

ولعل الذي أضل أصحاب الحضارة الغربية عن الحق وصرفهم عن الاعتراف به، أنهم حكموا على الحضارة الإسلامية من واقع المسلمين اليوم، وهو واقع، كما سبق أن قلت، مرير وضعيف وفيه كثير من مظاهر التخلف ــ وهو حكم ضال مضل، أدى إلى نتيجة أمعن في الضلال والتضليل وهي قول بعضهم : لو كان في الحضارة الإسلامية نفع لانتفع بها أصحابها.

ولقد تناسوا حقيقة نسوقها نحن لهم في هذا البحث في صراحة لا تعرف الخجل، وهي أن المسلمين اليوم لا يلتزمون بالكتاب والسنة ولا يأخذون بحضارة الإسلام في حياتهم، وإنما يأخذون من حضارة الغرب الممزقة الفاشلة، وما الفشل الذي يعانيه المسلمون اليوم أو الضعف الذي يعيشونه بسبب الأخذ بحضارة الإسلام، وإنما هو بسبب عدم الأخذ بحضارة الإسلام.

وإن على الأمة الإسلامية اليوم إذا أرادت أن تعيش في ظل الحضارة الإسلامية وتحت مظلة الإسلام أن يستلهموا قرآنهم وسنة نبيهم ﷺ في كل أمر من أمورهم السياسية والاجتماعية والعلمية والمادية.

كما أن عليهم أن ينصرفوا تماماً عن تقليد أصحاب الحضارة الغربية، فليس التقليد بلائق بهم ولا هو جائز لهم وهم أصحاب أكمل حضارة وأتم منهج وأدق نظام.

كما عليهم أن يدركوا أن الحضارة الغربية التي فتنت بعضهم قشورها قد فشلت تماماً في أن تحقق للإنسان نوعاً من الحياة الكريمة التي تتلاءم مع كرامة الإنسان وتكريم خالقه سبحانه له[1].

كما أن أهم ما يجب على المسلمين أن يكونوا مسلمين حقاً وصدقاً، وأن يعودوا كما بدأ أسلافهم مجاهدين في سبيل الله لتكون كلمة

---

(١) سنفصل ذلك في الدعامة الثالثة من هذا البحث وهي : فشل الحضارة الغربية في توجيه الإنسان.

الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، ماضين في جهادهم حتى لا يعبد غير الله في الأرض.

فهل حان الوقت لكي يصبح المسلمون أصحاب القرآن أصحاباً للقرآن، يندفعون به في حياة الناس ويهدونهم بنورة، ويأخذونهم به من مهاوى الضياع والضلال، مؤمنين بأنهم خير أمةأخرجت للناس، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتدعو إلى الله على بصيرة.

هل يعي المسلمون اليوم والشباب منهم بوجه خاص قول الله تعالى : « وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون »[1]، وقوله سبحانه : « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين »[2].

إن الأمل في ذلك معقود على الشباب أكثر من سواهم، فهم أمل الأمة الإسلامية وهم مستقبل الحضارة الإسلامية، المستقبل الحي النابض الفاعل القادر على أن يأخذ بيد الإنسانية نحو رشدها، نحو دين الإسلام وحضارة الإسلام.

---

(١) سـورة الأنعام آية ١٥٣.

(٢) سـورة الإسراء آية ٩.

فشل الحضارة الغربيّة في توجيه الإنسان

لعل أبرز أسباب فشل الحضارة الغربية في توجيه الإنسان، أنها لم تعرف قدر الإنسان ولم تضعه في مكانه الصحيح، وأنها آثرت عليه ما هو أقل أهمية منه.

وربما كانت عناية الحضارة الغربية بالعلوم التطبيقية أكثر من عنايتها بالإنسان، وإذا كان منهج العلوم التطبيقية والطبيعية وغيرها يقوم على مشاهدة الحواس وإجراء التجارب وسلامة التطبيق، فإن معنى ذلك أنه لم يعن من حياة الإنسان إلا بالجانب الظاهر منها فقط، أما ما وراء ذلك من الظواهر، فإن المنهج العلمي أعجز من أن يرى فيه رأياً أو يرسم له صورة، ذلك أن الحواس التي رصدت المشاهدات العلمية وأجرت التجارب لا تستطيع أن تنفذ إلى ما وراء المشاهدات، وإنما يحتاج ذلك إلى وحي الله إلى رسله، وإلى عمق البصيرة في إدراك مرامي الوحي، وإلى إيمان القلب المتلقي عن ربه بطريق الوحي ما يكشف له حقيقة هذا الكون وما فيه من علوم ومشاهد وتجارب.

فهل كان للحضارة الغربية نصيب من العناية بجانب ما وراء الطبيعة، عن طريق الوحي ؟.

كل ما لدى الحضارة الغربية من وحي قد شوه وحرف وبدل ولعبت به الأهواء السياسية والكنسية، فأصبح شيئاً مختلفاً عما جاء من عند الله، بل

لم يبال بعض المفكرين بأن يصرحوا بأن الديانات نبعت من الخوف لا من الوحي، وبأن الإيمان بما وراء الطبيعة إنما هو مجرد تعويض لما في دنيا الناس من الجهامة والعبوس.

ونادى بعضهم بأن الديانات إنما هي تلبية لمطالب النفس البشرية، فهذا هو المؤرخ الانجليزي المشهور، « هربرت فيشر » المتوفى عام ١٩٤٠ م والذي كان وزيراً للمعارف في وزارة لويد جورج (١٩١٦ - ١٩٢٣ م) يكتب عن الديانات فيقول : « دلت التجربة على أن الدقة في تصوير ما وراء الطبيعة قليلة الأثر في اجتذاب الناس إلى الديانة، وأن شيوع ديانة من الديانات يرجع على الأرجح إلى مبلغ ما تلبيه من مطالب النفس البشرية قبل رجوعه إلى مطابقتها لواقع الحياة ».

ولقد انخدع أصحاب الحضارة الغربية بما حققوه من مكتشفات علمية، فجحدوا الإله وجحدوا الدين - مع زعمهم بأنهم مسيحيون - فعندما نشر عالم الفلك المعروف « لابلاس » (المتوفى عام ١٨٢٧ م) كتابه في حركة الأفلاك وطبيعتها شجع هذا رجلاً سياسياً هو « نابليون بونابرت » (المتوفى عام ١٨٢١ م) أن يسأل « لابلاس » عن عمل القدرة الإلهية في تنظيم الأفلاك، فأجابه بقوله : « إنني لم أجد في نظام السماء ضرورة للقول بتدبير إله ».

بل إن « ريبنان » المفكر الفرنسي (المتوفى عام ١٨٩٢ م) والعدو اللدود للحضارة الإسلامية، يتصور الدين حلماً من الأحلام يتعلق به الإنسان ليقوم بالأعمال الهامة.

وبعد « رينان » ومنذ وقت ليس بالبعيد قال « جيمس فيتز » : « إذا كانت الحياة الإنسانية في نشأتها قد استوفى العلم وصفها، فلست أرى بعد ذلك مادة باقية للدين، إذ ما هي فائدته ؟ وما هي الحاجة إليه ؟ إننا نستطيع أن نسلك سبيلنا بغيره، وإن تكن وجهة النظر التي يفتحها لنا العلم لا تعطينا ما نعبده فهي كفيلة أن تعطينا كثيراً مما نستمتع به ونتملاه ».

إنها الحيرة والضلال والاضطرابات التي يعاني منها أصحاب الحضارة الغربية، ونستطيع أن نلمس هذا في بعض الفلسفات والمذاهب المعاصرة

التي تستهدف تحطيم الإنسان وإن زعمت أنها تحقق له أكبر قدر من الحرية، وهي مذاهب نالت من الشهرة والبريق ما جذب إليها الغافلين والسذج وأخص منها : الوجودية، والفوضوية، والروتاري، والعراة، والخنافس.

وسوف أتحدث في عجالة عن الوجودية، التي هي من أخطر المذاهب المحطمة لكيان الإنسان، والتي تخلعه من مجتمعه، ازدراء منه لهذا المجتمع واحتقاراً لأية علاقات اجتماعية ولأية قيم إنسانية.

فهي فلسفة تستهدف هدم كل ما بناه الإنسان في تاريخه الطويل من عادات ومثل وفضائل ومأثورات، وتقويض كل دين سماوي من الأديان، تستهدف ذلك وهي تتبجح بأنها تؤمن بحرية الفرد وبحقه في التمرد على الجماعة ومقاومة طغيانها، كائنة ما تكون قيم هذه الجماعة.

ولا يعنيني هنا أن أتتبع الوجودية في مهدها الأول في « الدنمرك » على يد « كير كجارد » (المتوفى عام ١٨٨٥ م)، أو أن أتحدث عنها بعد ذلك في ألمانيا على يد « جاسبير وهبدجار » وإنما سأكتفي بكلمة عنها في عصرها الحديث في فرنسا على يد « جان بول سارتر ».

ينادي سارتر بأن ثمة نوعين من الوجود :

وجود الأشياء الخارجية وهو وجود في ذاته، وذاك موجود بالفعل لا بالقوة.

ووجود لذاته، أي أنه موجود ليحقق ذاته وهو الشعور.. ومن هنا كانت حرية الإنسان ـ عنده ـ هي صميم وجوده الشعوري القلق، فهو حر لأنه يخلق نفسه بنفسه.. في كل لحظة.. وكلمة حر عنده ترادف : أن الله غير موجود.

والوجودية التي ينادي بها « سارتر »، الحاصل على جائزة نوبل في الأدب عام ١٩٦٤ م، ثورة على الجماعة، وحرب على الدين وعلى الفكر، وعلى أية سلطة من السلطات، الأسرة أو المدرسة أو المجتمع أو الدين، لأنه يرى أن الإنسان يخلق نفسه بنفسه في كل لحظة، فما ينبغي أن يقيده في ذلك أي قيد من القيود.

ولئن برر بعض المتحذلقين آراء « سارتر » الهدامة بأنها كانت رد فعل لما جاءت به الشيوعية أو البلشفية أو النازية من أخطار قضت على حرية الإنسان وسحقته سحقاً من أجل الجماعة الوهمية ـ التي هي في الواقع ثلة من الحكام ـ فإن هذا التبرير غير مقبول لدى العقلاء من الناس، فضلاً عن أصحاب الحضارة الإسلامية، لأن النتيجة في كلا الموقفين واحدة وهي تدمير الإنسان بيد الجماعة أو بيد وجودية « سارتر »، وما عذر « سارتر » في إباحة الإجرام والشذوذ والتبذل والخيانة وكل نقيصة ما دام الإنسان يرغب في ذلك ؟.

إن الوجودية في حقيقتها حرب على الإنسان وتدمير له، وعن هذه الوجودية تفرعت كل المساخر الخلقية والانحرافات السلوكية عند العراة والفوضويين والخنافس والساخطين والرافضين ومرضى الأعصاب والمنتحرين.

إن حضارة الغرب تجاهلت أهم ما في الإنسان وهو روحه وقلبه وإيمانه، فهي جديرة بأن تدمره تدميراً كاملاً عما قريب، فقد نمت الحضارة الغربية عضلات الإنسان فمكنته من عبور الأجواء والمشي على القمر، ولكنها أضعفت روحه فلم يعرف الرحمة بأخيه الإنسان، ولم يعرف الحب والخير، بقدر ما عرف كيف يدمر أخاه الإنسان بالحروب الفتاكة، ولقد اعترف بهذا دهاقينهم من العلماء ومن رجال السياسة.

فهذا هو العالم الفرنسي « ألكسيس كارليل » (المتوفى عام ١٩٤٤ م)، يقول : « إنه راقب آثار المادية في تجاربه بالولايات المتحدة، فعزا إليها كثيراً مما يعرض للشباب من الخلل العقلي والخلط الخلقي، فضلاً عن تعويد الفكر أن يتشبث بالآراء الحتمية حتى يفقد القدرة على صحة الحكم والتبصر في الأمور »..

إن الحضارة العصرية تجد نفسها في موقف صعب لأنها لا تلائمنا، فقد أنشئت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقية، إذ أنها تولدت عن أخيلة الاكتشافات العلمية وشهوات الناس وأوهامهم ونظرياتهم ورغباتهم، وعلى الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا إلا أنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا ».

« .... إن التقدم الهائل الذي أحرزته علوم الجماد على علوم الحياة هو إحدى الكوارث التي عانت منها الإنسانية، فالبيئة التي ولدتها عقولنا واختراعاتنا غير صالحة بالنسبة لقوامنا ولا بالنسبة لهيئتنا.. إننا قوم تعساء ننحط أخلاقياً وعقلياً... إن القلق والهموم التي يعاني منها سكان المدن العصرية تتولد عن نظمهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية........ وسوف يدرك الاقتصاديون أن بني الإنسان يفكرون ويشعرون ويتألمون، ومن ثم يجب أن نقدم لهم أشياء أخرى غير العمل والطعام والفراغ...... وأن لهم واجبات روحية مثل الاحتياجات الفسيولوجية، كما سيدركون أيضاً أن أسباب الأزمات الاقتصادية والمالية قد تكون أسباباً أدبية وعقلية.. »[1].

وهذا هو الرئيس الأمريكي « ولسون » الرئيس السابع والعشرون للولايات المتحدة الأمريكية (١٩١٣ ــ ١٩٢١ م) يقول : « إن اختصار المسألة بأسرها هو ما يلي : إن حضارتنا لا تستطيع الاستمرار في البقاء من الناحية المادية إلا إذا استردت روحانيتها... هذا هو التحدي النهائي لكنائسنا ومنظماتنا السياسية وللرأسماليين عندنا، ولكل فرد يخاف الله أو يحب بلده ».

وهذا هو « جون فوستر دالاس » وزير خارجية أمريكا من عام ١٩٥٢ إلى ١٩٥٩ م يعترف بفضل الحضارة الغربية، ويسجل عليها أنها لم تنجح في توجيه الإنسان ولا بعث الطمأنينة في قلبه.

يقول دالاس : « إن هناك شيئاً ما يسير بشكل خاطئ في أمتنا، وإلا لما أصبحنا في هذا الحرج وفي هذه الحالة النفسية... لا يجدر بنا أن نأخذ موقفاً دفاعياً، وأن يتملكنا الذعر، إن ذلك أمر جديد في تاريخنا... إن الأمر لا يتعلق بالماديات، فلدينا أعظم إنتاج عالمي في الأشياء المادية، إن ما ينقصنا هو إيمان صحيح قوي، فبدونه يكون كل ما لدينا قليلاً، وهذا النقص لا يعوضه السياسيون مهما بلغت قدرتهم، أو الدبلوماسيون مهما كانت فطنتهم، أو العلماء مهما كثرت اختراعاتهم، أو القنابل مهما بلغت

---

(١) ألكسيس كارليل : الإنسان ذلك المجهول.

قوتها... فمتى شعر الناس بالحاجة إلى الاعتماد على الأشياء المادية، فإن النتائج السيئة تصبح أمراً حتمياً.

وفي بلادنا لا تجتذب نظمنا الإخلاص الروحي اللازم للدفاع عنها، وهناك حيرة في عقول الناس وتآكل لأرواحهم، وذلك يجعل أمتنا معرضة للتغلغل المعادي ـ كما كشفت عنه أنشطة الجواسيس الذين تم كشفهم حتى الآن، ولن تستطيع أي إدارة لمكافحة التجسس أن تقوم بحمايتنا في هذه الظروف.

لقد تقابلنا مع أقسى الاختبارات التي يمكن أن يلتقي بها أي شعب وهو اختبار الحياة في رفاهية، لقد قال يسوع : إن هذه الأشياء المادية سيحظى بها أولئك الذين يعملون من أجل ما أمر به الله، من أجل تحقيق عدالته، ولكن عندما يحدث ذلك فعندئذ يبدأ الامتحان الأكبر، لأن هذه الأشياء المادية يمكنها أن تصبح الصدأ الذي ينخر في الأرواح.

نستطيع أن نتحدث ببلاغة عن التقدم المادي الذي حققناه وعن روائع الإنتاج الجماعي، وعدد السيارات وأجهزة الراديو والتليفزيون التي يمتلكها أفراد شعبنا، ولكن المبالغة في وصف الماديات تعطي البعض فكرة بأننا قد أفلسنا من الناحية الروحية.

لقد أخفقنا بشكل يدعو إلى الرثاء في أن من الممكن الحصول على عدالة اجتماعية دون أن نمارس الإلحاد والمادية.

ونتيجة لذلك فإن كثيراً من قومنا قد فقدوا إيمانهم في مجتمع حر، وكأمة فقدنا كذلك إيماننا الديني، وممارسة شعائرنا الدينية على الرغم من أننا مازلنا متدينين، ولم نعد نؤمن بأن الإيمان يتمشى مع الظروف الحديثة، ومتى تحطمت الصلة بين الإيمان والعمل فلن نستطيع بعد ذلك أن ننمي قوة روحية نستطيع بها نشرها في جميع أنحاء العالم.

إن علينا أن نغير كل شيء، إننا نستطيع ـ بل يجب ـ أن نرفض كلية النظرية القائلة بأن الأشياء المادية لها الأولوية، والروحية تابعة لها.

إن العبودية والاستبداد لا يمكن أن يكونا صواباً حتى ولو بصفة استثنائية، ويجب أن لا نخشى وضع الأديان في مرتبة الصدارة بالنسبة لحرية

الإنسانية والتحرر، وأن نتمسك بالرأي الديني القائل : إن الله قد خلق الإنسان لكي يكون أكثر من منتج مادي، وإن غايته النهائية شيء آخر غير الأمن الجسدي.

ويجب أن نفهم بوضوح أن مجتمعاً حراً ليس معناه مجتمعاً يسعى كل فرد فيه لنفسه، بل إنه مجتمع متناسق، والقيود المفروضة هي قبل كل شيء روابط الأخوة المنبعثة من الإيمان، فإن الناس خلقوا كي يعيشوا إخواناً في رعاية الله... »[1].

هكذا فشلت الحضارة الغربية في توجيه الإنسان لأنها لم تعن به عنايتها بالجماد والماديات، ولم تستطع أن توقف التيار الجارف من الأمراض النفسية والعصبية والرغبة في التخلص من الحياة.

وحسب الحضارة الغربية أنها من صنع الناس للناس، وأنها تنكرت لكل دين، وانطلقت تشبع في الإنسان حيوانيته على حساب إنسانيته فكان ما كان من الحيرة والتخبط والضياع.

وإن التاريخ القريب سوف يشهد ـ في تصوري ـ عودة إلى الدين والتدين، وبحثاً عن وحي الله إلى عباد الله، لتستقيم عليه حياة الناس وعندئذ سوف يدرك أصحاب الحضارة الغربية أن ما بين أيديهم من الوحي قد حرِّف وبدِّل وشوِّه، ولن يجدوا من وحي الله لعباده إلا القرآن الكريم وسنة المصطفى ﷺ، وأمة إسلامية واحدة مترامية الأطراف تتحاكم إلى الحضارة الإسلامية وقد زالت عن أطرافها الحواجز المادية والمعنوية، يومئذ يقبلون على الدين الحق دين الإسلام، ويومها يفرح المؤمنون بنصر الله.

وإنا لنرجو أن يكون ذاك قريباً.

* * *

---

(١) جون فوستر دالاس : حرب أم سلام.

نجاح الحضارة الإسلاميّة في توجيه الإنسان

حاجة الإنسان إلى الأمن والطمأنينة لا تقل عن حاجاته الحيوية من مطعم ومشرب ومسكن، والحضارة الإسلامية هي وحدها من بين سائر الحضارات التي حققت للإنسان الأمن والطمأنينة في دنياه وفي آخرته، بينما أكثر الحضارات الأخرى نجاحاً ـ بمقياسهم ـ هي التي تحقق للإنسان الأمن والطمأنينة في الدنيا، وقليلاً ما يحدث ذلك، فهي حضارات قلق واضطراب في الدنيا وضياع وخسران في الآخرة.

وإذا كانت الحضارة الغربية تقدم للإنسان من وسائل الرفاهية ما يرضي حواسه المادية وشهواته ونزواته، فإنها تتجاهل روحه وأشواقه ومشاعره وأخلاقه، أوضحنا ذلك فيما سلف من البحث.

أما الحضارة الإسلامية فإنها تعني بالإنسان كلاً متكاملاً جسداً وروحاً، غريزةً وعقلاً، حاجات عضوية وعواطف وأخلاقاً، فهي بذلك حضارة الأمن والطمأنينة والرضى، حضارة السعادة في الدنيا والآخرة.

وأود أن أستعرض في هذا الجانب من البحث بعض العوامل التي جعلت من الحضارة الإسلامية حضارة الأمن والطمأنينة للإنسان، بل جعلتها الحضارة الوحيدة التي تقيم للإنسان أكرم وزن وتضعه في وضعه الصحيح دون إسراف في تمجيده ودون تقليل من شأنه.

أول هذه العوامل هو : التصور الصحيح للحياة الدنيا.

فقد وضعت الحضارة الإسلامية الحياة الدنيا في وضعها الصحيح دون أن تبالغ فيها كما فعلت بعض الحضارات، ودون أن تهون من شأنها كما فعلت حضارات أخرى.

ذلك الوضع الصحيح للحياة الدنيا يتمثل أصدق تمثل في تصوير القرآن الكريم لها ولمدى إقبال الناس عليها وتمتعهم بها وانتفاعهم بما فيها، في حدود ما شرع الله وما سن رسوله ﷺ، يتمثل ذلك في قوله الله تعالى : « يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا، إنه لا يحب المسرفين، قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون »[1].

ولقد أوضحت سنة رسول الله ﷺ حدود السلوك البشري في الطعام والشراب وأخذ الزينة، فيما رواه النسائي وابن ماجه وأحمد رضي الله عنهم بالسند الصحيح عنه صلوات الله عليه : « كلوا واشربوا وتصدقوا والبسوا ما لم تخالطوا إسرافاً ولا مخيلة ».

هذا في جانب ما أحل الله، أما في جانب ما حرم فقد أوضح القرآن ذلك ولم يتركه لهوى الناس، فقال سبحانه : « قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن، والإثم والبغي بغير الحق، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون »[2].

والرسول ﷺ هو الذي يحلل الحلال ويحرم الحرام بالوحي الذي أنزل الله عليه « الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي

---

(١) سورة الأعراف آية ٣١ ـ ٣٢.

(٢) سورة الأعراف آية ٣٣.

كانت عليهم، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون »[1].

ولا يجوز لإنسان كائناً من كان أن يحرم شيئاً مما أحل الله لعباده حتى ولو كان يتوارى وراء نزعات الزهد أو التصوف أو غير ذلك من الأمور: « يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم، ولا تعتدوا، إن الله لا يحب المعتدين »[2].

وكل ما في الأرض حلال للإنسان ما دام طيباً يرضاه الله له : « يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً، ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين »[3].

هذا تصور الحضارة الإسلامية للحياة الدنيا، لا انكباب عليها ولا حرمان مما أحل الله فيها. وذلك التوسط بين الأمرين هو أكبر عوامل الأمن والطمأنينة للإنسان لأنه يلائم فطرته، في حين نجد الحضارات الأخرى قد ضلت الطريق في تصور الحياة الدنيا.

فلقد بالغت بعض الحضارات في قيمة الحياة الدنيا، حتى رأت الإنسان فيها أصغر الكائنات وأعجزها، فخشع الإنسان في ظل تلك الحضارة واستكان أمام مظاهر الكون، وأخذ يعبد هذه المظاهر ويخشع لها، فعبد الشمس والقمر والنجم والشجر والصنم والحجر، فأهان في ظل تلك الحضارة إنسانيته وخسر دنياه وآخرته.

وبعض الحضارات أسرفت في التهوين من شأن الحياة الدنيا، فرأت فيها إثماً كبيراً وشراً مستطيراً، ورأت في لذاتها ومنافعها قذارة ونجاسة لروح الإنسان، وفرضت على الإنسان إذا أراد أن يدخل في الملكوت أن يتطهر من الحياة الدنيا ويعتزل ما فيها.

غير أن تلك الحضارة أدركت أن الإنسان بحكم فطرته مضطر إلى الانتفاع بهذه الحياة، وأنه مهما كان راغباً في ملكوت السماء فلا بد له من

---

(١) سورة الأعراف آية ١٥٧.

(٢) سورة المائدة آية ٨٧.

(٣) سورة البقرة آية ١٦٨.

مطالب لبدنه وحاجات لفطرته، فاخترعت هذه الحضارة **طريقاً** عجباً للخروج من هذا التناقض، فنادت بفكرة الخلاص، وهي أن شخصاً واحداً مخلصاً قد ضحى بنفسه، فكفر بذلك عن ذنوب كل من انتسب إليه وطهره من أرجاس الحياة الدنيا.

فالحضارات الأخرى قد تصورت الحياة الدنيا تصوراً لا يلائم فطرة الإنسان، لأنها بنت تلك التصورات على فكر الإنسان القاصر بحكم خلقته وقدرته، فهو لم يؤت من العلم إلا قليلاً.

وأضيف في هذا المجال أن تصور اليهودية والنصرانية للحياة الدنيا يعد من تصورات الفكر الإنساني القاصر، لأن اليهودية والمسيحية كما أوحى الله بهما إلى رسوليه موسى وعيسى عليهما السلام لم يعد لهما وجود منذ زمن طويل.

وثاني هذه العوامل هو : وضع الإنسان في وضعه الصحيح وذلك من أبرز العوامل التي جعلت الحضارة الإسلامية أقدر على توجيه الإنسان وأجدر أن تمنحه الأمن والطمأنينة.

فقد وضعت الإنسان في وضعه الصحيح دون تقديس له كما فعلت بعض الحضارات ودون تحقير له كما فعل بعضها الآخر.

والوضع الصحيح للإنسان في ظل الحضارة الإسلامية يفهم من الآيات القرآنية الكريمة التالية :

« فلينظر الإنسان مم خلق، خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب »[1].

« يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم، ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى، ثم نخرجكم طفلاً، ثم لتبلغوا أشدكم، ومنكم من يتوفى، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً... »[2].

---

(١) سورة الطارق آية ٥ ـ ٧.

(٢) سورة الحج آية ٥.

فالإنسان مخلوق لله تعالى متقلب في نعمه لا يملك لنفسه موتاً .ولا حياة ولا نشوراً، ولا رزقاً ولا ضراً ولا نفعاً، إنما الأمر كله لله، والإنسان بهذه الصفات كريم على الله أرسل إليه الرسل ليعلموه ويبصروه، ويطالبوه بعبادة الله، ويخبروه بأن الله سوف يثيبه على الطاعة وسوف يعاقبه على المعصية في الحياة الآخرة.

قال تعالى : « ولقد كرمنا بني آدم، وحملناهم في البر والبحر، ورزقناهم من الطيبات، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً »[(١)].

وسخر الله للإنسان ما في الأرض : « ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض والفلك تجري في البحر بأمره، ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، إن الله بالناس لرؤوف رحيم »[(٢)].

ولم تقبل الحضارة الإسلامية من الإنسان أن يتكبر أو يغتر أو يتعالى بجاهه أو ماله على عباد الله من إخوانه، ولو فعلت لكانت قد بالغت في قيمة الإنسان، كما لم تقبل أن تقلل من أمره أو تهون من شأنه حتى يصبح ــ كما فعلت بعض الحضارات ــ أقل من الحيوان، حيث عبد الإنسان الحيوان واتخذ منه إلهاً.

ولا قبلت الحضارة الإسلامية أن تنظر إلى الإنسان على أنه قد ورث الخطيئة واللعنة بمجرد ميلاده، ولذلك يفرض عليه أن يعيش منسحقاً أبداً متوارياً عن خيرات الحياة وطيباتها.

ولكي تتضح قيمة الإنسان على هذه الحياة الدنيا حرصت الحضارة الإسلامية على أن تحدد له وظيفته وهي أنه : خليفة لله عليها، ومن الله يستمد القدرة ومن رزقه يطعم وينعم، ومن سلطانه يستمد الجاه فيحكم ويدير ويرأس وينظم المجتمع الذي يعيش فيه. وكل ما في يد الإنسان من مال إنما هو على الحقيقة مال الله والإنسان مستخلف فيه، نادى بكل ذلك القرآن الكريم، قال تعالى : « وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة،

---

(١) سورة الإسراء آية ٧٠

(٢) سورة الحج آية ٦٥.

قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك، قال إني أعلم ما لا تعلمون »[1]. وقال سبحانه : « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه، فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير »[2]. وقال جل شأنه : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً »[3].

والمنطق السليم يستوجب أن لا يتصرف المستخلف إلا فيما أذن له مستخلفه، ومن هنا كان الوحي وكان الرسل، كلهم يبلغ عن الله ما أمر به عباده وما نهاهم عنه وما أذن لهم فيه.

ويختار الله الإسلام ليكون آخر الأديان وأكملها، ومحمداً ﷺ ليكون خاتم الأنبياء وداعياً للبشرية كلها إلى عبادة الله سبحانه، قال تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً[4] ».

وقال سبحانه آمراً محمداً ﷺ أن يدعو إلى هذا الدين كل الناس : « قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً، الذي له ملك السموات والأرض، لا إله إلا هو يحيي ويميت، فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمّي الذي يؤمن بالله وكلماته، واتبعوه لعلكم تهتدون »[5].

فليست وظيفة الإنسان في الأرض أن يستبد بما فيها ومن فيها ولا أن تستبد به الأرض فتعصف بنفسه مادياتها وتمزق مشاعره كائناتها، وتقضي عليه حضارتها، إنما هو خليفة الله فيها يأتمر بأمره وحده، « بل لله الأمر جميعاً »[6].

---

(١) سورة البقرة آية ٣٠.

(٢) سورة الحديد آية ٧.

(٣) سورة النور آية ٥٥.

(٤) سورة المائدة آية ٣.

(٥) سورة الأعراف آية ١٥٨.

(٦) سورة الرعد آية ٣١.

وثالث هذه العوامل : توفير الأمن والطمأنينة للإنسان

فقد كان ذلك وسيظل من أقوى الأدلة على نجاح الحضارة الإسلامية في توجيه الإنسان نحو ما يصلحه في دنياه وآخرته.

وقد نجحت الحضارة الإسلامية في توفير الأمن والطمأنينة للإنسان لأنها كانت حاسمة في تحديد غايته من هذه الحياة، وهي غاية تتلاءم مع استخلافه في الأرض، وتتواءم مع فطرته التي فطره الله عليها، ومع طبيعة المجتمع الإنساني وما له من آمال مشروعة، وما يحيط به من مخاوف يجاهد في دفعها عن نفسه.

وما دام الإنسان كريماً على الله ــ كما أوضحنا ــ وما دامت وظيفته هي خلافة الله في الأرض، فإن الغاية لا بد أن تكون هي إرضاء الله سبحانه صاحب الأرض والنعم والمستخلف للإنسان في أرضه، وهي غاية منطقية يؤدي إليها التفكير السليم، وينص عليها القرآن الكريم في قوله سبحانه : « إن الحكم إلا لله أمر أن لا تعبدوا إلا إياه، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون »[1]. وقال سبحانه : « قل إنّ صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين »[2].

وقال جل شأنه : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون، وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن، ومن أوفى بعهده من الله، فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به، وذلك هو الفوز العظيم »[3].

وقال سبحانه : « فأقم وجهك للدين حنيفاً، فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون »[4].

---

(١) سورة يوسف آية ٤٠.
(٢) سورة الأنعام آية ١٦٢ ــ ١٦٣.
(٣) سورة التوبة آية ١١١.
(٤) سورة الروم آية ٣٠.

وقال تعالى شأنه : « ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى، وإلى الله عاقبة الأمور »[1].

فغاية الحياة وهدفها في ظل الحضارة الإسلامية ملائم لفطرة الإنسان منفرداً، وملائم لفطرة المجتمع الإنساني كله، لأنها غاية ناجحة تماماً في تحقيق الآمال الفردية لكل إنسان على حده، وتحقيق الآمال الاجتماعية للمجتمع الإنساني كله.

ذلك أن أي غاية غير الغاية التي حددها الإسلام لا يمكن أن يتفق عليها الأفراد أو تتحد كلمتهم في سبيل الوصول إليها، لأنها ستكون غاية مادية، وقلما يتفق الناس على الغايات المادية لما بينهم من التضارب والتطاحن من أجلها.

أما الغاية التي حددتها الحضارة الإسلامية من حياة الناس فهي إرضاء الله بعبادته، والاتفاق عليها والاتحاد في سبيل الوصول إليها ميسور، لأن الله سبحانه هو الذي يحددها ويحدد طريق الوصول إليها ووسائل الوصول وأدواته، وهي وسائل تمَّحي معها الفروق بين الطبقات وتذوب معها التناحرات، ويقضي فيها على النعرات والقوميات لأن تلك الوسائل هي طاعة الله والتزام وحيه وآداب ذلك الوحي.

والبشرية كلها عبيد لله، وعباد له إنْ آمنوا به وأطاعوا الرسول ﷺ، وسعي العبيد أو العباد في طريق يحدده المعبود سبحانه أمر لا يقوم حوله خلاف.

وإذا كان أكبر ما يصبو إليه الإنسان أو المجتمع الإنساني في هذه الحياة الدنيا هو الأمن والسلام والعافية والرفاه، والحكم والسيادة، فان الحضارة الإسلامية قد كفلت ذلك كله للمجتمع الإنساني المؤمن بالله : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد

(١) سورة لقمان آية ٢٢.

خوفهم أمنا، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون »[1].

وهي غاية لا يستطيع الناس أن يختلفوا على فضيلتها وشرفها، لأن الله سبحانه هو الذي حدد لها الفضل وذاك الشرف.

وتحديد الغاية من الحياة على هذا النحو هو الذي يجعل الناس قادرين على اجتناب الإثم والشر والفواحش دون أن يختلفوا على تقدير هذه الشرور والآثام، لأن الله سبحانه هو الذي قضى بأنها شرور أو آثام.

وبهذا تدرك البشرية كلها أن طريق الوصول إلى غاية الحياة وهدفها طريق واحدة، مهما وقفت الشياطين على كثير من الطرق تزينها، وتوهم الناس بأنها موصلة إلى الغاية.

وليست الحضارات المختلفة التي تصورت للحياة غايات مختلفة ليس منها إرضاء الله سبحانه، ليست هذه الحضارات إلا شياطين تقف على مفترق الطرق، تضلل عن السليم منها الموصل إلى الغاية.

لذلك نادى القرآن الكريم على رسوله ﷺ وعلى كل مسلم في كل الأمكنة والأزمنة يحذر من طريق الشياطين ويلزم بطريقه، طريق الحق، فقال سبحانه : « وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا، السبل فتفرق بكم عن سبيله »[2].

تلك بعض العوامل التي جعلت الحضارة الإسلامية تنجح في توجيه الإنسان وترشيده وزرع الأمن والطمأنينة في قلبه، وهي ليست كل العوامل وإنما هي أوضحها عندي ـ في مجال هذا البحث المحدود ـ غير أن كثيراً من العوامل الأخرى التي لا تقل أهمية عن هذه العوامل يمكن أن نضمها إليها، ونكتفي هنا بالإشارة العابرة إلى رؤوسها. فمنها ما تميزت به الحضارة الإسلامية من وضوح المعتقدات وملاءمتها لفطرة الإنسان وللحياة نفسها.

---

(١) سورة النـور آية ٥٥.

(٢) سورة الأنعام آية ١٥٣.

ومنها أسلوب التربية الراشدة الذي أخذت به الحضارة الإسلامية أفرادها، والقيم الأخلاقية التي تسود هذه التربية، ليعيش الإنسان في ظلها آمنا مطمئناً مع نفسه وذويه ومع المجتمع كله، بل مع الكائنات المحيطة به.

إنها الحضارة التي تستهدف الخير في كل مذهب تذهب إليه، الخير للبشرية جمعاء في كل زمان ومكان ما دامت تؤمن بالله وتعبده وتجعل رضاه غايتها في الحياة.

وإذا كانت الحضارة الإسلامية هي حضارة الأمن والطمأنينة، فليس معنى ذلك أنها منحة يمنحها الله لكل من انتسب إلى الإسلام أو تسمى بأسماء المسلمين، بل لا بد للحصول على الأمن والطمأنينة من الإيمان ومن العمل الصالح في الإطار الذي رسمته شريعة الله وحددت أبعاده، ولذلك **ارتبطت ألوان الأمن والطمأنينة في القرآن الكريم بالمصدر الرئيسي لهذا** الأمن وتلك الطمأنينة وهو الإيمان بالله، ثم ارتبطا بالأسس التي يرتكز عليها الإيمان وهي الأعمال الصالحة، قال تعالى : « وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر، قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار، وبئس المصير »[1].

وقال سبحانه : « فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون، الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون »[2]. وقال جل شأنه : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله، ألا بذكر الله تطمئن القلوب »[3].

تلك حضارة الإسلام التي نجحت في توجيه الإنسان نحو ما يصلحه في الدنيا والآخرة.

* * *

---

(١) سورة البقرة آية ١٢٦.

(٢) سورة الأنعام آية ٨١ ـ ٨٢.

(٣) سورة الرعد آية ٢٨.

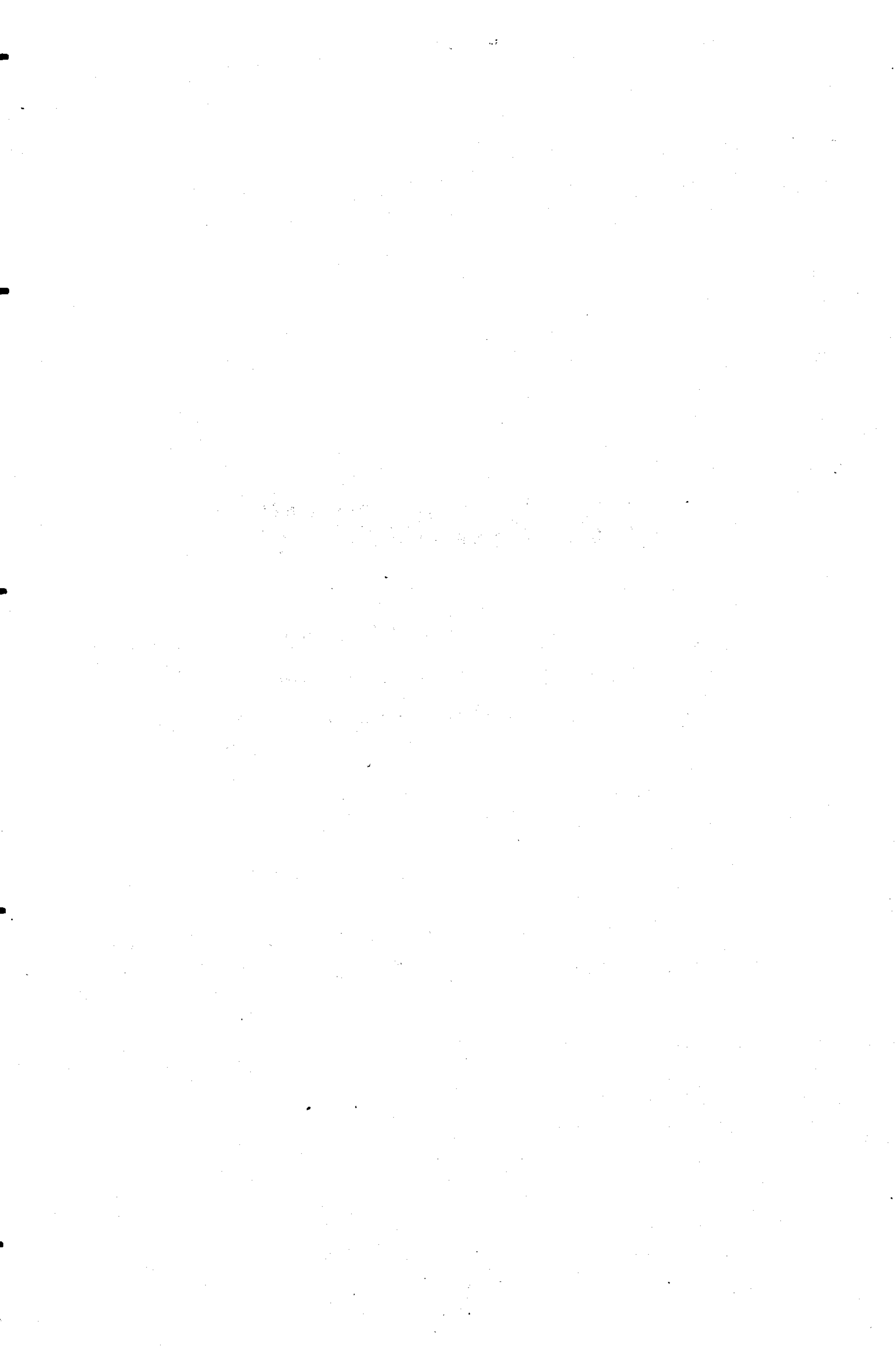
الخاتمة

في الختام أهيب بشباب المسلمين في هذا الملتقى الفكري أن يزدادوا تمسكاً بإسلامهم واعتزازاً بحضارتهم، ولن يكون ذلك إلا بمعايشة القرآن الكريم وسنة المصطفى ﷺ، فالقرآن دستورنا، لا دستور لنا سواه، والرسول ﷺ قدوتنا، ما جاءنا به وجب علينا اتباعه، والجهاد في سبيل الله، بالنفس والمال والجهد، هو سبيلنا لا سبيل لنا خيراً منه، والموت في سبيل الله أسمى أمانينا، لا نحرص على حياة اشتراها الله منا بالجنة.

ولا إله إلا الله محمد رسول الله، عليها نحيا وعليها نموت وفي سبيلها نجاهد وعليها نلقى الله.

يا شباب الإسلام إن واجبكم كبير وعملكم عظيم، والمستقبل لدينكم وحضارتكم، فاعملوا وسيرى الله أعمالكم، وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

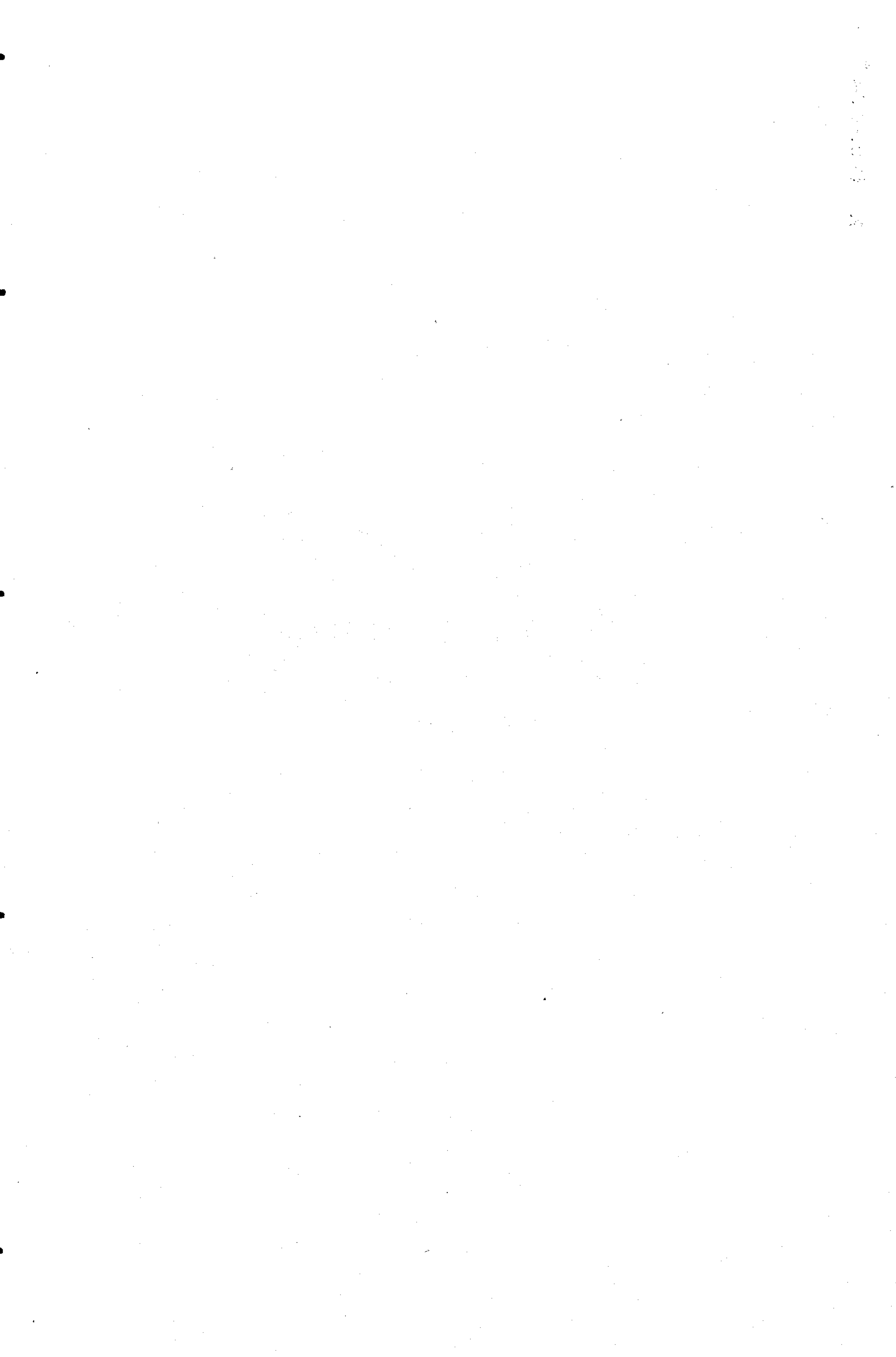


الإسلام والتطور البشري

نموذج توضيحي للدكتور عطية سويلم

الأستاذ بجامعة ولاية نيويورك - ستوني بروك

بحث مترجم عن الإنجليزية



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

لمـا كانت التغييرات التي تجتاح العالم المعاصر تتحدى الإنسانية على كل المستويات، فإننا نرى مختلف دول العالم تتسابق بسرعة مذهلة نحو القرن الحادي والعشرين، والقصة مألوفة حيث الكفاح المستمر يدور على كوكبنا الأرضي من أجل القوة، ومن أجل السيطرة على المعارف المادية والتقنية في المقام الأول.

ويبدو من وراء هذا النشاط الدؤوب للأمم، وربماكان غير ملحوظ المكان، يبدو الإنسان العادي الذي نخاطبه الآن ونعـرض أمامـه هذا الأنموذج. ومن سوء الحظ أنه في الأغلب الأعم حينما تنشغل الأمم بالتقدم تتغافل عن الفرد، وهذا شيء مجرب وملحوظ رغم أهمية الإنسان كفرد. ورغم كونه أصغر وحدة في المجتمع أو الأمة فإنه في الحقيقة أهم العناصر وأولاها بالاهتمام.

والآن ــ والعالم يبدو أمامنا كما هو ــ فإن هناك من الأسباب ما يدعو إلى توجيه الاهتمام إلى هذا الكائن البشري.

هناك العديد من البشر يواجهون الأزمات ومن بينهم المسلمون بطبيعة الحال. والمشاكل كبيرة والتشخيص عاجز ولا بد من أن نقوم بعمل ما. إن **علماء المسلمين يواجهون تحدياً هائلاً في طريق تطبيق توجيهات القرآن** والسنة واستخدام معلوماتهم في سبيل رضوان الله ابتغاء حل مشاكل الإنسانية المعذبة. إنه أقل واجب مفروض على كل مسلم.

مستوى المفاهيم :

« الرحمن، علم القرآن. خلق الإنسان، علمه البيان »[1]. إن مدخل هذه الدراسة يكمن في توضيح عملية التطور الإنساني على ضوء القرآن الكريم كنموذج للمفاهيم التي نتفيأها. إن تطور الإنسان في الإسلام محض استجابة لوصاية المولى سبحانه وتعالى على البشر. وعملية التقدم البشري إن هي إلا حصيلة التقدم التقني للإنسان مع سعي الإنسان للتجاوب مع المجتمع والطبيعة وفقاً لأوامر الله.

ومن ثم فإن الأنموذج يتكون من ثلاثة عناصر رئيسية وهذه العناصر هي :

١) قوة الله الصانع.
٢) الإنسان الذي زوده الله بطاقات معينة.
٣) البيئة باعتبارها مجال استغلال الطاقة.

إن الفكرة الرئيسية لمبادىء الإسلام في سبيل تطور البشر تتركز على الإنسان وتحقيق شخصيته وهدفه في الحياة. الإنسان هو خليفة الله في الأرض وقد أخضع له المولى سبحانه ــ من أجل تسهيل مهمته وأهدافه ــ **أخضع له الطبيعة وجعلها متسقة ومنظمة من أجل الحفاظ على الحياة.**

والسؤال الذي يوجه دائماً هو أين موقع الإنسان في هذا العالم ؟ الغرب يبالغ في إعطاء الإنسان هالة أكبر من حقيقته، حينما ينظر إلى علاقة الإنسان بالبيئة، ويمكن أن نطلق على هذه النظرة البعد الأفقي لعلاقة

---

(١) سورة الرحمن :الآيات ١ ــ ٤.

الإنسان بالعالم الذي يعيش فيه. والبعد الآخر سنطلق عليه البعد الرأسي، وهذا الأخير يؤكد على علاقة الإنسان بالله.

وهذه العلاقة هي التي تربط الإنسان بخالقه وفوق ذلك فإن هذه العلاقة تعطي الدليل النظري للحياة العملية في البعد الثاني كما مثلها الرسول محمد ﷺ الذي أقام توازناً كاملاً للحياة في مجال البعد الرأسي والأفقي.

وإذا أخذنا بعين الاعتبار جانب المفاهيم فإننا ندرك أن الإنسان نفسه كما أوضح المولى سبحانه ـ له عنصران أساسيان :

١) التكوين البدني (بمعنى أن الجسم البشري خلق من صلصال).

٢) والجانب العاطفي الروحي (أو النفس التي سواها الله بيديه).

ولكل جانب أو تكوين عناصر أخرى مشتقة منه كما يلي :

١ ـ عنصر التكوين البدني ـ تفاعل الإنسان مع البيئة تنظمه الشريعة باعتبارها برنامج العمل الذي يمكن الإنسان من تطوير نفسه في المجتمع بمقتضى الأبعاد الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

وقد ألمح القرآن بوضوح إلى معيار هذه التطورات كما يلي :

البعد الاجتماعي :

وينبني على إزالة الفوارق الطبقية والجنسية واعتبار الأسرة هي أساس القوة الاجتماعية حيث يقول القرآن.. « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون »[1].

البعد الاقتصادي :

وينشأ أساساً باعتبار أن الثروة من الله وقد أودعها المجتمع بغية التقدم والخير، وهذا يتطلب أن يقسم جماعياً ناتج هذه الثروة ويسد الحاجات الأساسية للأفراد وتنتهي الفجوة بين الأغنياء والفقراء : يقول

---

(١) سورة الروم آية ٢١.

القرآن : « وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها »[1].

« أفرأيتم ما تحرثون. أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون. لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلتم تفكهون. إنا لمغرمون. بل نحن محرومون. أفرأيتم الماء الذي تشربون. أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون. لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون. أفرأيتم النار التي تورون. أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون. نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين »[2].

البعد السياسي :

وهو العلاقة بين الحاكم والمحكوم

يقول القرآن :

« يا أيها الذين آمنوا : أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم، فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول »[3].

« ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون »[4].

١) **العنصر الروحي : وهو الصلة بين العبد (الجسم) وبين الله، وهو** أمر لازم للكائن البشري، ويشكل أساس العمل السليم.

ولروحانية الإنسان أبعاد كثيرة :

١ ـ الذكاء ـ يعتبر القرآن أن الذكاء البشري بغير حدود وأن كل شيء في متناوله وأن المعرفة تمنح القوة.

ومن ثم فإن المعرفة غير المحدودة تعني القوة غير المحدودة.

والإنسان لم يزود فقط بقوة غير محدودة لمعرفة الأشياء ولكنه قد مكن له أن يستخدم هذه القوة ويتصرف فيها.

٢ ـ الأخلاق : الإنسان كائن تنظم حياته قواعد سلوكية، وهو حر مسئول

---

(١) سورة هود آية ٦.

(٢) سورة الواقعة الآيات ٦٣ ـ ٧٣.

(٣) سورة النساء آية ٥٩.

(٤) سورة المائدة آية ٤٧.

ومدرك للقيم، ولكن حرية الإنسان تخضع لمشيئة الله وقوته باعتباره مخلوق يخضع لإرادة الخالق، أما الخالق سبحانه وتعالى فله الحرية المطلقة.

٤ ـ الإيمان باعتباره مركوز في وعي الإنسان يحقق له القدرة والاحتمال والاعتماد على نفسه.

وهذا هو نطاق البشر الذي يعبّر عنه في الحمد والثناء على الله والصلاة والدعاء والعبادة والإذعان والخضوع لإرادة المولى، سبحانه وتعالى، وباختصار يمكن أن يقال بأن الإنسان كائن متعدد الجوانب، وأن غاية الجوانب الروحية فيه تدعيم ذكائه وقوته وحريته وإدراكه للقيم والمسئولية ووعيه بالمقدسات واستقلاليته في التصرفات.

٣ ـ التقدم البشري :

إن العلاقات المتداخلة لعناصر تركيب الإنسان يمكن توضيحها على النحو التالي :

العلاقة بين الإنسان وخالقه وهي أساس وشرط لتوفير النجاح في علاقة الإنسان بالبيئة، وحيث أن علاقة الإنسان بالله أكثر تحديداً وخطوطها العريضة ومعاييرها الدقيقة قد حددها المولى سبحانه، فإن ذلك يعين كثيراً على نجاح علاقة الإنسان ببيئته ويجعلها أكثر توفيقاً.

إن الإجراء العملي للتقدم البشري يمكن التعبير عنه في الإسلام باعتباره نظاماً يولي اهتماماً خاصاً بعلاقة الإنسان بخالقه، فهو يوقظ ضمير ووعي الإنسان للارتباط بالله سبحانه وينشئ وعياً خاصاً بالهدف من الحياة.

ويجعل الإنسان يدرك مسئوليته وعلاقته بالوجود ككل، ويبصر الإنسان بالتزامه ببذل الجهد والاتجاه نحو العمل الصالح، ووفقاً للإسلام فإن وعي الإنسان بهدفه في الحياة هو لب الإدراك على أساس أن هدف الإنسان هو المفتاح الذي يمكنه من تحقيق ذاته وتوجيه علاقاته بغيره وبالطبيعة وفوق ذلك وقبله وبعده علاقته بالله.

ولما كان الإنسان لا دخل له في وجوده فإنه يعجز بالمثل عن إدراك الغاية من هذا الوجود ما لم يتجه إلى القوة التي تسببت في هذا الوجود، وأعني بها الله سبحانه وتعالى.

وعندما خلق الله الإنسان أرسل إليه الرسل ـ في نفس الوقت ـ لهدايته ـ وهؤلاء الرسل جميعاً من لدن آدم وحتى محمد ﷺ قاموا بدعوة الإنسان لعبادة الله، وجوهر هذه العبادة هو التزام الإنسان بالتمسك بالهدف الذي خلق من أجله.

إن الغاية العاجلة للإنسان أن يكون خليفة الله على الأرض كي يعمل على تطويرها.. يقول القرآن :

« وإلى ثمود أخاهم صالحاً. قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها، فاستغفروه ثم توبوا إليه، إن ربي قريب مجيب »[1].

« لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب، إن الله قوي عزيز »[2].

خـاتمـــة :

ينظر الإسلام إلى مفهوم التطور باعتباره أصلاً وأساساً فذاً وحافزاً لعلاقة الإنسان بخالقه.

وطبقاً لهذه العلاقة فإن أنشطة الإنسان جميعها نوع من العبادة طالما تمشت مع أوامر الله، وروح العبادة تدل على أن اهتمامات الإنسان ومصالح المجتمع لا يفترقان لانهما يخدمان غاية واحدة، وأعني بها تحقيق وصاية الله.

ويشير القرآن إلى مجال العبادة في آيات مختلفة، وعلى سبيل المثال

---

(١) سورة هـود آية ٦١.

(٢) سورة الحديد آية ٢٥.

فإنه يعتبر التفكير والتأمل في خلق الله طريقاً واضحاً إلى معرفة الله.. « الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض : ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار »[1].

ويعتبر الإسلام طريقه بمثابة القرار الحاسم الذي يقضي على أي انحراف أو عداء بين الإنسان وخالقه، وبين الإنسان والطبيعة، وبين إنسان وآخر، بين الوجود وغاية الحياة، بين الموضوعية وإثبات الذات، بين الفرد والجنس البشري.

وتبعاً لما سبق فإن التطور البشري كما يراه الإسلام عملية متسقة وعالمية، وهي نتاج العلاقات المنسجمة بين الإنسان وخالقه والمجتمع الذي يعيش فيه والطبيعة من حوله.

وعلى ضوء التقدم البشري في مستواه الاجتماعي فإن حالة الإنسان من وجهة النظر السيكولوجية الروحية إنما هي صورة للنفس وعلاقتها بالله. وهذا التفكير النابع من القرآن يلقي الضوء على زيف أنماط السلوك الغربية التي ترى أن سلوك الإنسان نتيجة عمل مؤثرات اجتماعية واقتصادية، وليس كما نقول بأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. إن الكائن البشري عليه أن يصلح البيئة سواء كانت بيئة اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية، وقد أوضح المولى سبحانه وتعالى بأن لكل إنسان حسبما قدم، وكما تزرع تحصد « والذي خبث لا يخرج إلا نكدا »[2].

ويمكن القول باختصار أن :

(١) الإسلام هو نظام للتطور والتحديث، باعتبار وصاية الله على الإنسان تستهدف هذه الغاية.

(٢) الإنسان هو المستهدف بهذا التطور في كافة النواحي لأنه :

أ ــ خليفة الله على الأرض.

ب ــ لأنه أسمى من كافة المخلوقات الأخرى.

---

(١) سورة آل عمران آية ١٩١.

(٢) سورة الأعراف آية ٥٨.

جـ ـ لأنه حر الإرادة.

د ـ لأنه قد عهد إليه بمسئولية التطور والعبادة.

(٣) والإنسان مخلوق متعدد الجوانب، فمن ناحية تركيبه هناك جانبان :

أ ـ الجانب البـدني

ب ـ الجـانب الروحي.

أ ـ **الجانب البدني** يتمثل في تفاعل الإنسان مع الطبيعة والبيئة والمجتمع على أساس من الأنشطة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. وتقوم الشريعة على تنظيم هذه الجوانب.

ب ـ **الجانب الروحي** ويتمثل في الإيمان بالله والصلة به سبحانه وتعالى.

(٤) التطور في الإسلام شامل ويمثل كلاً لا ينفصل، ولا يمكن تجزئته أو تقسيمه، فهو ينتظم الجانب الروحي والجانب البدني سواء بسواء.

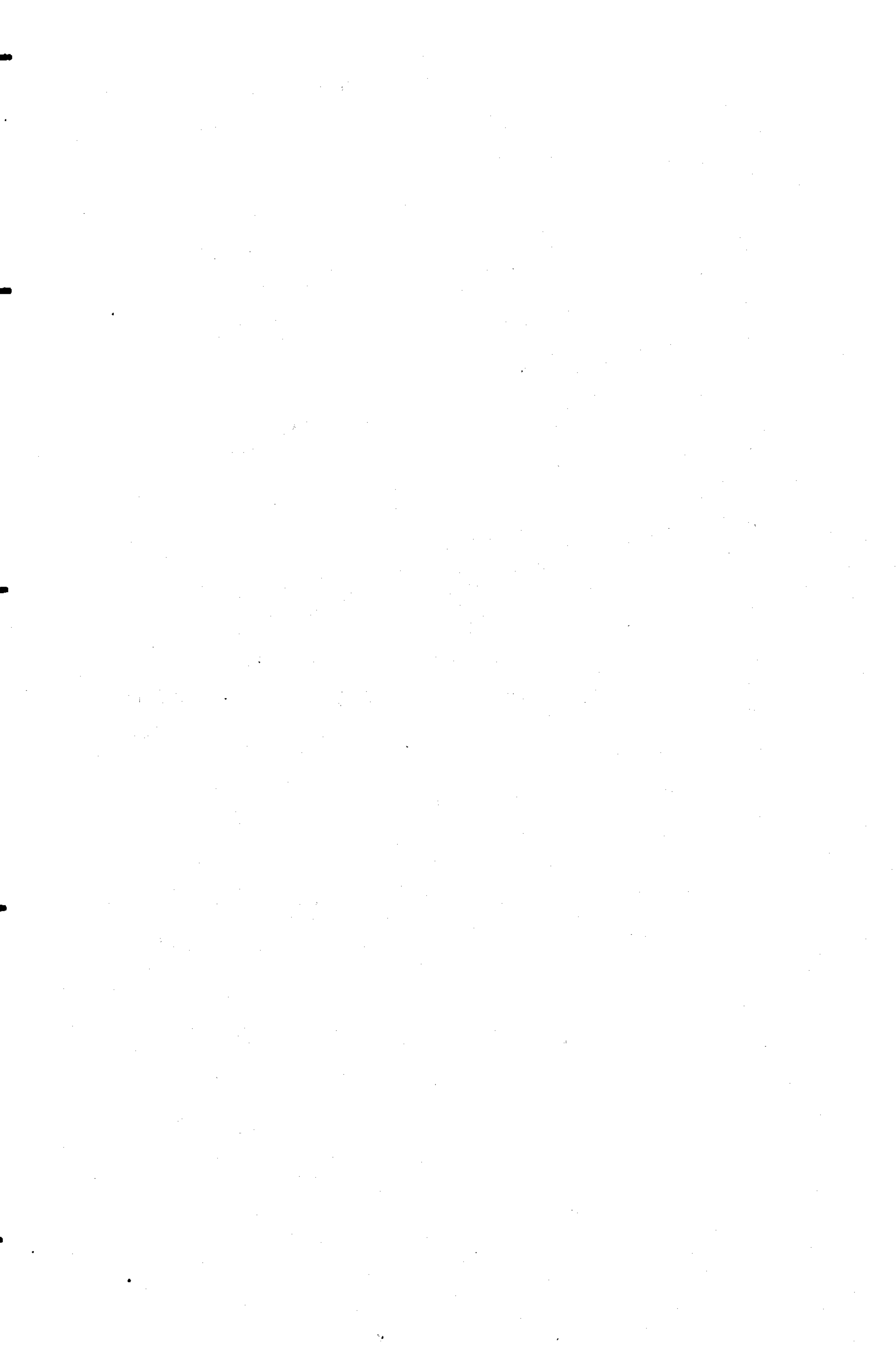
(٥) التطور الروحي شرط أساسي للتطور البدني.

(٦) إن عملية التطور يمكن إبرازها على النحو التالي :

الإيمان يؤدي إلى الوعي
الوعي يؤدي إلى الإدراك
الإدراك يؤدي إلى التحقق
التحقق يؤدي إلى بذل الجهود
وبذل الجهد يؤدي إلى التطور

الحضارة الإسلاميّة بين التحدّي والتعطيل

للأستاذ محمد علي ضناوي
رئيس التجمع الاسلامي - شمال لبنان



بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول

الحضارة مصطلحاً ومفهوماً

من المصطلحات الأكثر تعقيداً مصطلح الحضارة، فيكاد هذا المصطلح يجمع مئات التفاسير، وكل منها يعكس مرئياته الخاصة عن الوجود، ويختصر مفاهيم أصحابه عن الحياة. ولا غرو في ذلك، فمفهوم الحضارة هو مقياس لمستوى الإدراك، وعنوان على معطيات الأمم والشعوب، ومن خلاله يمكننا تفسير كثير من أحداث التاريخ ومضامين الثقافة والإبداع. وقد أكثر المؤرخون والفلاسفة والمفكرون في القرون المتأخرة من الأبحاث الحضارية، موضحين مفاهيمهم عنها ـ وبخاصة ـ تفسير تواريخ الأمم، توصلاً إلى رسم صورة أو أخرى للحضارة الأمثل التي يسعد الناس بها.

ولا يتسع هذا البحث لعرض وتحليل جميع تلك التصورات والآراء،

فهذا يخرج عن موضوعه، غير أننا لزاماً علينا توضيح بعض المعالم بقدر ما يتصل بالبحث، وبقدر ما يعين على معالجة المفهوم الإسلامي للحضارة.

الحضـارة هي المدنيـة :

أولى تأويلات الحضارة، تلك التي تجعلها مرادفة لمصطلح **المدنية، فالحضارة مدنية، والمدنية حضارة،** وكل الأقوام وبخاصة أولئك المتخلفين عن أنماط الحياة المدنية من بدو أو قبائل الأدغال هم غير متحضرين، وإن تكن عندهم مستويات من فكر **وسلوك،** وهذا الرأي الذي كان يحتل حيزاً كبيراً من مفاهيم لفيف من الباحثين ثبت بطلانه وتناقضه، فالحضارة تكون في كل مجتمع، ولو كان موغلاً في البدائية **المدنية،** إذ أن التجمع نفسه، والتفاعل ضد نمط للحياة معين... حضارة... غير أنهـا تختلـف في المستويات... ليس إلاّ...

الحضارة هي العقل أو التاريخ أو الاقتصاد :

وذهب فريق من العقلانيين، وهم الفلاسفة الغربيون الذين مجدوا العقل في عصور النهضة في أوروبا، إلى تعسف بيّن في تفسير الحضارة، **فجعلوها مرادفة للعقل نفسه، أو في أحسن الأحوال لثمرات العقل.** فلا حضارة إلا للظواهر الإنسانية المبنية على مقياس العقل **وتقريراته،** وطالما أن العقل ـ برأيهم، هو الذي يسود مختلف أوجه الحياة البشرية، فالعقل إذن هو الذي يفسر الحضارة ويعطيها أبعادها الصحيحة ؟. ومن خلال هذا المفهوم العقلي للحضارة تفرعت مفاهيم أخرى، فمنهم **من ظن أن الحضارة هي التاريخ،** فالتاريخ عندهم هو الحضارة، فهو الذي يعكس حركة الأمم والشعوب في صراعاتهم وثقافاتهم وأديانهم.

ومنهم من ذهب إلى **أن الحضارة هي العلم** المبني على مكتشفات ساعدت الإنسان على أن يحيا حياة أفضل، مستفيداً من البيئة حوله، فلا عبرة ـ في هذا المفهوم ـ **إلاّ** للتكنولوجيا، فهي الحضارة بدءاً أو نهاية، والعلم والمخترعات هما اللذان يمنحان الحضارة حيويتها ورقيها، وبالتالي مفاهيمها الصحيحة.

ومنهم من ذهب إلى أن الحياة ترتكز على عناصر اقتصادية أساسية تتكون من نتيجتها الحضارة. **فالحضارة هي الاقتصاد** ، ذلك ـ حسب ظنهم ـ ان مجموعة القضايا الاقتصادية تفسر التاريخ وتنازع الأمم والأفراد وبقاء الأصلح، فلا مهرب من القبول بالواقع الاقتصادي وربط الحضارة به سلباً أو إيجاباً.

الحضارة طريقة العمل والتفكير :

إزاء جزئية كل من هذه التعاريف، ومجافاتها في بعض جوانبها للواقع الحضاري، فقد بدأ بعض المفكرين محاولة إطلاق عموميات أخرى على مصطلح الحضارة، فغدت الحضارة عند « وليم هاولز » (١) مثلا : **كل ما يساعد « الإنسان » على تحقيق إنسانيته**.... ولولاها لكان مجرد نوع آخر من أنواع الحيوان. بينما حاول « تايلور » (٢) أن يكون أكثر دقة بقوله : (هي كل ما يتقبله **الإنسان كطريقة للعمل والتفكير**، وكل ما يتعلمه لغيره من الناس)، و (يدخل فيها أيضاً النظريات الخاصة بتفسير الكون تفسيراً فلسفياً يساعد على فهم الحياة وتسهيل المعيشة بشكل أو بآخر)، وكذلك (أساليب الضبط التي تهدف إلى إقرار النظام الاجتماعي وانتشار نماذج السلوك المقررة).

الحضارة هي الطاقة :

وبعد هذا جاء المشتغلون بمسائل الطاقة، فحاولوا مجدداً حصر **(الحضارة بالطاقة وبأساليب التحكم بها)** (٣) باعتبار **أن الطاقة هي** مصدر الانتاج والإبداع، والإنسان الأول استخدم طاقته العضوية الكامنة في جسده فكان الكائن العضوي أول مصادر الطاقة ثم تطورت....

الحضارة عند توينبي وكوهن :

ولا يتردد **أرنولد توينبي** في أبحاثه الحضارية، **في** محاولة ربط الحضارة بالكنيسة الكاثوليكية. فالحضارة، في رأيه، تنشأ عن الأديان، وأفضلها تلك التي تنشأ عن الديانة المسيحية الكاثوليكية برئاسة البابا، وهي ـ بدون تعمية ـ الحضارة الغربية التي هي وحدها تحافظ على (الشرارة

الإلهية الخلاقة)، وهي وحدها القادرة على أن لا تؤول إلى ما آلت إليه سابقاتها.

وقد جاء بحث توينبي هذا بعد أن حدد معالم الحضارة بقوله : (إنها حصيلة عمل الإنسان في الحقل الاجتماعي والمناقبي، وهي حركة صاعدة وليست وقائع ثابتة **وجامدة**، إنها رحلة حياتية مستمرة لا تقف عند ميناء ما) (٤).

ويشارك توينبي مفهومه ذاك الأستاذ هانزكوهن، الذي يؤكد بأن الحضارة العصرية أزلية وسرمدية وغير قابلة للانحطاط لأن الشرارة الخلاقة هي **نبعها ومصدرها** وأساسها. **وينبغي، والحضارة الغربية مثلى الحضارات، أن** تحاط حكماً بهالة من القداسة... (٥).

ابن خلدون والحضارة :

ويأتي العلامة **ابن خلدون** في مقدمة المشتغلين بالعلوم الحضارية، وجاءت مقدمته في التاريخ أبحاثاً ذات قيمة شاملة في **الحضارة**، ومع هذا فقد جاء تعريف ابن خلدون للحضارة مقتصراً على العمران وما يعرف بالمدنية وعمر الدولة، وهو تعريف قاصر.

الإسلام هو الحضارة :

وفي مقدمة المفكرين المسلمين في العصر الحديث، ممن تعرضوا لبحث الحضارة، **سيد قطب** الذي جاء بتعريف هو أقرب للشعار، عندما كتب فصلاً في كتابه « المعالم » تحت عنوان (الإسلام هو الحضارة)، (٦) مؤكداً بما لا يدع جدلاً أن الإسلام وحده الحضارة ودونه تخلف، وبالتالي لا يجوز إطلاقاً لفظ حضارة على ما سواه من **أمم**، وقد شابهه بذلك شقيقه **الأستاذ محمد قطب** عندما أنكر جواز إطلاق مصطلح الحضارة على أمم الإغريق والفرس والرومان وأهل الغرب باعتبار أن هؤلاء عاشوا ويعيشون جاهلية منكرة (٧).

الحضارة والوحي الهابط :

أما **مالك بن نبي** فقد حاول أن يربط الحضارة بالوحي الهابط من السماء

(فالحضارة لا تظهر في أمة من الأمم إلّا في صورة وحي يهبط من السماء ويكون للناس شرعة ومنهاجاً... فكأنما قدر للإنسان ألّا تشرق عليه شمس الحضارة إلّا حيث يمتد نظره إلى ما وراء حياته الأرضية) (٨).

الحضارة الإسلامية أو دين الإسلام :

ويتحدث الأستاذ أبو الأعلى المودودي عن الحضارة فيقول : (إنما هي نظام متكامل يشمل كل ما للإنسان من أفكار وآراء وأعمال وأخلاق في حياته الفردية أو العائلية أو الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية). ويعرف الحضارة الإسلامية بقوله : (مجموعة المناهج والقوانين التي قررها الله سبحانه وتعالى لكل هذه الشئون والشعب المختلفة لحياة الإنسان... وهي المعبر عنها بكلمة دين الإسلام أو « الحضارة الإسلامية ») (٩).

مجموعة المفاهيم عن الحياة :

ويفرق **تقي الدين نبهاني** بين الحضارة والمدنية، فيعرف الأولى (بمجموعة المفاهيم عن الحياة) بينما تقتصر الثانية على الأشكال المادية للأشياء المحسوسة التي تستعمل في شئون الحياة.

من هنا فالحضارة الإسلامية (هي التي تقوم على أساس الإيمان بالله)، وعلى (أساس العقيدة الإسلامية) (١٠).

هل يمكن تحديد معنى الحضارة بصورة تجريدية ؟ :

ومن خلال هذه المفاهيم والتصورات عن الحضارة تتضح المعطيات الأساسية الكامنة وراء هذه **التعاريف**، فكل يسعى لأن يوجد الارتباط الوثيق بين تصوره عن الكون والإنسان والحياة وبين ما يسمى (الحقيقة الحضارية) ليصل في النتيجة إلى تأكيد حضارية فكره وممارساته مغلباً عليها الطابع الذي يريد.

إن الحضارة ـ كمصطلح ـ **ينبغي أن تحدد بمعزل عن الأطر الفكرية طالما ارتضينا أن تكون الحضارة مصطلحاً**... أي أن تحاول تصدير الحضارة كما هي.... بقطع النظر عن صواب أو خطأ المعطيات

الفكرية أو الثقافية أو الدينية لأمة من الأمم... ذلك أن تحديد مفهوم الحضارة ـ على هذا المستوى ـ يساعدنا في النتيجة على فهم كثير من الأمور.

التفرقة بين الحضارة والمبادئ :

وأول ما ينبغي هنا أن نؤكده هو **أن الحضارة تفاعل، أي هي انعكاس لأنشطة الإنسان في هذا الكون، وهي ـ بمعنى أدق ـ صورة لممارسته المبنية على مبادئه وأهدافه وقيمه ومفاهيمه، أي أن الحضارة ليست المبادئ والأهداف بذاتها... فالمبادئ أو القيم أو التصورات تحمل معاني مصطلحاتها، وهي التي توحي بممارسات الإنسان المختلفة وعلى كل صعيد.**

أما الحضارة فهي نتيجة تلك المفاهيم في ظرف أو ظروف معينة، وهي أيضاً تفاعل الإنسان بالكون عبر زمان محدود أو أزمنة متعاقبة... ذلك أن المبادئ كالإسلام مثلاً، مجموعة قيم ومفاهيم عن الحياة تتضمن عقيدة وأمراً ونهياً وتنظيماً لشؤون الحياة المختلفة.

غير أن هذه المفاهيم، إن لم تمارس، تغدو تراثاً وكتباً قيمة ليس إلّا... والكلام المسطور لا يصح أن نسميه حضارة بل نسميه باسمه، أي مبادئ.. حتى إذا ما ترجم الكلام إلى واقع، والأمر والتنظيم إلى فعل وممارسة، **أي إلى وجود في عالم وإلى تفاعل في حيز محدود، ظهرت** الحضارة حاملة صفات التفاعل والتطبيق... عندها صح وصف الحضارة بالإسلامية وصح قولنا (الحضارة الإسلامية).

وهذا يعني أن القيم وحدها دون تطبيق ليست إلّا ترفاً فكرياً لا يوجد حضارة، **فالحضارة لا توجد إلا بالتفاعل.**

ومن هنا يمكننا أن نفهم لماذا جعل الإسلام الإيمان به يقيناً في القلب وعملا يدب في الحياة، غير أن هذا التفريق بين مصطلحي الحضارة والمبادئ لا يسقط استخدام المقاييس في تقدير الحضارات وتقويمها.... فبقدر ما تكون المفاهيم صحيحة وسوية وملائمة للإنسان ومعينة له على

الممارسة والانفتاح، بقدر ما تكون الصورة، أي التفاعل، أي الحضارة، مشرقة مضيئة. وبقدر ما تكون المفاهيم مجانبة للفطرة الإنسانية بقدر ما تبهت الصورة حتى قد تستحيل إلى ما يشبه الفولكلور أو الكاريكتور.

من هنا يمكننا أن نقول :

إن لكل جماعة إنسانية حضارة، مهما كان مستوى هذه الجماعة، الثقافي أو العمراني، ومهما كانت أفكارها وعقائدها، ويبقى الفارق الوحيد بين تلك الحضارات مستويات الأفكار والقيم ذاتها.

وعلى هذا، يمكننا أن نصف الجماعات المستغرقة في البداوة بالجماعة ذي الحضارة، كما يمكننا أن نصف الجماعات اليونانية والفرنسية والأسطورية والبابلية والفرعونية وأهل الغرب الرأسمالي وأهل الشرق الشيوعي.... بالجماعات المتحضرة... وإن كانت تلك الأمم أو لا تزال تؤمن بنظريات ومبادىء يثبت العلم والواقع المتجدد، فضلاً عن الإسلام، مدى مجانبتها للفطرة الإنسانية وانحرافها بها نحو متاهات الظلم والضياع والدمار...

إن البُطْلَ في المعتقدات لا يحجب في ممارسة تلك المبادىء حركة التفاعل، وبالتالي مصطلح الحضارة.

التصور الإسلامي للمصطلحات :

إن هذا التفريق بين الحضارة وبين صحة المبادىء أو بطلانها مبني على تصور إسلامي للمصطلحات العامة، فالإسلام الذي وصف حياة العرب، وكذلك حياة الأمم المنحرفة عن شرع الله، بالجاهلية، منددًا ببطل وزيف كثير من الأفكار والمبادىء والعادات، لم يبخل على تلك الحيوات بمصطلحات هي أقرب للقداسة وللفهم الديني السليم السوي. فمصطلح العبادة، التي هي جوهر ذو أبعاد هامة ومتسامية، نعت به الله فعل أولئك الأقوام : « قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون »[1]. حتى أنه لم يتردد أيضاً بوصف ممارسات المشركين حول البيت الحرام ـ التي لم

---

(١) سورة الشعراء آية ٧٥ ـ ٧٦.

تكن إلّا مكاء وتصدية ـ بمصطلح الصلاة : « وما كان صلاتهم عند البيت إلّا مكاء وتصدية »[1]... ولو أن هذه الصور تدعو إلى الاشمئزاز حيناً وإلى الإشفاق أحياناً أخرى... حتى أن صيغة **(الصبغة) التي هي مجموعة المبادئ والمفاهيم والتصورات عن الحياة جعلت في القرآن بصدد التفاضل بين صبغة الله الربانية الصافية وبين سائر الصبغات « صبغة الله، ومن أحسن** من الله صبغة »[2].

وعلى هذا، فإن قلنا، **الحضارة العربية ما قبل الإسلام**، صح القول وجاز ونكون عندئذ قد أطلقنا المصطلح على الصورة العربية في زمن محدود دون تحديد الموقف من تلك الصورة.

أما عندما نقول : **الحضارة العربية الجاهلية قبل الإسلام**، نكون قد حددنا الموقف وأوضحنا معطياتنا الفكرية إزاءها. وعلى هذا أيضاً يمكن وصف صور الحياة الفرعونية والأسطورية والإغريقية في القديم، والغربية المسيحية في الحديث والاشتراكية حتى الصينية والهندية، دون تردد أو خوف، بمصطلحات الحضارة لأن ذلك مفهوم إسلامي صحيح[*].

* * *

تعريفنا للحضـارة :

وكتعريف واضح لمصطلح الحضارة بمعزل عن خلفيات ومعطيات فكرية ومبدئية يمكن أن نقول :

الحضارة مصطلح يعني تفاعل الأنشطة الإنسانية لجماعة ما، في مكان معين وفي زمن محدود أو أزمان متعاقبة، ضمن مفاهيم خاصة عن الحياة. وهذا التعريف يوضح العناصر التالية التي تتكون منها الحضارة :

---

(١) سورة الأنفـال آية ٣٥.

(٢) سورة البقـرة آية ١٣٨.

(*) غير أننا من الناحية التعليمية وبفعل التمايز ـ كما سنبين بعد ـ يمكننا أن ننشىء أجيالنا على امتلاك المصطلح والموقف من الآخرين بآن معاً، فنقول بوجود حضارات منها الحضارة الإسلامية وإليها ننتسب، ومنها الحضارات الأخرى التي هي حضارات الجاهلية (أي التي لا تلتزم بالإسلام).

١) **الإنسان**، بكلياته، محور أي حضارة وهو صاحب التفاعل بما يملك **من أنشطة وقدرات عقلية جسدية وروحية توجهها مجموعة المفاهيم** والتصورات عن الحياة.

٢) **الحضارة تظهر مع الجماعة الإنسانية : أي أن الفرد وحده لا يوجد** حضارة، والتجمع شرط التواجد الحضاري.

٣) **المكان والبيئة** التي يجري فيها التفاعل.

٤) **الزمن** عنصر أساسي في حساب تفاعل الأنشطة وتحسس الوجود الحضاري.

إن هذا التعريف لمصطلح الحضارة، يسقط سلبيات ويؤكد إيجابيات عدة منها :

- فهو لا يعترف بنظرية تفوق جنس على آخر. وهي نظرية تقول إن الجنس هو الدافع الحضاري **وإن** بعض أجناس البشر تصعد وتتقدم بسبب أن جنسها مهيأ للتقدم بينما لا تتمتع أجناس أخرى بمواهب كافية للتقدم فتبقى عند حالات البدائية أو الركود.

إن نظرية الأجناس هذه شائعة عند معظم الأمم في الأعصر القديمة والوسطى، ولاتزال قائمة عند أهل الغرب وخاصة غرب أوروبا والولايات المتحدة اليوم .

- وهو لا يعترف أيضاً، بتفوق اللون الأبيض وركود اللون الأسود وعدم قدرته على التقدم في الأنشطة الإنسانية. وضمن مفهوم التفوق هذا أباح الأوروبيون لأنفسهم استرقاق السود وإذلالهم، والقضاء على الهنود الحمر سكان أمريكا الأصليين. كما أن نظرية تفوق الجنس الآري الأوروبي أباحت لهم استعمار واستغلال خيرات الشعوب الأخرى.
- وهو يجعل الناس سواء في صنع الحضارة، وفي التنافس في زيادة قدرة التفاعل لارتقاء أكبر، في خدمة الإنسان التجمعي.
- **وهو لا يجعل للبيئة أثراً حاسماً في صنع الحضارة، إلا أنه يجعل التفاعل** والإفادة من خيراتها مصدراً رئيسياً للحضارة وتقدمها.
- يعترف بالقيم محركاً أساسياً وهادفاً لأنشطة الإنسان.

تعريف الحضارة الإسلامية :

وعلى ضوء هذا التعريف كمصطلح الحضارة، وعلى ضوء المفاهيم الإسلامية وتصوراتها للكون والإنسان والحياة ـ والتي سنستعرضها فيما بعد ـ يمكننا تحديد وتعريف الحضارة الإسلامية بقولنا هي :

تفاعل الأنشطة الإنسانية للجماعة، الموجدة لخلافة الله في الأرض، عبر الزمن، وضمن المفاهيم الإسلامية عن الحياة والأكوان.

ويجمع هذا التعريف بين مصطلح الحضارة العام وبين المفاهيم الإسلامية المكونة (لصبغة الحضارة)، كما يظهر فاعلية الإنسان ضمن الجماعة المسلمة التي تتفاعل بدورها مع مختلف الكائنات المحيطة بها، (إنسان، وحيوان ونبات وعوالم)، من أجل إقامة خلافة الله في الأرض.

ثم إن هذا التعريف يتسع ليضم بين جوانبه حلقات الحضارة الإسلامية المتعددة والتي بدأت مع فجر التاريخ، عبر الأنبياء والرسل والمؤمنين بهم، حتى الحلقة الأوسع وهي الحلقة المبتدئة بعصر النبي محمد ﷺ وما تبعه من تفاعلات وأحداث.

وهكذا تغدو الحضارة الإسلامية الحضارة العالمية، تضم بين أرجائها تفاعلات الأمم والشعوب (المرسل إليهم) وتقبل في عضويتها العالم بأسره، أسوده وأصفره وأبيضه، عربه وعجمه، أوروبيه وأمريكيه، وتعمل لخدمة الإنسان وإسعاده، ليكون مع سائر الأكوان المحيطة به في وحدة حضارية كونية تتسامى في تمجيد واحد وفي تسبيح أصيل لخالق الوجود كله.

سورة العصر وعناصر الحضارة الإسلامية :

وفي القرآن سورة انتبه الصحابة الأبرار إلى معانيها فأوصوا بعضهم بتعهدها وبقراءتها عند اللقاء والافتراق، حتى قال عنها الإمام الشافعي : لو لم يكن في القرآن إلّاها لكفت الناس... ذلك أنها بحق تمثل معنى الحضارة الإسلامية، في مفاهيمها وعناصرها... تلك هي سورة العصر « والعصر. إن الإنسان لفي خسر. إلّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر »[1].

---

(١) سورة العصر الآيات ١ ـ ٣.

فالسورة ـ كما ترى ـ حوت عناصر الحضارة كلها بوضوح كامل : الإنسان ـ التجمع (صفة الجمع في السورة الذين آمنوا وعملوا) ـ الزمن ـ الصبغة، كما تضمنت التفاعل الحضاري المستمر : العمل والتطبيق والتنفيذ للمبادئ والمفاهيم..... وفي ذلك إشارات عميقة توضح ـ ما سنوضحه فيما بعد ـ أن تعطل التنفيذ يعطل الحضارة ويجعلها في حالة توقف بانتظار استئناف الالتزام بالتطبيق الكامل وعلى صعيد الأمة.

الفصل الثاني

ضوابط الحضارة الإسلامية

باعتبار أن الحضارة ممارسة لمجموعة المبادئ والمفاهيم عن الحياة في مكان معين وفي زمن أو أزمان، وتفاعل الإنسان بالأكوان المحيطة به، من أجل سعادة هذا الكائن البشري، وفق تصوره الايديولوجي الخاص، وجب على (مجموعة المبادئ والمفاهيم) هذه أن تعالج المشكلات المتواجدة في عناصر الحضارة الأساسية، فتواجهها بضوابط تكون من جهة قادرة على (حل تلك المشكلات)، ومن جهة أخرى على المحافظة على مسار الحضارة التصاعدي.

إن الضوابط الحضارية هذه لا تستعار بل هي ذاتية، تنبع من مجموعة التصورات العقدية التي هي خلفيات الحضارة... وبقدر عمق هذه الضوابط بقدر ما تستطيع الحضارة مواجهة التحديات والتغلب عليها.

إن الحضارة التي تفتقد تلك الضوابط هي، بلا ريب، حضارة حملت في طياتها سبب اندثارها وزوالها وتلاشيها، ذلك أنها عدمت أسباب الحياة والتصاعد والارتقاء.

وتتلخص هذه الضوابط بالعناوين التالية :

١) العقيدة وتوجيهاتها الأساسية، الفكرية والروحية والأخلاقية.

٢) الأنظمة والمبادئ الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.
٣) الدولة مفهوماً ومقومات.
٤) القيـادة المتفتحـة.
٥) اللغة الذاتيـة المبدعـة.

الحضارة وذاتية الضوابط :

وباعتبار أن هذه الضوابط لا يمكن أن تتجانس إلا إذا خرجت من مصدر واحد، بحيث تتأمن الوحدة فيما بينها والانسجام.... وهما شرطان أساسيان لتفاعل هذه الضوابط فيما بينها تأميناً لمسار الحضارة... أدركنا سراً من أسرار أفول واندثار كثير من الحضارات القديمة التي لم تكن تملك أكثر هذه الضوابط.

فهي ـ أي الحضارات ـ عاشت بالقدر الذي امتلكت فيه ضابطاً أو أكثر، واجهت به المشكلات الحضارية المتفجرة... حتى غلبتها تلك المشكلات فاندثرت وزالت، ولولا معالمها الأثرية من حجر ومقولات لما تحسسها العالم من بعدها، كما أن مفهوم الضوابط هذا يفسر لنا رجرجة الحضارة الغربية المسيحية اليوم وصرخات الاستغاثة التي تطلقها.

وقد حاولت الحضارة الغربية، منذ عصر النهضة في أوروبا، إيجـاد هذه الضوابط، ومحاولة تأمين الوحدة والانسجام بين الضوابط المصطنعة تلك أملاً في إضفاء السرمدية أو الاستمرارية على حضارة الغرب وإطلاق عبارة (الحضارة المثلى) عليها لأنها ـ على حد تعبير أرنولد توينبي ـ (متصلة بالشرارة الإلهية الخلاقة).

محاولة ردم الفجوات في الحضارة الغربية :

وقد انكبت النخبة الطليعية في أوروبا، وعبر عصور متلاحقة، على محاولة ردم الفجوات في جدار الحضارة المكون للضوابط، فاتخذوا من تراث الإغريق والرومان مصادر عطاءاتهم وطوروها عبر نظريات ومكونات، منها ما **هو ديني مستجد، ومنها ما هو نتيجة النظر والعقل الإنساني، ومنها ما هو**

تلبية لاحتياجات الإنسان الثابتة. فكانت الأفكار والفلسفات التي تعالج الإنسان والكون والحياة مع ما تحمل تلك التصورات والمفاهيم من تناقضات وتطلعات، فاستقرت الحياة الغربية على أنماط خاصة من التفكير شملت مختلف جوانب الوجود الحضاري، موجداً الضوابط الحضارية، محاولاً بها مد سيطرة فكره وأسلوبه وأنماطه إلى مختلف حضارات الدنيا، في جدية واضحة، وضمن إرادة دثر تلك المعالم، ملزماً العالم على هضم معطياته وتصوراته، آملاً من وراء ذلك أن يكون استقرار ضوابطه وامتدادها إيحاء بخلود حضارته وبجدارتها أن تكون وحيدة وعالمية.

ذلك هو ملخص سريع لأفكار « أرنولد توينبي » و « هانز كوهن » في كتاباتهم حول الحضارة الغربية.

وهناك فارق كبير بين أن تكون الضوابط مصطنعة من مجموعة أفكار ومعطيات متضاربة لا وحدة فيها ولا ترابط، وبين أن تكون ذاتية انبعثت عن المبادىء ذاتها، بل هي العقيدة إياها، أي أن الحضارة انبثقت ومعها ضوابطها المختلفة، فلا هي تصنعتها أو اصطنعتها، ولا هي استعارتها أو استعانت بمصدريات أخرى كي ترسم لنفسها معالم حدودها وضوابطها.

الإسلام امتلك ذاتية الضوابط الحضارية :

والإسلام وحده، بين سائر الأديان والأفكار والتصورات، الذي امتلك ذاتية الضوابط ووحدتها وانسجامها، بشكل يدعو إلى تأكيد عظمة هذا الدين وإلى منحه وحده عبارة الحضارة المثلى لاتصاله هو وحده بالشرارة الإلهية الخلاقة ــ على حد تعبير توينبي ــ فلا غرو في ذلك ! « إنّ الدين عند الله الإسلام » و (اليوم أكملت لكم دينكم، واتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً).

الدورة الحضارية :

وفي محاولة لتعمية هذا المعنى الدقيق حاول كثير من المفكرين والفلاسفة والباحثين ــ ومن المؤسف أن يكون بينهم علامتنا ابن خلدون الذي تراءى له الأمر كذلك، لاستقراء ناقص وتعليل مبتور ــ حاول هؤلاء أن

يجعلوا للحضارة دورة، لا مفر من المرور بها والانتقال عبر مراحلها. فالحضارة تولد ثم تترعرع ثم تشب ثم تكهل ثم تموت. فهي كالإنسان لها عمر معلوم ثم بعد أن تموت تكون قد انبثقت في مكان آخر. حضارة أخرى، وهكذا فإن (الدورة الخالدة) كما أسماها نيتشه هي قدر الحضارات.

ولئن جاز لابن خلدون أن يعطي الحضارة عمراً ـ كعمر الإنسان ـ إلا أن هذا لا ينطبق على مالك بن نبي ـ الذي أدرك هذا القرن ـ وكان من المفروض ان لا يقبل بالدورة الحضارية وعلى الأقل أن لا يطبقها على الحضارة الإسلامية.

جبل الحضارات :

وبعد أن امتلكت الحضارة الغربية مجموعة الضوابط ضمن مجموعة المفاهيم عن الحياة، وفق التصورات المصطنعة والمتضاربة ـ كما ذكرنا ـ جاء تفسير آخر لمراحل الحضارة فشبهوا الحضارة العالمية بجبل أشم ذي درجات.

فمن الحضارات ما تبقى في السفح ومنها ما ترتقي إلى درجات ومنها ما تتوقف بعد صعود ومنها ما تصل إلى القمة فتثبت فيها تبث إشعاعاتها المضيئة تظلل الإنسانية بسعادة لا تنقطع[١٢].

ومن ذهب هذا المذهب في تفسير الحضارات كـ (سان سيمون) **كان يريد أن يزعم أن الحضارة الغربية قد تكاملت عدتها فغدت في القمة** وهي باقية هناك في حالة خلود وإشعاع مستمر، (أرنولد توينبي وهانز كوهن).

وفكرة (الجبل) هذه أقرب للتصور والاستقراء من فكرة (الدورة الخالدة) غير أن اختلافنا ـ مع أهلها ـ يكمن في الحضارة الجديرة بالارتقاء والاستمرار والخلود والإشعاع ؟ تلك التي ملكت ذاتية الضوابط (الحضارة الإسلامية) أم تلك التي صنعت الضوابط بمعطيات متضاربة ؟ (الحضارة الغربية المسيحية ذات الأصول الإغريقية الرومانية).

نقول ذلك مع تسجيل مبادرتنا ـ هنا ـ مرحلياً ـ بالاعتراف بتوقف الحضارة الإسلامية عن العطاء لتعطل أصاب أكثر ضوابطها ـ كما سنبين ـ

وإن كنا نسارع هنا ـ أيضاً ـ **لتأكيد خاصية التوقف عن العطاء في الحضارة الإسلامية وهي عطاؤها وبكثرة، إفرازات جماهيرية تتحدد دوماً وتتحرك لإخراج الحضارة الإسلامية من توقفها إلى مرحلة استئناف العطاء من جديد.**

هذه الإفرازات هي سر ثبات الحضارة الإسلامية أمام الهجمات الماكرة والتغلب على الاندثار وفق نظرية الدورة الخالدة ـ على حد تعبير نيتشه ومالك بن نبي ـ أو الدورة المميتة على حد تعبيرنا وهو ما سنبينه فيما بعد.

* * *

الإنســـان والحضــارة

الإنسان الثابت عبر الزمن :

وكما قلنا في تعريف الحضارة، إن عناصرها تنحل إلى **إنسان** (بكل ما في الإنسان من معنى الجسد والروح والعقل)، **وبيئة** يعيش فيها ـ بصورة تجمع ـ ويتعامل معها، **وزمن** يجرب فيه التفاعل ضمن **مجموعة المفاهيم** التي اعتقدها الإنسان عن الحياة.

وهكذا فإن الإنسان هو أحد أبرز العناصر بل هو أهمها، (إذ هو الذي يستطيع توجيه الوقت وتوجيه التراب أو هو الذي عليه الإفادة من الكون في زمن محدود أو حد معلوم)[١٣]، **ولولاه لما وجدت حضارة ولما أدرك الكون ومعاني الحياة**، فالحضارة من أجله ولإسعاده، كما أن القيم كلها له وفي سبيل تنظيم وجوده وتحقيق غاياته الأصيلة في الوجود.

والإنسان، هو واحد لم يتغير، يتمتع بذات الخصائص والمقومات من عقل وروح وغرائز وجسد واحتياجات وإدراك لما حوله، وإن اختلفت هذه المميزات من إنسان إلى آخر ومن أمة إلى أخرى، فترتقي مقوماته تلك أو تجمد عند درجات البداية أو ترتكس إلى أدنى من ذلك، فتصقل أو تهمل، وفق حجم التطلعات العليا.

وقد بات مدركاً أن الإنسان عبر التاريخ والأمم ثابت لا يتغير، فهو منذ

وجوده الأول وإلى أن ينتهي يملك خصائص واحدة ومقومات واحدة. هو إنسان بالحس والشعور، بالطبائع والروح، بالأشواق والضرورات، بالآمال والآلام : ولا عبرة بعد ذلك بدرجات الترقي في هذه المقومات، إلا أنها موجودة ـ وهذا هو الأصل ـ في كل إنسان، في أية بيئة وجد فيها وفي أي زمن خلق فيه، وسواء كان لونه أبيض أم أسود، أو سكن الخيمة أم القصر، البادية أو المدينة، استخدم القطار أم اكتفى بالدابة والحصان... فتلك أمور جانبية ـ مظهرية لا تؤثر ـ فيما إذا عزلت عن معطيات فكرية وفلسفية ـ في الجواهر، إلا بمقدار محدود. فالإنسان الواحد ذو الشكل الجسدي الواحد والمعطيات والخصائص الواحدة، خلق (في أحسن تقويم[١]).

هنا تختلف النظرية الإسلامية عن النظريات الأخرى. فتلك تجعل الإنسان مختلفاً عن بعضه في جنسه ولونه فتختار الأبيض ـ من الألوان ـ لتستذل الأسود ولتبرر القضاء على الأحمر، وتفاضل، ضمن اللون الواحد، (الأبيض) الجنس الآري وتجعله الأول في جدارة الحياة والسعادة... مبررة بذلك إقدام الأوروبيين على نهب ثروات الشعوب وخيراتهم.

وفي سبيل تكامل هذه النظرية وتبريرها استفاد مبدعوها من الظروف المكانية والبيئوية التي وجد فيها الجنس الأسود ليثبتوا مدى تخلفه وعدم تمكنه من صنع الحضارة. حتى إن بعضهم تجرأ ليسقط الجنس الأسود من قائمة أجناس البشر محلين صيده والمتاجرة به.

وكما استغلوا هذه الظواهر لإثبات الفلسفة التمييزية العنصرية في الإنسان حاولوا أن يربطوا بين الإنسان ومكتشفاته، فأسقطوا عن الإنسان الأول خصائصه الإنسانية وصوروه لاهثاً وراء النار والأدوات الفخارية والمعدنية، فعرفوه بها بدل أن يعرفوها به، حتى إن (العقل الإنساني)، وهو من أكبر النعم **الإلهية التي كرمه الله بها (ولقد كرمنا بني آدم)[٢]، جعلوه مكتشفاً إنسانياً** بقي الإنسان عشرات الألوف من السنين دون أن يدرك أن له عقلاً، حتى إذا أدرك ذلك (كان العقل أول مخترعاته) وبعدئذ (خطا الخطوة الأولى نحو الحضارة)[١٤]، فكانت يده دليل ذهنه وكان عقله دليل يده.

---

(١) سورة التين آية ٤.

(٢) سورة الإسراء آية ٧٠.

النظرية الإسلامية في الإنسان تجاوزت العقد :

أما النظرية الإسلامية فقد تجاوزت هذه العقد التي ألبست زوراً أثواباً علمية جاء العلم بعدئذ ليتنصل منها ـ كما هو الحال بالنسبة لتفاضل الأجناس والألوان ـ وبالتالي ليثبت النظرية الإسلامية في أن البشر سواء، يملكون خصائص واحدة ومقومات واحدة وخلقوا في أحسن تقويم، لينطلق الإنسان بعدها إلى تحقيق سعادته ودوره في الحياة والوجود، فيترقى أو ينزل إلى تسفل مخيف وهبوط بشع ولو أنه ملك المكتشفات والمخترعات.

أليست وسائل التدمير وأدوات التخريب التي تملكها الأمم المتحضرة والتي يخترعها الإنسان لتدمير نفسه، كما أن المستويات الإباحية والفوضى الخلقية في أرقى المجتمعات المدنية، أليست هذه وتلك توضعان في خانة الهبوط البشع وفي أسفل سافلين...

الإنسان عاقل من أول يوم :

إن النظرية الإسلامية جعلت الإنسان عاقلاً ومدركاً للأشياء من أول يوم خُلق فيه : « وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين »[1]. ثم جاء التكليف في الدنيا : « قلنا اهبطوا منها جميعاً، فإما يأتينكم مني هدىً فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون »[2].

بل إن الصراع بين آدم والشيطان كان مبنياً على عقل الأمور وإدراك أبعادها ومخاطرها وسلبياتها وايجابياتها. كما أن الصراع بين قابيل وهابيل أخذ هذا الطابع، فعند أحدهما سيطر العقل والهوى، وعند الآخر سيطرت الغريزة والهوى حتى أعماه عن عقل كيف يواري سوءة أخيه، فجاءه الطير معلماً فيصرخ : « يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي، فأصبح من النادمين »[3]. وتقرر النظرية الإسلامية أن الروح الإلهية التي

---

(١) سورة البقرة آية ٣١.

(٢) سورة البقرة آية ٣٨.

(٣) سورة المائدة آية ٣١.

حلت بالإنسان الأول النفخة الربانية المباركة « ونفخت فيه من روحي »[1] هي التي أوجدت في الإنسان (القدرة الخاصة) المعبرة له عن كل خلق الله : ملائكة أو حيواناً أو جماداً، هي التي أجدت فيه « الوعي »، وعي الذات ووعي الكون والحياة وهي التي منحته « الإدراك » وكل ما يتصل به من خصائص ومقومات.

« **لقد نشأ الوعي في الإنسان ونشأ الإدراك لحظة إبداع جسد الإنسان روحاً من الله فاستحالت عندها مادة هذا الجسد إلى ذات عاقلة** مفكرة مدركة مميزة واعية تملك « القدرة » على معرفة ذاتها ومعرفة ما حولها **وتملك « القدرة » على إنشاء رابطة بينها وبين ما ترى، و « والقدرة » على « التمييز » بين هذه الأشياء بدقة وعمق، هذه القدرة هي روح منحها الله سبحانه لهذا الإنسان وكأنها من علم الله الذي خص منه ما شاء لهذا الكائن العجيب تكريماً له وتشريفاً وتأهيلاً للقيام بالدور المقدس الذي رسمه له (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة »**[2].

« **فآدم ــ كما أسلفنا ــ الإنسان الأول، استطاع أن يسمي الأشياء** بأسمائها أي أن « يعيها » بعد أن « تعرف عليها وبمعنى آخر أن « يميزها » بعد أن « عرف » صفاتها وخصائصها.

« **ولا ريب أن هذا « الوعي » أو « الإدراك » أو بمعنى شامل « المعرفة » ترتقي كلما تأصلت العلاقة بين الانسان وبين ما يحيط به : فكلما أحسن الصلة بما حوله من الوجود وأقام الارتباط المتين كلما تعمقت « معرفته » وتأصلت لا تخشى دركاً ولا حداً.**

من هنا كان الوعي « خاصة » من خواص الروح لا كما يقول « انجلز » (خاصة مادة عالية التنظيم).

والفارق بين النظريتين الإسلامية والبشرية هي : أن الأولى **تجعل الإنسان عاقلاً من أول يوم وتنيط به التكليف وتمنحه الطريق** « فإما

---

(١) سورة الحجر آية ٢٩.

(٢) سورة البقرة آية ٣٠.

يأتينكم مني هدى »[1]، وأما النظريات الفلسفية والتاريخية فتجعله، في أحسن الحالات، وحيداً في اكتشاف إدراكه وطريقه وسعادته ومن ثم توكله بأمر نفسه وعالمه يوجد لهما ما يشاء من نظريات ونظم....

نقول في أحسن الحالات لأن أسوأها يجعله قرداً أو ذا صلة بالقرود ثم يمنحه درجة الإنسان بعد حقب طويلة من الأزمان والأعصر.

وبقطع النظر عن هذه الخلفيات الهامة في الفارق بين النظريات إلا أن المهم اليوم **أن النظريات غير الإسلامية بدأت تتراجع لتنسجم مع النظرية الإسلامية** فقالت بـ (إن الإنسان جنس قائم بذاته... ولا معنى والحالة كذلك للإصرار على ربط الإنسان بالقردة أو بالقردة العليا)[16].

وإن (هذا الإنسان مهما اختلفت أجناسه يختص بخصائص جسمية وذهنية... مكنت له... في رحلته الطويلة مع الحياة.....)[17].

الحضـــارة والنظـــام

الإنسان الثابت في خصائصه محتاج إلى حضارة ذات معطيات ثابتة :

من هنا يمكننا أن نقرر مع النظرية الإسلامية باطمئنان كامل : « إذا ما استقرأنا التاريخ ودرسنا الإنسان في كل عصر من العصور ـ على ضوء النظرية الإسلامية ـ لوجدناه ـ كما ذكرنا ـ ثابتاً في الخصائص والمقومات ».

وانطلاقاً من هذا التقرير يمكننا أيضاً أن نقرر أن هذا الثبات في الكينونة البشرية للإنسان بحاجة إلى ثبات في المنهج أو إلى حضارة تضرب بجذورها إلى معطيات ثابتة إلى تصور ثابت لا يعرف الجمود... أو كما قال سيد قطب : (تصور له حركة ضمن إطار ومحور ثابت)، والثبات في المنهج مع المرونة اللازمة لتطور الحياة والأشكال امتلكه الإسلام ويكاد يكون وحيداً في هذا المجال.

---

(١) سورة البقرة آية ٣٨.

والنظرية الإسلامية صاحبة هذا المنهج منحت المؤمنين بها (فكرة **كلية عن الكون والإنسان والحياة، متسقة دون تصادم، عميقة دون تعقيد،** واضحة دون أي لبس أو غشاوة وهكذا غدت معالم الحياة : الذات الإنسانية والكون العجيب مكشوفة جلية)[١٧].

في تمام العبودية تمام الحرية :

وهذه المبادىء الثابتة المستقرة التي تتفق مع غاية الوجود الإنساني ـ الهادف إلى تحقيق خلافة الله في الأرض ـ تتلاحم مع الإنسان وتعتقه من كل إسار إلا عبودية الله التي هي علة الوجود ـ وفي تمام العبودية لله تمام الحرية كما يقول ابن خضرويه **إذ أن الإنسان مع غير الله حر، والحرية والوجود كل متحد**.. هذه الحرية التي تسمح للإنسان بكل حركة وبكل تطلع، فهو غير مقيد بشيء إلا بالقيم التي جاءت من أجله مقررة له هذا الوجود الحر وهذه الكرامة الرفيعة.

ويرسم الإسلام **العقيدة المطلقة بالله سبحانه** وهي عقيدة لا تعقيد فيها ولا تشويه، مقرراً إفراده بالوحدانية وبالخلق وبالإرادة وبالعلم وبصفات الربوبية والألوهية الكاملة حتى يغدو الإنسان الحر مطمئناً إلى عبودية إله فرد صمد راضياً به مقبلاً عليه راغباً بتوجيهاته ومبادئه.

وإلى جانب المبادىء الأساسية المتعلقة بالعقيدة وبتصورات الكون والإنسان والحياة **جاءت الأنظمة الإسلامية تكفل ضمان تنفيذ الأصول العقيدية** تلك في مجالات الحياة المختلفة « تربط » بينها برباط أصيل متين.

عملية ضبط الحياة بنظام واحد :

« **إن** عملية ضبط الحياة في نظام متسق متفق مع عمق التصور ومنسجم مع خصائص الإنسان هو أدق من الربط نفسه، فالنظام مسئول عن استمرار الربط ومنع الانحراف، ومسئول عن بقاء الناس في الخط المستقيم وعن تأصيل أبعاد التصور والمفاهيم فيهم وفي أجيالهم الصاعدة، وأيضاً هو مسئول عن نشر هذا التصور في العالم حتى يستقيم الناس جميعاً ـ إن أمكن ذلك ـ على أمر واحد وعلى منهج واحد وعلى حضارة واحدة.

ولا يمكن أن تستقيم حياة مجموعة من الناس إلا عندما تكون أنظمتهم في الحكم والسياسة والاقتصاد والاجتماع نابعة من تصورهم للكون والإنسان والحياة، ولا يمكن أن يوجد الانسجام بين الناس وبين أنظمتهم إلا عند وجود صلة روحية بين الاثنين : (تعارف يضرب بجذوره إلى الأعماق).

ومن الشروط الأساسية في الأنظمة **أن تكون مرنة**، هذه المرونة التي تضمنتها القيم التي جاءت بهذه الأنظمة. فباعتبار أن هذه الأنظمة تخص الإنسان في كل زمان ومكان لا بد لها من أن **تراعي عوامل التغيير والتطور** ضمن فهم دقيق وشامل لمجريات الأنشطة الإنسانية. وكما امتلك الإسلام العقيدة الواضحة والتصور البسيط، امتلك أيضاً **أنظمة تكفلت ثبات تصوره من جهة وتجسيد فكره العالي بواقع حياتي سليم**. ومن أجل ذلك كانت الأنظمة الإسلامية في كل مادق من الحياة وما عظم.

إن الأنظمة الإسلامية التي سادت ساحة الأنشطة الإنسانية وضعت بناء على **معرفة أصيلة بحاجات الإنسان وإمكانية تطور هذه الحاجات** غير الزمن. إلا أن هذا لا يعني أن أنظمة الإسلام متطورة فتتكيف مع الواقع أياً كان دونما اعتبار لأصل ثابت. إن الأنظمة الإسلامية بوجه عام ثابتة تتضمن الأسس التي لا حيدة عنها ولا خروج إلا أنها أيضاً مرنة فيما تبقى... في القضايا القابلة للتطور والتغيير في الأشكال التي من المفترض أن تتكيف في واقع أو مع ظرف معين.

« وبهذا تكون الأنظمة الإسلامية ــ وحدها دون سائر الأنظمة ــ قد جمعت الثبات في الأسس، والمرونة في التكييف، أي أنها جاءت منسجمة مع التركيب الإنساني »، وهي قد **تميزت بالتفصيل في جوانب الحياة غير المتغيرة** كالأحوال الشخصية وشئون العائلة، **وبإجمال غير موجز** ضمن قواعد مرنة لجوانب الحياة الأخرى القابلة للتطوير كالاقتصاد والاجتماع والمال والشورى ومختلف أنظمة الدولة.

« إن الإنسان في أي زمان ومكان ــ يستطيع ــ بسهولة أن يعتمد على الأنظمة الإسلامية الحياتية أو بعبارة أخرى أن يسلم لها فتمده هذه بصورة دائمة بأسباب النجاة وبمعطيات الاطمئنان وبأصول الحضارة

المثلى ». وليس من قبيل الصدفة، وقد ربط الإسلام أنظمته بفكرته الشاملة عن الكون والحياة والإنسان وبوظيفة هذا الإنسان في الوجود، أن يأتي القرآن بقواعد التشريع وبمبادىء أنظمة الحكم والاقتصاد والاجتماع في طيات آيات التوجيه فكان ذلك **إشارة ربانية خالدة إلى ضرورة إحكام الصلة بين التوجيه والتشريع.**

إن هذه الإشارة لتؤكد حقيقة طالما غفل عنها الناس وأصحاب النظريات الأخرى، وهي الوحدة العميقة بين التوجيه والتشريع وعدم الفصام بينهما، ذلك أن هذين المعلمين هما الضابطان الأساسيان من ضوابط الحضارة الصافية لاستمرارها في عطاء لا ينضب[١٨]

الدولـة والحضـــارة

الدولة مفهوم ومعطيات :

وفي هرم الضوابط الحضارية تأتي الدولة ضمن مفهوم ومعطيات أصيلة ترعى الإنسان وتكفل تجمعه وتسهل له معايشه، وتفسح المجال رحيباً لتحقيق التفاعل المستمر بين الإنسان والبيئة والأكوان، محققة في مجملها، الأمن والعدل والسعادة والاستقرار والكفاية، **وهي صفات أساسية في مقياس حضارة من الحضارات.** فالحضارة التي تعجز عن تحقيق هذا القياس تكون قد تعرضت لأقسى امتحان ينتهي بدمارها وإزالتها من الوجود إن كانت قد فقدت أيضاً الضوابط والعوامل الأخرى.

وللدولة كضابط حضارة، مفهوم خاص في الإسلام، يميزها عن الدول السياسية المتعارف عليها والتي أصَّل نظريتها « روسو » في عقده الأجتماعي من أن الناس قد تعاقدوا فيما بينهم على إنشاء دولة تكون من مقتضياتها أن تسير وفق إرادة الشعب أو أغلبيته فهي ـ أي الدولة ـ مدينة لهم بوجودها. **ثم تطور مفهوم الدولة ليصبح دولة الحزب حيث يُسَيِّرُ الحزبُ المجتمعَ** كما يراه هو أو كما يراه منفذوه، ثم جاء التصور الماركسي للدولة الذي يقول بحتمية زوال الدولة في النهاية لأن الناس، عندما يصبحون شيوعيين ـ يسيرون

أنفسهم بأنفسهم ولأن الدولة ـ في النتيجة ـ مظهر رأسمالي يقوم على القهر والإكراه **ويعمل على تحقيق مطامع الدولة الغنية.**

الدولة في النظرية الإسلامية :

أما النظرية الإسلامية **فتعتبر الدولة أمراً لا يخضع لمقررات الأكثرية والأقلية،** وهي موجودة حكماً ضمن مجموعة المفاهيم والتصورات عن الحياة. أي أن الدولة في الإسلام **لم توجد بتعاقد بين الناس وإنما وجدت بفضل الشرع نفسه** الذي ارتضاه الناس ديناً وأسلوباً في الحياة. فوجود الدولة غير مدين للناس أو للشعب بل مدين للشرع، من أجل هذا كان على الدولة أن تخضع للشرع لا للشعب وعليها أن تسير وفق المصدرية العليا.

ويتلخص مفهوم الدولة أيضاً أن الإنسان بالتزامه الإسلام ارتبط بعقد مع الله سبحانه وتعالى ولهذا العقد شروط وموجبات وبدل.... فمن شروط العقد وموجباته **أن يؤمن الإنسان بالله إيماناً عميقاً معترفاً بألوهيته وحاكميته** خاضعاً لكل أمر ملتزماً بكل نهي يصدر عنه. وبدل هذا العقد الذي تعهد الله به في الدنيا منهج حياة كامل يضيء الطريق ويوصله بطمأنينة **وهناء إلى** سعادة متكاملة وحضارة مثلى.... ومن أجل تنفيذ هذا العقد وإيصال البدل من الله كاملاً كان لا بد **من الدولة لتشرف** على استمرار **التراضي وتعين على** الالتزام بمضمون العقد....

وقد جاءت الدولة بأمر من الله. فالله سبحانه لا يعطي البدل ـ الذي هو منهج الحياة ـ إلا عبر الدولة، والناس المؤمنون لا يقدرون على تنفيذ عقدهم مع الله إلا من خلال الدولة.

ومن هنا تحتل الدولة دور الوسيط بين الله سبحانه وبين الناس. ومن أجل هذا كانت الدولة لله ـ جلت حكمته ـ وللناس. ومن هنا تغدو الدولة في الإسلام ضرورة كبرى وحتمية لا مفر منها ولا تستقيم الحياة بدونها.

الحضارة لا تصنعها الدولة :

ولا يعني القول أن البدل لا يظهر إلا مع الدولة، **أن** الدولة هي التي تصنع الحضارة باعتبار الحضارة انعكاس لممارسة المفاهيم. فالحضارة

ليست شأناً للدولة وإنما هي شأن الناس الذين يتفاعلون ويمارسون فيأتيهم البدل تصعيداً في خط الحضارة حيث الأمن والعدل والكفاية والرفاه. وهي ـ في المفهوم القرآني ـ بركات من السماء والأرض للذين يستقيمون على أمر الله. « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون »[1]. فبكل وضوح وبكل حتمية تطلق البركات في كل شيء، بركات في أنفسهم ووجودهم ودولتهم، في إنتاجهم وحضارتهم، بركات لا تنقطع ولا تنغلق، مفتوحة على مصراعيها، تعطي دون حساب وتمد الناس بأسباب الحياة والحضارة والتقدم وتطلقهم في خط الحضارة التصاعدي.

الدولة تنمو في خط تصاعدي :

إن الشرط الوحيد لكل تلك المعطيات الدفاقة استمرار المجتمع على نهج الله، الشرط هو الاستمرار وعدم الانحراف، فإذا وقع الانحراف توقفت الدولة عن ايصال البدل وأصيبت الحضارة بانتكاسة كبرى.

فالدولة إذن ـ من حيث المبدأ ـ تنمو في خط تصاعدي، وتغدو فائدة الحضارة الإسلامية أنها تقود المجتمع الإنساني إلى رعاية ربانية حانية، (بركات من السماء والأرض)... **وهذه الحتمية هي الأصل في بناء الدولة وهي التي تحفظ الدولة كضابطة حضارة.** يقول الدكتور حسين مؤنس في كتابه (الحضارة) (ص ١١) : (إن الإطار السياسي السليم هو ضمان كل تقدم وبدونه لا يمكن اضطراد مسيرة الحضارة، ولو أن المسلمين التزموا بالنظام السياسي المستقى من شريعتهم وسنة رسولهم لما انتكست حضارتهم ولا تدهور مجتمعهم قط).

* * *

---

(١) سورة الأعراف آية ٩٦.

دور القيادة الراشدة في صنع الحضارة :

ويأتي في قمة هرم الضوابط الحضارية القيادة الراشدة الواعية وهي القيادة التي تدرك مسئولياتها في تصعيد الحضارة ضمن المسار الأصلي فتعين على تفتح الكفاءات وتدريبها في سبيل ضمان استمرارية العمل الحضاري المنتج.

والقيادة هنا كل مسئول تتفاعل معه الدولة والأمة، بدءاً بالإمام أو الرئيس الأعلى وانتهاء بالشرطي، مروراً بكل المكونات القيادية الأخرى. غير أن الأهم في القيادة هم النخبة أو الطليعة من رؤساء ومفكرين وعلماء، فهؤلاء يملكون من التأثير على سائر أفراد الأمة ما يجعلهم بحق محط المسئولية الأولى عن تلكؤ الأعمال الحضارية أو تباطؤ التصعيد الحضاري.

إن وجود النخبة أو الصفوة القائدة في محطة المسئولية الأولى والأهم لا يناقض نظرية : (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته)، بل ان النظريتين تتكاملان بشكل مدهش ورائع من أجل ضمان استمرار الصعود الحضاري وعدم التوقف.

فالنخبة، عندما تجد قاعدة تتجاوب وتدرك المسئولية وتبعاتها بامكانها أن تترجم تطلعاتها إلى واقع ملموس. كما أن القاعدة الواعية تتمكن من محاسبة القيادة الراشدة، فتدرك النخبة أن هناك من يناقشها الحساب، أو بتعبير آخر هناك وعي حضاري عند الجماهير لا يمكن تغافله أو تجاهله.

ولا ريب أن أعباء ومسئوليات التوجيه والابتكار والنظر إلى المستقبل والتطلع إلى الأعلى تلقي بثقلها على كواهل النخبة والصفوة، وبقدر ما يكون شعور الطليعة بضخامة الأعباء شعوراً مرهفاً، وبقدر ما تواجهه النخبة بتصورات سليمة وبعقليات متفتحة، بقدر ما تتمكن هذه النخبة من تجاوز المشكلات الحضارية ومن دفع الأمة في مجالات الرقي والتصعيد.

وقد انتبه الفلاسفة والباحثون إلى أهمية هذه الصفوة فتحدثوا عنها في كل الحضارات والأمم، حتى أن « ارنولد توينبي » ربط كل تقدم بوجود الفئة القائدة هذه.

وتظل الأمة والجماعة بخير طالما أن هذه الطليعة متفتحة الآفاق والعقول، مدركة لحركة التطور وعارفة بطبيعة عصرها وبأساليب الحياة المستجدة، (**فرحم الله رجلاً عرف زمانه واستقامت طريقته**). **وعندما تبدأ هذه النخبة بالانغلاق على نفسها أو عندما تصاب هذه الفئة أو تفسد أو يقع الشقاق بين أفرادها فإنها تكون قد استنفدت أغراضها فتعجز عن القيادة الراشدة.**

فإن تمكنت الأمة أو الجماعة من إبدال القيادة بأخرى أكثر وعياً وحمية وتفهماً حافظت على مدها الحضاري وإلا فإن عدم التبديل هذا يكون قد أوصل الأمة أو الجماعة إلى ما يعرف بالعقم القيادي وهي مرحلة خطيرة تنتهي بتدمير الأمة وتفكك أجزائها ووقف العطاء الحضاري إن لم يوصل إلى اندثار الحضارة إن كانت قد فقدت سائر ضوابطها.

والإسلام اعتنى **بالقيادة عناية فائقة وأشعر القيادة أنها أكثر الناس عبئاً، فعليها أن تكون أكثر تفهماً ووعياً**، وقد عبر عن هذا المفهوم أبو بكر الصديق رضي الله عنه في خطاب الخلافة: (وليت عليكم ولست بخيركم، اطيعوني ما أطعت الله فيكم). حتى ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد ارتفع إلى قمم المسئولية حين قال: (اني خشيت أن أسأل عن دابة عثرت في أقصى العراق، لِمَ لَمْ أعبد لها الطريق).

* * *

اللغة الأصيلة ضابط حضارة:

ومن الضوابط الأساسية للحضارة: اللغة، وبقدر ما تكون اللغة أصيلة متينة بذاتها بقدر ما تتميز بها الحضارة.

واللغة وإن كانت أداة التخاطب والتعارف في الأمة إلّا أنها أيضاً الأداة الأولى والأهم في الثقافة الفكرية، وعندما تنتقل لغة ما إلى أمة أخرى ينتقل معها التأثر بثقافة تلك اللغة وعاداتها ومعطياتها ومفاهيمها عن الحياة وهو ما يسمى **بالغزو الثقافي عن طريق اللغة**، وتصبح اللغة أكثر من أداة وتتحول إلى ضابط حضاري كامل عندما تكون للحضارة معطيات فكرية متكاملة متصلة بالشرارة الإلهية الخلاقة ـ عل حد تعبير توينبي ـ أو عندما تكون

هي أداة المعجزة الخالدة كما هو شأن القرآن في الحضارة الإسلامية.

وقد تميزت الحضارة الإسلامية بلغة أصيلة فريدة جزلة ذات إيقاع موسيقي فريد، وقد اختار الله سبحانه للمفاهيم التي أرادها لبني البشر، كخطاب أخير منه للناس، لغة العرب : (إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون)[1]. فأصبحت العربية لغة الإسلام ولغة المسلمين الأولى وقد قبلها المسلمون غير العرب دون أي تعقيد أو شعور بالنقص وأحلوها الصدارة في ألسنتهم حتى كادت العربية تقضي على اللغات المحلية الخاصة، وكادت تكون اللغة العالمية الوحيدة لولا أن كانت أحداث واعتبارات تخرج عن بحثنا هذا.

إن هذه الإعتبارات وإن حالت دون القضاء على اللغات المحلية والقومية في بعض الأقطار كتركيا وإيران مثلاً إلّا أنها لم تتمكن من القضاء على أوجه التعريب في لغات تلكِ الشعوب.

وهكذا فإننا نجد كثيراً من المصطلحات والكلمات العربية تحتل حيزاً مهماً في تلك اللغات حتى أن الحرف العربي غدا الحرف التركي والإيراني... وبينما بقيت الإيرانية تكتب بالحروف العربية رأينا أتاتورك يتمرد على اللغة العربية في لغته فيكتب التركية بالأحرف اللاتينية قاصداً من وراء محاولاته المتعددة ضد المؤسسات الإسلامية وظواهر الحضارة فيها التنصل من الحضارة الإسلامية وتغريب تركيا تغريباً كاملاً.

وقد حاول الرومان من قبل فرض لغتهم اللاتينية دون جدوى حتى إذا ما أصبحت لغة للمسيحية كدين ورسالة إنتشرت اللغة اللاتينية لكنها ظلت لغة رسمية ثم اختلطت باللغات المحلية الأوروبية فظهرت اللغات المعروفة كاشتقاقات عن اللغة اللاتينية الأم. ومعنى هذا أن العربية وحدها قدرت أن تكون لغة شعوب لم تكن في الأصل تتكلمها وبقيت العربية لغة الحضارة الإسلامية وستبقى أصيلة في حفظ الحضارة وفي دفع أبنائها لإخراج الحضارة من نقطة توقفها إلى مرحلة العطاء الكامل.

---

(١) سورة يوسف آية ٢.

إن الحضارة الإسلامية وهي تتمتع بضوابط أصيلة ذاتية من عقيدة ونظم ودولة وقيادة ولغة، تميزها عن سائر حضارات الدنيا وتجعلها بحق الحضارة الأمثل والأقرب إلى طبيعة الإنسان وذاتيته لتطرح أمامنا ـ وهي اليوم في مرحلة التوقف عن العطاء ـ مجموعة تحديات أساسية كشروط مسبقة لإمكانية استئناف عطائها الأصيل من جديد.

الفصل الثالث

حالة التوقف في الحضارة الإسلامية

والظواهر الحضارية التمادية فيها

الضوابط الحضارية ـ المحكية آنفاً ـ تضمن المسار الحضاري في خط مستقيم وتحفظ على الحضارة حيويتها وعطاءها. فإذا كانت الضوابط هامة في كل حضارة فإنها في الحضارة الإسلامية أساس محتوم. فالضوابط بالنسبة للحضارة الإسلامية، كالروح من الجسد، فهي المناخ الوحيد الذي تتفاعل فيه المفاهيم وتظهر الحضارة، فإذا ما تعطلت هذه الضوابط أو بعضها لسبب أو لآخر، تترجرج الحضارة الإسلامية ثم يتوقف عطاؤها الكامل، وتمسي في حالة حضارية متميزة أعني **حالة التوقف عن العطاء**.

والتوقف عن العطاء يختلف عن الاندثار والتشتت، أو الأفول والغروب، فالتوقف عملية ذاتية تفرضها الحضارة على نفسها بفعل تعطل بعض أو جميع ضوابطها. فهي ـ أي الحضارة ـ موجودة في مفاهيمها ـ وربما في ممارسة جزئية لتلك المفاهيم ـ غير أنها محجمة عن العطاء والإشراق والإبداع. **ذلك أن الحضارة الإسلامية لا تقبل الترقيع وترفض التجزئة والإشراك** وأنصاف الحلول، وهذا الرفض هو أبرز معالمها ويدل بعمق على أصالتها

وقدرتها عل المجابهة والتحدي. **أما الاندثار والأفول فهو زوال الحضارة من الوجود** وتحولها إلى ركام من تراث ثقافي يتمثل عادة بفن المعمار وبكتابات علمية وفلسفية. أي أن الحضارة قد أصيبت بفعل التلاشي الكامل، وهو فعل يقضي على الإنسان المؤمن بمعطيات تلك الحضارة، ويقضي على ممارسة تلك المفاهيم والمعطيات ضمن واقع ملموس. فعندما يتلاشى **التفاعل وتسقط أسبابه ومبرراته نقول بضياع الحضارة لا بتوقفها لأن إنسان** تلك الحضارة مع مجتمعه قد انفصلا عن مفاهيم تلك الحضارة وتمردوا عليها فاندثرت تلك المفاهيم مع ركام التاريخ وحدثان الأزمان والأعصر وغدت غير قابلة للتفاعل والحياة.

إن الحضارة الإسلامية، وهي في مرحلة التوقف الذاتي تمتلك كثيراً من مقومات الحياة تلك التي لو كان مثلها عند حضارات أخرى لاعتبرت نفسها في مرحلة العطاء والقمة. فغالبية المسلمين لا يزالون يؤمنون بالمفاهيم الإسلامية العامة، مع ما شاب هذا الإيمان من اختلاط وانحراف، وكثير منهم يحاولون ممارسة الإسلام في مختلف شئون حياتهم، كما أن بعضاً من مؤسسات الإسلام العامة لا تزال تقوم في بلاد المسلمين، (تطبيق **الشريعة الإسلامية في بعض البلدان، في جوانب الحياة، كالأحوال الشخصية** والوقفية والمعاهد العلمية والحركات الإسلامية والمساجد والميراث والحج..).

ومع هذا فإن الحضارة الإسلامية الرافضة للتجزئة، ترفض أن تعطي أو أن تخرج من مرحلة التوقف عن العطاء إلّا بعد توفر كامل الضوابط، فتغدو عندئذ حرة في تنشئة المجتمعات الإسلامية، وفي رسم أطر الحياة العامة فيها، وفي حمل كافة المؤسسات على الالتزام ـ **طواعية** ـ بمفاهيمها وتصوراتها.

التوقف يحمي الحضارة :

وتنظر الحضارة الإسلامية إلى أن التوقف عن العطاء أمر بالغ الأهمية، **فالتوقف يحمي الحضارة من أي زيف يلحقها،** كما أنه يجعل المسلمين في حالة ترقب وانتظار لعطائها، مما يدفعهم دفعاً إلى السعي الجاد

لاستئناف المسار الحضاري مع ما يرافق ذلك من الشعور بالذنب لانغلاق الحضارة على نفسها ورفضها العطاء بغياب ضوابطها أو بعض تلك الضوابط.

فالإسلام ينظر إلى التوقف عن العطاء على أنه **عقوبة استحقتها الأمة لتعطل** الضوابط أو بعض تلك الضوابط. فالانحراف عن المفاهيم الإسلامية وتعطيل الممارسة الصحيحة، يجبهان بعقوبة التوقف عن العطاء، **فلا يعقل** أن يكون مع الإنحراف عطاء كما لا يجوز أن يبقى الانحراف دون عقاب عادل.

التوقف بقـــدر :

على أن الإسلام وهو يدرك الأسباب المختلفة لهذا الانحراف، أو بعضها خارج عن إرادة الأمة ـ وهو ما سنبينه فيما بعد ـ لا يقسو في العقوبة، ولا يشتد في الامتناع عن العطاء، فحضارته تتوقف عن العطاء بالقدر الذي يجعلها غير مسئولة عما يحدث، وبالقدر الذي تحافظ به على نضارتها وخيرها، وبالقدر الذي تتمكن فيه من إيجاد ردة الفعل عند جماهير الأمة وفي دفعها لمعرفة أسباب التوقف ولمعالجة هذه الأسباب، كمرحلة أساسية لاستئناف العطاء الكامل. هذا « **القدر** » **ترسمه الحضارة الإسلامية بكثير من الدقة والتنبه والحذر، فهي من جهة ترفض العطاء الكامل، وهي من جهة أخرى ترفض أن يحولها التوقف إلى التفكك والاندثار.**

وهذا التوازن الدقيق هو مزية من مزايا الحضارة الإسلامية انفردت بها عن حضارات الأرض كلها.

الإفراز الحضاري وعملية التوازن :

إن عملية التوازن هذه هي أخطر ما في التوقف من قضايا شائكة، وفي سبيل ضمان نجاحه واستمراره بشكل مرن وفاعل، تقوم الحضارة الإسلامية وباستمرار، في إفرازات جماهيرية تكون هي صاحبة التفاعل والتوازن المطلوب.

والإفرازات الحضارية تلك ليست إلا مؤسسات حضارية شعبية كانت في مرحلة العطاء الكامل، وبقيت في مرحلة التوقف، كالمحاكم الشرعية والأوقاف والمساجد والمؤسسات التعليمية والفقهية والحج والزكاة ومكارم الأخلاق وحركات العلماء والمفكرين، أو يمكن إيجادها ضمن المفاهيم الإسلامية وتطور العصر، كالحركات الجماعية المنظمة (الأحزاب)، أو المؤتمرات العالمية والإعلام الموجه.

إن هذه المؤسسات، وهي تجسد أسلوب عطاء فاعل، تحافظ به الحضارة الإسلامية على وجودها، تغدو عناصر دافعة إلى إخراج الحضارة من التوقف إلى العطاء. فالمسجد مثلاً بما أهل له من تجمع شعبي يقوده إمام في صلوات وفي خطبة أسبوعية على الأقل أو في توجيهات أخرى هو مؤسسة حضارية فاعلة لا يمكن تجاهلها.

والحج المؤتمر الشعبي الكبير، الذي يتحرك في لحظات واحدة في ممارسات تعبدية واضحة يجمع الناس في حيز واحد وفي مظاهر واحدة لهو ظاهرة حضارية رفيعة تغذي الحضارة الإسلامية وترفدها بإفرازات شعبية أخرى وتحفظها من أي انهيار أو اندثار. **والمؤسسات العلمية تدرس الإسلام** في مختلف جوانبه وتعمل على تخريج مجموعات يبرز منها عناصر قيادية راشدة تتمكن من جذب انتباه واهتمام جماعات مسلمة في مختلف أقطار المسلمين من أجل استئناف حياة إسلامية.

والعلماء والمفكرون وما تدفعه المطابع من آلاف الكتب الإسلامية، كتب التراث وكتب المجددين فضلاً عن المجلات والصحف الإسلامية ظواهر حضارية فذة.

والحركات الإسلامية المنظمة الهادفة إلى استئناف الحياة الإسلامية وتصحيح مسار الحياة الإسلامية الحالية، وهي حركات شعبية جامعة، واعية لمسئولياتها الحضارية، تعتبر بحق من أهم الظواهر الحضارية في عالم اليوم أو في مرحلة التوقف الحضاري.

فالحركة الوهابية التي قادها محمد بن عبد الوهاب في أواسط القرن الثامن عشر كانت ـ كما يقول هاملتون جب ـ (صيحة إنذار مدوية ضد

الانحطاط في العالم الإسلامي).

والإخوان المسلمون والجماعات الإسلامية في باكستان وإيران وتركيا، ثم اتحادات الطلبة المسلمين في أوروبا وأمريكا، ثم المؤتمرات الإسلامية الشعبية والرسمية، ظواهر حضارية فذة، وهي بمثابة سلاسل متصلة الحلقات في أعمال وتطلعات من أجل استئناف الحياة الإسلامية من جديد.

ومحاولات تطبيق الشريعة الإسلامية، فضلاً عن تطبيقها الجزئي في بعض البلدان العربية والإسلامية والإصرار على جعل الشريعة مصدراً للتشريع والتقنين وعلى جعل دين الدولة الإسلام، ظواهر حضارية رفيعة.

هذه الظواهر وسواها مما تفرزه الحضارة الإسلامية وهي في حالة التوقف تشكل جداراً واقياً يحفظها من بعض العاديات، ويضفي عليها ـ وهي في حالة التوقف ـ طابع الحركة الذاتية الابداعية المتجددة. تلك الحركة التي تغدو حركة مجابهة عنيدة ضد كافة محاور الهجوم المتمادي على الحضارة الإسلامية وضوابطها الحضارية مما ألجأها إلى حالة التوقف القسرية.

الهجـوم المـاكـر :

إن الهجوم الماكر الذي شنته حضارات الدنيا، وبخاصة الحضارة الغربية كان ولا يزال ضارياً شرساً متقدماً في كثير من المجالات، متمتعاً بكثير من الضمانات. وقد بدأ هذا الهجوم منذ فجر التاريخ الإسلامي فكانت محاولات التأثير الإغريقي اليوناني والروماني والفارسي والهندي والمسيحي واليهودي في الاتجاهات الفكرية والعقيدية الإسلامية، ثم كانت الهجمات الصليبية الضارية على بلاد المسلمين، أعقبتها هجمات التتار والمغول.

ولئن فتحت القسطنطينية بعد ذلك إلا أن الأندلس قد تفلتت من أيدي المسلمين واندثرت الحضارة الإسلامية في هاتيك البلاد. ثم كانت الحرب العالمية الأولى وما نتج عنها من استعمار كثير من المناطق الإسلامية

وتحول تركيا الدولة عن الإسلام والقضاء على القوانين الإسلامية فيها وعن الأحرف العربية في لغتها، وما رافق ذلك من بعث النعرات القومية في بلاد المسلمين ومن إصدار مجموعات القوانين المدنية والجزائية والتجارية والمالية في كافة الدول العربية والإسلامية منبثقة في معظمها من تشريعات الدول الغربية، ثم سارت المناطق الإسلامية في اتجاهات تحررية لطرد الاستعمار، فاستقل كثير منها بينما رزح بعضها الآخر تحت الحكم السوفياتي أو الشرقي، في حين أن الدول المستقلة أضحت فريسة لاتجاهات انبعثت أساساً من مفاهيم الحضارة الغربية أو الشرقية. **وفي غمرة الأحداث تلك ضاعت فلسطين في متاهات الصهيونية العالمية والتآمر الدولي وعانت الأمة ويلات هذا الضياع الخطر...**

وبالإضافة إلى الهجمة العسكرية الشرسة التي استغرقت قروناً طوالاً جاءت الهجمة « الحضارية » متآمرة على المفاهيم والتصورات الإسلامية في الصميم. ونعدد هنا أهم محاور الهجوم الماكر هذا فنذكر منها :

١) محور التبشير والاستشراق.
٢) محور الجمعيات والأحزاب.
٣) محور الاتجاهات الفكرية الحديثة.
٤) محور محاربة الاتجاه الإسلامي والتشكيك فيه[١٩].
٥) محور الدعوة إلى « التغريب » الحضاري الكامل حياة ولغة.

إن مكر وضراوة هذا الهجوم ليزيل معالم حضارات شتى ويجعلها خبراً يروى وذكريات يتفنن بالتندر بها، غير أن الحضارة الإسلامية بما أفرزته من مؤسسات واقية وبما تميزت به من قدرة ذاتية هائلة كامنة في كتابها الرباني الخالد « القرآن ». إن هذه الحضارة تمكنت ـ وهي في حالة الالتفاف على نفسها والتوقف عن العطاء ـ من تجاوز العقبات الحادة تمهيداً لمرحلة الخروج إلى مرحلة العطاء الكامل.

إن الوثبات التي نراها، متتالية دفاقة في العالم الإسلامي، ومن وراء الحدود في القارات الأخرى، لتؤكد بصورة جلية أن مرحلة التوقف قد شارفت على النهاية وأن الحضارة الإسلامية تستعد الآن لاستئناف ضيائها الوهّاج.

ولا يعني هذا أن مرحلة الخروج هذه سهلة ميسرة... فلا ريب أن المشتغلين في أمور الحضارات والمتآمرين في كل العالم يعيدون تنظيم صفوفهم محاولين الحيلولة دون استلام الحضارة الإسلامية زمام القياد العالمي ـ وهذا ما سنبحثه فيما بعد ـ ونكتفي هنا بالإشارة السريعة إلى نداء اطلقته مجلة « جويش كرونيكل » اللندنية إلى العالم الغربي والاتحاد السوفياتي بآن معاً من أن يروا جيداً **الآثار الرهيبة و (المضاعفات الهائلة التي يمكنها أن** تترتب على نزعة الجهاد لدى المسلمين) في الربع الأخير من القرن العشرين.[٢٠] وأوضحت أن واضعي الاستراتيجية السياسية الغربية سيتبينون قصر نظر فاضحاً إذا هم تجاهلوا الدعوات المتزايدة التي توجهها مؤسسات العالم الإسلامي وجامعاته إلى إعادة النظر في فوائد الحياة العصرية والعودة إلى التعاليم الأساسية للإسلام، وأكدت أن (لا العالم الغربي ولا الاتحاد السوفياتي يستطيعان رؤية يقظة العالم الإسلامي ونهضته في راحة بال...).

* * *

الفصل الرابع

التحديات التي تطرحها الحضارة الإسلامية

الحضارة ــ كما رأينا ــ تفاعلٌ بين الإنسان ومجتمعه من جهة وبين البيئة والأكوان المحيطة به. والحضارة الإسلامية ــ كما رأينا أيضاً ــ ممارسة المفاهيم الإسلامية القاضية بإقامة الخلافة عن الله في الأرض. وهذا المفهوم العريض للحضارة، وللحضارة الإسلامية بصورة خاصة، يجعل حضارة الإسلام في مواجهة نظرة وتصور شموليين لكافة أوجه الحياة، سواء كانت الحضارة في حالة عطاء أم في حالة توقف، في حالة مد أم في حالة انحسار ... وسواء كانت هذه الأوجه متعلقة بتجمعها الحضاري الخاص وباستمرار تفاعله أم في علاقتها هي كحضارة بالحضارات الأخرى.

والحضارة الإسلامية، إزاء تلك المواجهات تنطلق بعدة كاملة وبتصورات ثابتة تتحول بفعل الصراع إلى تحديات تأخذ أشكالًا صلبة حيناً ومرنة حيناً آخر.

وبحيوية تلك التحديات تمكنت الحضارة الإسلامية من الثبات إزاء الصراع وبالتالي من استيعابه وتجاوزه. وكشأن سائر خصائص الحضارة الإسلامية فإن تحدياتها هذه منبثقة عن ذاتيتها الأصيلة وهادفة إلى تحقيق وجودها وتأصيله ....

التحديات السبع :

وفي مسيرة الحضارة الإسلامية نستقرأ سبعة تحديات أساسية :

١ ــ شرعة حقوق كاملة :

شرعة حقوق كاملة للإنسان وتجمعاته ودوله، وعلاقاته بالكائنات حوله من حيوان ونبات وجماد وأكوان.

وهذه الشرعة التي هي الأولى من نوعها في حياة البشرية الأولى في تكاملها وشمولها، والأولى في عدالتها ووضوحها، والأولى في إمكانية اعتمادها في كل زمان ومكان، هذه الشرعة تتمثل في التصورات الأساسية للوجود كله.

وتتضمن هذه الشرعة الإنسان من حيث وجوده، غاية وتنظيماً، ومن حيث علاقاته بربه ونفسه وبأمثاله، ومن حيث حرياته وأنظمته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدولية. كما تتضمن هذه الشرعة حقوقاً للحيوان وتحديداً لقيمته ومدى علاقة الإنسان به. وكما الحيوان كذلك النبات والجماد. فالنبات له حقوق ينبغي ألا تهدر، وعلى الإنسان أن يرعاها أثناء تعامله معه. والكون بفضائه وبأرضه وما فيها من خيرات ومعادن له أيضاً حقوق لا يمكن تجاهلها.

وعندما يقرر الإسلام شرعته الحضارية الشاملة للإنسان والحيوان والنبات والأكوان، وينظم طبيعة العلاقات وطرق التفاعل بين هذه المخلوقات والحدود التي ينبغي أن تقف عنها كي لا تنقلب إلى عدوان، فإن الإسلام ــ بما امتلكه من شرعة واضحة ــ قد واجه العناصر الحضارية بكثير من التقدم والتفوق والجدية مرسياً بذلك قواعد التفاعل الحضاري على أسس متينة ومدروسة.

إن إستقراء الحضارات الأخرى الماضية المندثرة أو المتجددة عبر حضارة

الغرب المسيحية وما تفرع عنها من حضارة شرقية شيوعية، كما أن استطلاع شرعة حقوق الإنسان ودساتير جمعيات الرفق بالحيوان والجمعيات المهتمة بالنبات أو تلك المتعلقة بالبيئة والفضاء إن هذين الاستقراءين يؤكدان حقيقة واضحة هي أن الحضارة الإسلامية كانت سبّاقة في كل ميدان ومبرزة عن سواها حتى إنها لا تزال متفوقة على غيرها بكثير من المعطيات والخصائص.

٢ ــ الحلال والحرام والخاتم الحضاري :

وانطلاقاً من شرعة الحقوق هذه تحرص الحضارة الإسلامية على صبغ أصعدة الحياة كافة ومجالاتها المختلفة بطابعها المتميز حتى لكأنك تراها من خلال الحياة نفسها ومن الممارسات العديدة فيها. ولعل فلسفة الحلال والحرام هي الخاتم الحضاري الذي تطبع به الحضارة الإسلامية كل مقولاتها وممارساتها في شرعتها العالمية لحقوق الإنسان وعلاقات هذا الإنسان وتفاعلاته مع البيئة والأكوان والنبات والحيوان. حتى غدت تلك الفلسفة ميزاناً حساساً يملكه كل فرد ، صغيراً أو كبيراً جندياً أو قائداً مؤتماً وإماماً، بعفوية وصدق كبيرين.

إن فلسفة الحلال والحرام من أبرز معالم الحضارة الإسلامية بل هي سر من أسرارها، فهي فضلًا عن أنها ميزان يزن به المرء أعماله ويقومها على أساسه، فهي أداة واقية هامة يقيمها الإسلام في ذاكرة كل فرد **في سبيل منحه قدرات التدقيق والمراقبة على أعمال وممارسات وتفاعلات المجتمع برمته.**

وبواسطة هذا التصور العملي تمتلك الأنظمة والقوانين والشرائع والحقوق **خاصيات المراقبة الذاتية** ويغدو الفرد حارسًا لتلك الشرائع مطبقًا لها بعفوية وقصد على السواء، فهو يشعر أن القانون هذا إنما هو قانونه الذاتي ومطلوب منه تطبيقه في السر والعلن وسيحاسب عليه في الآخرة لأن الله سبحانه وتعالى مطلع عليه ... فهو إن خالف فقد ارتكب معصية وإن استترت مخالفته في الدنيا عن أعين الحكم والسلطة فستكشف في الآخرة حين تشهد عليه يداه ورجلاه وعيناه وأذناه.

وهكذا تغدو القوانين والأنظمة القائمة على معطيات الحلال والحرام أصدق في التطبيق ولو كان الإنسان وحيداً بعيداً عن أية أنظار.

والأمثلة القليلة الآتية تعطينا بعض تلك التصورات ومدى تفاعلها وتأثيرها في مختلف جوانب الحياة. **فعندما** يؤكد النبي ﷺ أن **للجار حقوقاً**، ومنها أن لا يستطيل عليه بالبنيان فيحجب عنه النور والهواء، إنما بذلك يرسم قواعد أساسية اجتماعية وعمرانية في آن معاً، وكلاهما مطبوعان بمعطيات الحلال والحرام...

فإذا جاء تنظيم الدولة ليرسم العمران وتخطيط المدن والأحياء كان لزاماً عليه أن يأتي ضمن التصور العمراني وإيحاءات الفن الإسلامي **للهندسة المعمارية** ، حتى إذا غابت هذه الأنظمة الرسمية الصادرة عن السلطة جاء الأفراد يطبقون المعطيات بعفوية صادقة لأنها تتعلق بقواعد أساسية وبتصور الحلال والحرام فلا يجوز لهم مخالفتها.

وفي المال تتشابه القضايا وتتداخل ومع هذا فإن حقائق الحلال والحرام تبقى مستعلية... فالأسلوب الربوي مثلاً، المعروف قديماً وحديثاً، أخذ أشكالاً وأساليب عدة، غير أن الله سبحانه أحل البيع وحرم الربا ضمن مفهوم الحلال والحرام، **فلو أن الدولة لم تأت** بتنظيم الأوضاع المالية لجاء الناس ينظمونها بعفوية كاملة ولأحلوا ما أحل الله ولحرموا ماحرم الله، **وفي الأزياء** نجد الإسلام يصبغها بتصوراته يعين فيها حدوداً وشروطاً ويربطهما بمقتضيات الحلال والحرام وما يجاز أن يرى وما لا يجاز فيغدو الزي مظهراً حضارياً مرتبطاً بمقاييس يملكها كل فرد يعي أسبقياتها ويستوعب ضروراتها فإن غابت الأنظمة الرسمية قام الناس طواعية بالتقيد في أصول الزي والتشبث به....

وفي أمور الحياة المختلفة، في تربية وتعليم الأطفال والأجيال، وفي آداب الحياة وفي العلاقات الاجتماعية المختلفة، تجد فيها جميعاً ظاهرة الحلال والحرام تأخذ سبيلها في حال تصادمها مع تصورات أخرى وسط الصعاب لتؤكد من خلال هذا التصادم وجوب الارتباط وتأصيله وتعميقه.

حتى **الرفق بالحيوان الذي يكتسب بالإسلام معطيات الحلال والحرام** ويرتقي إلى مستوى المعاصي حيث يعاقب عليها ـ في الآخرة ـ بالنار أو مستوى المبرّات حيث ينعم عليها بالجنة.... ومثل المرأة التي دخلت النار في هرة حبستها لا هي أطعمتها ولا هي أطلقتها تأكل من خشاش الأرض، ومثل الرجل الذي دخل الجنة في كلب سقاه بكعب حذائه عندما وجده يتلوى قرب بئر... إن هذين المثلين يجعلان العلاقات الإنسانية بالحيوان تكتسي طوابع أصيلة تعجز عنها حضارات الدنيا بأسرها.

وعندما يحرم الإسلام في نظام حربه مثلاً **قطع الأشجار وإتلاف** المزروعات فإنما يرسم بذلك قواعد أساسية في طبيعة العلاقات يدركها المرء وهو في خضم المعارك ويشعر فيها بأعماقه مستلهماً معاني الحلال والحرام....

٣ ـ مسئولية التنفيذ وعملية التغيير والتطوير :

ونتيجة لهذا التصور ـ التحدي ـ الذي يتمادى في الزمان والمكان مهما تكن الظروف والصعاب تؤصل الحضارة الإسلامية في حس الفرد والجماعة بآن معاً مسئولية كلا الفريقين في تنفيذ مفاهيمها (وهذا ما رأيناه عبر ممارسات الحلال والحرام) وفي عمليتي التغيير والتطوير (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والعمل على نقض الفساد وإزالة الظلم وإقامة الحكم الإسلامي).

فعندما يجعل الإسلام عمليتي التغيير والتطوير وإقامة الحكم الإسلامي والجهاد فروضاً كسائر الفروض الفردية المتعينة على كل مسلم ـ وإن اختلفت درجات تلك الفروض في حالات وضمن مواصفات إلا أنها تبقى فروضاً ـ يأثم المسلمون حال تركها وعدم القيام بها... عندما يقيم الإسلام تصوره هذا ضمن هذه المعطيات إنما يقصد إبقاء الحياة المتجددة على حضارته وإن أمست في حالة التوقف عن العطاء.

من هنا قلنا إن الحضارة الإسلامية وهي في حالة التوقف عن العطاء تكون في حالة عطاء آخر. فهي بما تملكه من مقومات ذاتية متصلة

بجماهير الناس تضمن لنفسها قدرة الحفظ وعدم الاندثار أو التحلل، كما تضمن مقومات استئناف العطاء الأصيل من جديد بما تحققه هذه المقومات على الصعيد الجماعي في عمليتي التغيير والتطوير من قدرات تستعد بها الحضارة الإسلامية ـ وهي في حالة التوقف ـ للتغلب على كافة الحواجز والموانع، تمهيداً للانطلاق الأوسع والفاعل في بركات من السماء والأرض.

٤ ـ الغايات والوسائل :

ومن الطروحات الأصيلة التي تتميز بها الحضارة الإسلامية بأصالة كاملة وتجعلها إحدى تحدياتها الحضارية الهامة قضية تحديد أطر الغايات والوسائل والتمييز بينهما في وضوح تصوري رائع محذرة من أن تنقلب الوسائل إلى غايات.. فيرتكس الإنسان متهاوياً عن مركزه الحضاري الرفيع وهو خلافة الله في الأرض.

فإذا كانت غاية الوجود الإنساني في الأرض تحقيق الخلافة في كل ظواهر الإنسان وله أن يستخدم من أجل ذلك كل مقدرات الأرض المسخرة له فإن هذا الإنسان يكون متعسفاً إلى درجات خطيرة عندما يقلب الوسيلة، وهي هنا ما سخر له، فيجعلها غاية له كالصنم يدور حوله سواء كان هذا الصنم حجراً كما كان حال الأقدمين أو آلة كما هو الحال في العصر الحديث، ذلك أن الوسيلة لا يجوز لها أن تصبح غاية وإلا اختلطت الأمور وتعطلت المقاييس...

وفي سبيل إبقاء هذا المفهوم مؤكداً وواضحاً عند أبناء الحضارة الإسلامية، فيغدو عندهم كالبديهية أو ما يجري مجراها... أصّل الإسلام مفهوم الغايات والوسائل وربطها بإعجاز فريد بالله سبحانه **وتعالى** (قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين)[١].

فالنظافة مثلاً وسيلة لا غاية، يتنظف المرء ويتطهر من أجل الصلاة والصلاة لله رب العالمين. **والعملية الجنسية** وإن كانت استجابة لحاجة

---

(١) سورة الأنعام آية ١٦٢.

جسدية في الإنسان إلا أنها ـ مع ما تحققه من لذة وتفاعل ـ وسيلة ولا يجوز أن تنقلب إلى غاية، فوسيلة الجنس تهذبها غايته وبذلك تستقيم الحياة وتتجدد.

أما في الحضارة الغربية فالنظافة غاية بذاتها وكذلك الجنس، يمارسان بالطريقة أو الوسيلة التي يراها الفرد محققة لهما. وبذلك تخلفت النظافة عندهم درجات وأصبح الجنس كالبهيمية.... حتى أمكننا القول بكثير من الجدية والتأكيد إن وسائل الحضارة الإسلامية غايات الحضارة الغربيـة... ولا غرو في ذلك إذ (أن غاية الإسلام قد جعلت لحضارته صورة مستقلة مخصوصة تختلف عن صور سائر الحضارات القديمة أو الحديثة في الدنيا اختلافاً أساسياً).[٢١]

وعلى هذا (فإن الصورة التي يعامل بها الإسلام الدنيا وما فيها حسب نظريته وعلى مقتضى من غايته هي مختلفة عن الطرق التي تسلكها سائر الحضارات لتحقيق غاياتها، فكم من تصورات عقلية... ورغبات نفسية... وطرق مقررة لقضاء الحياة ليس اتباعها بمشروع فحسب بل هي من لوازم الحضارة في نظر حضارات أخرى، ولكن يأبى الإسلام أن يحرمها وينهى عنها المؤمنين برسالته.

الفنـــون :

فالفنون الجميلة ـ مثلاً ـ روح الحضارة وقوامها في نظر كثير من الحضارات القائمة في الدنيا، فهي لذلك تعتبر البارعين في هذه الفنون من أبطالها القوميين البارزين... ولكن الإسلام يحرم بعض هذه الفنون ويقول بكراهية بعضها ويبيح بعضها إلى حد ما. إن قانونه لا يبيح ترقية الذوق الجميل والاستمتاع بالجمال الصناعي إلا إلى حيث لا ينسى الإنسان ربه ولا يتقاعس عن بذل الجهود لأداء واجبات منصب الخلافة). وطالما أننا ضربنا المثل بالفن الإسلامي فنقول استكمالاً للرؤية إنه قد نشأ من مفهومي الحلال والحرام والغاية والوسيلة، الآنفي الذكر، تصور إسلامي متميز للفن الإسلامي إذ أن هذا الفن واضح للعيان ـ كما يقول الأستاذ برنارد لويس ـ بشكل لا يصعب التعرف عليه من كل (إنسان حتى ولو كانت ثقافته الفنية والهندسية

محدودة فإن باستطاعته أن ينظر إلى مجموعة صور فوتوغرافية لأبنية أو حاجاتٍ ويميز الإسلامية منها : فالقناطر ومنائر الجوامع والهندسة العربية والنقوش والنظم التي تتحكم في الشعر والتي تتحكم في فن الطهي كل هذه رغم اختلاف حقولها تظهر وحدة أساسية من التقاليد والأخلاق والسلوك وهي وحدة إسلامية تكونت أساساً في الشرق الأوسط على نماذج متشابهة عربية وفارسية وتركية في الموسيقى والبناء والسجاجيد والقباب وترى هذه الوحدة في فروع الحضارة الإسلامية المتشعبة وتسمعها وتلمسها وتتذوقها وهذه الوحدة موجودة أيضاً ولو أنها غير سهلة التحديد والفهم للرجل العادي موضوعات مثل القوانين والحكم والمؤسسات وفي المواقف والأفكار السياسية والاجتماعية)[٢٢].

٥ ـ حوار الحضارات والحقائق الثابتة :

والحضارة الإسلامية بما تملكه من تصورات وقيم وتفاعل ووجود تقبل حوار الحضارات، تتحاور معها بمقاييس ثابتة وتجادل بالتي هي أحسن توصلاً إلى إقرار الحقائق الثابتة، وركائز الحوار كما تقررها الحضارة الإسلامية هي كما يلي :

أ ـ الحضارة العالمية هي تلك التي تتمكن من استيعاب الإنسان منذ وجوده الأول، وحتى النهاية المنتظرة للوجود ضمن قواعد أساسية ثابتة، أي أن الحضارة العالمية الإنسانية هي الحضارة الواحدة للإنسان عبر إدراكه المستمر والمتصاعد وبالتالي فلا يصح أن تكون الحضارة العالمية تعددية ضمن حضارات متميزة عن بعضها وقد تكون متضاربة.

وقد جاء مفهوم التعددية هذا تغطية لعجز أي حضارة عن قدرة استيعاب الإنسان في الزمان والمكان، وعن عجزها في تفسير الإدراك الإنساني وتصاعده. أما الحضارة الإسلامية التي لا تشعر بأية عقدة تجاه هذه المشكلات بل تستوعبها بكثير من المرونة باعتبارها هي حضارة الإنسان الأول الذي تفتح فيه الإدراك لحظة إيداعه الروح وتعليمه الأسماء وإلهامه قدرة التمييز والضبط والاستقراء وهي بالتالي حضارة الأنبياء والرسل للأقوام والبشر وحضارة المؤمنين بالإسلام كما جاء به محمد ﷺ... وهي

على هذا حضارة عالمية إنسانية لا تعرف حدوداً ولا تقبل تمييزاً وتفاضلاً بين جنس وآخر. والتمييز الوحيد بين البشر المقبول يجري على أساس الإيمان بالله والاستقامة على نهجه **(قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون. فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا، وإن تولوا فإنما هم في شقاق، فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم. صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون)**[1].

وازاء الوحدة العالمية هذه نجد الحضارات الأخرى تقيم تمايزها على أسس من الجنس والقوميات أو الاقتصاد أو اللاهوت. وقد رأينا كيف يتم التمييز في اللون عندما جعلوا الأبيض هو الإنسان مهدرين إنسانية الأسود والأحمر، وعندما جعلوا التفاضل في الجنس الأبيض للآريين وسلالاتهم مؤكدين أنه الأعلى وأنه هو وحده القادر على صنع الحضارة والارتقاء على جبلها ـ على حد تعبير سان سيمون ـ بينما تعجز الأجناس الأخرى ولو كانت بيضاء عن الارتقاء إلا إلى ارتفاعات معينة.

ب ـ وباعتبار الحضارة الإسلامية هي الحضارة العالمية تدخل الحضارة الإسلامية ما يعرف (بحوار الحضارات) بفكرها المتكامل تناقش به ظواهر الوجود بأسره لتثبت في النهاية أن تصوراتها عن الكون والإنسان والحياة، وتصوراتها في مناهجها الحياتية المختلفة، هي وحدها المتوازنة التي تصلح للإنسان في كل زمان ومكان وهي التي تضمن له السعادة والأمن والعدل والكفاية والرفاه.

من هنا فإن مفاهيم الحضارة الإسلامية إزاء المفاهيم الأخرى هي الحق وما عداها ـ في أسس المفاهيم وقواعده ـ باطل **(ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل)**[2].

جـ ـ غير أن هذا المفهوم **الحق لا يمنع من استيعاب الحكمة أنى**

---

(١) سورة البقرة الآيات ١٣٦ ـ ١٣٨.

(٢) سورة لقمان آية ٣٠.

وجدت، كما لا يمانع من الاقتباس والانفتاح على مجالات العلوم والمدنية. فالحضارة الإسلامية تقيم فاصلاً بينها كمفاهيم، وبين المدنيـة كوجـه حضاري يترقى كلما تعمق التفاعل الإنساني مع البيئة والأكوان..... **فهي** في الوقت الذي تصر على أحقية مناهجها ومفاهيمها وتصوراتها وتعارض **إشراك سواها بها تجيز باعتزاز هضم كل العلم والمعلومات ولو كان في أقاصي** **والفرعونية واليونانية والرومانية السابقة على الإسلام قاتمة مظلمة، قائمة على** تستوعبهما أولا للتفوق بعد ذلك على كل مدنية أخرى. **وعلى هذا فالمدنية** ثمرات علوم نتجت عن حسن استخدام الكون المحيط بالإنسان **لذلك** لا بد من الانفتاح عليها وعدم التقوقع والاعتزال، يؤخذ منها كل العناصر الإيجابية والمعطيات النافعة غيـر المتعـارضة مع قيـم الإسلام وحـدوده وضوابطه أو بمعنى آخر قواعد الحلال والحرام.

د ــ وأيضاً فإن اعتبار الحضارة الإسلامية هي الحضارة العالميـة الواحدة **لا يسقط عن الإنسان غير المسلم قدرة صنع الحضارة**. من هنا فالحضارة الإسلامية في حوارها تعترف لغير المسلم بحضارته إلا أنها تعتبر أن تلك الحضارة غير متلائمة في كثير من جوانبها مع **حاجات الإنسان وتطلعاته**.

الحضارة عند الأمم القديمـة :

فقد (كانت صورة الحضارة في مفهـوم الامبراطوريـات الفارسيـة والفرعونية واليونانية والرومانية السابقة على الإسلام قاتمة مظلمة،قائمة على الظلم والاستبـداد وعبـادة الفـرد. وكـانت العبوديـة هي الصيغـة الغالبـة للمجتمعات..... تقوم عليها جميع مفاهيم الحياة.. وقد حفلت الحضارات القديمة بأساليب من الظلم والـقسوة وحب التعـذيب والاستمتـاع بآلام الغير)[٢٣]. وكان هدف تلك الحضارات (غزو العالم والاستيلاء على كل خيرات الأرض ولم يحجموا في سبيل ذلك عن أي عمل واستباحوا في سبيل ذلك كل خطة واستحلوا كل فكرة)[٢٤].

حتى أن الرومان عندما أصدروا بعض اللوائح القانونية ربطوا تنفيذها بالسادة دون جمهرة الشعب من العبيد والأرقاء الذين اقتصرت اللوائح القانونية

بالنسبة لهم على العقوبات، وكان من درجاتها الإعدام بطريقة الإلقاء إلى الوحوش وسط هياج السادة واستمرائهم لهذا المنظر الكريه أو نزع اللسان وصب القصدير المغلي في أفواه المجرمين.

ويقول « أرنولد توينبي » في تاريخ الحضارة الهلينية : « لعل من الأسباب الجوهرية التي أدت إلى انهيار الحضارة الهلينية انهياراً سريعاً هو حين أخذ الهلينيون يتأرجحون بين ضربين من ضروب عبادة الإنسان ».

الحضارة الغربية اليوم :

أما الحضارة الغربية التي تحكمت في مقاليد القيادة العالمية فيكفي أنها فجرت في أقل من نصف قرن حربين عالميتين دمرتا البشرية، فضلاً عن استعبادها واستعمارها لكثير من مناطق العالم، مستبيحة لنفسها قنص خيرات الشعوب بعد أن أباحت قنص السود والقضاء عل الجنس الأحمر. ويكفي أن سياسة التمييز في الأجناس والألوان لا تزال معتبرة مع سياسات اجتماعية ودولية حتى اليوم.

كارليل في (الإنسان ذلك المجهول) :

كتب الكسيس كارليل في كتابه (الإنسان ذلك المجهول) : « إن الحضارة العصرية تجد نفسها في موقف صعب لأنها لا تلائمنا، لقد أنشئت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقية إذ أنها تولدت من خيالات الاكتشافات العلمية وشهوات الناس وأوهامهم ونظرياتهم ورغباتهم، وعلى الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا إلا أنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا.... ».

وقد جاء هذا التحليل في مقدمة كتابه الذي كتبه من أجل (أولئك الذين يجدون شجاعة كافية ليدركوا ـ ليس فقط ضرورة إحداث تغيرات عقلية وسياسية واجتماعية ـ بل أيضاً ضرورة قلب الحضارة الصناعية وظهور فكرة أخرى للتقدم البشري).

روجيه غارودي يتهم الحضارة الغربية :

وبينما ينظر الفيلسوف الفرنسي روجيه غارودي في كتابه « حوار

الحضارات » إلى الحضارة الأوروبية على أنها (عرض زائل) يقرر : (ونحن نعيش في هذا الربع الأخير من القرن العشرين أزمة عميقة في الثقافة الغربية وفي النمو (الفاوستي) الذي يوحي به، وهذا الأنموذج (الفاوستي) قد ولد ما يسمى عصر النهضة الغربية التي لم تكن ظاهرة ثقافية فحسب بل أيضاً مولد الرأسمالية والاستعمار المواكبين.

الرأسمالية : أي المجتمع الذي خلق الإنسان الغربي ذا البعد الواحد : ذاك الذي ينتظر من نمو العلوم والتقنيات نمواً نهائياً ليروي غلة إرادته في السيطرة والربح.

والاستعمار : أي المجتمع الغربي الذي يزعم أنه يتخذ هذا الإنسان التقني مقياس الأشياء كلها ومركز المبادهة التاريخية الوحيد ومبدع القيمة الوحيد ومن ثم ينكر أو يهدم جميع الثقافات اللاغربية. إن (فاوست) هو الرمز المأساوي لثقافتنا الغربية.

ويذكر غارودي أن تقدم الغرب ارتبط ارتباطاً وثيقاً بتخلف جزء كبير من العالم، فنموه كان بالضرورة وليد « نهب ثروات القارات الثلاث ونقلها إلى أوروبا وإلى أمريكا الشمالية، وبالمقابل فإن الغرب هو الذي جعل ما نسميه العالم الثالث متخلفاً ».

ويذكر غارودي أن الحضارة الغربية وقعت في مسلسل العقد البشع، وفي مقدمتها عقدة الاستعلاء على باقي الشعوب المعتبرة « من الوطنيين الذي لا يتمتعون بأية حقوق إنسانية ».

ومن أجل هذا كان على العالم أن « يتغرب » تغرباً كاملاً، كما أن عقدة (العبقرية الإغريقية) ـ (والمعجزة الرومانية) تأتي في مقدمة العقد الغربية باعتبار أنهما (الإغريق والرومان) أساسان من أسس الحضارة الغربية، ومن العقد أيضاً عقدة التقوقع القومي واعتبار التاريخ الغربي محوراً للتاريخ العالمي والنظر إلى التواريخ الأخرى على أنها حواش عليه....

وبعد أن يرفض غارودي هذه العقد يؤكد أن العالم اليوم بحاجة إلى تجربة كونية تقوم على الحوار بين الحضارات، وأن الحضارة الغربية عاجزة عن تقديم هذه التجربة، لذلك فهو يدعو إلى إقامة الحوار بين الحضارات،

« فبهذا الحوار يمكن أن يولد مشروع كوني يتسق مع اختراع المستقبل وذلك ابتغاء أن يخترع الجميع مستقبل الجميع ».

كونستانتان جورجيو في ساعته الخامسة والعشرين :

وكأني بغارودي يلتقي بطريقة غير منظورة مع الكاتب الروماني « كونستانتان جورجيو » في قصته « الساعة الخامسة والعشرون »، أي الساعة التي **ستشهد حضارة جديدة بعد ليل الحضارة الغربية البشع الطويل.** فقد أكد « جورجيو » أن الحضارة الغربية، أوروبية وأمريكية وروسية، قد أفلست وهي في طريق الانهيار الكامل. ويتطلع إلى أمة ذات أصالة تفهم الواقع البشري وتتقدم لإنقاذ البشرية ويقول : (إن هذا الإنهيار الآلي سيعقبه اعتراف بالموهبات الإنسانية وسيشرق هذا النور العظيم من الشرق ولا شك، من آسيا ولكن ليس من روسيا. إن الروس قد انحنوا خاضعين أمام نور الغرب الكهربائي فلن يعيشوا ليروا الإشراق. سيكتسح رجل الشرق المجتمع الآلي وسيستعمل النور الكهربائي لإنارة الشوارع والبيوت، ولكن لن يبلغ به مرتبة الرقيق ولن يرفع له معابد وصوامع كما هو الحال اليوم في بربرية المجتمع **الآلي الغربي، إنه لن يضيء بنور النيون خطوط القلب والفكر، إن رجل الشرق سيجعل نفسه سيداً للآلات وللمجتمع الآلي).**

حضارات مصطنعة :

ومن أجل هذا وسواه تدرك الحضارة الإسلامية أن حضارات الآخرين هي حضارات مصطنعة فصلت بصورة لا تتلاءم مع الإنسان بحجمه وشكله وجوهره كما قال كارليل، إلّا أنها حضارات يمكن التحاور معها ـ على حد تعبير روجيه غارودي ـ إلّا أنه حوار لأجل إثبات أحقية الحضارة الإسلامية بريادة البشرية والعالم وإثبات قدرتها على الإبداع والعطاء. فهي التي تملك المنهج الأقوم أو الفكرة الأقرب للتطور والتقدم وفق قول كارليل، وهي التي قالت بحضارة كونية واحدة ورفضت كل العقد وكل عوامل وأسباب النقص والتخلف في حياة الإنسان.

الربط بين العطاء وتوافر الضوابط :

٦ ـ غير أن الحضارة الإسلامية التي بإمكانها وحدها اليوم تلبية

تطلعات « جورجيو » بأن يكون الإنسان سيد الآلة لا رقيقاً لها وأن يستخدم النيون لإنارة البيوت والشوارع لا العقول والأفكار، إن الحضارة الإسلامية هذه ـ كما رأينا ـ تصر على طروحاتها الخاصة وتصر على الامتناع عن العطاء الكامل إلّا بعد أن تتوفر ضوابطها، عندئذ لا تتردد الحضارة الإسلامية عن العطاء، فالعطاء قدرها الذي لا انفكاك عنه لذلك فهي تعطي في مرحلة توقفها... فكيف إذا غدت في مرحلة العطاء من جديد ؟

إن الحضارة الإسلامية تؤكد الربط بين نمائها وارتقائها وبين التقيد الكامل بجميع تصوراتها وعلى كل صعيد مع ما يمكن أن تستخلصه من تجارب الأمم والشعوب فضلاً عن إبداع العلوم وتقدم التكنولوجيا.

٧ ـ أنا مسلم إذن أنا متحضر :

وتطرح الحضارة الإسلامية وهي تستلهم كل الطروحات وكل الاعتبارات تحدياً ذا أبعاد هامة في كل المجالات هو أن المسلم لا يمكن إلّا أن يكون متحضراً، إن وجود المسلم الملتزم بمنهج الله وبمفاهيم الإسلام العامة والخاصة دليل على وجود واستمرار الحضارة الإسلامية ـ وإن كانت في مرحلة التوقف عن العطاء ـ أي أن المسلم لا يكون متخلفاً في حال من الأحوال، فإسلامه يدفعه إلى التحضر وإلى التفاعل واستخدام الكون وإقامة حياة حرة كريمة فيها الأمن والراحة والطمأنينة والعدالة والكفاية والرفاه. تلك هي مقاييس الحضارات... من هنا يمكننا بدون صعوبة أن نقرر قاعدة : (أنا مسلم إذن أنا متحضر).

ولهذه القاعدة خلفيات هامة، فهي من جهة توجد فكرة الاستعلاء الإيماني عند كل مسلم، ليس من أجل الاستهتار بالشعوب الأخرى، بل من أجل إنقاذ تلك الشعوب، فعندما يدرك المسلم أنه رجل الحضارة وأنه بالتالي بحكم إسلامه **شهيد على الإنسانية** تكون الحضارة الإسلامية قد أوجدت الذاتية التي يتجسد فيها **مقياس الحضارة المتجدد**، وهكذا يغدو المسلم مؤتمناً على مسار الحضارة التصاعدي، متكفلاً إقامة الحضارة الحديثة التي ستخرج الناس من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان والمذاهب

والعقائد إلى عدالة الإسلام، ومن عبودية الآلة إلى استعبادها، ومن إهدار القيم والموهبات الانسانية إلى الإعتراف بها وتنميتها.

* * *

الفصل الخامس

دور الشباب أو القيادة الطليعية في إخراج
الحضارة الإسلامية من مرحلة التوقف إلى مرحلة العطاء

إن قاعدة (أنا مسلم إذن أنا متحضر) صحيحة بقدر ما يعيش المسلم مفاهيم الإسلام عن الحضارة والتفاعل. وقد رأينا من قبل أن الحضارة الإسلامية غير فردية وهي لا تظهر إلا بمجموعة المؤمنين عندما يقيمون تجمعهم على أرض معينة في زمن معلوم يطبقون على أنفسهم وعلى تجمعهم هذا تصوراتهم ومفاهيمهم محققين التفاعل الحضاري مع البيئة والأكوان.

من هنا تغدو قاعدة (أنا مسلم إذن أنا متحضر) تحدياً ذاتياً للمسلمين بقدر ما هي تحدٍّ في مسار الحضارات والتحاور معها. إذ لا بد لحضارتهم من تجمع ولا بد من تكامل الضوابط الحضارية في تجمعهم هذا حتى تتمكن حضاراتهم من العطاء وإقامة المجتمع الإسلامي ولو كان صغيراً ــ على حد تعبير سيد قطب ــ فإنه سيحدث الانقلاب الأكبر في الكون بأسره، والبشرية لا تستجيب عادة لمنهج مقروء أو مسموع بالقدر الذي تستجيب فيه لمنهج حي متحرك مجسم ممثل في حياة جماعة من

البشر مترجم إلى واقع تراه العين وتلمسه اليد وتلاحظ آثاره العقول... ذلك أن إقامة المجتمع المسلم يعني في حقيقته أن العمل الطليعي بين مجموعة من المسلمين قد وصل إلى مرحلة النضج وتملك أهم ضوابط الحياة فيغدو بذلك أقدر على تحمل أعباء الحضارة الإسلامية فتعتق هذه من أسار التوقف إلى وهج العطاء المشع.

ولا ريب أن المحاولات هذه محفوفة بالمخاطر والأشواك. ولذلك فهي بحاجة إلى مزيد من التخطيط وروية في التكفير ودقة في التوجيه والتنفيذ، ولا بد لها أيضاً من ارتفاع أهل النخبة والقيادة إلى مستوى المسئولية الطليعية الرائدة.

وكأي محاولة لا بد لها من « **قاعدة** » تنطلق منها و « **طريق** » تسعى إليه للوصول إلى « **الهدف** » المنشود. وكل محاولة تفقد هذه العناصر الأساسية، القاعدة والطريق والهدف أو بعضها، يكون مصيرها في الأعم الأغلب الفشل والإحباط. وبقدر ما تمتلك المحاولة الوضوح والعمق في أساسها بقدر ما تقوى على تجسيد نفسها في واقع حي فعّال.

الريـادة والشبـاب :

إن ريادة المحاولة تقع دوماً على الشباب، على النخبة الطليعية التي تكون أو يفترض بها أن تكون قيادة منفتحة واعية راشدة.. إن درجة تفاعل هذه القيادة يرسم ـ إلى حد بعيد ـ طريق النجاح والتمكن في الأرض.

يقول أرنولد توينبي : « إنه لا بد لكل جماعة إنسانية من صفوة قائدة لكي تتقدم وتتحسن أحوالها، ولا يتم تقدم إذا عدمتها الجماعة فكأنها خميرة التقدم والنهوض.. ».. ويقول : (إن مصير الجماعة كلها مرتبط دائماً بهذه الصفوة وأحوالها فإذا ظلت على هذه الحال من القلق والسعي والمرض محل الفتح والكشف والتجديد والإحساس بمسئولياتها عن الجماعة تكونت حولهم جماعة من الناس يسيرون في الطريق بعدهم واطردت مسيرة الجماعة وطال عمر صلاحها ».

من هنا فإن دور الشباب في ريادة الحضارة دور هام وخطير، فهم

الخميرة أبداً في الأمة، وهم موئل الأمل والرجاء، ولهم ـ في الحضارة الإسلامية ـ مكان أعلى، **فهم الفتية الذين آمنوا بربهم وزادهم الله هدى وهم** من السبعة (الذين يظلهم الله في ظله)، وهم بعد ذلك وقبله الفئة التي يمكن أن **تؤثر وتقود... فهم بالتالي رعاة الأمة (وكلكم راع وكلكم مسئول عن** رعيته).

والسؤال الذي يطرح نفسه إزاء ظاهرة التوقف في الحضارة الإسلامية يتشعب إلى أسئلة.. ما هو دور الشباب اليوم ؟ ما هي واجباتهم ؟ وكيف يعملون في مرحلة التوقف الحضاري ؟ ثم كيف يتمكنون من **إتمام** العمل بإخراج الحضارة الإسلامية إلى مرحلة العطاء الكامل ؟

إن أجوبة هذه الأسئلة ليست بلغز ولا بأحاجي إنما هي مجموعة الأعمال التي لا مناص منها في سبيل الهدف الأسمى... المرسوم...

إن أسباب التوقف الحضاري التي باتت بصورها العامة معروفة مدركة هي التي ترسم معالم الطريق.

الوعي الحضـــاري الأصيل :

فلا بد من **وعي حضاري أصيل** عند مجموع الأمة، إزاء تصورات الإسلام العامة ومفاهيمه الأصيلة... أي لا بد من إزالة الغبش عن أعين الناس ليروا بصدق أكثر الإسلام في نواحيه المختلفة.

وحتى نصل إلى هذا الوعي لا بد من **تجاوز** أمور ومن مجابهة أمور ومن تأصيل أمور أخرى **تجاوز** لذواتنا **ومجابهة** لاعدائنا **وتأصيل** لأفكارنا ومبادئنا وقضايانا.

وخط المجابهة والتجاوز والتأصيل حركة دائمة متجددة معطاءة ولا يقود هذا الخط إلا الطليعة الواعية لوجودها والمدركة لتطلعاتها والمقررة **بإرادتها**..

إن ظاهرة الطليعة هذه تعني هنا كل الإفرازات الحضارية التي أفرزتها وتفرزها الحضارة الإسلامية ـ وهي في حالة التوقف عن العطاء ـ تلك الإفرازات التي حددناها ـ آنفاً ـ بالعلماء والمفكرين والقياديين والحركات

والمنظمات والاتحادات الإسلامية من جهة وبالمؤسسات الثابتة الأخرى كالمساجد والمعاهد والحج والزكاة من جهة أخرى.

الظواهر الحضارية تقود خط المجابهة :

إن هذه الظواهر الحضارية التي تعطيها الحضارة الإسلامية وهي في مرحلة التوقف عن العطاء هي التي تقود خط المجابهة وهي التي تتمحور حولها كل الطاقات والقدرات من أجل حفظ الحضارة الإسلامية وفي سبيل إخراجها إلى مرحلة العطاء بإقامة ضوابطها باستئناف الممارسة الإسلامية العاملة على الأرض أو حيز منها...

وهنا بصورة عامة لا بد من إعطاء الشباب دوراً أساسياً في تحريك الظواهر الحضارية وتجنيبها الأخطاء وتطويرها نحو ممارسة غاياتها ودفعها إلى بلوغ أهدافها المرتجاة.

فإذا كانت الظواهر الحضارية هي التي تقود خط المجابهة والتجاوز والتأصيل فإن الشباب وهم العمود الفقري لهذه الظواهر عليهم أن يمارسوا دورهم في الحماية والعطاء والتطوير.

التحـدي أمـام الشبـاب :

ولعل أبلغ تحد يطرح في مواجهة هؤلاء الشباب يكمن في عمليتي الدفع والتطوير، فمن الملاحظات الأساسية إزاء الظواهر الحضارية السالفة **الذكر أن بعضها لا يعيش زمانه فتبدو كأنها تعيش لعصر غير عصرها أي** كأن الزمن قد تجاوزها وباتت الحضارة الإسلامية مسئولة عن إفرازات جديدة تكون قادرة على القيام بالدور الخطير.

ذلك أن بعض هذه الظواهر ــ كبعض الحركات والمنظمات ــ تهرم بفعل هرم يصيب قادتها أو بعضهم فيعجز هؤلاء عن أداء الدور الطليعي أو عن سد الثغرات في خط المجابهة والتأصيل فيتقوقعون على أنفسهم ويغلقون على حركاتهم أبواب التطوير بحجة أن ما يرونه هو الصحيح وأن على أهل تلك الحركة أن يروا بمناظيرهم... هنا تكون الحركة ــ وقد أصيبت في طليعتها ــ أمام خيارات هامة، إما الخضوع لرأي القادة الهرم فتتقوقع معهم،

وإما أن تنهض الحركة فتزيح القادة الجامدين لتنطلق هي مع خط المجابهة والتغيير، وإما أن يتصادم أهل التغيير وأهل الجمود في الحركة الواحدة فيقع الخلاف وتنشق الحركة إلى حركات.

ولعل هذا التفاعل الذاتي في الحركات هو شأن طبيعي إلا أنه يغدو مع الظواهر الحضارية خطير للغاية... ذلك أنه لا يكفي الحركات الإسلامية أو سائر الظواهر الحضارية أن تتواجد تحت عنوان إسلامي، ولا يكفي قادتها أو الطليعة من الإيمان بالإسلام ومعرفة الأصول الإسلامية وإدراك المفاهيم والتصورات الإسلامية فلا بد لهم أيضاً من ممارسة ومن تفاعل، ممارسة تلك المفاهيم بالقدر الممكن، والتفاعل مع الأحداث وبالأحداث المحيطة بهم والاطلاع الواسع والمعرفة الدقيقة (بأرضية العدو) ـ كما يقال ـ وبأساليب العصر وطرقه والإفادة منها على بعد مدى في خدمة الظاهرة الحضارية التي يمثلونها.

طبيعة العقلية الحركية :

غير أننا لدى استقرائنا لأوضاع بعض الظواهر الحضارية الحركية ولدى تساؤلنا عن أسباب عدم تمكنها من إحداث الانقلاب نلاحظ أن طبيعة « عقليات » القيادات تتحمل جزءاً من إفشال المهمات التغيرية المناطة بها، نقول جزءاً لأن أجزاء أخرى تعود إلى ظروف وملابسات لا يكون قادة تلك الظواهر بمسئولين عنها.

ونقول هنا ـ بصورة عامة أيضاً ـ إن على الحركات والمفكرين الإسلاميين الانفتاح ورفض التقوقع ومعالجة الشئون الحركية ووسائل التغيير ضمن عطاءات القاعدة الشهيرة (رحم الله رجلاً عرف زمانه واستقامت طريقته) ذلك أن أخطر ما يواجه الشباب والحركات والمؤسسات تبلد في الحس المسئول يوصل إلى ما يمكن أن ننعته بالعقم القيادي، وهو ظاهرة خطيرة تقضي على الحركة وعلى تفاعلاتها وتحيلها إلى أعمال روتينية لا تجدد فيها ولا حياة، ويجعل الظاهرة الحضارية أقرب إلى طور الإفلاس الموصل إلى الاستهلاك والدمار، وبمثل هذا العقم يستحيل على الحركة أن تحدث التغيير المطلوب أو أن تعيش لترى انعتاق الحضارة الإسلامية من

مرحلة التوقف الذي ارتضته لنفسها وهو انعتاق لا يكون حتى ترتفع الطلائع الريادية في إفرازاتها المثمرة إلى المستوى المطلوب.

الارتفاع إلى المستوى :

أمر واحد كما يقول سيد قطب ـ يجب أن يكون في حسابنا... إن أمامنا كفاحاً مريراً شاقاً طويلاً... كفاحاً مريراً يجب أن نستعد له استعداداً طويلاً، يجب أن نستعد له بأن نرتفع إلى مستوى هذا الدين... نرتفع إلى مستواه في حقيقة إيماننا بالله... في عبادتنا لله... ونرتفع إلى مستواه في وعينا بما حولنا ومعرفتنا لأساليب عصرنا، ورحم الله رجلاً عرف زمانه واستقامت طريقته، ونرتفع إلى مستواه في إحاطتنا بثقافة عصرنا وحضارته وممارسة هذه الثقافة وهذه « الحضارة » ممارسة اختيار واختبار. فإننا لا نملك الحكم على ما ينبغي أن نأخذ منها، وما ينبغي أن ندع إلا إذا سيطرنا عليها بالمعرفة والخبرة، فمن المعرفة والخبرة نستمد سلطان الاختيار[٢٥].

من هنا كان لا بد من عطاءات متجددة ولا بد من تدريب هذه الطلائع وتأهيلها للقيام بدورها في خط المجابهة والتطوير.

إن من أهم المستلزمات والاحتياجات هي تطوير الكفاءات القيادية بين الشباب... فبإمكان هؤلاء القيام بالكفاح المرير ودفع سائر الظواهر الحضارية الإسلامية إلى منتهاها.

تحريك أطر التحديات الحضارية :

ومن المسئوليات الضخام الملقاة على كواهل الشباب القائد تحريك أطر التحديات التي تطرحها الحضارة الإسلامية. فالتحديات التي رأيناها لا تتحرك إلّا بجهد جبار يليق بهذه التحديات وإلّا تحولت هذه التحديات إلى طروحات أو مقولات... وبالتالي تفقد زخمها وأثرها في التحولات المرتقبة سواء في منطقة الحضارة الإسلامية أو في الحضارات الأخرى.

إن بدايات هذا التحريك تبدأ بنزع ما يسمى بحالة التخلف الحضاري أو الانبهار بحضارات الآخرين أو إحساس العجز والخور أمام التيار الحضاري الزاحف وهي حالة أناخت بثقلها على جسم الأمة.

وحتى يتمكن الشباب من تدميرها وزحزحتها عن صدور الناس لا بد من تخطيط وصبر.

وجميل هنا أن نسمع نداء الدكتور « دور لويس روفاس » أستاذ علم النفس في كلية الطب في غرناطة : (انصحوا المبهورين بحضارة الغرب أن يعيدوا النظر فيها، احذروا يا عرب يا مسلمون أن تخلطوا تصوراتكم بالتصورات الأوروبية، أنتم أهل حضارة عريقة وهي، وإن كانت لم تصل من الناحية المادية إلى مستوى الغرب، إلّا أن لها مقومات لا تملكها حضارة بلداننا الأوروبية، إن الإنسان حاول أن يؤله نفسه بواسطة العلم والعلم وحده ولكنه وجدها أحقر وأقل مما كان يعتقد، فلا تتخلوا عن نزعاتكم المكتسبة من تصوراتكم الإسلامية ولا تتطلعوا إلى الحضارة الغربية تطلع الممجد لها المعظم لشأنها : إنها ستبلى)[٢٦].

وتأتي هذه البدايات تأصيلاً لقاعدة (أنا مسلم إذن أنا متحضر) وما يستتبع هذه القاعدة من توضيح المفاهيم الإسلامية وتصوراتها وضرورة ممارستها وعلاقة ذلك كله بالتفاعل الحضاري.... فلا يمكن أن تتجدد طاقات التفاعل خاصة في مراحل الانطلاق الأولى دون مشاعر الاستعلاء الإيمانية وما يمكن أن تفرزه من عطاءات ومواهب وقدرات، ولا ريب أن قاعدة (أنا مسلم إذن أنا متحضر) تتكفل بمثل هذه الامدادات الاستعلائية.

وهكذا تتوالى التحديات الحضارية في سلسلة متكاملة حتى يدرك معها الشباب أنهم أمام تحول حضاري مرتقب وأن عليهم أن يقوموا بكل عبء وبكل تنظيم وبكل تغلغل في جسم الأمة وفي مؤسساتها من أجل إيجاد واقع حي تترعرع فيه تحديات وطروحات الحضارة الإسلامية.

واجب الشباب :

ومن هنا ينشأ واجب الشباب المسلم الواعي القائد في (حضرنة) مؤسساته الرسمية والشعبية في بلاده وفق المفهوم الإسلامي، وبمعنى آخر تطويع مؤسساته ومجتمعه لطروحات الحضارة الإسلامية. عندها تتمكن هذه الطروحات من التحول إلى تحديات تنتج تفاعلات مهمة على كافة

الأصعدة، وعلى هذا فإن دور الشباب يغدو مرتقباً إذ أنه هو الذي يربط المرافق الاجتماعية والاقتصادية والمالية والعمرانية والتربوية والسياسية والتخطيطية والصحية والإعلامية والقانونية والقضائية بالمقولات الإسلامية فتأتي ضمن إرادة التحديات الحضارية لتزيد في فرز الظواهر الحضارية وفي قدرتها على الحياة والصمود والتمكين والمجابهة. ولا ريب أن مثل هذه المسئوليات الضخام لا بد، إذا ما أريد لها حسن التنفيذ وتجاوز الأخطاء والإفادة من الظروف واستمرار المدد الشبابي والعطاءات القادرة.. لا بد لتلك المسئوليات من التنسيق والتجاذب والتعاون والتعاضد... إذ لا يجوز في المنطق الإسلامي كما في أساليب هذا الزمن التفرد والتشتت لأن هذا يؤدي إلى الضياع وفي أسوأ الظروف إضعاف حجم الظواهر الحضارية التي تفرزها الحضارة الإسلامية بسخاء.

مركز للدراسات الحضارية :

من أجل هذا ومن أجل التفاعل الأفضل كان لا بد من (مركز للدراسات الحضارية) يتولى مهمات الدفع الحضاري، والتنسيق بين مختلف الظواهر الحضارية التي أفرزتها أو تفرزها الحضارة الإسلامية، والقيام بالحوار بين الحضارات، والتعريف بالحضارة الإسلامية، ورصد أوضاع الحضارات الأخرى، وتحديد كثير من المصطلحات الحضارية، وإصدار (موسوعة الحضارة الإسلامية)، على أن يستخدم هذا المركز كافة الأساليب التكنولوجية والفنية وأن يوضع بأيدي نخبة قيادية قادرة.

مؤسسة التنمية الشبابية وتطوير الكفاءات القيادية

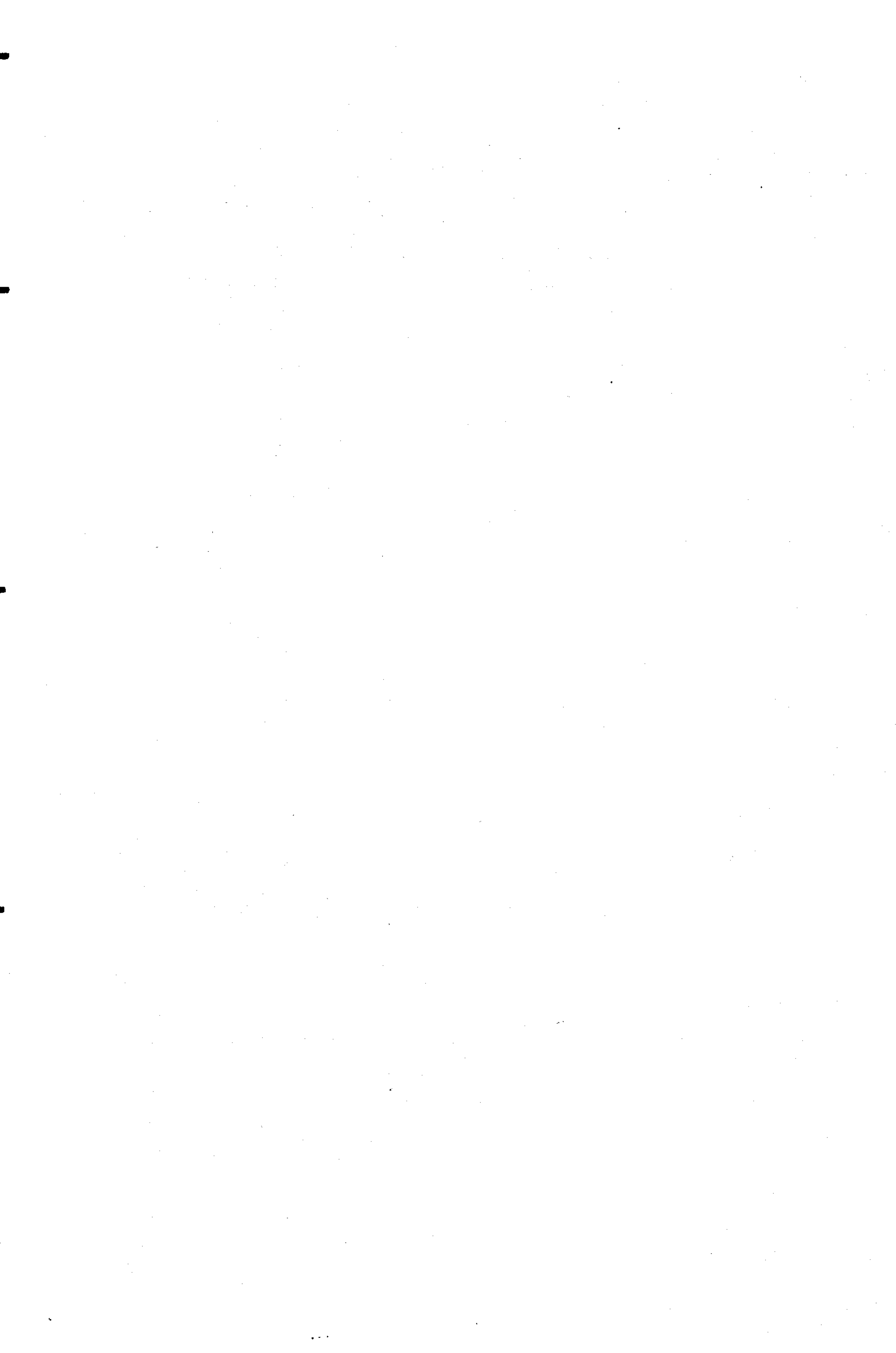
وأيضاً لا بد أن تسير في خط متواز مع مركز الدراسات الحضارية هذا (مؤسسة التنمية الشبابية وتطوير الكفاءات القيادية) ضمن معطيات أساسية وأطر خاصة تتكفل بمد وإيجاد طلائع التغيير الحضاري المرتقب، ومن أهم ما ينبغي للمؤسسة أن تقوم به هو اختيار مجموعات شبابية من المتفوقين وفي كل المجالات لإخضاعهم، وفي دورات طويلة، لمبادرات تأصيل مرتكزات الشخصية الإسلامية ولتنمية الكفاءات القيادية، كما أن على المؤسسة أن تتعهد فتية موهوبين منذ نعومة أظفارهم لترقى معهم صعداً إلى

تخصصات تختارها هي وذلك في محاولة لتخريج قادة ونخبة تتمكن بواسطتهم من رفد الظواهر الحضارية بموهوبين لم يضيعوا في جوانب المجتمع أو يهملوا في زوايا النسيان...ولا بد ــ كمرحلة أولى ــ من لجان تدرس هذين المقترحين، تفصل كافة معطياتهما ومراحل العمل فيهما وموازناتهما تمهيداً لإخراجهما إلى حيز العمل والوجود.

المراجع

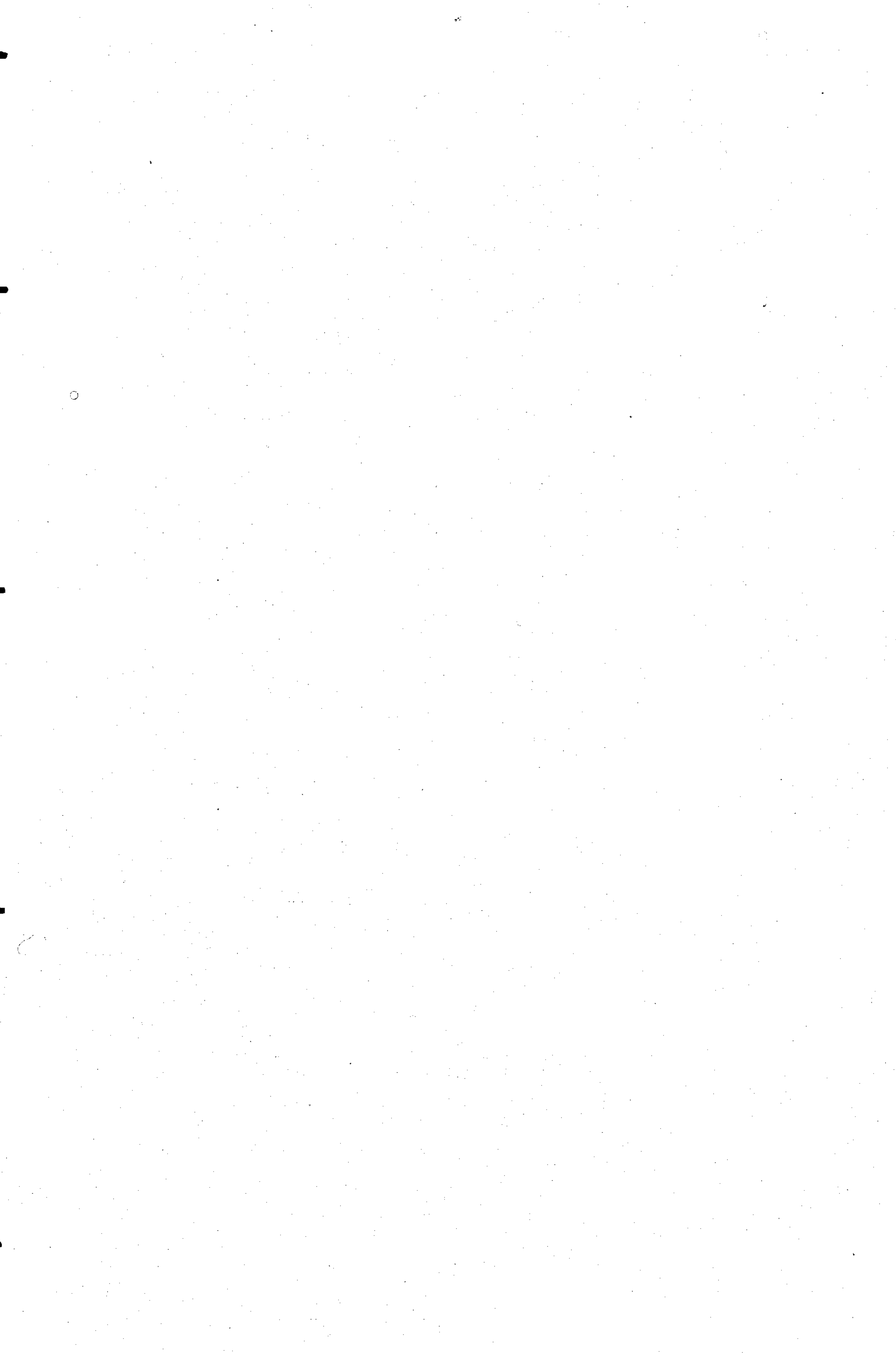
(١) هاولز في كتابه ما وراء التاريخ صفحة ١٤٨.
(٢) تايلور عن بحث الطاقة المنشور في مجلة عالم المعرفة ــ المجلد الخامس ١٩٧٤م.
(٣) أحمد أبو زيد المرجع السابق.
(٤) الحضارة تحت التجربة ــ انظر كتاب الحقيقة الحضارية ٢٢ و ٢٨.
(٥) كتاب الحقيقة الحضارية.
(٦) سيد قطب (معالم في الطريق) فصل (الإسلام هو الحضارة).
(٧) محمد قطب في محاضرته فى المؤتمر الثالث للندوة العالمية.
(٨) مالك بن نبي في مؤتمر الشباب الإسلامي المنعقد في الرياض.
(٩) الحضارة الإسلامية ــ أبو الأعلى المودودي صفحة ٢٨٨ أسسها ومبادؤها.
(١٠) نظام الإسلام لتقي الدين النبهاني ٥٩/٦٠.
(١١) حسين مؤنس في كتابه الحضارة صفحة ٤٣.
(١٢) المرجع السابق.
(١٣) كتابنا (الطريق إلى حكم إسلامي).
(١٤) حسين مؤنس كتابه (الحضارة) صفحة ١٥.
(١٥) كتابنا (الطريق إلى حكم إسلامي).
(١٦) الحضارة للدكتور حسين مؤنس صفحة ١٨ و ١٩.
(١٧) الطريق إلى حكم إسلامي.

(١٨) المرجع السابق ص ٣٩ وما بعدها.
(١٩) المرجع السابق فصل (الهجوم الماكر).
(٢٠) عن جريدة النهار البيروتية تاريخ ٦/١/٧٩.
(٢١) المودودي في (الحضارة الإسلامية) في الصفحتين ٨٥ و ٨٧.
(٢٢) الغرب والشرق الأوسط لبرنارد لويس صفحة ٣١.
(٢٣) أنور جندي في (حضارة الإسلام).
(٢٤) المرجع السـابق.
(٢٥) المستقبل لهذا الدين صفحة ١١٩.
(٢٦) عن حضارة الإسلام لأنور جندي.



الفكر العلمي الإسلامي والحضارة الإنسانية

للدكتور عبد الحليم منتصر



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

نعني بالعلم في هذا الحديث، ما اصطلح على تسميته، بالعلوم الطبيعية، سواء كانت بحتة كالرياضيات والفلك والكيمياء والطبيعة (فيزيقا) والنبات والحيوان والجيولوجيا، أو تطبيقية كالطب والصيدلة والزراعة والهندسة والبيطرة وما إليها، إنها العلوم التي تحتاج إلى تجربة ومشاهدة واختبار.

إنها محاولة متواضعة لعرض إنجازات العلماء العرب، فيما سمي بالعصر الإسلامي، في مجال العلوم الطبيعية، وكيف لعبت هذه الإنجازات العلمية دورها الرائع على مسرح الحضارة الإنسانية، وكيف كانت الركيزة التي تسامق فوقها هذا الصرح الحضاري الشامخ، حتى قال المنصفون بحق : إن الينبوع الأول للحضارة في مجال العلوم الطبيعية، إنما تفجر في العصر العربي الإسلامي، وإن الأمة العربية في العصر الإسلامي، هي التي قدمت لأوروبا زاد نهضتها العلمية، وهي النهضة التي تعيش الإنسانية في فيضها وظلالها في العصر الحاضر، عصر الذرة والالكترون والرادار والمذياع والتلفاز والأقمار الصناعية وغزو الفضاء والوصول إلى القمر والتجوال بين الكواكب.

أما غير المنصفين من مؤرخي العلم، فإنهم يتجاهلون إطلاقاً هذه الحقبة الوضاءة، ويؤرخون للعلم بعصرين، لا ثالث لهما، هما العصر

الإغريقي، وعصر النهضة الأوروبية، وهم يغالطون بهذا التأريخ مغالطة، لا تليق بمؤرخ يستمد من الحقيقة، ويبغي وجه الحق، وينشد الأمانة في النقل والعرض.

العصـــر القديـــم :

لقد كانت ثمة حضارات تسبق العصر الإغريقي، هي تلك التي رفت على ضفاف نهـر (النيل) في مصر الفرعونية، وما بين النهرين (دجلة والفرات) عند الآشوريين والبابليين والسومريين. وما وراء النهر (سيحون) في الهند والصين، فقد عرف هؤلاء وأولئك علوماً وصناعات لم يكن للإنسانية بها عهد قبلهم. عرفوا الطب والصيدلة والتحنيط والفلك الزراعة، وصنعوا الورق والزجاج والأصباغ، وبنوا المعابد والهياكل والقصور، بل والمدارس والجامعات، وعرفوا الكتابة والنقوش والرسوم والموسيقى وما إليها.

العصـــر الإغريقـي :

ثم انتقلت هذه المعارف إلى الإغريق، وكان علماء العصر الإغريقي، قد تتلمذوا على علماء العصر القديم والحضارات القديمة، وقد اشتهر الإغريق بحبهم للعلم والفلسفة، وعزوفهم عن امتهان الحِرَف اليدوية، ومن حسن حظهم أنهم سجلوا علومهم وفلسفتهم بلغة ظلت مقروءة ومكتوبة عدة قرون (اليونانية القديمة)، على حين اندثرت لغات العصر القديم من هيروغليفية وغيرها، ولم تكد تفك طلاسمها إلا في القرن الماضي. واشتهر من علماء العصر الإغريقي عدد غير قليل كان لهم الفضل كل الفضل في وضع أسس عدد من العلوم الطبيعية، من أمثال « طاليس » صاحب نظرية العناصر، و « أبقراط » أبو الطب، و « فيثاغورس » في الهندسة، و « ديمقراطيس » أول من تكلم عن الذرة، ثم « سقراط » أبو الفلسفة، و « أفلاطون » أول من أنشأ الأكاديمية، وهو مكان ظليل استأجره أو ابتاعه من « أكاديموس » خصصه ليلقى فيه تلاميذه في أوقات منتظمة محددة، يعلمهم العلم والحكمة والفلسفة، وهي أول معهد علمي معروف في التاريخ، لم يسبقه سوى جامعة « أون » أو عين شمس القديمة في مصر الفرعونية، التي أنشئت منذ ألفي سنة قبل الميلاد، على حين أن أكاديمية أفلاطون

أنشئت في القرن الرابع قبل الميلاد، ثم « أرسطو » أبو العلم والفلسفة الذي ترك مؤلفات عديدة في الطب والفلسفة والكون والأخلاق والسياسية والنبات والحيوان والمنطق، وهو الذي أنشأ الليسيوم على غرار أكاديمية أستاذه أفلاطون.

العصر الإسكندري :

وبموت الإسكندر، وموت أرسطو من بعده، اضطهد العلماء، واضطروا للهجرة من اليونان، وكانت هجرتهم شبه جماعية إلى الإسكندرية، وكانت مصر من نصيب البطالمة الذين اشتهروا بحبهم للعلم ورعايتهم للعلماء، وكذلك انتقل مركز الثقل العلمي من أثينا إلى الإسكندرية، وأنشئت جامعة الإسكندرية القديمة، التي اشتهرت في التاريخ باسم مكتبة الإسكندرية، وقد كانت في الواقع جامعة بكل ما تحمل الكلمة من معنى، تشمل معهداً للبحث والتعليم، ومكتبة تضم مئات الألوف من الكتب، ومتحفاً، يضم عينات نباتية وحيوانية ومعدنية، وقد ظلت منارة للعلم عدة قرون، إلى أن أحرقت قبيل الفتح العربي الإسلامي، واتهم « عمرو بن العاص » ظلماً بإحراقها بعد أن استأذن الخليفة « عمر بن الخطاب ».

والواقع أنها رواية مدسوسة رواها القس « أبو الفرج المالطي »، ونقلها عنه المؤرخون دون تحقيق أو تمحيص، إذ الواقع أن المكتبة قد أحرقت قبل الفتح العربي، حتى قال أحد المؤرخين، إن منظر الرفوف الفارغة، لمما يثير الشجن لدى محبي العلم. واشتهر من علماء العصر الإسكندري بطليموس وجالينوس واقليدس وأرشميدس وديسقوريدس وغيرهم.

وكان قد وقع اضطهاد آخر على العلماء، من أحد الأباطرة المتعصبين للمسيحية، وكان كثير من العلماء ما زال مبقياً على وثنيته فاضطر العلماء للهجرة مرة أخرى، وكانت وجهتهم هذه المرة، نحو الشرق العربي، وتلبثوا نحو قرن من الزمان في مدينة « الرها »، ومنهم من انتقل إلى « جنديسابور » في فارس.

العصــر الإسـلامي :

ثم ظهر الإسلام، وسطع، وأضاء بنوره وقيمه وخلقه دياجير الجاهلية، وإن معجزته الخالدة كتاب، هو القرآن الكريم، وإن أول آية « اقرأ »، وإن كثيراً من آيه يحض على طلب العلم والمعرفة، والنظر في ملكوت السموات والأرض، وإن كثيراً من الأحاديث النبوية الشريفة لتحض كذلك على طلب العلم والمعرفة، وأقواله عليه الصلاة والسلام في هذا المجال، لا يحصيها إلا العارفون، مثل القول بأن : طلب العلم فريضة على كل مسلم، وما يزال طالب العلم عالماً، حتى إذا ظن أنه علم فقد جهل. واطلبوا العلم ولو في الصين، واطلبوا العلم من المهد إلى اللحد. ويوم القيامة يوزن مداد العلماء بدماء الشهداء. والناس من أمتي ثلاث فئات : عالم ومتعلم والباقي همج. وليس من أمتي من ليس بعالم ولا متعلم، ولموت قبيلة أيسر من موت عالم.

رسالــة المساجــد :

وأخذ الناس بأسباب العلم والتعليم، وأدت المساجد رسالتها في هذا المجال، لقد أدت ما تؤديه الجامعات ومعاهد العلم والمدارس في العصر الحاضر. فكان مسجد قباء في المدينة، ومسجد المنصور في بغداد، والجامع الأموي بدمشق، والجامع الأزهر بالقاهرة، وجامع القيروان بتونس، وجامع القرويين بالمغرب، وجامع قرطبة بالأندلس، والجامع الكبير في صنعاء، وغيرها من المساجد في طول البلاد الإسلامية وعرضها، كانت منارات للعلم والدين معاً.

وامتدت الدولة الإسلامية من حدود الصين شرقاً إلى حدود فرنسا غرباً في أقل من قرن من الزمان، إنما تم ذلك بالإسلام أولاً وبالعلم ثانياً، لقد أدت المساجد رسالتها إلى جانب منازل العلماء وقصور الخلفاء والأمراء والمكتبات، وذلك قبل إنشاء المدارس النظامية.

وسادت سماحة الإسلام وتعاليمه وقيمه الخلقية الدولة الإسلامية من أقصى شرقيها إلى أقصى غربيها، حتى ليقول أحد المستشرقين : إن كل طالب علم، من الملايو في شرق آسيا إلى ساحل العاج في غرب أفريقيا، يجد مكاناً يتعلم فيه، ومعلماً يعلمه، وراتباً يقوم بأوده.

ويقول مستشرق آخر : إن أحدهم ليقطع القارات الثلاث، وليس له من دابة تحمله سوى قدميه، وما ذلك إلا ليلقى عالماً أو يبحث عن كتاب، ثم يعودون إلى أوطانهم كما يعود النحل محملاً بالعسل.

دور المكتبات :

ولعبت المكتبات هي الأخرى دورها العظيم في نشر العلم والمعرفة في أرجاء الوطن العربي الإسلامي، وأنشأ الرشيد بيت الحكمة في بغداد، كما أنشئت دار الحكمة في القاهرة، ودار العلم في الموصل، ومكتبات أخرى كثيرة في العواصم العربية، في الأندلس، في قرطبة والشام واليمن، بها مئات الألوف من الكتب، ولا تخلو قاعاتها في أية ساعة من ساعات الليل والنهار من عدد من العلماء يعلمون أو ينسخون أو يترجمون، وأوقف الحكام والولاة على هذه المكتبات أوقافاً سخية ثابتة لا تزول بزوال الحاكم.

ورعت الدولة في كل رجاء من أرجائها ـ العلم والعلماء، وأنفقت بسخاء على العلم والعلماء، وكان العلماء حيثما يحلون ويرتحلون، يجدون إكراماً وكرماً بالغين.

عصر الترجمة :

ولأول مرة في التاريخ نجد أمة غالبة غازية منتصرة، تطلب من الدول المغلوبة، كغرامة حربية، كتباً ورسائل ومؤلفات علمية، بدلاً من الجزية والمال والضريبة، وهكذا عمرت خزائن الحكمة والمكتبات بمئات الألوف من الكتب في كل ألوان المعرفة، وبكل اللغات المعروفة في ذلك العصر، من يونانية وقبطية وفارسية وهندية. وبدأ عصر الترجمة، وبلغ أوجه في عصر المأمون، الذي قيل إنه كان يدفع وزن ما يترجم ذهباً. وتقاطر المترجمون على بغداد من أرجاء الوطن العربي، يترجمون وينسخون، فنقلوا إلى العربية كل العلوم المعروفة من مؤلفات أبقراط وجالينوس وديسقوريدوس وأقليدس وأرسطو، وأرشميدس وبطليموس وثاون وهيروفليس وغيرهم من علماء العصرين الإغريقي والإسكندري.

عصر الإبـداع العلمي :

ثم بدأ عصر الإبداع العلمي، حيث سطع في سماء الحضارة الإنسانية، عشرات ومئات من العلماء العرب والمسلمين، يقرنون إلى أعاظم العلماء في كل عصر وآن من أمثال الخوارزمي والفارابي وابن الهيثم، وابن سينا، والبيروني، والغافقي، والبغدادي، وابن يونس، والصوفي، وابن البيطار، والرازي، والزهراوي، وابن النفيس، والخازن، وابن ماجد، وابن زهر، والمقدسي، وابن رشد، والكندي، وداود الأنطاكي، وجابر بن حيان، والبوزجاني، وابن مسكويه، وابن العوام، وابن وحشية، وحنين بن اسحق، وابن ماسويه، وثابت بن قرة، وابن البطريق، وابن العباس، والعاملي، وابن الشاطر، والكاشي، والدينوري، وغيرهم كثير ممن تعد مؤلفات العالم منهم لا بالآحاد أو العشرات بل بالمئات. فكُتُبُ ابن سينا وابن الهيثم والبيروني وجابر والرازي والكندي، تزيد على المائتين لكل منهم، تتناول فروع المعرفة المختلفة من طب وكيمياء ونبات وحيوان وزراعة وصيدلة وغيرها من رياضة وذلك إلى جانب الفقه والفلسفة والمنطق وغيره.

وقد ساد الاعتقاد ردحاً طويلاً، أن العلماء العرب والمسلمين، كان إنتاجهم أغلب الأمر في مجالات العلوم الدينية والأدبية والفلسفية، من فقه وتفسير وحديث وتوحيد أو فلسفة ومنطق وشعر ونثر، مع أن مؤلفاتهم في مجالات العلوم الطبيعية من رياضيات وفلك وحساب وجبر، وهيئة، وميكانيكا، وطبيعة، وكيمياء، ونبات، وحيوان، وطب، وزراعة، وصيدلة، وبيطرة تفوق كثيراً مؤلفاتهم وإنتاجهم في سائر المعارف الأخرى.

بعض انجازات العلماء العرب في العصر الإسلامي

في مجال العلوم الطبيعية :

وليس من اليسير الإحاطة بإنجازات العلماء العرب في العصر الإسلامي في مجالات العلوم الطبيعية، وسنكتفي بالإشارة إلى بعض هذه الأعمال في هذه العجالة.

فهل ينسى فضل الخوارزمي في نقل الأرقام الهندية (١، ٢، ٣) والأرقام

اللاتينية (1, 2, 3) إلى العربية واستعمالها بدلاً من حساب الجمل الذي كان سائداً قبلاً.

ثم كان العرب أول من استعمل الكسر العشري، والصفر، والنظام العشري، **وابتداع ما يعرف بالجذر الأصم والكمية التخيلية واستعمال الرموز** في المعادلات الرياضية والجبر.

يقول أستاذنا المرحوم الدكتور مشرفة، صحيح أنه كانت هناك معلومات متناثرة مفككة في الحساب والجبر، ولكن لم يكن هناك من علم يسمى علم الحساب أو علم يسمى علم الجبر، **وأنه** كان ينبغي أن تنقل هذه المعلومات إلى عبقري كالخوارزمي لكي ينسقها ويعلمها للناس أجمعين.

وهل يمكن أن ينسى فضل جابر بن حيان، شيخ الكيميائيين العرب، وابتكاره لما نسميه الآن قانون الأوزان المتكافئة، وكان يسميه علم الميزان، ثم تحضيره لعشرات المواد الكيميائية التي نيفت على السبعين، وكان يسميها : زنجار، وزنجفر، وتوتيا، وماء الذهب، وما إلى ذلك من أسماء تعرفها الأجيال الصاعدة باسم : كبريتات أو كبريتور أو حمض وغير ذلك. وكيف كان يوصي تلاميذه بالتجربة واتباع التعليمات جيداً، **لأن** لكل صنعة أساليبها. وتكرار التجربة حتى تتطابق النتائج، والتدقيق وعدم العجلة.

وهل يجوز أن ننسى فضل ابن الهيثم في كشفه لما يسمى بالطريقة العلمية التي تنسب ظلماً إلى السير فرانسيس باكون، مع أن ابن الهيثم فيما يقول أستاذنا المرحوم مصطفى نظيف : « لقد أدرك من دقائقها ما لم يدركه باكون، بل لقد سما عليه سمواً »، ثم فضله في إبطال نظرية الشعاع في الضوء والإبصار، وهي التي ابتدعها بطليموس، الذي قال بأن الإبصار يحدث بأن يخرج شعاع من البصر، ثم يسقط على المبصر، ثم يرتد إلى البصر فنرى الصورة، فقال ابن الهيثم في بساطة : هل إذا نظرت إلى نجم في السماء، خرج شيء من بصري وقطع هذه الآلاف المؤلفة من الأميال ثم ارتد إلي فأرى الصورة، هذا شيء في غاية الشناعة بل في غاية الاستحالة، **وقال إن الضوء يسقط من المبصر على العين مباشرة فترى الصورة. كذلك**

أبطل ابن الهيثم ما سمي قديماً بالسرعة الآنية للضوء، فقال إن الضوء ينتقل في زمان، وأجرى من التجارب ما أثبت به سرعة الضوء، وبحوثه في المرايا المحدبة والمقعرة، وزوايا السقوط والانعكاس والانكسار، وكذلك بحوثه في الرياضيات والهندسة معروفة مشهورة حتى ليقول المرحوم الدكتور مشرفة « إن المطلع على كتاب (حل شكوك أقليدس) لابن الهيثم، يجد فيه رياضياً بحتاً، بأدق ما تحمل الكلمة من معنى وأبلغ ما تصل إليه من حدود ».

وهل يليق أن ننسى فضل « الخازن » في قوله بالجاذبية، وأن الأجسام تقع على الأرض بسبب قوة جاذبية موجودة في مركز الأرض، وأن هناك علاقة بين وزن الجسم الساقط وسرعة سقوطه، والمسافة التي يقطعها. ويقول المرحوم الأستاذ مصطفى نظيف : إن صاحب كتاب ميزان الحكمة (الخازن) كان يعلم هذه العلاقة، كما كان يعلم أن وزن الجسم في الهواء يقل عن وزنه الحقيقي، وأن للهواء قوة رافعة دافعة كالسوائل، وكانت بداية معرفة الضغط الجوي.

وما قدمه « الرازي » من معارف طبية، ومن ممارسة للتشريح، وما ذكره من معلومات في كتبه الحاوي والمنصوري ومحنة الطبيب وطب الفقراء، وابتكاره لخيوط الجراحة، والتجربة الضابطة، والتشخيص التفريقي، والطب النفسي، وتمييزه المبكر بين الجدري والحصبة، وقوله : « على الطبيب أن يرجي مريضه الشفاء، حتى ولو كان ميئوساً منه، وألا يعبس في وجهه، وألا يسار أحداً أمامه، لأن مزاج الجسم تابع لمزاج النفس ».

وكشف « ابن النفيس » للدورة الدموية الصغرى بقوله : إن الدم يتجه من القلب إلى الرئة ليجدد الهواء. ومع ذلك فإن الأجيال الحديثة لا تكاد تعرف إلا ما قيل لهم من أن مكتشف الدورة الدموية هو « وليم هارفي » و « سيرفنتوس »، وتصحيحه لخطأ جالينوس، الذي كان يقوم بتشريح أجنة ميتة، ويظهر أن أحدها كان به تشوه خلقي بوجود ثقب في القلب بين البطين الأيمن والبطين الأيسر، فظن أنه لنقل الدم بين أجزاء القلب.

وتصحيح البغدادي لخطأ آخر لجالينوس، الذي قال بأن عظم الفك الأسفل يتكون من عظمتين لم تلتحما. ولكن البغدادي، وكان يلقي درسه

في الطب في الأزهر ظهر كل يوم، وكان يشرح جثثاً لأشخاص مكتملي النمو، فقال إن عظمة الفك الأسفل واحدة لا اثنتين. وهل يجحد فضل ابن سينا على الطب والأطباء، إنه من أذكياء العالم المعدودين، وظل كتابه « القانون » يدرس في جامعات أوروبا طيلة قرون، وشهرته في الطب، شهرة كتاب « سيبويه » في النحو، وكتاب « أرسطو » في المنطق و « بطليموس » في الفلك (المجسطي). لقد ترجم القانون إلى اللغة اللاتينية واللغات الأجنبية، وظل مرجعاً للدراسات الطبية في جامعات أوروبا ستة قرون.

وكيف ينكر فضل « الزهراوي »، فخر الجراحة العربية، وأكبر جراحي الإسلام، كما يقول « سارفون »، وأدواته الجراحية التي ابتكرها، والعمليات الجراحية التي قام بإجرائها، وكتابه « التصريف لمن عجز عن التأليف »، وما جاء به من صور للآلات الجراحية التي ابتدعها، وتوصيفه لما يسمى ظلماً « توصيفة والخر »، والأحرى بها أن تسمى توصيفة الزهراوي. وما ابتكره من وصفات دوائية ومن عمليات في طب الأسنان. يقول أستاذنا المرحوم الدكتور نجيب محفوظ : لقد كان هؤلاء الأطباء العرب بمثابة المصابيح التي أضاءت منها أوروبا قناديلها في القرون الوسطى.

وهل ينسى فضل « ابن يونس » وكشوفه الفلكية، ورصداته القيمة، وكشفه للبندول، أو « الصوفي » الفلكي العربي الإسلامي، الذي أرخ به سارتون، فقال من عصر بطليموس إلى عصر الصوفي، وقال إنه كان نقطة تحول في تاريخ علم الفلك.

أما ابن الشاطر الدمشقي، فأول من قال بأن الشمس مركز الكون، وخالف بطليموس الذي كان يقول بأن الأرض مركز الكون. ومع ذلك فينسب هذا الكشف إلى كوبرنيق، مع أن ابن الشاطر سبق إلى إثباته، كما أن البيروني سبق إلى القول بإمكانيته.

أو ننسى « بني موسى » في كتابهم « علم الحيل »، الذين ذكروا فيه أكثر من مائة حيلة ميكانيكية، كما قالوا بالجاذبية العمومية بين جميع الأجرام والكواكب السماوية.

وهل ننسى فضل البيروني والكندي والزهراوي وغيرهم في العلوم الصيدلية، أو ابن ماجد بحار العرب الأول في علوم البحار، وربط الكندي بين المد والجزر وجاذبية القمر.

الأمة العربيـة في العصر الإسلامي

هي التي قدمت أوروبا زاد نهضتها العلمية :

وكذلك نرى أن الأمة العربية، في العصر الإسلامي، هي التي قدمت لأوروبا زاد نهضتها العلمية، وليس من اليسير الإحاطة بإنجازات العلماء العرب، ويكفي ما قدمناه من أمثلة في هذه العجالة. وقد اعترف المنصفون بهذا الفضل، من أمثال سارتون، وبرنال، وسميث، وهولميارد، وسيجريد هونكه، وكلهم يجمع بأن العرب كانوا أساتذة أوروبا في جميع العلوم والفنون، وأنهم لم يكونوا مجرد نقلة للعلم الإغريقي، كما يقول غير المنصفين. وتقول سيجريد هونكه : « **إن أوروبا مدينة للعرب وللحضارة العربية، وأن الدَيْنَ الذي** في عنق أوروبا وسائر القارات الأخرى للعرب كبيرٌ جداً، وكان يجب على أوروبا أن تعترف بهذا الصنيع منذ زمن بعيد، ولكن التعصب واختلاف العقائد أعمى عيوننا، وترك عليها غشاوة. وتضيف : **إنها** سبة أن يعلم أهل العلم من الأوروبيين أن العرب أصحاب نهضة علمية لم تعرفها الإنسانية من قبل، وأن هذه النهضة فاقت كثيراً ما تركه اليونان والرومان، ولا يقررون هذا، إن العرب ظلوا ثمانية قرون طوال يشعون على العالم علماً وفناً وحضارة، كما أخذوا بيد أوروبا وأخرجوها من الظلمات إلى النور، ونشروا لواء المدنية أنّى ذهبوا في أقاصي البلاد ودانيها، سواء في آسيا أو أفريقيا أو أوروبا، ثم تنكر أوروبا على العرب الاعتراف بهذا الفضل ».

ويقول « كارينسكي » : إن الخدمات التي أداها العرب للعلوم غير مقدرة حق قدرها من المؤرخين، وأن البحوث الحديثة دلت على عظم دَيْنِنَا للعلماء المسلمين الذين نشروا نور العلم والعرفان، بينما كانت أوروبا غارقة في ظلمات القرون الوسطى، وأن العرب لم يقتصروا على نقل علوم الإغريق، بل زادوا عليها، وقاموا بإضافات هامة في ميادين مختلفة. ويقول « كاجوري » : إن العقل ليدهش عندما يرى ما عمله العلماء العرب في

الجبر. ويقول سارتون عن ابن الهيثم : إنه أكبر عالم طبيعي مسلم، ومن أكبر المشتغلين بعلم المناظر (الضوء) في جميع العصور والأزمان. كما يقول المستشرق سخاو عن البيروني إنه أكبر عقلية علمية في التاريخ وإنه من أضخم العقول التي ظهرت في العالم، وإنه أعظم العلماء في كل العصور.

وكذلك صحت أوروبا حين انحسرت شمس هذه الحضارة العلمية العارمة عن العرب، لتشرق في أوروبا، وعرفت أوروبا الطباعة في منتصف القرن الخامس عشر، وترجمت مؤلفات العلماء العرب إلى اللغة اللاتينية واللغات الأجنبية، وظلت معتمدة كتباً مرجعية عدة قرون.

عوامل النهضة العلمية في العصر الإسلامي وجسور انتقالها إلى أوروبا

لا مراء أن ثمة عوامل بيئية كثيرة أدت إلى ازدهار النهضة العلمية في العصر الإسلامي، من أهمها في نظري العوامل الأربعة الآتية :

١ ـ **حرية الرأي العلمي، إذ لم يحدث في العصر الإسلامي أن امتحن عالم** واحد بسبب رأيه العلمي، ولم يحدث لعالم واحد ما حدث لعلماء أوروبا من أمثال، جاليلو وكوبرنيق، من سجن أو قتل أو حرق بسبب القول بكروية الأرض أو دورانها أو أن الشمس مركز الكون مما لم يتفق ورأي الكنيسة.

٢ ـ رعاية الدولة للعلم والعلماء، والإنفاق بسخاء على العلم والعلماء، وتكريم العلم والعلماء وما نقرأ عن رعاية الخلفاء والحكام للعلماء، وقد قيل إن ثلث الخراج كان يخصص في بعض العهود للعلم والتعليم.

٣ ـ **استعلاء العلماء بعلمهم، وقصة ابن الهيثم في رده ما دفعه أحد الأمراء أجراً لتعليمه، وقولته المشهورة « يكفيني قوت يوم » وكان يعيش من نسخ** الكتب. وكذلك رد البيروني ثلاثة جمال تنوء بأحمالها من نقود الفضة للسلطان وقوله : « إنما يخدم العلم للعلم ». وقولة البغدادي المشهورة : « إذا اشتهر المرء بعلمه وخلقه سعي إليه. وجاءته الدنيا صاغرة وعرضه ودينه مصون ».

٤ ـ الاستعداد الذهني والعقلي لدى هؤلاء العلماء وجلدهم وصبرهم

ومثابرتهم على الدراسة والتأليف.

أما المعابر التي انتقلت عن طريقها الحضارة العربية إلى أوروبا فهي أربعة هي الأخرى، وهي :

١ ـ الأندلس، حيث ازدهرت الحضارة العربية الإسلامية زهاء ثمانية قرون.
٢ ـ صقلية، حيث استمر العرب زهاء ثلاثة قرون.
٣ ـ الحروب الصليبية، التي استمرت نحو قرنين من الزمان.
٤ ـ الامبراطورية العثمانية حين غزت دول شرق أوروبا.

هذا التراث العلمي العربي المُشَرِّف، ينبغي أن تدرسه الأجيال الصاعدة لتعرف مكان أمتهم في التاريخ، وأن الأمة العربية لها أصالتها وأثاثها في تاريخ العلم، فينبغي أن يُصحح تاريخنا العلمي، وأن يُقَدَّم هذا التراث إلى الشباب مُلَخّصاً ومُخَلّصاً.

والله ولي التوفيق !!!.

المراجع

(١) أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية ـ هيئة اليونسكو ـ شارك فيه المؤلف.
(٢) الدليل الببليوجرافي للثقافة العربية ـ هيئة اليونسكو ـ شارك فيه المؤلف.
(٣) تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه ـ دار المعارف ـ للمؤلف.
(٤) الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب ـ اليونسكو العربية ـ شارك فيه المؤلف.

من قضايا الاستدلال القرآني

للدكتور عبدالله الأوصيف

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ما المراد بالاستدلال في القرآن الكريم... !

إنّ الحديث عن قضية الاستدلال في القرآن، يبدو أمراً ذا بال، في فترة يشتد فيها الاهتمام بأساليب الاستدلال، لأغراض معرفية، وإعلامية، ومذهبية، مختلفة باختلاف الدوافع والغايات.

غير أنه يحسن دفع ما قد يتبادر إلى الذهن، من البداية، من أنّ هذا الموضوع سيتناول القضية من زاوية نظر منطقية، يقصر فيها مفهوم الاستدلال على المعنى الاصطلاحي الشائع في الأوساط الفكرية الفلسفية والمنطقية فحسب، وذلك باعتبار كونه « طريقاً يتبعه العقل في دراسة لموضوع ما، بهدف التوصل إلى قانون عام، أو مذهب جامع، أي باعتباره فنّ ترتيب الأفكار ترتيباً دقيقاً بحيث يؤدي إلى الكشف عن حقيقة مجهولة، أو إلى البرهنة على صحة حقيقة معلومة »[1].

إنّ هذا المنحى المتخصص ليس هو الهدف هنا، لأنه من المعلوم أن القرآن ليس كتاب منطق محض، ولا كتاب علم متخصص، وإنما هو كتاب توجيه، ودليل إرشاد وهداية، ولهذا نجد الحديث عن الاستدلال في القرآن يرد ذكره كما يرد ذكر غيره من الموضوعات والمسائل، والأشياء التي تشغل بال الإنسان، وذلك بأسلوب مناسب لجميع الناس على اختلاف

درجات عقولهم وأفهامهم، فكان في دلالته القريبة معان واضحة، ميسورة الإدراك، سهلة التصور، في معظم سورة وآياته، وبهذا المستوى يتجه القرآن بالخطاب إلى الناس كافة.

غير أنّ المتأمل بتدبر من أهل العلم والخبرة، يجد في آياته وعباراته، بالإضافة إلى معانيها القريبة الظاهرة تلك، معاني أخرى دقيقة وخفية[٢] تنطوي على أصول وجوامع من المعارف متسعة الآفاق، بعيدة الغور، لدقة ملحظها، وللطف إيماءاتها، وذلك بقدر ما يتناسب مع عقل الباحث الناظر في آيات القرآن، سواء اتجه إلى المواطن التي تتحدث عن عالم الكم والكائنات والمقادير، مما يشكل ميادين دراسة العلوم التجريبية، أو اتجه إلى الآيات التي تتحدث عن دائرة الخبر، والتصور، مما يتعلق بالمعاني المجردة بما وراء الحس وبالعلاقات بين عالمي الغيب والشهادة.

وقد تفطن الجاحظ إلى هذا المغزى، في رسالة النبوة، حين حصر طرق المعرفة الاستدلالية، التي تلزم بها الحجة، في ضربين، أو طريقين، وذلك حين يقول : « إنّ كلّ منطق محجوج، والحجّة حجتان : عيان ظاهر وخبر قاهر »[٣]. فاعتبر لزوم الحجة مترتباً على الوعي العقلي، الذي يقتضي بالضرورة عمليات الاستدلال، والبرهنة ويسعى إلى تأليف ذلك استمداداً من الموضوع، أو من القضية التي يتعلق بها، أو من عالم الحس، أو من الخبر المعجز، وذلك إبّانَ مزاولته لعملية التعرف، والتعقل، وهذه الروح المعرفية في القرآن هي التي أدت أيضاً إلى تأسيس حضارات إسلامية كبرى، في أرجاء واسعة من الأرض وعلى امتداد أزمنة عريضة من التاريخ، في مشارق الأرض ومغاربها، نمت وازدهرت فيها علوم وفنون متعددة المشارب والطعوم.

وإذا كان الذي يهمنا في هذا البحث، هو بيان جوانب من الاستدلال القرآني، فإن ذلك يبرز عند البرهنة كما في حالة الحجاج أو المجادلة، في مواطن مختلفة، كأن تقوم الآيات بإثبات أن هذا الكتاب هو من عند الله مثلاً، أو تتقدم لتعمل على إيقاظ النفوس، والعقول، إلى أهمية ما ورد فيه من معارف ومضامين لا يمكن بدون عمليات استدلالية أن تجتذب الأذهان إليها، وأن تتركز في النفوس، فالاستدلال أمر ضروري بحكم شمول

توجّهات رسالة الإسلام، وعموم الخطاب فيها، بغير تحدد بزمان أو مكان، وفي هذا يكمن السر في كون القرآن الكريم ليس كتاب منطق، وبالتالي فليس الحديث عن الاستدلال في القرآن، كالحديث عن الاستدلال في كتب المنطق، ومناهج البحث قديماً وحديثاً، لأنها جميعاً مستغرقة في موضوعها الخاص، وفي مراحل زمنية تنكشف بمرور الزمان، ومع ذلك فلا بأس من الإشارة إلى أن المناطقة في حديثهم عن مبحث التصديقات، يقسمونه إلى فرعين، أو مبحثين :

١ ـ مبحث القضايا.

٢ ـ مبحث الاستدلال، ويشتمل هذا الأخير على الطرق العقلية التالية :

أ ـ القياس، وهو قول قدم له بمقدمات تترتب عنها بالضرورة نتائج[٤].

ب ـ الاستقراء، ومراد به الانتقال من الجزئي إلى الكلي، وهو عكس القياس الذي فيه ينتقل الذهن من الكلي إلى الجزئي.

جـ ـ التمثيل، أي الانتقال من الجزئي إلى الجزئي.

د ـ القسمة، وهي تكثير الواحد تقديراً وافتراضاً.

وهذه المقولات المنطقية، لا يمكن إخضاع النماذج الاستدلالية القرآنية إليها، لأن ذلك أمرٌ لا ترجى من ورائه أية فائدة، فضلاً عن أنه بطبيعته مستحيلاً، لأن تلك المقولات أو المقاييس لا تستطيع استيعاب أو تقنين الطرق الاستدلالية في القرآن، ثمّ هي في أحسن صورها محكومة بموضوعاتها، التي غالباً ما تكون مقيدة بعالم الحس والشهادة، على أنّه إذا كانت بحور الشعر وتفعيلاته مثلاً قاصرة عن احتواء التجارب الفنية الشعرية، لدى العباقرة والأدباء، فإنه من باب أولى أن يكون فشل الأطر المنطقية ذريعاً في رصد طرائق الاستدلال القرآني المعجز، ولعله من الأنسب والأجدى في هذا المقام، تفهم طبيعة الاستدلال القرآني، على ضوء المواقف القرآنية وفي الوسط الحيوي الذي فيه تعالج آياته القضايا الاجتماعية، والاهتمامات البشرية وتناقشها، وتحاورها، سواء بدا ذلك في شكل مناظرة وجدال حيناً، أو في شكل تصوير وتمثيل، مكين في الواقعية حيناً آخر، ولا شك أن تتبع

مسالك الحوار في القرآن بالوقوف على جوانبه يقود الذهن إلى تكوين تصور عن طبيعة الاستدلال فيه، وعن أهدافه وأساليبه، ثم يبين موقف القرآن أساساً من حيث هو كتاب وحي ـ من العقل، ومن النظر الفكري الحر.

٢ ـ الاستدلال في القرآن كأساس من أسس الحوار :

لقد شجع القرآن على الحوار، بمعنى مراجعة الكلام وتبادل الرأي من أجل الوصول إلى معرفة الحقيقة، كما شجع على الجدال، بمعنى مقابلة الأدلة، لظهور أرجحها، وبيان أقواها وأحصفها، وهذا النوع من الجدال، محمود مرغب فيه بحسب القرآن، وهو يختلف عن أنواع الجدل العقيم السوفسطائي، الذي يقوم على المخاصمة والانفعال، ويشغل عن النظر إلى الحق، ويحجب وضوح الرؤية الفكرية ـ ويصد عن الاهتداء إلى الصواب عند البحث. وهذه أمور كلّها لا يبيحها القرآن الكريم، بل ينهى أتباعه عنها إلا أن يكون ذلك منهم دفاعاً ضد الظلم (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن، إلا الذين ظلموا منهم).

ولعله من الواضح أن الاستثناء في الآية جيء به لفتح باب الدفاع بما يتناسب مع المقام، وحتى لا يكون قيَّدَ الجدال « بالتي هي أحسن »، في غير موضعه إذا ما كان في موطن تَحَدٍّ جائر.

فالقاعدة العامة بحسب القرآن، هي الجدل، بمعنى مقابلة الأدلة وتبين أثبتها وأرجحها، بالتي هي أحسن، بدليل قوله تعالى : (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن).

وإثبات شرط الجدال بالتي هي أحسن يدفع كلّ أضداده من أنواع الجدال الأخرى، التي ينشأ عنها إضاعة للحق، وتسبب في مضايقات وإحراجات لا طائل من ورائها، وعلى هذا فالجدال والحوار بمعناهما السالف، يتعاضدان في القرآن، على هدف واحد، هو إيضاح الحق، والصواب، وتقريرهما، في الأذهان، وتقريبهما منها، يحذر القرآن من استخدامهما كسلاح لإضاعة الحق بنصرة الباطل وأوليائه، كالبرهنة على الخطأ بأنّه صواب، وهو ما عرض به القرآن الكريم حين قال : (ويجادل

الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق).

وقد كوّن الحوار بذلك المفهوم السابق، لبّ الحركة التاريخية الاجتماعية في صدر الإسلام، فكانت مفاهيم القرآن تلك ميزاناً ومرجعاً لما جرى عليه العمل، إبّان الاحتكاك الواقع بين المسلمين وغيرهم من أهل الديانات والمدارس الفكرية والفلسفية، ممن وقع بينهم اتصال نتج عنه حوار وجدال بذلك المعنى ـ فكان بحق أساساً لتلك التحولات العقائدية والفكرية التي صهرت تناقضات الأجناس، المختلفة، والملل المتغايرة، والمدارس الفكرية المتباينة المشارب، صهرتها في بوتقة الإسلام التي أثمرت لوناً جديداً مشرقاً ومتميزاً في ميادين الحضارة الأكثر تناسباً مع طبع الإنسان وفطرته، لأنه النمط الأمثل من الحوار الودود، المجدي حقاً في اكتساب المعارف ذات النفع العميم، وذلك بفضل تقييده بإطار بحث مشروط « بالتي هي أحسن » في النوع، والأسلوب، وفي كلّ ما تتطلبه مناهج البحث، وطرائق التعرف والفهم.

ولا شك أن الحوار الحاد المتوتر، الذي يستند إلى الشتيمة والسباب لا ينتج فكراً حرّاً نزيهاً، وإنّما تداخله الاعتبارات الذاتية المؤدّية إلى التحيز والمكابرة والعناد، ويرفع شعار « إنّ لبني عمّك فيهم رماحاً ». أو « الا لا يجهلن أحد علينا... فنجهل فوق جهل الجاهلينا » وهي نزعات تعيق على تفهم الموقف أو القضية التي يتعلق بها الحوار، ويراد لها مزيد من الوضوح والبيان.

ولذلك فإن اختيار أسلوب « الجدل »، أو « الحوار بالتي هي أحسن » هو من باب اختيار الأمثل والأجدى من بين أنواع الجدال الممكن ممارستها عند تحاور العقول، وتفاعلها، وتناظرها، ولا يمكن اعتبار ذلك النمط، نزولاً إلى الحلول السهلة بدافع الكسل الذهني، أو الخمول الفكري، أو أنه من باب مسالمة الضعيف بل في ذلكم المنهج القرآني تكمن القوة الفكرية والدعوة الناضجة، التي تحمل الفكر على عمليات « التذكر، والتدبر، والاستنتاج » (ولقد ضربنا للنّاس في هذا القرآن من كلّ مثل لعلّهم يتذكرون). ويقتدر الفكر على بذل الأنشطة المناسبة لاقتناء المعرفة،

ولمكافحة الشبهات والعوائق.

بهذا يحرر القرآن العقول في الأغلال، أغلال الأوثان بأشكالها المختلفة، مادية كانت أم معنوية، ويقيم بدلاً عنها أصول حرية التفكير، والتعبير، والعمل، على أرضية من الثقة المتبادلة والحكمة المنظمة المنتجة، كما سبق أن أشارت إليه الآية : (ادع إلى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن)... عندما نصت على أنّ الدعوة إلى سبيل الله يجب أن تنهض على دعامة « الحكمة »، وهي المقالة الصحيحة المحكمة، والدليل الموصل إلى الحق، وعلى « الموعظة الحسنة » أي النصح النزيه، الذي يوقظ القلوب والعقول (ولقد ضربنا للنّاس في هذا القرآن من كلّ مثل لعلهم يتذكرون).

ولا شكّ أن عمليات التذكر المرتجاة في الآية بـ (لعلّهم)، هي نتيجة لضرب الأمثال التي تمر بالذهن فتؤدي إلى وظيفة قدح زناد الفكر، لتنطلق حركته من كمونها، وسكونها، إلى فحص، وتأمل الآيات، وتدبر سائر المخلوقات التي يمكن أن يقع عليها الحسّ، (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليذكر أولوا الألباب)، (أفلا يتدبرون القرآن، أم على قلوب أقفالها)(٨)، (أوَ لَم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء)(٩)، (أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين. وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه، قال من يحيي العظام وهي رميم، قل يحييها الذي أنشأها أوّل مرّة، وهو بكلّ خلق عليم).

والاستدلال في الآيات التي تشير الظواهر الكونية والنفسية إليها، مستند إلى عنصر الفكر، المطالب بقراءة صفحات الكتاب المجلوة، شأنه إزاء الصفحات المتلوة، بتدبير وتأمل، فهو استدلال غائي، يتضمن الدعوة إلى التوحيد، ويقود إلى تصديق الوحي، وإلى الإيمان بالغيب، من البعث والجزاء يوم القيامة وذلك من طريق التعرف على ما في عالم الشهادة، والتجربة، الذي هو مرآة عاكسة للقدرة الفائقة المطلقة، وأثر من آثارها الدال عليها.

فطبيعة المعرفة المطلوبة في العديد من الآيات القرآنية ليست مجرد

تلبية لفضول، أو إشباع لتطلع تتوق فيه نفس الإنسان إلى عجائب الموجودات، وإلى تأمل مجالي الكون فحسب، بل هي معرفة وظيفية مزدوجة الهدف، فبالإضافة إلى تحقيق رغبة الإنسان الفطرية في معرفة الأشياء على حقائقها، كما تبدو عليها في نفس الأمر والواقع، فإنّ لتلك المعرفة دوراً آخر تقوم به، فيه تضحى بمنزلة الوسيلة لغاية أنبل وأبقى أثراً، وهي ما يلزم عن **تلك المعرفة الشاهدة الحاضرة، من الإقرار والاعتراف بالحقائق الكبرى الغائبة،** باعتبار أن الشاهد يدل على الغائب، وأن تلك الدلالة لا يقتصر تأثيرها على تكيف التصورات والمعتقدات النظرية بل يتجاوز ذلك إلى مجاري السلوك والأفعال، فيوجهها، ويحدد مساراتها طبقاً للقيم التي يعير بها الأشياء، وللموازين التي يضبطها من قبول ومنع وإباحة.

وهذا ما نبه إليه كثير من الباحثين حتى من سلك منهم سبيل النظر مثل ابن رشد، الذي نبه في مطلع كتابه « فصل المقال » إلى هذا الغرض حين ذهب إلى « أنّ الموجودات تدلّ على الصانع بمعرفة وجوه صنعتها، **وأنه** كلّما كانت المعرفة بصنعتها أتم وأجلى كانت المعرفة بالصانع أكمل وأوضح »، وهو يرى أنّ الشرع ندب إلى اعتبار الموجودات، وحثّ على ذلك، يقول : « فأمّا أن الشرع دعا إلى اعتبار الموجودات بالعقل، وتطلب معرفتها به، فذلك بين في غير ما آية من كتاب الله تبارك وتعالى، مثل قوله : (فاعتبروا يا أولي الأبصار)، وهذا نص على وجوب استعمال القياس العقلي، أو العقلي والشرعي معاً، ومثل قوله تعالى : (أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء)، وهذا نص بالحث على النظر في جميع الموجودات »، ثم يقول : واعلم ان ممن خصّ الله تعالى بهذا العلم وشرفه، ابراهيم عليه السّلام، فقال تعالى : (وكذلك نري ابراهيم ملكوت السموات والأرض).

ويتبين من ذلك أنَّ منهج استخدام الحجة والاستدلال في القرآن الكريم، مقرر، ومطلوب شرعاً، قال تعالى : (يا أيها النّاس قد جاءكم برهان من ربّكم)، وقال : (ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به، فإنّما حسابه عند ربّه، إنّه لا يفلح الكافرون).

نرى أنّه قد قيد الوعيد على الشرك، لأنّه لا يوجد برهان لصاحبه يحتج به، ولا يمكن أن يوجد بل هو من باب التعليق على المحال، لأنه ليس بالوسع البرهنة على صحّة عبادة الشرك لتفاهتها أصلاً.

وتجد في مجال التنويه بشأن البرهان، أن الله سبحانه يبعث يوم القيامة الأمم مع رسلهم، وورثتهم من العلماء، ويطالب المشركين بحضرتهم بالبرهان، على ما خالفوا فيه، قال تعالى : (ونزعنا من كلّ أمّة شهيداً، فقلنا **هاتوا برهانكم، فعلموا أن الحق لله، وضلّ عنهم ما كانوا يفترون)**[١٠]. **وجئنا بك على هؤلاء شهيداً)**.

بل إنّ القرآن قد أقام البرهان العقلي على بطلان الشرك حين قال : (لو كان فيهما آلهة إلّا الله لفسدتا)، وحاجَّ المشركين مطالباً إياهم بالبرهان **على صحة ما اتخذوا من آلهـة (أم اتخذوا من دونه آلهة، قل هاتوا** برهانكم)، (أم من يبدأ الخلق ثمّ يعيده، ومن يرزقكم من السماء والأرض، أإله مع الله، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين). وأورد في سياق محاجة إبراهيم لقومه قوله تعالى : (وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً، فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون).

ويورد القرآن تعليقاً على موقف إبراهيم في تناظره مع قومه، يبرز فيه منزلة الحجة التي وهبت لإبراهيم، فكسر بها دعاوى المشركين، وذلك حين يقول : (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه، .نرفع درجات من نشاء).

وقد نصّ القرآن على أنّ ما جاء به من هذا الإصلاح، هو ما سبق أن أوحي إلى موسى ومن قبله ابراهيم، أبي الأنبياء : (أعنده علم الغيب فهو يرى، أم لم ينبأ بما في صحف موسى وابراهيم الذي وفّى، ألّا تزر وازرة وزر أخرى، وأن ليس للإنسان إلّا ما سعى، وأن سعيه سوف يرى، ثمّ يجزاه **الجزاء الأوفى) وفي ذلك إعلام بأن جوهر الوحي، المنزل إلى الرسل، واحد،** وهو أن لا تَحْمِلَ نفس خاطئة خطيئة نفس أخرى، سواء بفداء أو بغيره، وأنّه **لا يحتسب للإنسان إلا سعيه وعمله. ويدخل في مدلول عموم عمل المرء ما يتسبب فيه، كالذي يقـوم بتعليم النـاس ما ينفعهم، أو كمن يعمـر الأرض** بما يفيد، ونحو ذلك مما قد يسنه المرء من السنن التي يكون له من الجزاء

مثل جزاء من يعمل بها من بعده.

يتضح من الأمثلة المتقدمة نوعية الأسلوب العملي والواقعي في حجاج القرآن الكريم، حتى ليصح القول بأنّه « لو كان القرآن عالَماً محسوساً لكان هذا الكون العجيب »، ﴿ولو أن قرآناً سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلّم به الموتى﴾ أي لكان هذا القرآن.

ففي مجال المعرفة، والإرشاد إليها بطرق موضوعية، قد يسلك القرآن أسلوباً علمياً وموضوعياً، حين اعتبر الحواس شرائط أساسية في عمليات التعرف : ﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها﴾[12]، ﴿**إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع** وهو شهيد﴾.

كما أخبرنا الله سبحانه بموقف من مواقف يوم القيامة يصور ندم أهل العذاب على تفريطهم في حسن استعمال الحواس كوسائل للمعرفة، قال حاكياً عنهم ﴿لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير﴾، والقرآن يؤكد : ﴿إنَّ شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون﴾[13].

لهذا فإن دعوة القرآن إلى الاستجابة إلى الحق القائم على الدليل دعوة حارة، واعتراضه على من يجادل في الله بغير علم حازم وواضح : ﴿ومن النّاس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد﴾، ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره﴾.

وقد وصف القرآن المسلمين الخلص بقوله : ﴿وإذا مروا باللغو مروا كراماً﴾، وبالإضافة إلى ما تقدم ندد القرآن بالتبعية المقامة على عدم الوعي، ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة، وإنا على آثارهم مقتدون﴾، ﴿أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءَكم﴾.

وفي مجالٍ آخر ينبه القرآن إلى أهمية الحواس في ميدان المعرفة ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾.

يظهر ممّا تقدم كيف أنّ الأدلة تساق في القرآن لمخاطبة العقل

والوجدان معاً، وهي أدلة تستمد مقوماتها من الواقع المتصل بالإنسان، سواء ما يرجع منه إلى كيفيات الخلق أو إلى المحيط المدرك من الإنسان بواسطة التأمل في ظواهره، أو ما يرجع منها إلى المصير المنتظر، اعتباراً إلى حقائق التحول والصيرورة، التي تطبع الأشياء من حول الإنسان، والتي تمكنه من الانشغال بالمصير المنتظر والتفكير فيه، (نحن خلقناكم فلولا تصدقون أفرأيتم ما تمنون. أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون. نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين. على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون. ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون)[١٤] ويقول تعالى (أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون).

ويظهر من خلال ذلك أنَّ المعرفة وسيلة لهدف أسمى من مجرد حفظ النوع، وهي بالإضافة إلى ذلك الغرض، تهيىء الإنسان إلى سياسة جانب من هذا الوجود المحيط به، وإلى التدخل في شؤونه، لكن طبقاً لخطة محددة ترسم ملامح الرسالة.

ويتطلب تحقيق ذلك الغرض، من الإنسان، الرجوع بالنظر إلى تتبع **الظواهر الكونية والنفسية، قدر المستطاع، باعتبارها من آيات الله، البينة** المجلوة، وإلى تتبع الآيات المقروءة المتلوة، ثم محاولة تفسير تلك الظواهر، للكشف عن أسبابها، وللوقوف على نتائجها، وعلى العلاقات التي بينها، **ومعلوم أن كل ذلك لا يستقيم، ولا يتأتى بدون عمليات استقرائية منظمة،** تعتمد الملاحظة المضبوطة الدقيقة، وقد تستلزم من الباحث التدخل في تقبل طبيعته تلك، من ميادين البحث، مما تقع ملاحظته من الظواهر، المراد تفسيرها، فيعمد الدارس إلى الاختبار وإلى التجريب، بروح معرفية علمية وبذلك ينصح القرآن الكريم في أكثر من موطن، وذلك من صميم عمل المنهج العلمي المعاصر، سواء في روحه أو في خطواته ومراحله، لأن الحركة الذهنية الرائدة، في مثل هذا النشاط العقلي المبدع، تناضل في سبيل توسيع دائرة المعلوم بما يتناسب من الطرق الاجرائية طبقاً لمقتضيات الموضوعات المطروحة، **ولا شك أن مثل هذه الحركة لا تصدر إلا عن ذهن فطن محنَّك،** ذي خيال بارع خصيب، مثلما أشار الزمخشري إلى ذلك في كشافه حين

تحدث عن شروط المفسر الكفء قال :

(وكان مع ذلك ـ إشارة لما تقدم من شروط ـ مسترسل الطبيعة منقادها، مشتمل القريحة وقادها، يقظان النفس للمحة وإن لطف شأنها منتبهاً على الرمزة وإن خفي مكانها)[١٥].

وذلك لأن دلالة الكلمة في القرآن الكريم تستجيب إلى كل الناس المكلفين، في حدود عموم الخطاب الشرعي بالتكليف، بداية من عتبة الرشد والتكليف. ثم تتسامى آخذة في الارتفاع إلى أعلى درجات سلم الذكاء والنبوغ، إذا جاز مثل هذا التعبير، إذ أن نفس النص يتجه إلى أصحاب القدرات المختلفة، فيخاطب مثلاً الرجل العادي، كما يخاطب الرجل العالم المتخصص، مثلما يخاطب الفيلسوف، دون أن يعتبر ذلك ابهاماً بجانب من جوانب طبيعة الفوارق الفردية كما لو نظر كلّ أولئك مثلاً إلى شجرة زيتون، فإن نظرة الرجل العادي لها تعطيه تصوراً عن كونها منتجة لمادة نافعة، غذاء وعلاجاً، وترتسم صورتها في ذهنه على نحو حسي، كما تبدو عليه في هيكلها الخارجي، المشاهد عياناً، ولكن العالم المتخصص في دراسة النباتات يمكن أن ينظر إليها على نحو مغاير، فقد يبدو بالإضافة إلى صورتها الحسية المشاهدة، ذات هيكل مطمور تحت الثرية لا يقل بجماعي هيكلها الخارجي، ونتيجة ذهنية إلى تخيل عمليات نموها، وصعود الماء في أليافها، ابتداء من أبعد أطراف جذورها، إلى أعلى نقطة من أعضائها، وقد يقف به التفكير عند خصائصها وظروفها الطبيعية الفيزيائية.

لكن الحكيم مثلاً قد يتجاوز ذلك إلى تصور انتظام هذه الشجرة في علاقات وجودية أرحب وأعم، كأن يتناول بتفكيره ماهيتها ومكانتها، وقد ينظر إليها كرمز لجنس أو لفئة معينة الموجودات ذات اتصالات بأنواع أخرى.

إن هذه المستويات الثلاث من التفكير حول أنموذج واحد، التي ترمز لخصائص الرجل العادي، ثم العالم، ثم المفكر أو الحكيم من حيث أنهم يقفون إزاء مشهد واحد من الموجودات، تكشف عن كيفية افتراق السبل المعرفية بين الناس، إزاء المعطى الواحد، كذلك الشأن، أو قريب منه،

بالنسبة لقراءة الآيات القرآنية، فمن الناس من يقف عند المعنى الحرفي الظاهر، ويجد بغيته وضالته، ومنهم من يتجاوز ذلك إلى التحليل والربط بين الدلالات والمعطيات التي تثيرها الآية، ومنهم من يرفقه إلى الأصول الكبرى، والقضايا العامة الكلية التي هي معاقد لتفاريع مضمنة بها، وجوامع بجزئيات وتفاصيل تخفى على كثير من مهرة الغواصين في بحور المعاني.

وهذا ما لاحظه ابن عرفة في تقسيمه للمفسرين إلى مفسر مجتهد اجتهاداً مطلقاً، وإلى مفسر مجتهد اجتهاداً مقيداً، وإلى مردد للتفسير حظه منه النقل والترويج، ولقد طبق الفخر الرازي من قبل ذلك، عند تفسيره للآية الكريمة **(ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن) هذا المفهوم، فجاء بما يؤكد وعيه بهـذه المستويات الثلاثـة،** التي تشير إلى الفروق الفردية بين الناس، حيث اعتبر أن الدعوة بالحكمة تتجه إلى طائفة الحكماء، والدعوة بالموعظة الحسنة تتجه إلى أصحاب الفطر السليمة التي لم يفسد طبعها، والدعوة بالمجادلة بالتي هي أحسن تتجه إلى الذين انحرفوا عن طريق الحق، وضلوا عن منهجه.

وان هذه المستويات الثلاثة تشمل كل الطوائف البشرية، التي يعمها منهج الدعوة، هذا المنهج الذي ينبغي أن يراعي تلك المستويات تبعاً لواقع المجتمع، ومتطلبات أحوالها.

وهـذا ما جعل الجدل القـرآني جدلاً مؤلّفاً وليس مفرقـاً مشتتاً، ومن طبيعة الدين الإسلامي أنه دين الوحدة الاجتماعية وعدم التفرقة[16]. قال تعالى : (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون)[17].

غير أنه ينبغي ملاحظة أن القرآن الكريم لا يوغل في الجدل، وذلك حرصاً على إبقاء باب المودة مفتوحاً، إذ يعتبره مدخلاً للتفاهم والحوار النير.

يقول تعالى : (فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن، وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم، فإن أسلموا فقد اهتدوا، وإن تولوا فإنما عليكم البلاغ، والله بصير بالعباد).

تلك مهمة المجادلة في الدين، وهي مهمة محددة، مقيدة بما يجلب منفعة ويدفع ضرراً، ولا ينافي ذلك أن تكون المجادلة في العلوم الجزئية، والمعارف النفعية من الأمور المحمودة، مثل المجادلة في الفقه وما جرى مجراه من العلوم، التي تظهر فيها الحاجة إلى رد الفروع إلى الأصول، لحل مشاكل الناس، وإلى العمل على تبين جزئياتها وعناصرها، وما يتعلق بها من احتمالات وفروض تفسيرية، وهذا ما يشجع على البحث والتناظر، وليس الأمر كذلك في باب الاعتقاد عند أكثر العلماء، لأن الله سبحانه وتعالى لا يوصف إلا بما وصف به نفسه، (ليس كمثله شيء) حتى يدرك بقياس أو إنعام نظر، ولهذا كان مالك بن أنس يقول : لا أحب الكلام إلا فيما تحته عمل. وألف الغزالي « إلجام العوام عن علم الكلام ».

الجانب العلمي في الاستدلال القرآني :

لهذا كانت محاربة القرآن الكريم للخرافات، ولعبادة الأصنام الحية والمعنوية قوية جداً، سواء بالاهتمام بالحث على إقامة الأدلة على بطلانها، أو بالاهتمام بربط النظر بالواقع والتقييد به، أو بنقد مؤثرات الإلف والعادة، أو بالتصدي إلى فضح هيمنة السلطة الزمنية الباغية، باعتبار أن تلك العوائق على اختلافها أوثاناً مثبطة للعقل عن بلوغ المعرفة النافعة، ويتبلور ذلك في حكاية القرآن الكريم عن ابراهيم عليه السلام، عند مناظرته لملك زمانه الذي ادعى الربوبية، وعند مناظرته لأبيه آزر، ولقومه من عبدة الكواكب والأجرام، وقد سلك مسلكاً في الحجاج طريفاً، عند بيان استحالة ربوبية تلك الكواكب التي هي أشدّ بطلاناً من استحالة ربوبية الأصنام، لأن تقديم بطلان هيأة الأصنام على النحو الذي تذكره الآية، يساعد الأذهان على الترقي بالإدراك من الخفي إلى الأخفى.

هذا ويفهم من حجته عليه السلام أن استدلاله المنبني على إظهار التردد لم يكن في الواقع لنفسه، وليس ذاك تردداً حقيقياً منه، بل كان بهدف المحاجة، وبغية الكشف عن تهافت مذهب الخصم، باصطناع مثل هذا المنهج الشكي الاستدلالي، كما يرشد إلى ذلك سيل الآيات التي تصور هذا الموقف، يقول تعالى : « وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض

وليكون من الموقنين، فلما جنّ عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي، فلما أفل قال لا أحب الافلين، فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي، فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر، فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون، إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ».

والنتيجة التي ينبغي تسجيلها هي الانتهاء إلى ضرورة التوحيد إلى الذي فطر السموات والأرض : (إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين).

وهذا الاستدلال هو أقرب إلى أن يكون من جنس الاستدلال الصاعد، الذي يبتدىء فيه البحث من النظر إلى الجزئيات المحسوسة، ويترقى لينتهي إلى تعميم في الحكم، على خصائص تلك الجزئيات، تعميم يتسم بالشمول، والاستيعاب، ولو أن هذا التعميم هنا يختلف عنه في ميادين البحث العلمي المألوف من حيث المجال، ولكنه يلتقي معه على أية حال، في الشكل الإطاري كعملية الاستدلال، ومع كل الاحتمالات الممكنة في هذا المقام، نجد أن الاستدلال سبق هنا للمناظرة وللتعليم، وليس مجرد حكاية عن نظر، يعبر عن حيرة وشك، أي ليس هو مقام حيرة وشك حقيقيين.

ولعل هذا المعنى هو الذي جعل المفكر الإسلامي المعاصر عباس محمود العقاد في كتابه (إبراهيم أبو الأنبياء) يرى أنّ دعوة التوحيد تعتبر من أعظم الفتوحات التي غيرت بحق مجرى حياة الإنسان، وعلاقاته بالعالم الذي يحيط به ويحتويه، لأنها حررت الإنسان، وسمت به إلى رتب متفوقة بفضل إعلاء الإيمان بالله إلى ما فوق الطبيعة، فتحرير عقلية الفرد ثورة تفتح آفاق المعرفة العلمية، وتفرق أمام العقل بين مستوى الخالق، وبين مستوى المخلوق، ولا يستطيع فكر يخلط بين المستويين أن يتوفق إلى الحقائق العلمية لأن الكون يبدو له على أساس مفرق مفكك العناصر، تتنازعه الأرباب، ولهذا ارتفعت منزلة الإنسان حين ارتفعت عبادته من الطبيعة إلى ما فوقها، وحين أصبحت حاجته إلى المعبود تتجاوز مطالب الغرائز والأبدان،

لقد كان الإنسان قبل التوحيد أقل من الطبيعة، فأصبح بعده أعظم منها، كان عبداً لظواهرها، فأضحى قاهراً لها، يواجهها ويسائلها ويسخرها، فانطلقت الأبحاث العلمية الجادة بعدما تحرر الإنسان من الخرافات، « ولا تزال الجهود العلمية بين ناقص يتم وغامض يتضح وموزع يجتمع، وخطأ يترتب من الصواب، **وتخمين يترقى إلى اليقين** »[18].

وإزاء ذلك فإننا مطالبون بأن نفهم القرآن الكريم في عصرنا دون اضطرار إلى جحود معطيات العصر، أو غلو في الاعتزاز بها، بل لنا أن نستفيد من كل ما جدّ ويجد في ميادين المعرفة، في غير خلط بين الغاية والوسيلة، أي بين التزود بأحدث طرق المعرفة، للاستزادة من الزاد المعرفي، وبين تلوين ذلك بالشهوات والميول الذاتية لتبرير الأغراض والرغائب، وهذا ما تنبه إليه قديماً علماء أصول الفقه، مثل الإمام الشافعي في موقفه من الفكر اليوناني لمّا رأى أن المنطق اليوناني مقام على خصائص اللغة اليونانية، ولغة اليونان مخالفة للغة العرب، وتطبيقه في البحوث الإسلامية قد يؤدي إلى التناقض[19]. وقريب من ذلك رأي من رفض الاستدلال اليوناني من المتكلمين، فقد استند إلى أنه وثيق الصلة بالميتافيزيا أو الإلهيات، وكثير من أصوله تتصل بأصولها. ويرى بعض الفقهاء كابن تيمية مثلاً في المنطق الأرسطي قيداً للفطرة الإنسانية بقوانين صناعية متكلفة، بل ذهب ابن الصلاح إلى تحريمه[20].

ولا شك أن من أهم أسباب نفور العلماء المسلمين من المنطق اليوناني، الذي أدانه المنطق العلمي الحديث، والمعاصر، هو توجيه القرآن الكريم لهم، ودفعه الأذهان إلى طلب حسن **النظر والعمل** معاً، وهذا ما يفسر أيضاً عدم نجاح الفلاسفة الإسلاميين الذين تابعوا وردّدوا الفلسفة اليونانية، حتى اعتبروا تكراراً لها، وليسوا ثمرة للإسلام، كما أجاب أحد القضاة المعاصرين لابن سينا، حين سئل عن فلسفة الإسلام، أجاب قائلاً: « ليس للإسلام فلاسفة »[21].

وهذا المنزع العلمي في البيئة الإسلامية، امتدّ أثره إلى الغرب بواسطة بعض مشاهير رجالاته مثل روجر بيكون الذي درس العلم العربي، دراسة

عميقة حتى اعتبره البعض رسول المنهج العلمي الإسلامي إلى أوروبا المسيحية(٢٢).

ولعل ذلك الأثر هو الذي أفزع بعض أنصار الفكر الإنساني الصوري من المسيحيين، حتى دفع بأحدهم إلى ارتكاب جريمة الاغتيال لأحد أحرار الفكر في العالم المسيحي، وهو بطرس ريس سنة ١٥٧٢م، هذا الذي رفض منطق أرسطو وحاول وضع منطق جديد مكانه، في رسالته لنيل شهادة الماجستير التي عنون لها بما يلي : « كل ما قاله أرسطو وهم وضلال ». فكان من جراء ذلك أن حرم عليه التدريس، ونشر أبحاثه أولاً، ثم ضاق به المتعصبون للفكر المسيحي اليوناني، ذرعاً، وأقدموا على قتله حين استأنف هجومه على منطق أرسطو(٢٣).

والخلاصة مما تقدم، أن القرآن الكريم قد اعتمد في انتصاراته وفي التحولات الاجتماعية التي أحدثها على قوة الحجة وصدق الكلمة. وعلى تشجيعه للأسباب المؤدية إلى تحقيق ذلك، فاعتبر مثلاً كلمة الحق عند سلطان جائر، من الجهاد في سبيل الله، وحدد بذلك مشروعية الاعتراض على الباطل، وكشف عن الأسلوب الأمثل للاستدلال وللجدل والحوار، وربطها بالنبل في الدوافع والمقاصد.

وقد استخدم لترسيخ هذه القيم، الشواهد التي تسرد تجارب الأمم السابقة، لتكون مرآة ترى فيها النفس ما يلهمها إلى اقتناء الحلول المثلى في علاجها لمشكلاتها المتجددة، وكان القرآن يوجه إلى المشاهدة، وإلى التربية والاعتبار، ويحذر من تدخل الخصائص الذاتية، في التقديرات الموضوعية، ويوجه إلى قصر الأحكام العقلية في ظواهر الأشياء، التي تقوم دليلاً على وجود حقائق ثابتة تتجاوزها، مع الحرص على استبعاد الخرافات والتأملات العقلية المشطة المنبتة عن الواقع.

المــراجــع

(١) د. توفيق الطويل : أسس الفلسفة ص ١١١ ط ٢ القاهرة.

(٢) حنفي أحمد : التفسير العلمي لآيات القرآن الكريم ص ٥.

(٣) رسائل الجاحظ : ص ١١٩ ط ١ المطبعة الرحمانية بمصر ١٩٣٣.

(٤) التوسع على الشروح : المنطق / ١ / ٢٤٢ ط / ٥ القاهرة للمؤلف الدكتور زكي نجيب محمود.

(٥) انظر، الحوار والجدال في القرآن الكريم تأليف محمد الحسيني. المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ١٢١٥ ـ ص / ١٤.

(٦) سورة محمد آية / ٢٤.

(٧) سورة الأعراف آية / ١٨٥.

(٨) سورة محمد آية / ٢٤.

(٩) سورة الأعراف آية / ١٨٥.

(١٠) ٢٨ / ٧٥.

(١١) مقدمة كتاب فلسفة المعرفة في القرآن الكريم ط / القاهرة ١٩٧٣.

(١٢) الحج آية / ٤٦.

(١٣) النحو / ٧٨.

(١٤) الواقعة / ٥٧ . ٦٢.

(١٥) الكشاف للزمخشري ص / ٣ ح / ١ ط / ١ البهية المصرية ١٢٤٢ هـ.

(١٦) تمهيد لتاريخ الفلسفة ص / ٢١٥. د. مصطفى عبد الرزاق ط / ٣ مكتبة النهضة المصرية.

(١٧) آل عمران / ٦٤.

(١٨) الفلسفة القرآنية، عباس محمود العقاد ص / ١١.

(١٩) مناهج البحث عند مفكري الإسلام د. سامي الشتار ص / ٣٧٨.

(٢٠) نفس المصدر ص / ٣٧٩.

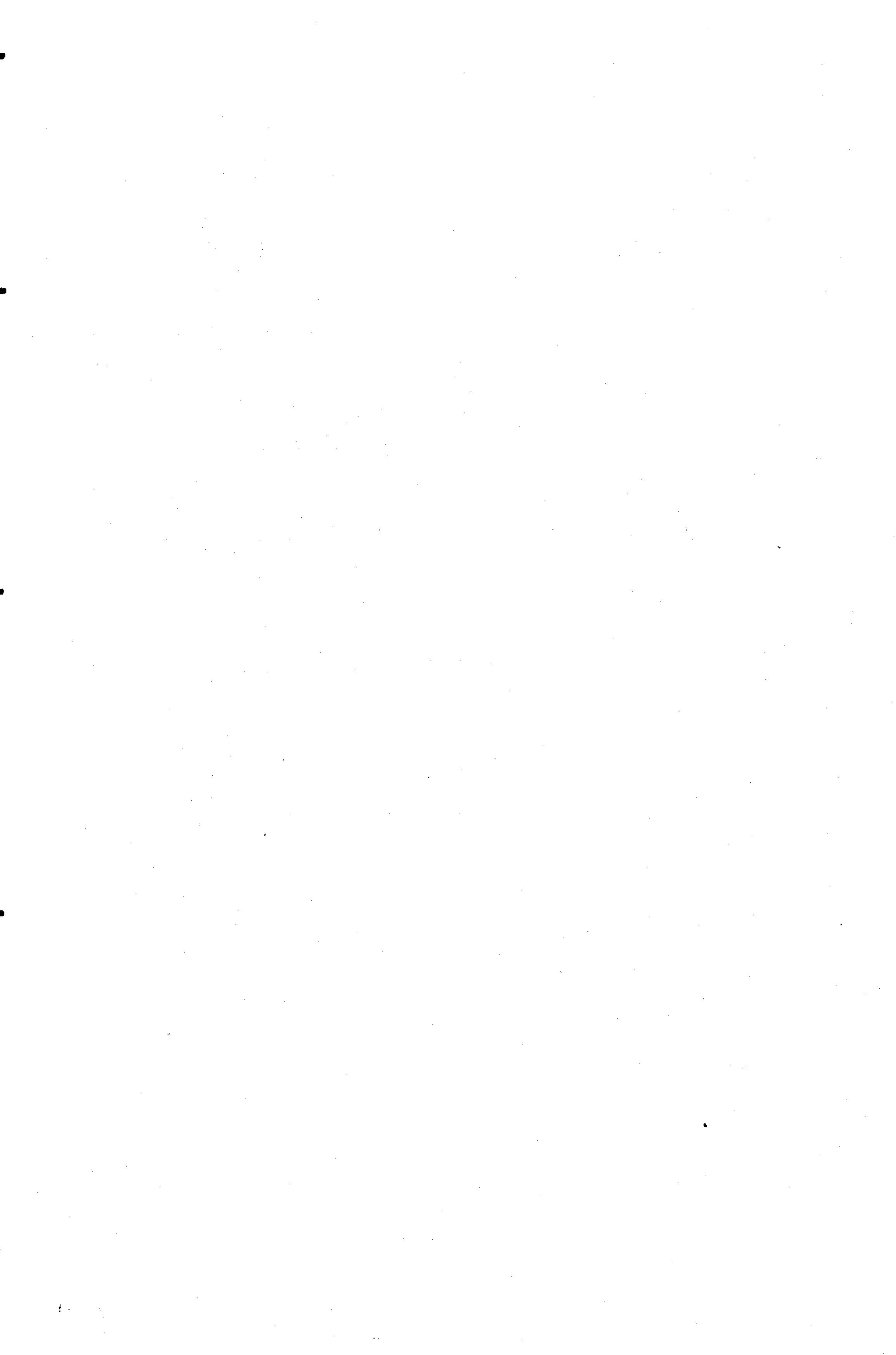
(٢١) مناهج البحث عند مفكري الإسلام ص / ٣٨٠.

(٢٢) نفس المصدر ص / ٣٨٣.

(٢٣) أسس الفلسفة د. توفيق الطويل ص / ١١١.

ماهية الحضارة وموقع الحضارة الإسلامية

للشيخ عثمان عبدالقادر صافي



موقع الحضارة الإسلاميّة

المقدمـــة

إنّ البحث في « ماهية الحضارة وموقع الحضارة الإسلامية » هو لون من الدخول في واحد من جوانب الموضوع الأمّ. وهذا يسوّغ للكاتب ــ **إن** لم نقل ملزمٌ له ــ أن يرسم رؤية إجمالية لما أسميناه العنوان الكبير والموضوع الأمّ، وهو « الإسلام، والحضارة، ودور الشباب » حتى يأتي الانتقال، من العام إلى الخاص، طبيعياً ومنسقاً.

والإطار ــ الأعم ــ للقضية بأسرها، هو « الإسلام »، الذي له الأحقيّة ــ والأولوية، أن نحدد معالم له ليُهتدَى بهذه المعالم في البدء بالبحث ثم المضيّ فيه، حتى بلوغ الأهداف، وبين يدي كلمة ــ هي بمثابة مقدمة ــ في **تعـريف** موجزٍ للإسلام ــ نجد أنفسنا أمام تقريرِ ملحوظاتٍ أولية تمليها الموضوعية في النظر :

١ ــ يتعين علينا ــ قبل الشروع والبدء، بل وطرح كل جانب من **القضية الكبرى ــ أن نقدر أهمية وخطورة ما نحن بصدد مناقشته : إنها قضية** الإنسان، ماضيه، وحاضره، ومستقبله، ولها من الأبعاد والأعماق ما يتعذر علينا تصوره، ما لم ندخل جِدّياً، إنه معترك ينتظرنا أن نخوضه، في ظروفٍ **يكاد سطح هذا الكوكب يئنّ من ساكنيه ويشفق على قاطنيه، والهواجس**

على مستقبل البشرية، هي في تصاعد مخيف.

٢ ـ إذا كانت ـ الحضارة ـ هي نتاج للنشاط الإنساني بمختلف صوره، فإن اللقاء هذا، هو جزء من التحرك الحضاري. بمعنى آخر : إن انتقاء هذه الندوة، يعتبر حلقةً في النموّ الحضاريّ المستمر والمتصاعد، فلقاؤنا ليس مجرد ترف نظري، بل المسئولية التي نضطلع بها ـ حسب التوجيهات التي عمّمتها الأمانة العامة الموقرة للندوة ـ بحرصها على « الجانب التطبيقي » ـ هي أن لا يقتصر دور الندوة على أن يكون منفعلاً، أعني جاء نتيجة لتحسس المسئولين بما تواجهه « القضية الحضارية » من أزمات، ولكن « فاعلا » أيضاً، ومؤثراً في دفة سير الحضارة الإنسانية، إنها ومضة حضارية يشهدها ظرفنا الراهن.

٣ ـ ومما يتعيّن علينا ـ من النواحي الموضوعية والتنظيرية أننا ـ في القضية المطروحة ـ أمام آراء ونظريات في المسألة الحضارية وتيارات لا يكاد يحصيها عد، فعلينا ـ والحالة هذه، أن نوفق وننسّق، بين الرؤية العلمية ـ التي تنظر إلى الأمور ـ والواقع ـ كما هو عليه، والرؤية الإسلامية الخالصة، فبهذا المنطق ـ وهذا المنطق وحده ـ يمكننا أن نتعرف على « موقع الحضارة الإسلامية » بعد التعرف على « الحضارة ذاتها » من جوانبها.

٢ ـ الحضارة في اللغة :

من السهل على من عنده إلمام بالشؤون الحضارية، أن يكتشف أواصر لغوية تربط بين لفظة « الحضارة » من جهة، والمدنية، والعمران، والتطور، والمعاصرة، من جهة أخرى، وبين الألفاظ هذه كلها، وبين التاريخ، من جهة ثالثة. غير أن العلاقة بين عامة الألفاظ هذه ـ وما جاء على غرارها، ليست علاقة ترادف.

ومن الألفاظ الآنفة الذكر، ما قد يستعمل بديلاً عن سواه كما هو الحال بين الحضارة والمدنية، مثلاً، غير أن مثل هذا الإطلاق فيه تجوّز، ذلك أن لكل من « الحضارة » و « المدنية » معنى مغاير كل المغايرة للآخر. غير أنه ـ لما كانت لفظة « الحضارة » مستحدثة ـ كما سوف يتضح ـ فإنه يمكن الزعم بأن مؤرخين قدامى نسبياً ـ كالعلامة الشهير ابن

خلدون، كان يستعمل كلاً من لفظتي « المدنية » و « العمارة » للدلالة على ما نسميه نحن اليوم « الحضارة ».

وبتتبع لأصل معنى مادة « ح ض ر » ـ التي تعتبر « الحضارة » من مشتقاتها نجد صاحب القاموس المحيط يشرحها كالآتي : « حضر : كنصر وعلم ـ حضوراً وحضارة، ضد غاب.. وكان بحضرته.. »[1]. وقال صاحب الصحاح : « كلمة بحضرة فلان، وبمحضر فلان، أي بمشهد منه.. والحضور ضد الغيبة[2]. والحضارة حضور إنساني في عالم متقدم.

وفي الموسوعة البريطانية :

« ومن المفيد، الملاحظة أن كلمة حضارة ليست قديمة، يقول بوزول Boswell إنه حث جونسون (كاتب انكليزي عاش في القرن الثامن عشر وألف قاموساً في اللغة في ذلك الوقت) على إدخال هذه العبارة في قاموسه سنة ١٩٧٢. ولكن جونسون رفض وفضّل الكلمة القديمة : سيفيليتي « Civility » هذه الكلمة ـ مثل كلمة أربانيتي « Urbanity » تعكس الاحتقار عند أهل المدن للريف ـ أو البربري، هذا ـ (يقصد سيفيليتي أو أربانيتي ـ كاتب البحث) ـ مصطلح العبارة »[3].

مَاهِيَةُ الحَضَارَةِ بَيْنَ العِلْمِ وَالفَلْسَفَةِ

الرؤية الفلسفية للحضارة بين القبول والرفض :

يرفض « البعض » أي شكل للحضارة غير الشكل المادي ولا يعترفون بما هو خارج عن الظواهر الكونية المحسّة، والمذهب المادي معروف، ويتركز الاعتراض على رفض أن يكون للحضارة خلفية وراء المشاهد المحسوس.

تعرف الموسوعة الفلسفية ـ وهي من « وضع لجنة من العلماء، والأكاديميين السوفياتيين »[٤] ـ تعرف الفلسفة بأنها : « علم القوانين العامة للوجود (أي الطبيعة والمجتمع)[٥] والتفكير الإنساني وعملية المعرفة. والفلسفة شكل من أشكال الوعي الاجتماعي، وهي تحدد في النهاية بعلاقات المجتمع الاقتصادية. والمشكلة الرئيسية في الفلسفة باعتبارها علماً، خاصاً، هي علاقة الفكر بالوجود، والوعي بالمادة ». الخ[٦].

لن نسمح ـ بالطبع ـ للنظريات المادية ـ الجدلية، أن تجر القلم عبر متاهات، ولكن يتعين علينا، بل توجب أمانة العلم، ان نكون على وعي تام، من انعكاس هذه المفاهيم على الحشد من الآراء حول مفهوم الحضارة. ونحن نرفض ـ بشكل قاطع ـ كل محاورة للمصادرة على الأفكار، لحجب الرؤية.

٢ ـ الانتماء الحضاري :

بين العلم والفلسفة

بوسع المحلل للشئون الحضارية، أن يميز بين ناحيتين فيما يتعلق بالعلم : « علم الحضارة »، « وحضارة العلم ».

فأما « علم الحضارة »، فنعني به الأبحاث التاريخية ـ أو المعاصرة، التي تدرس الظواهر الحضارية لأمة من الأمم أو شعب من شعوب الإنسانية كحركة وعي ونشاط فكري وإعماري للكوكب الأرضي منذ فجر التاريخ حتى عصرنا الحاضر. وأما « حضارة العلم » فهي ذلك النموذج من الحضارات التي ابتنيت على أسس علمية، فترقى كل أمة ليصدق عليها هذا الوصف، بالقدر الذي يشكل فيه العلم عاملاً في المقومات الحضارية، أو تهبط، حين تكون حصائل العلم بدائية.

وبعبارة أخرى، يمكن القول : إن « علم الحضارة » هو قواعد كلية، ترسم المعالم لما نسميه حضارة، وعلى ضوء تلك القواعد ـ القوانين ـ يمكن تقرير إن كانت نهضة ما، أو مدنية، يصح نعتها بأنها حضارة أم لا، كما يمكن أن تساعدنا ـ مثل هذه القواعد ـ بحكم ما تمثل من معايير، أن نقارن بين حضارة وحضارة، نشوءاً، وارتقاء، وانقراضاً، أو هبوطاً وتحولاً.

ماهية الحضارة :

مما لا شك فيه أن حضارات العالم ليست نمطاً واحداً بل لكل حضارة ميزة خاصة بها ومع ذلك فقد صنفت إما بحسب أهلها أو الأرض التي أقيمت عليها.

والسؤال : لماذا هذا الربط بين الحضارة والقومية أو بينها وبين الأرض. ولم تربط بمنجزاتها ؟

وهو الأجدى والأجدر !!

ولا نجد أنفسنا أمام أحراج، يضطرنا إلى التدليل على أن القومية الحديثة هي نزعة فلسفية، ذلك لما لها من إثارة على صيغتها التي عليها نمت منذ غياب سلطة الكنيسة في الغرب مع طي التاريخ للقرون الوسطى،

يقول لبيب عبد الستار في كتابه : « الحضارات » وتحت عنوان « النهضة في الغرب ـ التململ » :

« خلال القرون الوسطى، تميزت الحياة في أوربا بمظهرين : النظام الاقطاعي وسيطرة الدين. وعند حلول القرن الخامس عشر، تململ المجتمع محاولاً التفلت من سلطان هذين العاملين. وتفككت أواصر الوحدة الكاثوليكية، وتبلور مفهوم الوطن، فكانت الدول مثل فرنسا وانجلترا وأسبانيا وألمانيا... وسيطرت اللغات القومية على حساب اللغة اللاتينية التي كانت وحدها لغة الأدب والعلم والدين[٧]. عبر كل أوربا »[٨].

القسم الثاني

الفصل الثالث

حضارة أم حضارات؟

١ - رؤيـة علميّـة

وأمـا أن ما ندعوه بـ « الحضارات » انما هو مسلسلٌ لوَمَضاتِ النبوغ لأممٍ مضت، وأخرى لا تزال، وهو ما لا يفتقر إلى استدلال. فمن المسَلّم، أن لكل شعب ـ أو أمة من الأمم ـ هُوية تميزها عن سواها من الأمم. وما « الحضارة » سوى واحدة من أبرز الظواهر التي تعكس ذلك النشاط الذي أتاح القدر لتلك الأمة أن تدرجه ضمن حلقات « الحضارات ».

يعـرّف فاريك « Wahrig » ـ الحضارة في معجمه « Deutsches Wörterbuch » بأنها : « الصور الخارجية المهذبة والمتقدمة تقنياً للحياة وأساليب العيش عند شعب ما »[٩].

وأما معجم وبستر فيفسر الحضارة بأنها : « ٢ ـ فن التربية ٤ ـ حالة من الثقافة وخاصة بمعنى التنور وسمو الذوق اللذين يُكتسبان بالمران العقلي ٥ ـ ٢ ـ النمط الكامل للسلوك الإنساني ونتائجه مجسدة في

الفكر والكلام والعمل والفن، ويعتمد على قدرة الإنسان على التعلم ونقل المعرفة للاجيال المتعاقبة من خلال استعمال الأدوات واللغة ومناهج التفكير المجرد »[10].

الحقيقة التي نجد أنفسنا أمامها وجهاً لوجه ـ أن « الحضارة » ليس لها ـ أو لنشوئها بتعبير أدق ـ توقيت محدد، بل الإنسان لا يفتأ، ولا يبرح يتفنن، ويبدع، ويكتشف، دون أن ندرك ـ بعبارة علمية غاية في الدقة والتحديد ـ أوّليةً لهذه النشاطات البشرية والإنسانية.

وفي معرض عرضها لهذه الحقائق، تقرر ـ الموسوعة البريطانية، في تعريفها بـ « الحضارة » « Civilization »، « أنها ـ أي الموسوعة نفسها ـ ليست سوى تاريخ للحضارة. يقول كاتب المقالة :

« هذه الموسوعة هي في نفسها وصفٌ للحضارة الإنسانية، لأنها تحتوي على قصة المنجزات الإنسانية بكل تصوراتها الباهرة. إنها تعرض ما كان الناس ولا يزالون خلال مئات الألوف من السنين يتعلمونه عن أنفسهم وعالمهم، والمخلوقات التي تشاركهم في هذا العالم »[11]. وتحت عنوان : « المفهوم الجديد للحضارة » ـ يقول : « ليس من الممكن أن يكون هناك **فهم حقيقي لِلمُمَيِّزات الرئيسية والأساسية للحضارة حتى تقام أو تثبت وتضم** حقيقة أنه إذا كان بإمكاننا تتبع سلالة الإنسان رجوعاً إلى مدى بعيد بشكلٍ كافٍ، إذن لأمكننا أن نجد أنها ممتزجة مع سلالات الحيوانات المتوحشة، بدون ملاجئ اصطناعية، ثياب، أو نطق، معتمدة في بقائها على بحثها اليومي عن الطعام. إنه يتطلب جهداً كبيراً من الخيال أن يتم تصور الجنس البشري بدون تلك الحاجات الظاهرة حتى للحضارة البدائية. بدون نار وأدوات، يفترض أن الناس كانوا يعيشون كما كانت تعيش فتاة متوحشة بالقرب من شالون سورمارن (منطقة في فرنسا) عام ١٧٣١ »[12] وينقل المقال ـ أن « علماء الأجناس الجدد [13] أشاروا إلى أن الشعوب التي هي **بدون مدن مثل قبائل بولينيزيا والهنود الحمر في أمريكا الشمالية هم على درجة** عالية من الحضارة، بمعنى أنه ـ لدى التدقيق ـ (الاختبار) ـ المتعاطف ـ **وجد أنه كانت لديهم لغات (متضمنة معاني دقيقة)، فنون أصيلة (هذه الأشياء**

كلها)، مناسبة، بشكل يثير الإعجاب لظروفهم ومؤسساتهم المتطورة، وممارساتهم الاجتماعية والسياسية والدينية، وأساطيرهم ـ الوثيقة (الموثوق بها) ـ التي هي ليست بأحسن، ولا بأسوأ من كثير من تلك التي تسود اليوم بين دول أوربا »[١٤].

ويمكن القول ـ عموماً ـ أنه من الوجهة التاريخية ـ العلمية ـ لا يُستطاع القطع برأي في الموضوع، غير أنها مؤشرات ودلائلُ، تتجمهر لتُكْسِبنَا ما يشبه القناعة، بأنه لم يكن ثمة أصلان ـ أو أكثر، للإنسان. وإذا كنا قد حصرنا المصدرية ـ هنا، بآثار الأسلاف، فهو التزام بالمنحى العلمي الذي نحن بصدده، وذلك لا يعني أنْ ليس ثمةَ مصدرٌ آخر، هو الوحي، وسيأتي.

وضمن إطار ـ وبمقتضى الأصول ـ العلمية ـ المحلّلة لأحداث التاريخ، يسعنا ـ في موضوعنا هذا، أن نستأنس بظاهرة، لنا من الحق ما يُخَوِّلُنا إدراجها ضمن المُعطيات. وهي ما يشتبه « الترادف اللغوي »، في « تسمية » « **الظواهر المدنية والحضارية والثقافية** ». ومن يراجع المعاجم والموسوعات الأجنبية، ثم يقارن بينها من جهة ثم مع المراجع العربية من جهة، وربما غير هذه اللغات مما ليس بمتناول أيدينا أيضاً، فهو يستطيع باستجماعه للصورة، أن يرى « وَحْدَة » في واقع الحياة البشرية، رغم جميع **ما تأكد من وجود حضارات عبر التاريخ، بل ورغم ما يبدو من تباعد بين** مناطق المعمورة[١٥]. فالأرض ـ التي نجدها في عالمنا اليوم، تتجه مجتمعاتها نحو التلاصق، وتشد وسائل الاتصال المختلفة أصقاعها إلى البعض الآخر، متحدية ما تعانيه من انقسامات مذهبية وسياسية، الأرض هذه هي موطن إنسان التاريخ، موطن الجدود والأسلاف، الذين ينبغي لنا أن يعترينا الحياء، إن نحن زعمنا أننا انحدرنا من جدود متبايني الخِلقة ينسالون من أكثر من أصل واحد.

وجميل بنا ـ بهذا الصدد ـ ألا نتجاهل وجهة نظر تنتسب إلى العِلمِية، مع أنها فلسفة، وهي تلك التي يحملها مادّيّو النزعة، وتتبوأ زعامةَ هذا الرأي، الماركسيةُ اللينينية، فيما يتعلق بالوجود، والإنسان، وبالتالي :

تحضره وحضارته.

والاتجاه لدى المؤرخين السوفييت يميـل إلـى « وَحْـدَة » أصل الإنسان، رغم كونهم يرون أن « من الأرجح أن الإنسان الأول كان في جنوب شرق أفريقيّا وشرقيها، لأن أسلافنا ظهروا في هاتين المنطقتين بالذات منذ نحو « ٣ ـ ٤ ملايين سنة ». « ومرد ذلك أن جنوبي شرقي أفريقيا كان منطقة نشاط بركاني شديد وحصلت هناك زلازل وانفجارات بركانية متعددة مما أسفر عن انتشار الرواسب المشِعّة في مساحات شاسعة » ويعـزو عـالم الآثار أناتولي بيلوغورسكي كشف « تواجد الإنسان في الأزمنة الغابرة، إلى ما دعاه هيرلد « ماتيوشين » الذي تنبه لحالة لم يفطن لها غيره من العلماء العلماء في السابق. وهي أن أماكن العثور على عظام الإنسان البدائي تقع دائماً قرب المكامن الغنية بالأورانيوم حيث الإشعاع الشديد... » وحيث يعترف الكاتب بأن « أول إنسان يسير على رجليه أطلق عليه العلماء الإنسان الماهر، ويزيد حجم جمجمته مقدار الضعف تقريباً عنه لدى الفرد، إذ يبلغ ٨٠٠ سنتمتراً مكعباً » فهو يقول ـ مختتماً مقالته : « فمنذ ٩٦٠ ألف سنة حمل الارتكاس الارمغناطيسي الدوري، وحل محل « الإنسان الماهر » إنسان جاوة الذي ارتقى درجة أعلى في سلم التطور، وبمضيّ مئات آلاف السنين تغيرت علامتا القطبين مرة أخرى، وانقرض إنسان جاوه وظهر سَلَفُنا الإنسان النياندرتالي » وبعد عشرات آلاف السنين خلف هذا النوع، الإنسانُ الذي يقطن كوكَبنا الآن واسمه « الإنسان العاقل » وما الأمر ؟ إن الصخور والرواسب الأرضية « سجّلت » من جديـد تغيـراً في علامتـي القطبيـن المغنطيسيين في تلك الحقبة البعيدة بالذات. وهكذا تؤكـد « فَرضيـة ماتيوشين » الاستنتاجات الأساسية التي توصل إليها فريـدريك انجـلس، وَتُكَمّلها وتوضّحها في الكثير من النقاط » ا هـ.[١٦].

إننا لنجد أنفسنا في غنىً عن مناقشة هذه الفَرَضيات التي تقرر وقائع مر عليها ملايين أو عشرات الآلاف من السنين، ونترك ذلك لذويه. كما أننا لا تحدونا رغبة للتعرف على المكامن النفسية ـ وربما السياسية، أو لِنُسَمِّيها الايديولوجية أو الفلسفية، التي صرفت أذهان هؤلاء عن افتراض قائم ـ على حد نظرياتهم، وهو أن تكون قد ظلت بقايا حية ـ هي أحفاد، لهذه

« الأصناف » من « الجدود ». ولا تقنعنا توهماتٌ يبنون عليها، لمجرد أنها تملأ فراغاً فِكرياً ـ علمياً ـ فلنتقبل ـ برحابة صدر إقرارهم بوحدة أصل الإنسان. غير أننا ـ إن نحن التقينا في هذه النقطة، فثمة جوانب أخرى، لا سبيل إلى التلاقي بشأنها، وترتبط بموضوعنا ـ « الحضارة »، بصورة مباشرة. ومن أبرز تلك الجوانب : الرؤية المبدئية للكون، وإنْ كان الوجود مجردَ مادة ذاتية، أزلية، أبدية، حتى تغدو الحضارة، حسب المفهوم هذا، أن تكون مظاهر راقية للمادة، ومنها : الإنسان نفسه، وذكرنا ما فيه الكفاية عن هذا بما يليق بالدراسة الموجزة هذه. ومنها ـ أيضاً ـ عوامل التطور، ومن أبرز نقاط الخلاف فيها، أن كان ارتقاء الانسان قد تم بمحض امكانياته البشرية، أم إذا كان ثمة وحي، نزلت به الرسل، ولا يقف دور هذا الوحي على مساعدة الإنسان للإفادة مما خلق الله له من مادة بل مواد لا يحدها الحصر، تحفظ كيانه، بل حماه من شرور كثيرة، وكان يأخذ بيده، بين وقت ـ أو عصر وآخر، أن يتردّى مستجيباً لنزواته الحيوانية الشرسة، كل هذا، فيما يتعلق بحياتنا الدنيا التي نعيشها في حضورنا الواعي اليوم، ناهيك بما لارتباط الحياة الإنسانية ـ والكونية ـ طراً » بالآخرة.

قد تبدو ـ المسائل هذه ـ فلسفيّة محضاً، وهي كذلك، ولكن ـ الفلاسفة الماديين ـ وعلى رأسهم الماركسيين اللينينيين يأبون أن يُفرقوا بين الفلسفة والعلم إلا على طريقتهم طالما كانت القضية ـ أولاً وآخراً، هي المادة، بما في ذلك الإنسان، وأفكاره، ومنجزاته.

مرة أخرى، لن نخوض معترك جدل، ونحن لا ننكر حقيقة أن الإنسان تدرج في استخدامه للمعطيات الحياتية المحيطة به والمنتشرة حوله والتي منها أدوات الإنتاج، ولكن لا نُقِرّ ـ على الإطلاق ـ أن لـ « أدوات الإنتاج » الفضل ـ الأوحد ـ على حدِّ ما يراه هؤلاء ـ في التطور الحضاري للإنسانية.

ب ـ المنهج ـ العلمي ـ للمسلمين ، في تأريخهم للحضارة * :

لقد تأثر المفكرون والكتّاب، في عالمنا الإسلامي، إلى حد كبير، بالمفاهيم الغربية ولم يسلم التأريخ، من ذلك التأثير، وإذا كان لهذه الظاهرة

عوامل لا يكاد يأتي عليها الحصر، فإن من المؤكد أن من تلك العوامل، الهُوية الغربية في نمط التفكير، التي ـ رغم ما لها من خصائص مميزة فإنها تظل مدينة ـ في ارتقائها، إلى ما خلّفه الأسلاف منْ نتاج وثراء في عامة جوانب الحياة، ومن المآثر، للسلف، المنهجية التي كان يلتزم بها المسلمون في علومهم، وفي التأريخ. ومن أشد ما ناله سلفنا الصالح من الحقوق، تلك المحاولات التي تبذل، والتي لا تقف عند تجاهل ما لهم من فضل وحسب، بل تتعدى ذلك إلى تصوير مآثرهم على أنها مثالب.

وقوانين التاريخ، وقواعد الاستثبات، وأصول التوثيق، موروثة عنهم، فعلم « مصطلح الحديث » مثلاً ـ الذي هو فرع أصول الفقه، لم يُسبقوا إليه قط، ويضع العلم هذه الأسسَ والضوابطَ للنقل، على صورة تبعث على الروعة والإجلال، وعملية الاستقراء التي قام بها المسلمون للعلم وضوابطه، كل هذا معروف لدى المعنيين بكافة حقول المعرفة بمن فيهم غير المتخصصين.

ولعل من أبرز ما أخذ على مؤرخينا المسلمين، أنهم كانوا يسردون **الأحداث كما هي، دون تحليل. وبهذا يكونون « نقلة » للتاريخ، وليسوا** مؤرخين بالمعنى الدقيق للكلمة، على حَدّ ما يشتهر اليوم من أن التحليل التاريخي ـ بدراسة الظواهر وتعليلها، وتفكيك ألغاز العوامل والمؤثرات والمتأثرات ـ هو جزء من وظيفة المؤرخ.

ونكتفي بالإشارة، إلى أن مثل المطلب هذا ممن يُعتبرون « مؤسسين للتاريخ » ونعني بهم المسلمين، هو غير مستطاع، بل هو افتراض مبني على أن الرؤية التاريخية ينظر إليها مقلوبة الصورة :

فأولاً : ليس صحيحاً، بالمعنى الدقيق للكلمة، أن المؤرخين المسلمين لم يكونوا يحللون الأحداث، ذلك أنهم كانوا يعرضونها بصيغة تنطق بالتحليل.

ثانياً : يظل اسم الإمام في التأريخ ـ العلامة الشهير عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي ـ مَعْلَماً في هذا المجال، ومُقَدمته لموسوعته : « كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العجم والبربر، ومن عاصَرَهم من ذوي السلطان الأكبر ». تظل بمثابة التتويج لعلم التأريخ في العصور

الإسلامية. وإذا كان قد عني في مقدمته بشؤون ركز الغربيون على اعتبارها المرجع الأول لنشأة علم الاجتماع الحديث، فهل هذا الذي يسمونه الاجتماع هو شيء غير « الحضارة » إن نحن تسامحنا في استعمال الألفاظ ؟ فليس ابن خلدون ـ إذن الذي حلل وعلل ـ ينطبق عليه هذا الوصف، بل وكافة من سبقه من المؤرخين المسلمين.

ثالثاً : إن قضية التاريخ لم تكن الشغل الشاغل للسلف رحمهم الله، **بل كانت تمثل أحد جوانب ما كانوا يستشعرونه من مسؤوليات تجاه** الإنسانية. وأما الذي كان يستحوذ على مشاعرهم وأحاسيسهم، ويملأ معظم حياة كبارهم فهو « صنع الحضارة » و « بناء الإنسان » وتصحيح الأوضاع الاجتماعية وتنقية الأرض من الفساد، وهم ـ رغم ما كان يشغلهم من أعباء وواجبات دينية من عبادة وجهاد، فإن ذلك لم يذهلهم عن أن يقوموا بمهمة التدوين للأحداث. والمدهش أنها جاءت ـ رغم ما تتسم به من عفوية ـ أقرب إلى إحصائيات واسعة النطاق، شملت كل ما يمكن العثور عليه من أخبار الماضين، وتسجيلها فيما نسميه نحن اليوم « دوائر معارف » ومن نماذجها تاريخ ابن خلدون، والطبري، وابن كثير والبلاذري، والمقريزي، وابن خِلكان وغيرهم كثير من أمتنا العظماء والأجلاء.

رابعاً : وكان مما تتميز به منهجيتهم في التأريخ، الرواية، ويا لها من **مأثرة لعل أروع ما فيها، تحررهم من التعصب. فقد نقلوا ـ رحمهم الله ـ ما صح وما لم يصح، ما لهم وما لسواهم، وأية ميزة للتاريخ، يمكن أن تفضل على نقل الوقائع والأحداث والمرويات كما هي ؟ وينظر البعض إلى هذه المأثرة على أنها مأخذة، لما تضمنته كتبهم من الإسرائيليات والضعيف من** الأحاديث. وهذه غفلة عن جوانب ـ بالغة ـ من الخطورة :

فأما فيما يتعلق بحفظ تراث الخصوم، فإننا يتعذر علينا أن نقدر أهمية المأثرة هذه، ففيما لو أنهم طمسوا معالمها، وأتلفوها، إنها ستكون مأخذة وأي مأخذة، ذلك أن الذي سوف يقال : إنهم أتلفوا الحقائق.

وأما بالنسبة إلى الضعيف والموضوع، فهي مأثرة من نوع آخر، فبالإضافة إلى ما توجبه الأمانة والوثائقية، فقد مَضَوْا ـ في منهجيتهم ـ

رحمهم الله، على خطوط، لتلافي ما قد ينجم عن نقلهم لما دُونَ المتواترِ أو الصحيح والحسن من المرويّات، من ذلك، قوانين التوثيق باشتراط العدالة والضبط، وعلم الرجال، والتعديل، والتجريح حتى ألّفوا في هذا المصنفات الطوال.

يضاف إلى هذا وذاك، أن ـ المنطق العلمي ـ لا يسمح ـ للعالم، أياً كان حقله ان يتجاهل الفَرَضيّات، قويت احتمالاً أم ضعفت، وكم من ضعيف تبين بعدُ أنه ليس كما وُصِفَ، أو ـ على الأقل، مثّل معياراً للصحيح، ومعرفته، عن طريق المقارنة.

ثم لا يفوتنا ـ في هذا المقام، أن نذكر ـ وببالغ الفخر والاعتزاز، أن كل خَلَف، لم يكن مقلداً تقليداً أعمى لسلف، بل كان : إما مجتهداً، أو مُتّبِعاً على بصيرة.

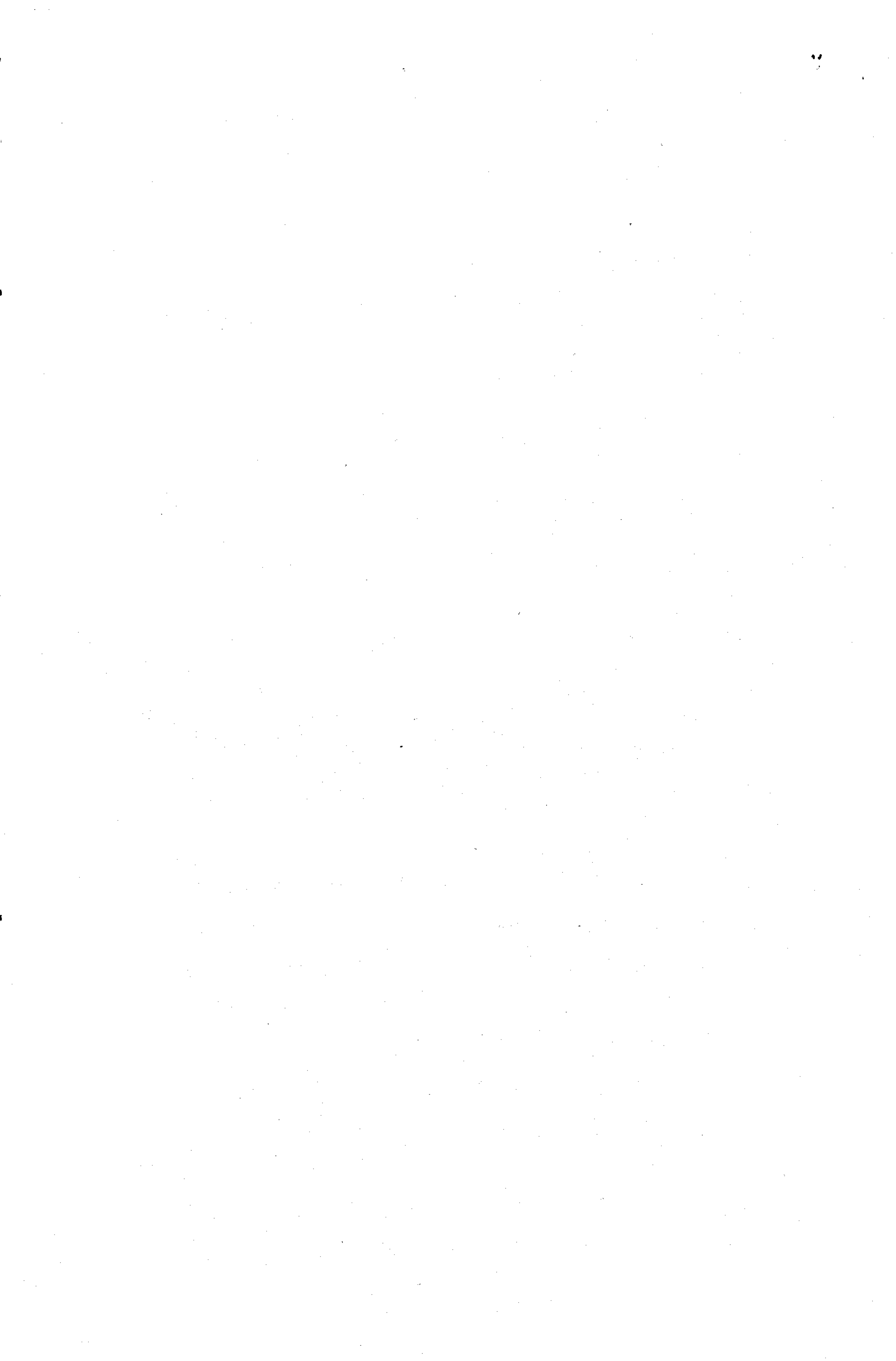
وأما المهم في الأمر، فهو « الأمانة ».. وهكذا تحال القضية إلى « المبدأ الأخلاقي » الذي لم يُعرَف مثيلٌ للإسلامي منه ـ عبر التاريخ القديم والحديث. هذا، ورغم أن هذا المبدأ كان سائداً على نطاقٍ اجتماعي فقد كان « الصدق » من « أخلاق المجتمع » وليس الفرد فقط، فإن السلف الصالح ـ رحمهم الله، لم تغمض أعينهم عن تجاوزات قد تحدث، وكان لـ « التدليس » وغيره من آفاق النقل أبواب في بحوثهم وقواعدهم للتاريخ والرواية ـ في علم المصطلح وغيره من الأصول.

تبقى ناحية، تتعلق بالحضارة، اهتم بها المتأخرون ـ الغربيون اليوم ـ دون السلف من المسلمين، وهي الاكتراث البالغ بالمظاهر المدنية والاثَريّات، فلقد أفاض سلفنا ـ رحمهم الله ـ في الكلام عن الأقوام الذين كانت الرسل تبعث إليهم، بمن فيهم الفراعنة مثلاً، ولكنهم لم يُولوا عظيم اهتمام للأهرامات **مثلاً**، أو لمعابد الفرس وسائر المشرق، والمغرب، وإن كانوا حَرَصوا على التعريف بمراكز العبادة للأديان السماوية، ومرد هذا إلى « الانتمائية الفلسفية » لكل من الحضارات. والاهتمام ـ عند الإنسان، هو فرع عقيدته ومفاهيمه، وهذا لا يخص العرب وحدهم ـ الذي قطع أحد كبار حكامهم ثاني الخلفاء الراشدين شجرة الرضوان، بل يعم جميع من

سجّل لهم التاريخ حضارات، بمن فيهم الغربيون اليوم ـ رأسماليين أحراراً أو شيوعيين اشتراكيين. ومرة أخرى : الفضل والمأثرة للمسلمين الذين ـ بِحَطْمِهِم للأوثان ـ لم يكن هدفهم قط محوَ حضارات، ولكن سحقَ الوثنية والشرك. هذا السحق، الذي لا تزال تنعم البشرية اليوم بفضله، وإذا كانت تنبت له بذور، فإنها إن كانت تدل على شيء، فهي مؤشر ـ تاريخي على ضرورة أن ترجع ـ الإنسانية بأسرها ـ اليوم إلى الخط السويّ الذي رسمه وحي الله، وهي نذر، بتدهور مريع تتعرض له. وتُكتب ـ هذه الأسطر، على أثر المجزرة الجماعية التي حدثت في مزرعة « جونزتاون » والانتحار الجماعي المريع الذي ارتفع عدد ضحاياه إلى (٩٠٠) لأعضاء ما يدعى بطائفة « هيكل الشعب » في غويانا بأمريكا اللاتينية[١٧].

ومن الجدير ذكره، أن صحيفة الايكونومست البريطانية، علقت على الحادثة هذه ـ في مَعرِض التحليل للمجزرة، ورأت « أنه ـ بفتح ملف الأديان التقليدية نرى أن الأديان التقليدية، كلها، تتهاوى، ما عدا الإسلام، فإنه يحافظ على مواقعه، في الوقت الذي تحاول فيه الكاثوليكية لملمة مواقعها »[١٨].

و « الشيطان » لا يفتأ يعثر على من يجدد الولاء له، فنرى عَبَدتَهُ يظهرون بأشكال وأنماط مختلفة، خارج العالم الإسلامي، على الأخص في الغرب، الذي تباح فيه الحريات المطلقة، حتى يحق ـ في الولايات المتحدة مثلاً ـ لكل راغب، أن ينشئ لنفسه ديناً، في الوقت الذي تُكْبَت فيه المشاعر الدينية وممارسة الحقوق الشرعية من تكاليف، غير عبادية، في البلدان الاشتراكية.



الفصل الرابع

حضارة أم حضارات ؟

رؤية فلسفية

هـل تقف ـ مسؤوليتنا ـ وما نضطلع به من تحقيق، أن « نؤرخ للحضارة » ـ القديم منها، والحديث ؟ أم أن القضية هي أكبر من ذلك كله، بأن تكون بحوثنا في ندوتنا هذه « إنجازات حضارية »، تدخل ـ ضمن المسار الحضاري ـ فاعلة ومؤثرة ؟

الثاني ـ دون مراء ـ هو العبء الذي نضطلع به..

إذا كان الأمر كذلك ـ وهو كذلك فعلاً ـ فإن جهوداً تبذل، تعريفاً للحضارات، وتَعَرُّفاً عليها ـ بما فيها الحضارة الإسلامية، لن يكون سوى مجرد معلومات نستجمعها كالتي تختزن في الآلات الحاسبة « الكومبيوترز » وأما الإنجاز المرتقب منا، فهو « استخدام » تلك المعلومات، التي تُصور لنا « ما كان » أو « ما هو كائن » فنسلطها أضواء على « الوضع الإنساني » لنتعرف ـ بواسطة ما هي ثرية به من معطيات ـ كي نكتشف الحقائق، ونصل إلى الهدف، وهو معرفة « ما ينبغي أن يكون » هذا إن لم نقل « يجب » ولعل الحقيقة هذه، تميط اللثام وتهتك الحجب التي تعيق وضوح الرؤية حتى تبلغ بنا المعرفة، أن ندرك الفارق بين « الحضارة »

و « التاريخ للحضارة ».

إن الذين « يُؤرخون للحضارات » ـ ويصح لنا ـ ببعض التسامح ـ أن نسميهم « علماء الحضارة » قد أسدوا إلينا خدمات جُلّى، بنقل ما يصح لنا أن نسميه « صوراً » لمسار البشرية في تاريخها، وما يشبه أن يكون « روائع من ثمار النشاط الإنساني وإفرازات العقول لعباقرة، غير أنه من الملاحظ، مما لا يتطرق إليه الشك ـ أن اهتمام المتخصصين بالحضارات قد استهوتهم الآثار المادية، المشاهدة، من بناء وعمران، وما طرأ على نسقِ حياة الإنسان ـ المظهرية ـ من تطوّرٍ وارتقاء.

ولكن، ثمة منجزات، رغم روايتهم لها، لم تكن تحظى سوى بحظ من الدرجة الثانية إن صح تقديرنا، وإذا كان « المؤرخ » : يعذر، بأن يركز على الآثار المُحسّة، بموجب ما تمليه قيود العلم من دراسة « الظواهر » فإن ثمة « ما وراء الظواهر »، التي ـ وإن لم يسقطها المؤرخون من حسابهم، ولكن كان لها حظٌّ هامشي يكاد يكون مقتصراً على « تظهير » صورها، وإذا كان من جاء قبلنا من الأقوام سَخَّروا معطيات ما يحيط بهم من موارد الطبيعية، وكانت لهم إنجازات باهرة ـ في حياتهم المادية، فقد كانوا معتركاً بالغ الضراوة غير منظور، ولكنه مدركٍ، وترك معالم تبقى آثارها، في حياتهم المعنوية والروحية. وبعبارة أخرى : إن السبل الحياتية المادية والمعيشية التي كانوا يَمضون عليها على مسار التاريخ ـ كانت « توازيها » « مسارات أخرى، غير مُحَسّة، سبق لهم أن غذّوا السير فيها أيضاً » :إنها الحياة المعنوية التي كانوا يحسنون اختيارها حيناً، ويضلون السبيل طوراً، حتى ـ كثيراً ـ ما كانوا يتيهون عن جادة الصواب تيهاناً، هذا إن لم نقل يسقطون في منزلقات مهلكة، ويتردون في منحدرات قاتلة.

نحن لا ننكر ـ بالطبع ـ على مؤرخي الحضارات ـ فضلهم في نقل صور عن الأحوال الفلسفية لمن سلف من الجدود، وكذا الدينية، ولكن هل يقف الأمر بنا، عند حدود التقاط ما هو أشبه بالصور الفوتوغرافية، ونضعها ـ كلوحات. في معارض ؟

مرة أخرى، قد تكون وظيفة ـ المؤرخ، تقف عند هذا الحد، ولكن

بصفته « عالماً » ـ حسب المفهوم ـ المعاصر ـ للكلمة ـ غير أن الرؤية الفلسفية، تفوق هذا المعنى بل تغايره، وتتخطى هذه الحدود، بكثير، كثير..

والمنعطف ـ في البحث ـ الذي يتعين علينا أن نواجهه، لنتجه بأنظارنا نحو الجانب الفلسفي، لا يعني ـ بالضرورة، الانتقال الفجائي، أو القفز من أفق إلى آخر بل يفترض أن تكون ثمة أواصر تربط بين المجالين ـ العلمي والفلسفي، أو المظهري والضمني ـ، للمسألة الحضارية، لا نعذر إن نحن جهلناها. ذلك أن المؤرخين ـ الذي أملت عليهم موضوعية العلمية في البحث أن يلتزموا بالظواهر لم يُغفلوا ـ بل لا يستطيعون هذا ـ الهوية الفلسفية لكل حضارة، سواء القديم منها أو الحديث، من الحضارات الإنسانية.

ولسنا هنا ـ كما هو واضح ونوهنا به في أكثر من مناسبة ـ بمعرضِ التأريخ للحضارات بما في ذلك التعريف بهوياتها الفلسفية. ويكفي أن نشير أنه كان لكل قوم ـ ذوي حضارة ـ هوية فلسفية، تتمثل فيما كانوا يعتقدون، من أديان توحيدية أو وثنية، أو تفلسف، حتى اشتهرت ـ على سبيل المثال ـ الهند بتعداد الديانات والشرق عموماً بنماذج من الفلسفات. وينسب إلى الصينيين القدامى عبادة ظواهر طبيعية، وأما الحضارة اليونانية فقد تميزت ـ بالإضافة إلى الوثنية ـ بالخيال والفكر الفلسفي والفنية في الطقوس ـ والرومانية البيزنطية بالتشريع، والمصرية بتعدد الآلهة، وبالإيمان بالبعث، ويعزى إلى « أخناتون » أنه حاول توحيد الآلهة، ثم ما لبث أن فشل بعودة التعددية إلى غير ذلك مما هو منقول عن الحفريات والأساطير وتغص به كتب التاريخ.

ونسجل ههنا ملاحظة على المؤرخين المعاصرين ـ وأغلبيتهم من الغربيين ـ فقد صُبّ اهتمام المستشرقين منهم ـ على الأخص ـ على ظروف تاريخية معينة، فيُفاض في التعريف بها حتى تضخم الأحداث لتأخذ أكبر من حجمها، هذا، بينما، هناك ظروف تاريخية أخرى بالغة الأهمية ـ في الامتدادين الزمني والجغرافي ـ تأثيراً على المجتمع البشري ويُستَهدَف الإسلام على وجه الخصوص بهذا التجاهل، ويغمط ما أدى من دور في تصحيح المسار الحضاري للإنسانية.

هذا مع أن الموضوعية في البحث ـ والتزام المنهج العلمي، يحظِران التحيز والمحاباة، وبما نحمل ـ بصفتنا مسلمين ـ من منطق التجرد الحق، فإن ما نضطلع به من مسئولية يفرض علينا أن تأتي مقارنات نجريها، مُعرّية لكل هوية ـ فلسفية أو دينية، من الأثواب المبهرجة، طالما كان الهدف هو خَير الإنسانية، وتَلَمُس الحلول لمشاكلها والحيلولة دون حدوث المزيد من الكوارث.

سبق وقلنا : أن اهتمامات المؤرخين بالجانب العَقديّ لكل حضارة يصلنا بما نعنيه بالجانب الفلسفي. ذلك أن القضية ليست مجرد التعرف على أن أمة من الأمم اعتنقت ديناً بينما أمة أخرى تخيرت لنفسها ملة من نو ع آخر، ـ ثم يقف اهتمام المؤرخ عند هذا الحد، بل يتعين علينا ـ في جهد يصح لنا أن نسميه « حضارياً »، ونتخير هذا الاسم بالذات لكونه موضوع ندوتنا، أن نغوص في الأعماق، نستنطق ذلك التراث الهائل من المفاهيم العقائدية، فنكتشف زيف الزائف منها وأحقيّة الصحيح.

والمنطق ـ الذي قلنا إننا نعتمده ونعتنقه، يوجب ـ، أن ندرج في خطة بحثنا ظاهرة جرت عادة البحّاثة ممن ينتسبون إلى الحقول العلمية ـ في التاريخ والشئون الإنسانية والمجتمعية، بما فيها السياسية، أن يغضوا الطرف عنها، أو هي لا تحظى ـ في أقصى الاهتمام، بما يزيد عن ذكرها عَرَضاً أو بصورة خاطفة، ألا وهي ظاهرة الرسالة الإلهية، التي تعاقب على حَملها وتبليغها عدد من كبار الرجالات العظماء في التاريخ، وهم الرسل الكرام.

ونحن يجزينا ـ من العلم ـ إقراره بالظواهر واقتصار العلماء عليها ـ غير أنهم ـ أي العلماء ـ حسب الاصطلاح المعاصر لمفهوم العلم ـ إن كان لا يتيح لهم اختصاصهم أن يقرروا صدق الرسلْ أو كذبهم، كما لا يمتلكون ـ قط ـ حق التقرير في أن العقائد الأخرى المناهضة لرسالاتهم هي صحيحة وجديرة بالاتباع، فإن العلم على الأقل وفي أدنى معطياته ـ بالإضافة إلى تعريفه لنا بوجود أديان وأن البشرية ما فتئت يَلْتمِس كل قوم منها أو أمة ديناً تعتنقه ـ فإنه ـ أعني العلم ـ لا يمتلك أهله إنكار مسلسل

الرسالات، وأن التاريخ قد شهد أحداثاً ملفتة للانتباه، وكان لها تأثيرها البالغ في مجرى حياة الإنسانية : رجال عظماء، قِمَم في حَمل المثل، يَدّعون أنهم مبعوثون من قِبَلِ الله، مبشرين ومنذرين يرشدون بني البشر إلى الهدى والحق، وينهونهم عن الباطل والضلال.

وبنقل التاريخ للأحداث وللحضارات ووصول صور إلينا عنها تنتهي مهمة المؤرخ، حيث حدود العلم، لتصلنا ـ معطيات العلم ـ ذاتها بالحقل الفلسفي.

وهكذا نجد أنفسنا أمام تكدّس هائل للمعلومات لا يَعْدِله شيء ضخامة، حتى نجد لنفسنا أمام اضطرار ـ دون أن تكون لنا من خِيرةَ ـ إن كنا نَنْشد حصيلةً تنفع البشرية وتمثل مشروع إنقاذ لها من محنِها ـ أن لا تقف عند حدود التمتع بتلك الموروثات كألهيات نظرية وترفٍ عقلي، بل نحلل وندقق، ونمحّص، وأخيراً : نلتمس المواقف.

وإذا كنا نجد أنفسنا ـ مرة أخرى ـ أمام شئون ومشكلات خارجة عن موضوع هذا البحث حتى يضيق بنا المقام ـ والموضوعية لا تسمح ـ باستطرادات ـ فإنه بوسعنا ـ على الأقل ـ أن نقرر عدداً من الأفكار الأساسية نَتَّخِذ منها منطلقات، دون أن تزحزحنا عن الترابط المنطقي بين المعاني. من هذه الأفكار :

١ ـ إن ما تكشّف لنا من « وحدة الجنس البشري » وتوافق الفرقاء، على تقرير ذلك، يرسي أساساً يتعين بموجبه أن يكون ما نسميه « حضارات » ليس سوى سلسلة تربط بينها أواصر شتى : « حضارة واحدة » هي « الحضارة الإنسانية ». الوحدة هذه ـ المظهرية الصورة والمادة ـ توري حقيقة فلسفية، تتلخص في ضرورة أن تكون « العقائدية » موحَّدة كذلك، والفكرة هذه ـ التي أسميناها أساسية ـ لا تتفق ونظرية النسبية في الرؤية الفلسفية، ومرفوض ـ بموجبها ـ أن يكون وجود خالق للكون مثلاً، حقيقةً لدى أُناس، وانعدامه ـ حقيقةً أيضاً ـ لدى آخرين، حتى يُدفع بالتالي أن يكون لكل فئة من بني البشر، أن تتخير معبوداً عن هوىً أو أساس من المزاج. بل يقتضي الحال ـ طالما كان الإنسان موحداً ـ أن يوحد

معتقده، أو بعبارة أخرى : إن من كان جديراً بالعبادة، هو بالضرورة جدير من قبل بني البشر قاطبة، في كل صقع من أصقاع المعمورة وكل عصر، أن يكون الإله الحق.

٢ ـ بما أن كافة ما استُجمع حتى اليوم من الشواهد المُتكَلَّفة، في محاولات يائسة، لاعتبار الإنسان متحدّراً من سلالة قردية، ولما كانت الدلائل ـ لحضارات الإنسان القديم، تثبت له نبوغاً وتفوقاً يبز فيه أحياناً الإنسان الحديث، وبما أننا لا نرى، ولم نشاهد أو نعرف، سوى هذا الإنسان **العاقل « فإن نظرية : أنه ـ أي الإنسان ـ إنما هو : » مجرد حيوان كبير** « ومتطور »، مرفوضة أيضاً ولا تنتهض لتحظى بالاحترام، **فالإنسان** هو « هذا الإنسان »، وإن كان يشارك بقية الأحياء الجسمية والحيوية وحرية **الحركة، فهو يفارقها في أنه « غير بهيم » ولا يغرنا ـ في شيء ـ صفات** اقتضاها التكوين الحيوي (البيولوجي) وإذا كانت القواسم المشتركة، التي تجعل من جميع الأحياء البهم ـ في منزلة ـ هذا إن لم نقل أنها أقرب أن تكون على نسق واحد في طبيعة تكوينها الحي النفسي والغريزي، فإن الإنسان ـ وحدَه يغايرها ـ كلها ـ في التكوين حتى لا يشاركه فيها حي على سطح الأرض قط، في خصائصه الإنسانية. الخصائص هذه، التي جعلت منه كائناً « حضارياً » **فذاً والمشاهد المُتَجَلي للعيان، أنه لا حضارة على سطح** المعمورة، لا اليوم، ولا في التاريخ، لسوى الإنسان[١٩].

٣ ـ إذا كان « الجانب المظهري » استهوى المؤرخين للحضارات، نظراً لمؤثرات الموروثات الحسيّة، من نقوش وعمران، فالذي يهم ـ **العقائدي « المحتوى الفكري » لكل حضارة، وليس ذلك المحتوى وجوهره** سوى المعاني الفلسفية والقيم.

وبموجب هذا الاهتمام، يجتذب الانتباه فريقان من الرجال العظماء، الفلاسفةُ، والرسل، ويَشُد ـ الأذهان ـ على وَجه الخصوص ـ ظاهرة نذير من يوليها قسطها من العناية والدراسة، وتتلخص في أن الرسل الكرام ـ خلافاً **للفلاسفة ـ جاء كل متأخرٍ منهم عمن سبقه، لِيصَدِّقه في دعوته.**

وتواجد مسلسل الرسالات عبر التايخ، ليس بوسع أي عالم أو مؤرخ

إنكاره، وهذا يعني، أنه كان لهذه الرسالات « موقع » في الحضارة والارتقاء الحضاري، ودور في توجيهه والبحث ـ من جانبه أو وجهه الفلسفي ـ يلزم الباحث بتحليل هذا الدور علمياً، مدى فعاليته، وأما فلسفياً : فبمقارنته بطرائق وأساليب ووسائل النصح للبشرية وإرشادها، التي جاءت عن طريق التأمل العقلي، ومنها النظم الوضعية على اختلافها.

٤ ـ والأهم من هذا وذاك، المقولة الكبرى ـ بل أكبر مقولة واجهتها **البشرية في حياتها عبر التاريخ ـ وهي دعوى هؤلاء الأقوام ـ الأنبياء الكرام ـ** أنهم رسل مبعوثون من قِبَلِ الله الخالق، مبشرين ومنذرين. ولا خيرة ـ **فلسفياً ـ في أن نُهمِل التحقق من مثل هذه الدعوى، ذلك أنه ـ على ضوء قرار يتخذ بشأنها ـ يتحدد : لا موقفنا من الحضارات السابقة أو المعاصرة،** وحسب، بل الهوية للحضارةِ الحقة الجديرة بأن لا تتأثر في جوهرها بزمان أو مكان، ذلك أن تعاليمهم، تجعل « الحضارة » ذات صبغة معينة، وترسم المعالم لنمط الحياة ونموذج العيش المتوجب على الإنسان أن يحياه. وإذا كان لكل حضارة « مثال » يحتذى، فإن لحضارة نموذجيةً تضع الإنسان والبشرية في الموقع المكرَّم « مثالها » أيضاً. وهو مغاير لكل « نماذج الأمثال والمثاليات » بأسرها قاطبة.

٥ ـ ومن أهم ما يعكسه « مثال » الحضارة، الذي شرعه الله لعباده، اختلاف أساسي وجذري بشأن وجهة النظر إلى طبيعة الحياة الدنيا ومظاهرها. ذلك أن النموذج الحضاري ـ الإلهي المورد والمصدر، يرتفع بالإنسان عن مجرد « حيوان كبير » وجِدَ على سطح المعمورة ـ **دون وجهةٍ منطقية وبمحض مصادفات الطبيعة ـ ليعيش أياماً ثم يَلقَى حتفه إلى غير** رجعة، بل ـ الإنسان ـ بمنطق مثالِ الوحي، أو الوحي المثاليّ، هو أكرم من **ذلك.** فالسنوات التي يقضيها الفرد، بلَ والعمر الذي تعيشه البشرية ـ مهما طال ـ فإنه سيواجه نهايته، ولكن إلى عودة ولو بعد حين. والعلماء الطبيعيون **ـ والمعنيون بالشئون الكونية بصورة أخص ـ هم على قناعة ـ بدورهم ـ من** أن لنظامنا الشمسي نهاية[٢٠]. وأما ما بعد ذلك، فهو خارج عن اختصاصهم.

٦ ـ ولا يخفى أن الجانب الفلسفي من الموضوع هو ذو شعب يتعذر حصرها، نتخير منها ما يتوارد على الخاطر، على ضوء التحقيقات السابقة، والمرجع الموثوق، ـ الوحيد ـ الذي يمكننا الاعتماد عليه في تفهم شئون رسالة السماء ؟ ثم علاقتها بالحضارة ـ كي نُطِل أخيراً ـ على « موقع الإسلام » ـ (الشطر الثاني من عنوان هذا البحث) ـ فهو القرآن الكريم. ذلك أنه المصدر الأوحد الذي نقل بالتواتر المستفيض عن لسان مدَّعِيهِ عن الله والذي يمُدنا بالحقائق فيما يتعلق بما نحن بصدد تقريره بأصدق صوره.

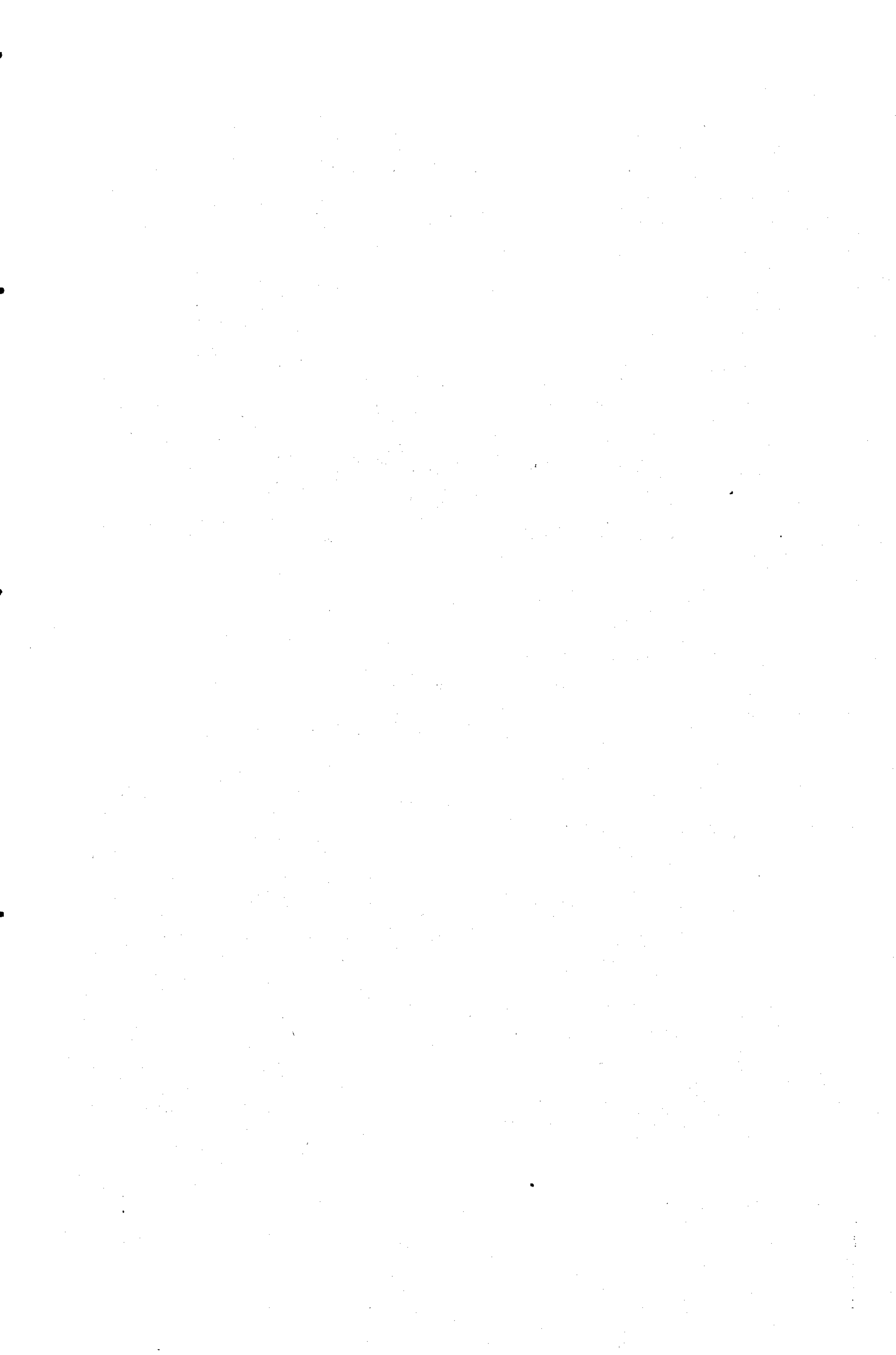
ويجدر بنا التنويه هنا أنه لا يسع باحثاً، محللاً للتاريخ، تجاهل أن كتاب الله، هو مصدر تاريخي وعلْمِيّ للحضارات، بالإضافة إلى كونه يمثل ـ أيضاً ومن حيث الأصل ـ مصدراً لجهة كونه وحياً فيه تبيانٌ لكل ما يفتقر الإنسان إليه في حياته المعنوية والفلسفية. ذلك أنه نَقَلَ لنا أخباراً تعتبر كثيرة ونادرة، عن أمم خلت والأخبار هذه وردت على لسان محمد عليه الصلاة والسلام ناقلاً لها عن ربه، في ظرفٍ انتقالي بين حضارات سابقة، وأخرى لاحقة، وهي المعاصرة. والقرآن العظيم ينقل مشاهد ـ حضارية ـ محكمة الترابط المنطقي، بين واقع الجاهلية وما تقدم عليه مباشرة، ثم ما سبق ذلك، مما كان معروفاً لدى جماهير العرب، وغير العرب أيضاً، في عهد النبوة، الذي شكل منعطفاً تاريخياً على مستوى الإنسانية والجنس البشري، من ظروف كانت فيها المجتمعات، والحضارات على شفا هاوية، هذا إن لم نقل كانت تتهاوى بالفعل، وجاء الإسلام لينقذ الإنسان من نفسه وما يهدده من أخطار مُحدقَة، وعلى رأسها غلبةُ نزعته نحو الوحشية، والانحدار الأخلاقي والقِيَمِي، ضمن التدهور الحضاري العام.

٧ ـ وختاماً، يمكن القول : من الوجهة الفلسفية لا بد وأن يكون لتعرفنا على « ماهية الحضارة » عنوان هذا البحث غاية هادفة، تتجاوز الأشكال إلى المضامين، والمُتَع الجسدية إلى الطمأنينة الروحية، والعقلية (العقلانية)الجافة، إلى الاستقرار النفسي والارتياح الضميري.

وبعبارة أخرى : لا جدوى من بحثٍ ـ في الحضارة ـ ما لم تُسَلَّطْ

أضواء على واقع الإنسان اليوم، وأوضاع البؤس التي يعيشها، فيحلل عواملها وأسبابها، ويُسْهِم، في مخطط، لرسم خريطة للحاضر والمستقبل، واستنطاق ماضي البشرية الطويل، فيستلهم منه العبر، وتقنص العظات، في سبيل « تقويم » يجرى على الحاضر الشاذ، الذي لم يعد بالإمكان أن تَنْزِلَ كارثةٌ في صقعٍ من أصقاع المعمورة ــ وهي في شبه توحد ــ دون أن يَلحق من آثارها أصقاعاً أخرى، منظورةً كانت تلك الآثار أم غير منظورة.

ونحن ــ إذ نقرر أن للإسلام « موقعاً » في الحضارة، فإنها ليست مجرد دعوى تصدر عن عواطف نابعة من مزاجٍ انتمائي، ولكن لنا ــ من جوهر الإسلام، وحقيقته وماضيه، ودوره الحضاري ضمن المسار التاريخي للحضارات، ما يجعل من هذا حقيقةً ثابتة، لا يتطرق إليها شك. وإذا كان ثبت للإسلام هذه المَكرُمة، فحق له، علينا ــ وعلى القيادات الفكرية في العالم كلها ــ أن نضع القضية محل دراسة، بل ترقى القضية لأن تكون أمانةً في أعناقنا ــ نحن أولاً ــ لإنفرادنا بعمق معرفتنا به، لا جرم أن رسالته نزلت بلساننا نحن العرب، وإن كان الكثير من غير العرب، وعلى الأخص المستشرقون لهم درايتهم به أيضاً، وكذا غالبية كبار مفكري العالم اليوم، الذين ليس فيهم ــ ومنهم ــ إلا ويُلِمُّ بِقِسطٍ من معرفةٍ بالإسلام، الأمر الذي يُحَمِّلُهم قِسطاً من المسؤولية، تجاه الأُسرة البشرية، كُلاً بقدره طالما كنا ــ كلّنا ــ لآدم، وآدم من تراب.



القسم الثالث

موقع الحضارة الإسلامية

الفصل الخامس

موقع الإسلام من الحضارة

أمامنا وجهتا نظر ـ أو ـ بعبارة أخرى ـ طريقتان في التعرف على المقصود : إحداهما : أن نسلط الضوء على « الحضارة الإسلامية » والطريقة هذه تُلزِم بحصر الموضوع ضمنَ مرحلةٍ تاريخية تبتدئ بظهور الإسلام دينِ محمد عليه الصلاة والسلام، وأما الثانية : فهي أن يركز النظر على « موقع الإسلام » مِنْ ـ أو ـ في ـ الحضارة.

وبمقتضى المنهجية الثانية في البحث، تتسع آفاق التأمل لتشمل التاريخ بأسره، ابتداء من ظهور الإنسان على سطح هذه المعمورة، وامتداداً حتى رسالة القرآن الكريم التي جددت المبادرة الإلهية عن طريق الوحي ـ وعلى أوسع نطاق ـ بالتدخل في الشئون الإنسانية ـ وتصحيح مسار البشرية ومجتمعها، وبالتالي : « تحديد الهُوية الحضارية للإنسان » وإعادة النضارة إليها.

ولا تعارض، أو تضاد، بين الرؤيين، حيث لا يزيد الأمر على أن تُرَكّزَ النظرةُ على مرحلة من التاريخ، أو تُوَسّع. ذلك أننا ـ في تحقيقات نجريها على « موقع الحضارة الإسلامية » لا نبتعد قيد أنملة، عن « موقع الإسلام » في الحضارة. ذلك أن الحضارة التي نشأت بظهور رسالة الله الأخيرة، خاتمة الرسالات، إنما حملت النسبة إلى الإسلام وسُمِّيت إسلامية، لما تحمل من هُوية فلسفية فذة، وهذا يؤدي بنا إلى حقيقة أن « الهوية الإسلامية » لـ « الحضارة الإسلامية » إنما اكتسبتها ـ أي اكتسبت الهوية الإسلامية ـ من موقع الإسلام نفسه منها، وتأثيره فيها، حتى طُبعت بطابَعه واصطبغت بصبغته.

بعبارة أخرى : إن وسيلتنا للتعرف على « موقع الحضارة الإسلامية » ليست سوى التعرف على « موقع الإسلام من الحضارة ». حتى ليمكننا الادعاء أن ضبط معالم « حضارة الإسلام » يتوقف على معرفة « دور الإسلام في الحضارة ». و « الروح الإسلامية » المناسبة في الحضارة. وأمّا ما مثّله ذلك كله من دورٍ في « التاريخ » ـ ولا تزال معالمه ـ فهو الذي يُمكِّننا من مشاهدة « موقع الحضارة الإسلامية » من صورة جلية، سواء في التاريخ الغابر، أو الحديث.

بَيْدَ أن المعطيات التي نمتلكها ـ تاريخيةً ومعاصرة ـ تقِفنا على حقيقة أخرى هي الأهم ـ وتتلخص في أنه لا يفتأ لـ « الحضارة الإسلامية » موقع. وأن رسالة محمد عليه الصلاة والسلام، إنما تتميز بخاصيّةٍ فريدة من نوعها، وهي أنها هزت المجتمع البشري بأسره، وأعادت إلى الإنسانيةِ إنسانيتها، ليس ضمن نطاقٍ أو حدود اقليمية ـ على غرار ما كان يحدث بين حين وآخر وكلما كان يبعث بنبي أو رسول إلى قومه خاصة، بل من طراز فذّ، لم يسبق له مثيل، ولن يأتيَ بعدَه نظير، عمَّ أرجاءَ المعمورة، وامتدت تصحيحاتُه لمسارِ الإنسان حتى عمّت أنحاءَ الدنيا، وكان تأثيره : إما مباشراً ـ عهود الفتح الإسلامي وما بعده، وهذا ـ أعني التأثير المباشر ـ كيّفَ كل منطقة تدخل ضمنَ المجتمع الإسلامي بحضارته الحديثة الناشئة، وإمّا غيرَ مباشر، وهو تأثير الهوية الإسلامية لحضارة المجتمع

الإسلامي على الأقطار التي ظلت خارج دولة الإسلام. والتأثير ـ غير المباشر ـ هذا، انتقل بوسائلَ ووسائط متعددة ومعروفة،منها التلمذة على علماء الإسلام، وترجمةُ الكتب الإسلامية التي شكلت الأساسَ العلمي للحضارة المعاصرة، ومنها : ما يصح لنا أن نسمّيه : « العدوى » التي امتدت إلى المجتمعات الغربية تحت ضغط مؤثرات، منها ما يرجع إلى الظروف القاسية وغير الإنسانية التي كان يعيش المجتمع الغربي في ظلها، و « رياح الغَيْرَة » التي كانت تهب من الشرق والجنوب، وجزء من الغرب (أسبانيا في أيام المجد الإسلامي بالأندلس) هذه الرياح، التي أيقظت الإنسانَ الأوربي من سباته، حتى جعلته يثور على العبودية، وظهرت ـ في أعقاب هذه التطورات ـ ما سمي بـ « النهضة » في الغرب، حتى « بدأت تنشأ له حضارة ». بعد أن ظل يعيش قروناً على هامش الحياة الحضارية، هذا إذا لم نقل حياة موغلة في الهمجية وهي أقرب إلى الحيوانية ـ وليست البداوة ـ منها إلى الإنسانية. وكل هذا مقرر في التاريخ.

وتقرير « موقع للإسلام » ـ في الحضارة له أهمية خاصة وذلك لما يمكن أن يُسهِم في حَلِّ ما يسوغ لنا أن نعتبره مشكلة، ذلك أن عبارة الألفاظ الشرعية : كالإسلام والإيمان، والبدعة ـ من قواعد الإسلام الكلية أو الأحكام الفقهية الشرعية : كالبيوع والإجارة والرهن، وما أشبه بعبارة أخرى : أن القاموس الإسلامي هو خال من لفظة « الحضارة » الأمر الذي يبعث على التساؤل عن مسوِّغ يسمح بأن تُدْرَج ـ « الحضارة » ضمن اهتمامات المسلمين والعلماء، مع أنها ليست من الألفاظ الشرعية.

وملخص الإجابة على هذا التساؤل : أن اللفظة هذه استعملت للتعريف بواقع، ووضعت عُرْفيّاً واصطلاحياً كسائر الأسماء ـ إزاء مسمّى للدلالة عليه. ونظراً لما لهذا المسمى « الحضارة » ـ ذاتها ـ من علاقة بالفكر والدين والفلسفة ـ بالإضافة إلى العلم والفن والمظاهر المدنية، فإنه لم يعد لنا خِيرَة في أن نرفض هذا الاستعمال وإن كان عرفيَّ المنشأ أو اصطلاحياً من الناحية الدِلاليّة، وذلك لما ينبغي من التفريق بين لفظٍ يطلق على واقع للدلالة عليه، وبين لفظ له دلالته الخاصة على معنى شرعي. الثاني

معروف، وأما الأول فليس ثمة مانع من وجهة نظر شرعية وفقهية ـ أن تسمى أوضاعٌ وأشياء بمسمياتها، وللشرع أن يتدخل في المسمى ذاته، على الأقل لجهة مدى توافقه مع الشرع، وقصارى القول : إن حصيلة هذه المسألة تتلخص في أن قضية الحضارة لا يتوقف الأمر بشأنها عند حدود الإباحة وحسب، بل الوجوب، لجهة كشف الحقائق فيما يتعلق بالمسمى، ودحض الأباطيل إن وجدت.

ب ـ القرآن مصدر للتاريخ الحضاري :

إننا ـ حين نعترف بـ « حضارة إسلامية » فهذا لا يتوقف فقط على إقرار الواقع وحسب، بل إن جَمْهَرَةَ المؤرخين، مخضرمين ومعاصرين يقرون بهذه النسبة، وعليه فإنه لا معنى لمثل هذا الاعتراف، إن لم يدخل « القرآن الكريم » كواحدٍ من مصادر التاريخ. هذا من حيث المبدأ. وأما لدينا ـ نحن المسلمين ـ فإن القرآنَ هو المصدر الأوحد الذي يتمتع بوثائقية قَطْعية، بالإضافة إلى السنة المطهرة إجمالاً وتفصيلاً بنسب متفاوتة في الثبوت كما هو معروف. وقطعية الوثائقية هذه لا تنبع من مجرد نسبة كل منهما إلى من جاء به وهو محمد عليه الصلاة والسلام ـ وحسب ـ وَيُقِرُّ الخصوم بهذا ـ ولا قِبَل لهم بدفعه ـ بل بإضفاء الصدق على نسبته إلى الله تعالى، فخبره ـ وهو الوحي ـ هو حق، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

والحد الأدنى، الذي لا يمتلك المناهضون لأنباءِ الوحي رفضَه أو تجاهله يتمثل في الكثير من أخبار الأولين، مما كان له صلة بالعرب الجاهليين : إما مباشرة، وهو الأحداث التي شهدها آباء معاصريه ـ عليه السلام ـ وجدودهم، أو غير المباشرة، وهي التي سبقتها، ولا يتسع المقام هنا للتدليل على الروابط التعليلية ـ التاريخية، بين ما حدّث به القرآن العظيم عن أخبار الأسلاف والعلائق المنطقية بين لاحقها بسابقها.

ومن المفارقات ـ التي لنا من الحق ما يُجيز لنا أن نسجِّلَها عَيْباً خطيراً في النظر التاريخي، عند أولئك الذين تجاهلوا القرآن كمصدر للتاريخ، ما وقعوا فيه من التناقض. ذلك أنهم : بين أن يقبلوا نسبة ما جاء به محمد ـ رسول الله ﷺ ـ إلى ربه، فيؤمنوا، ويُحَلّ الإشكال بفروعه

وتفاصيله، أو أن يلتزموا بمقتضى اعتبار القرآن من صناعة محمد عليه السلام وتأليفه. وفي حال كهذه، فإننا لا ندري ـ لَعَمْر الحَق ـ ما الذي يحملهم على التنكّر لوثائقية القرآن وما حفل به من أخبارِ الأسلاف، اللهم إلا أن نفترض أن البواعث إنما هي تَعَقُّدٌ تجاه القرآن وعداء له، والخوفُ ـ أو تحاشي ـ أن يفضي بهم مِثْلُ هذا الإقرارِ بالفضل، إلى التسليم الاضطراري بصدق نسبته إلى الله تعالى. ويُذَكّرنا هذا باهتمامات المؤرخين بالأساطير، التي يَصنُفونها ـ رغم بَهْتِها(*) ـ بين مراجع التاريخ.

والقضية ـ من زاويتها هذه ـ ليست محل مُهادَنَة، وتتطلب ـ نظرياً وعلمياً على السواء ـ الحسم، ذلك أنها تصلنا بصورة تلقائية بالهدف ـ الفلسفي الحقيقي ـ الهدف والغاية : فإما أن تكون هويةٌ إسلاميةٌ للحضارة، أو لا تكون، وإن كانت، فلا خِيَرَةَ في أن لا يُتقبل القرآن العظيم كمرجع، وفي حال قبوله، يتعين الإقرار به وأنه من عند الله، والبديل لهذا ـ الوحيد ـ هو أن يُسقَط دور الإسلام جملة، وهذا تَنَكُّرٌ للمنطقية النظرية والعلمية في البحث، وانخراط في المذهبية المادية وولوغٌ في أوحالها، ويترفع عنه من يَنْشُد لنفسه الاحترام في النظر والموضوعية في البحث. وغاية ما يمكن أن يقال : إن المجال الذي تُقَرَّرُ فيه هذه الشئون هو حقل علم الكلام ـ وهذا صحيح ـ غير أن علمَ التاريخ، يحمل ـ بدوره ـ من المؤشرات ما يضطر الباحث إلى التسليم بما لا قِبَلَ له بتعليله على الطريقة المادية أو التجريبية في حقل الطبيعيات. ولا نذهل هنا قط، عن حقيقة أن الرافضين لاعتماد القرآن كمصدر يحملون بين جوانحهم احتمالاتٍ نفسيةً ودوافع فلسفيةً عدائية، ونزوعُهُم مزاجي لا يمت إلى العِلمية بصلة.

على أن اقصاء القرآن الكريم عن « المسألة الحضارية » ناتج عن جهلٍ به، فكتاب الله تعالى لا يقف الأمر به عند سرد قصص الأولين، وحسب، بل يضم بين دفتيه آيات هي بمثابة نصوص في الحضارة.

آ ـ على سبيل المثال ـ وليس الحصر ـ يروي لنا القرآن ـ في معرِض سرده لقصة يوسف مع إخوته : « ورفع أبويه على العرش وخروا له

(*) البهت يحمل معاني الكذب والبطلان والمدعاة للحيرة ـ اللسان.

سجداً، وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل، قد جعلها ربي حقاً، وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي، إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم » (١٢ / ١٠٠) هذه الآية الكريمة بالغة الوضوح، في تقرير أول تحرك لنشأة إحدى الحضارات المعتبرة قديمةً ــ وهي الحضارة العبرية والتي يرى بعض المؤرخين أنها نفسها الكنعانية[٢١].

ب ــ وقال تعالى : « وإلى ثمود أخاهم صالحاً، قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه، إن ربي قريب مجيب » : (١١ / ٦١).

ج ــ وقال سبحانه : « أَوَلَمْ يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم، كانوا أشد منهم قوةً وأثاروا الأرض وعَمَروها أكثر مما عمروها، وجاءتهم رسلهم بالبينات، فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » (٣٠ / ٩).

د ــ ويقول ــ جل وعلا ــ : « ادعوا ربكم تضرعاً وخُفية إنه لا يحب المعتدين. ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها، وادعوه خوفاً وطمعاً، إن رحمة الله قريب من المحسنين » (٧ / ٥٥ ــ ٥٦) وواضح في الآية الكريمة النهيُ عن الإفساد في الأرض، والإسلام ــ كما سوف يتضح لنا بإذن الله تعالى في الفصل التالي، يَحُضّ على الإعمار وعدم الإفساد وهذا من مبادئه ــ وهو واحد من الركائز الحضارية الأساسية.

هـ ــ وقد حكى لنا القرآن مسلسلات من قصص الأمم السابقة، ابتداء من العرب البائدة وغير البائدة، ومروراً بعصر عيسى عليه السلام، ومن بعده الرومان، ورجوعاً إلى سكان مصر وأقوام ما بين النهرين، والإسكندر، حتى نوح وانتهاء إلى آدم عليه الصلاة والسلام. « ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك ».. (٤ / ١٦٤) « ذلك من أنباء القرى نقصّه عليك، منها قائم وحصيد » (١١ / ١٠٠) « تلك القرى نقصّ عليك من أنبائها ».. (٧ / ١٠١).

كل هذا، فيما يتعلق بالعمران، وأما الشئون الحضارية الأخرى، فذلك مما لا يدرك له أبعاد وآفاق.

الفصـــل الســـادس

إن « الحضارة الإسلامية » جاءت متأخرة، مع الأخذ بعين الاعتبار أنها سبقتها حضارات لا يمكن حصرها خلال تاريخ البشرية الذي يمتد عبرَ الماضي السحيق، وأنها لم تأت بعدها، سوى الحضارة العالمية المعاصرة، التي لم تكن سوى وليـدة للحضارة الإسلامية. والوليد الجديد، يتمتع بقوة، ولكنه غيرُ سَوِي البُنْيَة. ولا بُدّ وأن يكون ـ هذا التوقيت لحضارة الإسلام ـ له مغزى على مستوى فلسفيٍّ كوني.

إن الحضارة ليست وصفاً عَرَضِياً لظاهرة إنسانية، ولكنها : الظاهرةُ ذاتُها، التي تُحدث تغيُّرات جذريةً في مسارِ المجتمع البشري ـ وتصنع نمطاً فذاً للحياة وَنَسَقاً للعيش، يسري في اللاشعور عند كلٍ من الفرد والجماعة بحيث يحمل كل منهما قناعات، لا تستأصلها الأحداث والمتغيـرات العارضة، وإن كان يمكن لهذه القناعات أن تُمَسّ باهتزاز بين الحين والآخر، وعليه، فإن الخصائص ـ النوعية ـ لحضارةٍ مّا، والتي تجعلها ذاتَ صفةٍ استقلالية تميزها عن أية حضارة أخرى، تشكل المعالم الأساسية للهُوية الحضارية.

إن الحضارة الإسلامية تنفرد، دون أية حضارة أخرى، بخصائص ومميزات بالغة الشمول وهائلة التعداد، حتى لم تَدَعْ جانباً من جوانب الحياة الإنسانية إلا وَصَمّمَت له، لا يُستثنى الفكر، أو المعتقد، أو السلوك، فردياً

وجماعياً، بكل ما تعنيه كلمة السلوك من معنى، والأدب والفن، وعُنيت بظواهرِ حياة الجنس البشري وبواطنِها، وكان للروح حظها، ليس على حساب المادة، ولم يشغَل صانعيها الجانبُ الفلسفي عن الجوانب الأخرى المدنية والمعيشية، وفي الوقت الذي أُوليت فيه النفسُ البشرية أعظمَ قدرٍ من الاهتمام، ولم يُذْهَلُ عن التطلع إلى الواقع الطبيعي والكوني.

فما هي تلك الخصائص ــ التي تتمتع بها الحضارة الإسلامية، وتكوِّن معالمها وتعيِّن مقوماتِ تكوينها ؟

بحكم نعتنا ــ لحضارتنا ــ أنها إسلامية، فإنه يتوجب أن تكون تلك الخصائص إسلامية بدورها، وهذا أمر بَدَهِيّ. وطالما كانت نسبة تلك المقومات هي إلى الإسلام، فمن البدهي ــ أيضاً ــ أن يُراعَى المنطقُ الإسلامي، في استقراء تلك الخصائص وتحديد عناصرها.

إن خيرَ طريقة لدراسة الحضارة الإسلامية ــ بل مطلق حضارة، أن تُستنطق، فتكون ــ كل حضارة ــ معبِّرةً عن ذاتها ومعرِّفةً لهويتها، وهذا أمر ضروري لفهمها على الوجه الأفضل.

الأصل ــ الذي يمكن أن نعتبره الأول، في تعرُّفِ على « موقع الحضارة الإسلامية » هو انتماؤها. والنقطة هذه، هي جديرة بأن تثير جدلاً حقاً ولكن من دخلاء على الفكر، فقد يمعن ملادِدٌ في المعارضة. ويدّعي أن دراسة الحضارات إنما تعني ملاحظةً للظواهر الحضارية دون الانتماء الفلسفي، وإلا أفضى بنا هذا ــ على حد الاعتراض ــ إلى الخروج عن موضوعية البحث. ويدحض هذا أن الانتماءات ــ الفلسفية والدينية، هي من صميم المسألة الحضارية، بل لقد أولاها المتخصصون بالحضارات عظيمَ اهتمامِهم. فلماذا تستثنى الإسلامية ؟ والإسلام هو دين أصحاب حضارة الإسلام ؟

إن عزل الإسلام عن الموضوع، يعني تفريغ « الحضارة الإسلامية » من محتواها الحقيقي، هويتِها وجوهرِها، حتى لا يبقى سوى الاسم. وبكلمة : إن الحضارة الإسلامية ما كان لها أن تُنعَتَ بالإسلامية لمجرد أن الاسم الذي أطلق على من أنشأوها هو « المسلمون »، ولكنها إسلامية

لكونها صدرت عن أساس هو الركيزة الأولى لها، وهو الوحي، المتمثل بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ. أما الظواهر المادية أو المعنوية : من عمران، وفكر وأدب، وشعر، وتشريع، وما إليها، فهي ـ وإن كانت من صنع المسلم ـ ولكنه إبداع لا يرجع الفضل فيه إلى نبوغ عمالقة في العصور الإسلامية، بل إلى كون كل من النبوغ والإبداع إنما هما إفرازاتٌ لما أرساه الوحي من منطلقات ومبادیء، حتى التصقت القيم الأخلاقية التصاقاً تلاحمياً بالمسيرة الحضارية الإسلامية فكانت من شرائطها وقيودها، وأما ما أحدث من تجاوز فهو استثناء اقتضته نواميس الحياة الكونية.

الأصل الثاني : هذا الارتباط والتلاحم ـ الذي نوهنا به، بين سلوك الإنسان ـ كل إنسان شغل مكاناً في عصر الحضارة الإسلامية، وبين توجيه الإسلام وما رسمه الوحي من خطوطٍ حياتية عريضة ـ التلاحم هذا، هو المعيار لأن تكون حضارة قد أثبتت وجودها بدخولها عمق الكينونة الحياتية للإنسان. وما ذكرنا من الاستثناء، الذي كان يبدو بين حينٍ وآخرَ كتجاوزٍ لتعاليم الإسلام، سواء من قِبَل حكام أو عاملين أو مفكرين ـ ولم تكن له سوى ملامح في سواد الأمة التي لم تزل إسلاميةً حتى اليوم ـ هو شاهدٌ على هذا الارتباط دون العكس.

الأصل الثالث : تقرير الألوهية والربوبية لله الأوحد ـ وهو قمة البُنْيَة لِهَرَمِ « الحضارة الإسلامية » ويتفرع عن هذا الأصل ـ العقائدي، أصولٌ حضارية، تُحدِّدُ النظر إلى الحياة والكون والإنسان. فالوجود ـ الإنساني ـ لا يقف عند امتداد هذه الحياة الدنيا، حتى ينقطع ـ بانقطاعها ـ إلى غير رجعة. ولكن الزمنِ الذي تعيشه البشرية اليوم، وضمنَ حدود وعيها، إنما هو ظرفيٌّ، تعقبه نشأةٌ أخرى. فوجودنا في هذه الدنيا إنما هو مَرْحَلِيّ. ويترتب ـ على هذا الأصل ـ تفرعاتٌ لا يأتي عليها الحصر، تُكَوِّنُ عنصراً أساسياً في « نوعية » الحضارة الإسلامية وتحديدِ هويتها ومعالِمها. ذلك أنه، شتان ـ بين أن نعتبر حياتنا هذه هي كل شيء وأننا سنقضي بانتهائها ويفنى الجنس البشري ـ بفنائها فناءً مطلقاً لا عودة بعده ـ ، وبين أن ينظر إليها على أنها « مرحلة » مِنْ بَدءٍ لوجودٍ خالدٍ لا ينقصه سوى غيابٍ، برزخي، طال زمنه أم قَصُر، ثم سرعان ما « تُبَدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ، والسموات » (١٤ / ٤٨).

الأصل الرابع : وينبني على الأصول الثلاثة التي لها أولوياتها : المتفرعات، وعلى رأسها : طبيعة العلاقة بين الإنسان والمُقدِّرات الحياتية التي تحيط به، والتي تتكون في كل حضارة، بالتفاعل بين الإنسان، وتلك المقدرات وبموجب شرعة الإسلام التي تقضي بأن الله هو مالك المُلكِ بأسره، بما فيه بنو البشر وما يحيط بهم من بيئة الأرض وما حولها، فإنه ـ أي الإنسان ـ مُسْتَخْلَفٌ في هذه المعمورة. والذي يقرر طرائق إفادته من مرافق الحياة هو الله الخالق والمالك. الذي له أن يوجب أو يُحَرِّم ويَحْظِر، وكذا له ـ وحدَه ـ أن يبيح أيضاً، وعلى الإنسان أن يُكَيِّف نَسَقَ عيشه وفق ما نزّل الله من شرع، على لسان الرسل الكرام.

والأصل هذا، يعتبر أحدَ المعالم الرئيسيةِ لحضارة الإسلام، من حيث كونُه يحدد نوعيةً فذةً لها ـ أي للحضارة ـ بموجب التنظيمِ المرسومِ الأسسِ، والقواعد المقررةِ عن طريق الوحي.

الأصول الأربعة السابقة، تشكل الخطوطَ الرئيسية لخصائصَ وجزئياتٍ تنبثق عنها، تمثل ـ بمجموعها ـ الصورةَ المتكاملة لما نسميه « الحضارة الإسلامية ».

وتأتي أصولُ وتفرعاتُ المسألةِ الحضارية ـ إسلامياً ـ على أرفع مستوى يمكن للعقل البشري أن يتصوره، من تلك التفرعات :

١ ـ أن الله تعالى قد عرف عباده عن طريق رسله الكرام أنه ـ إنما خلق ما في السموات والأرض مسخّراً لهم. فالعلاقة بين الإنسان، والمواد ـ الخام ـ الصالحة للبناء الحضاري ـ إن صح التعبير ـ لم توجد على سطح المعمورة عبثاً، أو لِيُتْرَكَ الإنسان على غاربه، ليفيد منها فوضوياً وعشوائياً على طريقة العيش الغريزي لسائر الأحياء، البهائم. كما أن الله عز وجل قد كَرَّمَ الإنسان « ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً » (١٧ / ٧٠).

والقَدَرُ الإلهي هذا، لا يقف به الأمر عند كون الله عز وجل قد خلق ما خلق : ـ « رحمة بعباده » « ونِعَماً لهم »، وتسهيلاً لحياتهم وتيسيراً لما خلقوا له من تأديةِ وظيفةٍ في كونه الواسع، بل أعلَمنا ـ ويؤيد الواقعَ هذا

إبلاغُنا ـ أنه لم يُغفل شيئاً مما تَنْزِعُ النفس الإنسانية إليه، إلا ووفره : « .. وآتاكم من كل ما سألتموه، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها »... (١٤ / ٣٤).

٢ ـ ولما كان الإنسان « مُكَلّفاً » بموجب قواعد الإسلام ـ التي هي أصول بدورها للحضارة الإسلامية ـ ومسئولاً، فقد تعين ـ والحالة هذه ـ أن يزاول نشاطاته ـ بما في ذلك الممارسة الحضارية ـ ملتزماً بمبادئ وخطوط، هي « أحكامٌ شرعية » وخليق بنا التنويه هنا، إلى أن الإسلام قد تمتع بهيكل تنظيمي لأفعال الإنسان إلى : مُلْزِمِ الأداء وهو الواجب، وملزِمِ الترك، وهو المحظور أو المحرم، وأمّا إن تَرجّحَ الفعل على الترك فهو المندوب. وعكسه ـ المرجّح الترك على الفعل فهو المكروه. وأخيراً : المُخَيّر غير الملزِم الفعل أو الترك أو الترجيح، وهو المباح هذا، بالاضافة إلى أن الإسلام قد رسم أصولاً ومعايير لهذه الأحكام الشرعية العملية. هي الأحكام الوضعية : كالصحة والبطلان والفساد، والشرط، والعلة، والمانع، إلى غير ذلك مما هو مقرر تفاصيله في أصول الفقه. وهو عَلَمٌ « مَعْلَمٌ » للحضارة الإسلامية، ومفخرةٌ كبرى من مفاخر الفكر الإسلامي.

وبموجب هذا التقنين وما رُسم من الضوابط، تَحَدَّد المسار للحضارة وصيغت هُويتها، وبالتالي تَعيّنَ « موقعها ».

٣ ـ وجاء التقرير بشأن طرائق الإفادة من معطيات الحياة وما تحويه الأرض أو تحمله على سطحها أو في جوها من ثراء لا يُحَدّ، موائماً مع تعريف الله للإنسان ـ فِطرياً ـ بمنافعِ كلٍ من الموجودات المحيطة به وأساليب ووسائل الإفادة منها : « وعلم آدم الأسماء كلها » (٢ / ٣١) جاء ـ شرع الله ـ مراعياً مصلحة الإنسان في حياته الدنيا ومعاده في الآخرة. ولما كانت حكمة الباري عز وجل اقتضت أن تحوي الأرض من النافع البين النفع، وهو الأصل، والبعض فيها مما له منافع مجهولة أو مضار، فقد جاء الوحي ليرسي أساساً : أن الأصل مما هو على سطح الأرض هو الإباحة وإن كان المباح ليس نهباً للغرائز، بل ـ بموجب اختلاف الإنسان عن الحيوان البهيم لما يتمتع به من خصائص إنسانية ـ فإن ما أبيح، قد

أبيح له بشرائط وبمقتضى تنظيمات، كقوانين الأحكام الشرعية ـ للملكية ـ مثلاً، كما أن للاشياء الضارة بالإنسان أحكامها الخاصة أيضاً، فمنها ما يباح بقيود، ومنها ماهو ممنوع الإفادة منه بدافع الرغبة المحض، أو المحظور مطلقاً، كما أن من تلك الأشياء التي زينت بها الأرض ما يتطلب التهذيب، وللإنسان أن يتصرف فيها ضمن حدود وحسب أصول، ولكن من غير إفساد. هذا كما حرم أشياء محدّدةً سماها بأسمائها.

قال تعالى : « قل لا أجد فيما أوحي إليَّ محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتةً أو دماً مسفوحاً أو لحمَ خنزير فإنه رجس أو فسقاً أهلَّ لغير الله به، فمن اضطُرَّ غير باغٍ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم » (٦ / ١٤٥) وللمحرمات تفاصيل في كتب الفقه، والأساس المبتناة عليه ـ الإباحة أو التحريم، مُحَدَّدٌ ـ بالإجمال ـ في قوله تعالى : « الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويُحِل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون ». (٧ / ١٥٧).

٤ ـ ومن الأسس ـ الضوابط ـ التي رسمها الإسلام للممارسة ـ الحضارية، إضفاء أهمية خاصة لفطرية الأشياء، ولا يستثنى من ذلك الإنسان ذاته. وإذا كان الإسلام ـ قد قرر أن كل ما خلقه الله على سطح المعمورة هو لصالحه، فقد الزمه وأوجب عليه الاعتدال والتعقل في إشباع غرائزه وإرواء طموحاته، وحظر عليه الإفراط والبطر وعلى الأخص، ساعة يفضي ذلك إلى الإفساد. كما حظر عليه أفعالاً محددة اقتضتها حكمة الباري. يذكر سبحانه ـ من أمهاتها في قوله : « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم، ألا تشركوا به شيئاً، وبالوالدين إحساناً، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون * ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً إلا وسعها، وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى، وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تَذَكَّرون * وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبُل فَتَفَرَّقَ بكم عن سبيله،

ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » (٦ / ١٥١ ـ ١٥٣).

٥ ـ وخلافاً للهواجس التي تخامر بعض كبار العلماء الغربيين، فإن مخزون الأرض وما خلقه الله على سطحها، فيه الكفاية لبني البشر، وليس ثمة تخوّفٌ من جوعٍ أو سواه. جاء بهذا خبر السماء « قل أَئِنّكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين * وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقَدَّرَ فيها أقواتَها في أربعة أيامٍ سواء للسائلين » (٤١ / ٩ ـ ١٠) ومن تلك الأقوات : « الماء » « وأنزلنا من السماء ماءً بقدرٍ فأمسكناه في الأرض، وإنّا على ذهابٍ به لقادرون » (٢٣ / ١٨) وإن حدث اختلال أو تنغيص في العيش، فمرده إلى سوء الإفادة وما سبق وأشير إليه من البَطَر. ولا يخفى ما يجلب مثل هذا القضاء الإلهي، والإخبار به، من الطمأنينة والارتياح، ويحول دون القلق وما يُرَوَّج له من الإرهاصات والنذر، التي ترجع بواعثها إلى المستوى الشاذ للإنفاق والتمتع في العالم الغربي. وعيش الإنسان لمدى آلاف آلاف السنين على سطح هذه المعمورة، الصغيرة الحجم نسبياً، مع ما عليها من صنوف الأحياء، هو خير شاهد على صدق الحقيقة هذه، وإليها يميل العديد من أعاظم علماء موارد الأرض في العالم.

المعالم ـ الأساسية ـ هذه للصورة الإسلامية للحضارة إنما هي ركائز وأصول أولية، نكتفي بما ذكرناه منها ـ ونعيد إلى الأذهان أنها ليست مُحْصِيَةً أو حاصرة، كما أنه، يتفرع عنها أصول أيضاً هي دونها في الأهمية، يمكن تَفَهُّمُها على ضوئها : من ضبطٍ للكلمة، وللسلوك، ومُواءَمَةِ التشريع للواقع، ومواكبته لتطوراته، هذه المواكبة التي ينقلها إلينا تاريخ التشريع الإسلامي في كتب الفقه، وما أفرزته العقول ـ التي دخل أصحابها في الإسلام، بل مِمّن لم يُسْلِم أيضاً، عائشٍ في المناخات الإسلامية، من نتاجٍ فكري أثْرَى البشريةَ وأمدَّ الحضارة الحديثة بمقومات النشوء، ثم ذلك البناء الاجتماعي، والمادي والعمراني الهائل، الذي امتد من أقصى المعمورة آنذاك : الصين وما وراءها شرقاً، إلى أقصى الغرب، المحيط الأطلسي، مما لا غرض في هذه الدراسة لخوض تفاصيله. وموجز القول : إن جهداً جدِّياً

يبذل لعمليةٍ مسحٍ للحضارة الإسلامية والتعرف عليها كاملة، يتطلب أن تُجرَى عملية إحصاءٍ للتراث الفكري الإسلامي بأكمله، ودراسة ما أحدثته رسالة الإسلام من تحول تصحيحي لمسار الحياة الإنسانية. وأما جوهر القضية، فهو « الإنسان الحضاري » ـ نفسه ـ الذي صنعه الإسلام.

ولعل من أمهات الأمارات المُعَرِّفةِ للإنسان ـ الذي صنع الحضارة الإسلامية : أنه ـ أي الإنسان ـ الذي يُتَرْجِمُ الحضارةَ بهويته، كان المثالُ الذي احتذاه ـ ولكل حضارة مثال ـ هو مثالُ إنسانِ الحضارةِ الإسلامية. ألا إن هذا المثال هو : « محمد رسولُ الله » عليه الصلاة والسلام، الذي رسم لأتباعه أن يتخذوا من سنته منهجاً لحياتهم. وإذا كان يَعْجِز كل متبع، أو مقلد، أن يكون نسخةً طِبْقَ الأصل لما عليه يَحتذى به من مثال ـ وفي قضيتنا من المحال أن يَنالَ إنسانٌ درجةَ نبوةٍ أو رسالةٍ بعد خَتْمِ الله لهما، فلقد أمكن ـ للإنسان المسلم، أن يُجَسِّد تلك المثالية في حدود القدرات البشرية ، ولا تزال ملامح الإنسان المسلم وسجاياه ـ حتى أيامنا هذه ـ رغم ما أَلَمَّ بمجتمعنا من التدهور. وإذا كانت ثمة انحرافات، فحيث تشير إليه الأصبع من الشوائب نجد : الحيدةَ عن الجادة وما رَسَمَ الإسلامُ من أحكام، أو : الدخيلَ على المجتمع الإسلامي موطنِ الحضارة الإسلامية ـ من المفاهيم والسلوك والعادات الغربية والمستوردة عموماً ».

إن الذي يحدد لنا موقعَ رسلِ الله الكرام ـ الذي هو « جوهر موقع الإسلام في الحضارة الإنسانية » ليس تأملاتٍ لزيد أو عمرو، من شرق أو غرب، شمال أو جنوب ـ ولكن رسلُ الله أنفسهم، وعلى لسان خاتمهم محمد عليه الصلاة والسلام، وهو مستفيض في كتاب الله تعالى، ويصوّره ـ عليه الصلاة والسلام ـ أروع تصوير ـ وبكل تواضع لا نظير له، في حديث بالصحاح، فعن جابر بن عبد الله، وأبي هريرة رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ، قال : « إن مَثَلي ومثل الأنبياء من قبلي كرجلٍ بنى بيتاً فأحسنه وأجمله، إلا موضعَ لبنة من زاوية. فجعل الناسُ يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هَلاَّ وُضعت هذه اللبنة ؟ فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين » هذه رواية البخاري عن جابر، ولمسلم عن أبي هريرة : « فجعل الناس يطوفون به

ويقولون : ما رأينا تبيانا أحسن من هذا إلا هذه اللبنة، فَكنت أنا تلك اللّبِنَة »[٢٢].

أما فيما يتعلق « بما هو كائن » فيمكن اختصار الصورة، بأن الإسلام، بعد أن أنشأ أهلُه حضارةً للبشرية، لم يَحتكروا من حضارتهم شيئاً قَطّ، بل كان تقديمُها ومنحها للعالمين جزءاً من رسالتهم إليهم، وخُلق الإسلام كان ـ ولا يزال ـ الإيثارَ لا الأثرةَ، ولم يحمل ـ المسلمون، المفاهيمَ المعاصرةَ للقوميةِ أو الاستعمار في أي عصر من العصور. والقرآن ـ والسنّة ـ حافلان بالحض على السخاء والكرم والعطاء، دون لقاءٍ من عَرَضٍ دنيوي، حتى كان أحدَ سبعةٍ يُظلهم الله تحت ظله يوم لا ظل إلا ظله. « رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تَعْلم شِمالُه ما تنفق يمينه ».

الصورة التى انف ذكرها ـ وهى ولادةُ الحضارةِ المعاصرةِ من حضارةِ الإسلام الكبرى ـ ليست بِدْعاً في تاريخ الحضارات. فلم تفتأ كل حضارةٍ متأخرة، تقبس عن سابقاتٍ لها، ولكن عملية التحول ـ من الواقع الحضاري الإسلامي إلى المعاصر ـ فما مدى ما أفادت الحضارة الغربية اليوم من التراث الحضاري الإسلامي، من منطقٍ، وكلامٍ، وتشريعٍ، وعلمٍ، وفن، دون الهدى ؟ ثم، كم اكتسبت الكيانات العملاقة اليوم من مقومات، بنت عليها ما تملكه اليوم من قوى مادية وفكرية، دون الروحية ؟ وما هي الطرائق والوسائل، والأساليب البالغة الحداثة، التي لا يزال بُناة حضارة اليوم يفيدون بواسطتها التراث الإسلامي الذي لا يبرح يثري به الغرب ؟ وكم تبقى للعالم ـ والمجتمع ـ الإسلاميين، من مختزنات حضارية يتمتعان بها ؟ وما علاقة ما يسمى بـ « هجرة العقول » بهذه القضية ؟، كل هذا لا يفي ـ بكشفه ـ مثل هذا البحث الموجز، ونرتقب أن نطلع على جوانب تفصيلية منه في بحوث الإخوة المشاركون باللقاء.

ههنا، نجد أنفسنا ـ وقد قاربنا نهاية المطاف لهذا البحث ـ بحاجة ماسّة إلى ضم ما بُذل من جهود، لتتكامل الصورة، كي تضع أمامنا « الخريطة الحضارية » التي تنير لنا الطريق، وتعرّفنا ـ فيما تعرفنا بـ « الموقع ـ الدقيق » للحضارة الإسلامية أو ـ بعبارة أخرى ـ بـ « موقع الحضارة الإسلامية » « بدقة ».

ملامح الصورة ـ حتى الآن ترينا المعاني « تَتَمَاوَج » والظواهر الحضارية الإسلامية مُوَزَّعَة بين « الذاتية » و « الانتشار ». على ضوء هذه الصورة، ما الذي يمكننا ان نَسْتَشِفّه من « موقعٍ لنا »، حضاريّ، في الظروف الراهنة التي تَمُرُّ بها الإنسانية ؟ أو : كيف نتخطى النظر والتأمل ـ بالحضارة الإسلامية وموقعها بين « ما كان أو هو كائن » إلى ما « ينبغي أو يجب أن يكون » ؟

والإجابة الموجزة على هذا التساؤل، ذات شعبتين أساسيتين : الأولى : ضرورة الجمع بين المفهومين « المدني » للحضارة، و « الفلسفي » الذي يمسّ الهوية الحضارية في الصميم. وبالنسبة للحضارة الإسلامية، هو « الإسلام » بالضرورة، وأما الثانية، فإن « الانبعاث » الحضاري ـ الإسلامي، يتعين أن يمضي ـ بدوره ـ على خطين اثنين : الأول : « استعادة الشخصية » لحضارتنا الإسلامية، والثاني : مواصلة العطاء. ولا بد من المضيّ على الخطين معاً، ذلك أنه ـ دون تواجد شخصيةً متميزة ـ فإنها تتبدد المفاهيم، وتلتبس المعاني، وتَضِلّ الأهداف. ويتشوش ـ بالتالي ـ العطاء. وأما الضنّ بالخير وتوقف العطاء، فهو ليس من خصائص الإسلام وحضارته، بالإضافة إلى ما يؤدي إليه من ضمور في الشخصية من جهة، والعزلة عن الساحة الحياتية، من جهة أخرى، في ظروف لم تعد الأوضاع فيها تسمح بالاستقلالية المطلقة.

وهكذا نجد أنفسنا أمام مسئوليات جسام تنتظرنا، كي نستعيد دورنا الحضاري ـ والريادي، بل لا خيرة لنا في أن لا نتخذ قرارات صعبة، هذا إن لم تكن في غاية الصعوبة، تتراوح بين التزامنا ـ العقائدي ـ الذي لا يقبل المساومة، من إرضاء الله عز وجل، والصدور عن أمره، وبين مواجهة المتغيرات. وإننا لنعاني مرارة، بعد عقوقٍ نلناه مِمّن أحسنّا إليهم، وسهامٍ تُصوَّب نحو مقاتلنا ممن ارتشف من مَعين أسلافنا، ولا يزال يبتزّ مقوماتِنا، إننا أمام اضطرار، أن نتابع سيرة أسلافنا الأبرار، ولكن بفارق، يتمثل فيما يتعين علينا أن نواجهه من تعقيدات يتميز بها حاضرنا، والشعار الذي يمكن لنا أن نحمله، هو : « إصلاح ما قد فسد » قال تعالى : « ظهر الفساد في

البر والبحر بما كسبت أيدي الناس، ليذيقَهم بعضَ الذي عملوا لعلّهم يرجعون » (٣٠ / ٤١) وأما رائدنا، فهو القناعة الموروثة : أنه « لا يصلح آخر هذه الأمة، إلا بما صلح به أولها » دون أن يعني هذا، التحجر، أو العودة بمسيرة التاريخ ـ صَمَماً ـ نحو الوراء، ولكن حسبما رسمه وحي الله تعالى : « فلولا كان من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض، إلا قليلاً ممن أنجينا منهم، واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين » (١١ / ١١٦).

وإذا كان رَبُّنا جلّ وعلا، قد أكرمنا في كتابه العزيز بهذا الوصف : « كنتم خيرَ أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » (٣ / ١١) ـ وكنا قد فَرّطْنا فيما كَرَّمنا الله به من حَمْلِ رسالة، فإن من البداهة بمكان، أن مسئوليتنا ـ الحضارية ـ تتحدّد في : أن نستأنف حملَ هذه الرسالة المجيدة بجِدِيّةِ سَلَفِنا وإخلاصهم، وأمانتهم، ونزاهتهم.

مراجع وهوامش البحث

(١) القاموس المحيط للفيروز آبادي ـ فصل الحاء باب الراء.
(٢) المختار من صحاح اللغة ـ مادة حضر.
(٣) دائرة المعارف ٧/٤٥٨ مادة حضر.
(٤) غلاف الموسوعة الكرتوني والداخلي ـ ط/١٩٧٤ ـ دار الطليعة بيروت.
(٥) ما بين الأقواس من النص المنقول.
(٦) المصدر السابق ص ٣٠٩.
(٧) الحضارات ط ١ ـ دار المشرق ـ المطبعة الكاثوليكية ١٩٦٩م ص ٣٢٦ والطبعات التي تليها.
(٨) الزيادة من الطبعات التالية. ولا يخفى أن الفكرة ليست للمؤلف فلها من الشهرة ما يغني عن التماس مصادر لها، والكتاب مدرسي.
(٩) المرجع المذكور ص ٢١٨٧.
(١٠) معجم وبستر ـ (تنظر الملحقات الترجمة الانكليزية).
(١١) الموسوعة البريطانية.
(١٢) يقصد الكاتب بـ « الناس » : معاصرين كما هو واضح من التاريخ المذكور.
(١٣) المرجع السابق « الموسوعة البريطانية ».

(١٤) المصدر السابق ـ الموسوعة البريطانية.

(١٥) أ يلغى.

(١٦) مجلة « المدار » ـ شهرية تصدرها وكالة نوفوستي في موسكو (عدد ٣ ـ آذار ١٩٧٧م ص ٣٠) وينظر أيضاً الموسوعة الفلسفية : نظرية نشوء الإنسان ص ٤٩٧ ونظرية التطور ص ٤٨٩ والدارونية الخ..

(١٧) وكالات الأنباء والإذاعات والصحافة العالمية ـ النصف الثاني من تشرين الثاني ١٩٧٨م.

(١٨) إذاعة لندن ـ برنامج من أقوال الصحف الأسبوعية البريطانية ـ البرنامج الانكليزي ٢٥/١١/١٩٧٨م ـ التقط الخبر سماعاً، ويمكن التحقق منه بالرجوع إلى الصحيفة ولا تصلنا.

(١٩) وآخر ما استجد مما يعزز هذا المعنى « القرار الذي صدر عن منظمة اليونسكو بإدانة العنصرية بمختلف صورها » (الإذاعات ووكالات الأنباء ٢٩/١١/١٩٧٨م).

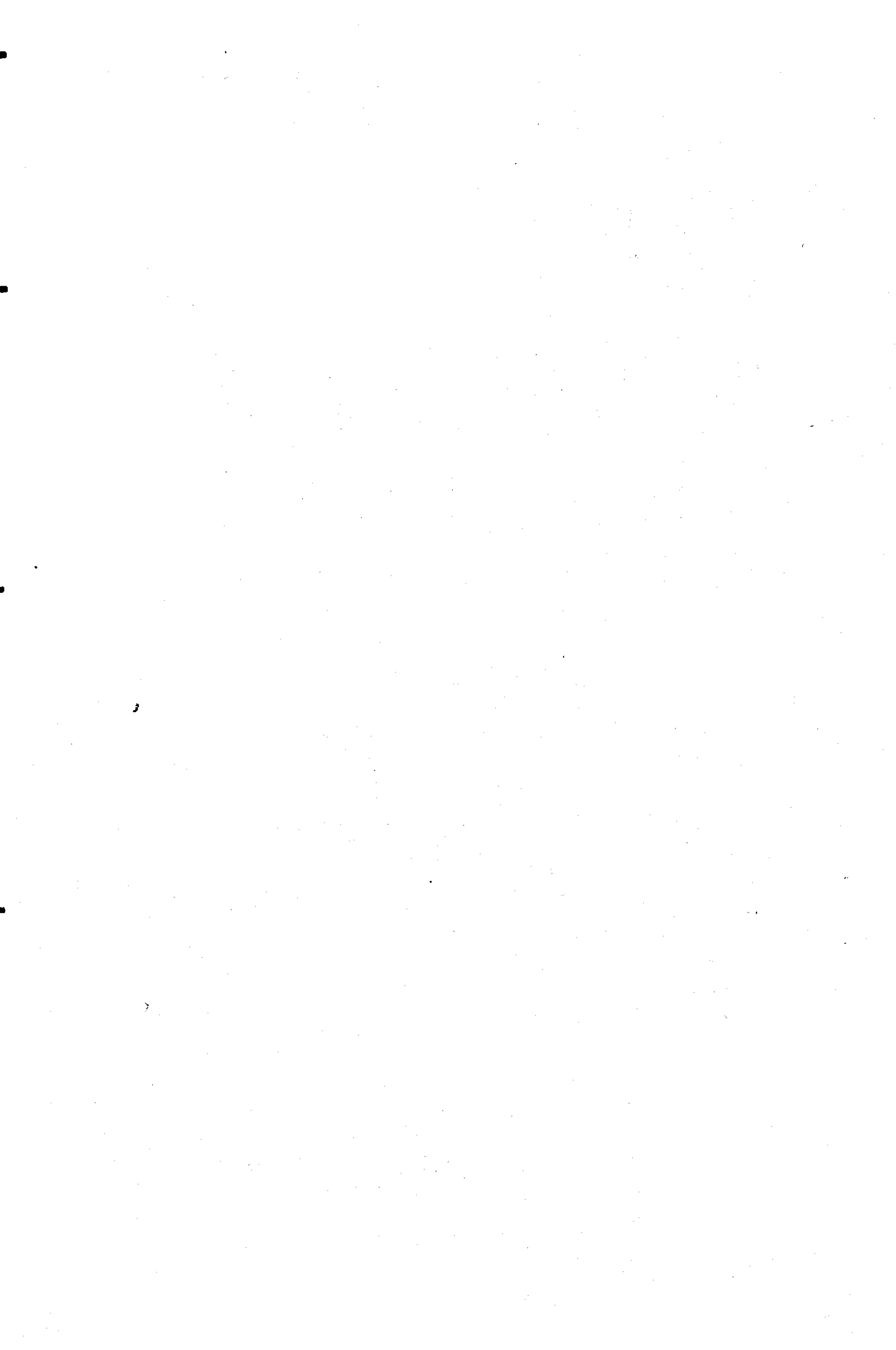
(٢٠) في تقرير صادر عن جهات مختصة غربية، أنه « قد بقي من عمر الشمس ستة آلاف مليون عام كي تبرد »، إذاعة صوت أمريكا ٢٨/١١/١٩٧٨م، والمهم في الأمر توافق العلم والدين أن لعمر الكون نهاية، وإن تباينت التفاصيل مما لا محل لتوضيحه الآن.

(٢١) حضارات العالم في العصور القديمة والوسطى ص ١١٠ ـ تأليف شفيق جحا، منير بعلبكي، بهيج عثمان ـ دار العلم للملايين بيروت ط ٧، ١٩٧٨م.

(٢٢) ينظر : فتح الباري شرح صحيح البخاري جـ ٦ ص ٤٣٦ المطبعة البهية. وصحيح مسلم جـ ٧ ص ٦٤ ـ ٦٥.

الصِّراط الحضاري

للدكتور محمود محمد بابللي



بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

كلمة بين يدي البحث :

إن كلمة الحضارة بمصطلحها الحديث لم تستعمل من قبل بهذا المعنى الواسع، وهي ترجمة لكلمة أجنبية Civilisation أي المدنية.

فالمراد من كلمة حضارة : هي التمدن أو الأخذ بأخلاق سكان المدن. وتمدين : بمعنى تنعّم.. والتنعم : الترفه. والنعمة : المسرة والفرح والترفه.

وفي الحديث : إنها لطير ناعمة. أي سمان مترفة.

والنعيم والنعمى (بالضم) : الخفض والدعة والمال.

وهذه المعاني تغلب على من يسكن الحاضرة أو المدينة، فيتنعم، ويهنأ ويطمئن في سكناه، وفي معاشه، وفي صِلاته مع الآخرين، متى ما توافرت له الشروط المحققة لهذه المعاني.

فالنعيم بمعناه الواسع هو مبتغى الحضارة الحقة، وما تنشده للإنسانية. وإنني سأستعرض فيما يلي من النقاط ما هو أقرب إلى المسلّمات، حتى إذا ما تحققت في أمة من الأمم توصلت إلى تحقيق الحضارة الخيرة التي توفر لأتباعها طمأنينة النفس ورغد العيش ومتانة الجانب وسلامة العاقبة. وهي معان يدعو إليها الإسلام.

والمسلم مخاطب بها خطاب تكليف. وهي عرى متماسكة إن فرط في واحدة منها تلاحق الخلل إلى غيرها حتى يعود إلى الصراط السوي، فيعود التماسك ويقوى ويشتد.

وصدق الله العظيم :

« ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، إن الله سميع عليم ». الأنفال ٥٣.

ضرورة التجمع والتنظيم :

تستمد الحضارة أصولها ومرتكزاتها من القيم والمبادىء الأساسية التي تقوم عليها.

وإن كل حضارة سابقة، أو قائمة، لا بد من أن تستند إلى عناصر بارزة تميزها عن غيرها من الحضارات.

والحضارة تعني في معناها اللغوي الاستقرار والاستيطان، وهي مشتقة من كلمة (حضر أو حاضرة)، أي خلافاً للبدو والبداوة.

وقد عدد يوسف عليه السلام نعم الله عليه، وذكر منها أن الله جاء بأهله من البدو. أي جاء بهم من شظف العيش وقساوة البيئة إلى حيث الاستقرار والأمن والرفاهية.

وإن مجمعات البشر لا بد لها من تنظيمات وقواعد لتسير عليها وتأمن خطر الضياع عند فقدان الضوابط والزواجر التي تكفل للمجتمعات سلامة المصير واستقامة السلوك.

وهذه التنظيمات والقواعد تتأثر بالمصدر الذي تنبثق عنه، وبالعناصر التي تتولى شؤونها.

وبمقدار ما يكون المصدر موثوقاً بعيداً عن نزعات البشر وتقلبات الأهواء، يكون أثره واضحاً في تصرفات الأفراد وفي ضبط سلوكهم، وكذلك تتأثر العناصر التي تتولى تنفيذ وتطبيق مفعول هذه التنظيمات والقواعد، وتنعكس هذه التأثرات والتأثيرات على المجتمعات بأسرها.

الإنسـان محور الحضـارة :

وإذا أردنا أن نحدد مفهوم الحضارة ومؤداها نجدنا مضطرين إلى التعرض للعنصر الأصيل الذي تقوم لمصلحته هذه الحضارة، ألا وهـو الإنسان.

والإنسان بحكم فطرته، مخلوق اجتماعي لا يستطيع أن يعيش بمفرده، فلا بد له من آخرين لينهضوا جميعاً في تيسير أمر معاشهم وأمنهم واستقرارهم.

وهذا الإنسان مخلوق. أي أنه لم يأت بإرادته إلى هذه الدنيا، وإنما أوجدته مشيئة عليا، وفرضت عليه المكان الذي سيكون مسرح حياته، ومنطلق نشاطه، ومقر نهايته، وهو الأرض التي يعيش عليها.

وقد خلق الله الإنسان من طينة هذه الأرض ليتمكن من العيش عليها والتأقلم بالبيئة التي وجد فيها، وخلق له من نفسه زوجاً ليتوالد منهما من يعمر هذه الأرض، ويحققوا الغرض الذي من أجله تم خلقهم.

وإن كون الأرض مسرح حياة الإنسان ومنطلق نشاطه يتطلب أن تكون الأرض مذللة له ومطواعة، وأن يتمكن من استثمارها وإعمارها وفق سنن الخالق التي أوجدها فيها، ولا تتكشف للإنسان هذه السنن إلا بالعلم..

وبهذا يتحقق لنا أن ما هو موجود في هذه الأرض قد وجد لصالح هذا النوع الإنساني، وأن جميع ما فيها مخلوق ومسخر له، وأن ما يحيط بها ويتصل بها اتصال تبعية هو مسخر أيضاً، لأن انعدام هذا التسخير العام يحول دون تحقيق هذه الاستفادة، ويمنع الإنسان من تأدية رسالته التي خلق من أجلهـا. هذا الخلق وهذا التمكين والتسخير محدود بأجل لا بد أن
وأن هذا الخلق وهذا التمكين والتسخير محدود بأجل لا بد أن يبلغه

هذا النوع الإنساني لتصفية الدور الذي قام به طوال وجوده على ظهر هذه الأرض، ولتوفى كل نفس ما كسبت، لأن استمرار هذا النوع الإنساني إلى ما لا نهاية أمر غير منطقي..

فالإنسان هو صاحب المصلحة في التنعم بالحضارة، وهو مخلوق من قبل الخالق الذي خلقه، وسخر له كل شيء، ليعمر الأرض ويستثمر خيراتها، ويؤدي رسالته عليها.

وأن هذه الأرض مذللة له ومطواعة، وأن ما فيها وما يحيط بها مخلوق للإنسان ومسخر له.

وإن اكتشاف سنن الخلق فيها لا يتحقق إلا بالعلم والعمل.

وإن الأجيال السابقة والمتلاحقة تنقرض ويخلفها غيرها، وأن هذه الخلائف لا بد لها من نهاية تقف عندها يوماً من الأيام.. وأن هذا اليوم آت لا محالة، وأنه يوم الدينونة، أي يوم الحساب..

تحمل المسؤولية :

هذا وإن وجود الخلق يستوجب وجود الخالق، وأن هذا الخالق يعلم ما خلق، ويعلم ما يصلح لخلقه، فأصدر أوامره إليهم عن طريق رسله الذين اختارهم من خيرة خلقه، على فترات متلاحقة، وترك لهم اختيار ما يرغبون، بعد أن بين لهم الحجة وأوضح لهم الطريق، وأرشدهم إلى ما يجب عليهم اتباعه واجتنابه لتقوم الحجة عليهم، لأن المؤاخذة لا تكون إلا بعد التبليغ والتحذير.

والتكليف لا يتحقق إلا لمن كان أهلاً له، أي متمتعاً بالأهلية التي تجعله يتحمل تبعة هذا التكليف. فإذا فقدت هذه الأهلية أو شابها ما يفسد عليها إرادتها، انعدمت المسؤولية وبطلت المؤاخذة.

فالإنسان مكلّف من خالقه وهو مسؤول أمامه ومحاسب على عمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

وهذه المسؤولية تكبح انطلاقة الإنسان غير الحميدة فيقدر للأمور عواقبها وللتصرفات نتائجها، فيقدم حين يقدم عن بصيرة وتقدير. وتقدير

العواقب يتأتى من دراسة مقدماتها والتبصير مما تؤدي إليه، لأن من يستهين بالنتائج يجهل حقيقة التكليف، فيضر بنفسه ويلحق الضرر بغيره.

فالعلم بالشيء مدعاة لمعرفة خواصه والاستفادة من منافعة وتوقّي مضاره.. ولهذا كانت الخشية من الله لاصقة بالعلماء لمعرفتهم بآياته المبثوثة في الآفاق وفي أنفسهم.

وهذه دعوة مفتوحة إلى العلم لا حدود لها.

والعلم وسيلة للنجاة ما عمل الإنسان به، وإلا كان حجة على صاحبه ولا نجاة في علم لا ينفع.

حضـــارة الخيـــر :

والعلم النافع هو كل علم يعود على صاحبه وعلى غيره بالخير وسلامة العاقبة.

وإن اقتصار النفع على إنسان دون آخر لا يجعل هذا العلم نافعاً حقاً ما دام الفرد قد حجب الخير عن غيره أنانية منه، أو سبب الضرر لغيره، بنفع اقتصر عليه وحده.

فشمول الخير للآخرين من مقتضيات نفع العلم. وهذا الشمول هو أسّ الحضارة التي يراد منها جلب الخير ودفع الضرر عن المجتمعات البشرية.

فالحضارة إذن هي تحقيق الخير العميم للمجتمعات البشرية، ولا يكون المجتمع (متحضراً) إذا ما غلبت الأنانية أو المصلحة الذاتية على أفراده ولم يشملهم العلم النافع تحقيقاً لمصلحتهم المشتركة.

ومفهوم الحضارة يقوم على تعاون الجميع فيما يعود عليهم بالخير العميم، ومدلولها تلك الآثار الطيبة التي تسطر ما في سجل التاريخ ويتوارثها جيل بعد جيل، فينهض بها من أخذ بمفهومها وحقق مدلولها في تصرفاته.

وهذا المفهوم يفترض وجود من يضمن تحقيق هذا التعاون المشترك بوضع التنظيمات، وفرض القواعد الآمرة والزاجرة، ومراقبة سلوك الأفراد،

والأخذ على يد السيء، ومكافأة من أحسن العمل.. أي وجود السلطة التي عليها مراعاة هذا كله.

وهذه السلطة تستمد سلطانها من وجوب طاعتها على الأفراد التي فرضها من فرض طاعته وطاعة رسله. فلا تكون طاعة إلا في حدود هذا الفرض، ليستقيم الأمر وتستبين السبيل.

ضرورة التشريع :

وهكذا نخلص إلى وجوب وجود الأوامر التي تلتزم بها الجماعة لتحقيق مصلحتها المشتركة في تعميم الخير على أفرادها ودفع الضرر عنهم.

وحيث أن الخالق منزه عن الخطأ وعن الغرض، فإن ما يفرضه على خلقه واجب الاتباع أخذاً واجتناباً، لعلمه، جل شأنه، بما هم في حاجة إليه، ولاستغنائه سبحانه عنهم. وتكون لهذا التشريع الرباني مكانته في النفوس، وحرمته لديها، فلا يقدم أحد على مخالفته إلا وهو على يقين بأنه معرض للعقوبة إن عاجلاً أو آجلاً، فمصدر التشريع الرباني يوحي بالاطمئنان إلى صلاحه، ويدفع بأولي الأمر إلى حسن تطبيقه ورعايته كيلا تنالهم العقوبة ويبوؤوا بالإثم والعصيان فيتجنبوا مخالفته، وبذلك يستقيم سلوكهم وتهنأ بهم رعيتهم، وينعم الجميع بالحضارة الحقة التي تقوم على تعميم الخير ودفع الضرر وقمع الفساد.

والحضارة التي لا يراعي فيها أربابها جوانب الخير، ليست حضارة، وإن جرت تسميتها بهذا الاسم، لأنها تنقلب إلى مفاسد تحصد عواقبها الأمة نفسها في تالي أيامها أو في أجيالها المتلاحقة.

وإن تنكب الأمة عن جادة الخير يودي بها إلى المهالك ما لم ترتجع وتعود سيرتها الأولى. وهذا الرجوع قد يتحقق عن طريق العلماء المخلصين الذين ينتبهون إلى المخاطر ويحذرون من عواقبها والاستمرار في سلوك طرقها، فيقولون كلمة الحق بمواجهة المنحرفين عن الجادة، عسى أن تستقيم بهم الطريق.

لأن كلمة الحق المعلنة المدوية لها سلطانها على النفوس مهما ظن

الطغاة.. أن الأمر مستتب لهم.. ولا بد أن تؤتي ثمارها ما أخلص القائلون لها الدعوة إلى الحق.

المفهوم الحضاري المعاصر :

هذا وإن المفهوم الحضاري المعاصر يقوم على أساس التقدم الاجتماعي والمادي، وهذا التقدم عماده العلم والثروة. وإن العلم هو معيار تقدم الأمم ورقيها، وبمقدار ما تحصله من العلم تتمكن من الأخذ بأسباب الحضارة، حتى إن العلم هو الذي يساعد على تحصيل الثروة والكسب المادي.

وإن بعض الأمم المتقدمة حضارياً نجدها متفوقة بالعلوم، وإن كانت فقيرة بالموارد الطبيعية. وإن تفوقها بالعلم جعلها تستفيد من خيرات الأمم الأخرى فتصنعها وتعيد بيعها لتلك الأمم بأسعار خيالية، وأبرز مثل على هذه الأمم المتقدمة مادياً والمتفوقة بالعلوم هي ألمانيا الاتحادية واليابان.

وكلنا يعلم أن ألمانيا واليابان خسرتا الحرب العالمية الثانية، وخرجتا منها بذل المنكسر، ورضختا لشروط المنتصر، وبقيتا خاضعتين لبعض شروطه، ولكنهما استطاعتاالاستفادة من القدرات العلمية التي يتمتع بها معظم أفراد الأمتين فاستعادتا اعتبارهما، فأصبحتا في طليعة الأمم الصناعية المنتجة، وتفوقتا في هذا المضمار الحضاري حتى على الدول التي انتصرت عليها. وهذه أمور معروفة للجميع، ولم تعد سراً تجهل الأمم بواعثها. وإن الأخذ بأسباب العلم لتحقيق التقدم والرفاهية لأية أمة من الأمم. يستوجب الانصراف عن اللهو والعبث والانقطاع التام لتحقيق السبق العالمي فيما يعود على البشرية بالنفع العميم.

المستلزمات الحضارية :

إن من أبرز المستلزمات الحضارية تحكيم أبناء الأمة عقولهم في كل تصرفاتهم وإخضاعهم لمفهوم المصلحة العامة التي يجب أن تعلو على كل مفهوم.

وتحكيم العقل يحول دون سيطرة الدجل والأهواء، ويقضي على الأنانية

والفردية، ويفرض احترام المصلحة المشتركة، فتطمئن النفوس لرعاية حقوقها، وسلامة مصيرها، بتحقيق العدالة وتطبيق المساواة وفرض الأمن، وتأمين أسباب الرخاء والعيش الكريم، وغير ذلك من القيم الاجتماعية والضوابط الأخلاقية التي أجمعت على احترامها والالتزام بها الشرائع كافة.

وكذلك إعداد القوة بمختلف متطلباتها، فإنه من مستلزمات الحضارة لأن الإعداد والاستعداد الدائمين يكفلان الاحترام للأمة ويضمنان الاستقرار لها.

والقوة ذات مفهوم مطلق، يشمل الناحيتين المادية والمعنوية، فالأخذ بها ـ في مفهومها العام ـ أدعى إلى تثبيت الأسس الحضارية والمحافظة على استمرارها.

ولا يضير الأمة أن تسلك هذا السبيل، بل يجب عليها ذلك لأنها من مستلزمات الحضارة ومن مؤيداتها..

ومن القوة التفوق في الميادين الجوية جميعها خلقاً وعلماً وصحة وتعاوناً وكسباً لأن اليد العليا خير من اليد السفلى.

وكذلك فإن من مستلزمات الحضارة أن يكون للأمة مثل أعلى تحرص على نشدانه لأن الأمة التي تقنع بالدون لا تصنع حضارة، ولا تكون أهلاً للسيادة، وإن أعلى مثل للأمة أن تنشد الكمال في تطلعاتها وأهدافها. والكمال في حقيقته غاية لا تدرك، ولكنه يرتفع بالأمة إلى أعلى المستويات، ويشدها إليه بأمل أن تحقق أعلى مستوى منه.

هل حققت الحضارة المعاصرة مفهومها الأصيل ؟ .

إن التقدم الذي حققته الحضارة المعاصرة في العلوم الكونية والرفاهية المادية كسب لا شك فيه، وإنه انطلاقة في اكتشاف سنن الله ـ أبرزت للعلماء المتبصرين المنصفين قدرة الله سبحانه وإبداعه في خلقه.

فالمنجزات الحضارية المعاصرة تجاوزت حدود الأرض وأخذت تطوّف في الأجواء العالية ـ وتقرب بين الأبعاد النائية، وتخترق من علٍ باطن الأرض ومخزوناتها... وتربط بين الدول في اتصالاتها اللاسلكية عن طريق الأقمار

الصناعية.. هذا بعض ما تحقق في عالم الفضاء، أما في عالم الأرض، فإن المكتشفات العلمية ـ في مختلف المجالات ـ فاقت حدود التصور.

والإنسان في مكتشفاته منطلق في سبيله دون توقف، يحدوه الأمل والجد في أن يحقق ما كان يظنه الإنسان العادي من ضروب المستحيلات.

وهذه الانطلاقة في مختلف الاتجاهات تقوم على العلم، كما سبق ونوهنا من قبل، فما هو نصيب الإنسان المعاصر من هذا السبق العلمي ؟

هل عم النفع العلمي أفراد النوع البشري، وهل تناقص عدد الوفيات من الجوع والأوبئة في بعض البلدان ؟

وهل تقلص ظل البؤس بعد أن عم الرخاء والرفاهية أجزاء من العالم، أم أن رقعة البؤس في ازدياد واتساع ؟.

وهل انعدمت التفرقة العنصرية ونظر الناس بعضهم إلى بعض بمنظار الأخوة الإنسانية.. أم هل استطاعت الدول المتقدمة مادياً القضاء على الإجرام في بلادها.. أو الحيلولة دون قتل النفوس بالمخدرات والانحدار الخلقي ؟

وهل استقر الأمن الداخلي والخارجي،وتوقفت التهديدات، وأمن الناس بعضهم بعضاً ؟

إن هذا العلم الذي تتسابق فيه الأمم ـ علم خال من الروح والأخلاق ـ فلا إيمان بالله يملأ الفراغ النفسي الذي خلفته هذه الحضارة المادية ويعصمها من الانتحار حقيقة ومعنى، ولا أخلاق تضبط سلوك الأفراد، وتحول بينهم وبين الانحدار إلى البهيمية (البوهيمية) المنتشرة لدى كثير من الشعوب المتحضرة مادياً.

إن هذه الحضارة المادية المعاصرة قد أعلنت إفلاسها ـ على الرغم من التسابق العلمي ـ على لسان عدد من زعمائها والمفكرين فيها، وبشهادة واقع شعوبها وصلاتهم بغيرهم من الأمم.

الصـراط الحضـاري :

سبق أن تحدثت في الفقرات الأولى من هذا البحث عن مسلَّمات لا

شك عندي في صحتها، وفي أن الاعتقاد والأخذ بها يؤدي إلى سلوك الصراط الحضاري، وأرجو أن يعود إليها القارىء للتذكر والتدبر مرة أخرى.

إذ لا نكران في أن التجمع والتنظيم أمران لا بد منهما لأي مجتمع إنساني، وإن قوام هذا التجمع هو الإنسان، لأنه محور الحضارة. وأن على هذا الإنسان أن يتحمل مسؤولية كاملة غير منقوصة ليعمل على إيجاد حضارة الخير التي تعم الإنسانية، دون تفريق بين شعب وشعب أو بين أمة وأخرى.

وإن الدعامة الكبرى لتحقيق حضارة الخير وجود تشريع لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ـ ليضمن السلامة والطمأنينة للجميع تحت ظل هذا التشريع العادل، وأن يقوم على تطبيق هذا التشريع من يحرص على تحكيم العقل، وإعداد القوة المقلقة في جميع الميادين، واتخاذ مثل أعلى لتحقيق الكمال المنشود في تطلعات الأمة وأهدافها.

وهذه البدهيات عند توافرها تستقطب مطالب الحياة البشرية في مختلف مجالاتها، فالإنسان مخلوق ولا بد له من أن ينظم علاقته بخالقه ـ فكانت العبادة لله، وفي مقدمتها الاعتقاد بوحدانيته سبحانه والالتزام بأوامره وابتغاء مرضاته.

والإنسان كائن يختلف عن باقي المخلوقات بعقله وتكوينه وتكليفه، لأنه السيد لسائر المخلوقات، وهي جميعها مسخرة له، فلا بد له من أن يكون على المستوى الذي يليق بسيادته وتفضيله، من سمو بالأخلاق والمعاملات.

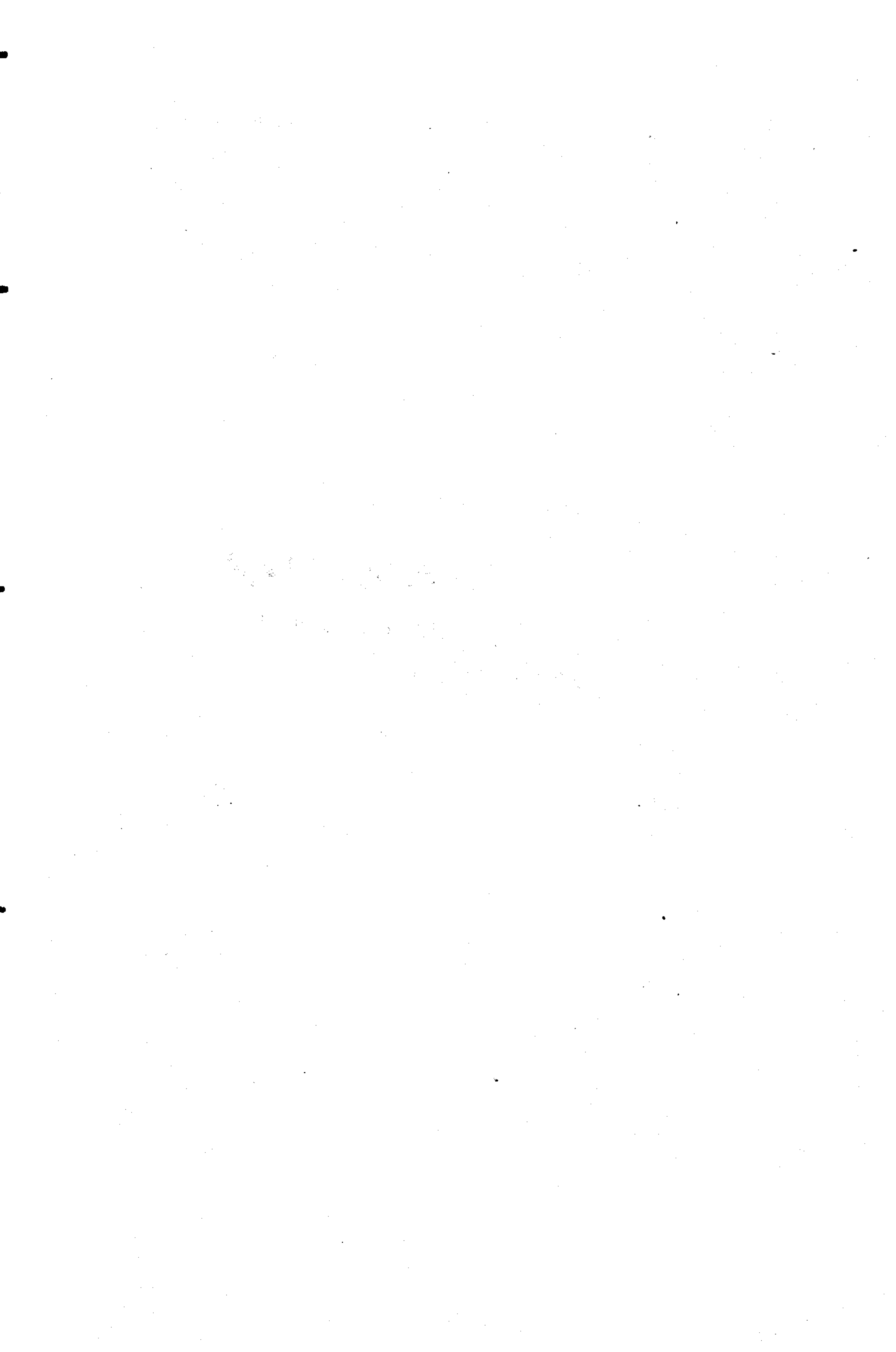
والإنسان كائن اجتماعي بطبعه لا يستطيع العيش دون تعاون مع أبناء جنسه، فلا بد له من تجمع وتنظيم وتشريع وقيادة، تضبط علاقة الإنسان بغيره، فرداً وأسرة ومجتمعاً وحاكماً ومحكوماً.

هذا الإنسان هو محور الحضارة، فإذا ما استقام في سريرته وعلانيته، استقامت حضارته، وإذا ما فسد فسدت حضارته.

والصراط الحضاري هو الصراط المستقيم الذي أمرنا الله باتباعه وتجنب اتباع السبل الأخرى لكي لا نضل عن سبيله.

والصراط المستقيم هو صراط الله العزيز الحميد، هو هذا الدين الإسلامي الذي لم يرتض الله لنا ديناً غيره.. فإن أحسنا فهم تعاليمه وأخذنا بها سلكنا الصراط الحضاري المستقيم، وإن تنكبنا عن جادته خسرنا الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين.

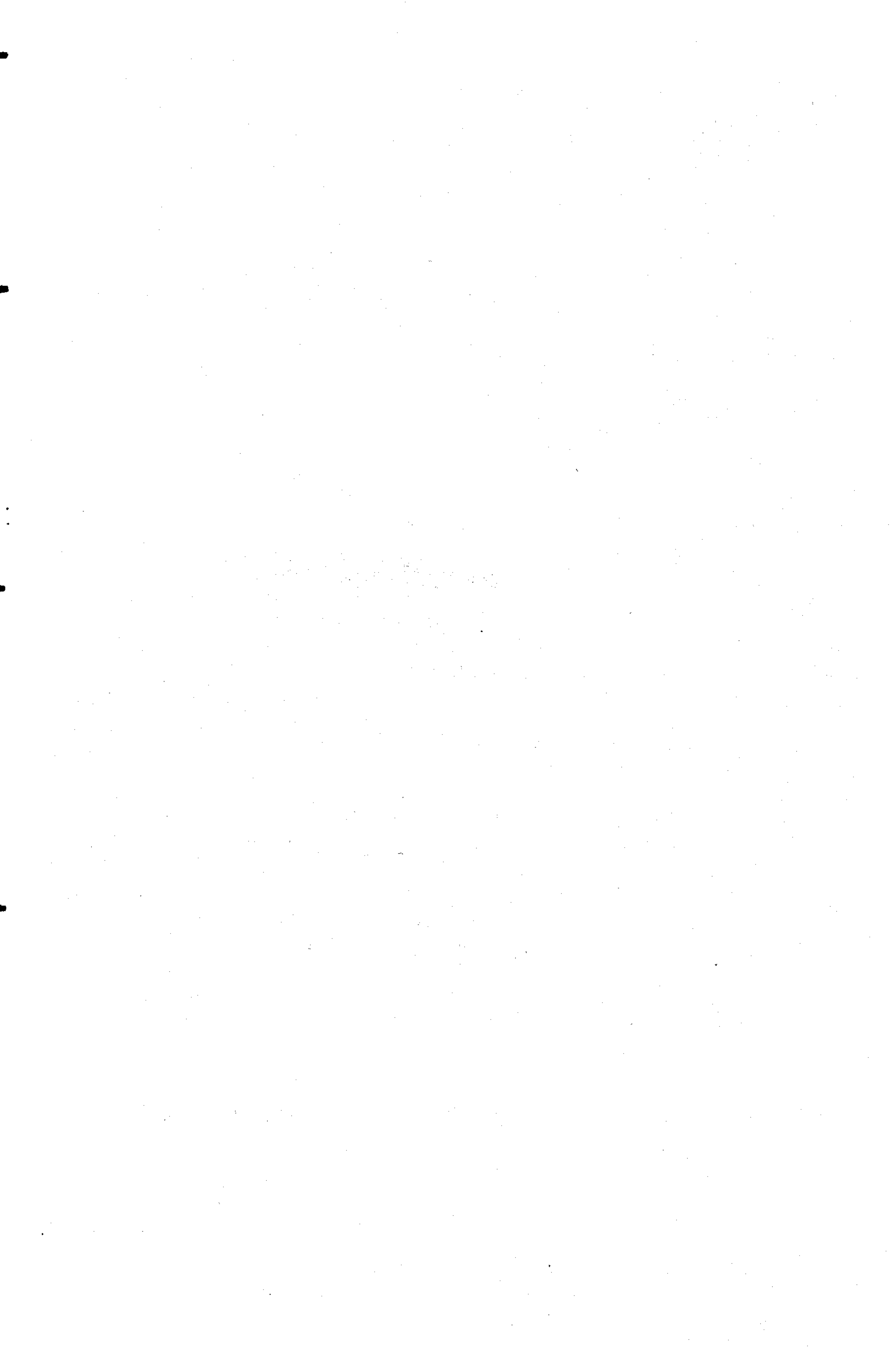
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



هل عبادة الله واجب علمي حيوي

وما مفهومها في الإسلام

للدكتور محمد معروف الدواليبي



بسم الله الرحمن الرحيم

لن نكون مخطئين إذا اعتبرنا أن الدافع الأساسي للتقدم العلمي المعاصر في مختلف وجوهه هو بصورة عامة خدمة مصالح الإنسان الحيوية.. سواء كانت هذه الخدمة شاملة لكل بني الإنسان، أو لبعضهم فقط بسبب من الأسباب الخاصة.

وهكذا بلغ مثلاً اليوم علم النباتات أوجه من التقدم، وذلك من أجل ضمان حياتها وبقائها في مختلف أقاليم الأرض. والغاية من ذلك تأمين حاجة الإنسان منها في مختلف الأقاليم وفي مختلف الأزمان.

ولذلك تعمق العلماء على مختلف وسائلهم من تجارب ومخابر لاكتشاف « طبيعة » مختلف النباتات من مزروع أو أشجار، ولاكتشاف شروط بقائهاوحياتها التي فطرت عليها والتي تعيش، أو لا تؤتي ثمارها بدونها.

كما اهتم العلماء بعد ذلك بتصنيف النباتات وفقاً لتلك الشروط الخاصة بكل منها، كي تؤدي ثمارها المفيدة للإنسان موصولة غير مقطوعة. وقد جعل لكل منها شروط خاصة لزراعتها وتنميتها في الزمان والمكان : فلا تزرع مثلاً فاكهة أو أشجاراً استوائية في مناطق باردة لا تناسب خصائص تكوينها وما فطرت عليه من شروط للحياة الصالحة لها، إذ

أنها تموت عندئذ، أو لا تعطي ثمارها المنتظرة، لأنك لم توفر لها شروط فطرتها، فعاقبتها قوانين الفطرة نفسها بالموت والفساد، فتضررت عندئذ من ذلك مصالح الإنسان، وفاته منها خيراتها المتوقفة عليها حياته.

وكذلك اهتم العلماء بعالم الحيوان خدمة للإنسان، وتعمقوا بمختلف وسائلهم من تجارب ومخابر فيما ينفع الإنسان منها وما لا ينفعه، بغية ضمان بقائها وحياتها أيضاً على أحسن وجه، وذلك من أجل إعداد الشروط اللازمة لحياة كل منها وفقاً لشروط فطرتها في الحياة والبقاء. والغاية من ذلك هي أيضاً تأمين حاجة الإنسان منها في مختلف الأقاليم والأزمان.

أما الإنسان، وهو المقصود بالدرجة الأولى من العمل على تأمين حاجاته الحيوية على هذه الأرض، فقد كان الاهتمام بمعرفة مبدئه ومعاده وطبائع فطرته، هو الشغل الشاغل للأديان والفلاسفة والعلماء منذ أقدم الأزمان، قبل ذلك الاهتمام الكبير بعالم النبات والحيوان، وذلك أيضاً من أجل تأمين أحسن الشروط للحياة السعيدة للإنسان على هذه الأرض. وما الكتاب المشهور لأفلاطون « المدينة الفاضلة » إلّا مثل على كثير من البحوث الفلسفية في هذا الشأن، سواء فيما قبل أفلاطون أو فيما بعد.

غير أنه يؤسفنا أن تقدُّمَ الحضارة المادية اليوم قد أقصى نهائياً عن بحوثه كل ما قد كانت اهتمت به الأديان والفلسفة قبل ذلك من بحوث عن مبدأ الإنسان ومعاده، وعن فطرة الإنسان وطبيعته، لمعرفة مقتضيات فطرته، وشروط حياته السعيدة، إلّا ما قد اقتصر عليه علم التربية من « ظواهر علم النفس » فقط وما يتبعها من أخلاقيات تعلمهم « الحياة من أجل الحياة » دون الذهاب إلى ما وراء هذه « الظواهر »، وهذا ما جعل الاهتمام بحياة الإنسان نفسه في عصر الحضارة الحديثة « المادية » من أجل الإعداد لمجتمع إنساني سعيد، لا يدرس إلّا على « أساس مادي فقط » كما هو الشأن في دراسة النباتات والحيوانات، بل دون مستوى الدراسة لعالم الحيوان الذي أعطيت فيه قيمة أساسية لفطرته وأحاسيسه من أجل فرض المناخ والظروف المناسبة لحياة الحيوان حياة سعيدة، بينما قد أقصي عن عمد وتصميم بحث فطرة الإنسان وخصائصها وما بني عليه تكوينه من مادة

وروح، أو بتعبير آخر ما بني عليه تكوينه من عنصرين أساسيين : هما العنصر المادي المشاهد، والعنصر الروحي غير المشاهد، وحصر البحث في « العنصر المادي » فقط، وهذا ما جعل البحث في شروط سعادة الإنسان الحقيقية قائماً على أجد عنصرين من تكوينه، وعلى « العنصر » المادي خاصة، وذلك على مثل الحيوان ! وهذا أيضاً ما يهبط أولاً بمستوى الدراسات الإنسانية وبخصائصها التي تسمو على خصائص الحيوان، بل ويهبط بها أيضاً عن مستوى الكرامة الإنسانية إلى مستوى الحياة الحيوانية البهيمية.

هَل الرّوح في الانسان عنصر أساسيّ

لسنا هنا في صدد البحث عن « جوهر الزوح » الذي أتعب الفلاسفة والعلماء قديمـاً وحديثاً، فإننا لا يهمنا من « الروح » هنا معرفة « جوهره »، وإنما يهمنا معرفة « وجوده » في تكوين الإنسان بدلالة « أثره » أو « ظاهره » التي لا شك فيها في حركات الإنسان وسكناته ما دام حياً، وإن ظل « جوهر الروح غيباً عنا » وسـراً في أسرار الوجود حتى اليوم بإجماع العلماء : من ماديين لا يؤمنون بالمغيبات وفي مقدمتها الله جلّ جلاله، ومؤمنين يؤمنون بالغيب بَدْءاً من الله سبحانه وتعالى. وإننا سنقتصر هنا على أوجز النصوص وأدلها، وخاصة ما قال به جهابذة الماديين على الرغم من إنكارهم لما وراء المادة من « عالم الغيب »، وكذلك أقوالهم التي اشتركوا فيها حديثاً مع كبار الاخصائيين من غيرهم في نيويورك. ومن المفيد أولاً أن نعرف أن ما يطلق عليه اسم « الروح » هو ما يطلق عليه أيضاً « النفس » أو « الحياة ».

أما « انجلز »، من مؤسسي المذهب المادي الماركسي، ومن أركان فلاسفته فيقول في كتابه : « أنتي دوهزنغ أي ضد دوهزنغ » : إن علم الطبيعة لم ينجح في إنتاج الكائنات العضوية، أي الكائنات الحية.. دون تناسل من كائنات أخرى.. وبالتالي فإنه ليس في مكنة علم الطبيعة حتى

الآن أن يؤكد شيئاً بخصوص أصل الحياة »[1]. وهكذا يعترف صراحة بعنصر مادي في تكوين الإنسان.

وكذلك ينقل « لينين » مثل هذا الكلام عن « انجلز » وعن « فيورباخ » في دفاتره الفلسفية مؤيداً ومؤكداً[2].

وأخيراً فقد عقد مؤتمر في نيويورك عام ١٩٥٩م، وقد عقده ستة من أئمة علماء الحياة في كل من الشرق والغرب حول مائدة مستديرة أملاً في الوصول إلى فهم شيء عن « أصل الحياة » (الروح) ونشأتها على الأرض، أو إلى معرفة مدى إمكان إيجاد « الحياة » عن طريق التفاعل الكيمائي، كما كان يظن فلاسفة الماديين الماركسيين، وكان فيهم العالم الروسي « الكسندر ايفانوفتش أو بارين » أستاذ الكيمياء الحيوية في أكاديمية العلوم السوفياتية.

وقد قرر المؤتمرون في نهاية بحوثهم بالإجماع : « أن أمر الحياة (الروح) لا يزال مجهولاً، ولا مطمع في أن يصل إليه العلم يوماً ما. وأن هذا السر أبعد من أن يكون مجرد بناء مواد عضوية معينة وظواهر طبيعية وكيميائية خاصة[3]، وفي ذلك رد على ما كان يقول انجلز وأمثاله في بعض فرضياتهم من أن الحياة يجب أن تكون نتيجة بعض التفاعلات الكيميائية[4].

أما القرآن الكريم فقد حسم الموقف في ذلك منذ أربعة عشر قرناً على طريق الإعجاز وقال : « يسألونك عن الروح.. قل الروح من أمر ربي »، فهو سرٌّ إذَنْ من أسرار الخالق وعالم الغيب لا يعلمه إلا الله، وهذا ما جاء يعترف به اليوم أساطين علماء « الحياة » ومخابرها الكيماوية حيث قالوا : « إن أمر الروح لا يزال مجهولاً، وأنه لا مطمع في أن يصل إليه العلم يوماً ما »، فكان ذلك دليلاً جديداً في عصر العلوم المتطورة على إعجاز

---

(١) الصفحة (٩٠) نقلا عن كتاب « نقض أوهام المادية الجدلية » للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، دمشق، دار الفكر ١٩٧٨م، ص ٩٨.

(٢) الدفاتر الفلسفية ٢/٥٧، نقلا عن المصدر السابق للدكتور البوطي في الصفحة ٩٨.

(٣) انظر أخبار هذا المؤتمر في كتاب « قصة التطور » للدكتور أنور عبد العليم ص ١١ ـ ٢٣، وكذلك كتاب « كبرى اليقينيات الكونية » لمؤلفه الدكتور البوطي ص ٩٦ ـ ٩٧.

(٤) الكتاب السابق للدكتور البوطي، الصفحة ٩٨ ـ ٩٩.

القرآن، وإن الروح رغم جهالة جوهره، ورغم أنه مغيب عنا، هو عنصر أساسي لا شك فيه من عنصري جسم الإنسان، وأنه شيء غير عادي قطعاً، ولذلك كان الاهتمام بعنصر الإنسان « المادي » فقط لمعرفة متطلباته، ولوضع شروط طبيعته للحياة السعيدة له، دون ملاحظة العنصر « الروحي » وهو الأهم في الإنسان والذي لا حياة للإنسان بدونه، نقول فقد كان قصر البحث على ذلك عملاً غير علمي لتحديد فطرة الإنسان « المادية » فقط وتحديد مستلزماتها في الحياة، دون ملاحظة فطرته « الروحية » ومستلزماتها أيضاً في الحياة. بل إن كلاً من « بودو ستنيك » و « ياخوت » من علماء الماركسيين قد جاهروا بأن « المادة نفسها الموجودة في العالم لها جانبان : الجانب الخفي عنا، والجانب الخارجي الذي هو وحده في متناول إدراكنا الحسي كما أكده لنا العلم والنشاط العملي »[1].

فهم يقرون اليوم أيضاً كما ترى « بجهالة حقيقة المادة نفسها في أحد جوانبها »، فضلاً عما سبق من إقرارهم « بجهالة جوهر الروح ». ومن الغريب بعد ذلك أنهم ينسبون للمادة وحدها عن طريق الجزم « كل تلك القدرة في التكوين، تحت ستار الديالكتيك » ! رغم إقرارهم علمياً بأن « المادة المحسوسة نفسها لم تنكشف لهم جوانبها الخفية » ! وهنا أيضاً حَولْ جهالة بعض جوانب المادة بعد « جهالة جوهر الروح » جاءت المعجزة القرآنية تؤكد لنا كذلك هذا « السر الخفي عنا » فقد قال الله سبحانه وتعالى في قرآنه الحكيم المبين : « .. وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » وهو نص في ذلك الجانب المجهول.

وهكذا ننطلق الآن من مسلمات علمية لا شك فيها لدى علماء الحياة من ملحدين ومؤمنين، لنقول : إن الإنسان « روح ومادة »، وإنه في تحديد شروط حياته السعيدة يجب مراعاة عنصري تكونه كليهما من روحي ومادي، والعمل وجوباً « بقوانين العنصر الروحي » ومتطلباته، بالإضافة إلى العمل وجوباً « بقوانين العنصر المادي » ومتطلباته.

---

(١) انظر كتاب « نقض أوهام المادية الجدلية » للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، الصفحة ١١١، طبع دار الفكر بدمشق سنة ١٩٧٨م.

وإذا جاهر الماديون المنكرون بأن الإنسان لا يكون « حراً » بالاستقلال عن قوانين الطبيعة، وأنه إذا حاول الخروج عليها عاقبته هي بالموت، وذلك كمن يخرج على قوانين الرئتين اللتين توجبان التنفس ليعيش، فإذا امتنع عن التنفس عاقبته قوانين الرئتين حالاً بالموت جزاء وفاقاً، كذلك نجاهر نحن المؤمنين بأن الإنسان لا يكون « حراً » بالخروج على قوانين فطرته الروحية، وأنه إذا حاول الخروج عليها عاش إنساناً ضائعاً فاقداً لمطالب أعز عنصريه وهو الروح، فيشقى بذلك، ويشقى المجتمع كله بشقاوة أعماله ونزوات شهوات « عنصره المادي »، بعيداً عن أحكام قوانين « عنصره الروحي » ومتطلباته التي سنشرحها فيما بعد.

وهكذا يقول « انجلز » : لا تكمن الحرية في الاستقلال الموهوم عن « قوانين الطبيعة »[1]، ثم يأتي « بليخانوف » مريداً أن يزيد المسألة إيضاحاً فيقول : إن الدواء ضروري ليكون العلاج ناجعاً، وإن الرحلة إلى « إيجينا » ضرورية لجمع الديون. كل هذه ضروريات مشروطة. وإنه علينا أن نتنفس إذا أردنا أن نعيش، وأن نتناول الدواء إذا أردنا أن نتحرر من المرض.. الخ[2].

وهكذا الشأن أيضاً في « العنصر الروحي » بل العنصر الأساسي للجسم، فلا يجوز تعطيل مطالب الروح، وقطع الاتصال بين « الروح » وبين مصدرها العلوي وأوامر شريعته، إذا أراد الإنسان المكون من عنصريه الروحي والمادي أن يعيش هو، وأن يعيش المجتمع معه عيشة سعيدة هنيئة.

وعلى هذا، فإذا انطلقنا من المسلمات العلمية بأن الإنسان : روح ومادة، وجب علينا الاستجابة علمياً أيضاً لمطالبهما. ففي الجسم « رئتان » ويجب علينا أن نعطيهما متطلباتهما من التنفس، وإذا لم نستجب لمتطلباتهما الملازمة لفطرتهما باعتبارهما جهازاً فُطِرَ وخُلِقَ للتنفس، وأوقفنا الرئتين عن التنفس، مات الإنسان.

---

(١) الصفحة ٤٢ من الكتاب السابق للدكتور البوطي.

(٢) نفس المصدر قبله، الصفحة ٤٢ ــ ٤٣.

وفي الجسم أيضاً معدة تتطلب إمدادها بحاجة الجسم من الغذاء، وإذا لم نمد المعدة بمتطلباتها مات الإنسان. وهكذا سائر أجهزة الجسم المادية في متطلباتها المادية.

ولما كانت « الروح » هي العنصر الأساسي لتكوين الجسم، فإن لها متطلبات أيضاً على نفس مستوى متطلبات العنصر المادي، خاصة وهي التي يتحرك بها الجسم ويبصر ويسمع ويرى ويمشي ويفكر، بل هي كما نرى أسمى من العنصر المادي، ولذلك كانت أمراً من « أمر ربي » أي سراً من أسرار الله، وقد شاءت قدرته سبحانه وتعالى أن يودعها جسم الإنسان.

ولما كان العنصر المادي في الإنسان، وهو جسمه، لا يعيش بدون إمداده بمتطلباته المادية من تنفس للهواء النقي وتقديم ما يجب للمعدة من طعام، فكذلك الروح وهي من أسرار الله التي أنزلها علينا ليتحرك بها الجسم، لا يجوز أن نقطعها عن صلتها بمصدرها العلوي، وما صلتها هذه إلا بالعبادة لله سبحانه بالحمد والشكر والاستعانة به وبالتضرع إليه، وبالخوف من شذوذ على أحكام شريعته.

وكما أن الجسم ليس له أن يخالف مقتضيات قوانين طبيعته من امتناع عن التنفس والطعام فيموت، فكذلك ليس للروح أن تخالف مقتضيات قوانين فطرتها وخلقتها بالانقطاع عن مصدرها والتضرع إليه والخوف من الخروج على شريعته، فعندئذ يختل سير الجسم باختلال أحد عنصريه، الأساسي منهما، ولذلك قال الله سبحانه وتعالى : « ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً، ونحشره يوم القيامة أعمى ». فإذا لم يعبد الإنسان الله، وذلك بذكره لمراقبة الله له في كل حركة من حركاته وسكناته، وإذا لم يلجأ إليه ولم يستعن به على الدوام على أساس التضرع إليه والخوف من الشذوذ عن أحكام شريعته، فقد غدا الجسم المادي يعمل وحده بمقتضى شهواته ونزواته ولا يبصر في حياته إلا إياها، ولا يبتغي غيرها، فيسيء إلى نفسه ويشقى المجتمع كله بشقاوة تصرفاته ونزواته فتفسد معيشتهم مصداقاً لقوله تعالى : « ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً، ونحشره يوم القيامة أعمى ».

وهكذا فإن مراقبة الإنسان لأعماله بالتضرع إلى الله وبالاستعانة به، والخوف من الخروج على شريعته، وهو المقصود من العبادة، تكون هذه المراقبة هي الضمان الوحيد لاستقامة الإنسان في حياته، ولسعادة مجتمعه به، ولسلامة الإنسان نفسه، ولسلامة الأرض التي يعيش عليها، وهذا ما قد حرمت منه الشرائع الوضعية المادية التي لا ضامن لاحترامها ولاحترام حقوق الناس فيها غير السلطات الحكومية، تلك السلطات المادية التي لا يمكنها أن تلازم الإنسان في جميع حركاته وسكناته. وهكذا يستطيع الإنسان أن يفلت منها كلما أراد، وأن يعيث في الأرض فساداً كلما تمكن من الافلات منها، أو كان سلطانه فوق سلطانها.

ولذلك كله كانت عبادة الله، بالتضرع إليه والتماس رضاه، وبالخوف من عقابه كلما شذ عن أحكام شريعته، هي بحق :

أولاً ـ واجب حيـوي

وثانيا ـ واجب علمي لما أسلفنا من قبل.

مَاهوَ مفهُوم العبَادَة في الإسْلاَم

إن الكثيرين من المصلين المواظبين على صلواتهم مثلاً من العبادات، قد لا يشعرون في أول الأمر من صلواتهم إلا أنها تكليف، فيصلونها ليستريحوا من عبء التكليف، لا ليستريحوا بها كما هو الواجب أن يكون، وكما قال رسول الله ﷺ : أريحونا بالصلاة، فكانت الصلاة في الحقيقة مصدر راحة واطمئنان، بعد تعب واضطراب من شؤون الحياة المعقدة. ولذلك كان رسول الله ﷺ، وصحابته الكرام إذا أزعجهم أمر فزعوا إلى الصلاة، لأنهم بالتضرع إلى الله وبالاستعانة به، يعودون بعد الصلاة إلى شؤونهم وهم أكثر عزيمة وأكثر اطمئناناً، مصداقاً لقوله تعالى : « ألا بذكر الله تطمئن القلوب ». وإذا عرف المسلم ما هي الأمور التي خلق الله الإنسان من أجلها، وآمن بها، لم يسترح عندئذ إلا بأداء ما خلق له على أحسن وجه، وذلك كالمثقل بالديون من الأوفياء العارفين بواجباتهم، فإنه يظل في قلق واضطراب بال ما لم يتمكن من أداء ما وجب عليه بأحسن وجه.

فما هو الذي خلق من أجله الإنسان على هذه الأرض ؟

يقول الإمام الراغب الأصفهاني رحمه الله في كتابه « الذريعة إلى أحكام الشريعة »[1] : « الفعل المختص بالإنسان ثلاثة :

أ ـ « عمارة الأرض » المذكورة، في قوله تعالى « واستعمركم فيهـا ».

ب ـ « عبادته » المذكورة في قوله تعالى : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون »، بالامتثال للباري في عبادته، وفي أوامره ونواهيـه.

جـ ـ و « خلافته »، المذكورة في قوله تعالى : « ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون ».

ومعنى استخلافنا في الأرض من قبل الله فاطر السموات والأرض، هو توظيفنا فيها من قبله جلّت حكمته بأتم مفهوم « التوظيف اليوم في دوائر

---

(١) الصفحة ٢٦، طبع سنة ١٩٧٣.

الدولة وفقاً لقوانينها »، وتحميلنا وحدنا مسؤولية عمارتها « مختارين » على خلاف دور الشمس في عمارة الأرض حيث تقوم بوظيفتها بإرادة الله فقط غير مختارة، وتؤدي فوائدها للإنسان مدللة بذلك على قدسية الله وكما خلقه وأمره ونهيه، وذلك بالتسبيح له أي بالتقديس له، وفقـاً لقوله تعالى : « وإن من شيء إلا يسبح بحمده، ولكن لا تفقهون تسبيحهم »، فهي بذلك تقدسه وتقدس أفعاله الحكيمة المحمودة دائماً، وهذا ما جعله سبحانه وتعالى مستحقاً للتقديس وللحمد دائماً.. وهكذا فإن عبادتنا لله ضرورية بحكم وظيفتنا على الأرض لعمارتها، وما عبادتنـا لله في الأرض ونحـن مستخلفون وموظفون فيها ومسؤولون عنها، إلا اتباع أحكام شريعته من أجل كمال عمارة الأرض لمصلحتنا. وذلك كما يجري تحميل الموظف في دوائر الدولة على الدوام مسؤولية عمله فيها وفقاً لقوانين الدولة، وإنه إذا شذ عن قوانينها فسد نظام الدولة بأجمعها، وشقي الناس بذلك الفسد، فاستحق الموظف أشد العذاب، وكذلك فطر الله الإنسان أي خلقه على هذه الأرض على هذا الأساس من الاستخلاف من أجل عمارتها مختاراً مثل خيار الموظف، وفقاً لأحكام شريعة الله فيها، لا تبديل لفطرة الله، وله الحمد على ذلك.

وكما يفكر الموظف دائماً، وفي كل عمل من أعمال وظيفته اليومية بأحكام القانون، وبالحذر من الشذوذ عليها، فكذلك يجب على الإنسان في خلافته على الأرض لعمارتها أن يراقب الله دائماً في أوامره ونواهيه، وفي كل تصرف من تصرفات العمارة والخلافة من غير انقطاع : بالغدو والآصال، وفي جميع الصلوات الخمس على الأقل، ليكون بذلك من العابدين لله دائماً وحقاً، ومن القائمين بعمارة الأرض عبادة لله دائماً أيضاً وحقاً.

وكل ذلك في الحقيقة من عبادة الله إذا قام به الإنسان وفقاً لأوامر الله ونواهيه، من عمارة الأرض، والخلافة عن الله على الناس في الأرض والحكم فيهم بالعدل.

ويتضح من ذلك أن العبادة في الإسلام ليست انزواء بين الجدران، وانقطاعاً عن الحياة، بل قال الله سبحانه تعالى : « قل من حرم زينة الله التي

أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا، خالصة يوم القيامة ».

وهكذا يظهر بكل وضوح أن العمل بأوامر الله في عمارة الأرض والأخذ من الطيبات وفقاً لشريعة الله هو من العبادة التي يؤجر عليها الإنسان من أجل كمال عمارتها، ولو كانت شهوته الجنسية إذا أتاها من وجه مشروع فله فيها أجر لأن عمارة الأرض بالبشرية متوقفة عليها، فهي إذن عبادة، ولذلك قال بعض الصحابة لرسول الله ﷺ : أيأتي أحدنا شهوته وله فيها أجر ؟ فقال لهم : أرأيتم لو وضعها في محرم ؟ أكان عليه وزر ؟

وبعد هذا الذي قدمناه في مفهوم العبادة في الإسلام، وأنها العمل الأساسي الذي خلق له الإنسان ضمن مفاهيم عمارة الأرض، والعدل بين الناس، والأكل من الطيبات وفقاً لشريعة الله، يبقى علينا أن نوجز خاتمة بحثنا عن العبادة في الإسلام ببيان ركنها الذي لا تصح إلا به.

لم يترك القرآن الكريم معنى العبادة لله غامضاً، بل نص عليه بكل وضوح. فهي ليست الشكليات الظاهرة في الصلاة من قيام وقعود، وركوع وسجود، فقد قال الله سبحانه : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب » وليست الشكليات الظاهرة في الحج، من طواف، وسعي، ووقوف في عرفات، ورمي الجمرات، وإنما العبادة أن تكون على ذكر الله « راجياً رحمته، وخائفاً من عذابه » إن خرجت على شريعته. وهكذا قال الله سبحانه وتعالى في الصلاة : « وأقم الصلاة لذكري »، أي أن الغاية من هذه الشكليات الواجبة أيضاً هي ذكر الله. وقال رسول الله ﷺ في الحج : « إنما جعل الطواف والسعي والرجم لذكر الله ».

ولكنِ ما هو ذكر الله الذي أراده الإسلام في عبادة الله ؟ هل هو ذكر اسم الله جلّ جلاله على اللسان وحسب ؟

كذلك هنا فإن القرآن نفسه حدده بصراحة فقال : « واذكر ربك في نفسك : تضرعاً، وخيفة، ودون الجهر من القول، بالغدو والآصال، ولا تكن من الغافلين ».

أي أنك إذا صليت لله، أو حججت، أو ذكرت الله قياماً وقعوداً وعلى

جنبيك، فيجب أن يكون الذكر لا لفظاً فقط، بل مشتملاً على « التضرع إلى الله، والتوسل إليه، والاستعانة به، والخوف منه في سقطاتك، وأن لا تغفل في تصرفاتك اليومية عن هذا الذكر لله »، سواء كنت في صلاتك أو خارج صلاتك، فإنك إن فعلت ذلك كنت من العابدين دائماً، ومن الذاكرين حقاً، ومن الذين قال الله سبحانه وتعالى فيهم : « ألا بذكر الله تطمئن القلوب ».

وأن هذا الحال من الذكر بالتضرع إلى الله، وبالخوف منه، يجب أن لا تغفل عنه في يومك، وفي كل خطوة من خطواتك، وفي كل حركة من حركاتك وتصرفاتك، وخاصة الدنيوية منها، بحيث تكون طوال يومك في ذكر له، أي تكون دائماً في ذكر الله تضرعاً وخيفة. وما الخبر الصحيح في أن الله قد فرض في أول الأمر على المسلمين خمسين صلاة في اليوم، ثم ما زال رسول الله ﷺ يراجع ربه طالباً التخفيف حتى ردت إلى خمس صلوات، أقول إن هذا الخبر عن الله، وهو أعلم بحال عباده، وحاجتهم إلى الرفق بهم، ليس الغرض منه إرهاق عباده، وإنما الغرض منه الرمز به، إلى الواجب على الإنسان في أن يكون على ذكر دائم لله في حركاته وتصرفاته، وخاصة فيما أحل الله للناس من طيبات الرزق والجنس فلا يتعدى حدود شريعته فيها، فيذكر الله في كل ذلك متضرعاً ومستعيناً وخائفاً وليس في ذلك أي إرهاق للعباد، فيكون بذلك عندئذٍ من العابدين لله دائماً، مصداقاً لقوله تعالى : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » ومن الذاكرين لله حقاً، ومن القائمين بخلافة الله على الأرض حقاً، وممن اتبع رضوان الله حقاً الذين قال سبحانه وتعالى فيهم : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين :

- يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام..
- ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه..
- ويهديهم إلى صراط مستقيم »..

جعلنا الله سبحانه وتعالى منهم.. وله الحمد أولاً وآخراً، وإياه نعبد وإياه نستعين، والصلاة والسلام على معلم الخير وخاتم الأنبياء والمرسلين.

* * *

الباب الثاني

منجزات الحضارة الإسلامية

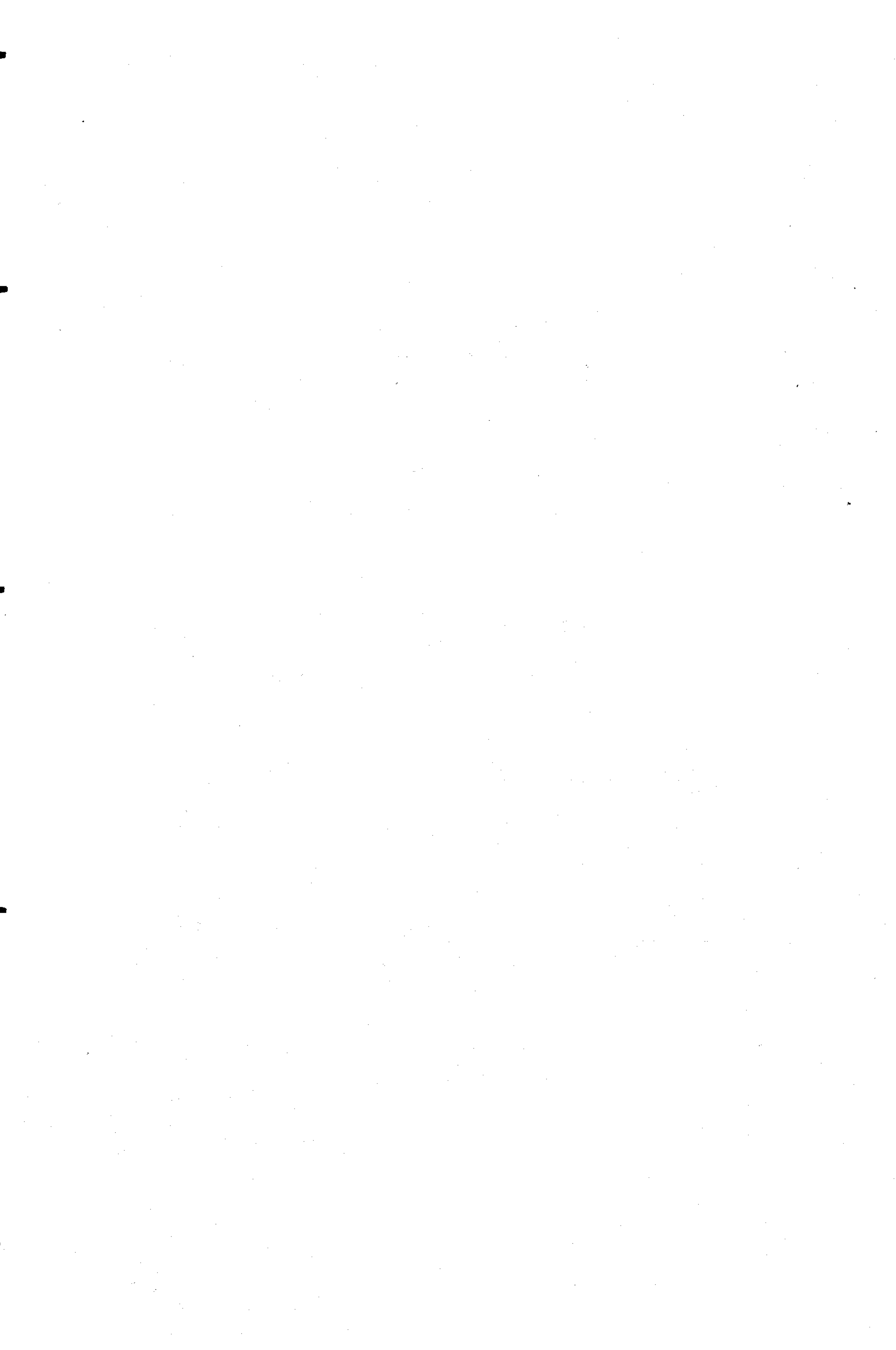
منجزات الحضارة الإسلامية في ميادين العلوم والفنون
للأستاذ : عبد اللطيف بن حاجي ابراهيم

التراث العلمي العربي الإسلامي : الشخصية الحضارية للعالم العربي
للدكتور : علي عبد الله الدفاع

تفوق الإسلام في مجال الفنون المرئية ودور الشباب المسلم في حفظ وتنشيط هذا التراث
للدكتور : سيد برويز منظور

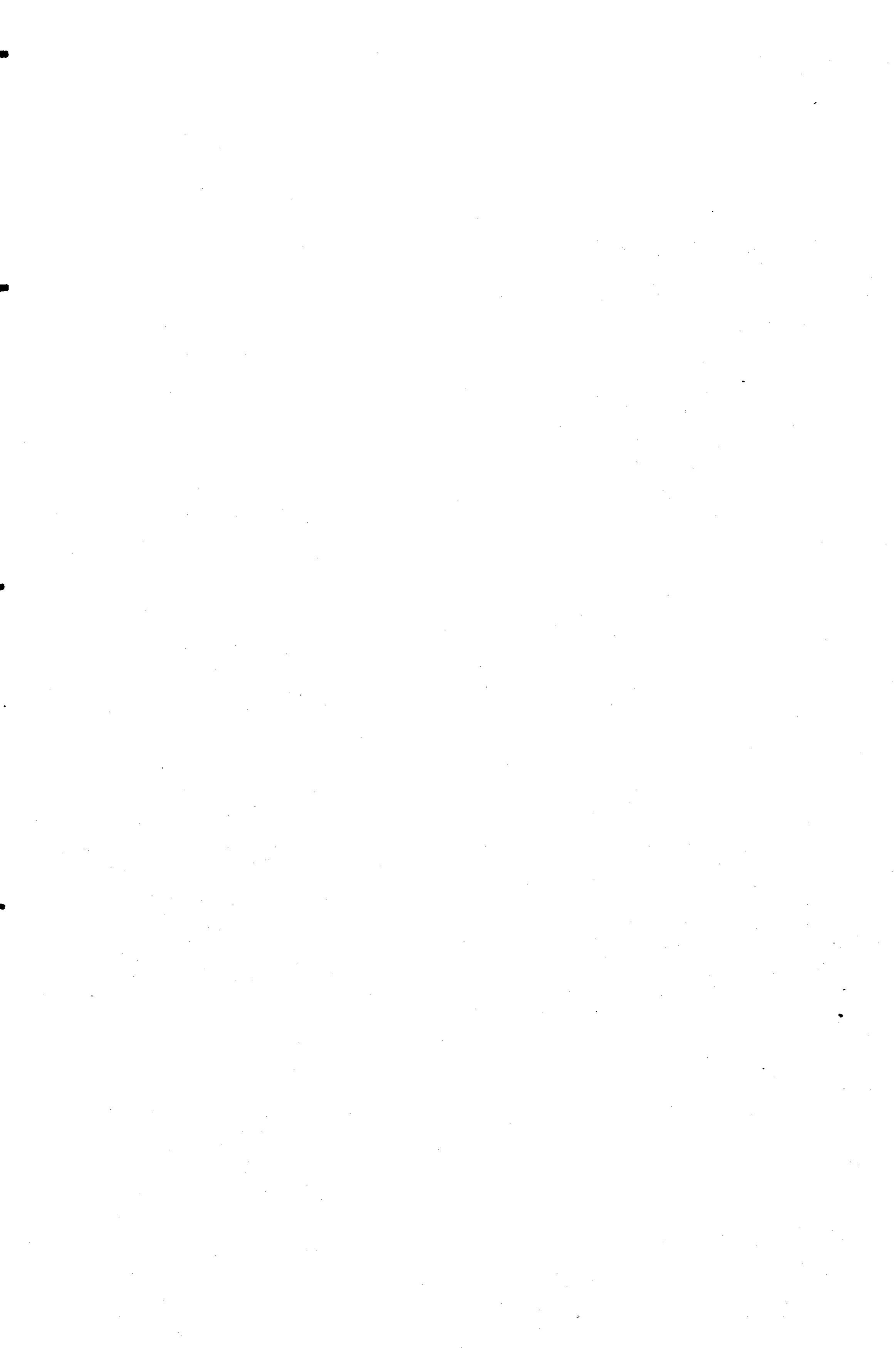
تفسير الإسلام للتناقض الإنساني الظاهري والحلول المقترحة لهذا التناقض
للأستاذ : قيصر أديب ماخول

منجزات الحضارة الإسلامية في مجال العلوم والفنون
للأستاذ : حكيم امتياز حسين



منجزات الحضارة الإسلاميّة في ميادين العلوم والفنون

للاستاذ عبداللطيف بن حاجي ابراهيم



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة :

لقد وهبت الحضارة الإسلامية هذا العالم ـ طوال أربعة عشر قرناً ـ عطاء متنوعاً، وآثرته بميراث حضاري من المنجزات الفكرية والفنية، والإسلام كعقيدة وكحضارة قد جمع بين الناس من مختلف الأجناس حول شعور بالوحدة الثقافية. وفي جنبات المتاحف وصالات عرض الآثار دلائل وأمثلة على مقدار ما أسهم به الإسلام ـ كفن ـ في إثراء رصيد العالم من الفنون. كما أن الإسلام قد قدم إلينا كثيرين من أعظم من عرفت الدنيا من العلماء والفلاسفة، ومن ثمار المعمار والهندسة والطب والخطوط والموسيقى والفلسفة والشعر ما أضاف إلى رصيد الدنيا الحضاري بصورة أذهلت الناس وملأتهم بالعجب الذي يصل إلى التساؤل حول إمكانية تحقيق مثل هذه الأشياء اليوم.

ولما أقيم مهرجان العالم الإسلامي في لندن سنة ١٩٧٦ م كان المقصود منه أن يعكس عظمة الحضارة الإسلامية، والتشجيع على إيجاد تفهم وتعريف جيد بالإسلام على مستوى العلماء... وعلى مستوى الرجل العادي... وقد حاول القائمون على المهرجان أن يجعلوا الحضارة الإسلامية ـ ككل ـ شيئاً قابلاً للتذوق والفهم.. وعلى وجه العموم فقد كان المهرجان ناجحاً، ومع ذلك فإن عملية الاستمرار في هذا العمل ـ التعريف بالإسلام ـ لم تتم، وها نحن أولاء أمام فجوة زمانية كبيرة تحول بين الناس ـ مسلمين وغير مسلمين ـ وبين التعرف على الإسلام من خلال الأشكال المرئية.

إن حب الاقتناء والجمع، مكن الإنسان ـ المعاصر ـ من دراسة الماضي من أجل المستقبل، وبفضل هذه الغريزة أيضاً تم الحفاظ على كنوز حضارات الدنيا القديمة، كالحضارة المصرية والحضارة الصينية والحضارة الهندية وكذلك الحضارة الإسلامية حيث بقيت محفوظة في مؤسسات مشهورة مثل المتحف البريطاني في لندن ومتحف الفن الإسلامي في القاهرة، وغيرها، وليس هناك مبرر لعدم وجود مثل هذه الكنوز التي تشير إلى ما حققته الحضارة الإسلامية في مؤسسات الدول الإسلامية في كافة أنحاء العالم.

وعلى كل، فما أن نتناول منجزات الحضارة الإسلامية حتى نطرح على أنفسنا هذا السؤال ؟ ما هو مدى معرفة المسلم العادي بوجود مثل هذه المنجزات ؟. ولا يمكن القول بأن على المسلم أن يسافر إلى الهند ليشهد جمال تاج محل أو أن يسافر إلى القاهرة ليرى ـ مجرد رؤية ـ متحف الفن الإسلامي... إن معظم المسلمين لم يعرفوا شيئاً عن عظماء المفكرين من المسلمين مثل الرازي وابن سينا وابن رشد وهؤلاء قطرة من بحر.

إن هناك ـ في الحقيقة ـ قصوراً في فهمنا لموضوع دراسة وعرض الحضارة الإسلامية الغابرة، فالمؤسسات التي لا تحمل الطابع الإسلامي قد نمت وترعرعت بسرعة كبيرة، ولقيت إقبالاً كثيراً من الناس الذين يقضون فيها أوقات فراغهم ويتذوقون نتاج حضارات الدنيا، وإن بناء المسجد هو أهم

تقدم أحرزته المؤسسات الإسلامية، وفي صدر الإسلام كان المسجد هو ملتقى المجتمع ومركز تجمع المؤمنين حيث تتم فيه كل المعاملات السياسية والتعليمية والشخصية، ولكن هل يقوم المسجد بنفس الدور اليوم ؟ وما لم تكن هناك بعض الحفلات في بعض المناسبات فإن المسجد لا يؤم إلا لصلاة الجمعة، فاليوم نجد العلاقة بين المسلمين وبين المسجد ـ بيت الله ـ واهية وغير متميزة، والواقع أن عوام المسلمين تعرضوا لمواجهة عوامل غير إسلامية.

وهذا البحث محاولة لإبراز ضرورة إقامة مؤسسات إسلامية متنوعة ـ غير المسجد ـ لإيجاد فهم عام للمنجزات الحضارية الإسلامية الماضية في مجالات العلم والفن، ونحن نأمل أن يؤدي وجود هذه المؤسسات إلى رفع روح المسلمين المعنوية وشعورهم بالاعتزاز، حتى يكونوا فخورين بما أنجزته الحضارة الإسلامية.

وإذا ما أقيمت هذه المؤسسات، كالمتحف الإسلامي والمكتبة الإسلامية والجامعة الإسلامية والمراكز الإسلامية، في المدن المهمة من البلاد الإسلامية في كافة أنحاء العالم، ومن خلال هذا العمل يتم تجميع وإعداد وعرض نماذج وعينات من مادة الحضارة الإسلامية، ومعنى ذلك أننا نجمع ونعرض الماضي توطئة لدراسته من أجل الوصول إلى المستقبل.

أهمية إنشاء المؤسسات الإسلامية :

قبل هذه الصحوة الحديثة للإسلام، كانت أي معلومات عن الإسلام قائمة ـ فقط ـ في المراكز الإسلامية، ومن المسجد بالذات، ويبدو أن الصلاة الجامعة في يوم الجمعة ليس لها أي أثر في إيجاد التضامن. وأن أول ما نهدف إليه من إقامة نماذج متنوعة من المؤسسات الإسلامية هو إيجاد التماسك والوحدة الإسلامية، جنباً إلى جنب مع عرض ونشر الحضارة الإسلامية، وهذا يؤدي إلى فهم أكثر لتعاليم الإسلام ودعوة الإسلام.

ويوضح الرسم (ملحق رقم ١) مختلف المؤسسات التي يمكن

إقامتها مع المسجد كمركز وحيد، ولا يلزم أن تكون هذه المؤسسات في منطقة واحدة، مع مراعاة تأثير درجة سهولة المواصلات.

١) المتحف الإسلامي.
٢) المكتبة ومركز الأبحاث الإسلامي.
٣) مركز السكرتارية والاستعلامات.
٤) الجامعة والمدارس الإسلامية.
٥) المستشفى الإسلامي.
٦) الإسكان والإعاشة.
٧) صالة الاجتماعات والمحاضرات.
٨) مركز التغذية.

ولعل إقامة هذه المؤسسات المقترحة ـ يؤدي إلى ارتفاع درجة التفهم بديلاً عن العزلة والانغلاق، فيكون الانفتاح على الأديان الأخرى، وعلى كل فإن إقامة هذه المؤسسات الإسلامية لإيجاد تذوق وتفهم لمنجزات الحضارة الإسلامية أمر كبير الأهمية، وأن النشاطات التي تتركز في هذه المؤسسات جديرة بأن توجد وعياً واهتماماً بإحياء عظمة الإسلام ووحدته.

وحتى نصل بكل المسلمين إلى فهم أفضل لنواتج هذه الحضارة يلزم أن تكون هذه المؤسسات في أماكن حيوية مهمة تغطي القارات الخمس بادئاً بواحدة في الشرق الأوسط، وأخرى في آسيا، وثالثة في أوروبا، ثم أفريقيا والولايات المتحدة الأمريكية، ثم بعد ذلك في أماكن أخرى كاستراليا وجنوب أمريكا.

المتحف والمعرض :

إن ضرورة إقامة متحف كوسيلة من وسائل عرض الإنسان لحضارته شيء لا مرية فيه.

وقد عرف المجلس الدولي للمتاحف (ICOM) المتحف بأنه : مؤسسة لها صفة الاستمرار تعمل في خدمة المجتمع والتقدم ولا تهدف للربح، تفتح أبوابها للجمهور، وهي تقوم بالبحث والمحافظة والتحقيق وعرض

ما يخص الإنسان والبيئة تسهيلاً لأعمال الدراسة والتعليم وتوفير المتعة، وباختصار فإن عمل المتحف يتلخص في عملية التجميع والمحافظة وتسهيل مهمة إجراء الأبحاث، فهو يعرض مجموعاته على الناس ليقوموا بدراسة أنفسهم وما يحيط بهم ولا يتصور أن ينبو المتحف الإسلامي عن هذا التعريف.

وإن آثار التحديث والتمدين قد حرمت كثيراً من البلاد من مادة حضارتها، فهذه المكونات الحضارية تعرضت للتدمير في فترات الاستعمار أو بيعت لمن تستهويهم هذه الآثار من طلاب الاحتفاظ بالأثريات القديمة أو السياح، وحين أرادت هذه البلاد أن تجمع آثارها ومادة حضارتها تبين لهم أنهم تأخروا كثيراً وعليهم أن يجمعوا أشياء من الدرجة الثانية، ولكن لحسن الحظ فإن كثيراً من مواد هذه الحضارات محفوظ في المتاحف الأجنبية حتى يراها الناس، ولكننا في الوقت نفسه لا ندري مقدار ما استحوذت عليه الأيدي، كممتلكات خاصة وليست للعرض في المتاحف.

وان دراسة وحفظ الحضارة الإسلامية للأجيال القادمة يعد واحداً من أهم أهداف إقامة متحف إسلامي. وحين نتكلم عن الأجيال القادمة فإنما نقصد هذا الشباب المسلم الذي نحب له أن يحيا ويعلم كما ينبغي للمسلم أن يحيا ويتعلم، لأن اهتمامنا بالشباب ضروري، وان التعليم غير المناسب يؤدي إلى تغير الشباب وتحوله إلى سوء السلوك ومجافاة الخلق الإسلامي والشخصية الإسلامية.

وان الظاهرة الحديثة التي جعلت من المتحف مجالاً للترويح تماماً كما هو مركز للتعليم، أدت في الواقع إلى تزايد زوار المتحف لأغراض عديدة، فتعقد للأطفال فصول المهارات لمختلف المستويات التعليمية، كما أن هناك المثبتات الحائطية، وعروض سينمائية، والهدف من وراء ذلك هو زيادة المعرفة. وفي بعض مناطق انجلترا نجد محاولات لغمس أطفال المدارس في نشاط المتاحف لتوجيههم وإبعادهم عن الانحراف والمشاكل الاجتماعية.

ومن المدهش أنه وفي غضون ١٣٣ سنة وصل معهد سميث (Smithonian Institute) إلى درجة عظيمة، وهو اليوم واحد من أعظم المؤسسات التعليمية في العالم، والغرض منه زيادة ونشر المعرفة بين الناس.

وهنا نحن أمضينا ١٤٠٠ سنة فهل فكرنا نحن المسلمين في أن نقدم لشبابنا مؤسسة إسلامية تعرض لما أنجزته حضارتهم في الماضي ؟. واننا حين نرى المتاحف العظيمة في أمريكا وآسيا وأوروبا نحس بالحسرة لأننا نجد أن ما يعرض لا يعبر تعبيراً كافياً عن عظمة الإسلام.

ففي صالة العلوم الطبيعية في متحف التاريخ والتكنولوجيا بمعهد سميث نجد أدوات فلكية وجيولوجية مختلفة، معروضة لإيضاح أوضاع العلم القديم وفي القرون الوسطى، ومع هذا لا نجد ذكراً لعلماء المسلمين العظام، والتعليق الوحيد عن أثر الإسلام ورد في أحد الكتب التي تستخدم كدليل، وكان عن الاسطرلاب وعن نشأته في العالم الإسلامي قبل انتقاله إلى أوروبا.

ومعهد الكومنولث في لندن مثال للمؤسسة التي توحد وتربط بين شعوب هذه المنظمة (الكومنولث)، فهذا المعهد يهدف إلى تبني ونشر وتبادل المعارف بين أعضاء الكومنولث ولإبراز أهمية رابطة الكومنولث. فهل نستطيع أن يكون لنا مثل هذه المؤسسة أو أفضل منها للربط بين المسلمين ؟.

ومن خلال هذا المعهد، يوجد معرض غير دائم، ومركز تجاري وصالة للفنون وخدمات تعليمية ومكتبة ومركز للموارد والعروض الثقافية والأشرطة السينمائية، وما إلى ذلك من نشاطات.

ونحن لا ننكر أن هناك متاحف إسلامية عظيمة خاصة في الشرق الأوسط ولكنها لا تتعدى كونها بداية أو نواة لنشر الحضارة الإسلامية التي مازالت مجهولة، وأن تجشم السفر من أوروبا أو جنوب شرق آسيا لمشاهدة متحف الفن الإسلامي في القاهرة ـ والذي يعرض أقيم المجموعات من الفن الإسلامي في العالم ـ قد يكون جميلاً بالنسبة لعشاق الفنون ولكنه أمر لا يتصور بالنسبة للمسلم العادي.

وقد أصبحت كثير من المتاحف جامدة عند حد عرض الجماليات فقط وعلى كل فبدون زيارة متحف الفن الإسلامي في القاهرة لا استطيع تقدير قيمتها. فالمتحف إلى جانب العرض يلزم أن يقدم أقصى تشجيع للفنون الموجودة في المجتمع، بما في ذلك إتاحة الفرص للفنانين للتعرف على تطورات الفنون خارج حدود بلادهم بحيث يصبح المتحف مكاناً مثالياً لتزجية وقت الفراغ والاسترخاء والمتعة، كما في المتاحف المفتوحة أو في الهواء الطلق مثل متحف سكانسن في ستوكهولم (السويد).

والواقع أن هناك حوالي مليونين من الزائرين ترددوا عليه في سنة ١٩٧٣ بالرغم من أن استوكهولم الكبرى تعدادها مليون شخص فقط، وهذا يوضح مدى جاذبية هذا المتحف.

إن المتحف مُنشأ أساساً لإكمال رسالة المدرسة، ولهذا السبب فإنه من أمتع الأماكن التي يزورها أطفال المدارس.

وقد أوضح مسح شامل تم سنة ١٩٧١م لمتاحف لندن، أن زائري هذه المتاحف معظمهم من الشباب، وتتراوح سنونهم بين ١٦ سنة بالنسبة للمتحف العلمي، ٢٢ سنة للمتحف البحري، ٢٧ سنة للمتحف البريطاني.

ورغم عدم الاكتراث اللذان يصاحبان الفكرة المشار إليها بأن المتحف مكان مثالي للتعلم بجانب المدرسة، فقد أظهرت الخبرات أن الشباب يتلقى بحماس، ويساهم بإخلاص في التجاوب مع المتاحف، وفكرة أن الرؤية تؤدي إلى الاقتناع لا تنطبق على عرض الأشياء من جوانب ثلاث فقط، بل لا بد من رؤية الأشياء من كافة أبعادها على الطبيعة كحقيقة ماثلة، فإن لمس الشيء ورؤيته حقيقة ماثلة يؤدي فعلاً إلى الإيمان به، ومن ثم فإننا نعطي الأطفال الفرصة للمس المعروضات واللعب بالأشياء بل واستعارتها كما يحدث في أكاديمية هنولولو للفنون، وهاواي، لأن ذلك يخدم أغراضاً مهمة مثل أن :

١) ينمي في الأطفال عن طريق الفن إثراء فهم الحضارة البشرية قديماً وحديثاً.

٢) يعمل على خلق التقدير للمشروعات بالتعرف على أمثلة رائعة من التلوين والطبع والنسيج والسيراميك .... الخ.
٣) يبعث على ازدياد مباهج الحياة بتنمية قوة الملاحظة والتخيل.
٤) ينمي الخيال والتعبير الخلاق.

وبين المجموعات التي يمكن للأكاديمية إعارتها، مجموعة من البرامج الخاصة عن تعليم الدين المسيحي، وفي جنوب كوريا يوجد متحف قبطي.

ألا يدعونا ذلك بكل حماس ووازع طيب إلى أن نعرض عظمة الإسلام وروعة حضارته بأن يكون لنا متحفنا الإسلامي الموزع في قارات الدنيا الخمس، ويمكن أن نبدأ بالشرق الأوسط لإنشاء أول متحف فيه.

إن المهرجان الإسلامي العالمي الذي عقد في مدن انجلترا لمدة ثلاثة شهور كان له مغزيان عظيمان في إبراز الحضارة الإسلامية، وأول هذه الفوائد أن يتم جمع هذه المجموعات التي تمثل ميادين مختلفة كالقرآن والعلوم وتكنولوجيا الإسلام وفنون الإسلام والموسيقى الإسلامية والأدوات الموسيقية والأشغال المعدنية التي تم جمعها من مؤسسات مختلفة ومن الأشخاص المهتمين بجمع هذه المجموعات في جميع أنحاء العالم. وهذا بلا شك يعطينا مثلاً طيباً لوحدة المسلمين وكيف يمكن تحقيقها بنفس الروح التي تم بها جمع كل هذه المجموعات التي تبرز المدنية الإسلامية. لقد كشف منظمو المهرجان الطريق إلى وحدة أشمل وأبعد أثراً، والفائدة الثانية وهي أشد ارتباطاً بعنوان هذا البحث، وأعني بها مدى الحاجة إلى مؤسسة دائمة يتم عن طريقها إبراز ونشر المدنية الإسلامية.

وإذا كان المهرجان مؤقتاً فلا شك أن أثره مستمر ودائم، وربما لا يتاح للمسلمين في جهات متفرقة من العالم ربما لا يتاح لهم الفرصة كي يشاهدوا مهرجاناً ثانياً مثل هذا ما لم يكن هناك مؤسسة دائمة يمكن نقل محتوياتها للعرض في مدن إسلامية مختلفة.

وان نجاح المهرجان الإسلامي يمكن أن يعتبر بحق أفضل أسلوب

لتصوير وعرض المدنية الإسلامية بشكل أوسع. وأقتبس هنا بعض الملاحظات على المعرض :

« إن هذا المعرض يعتبر بحق المعرض الأول من نوعه، والذي يبرز علم وتكنولوجيا الإسلام، الذي هيئ لخدمة هذه الأغراض. وإن كانت علوم الإسلام لم تنفصل عن الاتجاه الأدبي والدراسات الفلسفية أو المتعلقة بفقه اللغة التي تدخل في نطاق الأدب (وجملة هذه الأشياء تعرف بالثقافة).

لقد حدد القرآن وحددت السنة القالب الذي تتشكل بمقتضاه العلوم الإسلامية والشروط التي ينبغي أن تتوفر فيها بما يجعلها ذات طبيعة متميزة.

إن فنون الإسلام لم يتح للجمهور رؤيتها على نطاق واسع بحيث يدرك جمالها ـ وقد أقيم أول معرض لهذه الفنون في ميونيخ سنة ١٩١٠ م، وكان الهدف منه توضيح مدى تنوع وأصالة وغنى الفن الإسلامي، وبعد هذا المعرض لم يقم معرض آخر لأكثر من ستين عاماً. ولا بد أن يتوفر في المعرض توضيح جوانب ومزايا التقدم الذي تم في مجال الدراسات والآثار الإسلامية ويجلب للمعرض خامات ومواد من معارض أخرى، ومن المجموعات الشخصية التي يستحوذ عليها أفراد بذاتهم في كافة أنحاء العالم الغربي كذلك، وينبغي أن يعرض السجاد الفارسي المشهور في العالم كله بما عليه من رسوم حيوانية رائعة وكذلك الأنواع الأخرى التي تتمثل في القطع الصغيرة المتبقية من السجاجيد التاريخية العظيمة وما على أجزائها من ألوان زاهية، وتشكل الزخرفة المطرزة التي تعرضها قبائل الهوسا علاقة مميزة في دراسة الفن الإسلامي في غرب أفريقيا وربما لو تم ذلك تكون هذه أول مرة تعرض فيها مثل هذه الجوانب بشكل متكامل في معارض رئيسية.

ولعل مما يبرز ويوضح أثر مادة التاريخ الإسلامي التفاعل الذي تم بين الشعوب ذات الطبيعة اليدوية والشعوب المستقرة والمتمثل في مدينة صنعاء.

إن العرض يستهدف في أبسط صوره إظهار التجانس والترابط بين المواد التي تشكله بحيث تنتقل الفكرة إلى نفوس الزائرين.

وتؤدي المتاحف دوراً فذاً لا يمكن الاستغناء عنه في حياة

المجتمعات كما أنها تبرز بعض مظاهر العظمة وصور الحضارة ومدى المعارف المتصلة بالماضي وما يتمثل فيها من علوم رياضية وفلك بما ينهض شاهداً ودليلاً على مدنيتهم كما يبرز التسلسل التاريخي في حياة الأمم والشعوب.

وفي هذا المنحى أيضاً يتجه المعرض إلى الإبانة عن حقائق الإسلام ودحض التهم الزائفة وتصحيح سوء الفهم أو الحكم بالنسبة للأفكار الإسلامية. وإذا أردنا أن يكون المعرض الإسلامي تصويراً صادقاً فيجب أن تعرض حقائق القرآن بصورة مستقلة بحيث يكون كلام الله الأصل في كافة المعارض. ويمكن في متحف القرآن إبراز الأبعاد الثلاثة للقرآن من حيث تسجيله وتفسيره وأقوال الرسول ﷺ، دون الالتفات إلى وجهات النظر الفردية والتفسيرات الخاصة حتى لا تسبب انشقاقاً بين المسلمين. وربما ساعد هذا المدخل على مساعدة المسلمين على فهم أفضل للقرآن ومعانيه. إن القرآن يوضح أن الإسلام نظام كامل للحياة وأن الله سبحانه وتعالى هو الخالق الأعظم لهذا الكون. ولذلك يراعى أن يكون المعروض متناسقاً تماماً مع الآيات القرآنية، فإذا أردنا عرض تطور الإنسان يمكن اقتباس قوله تعالى:

« أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون » (سورة الأنبياء ـ ٣٠).

ولا شك أن هذا العرض يساعد على نبذ أي فكرة أخرى عن أصل الإنسان وأنه تطور من قرد ثم صار إلى ما هو عليه الآن.

وفي المتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي بنيويورك تصوير لمعجزة الحياة وأطوار نمو الجنين وكيفية عمل الجسم البشري وتصوير للجهاز العصبي.

وبالنسبة لنا نحن المسلمين ننظر إلى هذه الآيات الباهرة على أنها من صنع الله العلي القدير، وكأننا نريد بهذا الأسلوب أن نغرس فكرة أن الله سبحانه وتعالى هو الخالق الباري في نفوس زائري المتحف. وبذلك يخدم المتحف كوسيلة لنشر الدعوة الإسلامية.

ويمكن عمل معارض متنوعة تبرز المدنية الإسلامية، وتوضح الإسلام كدين مثالي من خلال قوله تعالى « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين » (آل عمران ـ ٨٥).

إن إسهام الإسلام في مجال الفنون حافل وخالد. فقد ربط الفن الإسلامي النواحي الجمالية بالنواحي العملية، وكذلك النواحي الإنسانية بالنواحي المادية وهذا الربط جعل له صفة مميزة (ستيوارد سنة ١٩٦٧ م)، ومن أهم منجزات الفن الإسلامي ما كان منها في مجال الهندسة المعمارية حيث شجعت الزخارف على العبادة وجعلت الحياة الشخصية بهيجة وممتعة، وفي مجال الأدب أوضحت اتجاهات الإنسان أمام الحياة والموت.

ولم تتغير الأشكال الهندسية المعمارية الأساسية عبر التاريخ الإسلامي وأبقت على الأفنية المكشوفة وقاعات الصلاة التي تحيط بها الجدران بنفس الصورة التي عاشها الرسول ﷺ في منزله المتواضع بالمدينة المنورة في القرن السابع.

ويمكننا معاونة المسلم على فهم أعمق لبساطة حياة الرسول ﷺ بإنشاء معرض يمثل بيت الرسول الخاص ببساطة، وذلك عن طريق تهيئة فضاء واسع مكشوف يحتوي على حجرات خاصة في إحدى الجوانب وصفوف من جذوع النخيل تشكل ممراً على الجانبين وفي آخر الصف توجد القبلة.

إن أصول الفن الإسلامي تنفرد بميزات خاصة عند مقارنتها بالفنون الأخرى، فإذا أشرنا إلى أصولها القرآنية وعلاقاتها بالحضارات الأخرى وكذلك العنصر البشري فيها نكون قد ألقينا عليها ضوءاً بغير شك.

وإذا عرضنا أمثلة من تغلغل الفن الإسلامي في كل جنبات الحياة وكيف أصبح البيت عند المسلمين أكثر جمالاً، والجسم مغطى بملابس أخاذة والطعام والشراب معدان بطريقة أفضل فسيكون لذلك تأثيره خارج نطاق الأشكال المرئية والبيئة المحيطة وربما انتقل التأثير إلى تغيير العادات السائدة في الديانات الأخرى.

إن أفكار المسلمين الصوفية امتزجت تماماً بتقاليد المسيحيين الاسبان، ولم تكن سانت تريزا (في أفيلا)، وسانت جون لتسجل بنفس الصورة لو لم يتعرف الغربيون على الأفكار الصوفية كالفكرة عن الله المحبوب وأنه يمكن معرفة الله فقط من خلال الزهد في الحياة واحتقارها.

وقد زخرف اللباس الكهنوتي الخاص « بروجر الثاني » بنقوش عربية، وذكر التاريخ توليه بالتاريخ الإسلامي.

وقد حرصت الأميرات المسيحيات على تجميع آثار وأشياء من الفنون الإسلامية كما جمل اللباس الكهنوتي لأسقف كانتربري الراحل والذي تحمل زخرفته بالخط الكوفي اسم الرسول محمد ﷺ والخليفة علي رضي الله عنـه.

ولم يتجه الفن الإسلامي إلى تخصيص معـانٍ معينة تجعله غير مناسب في نظر الغير بمعنى أن يحمل لوناً من التناقض الظاهري بل إن النقوش تبرز وتختفي مع تنوع أنشطة الحياة وتختلط بمواد يمكن إزالتها موحية بالمعنى الإسلامي الكبير بأن كل شيء هالك إلا وجهه سبحانه وتعالى.

إن فكرة إيجاد متحف إسلامي لا تصطدم بالمصالح القومية، فهو ينشأ حين ينشأ للحفاظ على الحضارات القومية والعادات والتقاليد الوطنية وإظهار بدائية الحياة وتطورها إلى الصورة الحاضرة. إن المتحف الإسلامي سوف يقدم نفسه ويبرز وجهة نظر الإسلام في الحياة، ويتيح للمسلمين التعرف على دينهم بصورة أفضل.

أنواع أخرى من المؤسسات :

سوف أشير إلى أهمية المؤسسات الأخرى هنا بإجمال مع ذكر بعض الأمثلة حسب معلوماتي المحدودة في المجالات المعينة، ولكن الحاجة للوحدة المشتركة التي تجمع المسلمين تحبذ إيجاد مثل هذه المؤسسات.

فمؤسسة عظيمة كجامعة الأزهر تعتبر مركزاً للدراسات الإسلامية

والعربية حيث أنشئت منذ أمد بعيد، وبناء فروع للجامعة أو مؤسسات تابعة لها يمكن أن يساعد على فاعلية ووحدة المستويات والدراسات إلى أبعد حد.

وإن المركز الشرقي الغربي في هونولولو وهاواي يعتبر مؤسسة تعليمية قومية أنشأها الكونجرس في الولايات المتحدة سنة ١٩٦٠م لتنمية علاقات وإيجاد تفاهم أفضل بين الأمم عبر طريق البرامج الدراسية التعاونية وعن طريق الأبحاث والتدريب. وتقويم العلاقة في هذا المركز بين الولايات المتحدة الأمريكية والأقطار غير الشيوعية وخاصة في المحيط الهادي. والحافز الرئيسي من وراء إنشاء هذا المركز هو التوجيه نحو أسلوب الحياة الأمريكي وطريقتهم في التفكير.

ولعل عدم وجود أماكن مناسبة واستمرار الدراسة يوم الجمعة يشكل صعوبة أمام الطلبة المسلمين كي ينسقوا أمورهم بأنفسهم.

ولا يجتمع الطلبة المسلمون عادة إلا في مناسبة العيد. وربما ساعد إنشاء مكتبة إسلامية ومركز للأبحاث على تمهيد السبيل لجلب كافة المطبوعات الإسلامية كما هو الشأن بالنسبة لمكتبة الكونجرس ومكتبة المتحف البريطاني. وإن الاحتفاظ بثبت بأسماء الكتب وقوائم كاملة بالمؤلفات يمكن إعدادها بحيث تغطي كافة المطبوعات الإسلامية التي يحتفظ بها في المكتبة. وأعتقد أن كل الأقطار الإسلامية لا تتردد في تنظيم هذا المشروع، وستساعد كافة الكتب التي يمكن توفيرها قديمها وحديثها شائعها ونادرها وكذلك الخرائط والمخطوطات وكافة أشكال المطبوعات المتعلقة بالإسلام، تساعد هذه جميعها على إيجاد فهم أفضل لتعاليم الإسلام وإنشاء علاقات أوثق بين المتاحف والجامعات وبين هذه المكتبة الإسلامية.

وقد ثارت مناقشات حامية حول الموضوع المقترح بإنشاء مستشفى إسلامي ولا شك أن مثل هذا المستشفى سوف يخدم المجتمع المسلم ويسمو عن مجالات الشكوك بالنسبة للعمليات الجراحية والأدوية المركبة التي

يصاحبها تصرفات غير أخلاقية وبالتالي غير إسلامية.

وأهم عنصر في فكرة إنشاء مستشفى إسلامي هو ابتغاء وجه الله أحسن الخالقين في أداء الخدمات الطبية. وينبغي علينا دائماً أن نذكره سبحانه في كافة أحوالنا وتصرفاتنا. إنه من الضرورة بمكان أن يوفر لهذا المستشفى كافة وسائل الراحة وإقامة الصلوات وممارسة العبادات من تهجد وصلاة وسجود لله. وحتى في أوقات تغيير النوبات ينبغي على العاملين بالمستشفى أن تتاح لهم الفرص لأداء الصلاة.

إن الكثير من المستشفيات في الأقطار الإسلامية يعوزها مثل هذه المرافق وينقصها هذا التوجيه. وأعتقد أن هذه الكلمات المقتبسة من « ريدرز ديجست » تعكس الشعور الداخلي للجراح، ويمكن أن تساق مثلاً في التعرف على الواجب نحو الله سبحانه وتعالى : « إنه لولا لطف الله ومساعدته ما تمكنا من اتخاذ القرار وحسن الأداء، وإذا كان كثير من العلماء الباحثين يفقدون ثقتهم وإيمانهم مع اتساع معارفهم فإن الأمر بالنسبة لي على النقيض من ذلك. إن خبراتي مع المرضى وفي أبحاث الأعصاب لمحاولة اكتشاف غموض وكنه المخ البشري قد جعلتني ـ أكبر من أي وقت مضى ـ في ذهول وحيرة أمام المخ البشري. وليس أمامي خيار إلا الاعتراف بوجود قدرة سامية عليا مسئولة عن التخطيط وتطوير العقل وعلاقاته بالأشياء وليس في مكنة الإنسان أن يحيط علماً أو يفهم مثل هذه الأمور ».

وإنشاء مراكز أغذية إسلامية يخدم بلا شك المسلمين ويزودهم بالطعام السليم والمناسب. وأحياناً ما يتلقى المسلمون تعليمات دينهم بشأن الأطعمة بشيء من التساهل نتيجة إغفال المبادئ الأخلاقية والكسل في البحث عن الطعام المناسب.

وهناك فكرة سائدة بأن المسلمين يباح لهم أكل كافة أنواع الأطعمة باستثناء لحم الخنزير. ويأتي في المحل الثاني السؤال عن الطعام إذا كان معداً بطريقة إسلامية أم لا. وفي ماليزيا يساء استخدام كلمة حلال في المناسبات المختلفة بهدف تشجيع المبيعات وتوفير أعلى قدر من الأرباح على حساب المسلمين.

وقد أتيح لبعضنا فرصة زيارة أقطار إسلامية أخرى ولكن علية القوم وهم قلة هم وحدهم الذين يستطيعون الإقامة في الفنادق الفاخرة. ومن هنا تبرز فكرة إنشاء أماكن إيواء مناسبة للمسلمين ذوي الدخل المحدود وتوفير أماكن سهلة ومريحة لحل مشاكل عقد اللقاءات وإقامة المؤتمرات وتنفيذ البرامج الإسلامية.

وهناك اتحاد عالمي للشبان المسيحيين منتشر على مستوى العالم يقدم الإيواء المناسب والطعام المناسب ويتم الحجز فيه، وعن طريق ما يحصله من أرباح يستفاد من هذه الدور في نشر المسيحية.

وقد أتيح لي منذ عشر سنوات أن أكتسب خبرة كبيرة أثناء الإقامة في دار الاتحاد العالمي للشبان المسيحيين في سان فرنسيسكو ونيويورك، وأن أحظى بإقامة هادئة في هونج كونج أيضاً في دار الاتحاد العالمي للشبان المسيحيين نظير مصاريف محدودة. إن مقتضى الوحدة الإسلامية يجعل من الأفضل لنا أن نقيم اتحاداً عالمياً للشبان المسلمين لا يستهدف فقط التزويد بما يحتاجه الإنسان المسلم المحدود الموارد، ولكنه أيضاً يساعد على وحدة المسلمين وترابطهم وإيجاد الفهم المشترك بينهم في مكان يجمعهم تحت سقف واحد.

التمويل والإدارة :

وباختصار فإن تمويل هذا المشروع الضخم لن يشكل صعوبة في ظل الظروف والأوضاع الاقتصادية السائدة الآن في الأقطار الإسلامية. وإن المساهمات التي تقدمها الأقطار الإسلامية وخاصة دول البترول الغنية في الشرق الأوسط والدولة التي يقام على أرضها المؤسسات المطلوبة كل ذلك يمكن أن يدعم المشروع مالياً. وإذا كان هذا القول غير عملي من الناحية الاقتصادية بالنسبة للتعريف بالمدنية الإسلامية، ونظراً للظروف والملابسات التي تصاحب المشروع فإني أعتقد على المدى الطويل بأن الأجيال القادمة سوف تستفيد كثيراً إن شاء الله من مثل هذه المشاريع، وليس هناك وقت محدد لإنجاز مثل هذا العمل، وأحب أن أنوه بأن مساندة الأقطار العربية

المالية لدورة الألعاب الرياضية الآسيوية في بانكوك في ديسمبر الماضي دعمت بوضوح وساعدت على طرد إسرائيل من الدورة واعتبرت الدول الآسيوية نفسها مدينة إلى حد كبير للدول الإسلامية. وبهذه الإشارات ونتيجة لهذه الموارد يساعد الإسلام على دعم الوحدة. وعند تنفيذ المشروع يعهد إلى إحدى الدول العربية بإيواء مركزه الرئيس وإدارته من قبلها.

وإذا وجدت سلسلة من المؤسسات الإسلامية في جميع أنحاء العالم ساعد ذلك على توسيع نطاق الأنشطة الإسلامية وأمكن إقامة مراكز تدريب ودعوة خبراء في مجالات الحضارة الإسلامية المختلفة إلى أن يسهموا بإلقاء المحاضرات.

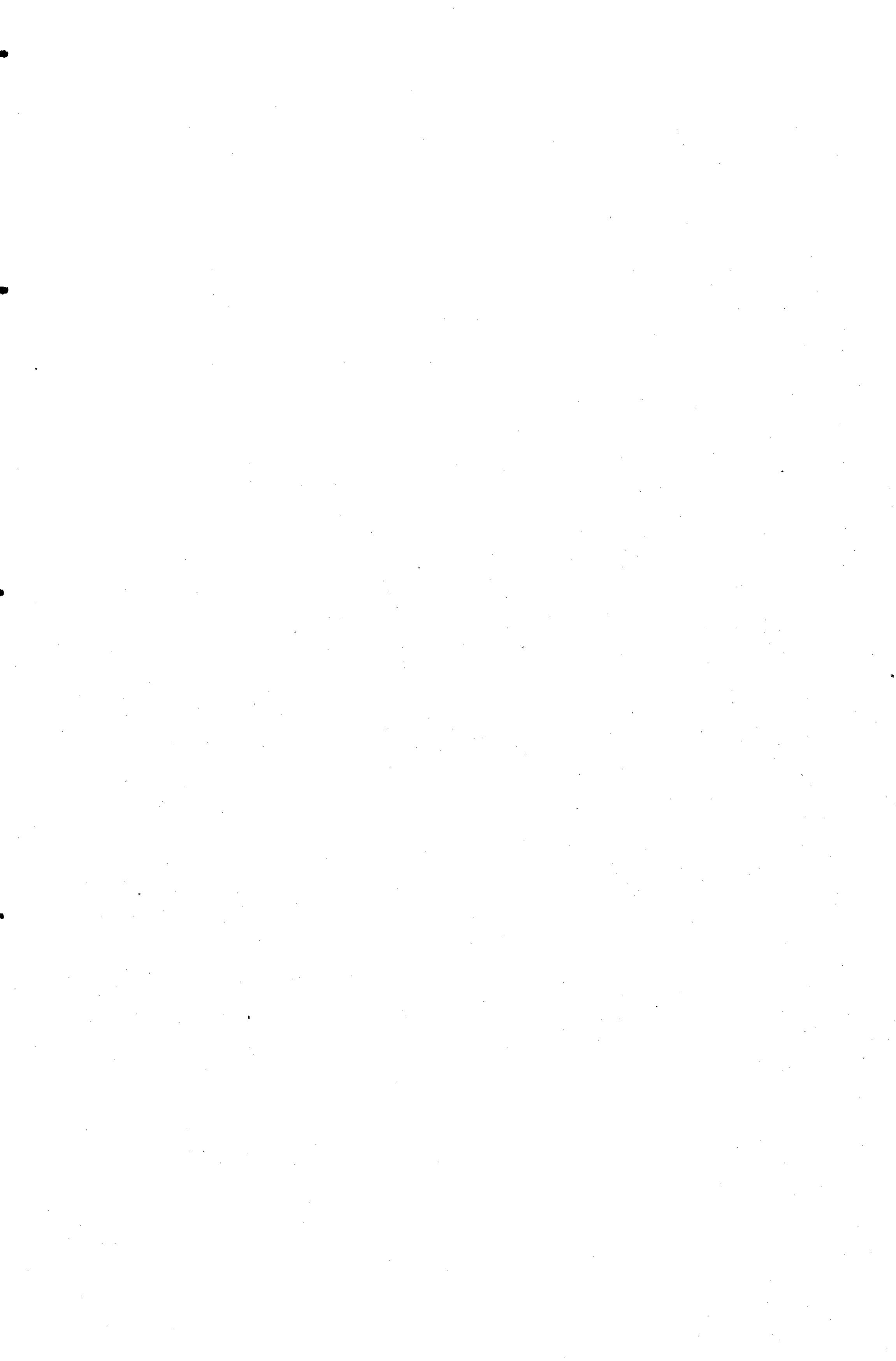
إن المركز الشرقي الغربي في هاواي قد وجه الدعوة إلى دول المحيط الهادي ليكونوا أعواناً ومساعدين في الموضوعات الطارئة التي تجد. ويمكن أن نتوسع في مشروعنا ببذل المنح المختلفة للطلبة النجباء الذين يبشرون بمستقبل زاهر، كي يقوموا بأبحاث إسلامية لصالح جميع المسلمين.

* * *

التراث العلمي العربي الإسلامي :

الشخصيّة الحضارية للعالم العربي

للدكتور علي عبدالله الدفاع
عميد كلية العلوم بجامعة البترول والمعادن بالظهران



بسم الله الرحمن الرحيم

إن لكل أمة حية تاريخها، يسجل تطورات الفكر الذي عاشته الأجيال السابقة، وليس هناك أجدر من التاريخ العلمي للأمة الإسلامية في عهد ازدهارها وسيادتها على العالم المعمور في العصور الوسطى، وهذا التراث العلمي الإسلامي الحافل هو عنـوان شخصيتهـا الحضارية، وقدرتها على العطاء للأمم الأخرى فقد أسهمت الأمة الإسلامية برسالتها في معارك المدنية الإنسانية، وقادت الركب الحضاري بطبها وفلكها ومعمارها وفنها ورياضياتها وكيميائها وتراثها الديني والعربي إلى التقدم والبناء خلال ألف سنة.

إن هذه الأمة الإسلامية لا يمكن لها أن تحمل مشعل الحضارة مرة ثانية دون أن تجلو هذا الصدأ عن تراثها، ودون أن تجعل منـه ركيزة قوية، ودعامة وطيدة لمستقبلها، فلا أمة عريقة بدون تاريخ وبدون تراث لأن فيه ذاتها، ولا بد للأجيال الصاعدة أن تتشبع به فهو مجال فخرها وعنوان رقيها وقاعدة انطلاقها.

وكثيراً ما ينكر بعض مدعي العلم في الغرب ما قدمه الغقل الإسلامي للحضارة الإنسانية من خدمات جليلة، ومنهم من يدعي أنه ليس بين علماء المسلمين من يقف في صف أويلر، ونيوتن، وقاوس، وفراداي، وكبلر وغيرهم. ويرجع هذا الجهل العقيم إلى أسباب، هي :

أولاً : عداوة بعض علماء الغرب للعلماء المسلمين نتيجة للتعاليم الصليبية التي ورثوها جيلاً بعد جيل.

ثانياً : إهمال العرب والمسلمين لتراثهم العلمي في مكتبات العالم، حيث ترقد الكتب دفينة ترابها. وكثيراً ما تسمع من بعض مدعي العلم من العرب والمسلمين المحدثين أن التراث القديم لا يعنينا وأنه خال مما يلائم العصر الحديث حيث أن آراء علماء المسلمين كانت بدائية تفتقر إلى النضج. وهذا في نظرنا جهل مطبق ومغالطة مفجعة تسيء إلى مستقبل الأمة العربية والإسلامية. إن الفكر البشري ينمو ويتطور كالكائن الحي. وقد اضطلع اليونانيون بدور أساسي في علوم الرياضيات مهد للدور الذي اضطلع به المسلمون وأبدعوا فيه أيما إبداع. وهذا الدور الإسلامي كان من ناحيته أساساً لنهضة القرن الثامن الهجري في أوروبا. وفي هذا يقول جورج سارتون في كتابه « **المدخل إلى تاريخ العلم** » : « إن الحضارة الإسلامية ظاهرة ليس فيها شذوذ أو خروج عن منطق التاريخ. فلم يكن هناك مفر من قيامها حين قامت. وقد أسدى العلماء المسلمون خدمة عظيمة إلى حركة تقدم الفكر وتطوره، منبعثين إلى ذلك بحماسة شديدة وحسن فهم. ولم يكونوا مجرد ناقلين، كما زعم بعض المؤرخين من المستشرقين، بل بثوا في ما نقلوه روحاً وحياة. ويتميز فضلهم على تطوير الفكر الرياضي بالحماسة المتناهية والفهم العميق ». وإلى هذا يضيف العالم الأوروبي وايدمان قوله : « ان المسلمين نقلوا عن اليونانيين بعض نظرياتهم واستوعبوها جيداً وطبقوها على حالات كثيرة متباينة، ثم أنشأوا من ذلك نظريات جديدة وبحوثاً مبتكرة فأسدوا إلى العلم خدمات لا تقل عما أسفرت عنه جهود نيوتن ».

وفي مقالة للدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا بعنوان **مدخل إلى تراث العرب العلمي وأهميته في تاريخ الحضارة** نشرت بمجلة الفيصل واختتمها بقوله : « لذلك فإن تجاهل العرب وإغفال دورهم في التاريخ يترك فجوات هائلة في مسيرة الفكر الإنساني والحضارة الإنسانية، ويزيد في صعوبات كل من يتصدر لدراستها وفهمها فهماً عميقاً شاملاً. إنه يعقد مهمته ويلقي عليه أعباء جديدة لا قبل له بها. ومع أن العلوم قد تقدمت اليوم تقدماً كبيراً هائلاً

تخطى خيال المفكرين العرب القدامى وتجاوز إنتاجهم العلمي بمراحل وأشواط لا تحصى إلّا أن هذا لا ينفي فضل الأسلاف على الأخلاف، ولا يقلل من دَيْنِ اللاحق للسابق. يضاف إلى ذلك أن الوقوف على التراث العلمي العربي ـ وإن تجاوزه الزمن ـ له فائدتان :

* الأولى قومية، وهي إشعار الجيل الجديد بقيمة هذا التراث وفائدته. إنه يحث همم علماء العرب المعاصرين على استئناف أمجادهم القديمة، وينعش فيهم الأمل والثقة بالنفس. فالأمة التي أنجبت : الكندي والرازي والفارابي وابن الهيثم وابن سيناء والبيروني والبناني وابن خلدون، وغيرهم ممن يزدهي بهم تراث العرب العلمي، هذه الأمة جديرة بإنجاب أمثالهم في الوقت الحاضر.

* والثانية أكاديمية، وهي تعريف النشء بتطور العقل البشري في بحثه عن الحقيقة واطلاعه على كيفية تكامل النظريات العلمية في العصور المتعاقبة وتعاون العلماء على إقامة صرح العلم.. حتى إذا ما تم له ذلك أدرك أن لكل عصر مفاهيمه الخاصة ونظرياته التي ينفرد بها دون سائر العصور. فالنظريات العلمية في تطور مستمر وتغير مطرد، لا تكاد إحداها تستقر في الأذهان حتى تنتقض بأخرى تحل محلها. ثم تدور الدوائر على هذه الأخيرة فتخر صريعة نظرية جديدة أكثر صموداً وأدعى إلى تلبية الحاجات والمطالب الجديدة. وهكذا دواليك. فكل عالم، وكل مفكر، وكل مبدع، كل واحد من هؤلاء يجب أن ينسب إلى زمانه هو، وأن ينظر اليه على أنه ومضة من ومضات، وشذا من أشذاء عطرة فواحة تنطلق من آن إلى آخر، وحدث في الملحمة الرائعة الكبرى التي خاضها قادة الفكر وأصحاب القرائح والعبقريات، بعصارة أدمغتهم وذوب نفوسهم وقلوبهم. فلو لم يكن في هذه الملحمة غير استنهاض بعض الهمم، وإعادة الثقة إلى بعض النفوس، وإحياء بعض الآمال، فناهيك بها نفعاً، فكيف إذا صحت بها العزائم وتحققت الأمال، ومن يدري، فلعل التاريخ يعيد نفسه، فليس بدعاً أن يعود التاريخ ».

وربما عرت الدهشة بعضنا وتساءلوا : فكيف تقدمت أوروبا في هذا العصر، بينما تخلف العالم الإسلامي، وهو الذي نشر الحضارة الإسلامية

يوم كانت أوروبا تعاني ظلاماً فكرياً وتعصباً دينياً وتخلفاً اقتصادياً لا حدود له. وتزيد أسباب الدهشة إذا راعينا الحقيقة المماثلة وهي أنه ليس بين مسلمي اليوم وأجدادهم في العصر العباسي اختلاف من النواحي الدينية والعنصرية والمحيط الجغرافي واللغة والأساس التاريخي. والواقع أن الدولة الإسلامية، بما دان لها من حضارة ومدنية، قد كانت قوة مسيطرة في العالم أجمع طوال خمسمائة عام، وظلت هي الرائدة في المجال العلمي حتى القرن الثالث عشر ولمدة مئتي سنة أخرى. ويعزى تأخر الدولة الإسلامية وتشتتها إلى ما تعرضت له من تفكك سياسي نتيجة للمطامع الشخصية والنزعات القومية والقبلية التي نهى الإسلام عنها، ولكنها ظهرت عندما ضعف ايمان المسلمين. وأخذ الفكر العلمي يتضاءل وتزايله خصوبته بعدما أصاب الدولة الإسلامية من محن وتمزق مهدت للغزو التتري والمغولي. وكان الغزو المغولي الضربة القاضية على الدولة الإسلامية، فخربت خلاله المدن ودمرت الحقول وقتل الملايين من البشر. وأصاب المسلمين بعد هذا الغزو الوحشي عجز عن استرداد قوتهم السابقة واستئناف ما كان لهم من منجزات علمية.

وفي القرن الثالث عشر الهجري الموافق للتاسع عشر الميلادي حط الاستعمار الأوربي في عقر دار الأمة الإسلامية، أعني مصر، التي احتلتها بريطانيا سنة ١٢٩٧ هـ (الموافقة لسنة ١٨٨٢ ميلادية)، ثم شمل الاستعمار البلدان الإسلامية فلم يسلم منه إلا بعض المناطق النائية. ولم تظفر دول العالم الإسلامي باستقلالها إلا بعد الحرب العالمية الثانية، وما زال أكثرها يعيش تحت القوانين التي سنها الغرب، وتحت أوضاع الاستعمار الثقافي والحضاري، وفي حالة من التفكك تورث اللبيب خشية على مستقبل هذه الأمة من الضياع والشتات. ولقد عاشت الدول الإسلامية، بما فيها العربية، تحت نير الاستعمار الغربي أدهراً طويلة، ونسي أبناء هذه الأمة ــ مع الأسف الشديد ــ الأسباب التي أدت إلى قيام أمة الإسلام وانتشارها من الصين إلى فرنسا بعد البعثة المحمدية بأقل من قرن. ولا ريب في أن نشأة تلك الحضارة انما تعود إلى التعاليم الإسلامية وما جاءت به من مبادئ سامية جعلت من العرب أمة واحدة بعد أن كانوا قبائل مشتتة مجزأة،

وجعلت من الشعوب الأخرى التي اعتنقت الإسلام أمماً لها في سير الحضارة الإسلامية دور عظيم.

وعسير على أمة غفلت عن أسس حضارتها حتى تردت إلى الحضيض راسخة طويلاً تحت نير الاستعمار الأجنبي أن تخرج من هذه الوهدة وتعود إلى تأدية الدور الذي يليق بها بوصفها « خير أمة أخرجت للناس » دون أن تعي تاريخها وتلقنه لأبنائها. ومازال التحدي الاستعماري الغربي لأمة الإسلام قائماً، يتمثل بصفة خاصة في العملاء الصهاينة الذين أنشأوا لهم دولة دخيلة في قلب العالم العربي الإسلامي ابتغاء تقسيم العالم العربي الإسلامي وتقطيع أوصاله جغرافياً وانشاء حالة من التوتر الدائم في وسطه وشن حروب متتالية تستنفد أكثر طاقات العرب والمسلمين وتصرفهم عن متابعة بناء مجتمعاتهم.

وقد بقيت اللغة العربية خلال القرنين الثاني والسادس الهجريين (الموافقين للقرنين الثامن والثاني عشر الميلاديين) لغة التأليف في مختلف المجالات العلمية لأنها لغة البيان والوضوح، ولأنها ذات ثراء واسع في الألفاظ ودلالات بعيدة في المعاني. وصدق أبو ريحان البيروني، الذي وصفه كثير من علماء الغرب بأنه أكبر عقلية في التاريخ، عندما قال في كتابه « **الصيدلة** » : « وإلى لسان العرب نقلت العلوم من أقطار العالم فازدانت، وحلت في الأفئدة، وسرت محاسن اللغة منها في الشرايين والأوردة، وإن كانت كل أمة تستحلي لغتها التي ألفتها واعتادتها واستعملتها في قاربها مع آلافها وأشكالها، وأقيس هذا بنفسي، وهي مطبوعة على لغة لو خلد بها علم لأستغرب استغراب البعير على الميزان، والزرافة في العراب، ثم متنقلة إلى العربية والفارسية، فأنا في كل واحدة دخل ولها متكلف. والهجو بالعربية أحب إلي من المدح بالفارسية، وسيعرف مصداق قولي من تأمل كتاب علم قد نقل إلى الفارسية كيف ذهب رونقه، وكسف باله، واسود وجهه، وزال الانتفاع به، اذ لا تصلح هذه اللغة إلا للأخبار الكسروية والأسمار الليلية ». وإلى هذا أضاف المؤلف فيليب حتى في كتابه « **تاريخ العرب** » : « لم يسهم أي شعب من شعوب الأرض بقدر ما أسهم المسلمون في التقدم البشري، وظلت اللغة العربية لغة العلوم والآداب والتقدم

الفكري قروناً متعددة في جميع أنحاء العالم المتمدن آنذاك، وكان من آثارها أيضاً أنه فيما بين القرنين التاسع والثاني عشر الميلاديين فاق ما كتب بالعربية عن الفلسفة والطب والتاريخ والفلك والرياضيات والجغرافية كل ما كتب بأي لسان آخر ». وصدق المؤلف المشهور جورج سارتون عندما قال في كتابه « **المدخل إلى تاريخ العلم** » : « حقق المسلمون، عباقرة الشرق، أعظم المآثر في القرون الوسطى، فقد كتبت أعظم المؤلفات قيمة وأكثرها أصالة وأغزرها مادة في تلك العصور باللغة العربية التي كانت من منتصف القرن الثامن الميلادي وحتى نهاية القرن الحادي عشر لغة العلم للجنس البشري. والحق أنه كان ينبغي لأي كان، إذا أراد أن يلم بثقافة عصره وبأحدث صورها، أن يتعلم اللغة العربية. ولقد فعل ذلك كثيرون من غير المتكلمين بها ». وجدير بالذكر أن اللغة العربية، لغة القرآن الكريم، كانت لغة الحضارة الإسلامية الوحيدة، وبقيت الوشيجة القوية الأصيلة بين الأمم الإسلامية، فحاربها الغرب بلا هوادة حتى انحصرت في الدول العربية العشرين. وحتى هذه الدول تعاني اللغة العربية فيها الأمرين من تجاهل أبنائها وجحودهم، ولا سيما في مجالات التعليم الجامعي وتدريس العلوم. وتفرض علينا الأمانة العلمية أن نقول انه : **لا عزة للأمة الإسلامية إلا واللغة العربية كريمة في وطنها سيدة في أرض العرب والمسلمين.**

وفي الختام يهمني لفت نظر القارىء للآتي :

(١) في دراستنا لتراثنا ربط بين المدنية القديمة والمدنية الحاضرة لنعرف إلى أي حد قامت الحضارة الحديثة على الدعائم وعلى التراجم التي نقلها جدودنا من الحضارات القديمة، وطعموا بها الحضارة الحديثة في وقت كانت فيه أوروبا غارقة في الظلام والجهل.

(٢) والموضوع ذو نفع تاريخي عظيم، لأن فيه تصحيحاً لأخطاء وقع فيها كثير من المؤرخين قصداً أو عن غير قصد، ليس في مجال العلوم البحتة فقط، بل حتى في أسس وقواعد الشريعة الإسلامية، ويكفي أن نكشف الغطاء عن روح التعصب السائد في كلام المستشرقين فقد بلغ بهم القول بأن (العقيدة الإسلامية) من نتاج العالم الغربي. ويكفي أن نقرأ كتاب

المستشرق المجري جولد زيهر (العقيدة والشريعة الإسلامية) لنقف على هذه الدعوة الباطلة ثم نعمل على تصحيحها هي وغيرها.

(٣) أن المدنية الحديثة قد نشرت طائفة من الأمراض السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وإذا قسنا حضارة الإسلام في عصوره الزاهرة، حيث كانت تسود الحرية والمساواة والعدل، بهذه المدنية الزائفة التي تعيش على المادة والوهم ازددنا يقيناً بأنه لا بد من أن نكشف عن ألوان حضارتنا ونقدمها للعالم الحديث.

(٤) ولا بد إلى جانب تحقيق التراث واعادة نشره في صورة علمية، وبيان أصوله التي اعتمد عليها الغرب في حضارته، لا بد أن نعرف الجانب الكبير الذي أدته الترجمة باعتبارها الوسيلة الفذة للوقوف على تراث الأمم، ولكن هذه الترجمات ينبغي أن تكون أمينة ودقيقة، وأن يقوم عليها الأشخاص الذين يحسنون اللغات.

وفي الختام لا يسعني إلا أن أقترح أن تقرر مادة التراث العلمي العربي الإسلامي مادة اجبارية على المستويين الثانوي والجامعي في البلاد العربية والإسلامية على السواء، لأن هذا التراث لم ينل بعد ما يستحقه من عناية في مدارسنا أو جامعاتنا، ومن هنا تجيء أهمية تشخيص دور التجديد الذي لعبه (المسلمون) وبيان ابداعهم على المستوى الشعبي والرسمي ابان العصور الوسيطة، وأعتقد أن الأهداف الأصيلة من وراء تدريس هذه المادة هي :

(١) ان التاريخ الإسلامي وتاريخ الأدب العربي والحمد لله وجدا من الدارسين العناية الكبيرة، ولكن الضلع الثالث لهذا المثلث لا يزال ينتظر، وإن كان هناك بعض المقالات والكتب التي كتبت في مجال التراث العلمي العربي الإسلامي في الشرق والغرب، تعتني بالتراجم وسرد المؤلفات، ولكنها تفتقر إلى الكشف عن الجوانب التطبيقية والإبداعية، واقامة البراهين الحديثة على صحتها وخلودها.

(٢) ان تراثنا العلمي الإسلامي، كانت دراسته ولا تزال مقصورة على

المستشرقين، فهم الذين عملوا في هذا المجال ومع شديد الأسف أنهم كانوا غير منصفين. لذا وجب علينا اليوم أن نتسلم مقاليد تراثنا، فنحن أعلم منهم باللغة والتاريخ والجغرافيا.

(٣) مدى تطويع التراث العلمي الإسلامي، لأن يصبح تاريخاً يملأ جوانب حياتنا التعليمية والحضارية، لا سيما وقد استهدفت الأمة العربية على مر العصور التاريخية لمحاولات النيل منها علمياً وحضارياً بطمس معالم تراثنا (العربي الإسلامي) والتقليل من قدرة العقلية العربية على الابداع والتطوير.

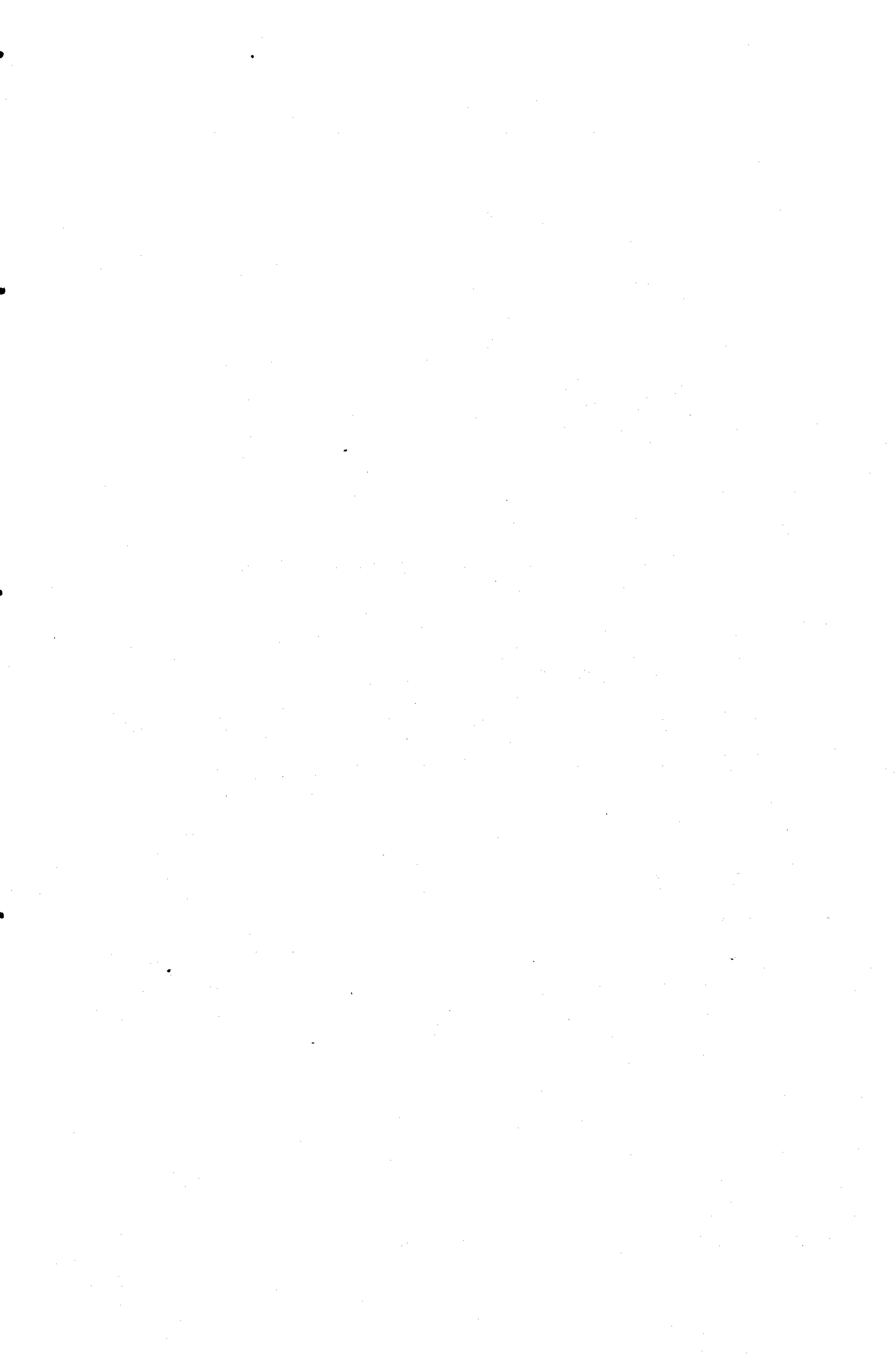
(٤) معرفة الجهد الذي بذله أجدادنا القدامى في هذا المضمار، حتى نقل عنهم العالم عشرات العلوم والفنون من فيزياء ورياضيات وكيمياء وطب وصيدلة ونبات وفلك وغيرها، وبذلك ولدت النهضة الأوروبيةالحديثة.

(٥) التعريف بمقومات وأسس هذا التراث العلمي، وذلك ليس بالموضوع السهل، لأن آثار هذا التراث الإسلامي لا تقتصر على باب واحد، بل هي أبواب متفرقة تشمل العلوم الطبيعية والرياضيات والفلك والكيمياء وغيرها وكل فرع من هذه العلوم في حاجة إلى متخصص عالم بتاريخ هذا الفرع.

* * *

تفوّق الإسلام في مجال الفنون المرئية ودور الشباب المسلم
في حفظ وتنشيط هذا التراث

للدكتور سيد برويز منظور



بسم الله الرحمن الرحيم

تعتبر اليقظة التدريجية للمسلمين وحركة إيقاظ التراث الإسلامي القديم وإعادة السيطرة على القوة السياسية ومفاهيمها اللغوية من بعض التعبيرات الخالدة في الحياة الحديثة للمسلمين، وهذا ما نشاهده بشكل أو بآخر. فهناك اتجاه فكري عظيم ونتيجة لذلك مناقشات علمية فيما يتعلق بالإسلام وقيمته الإيجابية ودوره في العالم الحديث وقدرته على حل جميع المشاكل الصعبة التي يعاني منها عصرنا ـ ومع ذلك فإن آثار السيطرة الأجنبية لم تواجه بعد بصورة كاملة، والأحداث الحزينة للحرمان من القوة السياسية بدأ يسمع صداها في أنحاء العالم الإسلامي الذي قد عانى بشكل أو بآخر من فقدان المكانة الذاتية. وقد قبلت طبقة المثقفين المسلمين التي شكلها الغرب باستسلام وبدون تحفظ أي حكم ثقافي غربي فيما يتعلق بالإنجازات الفكرية للحضارة الإسلامية. ولحسن الحظ فهناك دلالات لنهضة فكرية قوية بين الشباب المسلم، كما هو مشاهد في الترتيبات لمجموعة اللقاءات عن الحضارة الإسلامية التي تنظمها الندوة العالمية للشباب الإسلامي. واستنتاجاً من ذلك فإن كل فكر أجنبي غريب ـ مهما كانت درجة حداثته أو مكانته العلمية أو أهميته لا بد أن يفحص تحت الأضواء القوية الساطعة للعقيدة الإسلامية. وكذلك فإن الحضارة الإسلامية كلها يجب أن ترى سواء من ناحية إنجازاتها الإيجابية أو من

ناحية فشلها، من وجهة نظر العقيدة الإسلامية، وما يتلو ذلك فهو محاولة متواضعة لتقويم جزء من حضارة تراثنا الإسلامي، وهو لسوء الحظ قد عانى كثيراً من الخضوع للأنماط الغربية. ومما يؤسف له، أنه حتى المتعلمون منا لا يدركون إنجازات حضارتهم الإسلامية في هذا المجال ولا يدركون أيضاً إضافاتنا للتراث الحضاري والثقافي والفكري للبشرية.

والفن الإسلامي هو فن تجريدي هندسي إنشائي منطقي، ومع ذلك وبالرغم من اتجاهه الفكري العميق، إلا أنه دائماً مرتبط بأنغام الحياة الأزلية، فإنه فن حركي وحركته الطبيعية لا يمكن وضعها تحت أي موضوع فيه - ومع ذلك فإنه فن متناسق وهادئ خال من أي توترات. وحركته الحرة لا هدف لها، وإن انسجامه الدائم لا يكل واستمراريته الرزينة لا تتغير. وهو يحاول إعطاءنا فكرة لا حدود لها عن جمال الخالق كما يقول الشاعر الصوفي جلال الدين الرومي.

والفن الإسلامي يحاول التعبير عن الومضات السائدة لجمال خلق الله، وحتى لا تشوب هذه النظرة جمال خلقه، فإنها تخضع دائماً لعظمة الله بوقار يشوبه الإجلال، ومع ذلك فإن هذه النظرة تعطي صمتاً فيه بلاغة كبيرة. وفي مواجهة سر هذا الجمال، فإن الفن الإسلامي لا يقف مشلولاً أمام وقار ورهبة هذا الإجلال لعظمة الخالق. ومهما كان من أمر فإن مدلول الحقيقة هو أن الفن الإسلامي بإعلانه أن المجال الديني هو عالمه قد تعدى حدوده إلى جميع أنواع التصور سواء رمزية أو خلاف ذلك.

ومن شهادة التاريخ الغير عادية والتي تدعو لكل استغراب هو أن العبقرية الإسلامية المبدعة قد أنتجت نوعاً من الفنون العنصرية الجديدة لم يعرفها العالم من قبل. وعندما أدركت اليهودية حقيقة عدم وجود شيء في الطبيعة يمكن أن يستخدم كوسيلة دينية فإنها فقدت قدرتها على الإبداع في مجال الفن المرئي لأي نوع، وركزت كل طاقاتها في مجالات أخرى. بينما الإسلام قد وجد حلاً ليس فقط لهذا الطريق المسدود، وإنما بما له من حل ممتاز.. وعند هذه الإشارة فهناك ما يبرر لنا بوصف الفن الإسلامي كفن معبر عن وحدانية الله.

وفي فن الأرابيسك نجد العبقرية الإسلامية قد شكلت صوراً مرئية لأشكال لها حدود الصورة نفسها. وفي فن الكتابة الدينية فقد وجدت الروح الدينية بديلاً حيوياً وعوضاً فكرياً وتصويرياً للصورة نفسها. وأخيراً أصبح العالم حساساً بجمال الفن الإسلامي. وبعد مرور أحقاب من الزمان. على الإهمال وسوء التفسير والعداء حتى لدرجة الإدانة، أخذ الفن الإسلامي مكانته المرموقة المحترمة، واعتُرف أخيراً بعظمة الفن الإسلامي كفن ديني ورمز واضح لها، للروح الإسلامية الدينية.

وأخذت إضافته الموضوعية كمفهوم عظيم نتيجة الوحدة الإسلامية وتفسيراً لها أدى للتصوير الإحساسي الإسلامي بالقدسية بدل من أن كان يشار إليه كفن تجريدي بربري ـ وهو الدور المتحيز العنصري ضد تمثيل الأشكال الحية. فوحدة الأسلوب بتنوعها الذي يدعو للإعجاب وتصويرها الإبداعي الذي لا حدود له ـ كل ذلك قد ظهر بالتدريج أمام أعيننا. فإعجابنا واحترامنا لهذه الإنجازات ينمو مع فهمنا لأسراره، ومن دواعي السخرية، أنه بينما تحاول المدارس العلمية الغربية تصحيح حكمها عن مزايا التراث الفني الإسلامي، فإننا نجد العالم الإسلامي نائماً في سبات عميق ومستمراً في التحيزات التي رفضها الغرب الآن بكل شهامة.

وعلى خلاف الأجيال الإسلامية السابقة، وهم الذين شاهدوا شجب الفن اليوناني القديم ورفضه على أساس قلة قيمته الفنية بالنسبة لهم أمام مفهوم التوحيد الإسلامي فإننا في العالم المعاصر قد حرمنا من كل تقدير جمالي يمثل هذا القدر، وإننا نستسيغ ونهضم بدون تمييز كل ما هو رخيص، كما نبلع التعبيرات للفن الإنساني الغربي. بدافع عقدة النظريات الطبيعية والتقليد الأعمى الذي يقوم به كل فنان مسلم، ومن الإهانة المباشرة ما تتوجه إليه أكاديميات الفنون الحديثة في العالم الإسلامي حيث تمارس ويدرس بها جميع الأنماط الفنية فيما عدا النماذج الجمالية للفن الإسلامي ـ هذا شيء مخز ومن العار التباهي بعرض التماثيل في الميادين العامة في بعض البلاد الرئيسية في ديار الإسلام. كل هذه الحقائق تشير إلى اندثار الفن الإسلامي. وهذا مؤلم جداً لشخص مثلي حساس جداً للجمال الخالد

والروعة الفريدة للفن الإسلامي، وإنني لست فقط أعتقد بأن الفن الإسلامي هو من أرقى وأعظم أعمال الحضارة الإسلامية وأنه يعكس وباخلاص تام مبدأ الإسلام في التوحيد، وإنما هذا الفن أيضاً إذا ما قدرت قيمته الحقيقية فإنه يجب أن يوضع كأرقى مفهوم للجمال التصويري الأصيل قام به الإنسان. ومع ذلك فإن سوء الفهم ما زال قائماً ـ حتى بين المسلمين أنفسهم ـ بأن الإسلام لم ينتج فناً بسبب تحريم التشخيص الفني ـ وهذا هو مفهوم بعيد عن الحقيقة. وفي لغة رقيقة مميزة لعالم فاضل، نفى الأستاذ اسماعيل الفاروقي هذه التهمة بالكلمات التالية :

« حاول الفن في الإسلام تحقيق نفس المهمة الرفيعة الإنسانية المحققة للذات ـ وقد تم ذلك بواسطة تذكير الإنسان باستمرار بوجود الله. وأن ذات الله ليست على شكل إنسان. والنموذج الإسلامي للفن لم يرتكز على الشر ولم يكن متغطرساً أو مثالياً. فهو فن إنساني نظم نفسه بالإحساس بأن ذات الله لا تمس. فهل يكون بذلك فناً محدوداً ؟ بالتأكيد... ولكنه فن محدد بالقيم السماوية التي تبدأ (من حيث التعريف) باللانهائية : وبالقيم التي (تتناسب) (وترى) عندما نقف أمامها بدلاً من أن (تتلخبط) مع بعضها البعض. ولأن كلاً من النوعين من القيم متناسقان معاً، فإن (اللخبطة) بينهم بواسطة الإنسان تصبح محتملة فرضاً. فالشرير دائماً يكون سعيداً بنفسه. إن عظم الفن الإسلامي من عظم الدين الإسلامي نفسه. إنه يتقدم باستمرار ولكنه كفن دائماً ما يقيم الحاجز بينه وبين حقيقة ذات الله ».

وهنا نؤكد العلاقة بين العقيدة الإسلامية والأعمال الفنية التي قام بها المسلمون من قرون. وبذلك نرى ماذا كانت تحتوي أعمالهم الفنية الإسلامية وإلى أي مدى كانت رؤيتهم لهذه الأعمال إسلاميةً ؟

المبادئ الروحية والميتافيزيقية للفن الإسلامي :

لم ينشأ الفن الإسلامي من فراغ. فقد ورث الإسلام كل التقاليد الفنية للثقافات والأديان القديمة وقد استشفها واحتواها بسرعة غريبة. ومع ذلك فإن تطور أنماط التعبير الجمالي الإسلامي بصورة خاصة إجراء بطيء وتدريجي،

وهذه الأنماط في ذاتها جزء من الإحساس الثقافي للعقيدة الدينية.

وبدايات الفلسفة الإسلامية للفنون التشكيلية، التي بلـغت أقصى درجات ظفرها في ديار الإسلام، ممكن أن ترى بصورة غير واضحة كجزء من القرار الواعي للعقيدة الإسلامية التي كانت تتحكم فيها الشريعة في القرنين الثاني والثالث من التاريخ الإسلامي. وعلى أي حال فإن اتجاه النشاط الفني في مجال الفنون التشكيلية أيضاً ـ والإخلاص لهذه المفاهيم الإسلامية مطلوب من الفنانين المسلمين، ولا يمكن قبول أي موقف منحرف عن هذه المبادىء الأساسية على الأقل في مجال الفن الديني ـ وسيكون هذا الموقف الديني الصلب ضرورياً وله فائدة عند النظرة للماضي عمّا إذا كـان الفن الإسلامي ـ كباقي الأديان القديمة ـ قد انحدر إلى صناعة الأصنام ـ أو بقيت صفحته طاهرة ـ ويمكن تلخيص المواقف الأساسية للتصوير الفكري الإسلامي ـ وهو الذي استشف من المفهوم لوحدانية الخالق :

١ ـ نفي وجـود الصـورة :

إن الحقيقة المطلقة في نظر الإسلام ـ : تنبع من الله، إنه أسمى من العالم الذي خلقه. والعالم زائل ولكن الله باقٍ، « كل من عليها فانٍ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام »[1]. والله الواحد لا شريك له من أي نوع ولا يوجد شيء مطلقاً يشبهه. والفن الذي ينبع من وحدانية الله لا يمكن أن يقبل أي صورة خيالية ترسمه من الطبيعة لتكون بداية لهذه الطبيعة التي خلقها الله. فالفن الإسلامي ينفي وجود هذه الصورة، وعلى العكس فإن هذا هو الموقف الإيجابي أيضاً كما ذكر ذلك (تيتوس بيركهارت) : « إذا حذفنا جميع الصور المجسدة لله والموجودة في الإطار الديني على الأقل، فإن الفن الإسلامي يساعد الإنسان على أن يجد نفسه كلية، ولا بد من عرض النفس خارج النفس، كأن يتركز في دائرته الذاتية حيث هو خليفة الله وعبده. والفن الإسلامي بصورة عامة يهدف إلى خلق كيان يساعد الإنسان على إدراك قيمته وعلى ذلك فهو يتجنب كل ما يمكن أن يكون صنماً ـ

---

(١) سورة الرحمن آية ٢٦ ـ ٢٧.

حتى بأي درجة لشبيه، فلا شيء يقف بين الإنسان ووجود الله ».

٢ ـ الفن التجريدي :

بالرغم من أن الله ليس مجرداً فإنه موجود في التفكير الإسلامي بطريقة مجردة، فإن عبارة « لا إله إلا الله » تعتبر من أكثر العبارات المجردة عن الله الحي الموجود، وكما أن الإسلام لا يضفي على الدين أي لباس خرافي أو نداء مجسد لله الخالق، فإن الإسلام غير ملزم بأن يقبل الصورة التجسيدية، أو على الأقل الصورة الإنسانية. والفن الذي يشارك الإسلام عاطفته في التجريد سوف يفضل الفن غير التجسيدي.

٣ ـ الكلمة المصورة :

وفي الإسلام بالرغم من أن الله ذو الجلال لا يوجد له شريك في الملك، فإن هناك علاقة وثيقة بين الإنسان وربه. فالإنسان ليس فقط خليفة الله.. ولكنه بالمفهوم الشامل قد قبل حكم الله في جميع المناسبات. ونموذج هذا البيان في الإسلام هو القرآن الكريم. وهو موجود بين أيدينا كاملاً بدون تحريف. وبالإضافة إلى ذلك فإن شكل هذا البيان الإلهي هو حكم معبر بالكلمة وليس مرئياً أو إحساسياً وهذا يضفي تأكيداً كبيراً للإجراء الفكري عن الإجراء الحسي، أو تفوق الروح على الإحساس وجميع النشاطات الفنية للفنانين المسلمين تتركز في تجميل كلام الله (وهو القرآن) سواء بالكتابة أو التجويد ـ وحتى الآن يبقى المسلمون بدون منافس في مجال فن الكتابة الدينية، وفن التجويد الجميل للقرآن.

٤ ـ التصور الذهني :

وكما صور الإسلام الإنسان « ككائن حي » فقد منحه الله ذكاءً، وهو قادر على الإدراك المطلق، له إرادة قادرة على اختيار ما يؤدي به إلى المفهوم المطلق، « هذا وقد منحه الله أيضاً القدرة على الكلام والقدرة على الإدراك. فقد خلق الإنسان قادراً على فهم الدعوة السماوية، ومن وظيفة الذكاء في الإسلام إنقاذ الإنسان من الخطيئتين الكبيرتين وهما : الكفر والشرك بالله. والذكاء في حد ذاته ليس تأكيد المعرفة عن الوحدة المطلقة

ففي الإسلام يعتبر الذكاء هو القدرة التي تنقذ الإنسان. ويضع الإسلام ثقته في ذكاء الإنسان ويؤكد بجرأة أن أساس التجربة الدينية هو المعرفة النقدية. وعلى عكس الديانة المسيحية فإن الإسلام لا يميل إلى وضع تشبيهاته على شكل متناقضات، فلا يوجد أي إجراءات غامضة أو طقوس ذات طابع سري فكل الإجراءات الدينية الإسلامية معروفة ولا سر فيها ـ فهي عامة وجماعية. وهذا الاعتماد الفريد على الذكاء الإنساني ـ سواء في التعرف على الله أو في خدمة المجتمع ـ ترك آثاره على الفن الإسلامي. فرؤيته دائماً واضحة، فكرية ومتزنة. والمعمار الإسلامي يرفض بشدة أي توتر أو غموض أو إبهام، وجميع إنشاءاته تنم دائماً عن شفافية منطقية، وتوازن واضح وهدوء الموضع، فإنه يبهج في وضوحه وضوئه هازئاً بكل غموض وظلام. والرؤية الفكرية في الفن الإسلامي غالباً ما تظهر عاطفتها وحبها للهندسة والحساب وهذا ليس له أي مثيل في أي مكان آخر.

٥ ـ الطابع الانسجامي :

يرى الإسلام نفسه كدين طبيعي (دين فطرة)، وعلى ذلك وصف المسلمون في القرآن (بالوسطية)، وكل شيء في الإسلام في انسجام مع الطبيعة الداخلية للإنسان لأن هذه الطبيعة الداخلية عندما تتقى بواسطة القوة الدينية الموجودة في العقل يؤدي إلى مفهوم وحدانية الله المذكور في القرآن. وعلى عكس ما هو موجود في الديانات العالمية الأخرى وبصورة خاصة على عكس ما هو موجود في المسيحية فإنه لا يوجد أي توتر داخلي بين الإنسان وربه. ولا يعترف الإسلام بالخطيئة الأصلية ولا يوجد أي حاجة إلى إجراء طقوس للتضحية أو إلى الخلاص المقدس. وهذا الانسجام الكامل للعقيدة الإسلامية تعكسه بإخلاص الطريقة الإسلامية في الحياة، مما يثير دهشة أي دارس غربي للدين الإسلامي. وأمام ذلك يقف الدارس الغربي مبهوراً ويقول :

« إن سحر الاقتراب والإحساس بالسرعة التي وصف به هيجل الإغريق وهو الذي قال عنهم « ان الروح تسقط » ـ هذا السحر تشاركه طريقة الحياة العربية التقليدية ـ فهذه البساطة السامقة التي تمتع بها اليونانيون من البداية، وعن طريق اتصالهم الجمالي بالعالم، تشكل أيضاً

لأسباب عديدة وبطرق مختلفة أي طريقة (إسلامية) في الحياة. فالتمثال اليوناني الذي أقيم في أزهى العصور يبدو أنه قد جاء نتيجة آلة الحفر التي صنعته وأنه مفصول عن الطبيعة التي هي كاملة وعن الإنسان الذي يحاول التمثال أن يجسده.. وبنفس المفهوم ــ وبالرغم من ذلك في الإسلام فإن الحياة التقليدية في الإسلام لها صفة الاكتمال. فهي حرة عن أي خطيئة أزلية ودائماً في انسجام مع نفسها ومحببة إلى الله. وبدافع الغريزة ترحب بكل عاطفة ولا ترفض إلا كل ما قد يعتبر وسيلة لأشياء محرمة. كالقمار والربا والزنا.. وعلى ذلك فلها كما كان للفلسفة اليونانية القديمة ــ سر قد فقدناه نحن. وفن النحت اليوناني من ناحية والسلوك الإسلامي من ناحية أخرى هما مثال للتناسق والإحساس بالاقتراب الإنساني ».

والفن الإسلامي بلا شك، هو في انسجام كامل قد نجح في حفظ التوازن والتناسق والتساوي مع الطرق الإسلامية في الحياة في مجال التصور الجمالي.

الإسلام ضد أوروبا :

إن المجرى الحيوي في التفكير الأوروبي يرتكز في الإنسان. فالإنسان ــ وليس الله ــ يستحوذ كل الاهتمام في الروح الأوروبية الفاسدة كما مثلها الشاعر الانجليزي (اسكندر بوب) عندما قال :

« اعرف إذن نفسك ولا تتبع طريق الله في دراستك الحقيقية ــ فإن الإنسانية هي الإنسان ».

وحتى في المجال الديني فالإنسان ــ حتى الإنسان المؤله ــ هو الدخيل الذي حل بنجاح محل الله كنوع من التكريس والاهتمام. فالآلهة الوثنية في الماضي كانت في حقيقة الأمر وفي شتى أشكالها ــ إنسانية وحتى الإله المسيحي فهو إنسان مؤله. وعلاوة على ذلك ــ فكل المنظورات التالية للفكر المنطقي الأوروبي التي تواجهنا الآن تحت قناع الماركسية أو التحررية، إنما هي دين دنيوي بصورة رئيسية وقوانين كافرة من صنع الإنسان. وهكذا أصبح الإنسان مقياساً ومحوراً لكل الفنون الأوروبية. فكل الفنون التشكيلية

هي تنويع لموضوع واحد وهو جسد الإنسان. إنها تركزت للفن العادي واستعملت شخص المسيح كرمز لكل ما له معنى في مبادىء المسيحية، كالعاطفة والمسرحية، وتصوير البعث. الخ.. وهو الفن نفسه الذي يقود الملوك والنبلاء في شكل الفن التجسيدي وهو كذلك يسيطر على الطبيعة، وعلى عكس الفن الموجود في الشرق الأقصى فإنه امتداد للذات الإنسانية. وقد عبر ناقد أوروبي فذ مشهور شديد الحساسية بمكانة تراثه الفني وبطريقة شعرية عن المبادىء والمفاهيم للفن الإنساني والفلسفة التي يرتكز عليها بقوله :

« إنها تأخذ الأجزاء الأكثر حسية من جسم الإنسان والمثيرة للاهتمام تبقيها بعيداً عن الشهوة وعن تأثير الزمن. ويحتاج الأمر إلى عمل ذلك لمفهوم منطقي ونظام حسابي لتجعلها محببة للحس، وتجسد كل ما يخيف من المجهول واللامعروف وتعطيه مذاقاً حلواً وذلك بإظهار الآلهة مثل البشر وربما يعبدونها كمعطية للجمال في الحياة ».

ولسوء الحظ بالنسبة لمؤرخي الفن الغربي فإن هذا الارتباط العاطفي للجمال الإنساني كان يمثل قوة عمياء لكي تشل كل أحاسيس الحكم النقدي في شرحه للتراث غير الموضوع عن أساس مفهوم النظرية الطبيعية ـ كالإسلام ـ مثلاً. وهناك فنان على درجة عالية من الفهم وهو (أندريه مارلو) قد ادعى أن الفن الإسلامي بسبب تصويره التجريدي يعتبر « فناً ثانوياً، ليس فقط لأنه لا يجسد الإنسان، ولكن لأنه أيضاً لا يعبر عن الإنسان ». ونحن هنا لا نعارض العالم الأكاديمي (مارلو) لما هو في صالح الدين والفن ولكن يجب أن نقبل أن الفن الإسلامي أولاً غير مهتم بتجسيد الإنسان، وذلك لأن الإنسان هو « ممثل للعاطفة والدراما ».. الخ. وبالرغم من ذلك، فإننا يجب أن نؤكد أن الفن الإسلامي لا يهمل الإنسان، ولكنه ينظر إليه بطريقة مختلفة عن الفن الأوروبي. ومن وجهة النظر الإسلامية، فالإنسان أساساً كائن ذكي وليس مجرد كونه من اللحم والعظم، وإذا لم يوجد أي تصور إنساني في الفن الإسلامي بالمقارنة إلى الفن التقليدي اليوناني مثلاً فذلك بسبب **أن الإسلام يعتقد أن الإنسان هو الإنسان، ليس لمجرد ما**

فيه من عضلات، ولكن لسبب عقله، وهو ما يميز الإنسان عن المخلوقات الأخرى وما يربطه بالله. وعلى ذلك فالجسم الإنساني قد رفض كرمز تجسيدي للإنسان في الفن الإسلامي، ويرفض هذا التجسيد الإنساني، فقد أوجد الفن الإسلامي تنوعاً للتصور الفكري يدعو للإعجاب وعن طريق فلسفة جمالية وضعت على أساس العقل والتجريد الذي رمز به **باللغة، والهندسة، وفن الكتابة الدينية، والأرابيسك**، أظهر الفن الإسلامي تقديره للفكر البشري دون تجسيد للإنسان، أما فيما يتعلق بالفن الديني الأوروبي، فالإنسان المسلم يؤكد بكل صدق وحيادية أن أعظم الأعمال الفنية الدينية القائمة على المفهوم الغربي للإنسان كأعمال (أنجلو) في كنيسة سستن لا تحرك أي عاطفة دينية بالمرة في نفس المشاهد المسلم. فلا يوجد فيها أي شيء يعبر عن الطبيعة الإلهية بالضبط، فكل شيء مجرد غرور وخداع للنفس وتكبير للأصنام. فالمسلم يواجه هذه الكتل الضخمة من اللحوم والعضلات بحزن عميق، واحتقار وربما الغضب. فهل هذا فن عظيم ؟ محتمل.. ولكنه بالتأكيد تعبير عن دين فاسد.. وأن على أساس مواجهة الفن بهذا الشكل عرف المسلم كم هو محظوظ بالإسلام لأنه لم يسمح بأي تجسيد خداع لذات الله.

فن الكتابة الإسلامي.. الأنشودة المرئية للجمال الفكري :

ومن كل العناصر الفريدة للفن الإسلامي ربما لا يوجد فن آخر يؤكد شخصيته بقوة كبيرة أكثر من فن الكتابة الإسلامية، فالكتابة الإسلامية أولاً وقبل كل شيء هي منهج جمالي للتعبير، عن طريقها وصلت العبقرية الفنية للشعوب الإسلامية أقصى درجاتها في مجال الإبداع الفني. والكتابة في حد ذاتها فن ديني إسلامي حيث تتقابل الروحانية الأصيلة والإبداع الجمالي للمسلمين في اتجاه مثمر. ومن الممكن لكل مسلم مهما كانت نظريته الخاصة في العقيدة الإسلامية أن يشارك ويستمتع بالجمال السارح للكتابة العربية. وعن طريق فن الكتابة العربي حاول العقل المسلم أن ينفذ التعبير الجمالي لكلمة الله، يمكن أن تفهم بالمنطق العلمي، إنها خليط عام من

الجمال والتفكير، خليط من الجمال المرئي مع المعنى المنطقي. والكتابة بدون شك هي الأنشودة المرئية للإسلام للجمال الفكري.

ومنذ سنوات، وأثناء مشاهدتي كنيسة أياصوفيا وهي كنيسة يونانية وإحدى المباني المشهورة على مر العصور، فقد قمت بتجربة مثيرة واكتشفت ـ كصدمة مفاجئة ـ التجسيد للبيان الجمالي الإسلامي ـ فأصبح هذا المبنى التذكاري العظيم، وبدون إجراء أي إزالة جذرية أو حتى مجرد حذف منه، فبواسطة إضافات بسيطة لبعض الكتابات القرآنية على سقف القبة فقد كل طابعه المسيحي. وفي نظري ان إقامة هذه المآذن العثمانية الفخمة الجديدة لم تنجح بشكل مؤثر في تغيير الجو المسيحي للبناء كما فعلت تلك الكتابات الثلاثية الموجودة بالداخل. فالعبقرية الإسلامية قد أضفت بذقة وباقتصاد بليغ تعبيرها الجمالي. ومع ذلك وبالرغم من بساطة التعبير، فإن بلاغة النطق تدوي كالبرق وسط الظلام ـ كما أضاءت الظلام من داخل القبة.

إن الحقيقة الكاملة ـ طبقاً للإسلام ـ ممكنة للإنسان عن طريق العقل والبيان ـ فالإنسان ـ كما ذكر سابقاً هو مخلوق ذكي قادر على إصلاح نفسه عن طريق الاستعمال النشط للفكر ـ وعلى أسوأ الأحوال إنه مقيد بقدرته الفكرية وفي حاجة إلى البيان لكي يكيف ذكاءه إذا انحرف تفكيره. وعلى عكس المسيحية فإن الإنسان ليس بخاطىء ذو نفس ثائرة لا يغفر له إلا عن طريق التضحية المقدسة. فالذكاء الإنساني في الإسلام له أفضلية على الإرادة الإنسانية فقد بيّن الله نفسه فقط في عالم الفكر وليس عن طريق الإحساس، والاتصال الإنساني بالله ـ طبقاً للمفهوم الإسلامي ـ يجب أن يكون ذا طبيعة معينة وهي عدم المساس بذات الله. بعد هذا الاتصال لا يمكن أن يكون إلا في فكر الإنسان فقط. وحتى عند ذلك لا يكون اتصالاً بذات الله، ولكن بإرادة هذه الذات العلية. وسواء عند الرسول أو في عقل أي إنسان توصل إرادة الله بالكلمة. ولأن المفهوم قد يكون عن طريق الكلمات فإن هذه الكلمات تفهم عن طريق العقل البشري بواسطة التفكير.

إن مثل هذه المعرفة ليست رئيسية ولكنها أساسية ـ وأول الآيات التي

أوحيت للرسول عليه السلام تبين هذا التداخل بين البيان والعقل، وبين علاقة الوحي والمعرفة الإنسانية :

« اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، إقرأ وربك الأكرم الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم »[1].

ولم يذكر الله الإنسان فقط بأن وجوده بالرغم من طبيعته العضوية والحيوانية (العلق)، فقد رفعه عن طريق المعرفة الإلهية التي أوحاها له ولكن هذه المعرفة قد علمت الإنسان عن طريق القلم ـ فالقلم ـ كما يبدو ـ يقف كرمز للكتابة وبعبارة أخرى رمز للتفكير نفسه. وطبقاً للتراث الإسلامي فإن القلم يشير في الواقع إلى (العقل الأول) ـ أول خلق الإنسان.

وقد استشهد الطبري بحديث لرسول الله ﷺ[2].

إن هذا الإحساس القرآني بالمجتمع الإسلامي الذي جعله ينشىءفناً جديداً، فن الكتابة العربية الإسلامية (الذي يعتبر أرفع وأسمى فن يوحي بالإحساس بوجود الله). وعندما تم ذلك، فقد حقق الفنان المسلم رباطاً حقيقياً، بين العقل والجمال والتنوع ـ فالشاعرية أصبحت الوسيلة السامية للتعبير الفني للحضارة الإسلامية ـ فطالب العلم المسلم يعبر عن ذلك بالكلمات الآتية :

« إن الكتابة العربية قد حولت وسيلة التعبير الممتازة للإدراك المتنوع ونعني الحروف الأبجدية أو الرموز المنطقية ـ إلى مادة فنية حسية، كوسيلة جمالية ومثيرة للغريزة الجمالية. وهذا هو نجاح الفن الإسلامي فقد تغلب على آخر مجالات الفكر المتنوعة لربطها وخلطها في عالم الجمال الحسي. إنه أعلى الانتصارات الفنية للإسلام ».

---

(١) سورة العلق الآيات ١ ـ ٥.

(٢) قال ابن جرير الطبري يوقفه على ابن عباس :

« إن أول شيء خلق ربي عز وجل ـ القلم ـ ثم قال له اكتب ؟ فكتب ما هو كائن إلى أن تقوم الساعة ». في حديث طويل. تفسير الطبري : ٢٩/٩ ـ ١٠ انظر ابن كثير.

وفي المراحل الأولى للكتابة فقد اكتسبت شخصيتها الوضع الديني الذي تميز بقوة سحرية ربطته بها الكتابة القديمة في الشرق الأدنى. وقد تفوقت الكتابة حتى على اللغة كرمز مقدس للإسلام. إن الكتابة العربية ـ أكثر من اللغة العربية نفسها ـ هي التي قدر لها أن تصبح شعاراً وقوة للعقيدة الإسلامية في الأمة كلها. وبمرور الوقت، بعد أن ارتقى وتطور تذوق الأمة الإسلامية للجمال الشفاف للكتابة العربية لدرجة أن الأجيال القادمة سوف تتباهى وتقول :

« إن قلمي يعمل المعجزات وشكل الكلمات بحق يتباهى بعظمته على المعنى. فكل منحنى في كلماته اعترفت به منحنيات السماء وإن قيمة كل حركة في خطي هي الأبدية بذاتها ».

الخلاصة

إن الفن الإسلامي ـ بلا شك ـ يعتبر الهدية الحقيقية التي قدمتها الحضارة الإسلامية للثقافة الإنسانية. وهذه الإضافة الإسلامية للحضارة العالمية يجب أن تأخذ مكانها الذي تستحقه كأحد الأعمال الفنية العظيمة للبشرية. ومع ذلك ـ ولسوء الحظ ـ فإن علماء الغرب غالباً ما فشلوا في فهمهم لرؤيته الفكرية وخياله التجريدي ومثالياته الدينية: « بالنسبة للإنسان وكل واحد يعتقد خاطئاً ـ ويتحيز ـ بأن الإسلام قد أعاق وحدد، وبذلك أفقر الاتجاهات الفنية الإسلامية، أكثر من أنه قد أعطى وأضاف أي شيء لفنون الشعوب الإسلامية على مر العصور ». وحتى جلالة وعظمة فن الكتابة الإسلامية لم تستطع أن تثير إعجاب الدارسين الأوروبيين المتحيزين الذين لم يروا شيئاً إلا التحيز الأسود أمام الاستخدام العظيم للكتابة القرآنية. وقد فجر الأستاذ الفاروقي هذا الإحساس بالتحيز المضلل الغربي في مقالة تفسيرية علمية. وهي تعتبر عملاً أكاديمياً على درجة عالية. ولا يقف الأستاذ الفاروقي وحيداً في حكمه فبعض المواقف الأخرى العادلة التي تدل على الفهم قد اعترفت أنه لا يوجد أي عمل غربي أكاديمي عن الفن الإسلامي يتفق مع أبسط المبادىء الخالية من التحيز.

وأكرر كلامي هنا وأقول إن الفن الإسلامي لم يدرس بدقة من وجهة نظر النظرية الجمالية الإسلامية، وشكراً لجهود بعض العلماء المسلمين

الموهوبين أمثال إسماعيل الفاروقي، وسيد حسين نصر، والقريشي. وان العمل الفكري المحبب الذي قام به الدكتور (تيتوس بركهاردت) قد جعل الفن الإسلامي معروفاً إلى جمهور المتعلمين. ومع ذلك يجب علينا أن نذكر فشل الحركة الاستشراقية الغربية لفهم أسرار تراثنا العظيم. وهذا يدل على فشلنا طالما أن المسئولية هي مسئوليتنا.

وإلى هنا نأتي إلى نهاية البحث فإن التراث الفني المصور للإسلام يحتاج لدراسة جدية وأبحاث يجب أن تدور كلها من وجهة النظر الإسلامية. وهذا يثير التحديات العظيمة للشباب المسلم. فيجب أن لا يكتشفوا فقط الرؤية الجمالية للأجيال السابقة المسلمة ولكن نفس الرؤية التي هي بالنسبة لي ترجمة عظيمة للوسيلة المرئية لوحدانية الله في الإسلام. فالتوحيد يجب أن تعاد كتابته بتعبيرات دقيقة فكرية مناسبة لعصرنا الحديث.

إنه بهذا العرض النظري والفكري للنظريات الإسلامية عن الجمال ــ على الأقل ــ فإننا نكون قد قدمنا الرؤية الفكرية للفن الإسلامي.

اقتراحات عملية :

هناك اقتراحات عملية بسيطة لقادة حركة الشباب المسلم لا أعتقد أنها تعتبر خارج الموضوع هنا. وهذه الاقتراحات هي :

١ ــ تدريس النظرية والتطبيق لكتابة الخط العربي لا بد أن تكون إجبارية في جميع المراحل الابتدائية والثانوية مع تأكيدها في كافة المستويات التعليمية ــ ليس فقط لاكتساب المهارة العملية في الكتابة الجميلة، ولكن للمغزى الثقافي والجمالي لفن الكتابة في الحضارة الإسلامية.

٢ ــ كل ما يطلق عليه أكاديميات الفنون في البلاد الإسلامية والذي يعتبر وجودها أمراً عادياً ــ يجب أن يعاد دراسة وتفسير مناهجها العلمية في ضوء التراث الفني الإسلامي. وبكل معنى للكلمة، فإن إنشاء الأكاديميات الإسلامية الصحيحة التي يتدرب فيها الشباب المسلم على التفكير والإبداع الجمالي بتعبير مسلم أصبح وجودها الآن أمراً ملحاً.

٣ ـ إن المعمار الإسلامي يجب أن يحاول في إنشاءاته تنفيذ أكثر الرموز الإسلامية وضوحاً. وإن البعثات العلمية للمعمار الحديث يجب أن تمنح للمعماريين المسلمين، ويجب أن يشجعوا للتطوير الجذري للتغييرات دون أن يحيدوا عن النماذج القديمة الثابتة والحضارة الحديثة بصواريخها وقواطعها الالكترونية وحاسباتها الآلية (الكمبيوتر) ممكن مسايرتها وتطويعها للخيال التجريدي الفكري الذي هو من إيحاء الفن الإسلامي، وعلى ذلك فالفن الإسلامي يجب أن يكون قادراً على استخدام التعبير الصحيح للتكنولوجيا الحديثة للحضارة. إن التقنيات الحديثة والمواد تحتاج بدرجة كبيرة إلى تنفيذ عملي وفكري في المعمار. وهنا أكرر مرة أخرى بأن الاتجاه الإسلامي يقف على خطوط متشابهة، فيجب على المعماريين المسلمين أن يرتقوا بالمعمار إلى هذا التحدي. والتجديد الحذر في المعمار يجب أن يشجع من هؤلاء المسئولين وإعطاء المنح العلمية له. ومما يؤسف عليه فإنهم فضلوا الآن الاتجاه التقليدي.

٤ ـ يجب أن يحافظ على المنشآت الإسلامية العظيمة في جميع أنحاء مدينة دار السلام، كما يجب الاهتمام بها. فإن الحالة المحزنة للمنشآت الإسلامية القديمة في مدينة القاهرة هو تحد آخر لنا جميعاً. يجب أن يبدأ دفع تمويل كاف لمثل هذه المشروعات النبيلة.

٥ ـ إن قرار سكرتارية المؤتمر الإسلامي لفتح معهد إسلامي للفنون والآثار في تركيا لهو خطوة في الاتجاه الصحيح، ومع ذلك فإنني أفضل أن يكون مقر هذا المعهد هو مدينة القاهرة التي، بهروبها من ضربات المغول، احتفظت بكل أساليب العمارة الإسلامية وبجانب ذلك، فيوجد بها عدد كبير من المنشآت لا يوجد مثيل لها في أي بلد إسلامي آخر، كما يوجد في هذه المدينة أغنى مجموعة من التحف الفنية الإسلامية في متحفها العظيم. وبعد إنشاء معهد مركزي واحد، فإنه يجب أن تفتح معاهد إقليمية أخرى، وهذه المعاهد يجب أن تموّل عن طريق الحكومات المحلية، كما يجب أن ترتبط جميعها بعضها ببعض.

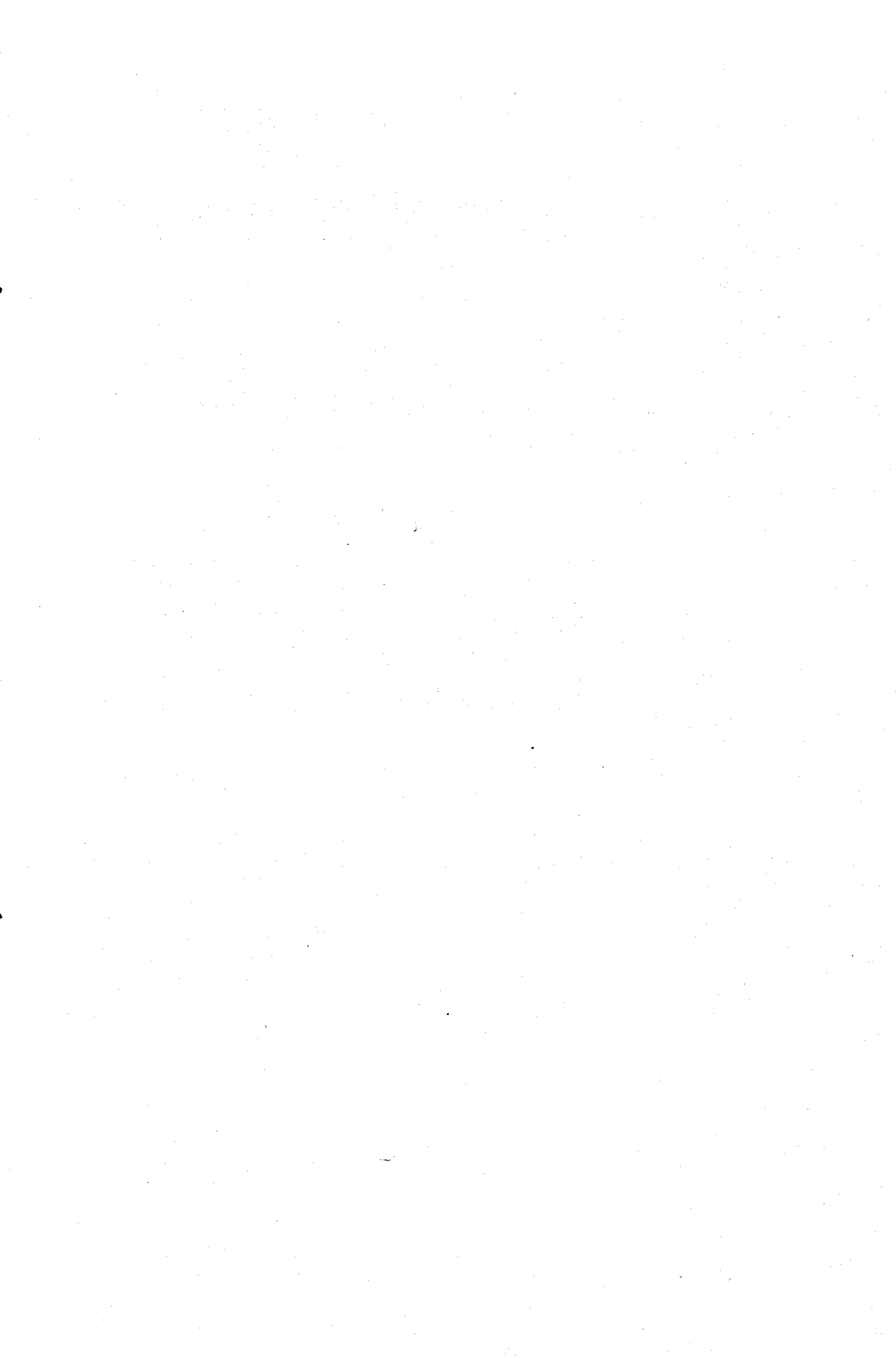
وسوف أنهي البحث هذا بتذكير الشباب المسلم، بأننا نتباهى بأننا

الوارثون لإحدى الكنوز الفنية النادرة للبشرية، وأن سبب جمال وعظمة فنونها هو العقيدة الإسلامية وإلى إخلاص أجدادنا، فالإسلام هو نظام كامل للعقيدة والتطبيق، وهو ثقافة كما هو حضارة، وببساطة وبخضوعنا لمشيئة الله، ولأننا مسلمون، فقد وهبنا أنفسنا أن ننشئ ثقافة إسلامية باسم الدين الإسلامي. فمهما كانت آمالنا الجمالية، فإننا يجب أن ندرك أنه لسبب كوننا مسلمين فقد أدركناها لأقصى درجة. والإسلام فقط ممكن أن يغرس فينا الروح التي تجددنا ثقافياً وجمالياً. فإذا نجحنا في إثبات ملكتنا الإبداعيـة لإعادة إبداع فن إسلامي عظيم وبشكل جديد، فإن أولادنا سوف يتباهون بنا، كما نحن نتباهى بأجدادنا. فالبذور موجودة، ولكن إلى أي مدى تكون التربة صالحة. كل ذلك متروك لنا أن نبنيه. وفوق كل شيء آخر، فإن كل نظرية إسلامية للجمال ممكن أن تتلخص في قول النبي عليه أفضل الصلاة والسلام :

« إن الله جميل يحب الجمال ».

فهل يوجد مسلم واحد لم يسمع بهذا الحديث ؟ هل يوجد بيننا إنسان واحد يستطيع أن ينكره ؟.

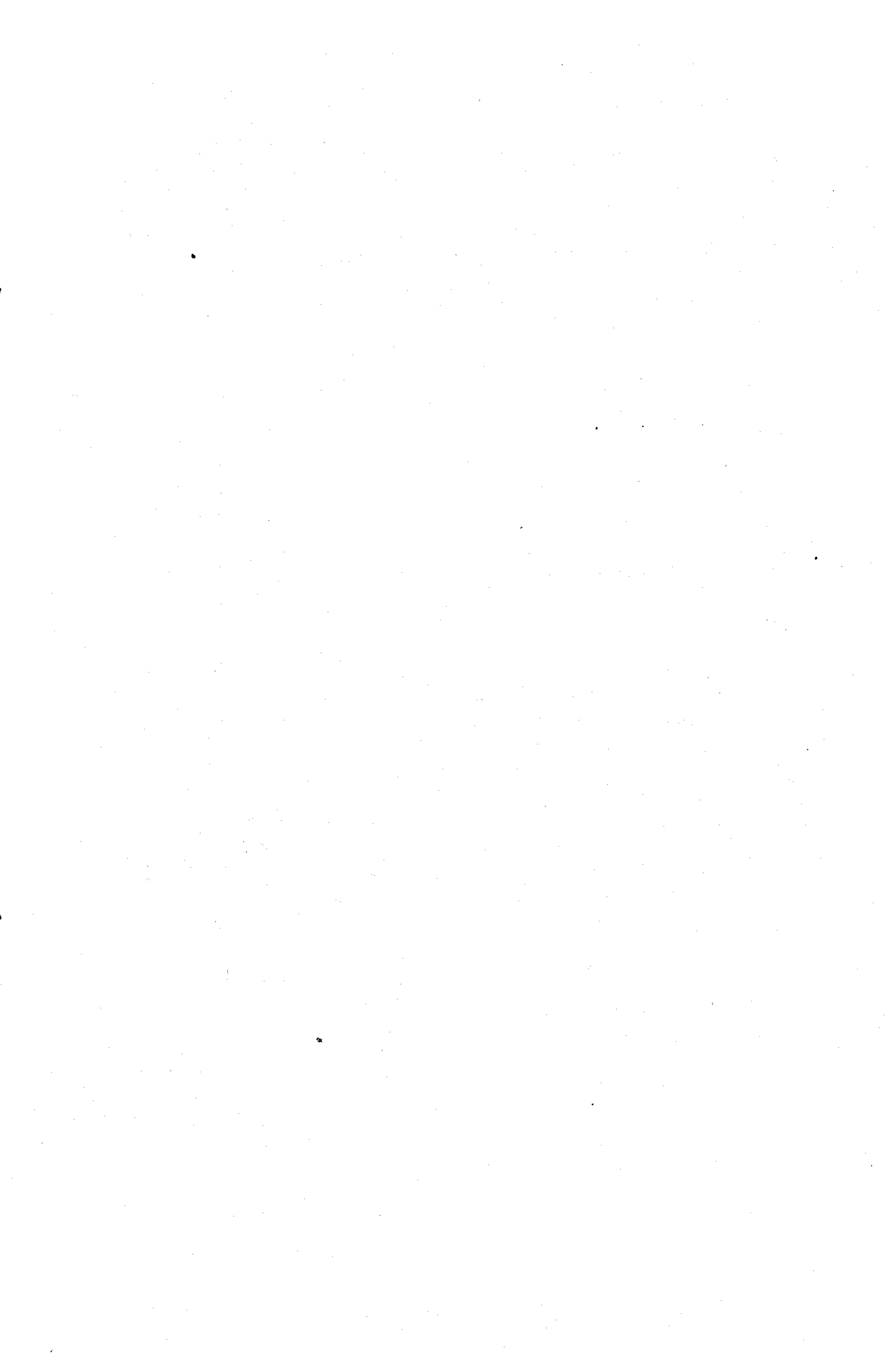
* * *



تفسير الإسلام للتناقض الإنساني الظاهري

والحلول المقترحة لهذا التناقض

للاستاذ قيصر اديب ماخول



بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ المشكلـــة :

إن كثيراً مما يسمى بالمأساة الإنسانية وقدراً كبيراً من الشرور الاجتماعية عبر تاريخ البشرية يمكن إرجاعه إلى فشل الإنسان في معرفة وجود وطبيعة التناقض الإنساني الظاهري بصورة حقيقية، وكذلك إلى فشله في إيجاد الحلول الصحيحة للمحن التي تتولد عنه. والحقيقة أن تحليل هذا التناقض الإنساني الظاهري من وجهة النظر الإسلامية البحتة من شأنه أن يفسر إلى حد كبير الأمور التالية : كيف ولماذا انحدرت الحضارة الإسلامية في الماضي من عظمتها السابقة، وعدم قدرة الكثير من المسلمين على مسايرة المشكلات التي برزت في العالم الحديث، والاضطراب الذي يقلق الكثير من المفكرين والشباب المسلمين. وباختصار، فإن المحن التي واجهت وما زالت تواجه الثقافة والحضارة الإسلامية وكذلك المفكرين والشباب المسلمين ما هي إلا واجهات للتناقض الإنساني الظاهري. إن معرفة التناقض الإنساني الظاهري والمحن التي يسببها من وجهة نظر المبادئ الإسلامية هي التي ستساعد المسلمين والبشرية على حل الكثير من مشاكلهم الفردية والاجتماعية. والمأساة في العالم الحديث هي أن الحلول لهذه المشكلات كانت دائماً ترتكز على مبادئ تعسفية أو تقليدية

إن لم تكن مبادئ خاوية. ومن ثم فإن هذه الحلول، بدلاً من أن تحل المشاكل فإنها تخلق مشاكل أخرى، بل إنها تزيد من اضطراب الإنسان في العصر الحديث.

ويهدف هذا البحث إلى عرض التفسير الإسلامي للتناقض الإنساني الظاهري، وكيف أن حل هذا التناقض في الماضي على أسس إسلامية قد ساعد على ازدهار الثقافة والحضارة الإسلامية، وكيف أن الفضل في معرفته وإيجاد الحل له على أساس من المبادئ والأفكار الإسلامية قد أدى إلى اضطراب المجتمع الإسلامي ومفكريه وشبابه، وكيف يمكن تناول طبيعة الحل الإسلامي من خلال إيراد الأمثلة المحددة.

٢ ـ طبيعة الإنسان والتناقض الإنساني الظاهري :

خلق الله الإنسان كمخلوق يتكون من الروح والجسد. وجسده كيان مادي ينتمي إلى عالم المادة، بينما تنتمي روحه إلى النظام الروحي الذي يقتبس، كما هو الحال، من الروح الإلهية. ومن ثم فإن الروح تنتمي إلى نظام أعلى من نظام الجسد الذي تعتمد عليه في حياتها وحركتها. والروح هي جوهر الإنسان، وجسده هو مجرد أداة تقوم بمهام معينة[١].

ولما كانت الروح تقتبس من الروح الإلهية فإنها قد وهبت قدرات وإمكانيات معينة مثل المعرفة والقوة (بمعنى السيطرة أو التحكم في الأشياء والأحداث)، كما أنها وهبت قدرات أخرى مثل الرحمة والصبر والصدق وما إلى ذلك. وينبغي أن نلاحظ أن كل هذه الصفات إنما هي من صفات الله، ولكنها بالنسبة لله صفات مطلقة غير محدودة. فهو سبحانه (العليم) و (القادر) و (الملك) و (مالك الملك) و (الرحيم) و (الصبور). ومن ثم فإنه من الصعب ألا نفترض أن القدرات المذكورة في الروح تشير إلى هذا العنصر من روح الله الذي وهبه لآدم. غير أن هذه القدرات الموجودة في

---

(١) انظر الملخص الممتاز عن فكرة الإسلام عن طبيعة الإنسان في البحث الذي أعده سيد محمد النجيب العطاس بعنوان «أفكار مبدئية عن طبيعة المعرفة وتعريف أهداف التعليم» وقدمه للمؤتمر الدولي للتعليم الإسلامي الذي عقد في الفترة من ٣١ مارس إلى ٨ أبريل ١٩٧٧ في مكة المكرمة ـ ص ٤ ـ ٩.

روح الإنسان لا يمكن في الحقيقة ظهورها إلا بشكل نسبي ومحدود.

ذلك أنه من الأهمية بمكان أن الروح لكي تظهر القدرات المغروسة فيها وتصل فيها إلى الكمال، فإنها تحتاج إلى الجسد وكذلك إلى العالم المادي. وهناك قدر كبير من المعرفة يبدأ بالحواس. كما أن صفات الرحمة والقوة والسيادة تظهر من خلال العلاقة مع الكائنات البشرية والمخلوقات الأخرى. كذلك فإن صفة الصبر تظهر غالباً من خلال الآلام الجسدية والأحوال الفسيولوجية وفقدان الأشياء والمحن والضغوط الاجتماعية... الخ[1].

إن لكل خلق الله هدفاً. وقد خلق الإنسان ليعبد الله ويطيعه. ولا شك أن من أفضل الوسائل لعبادة الله وطاعته هي تنمية تلك الصفات التي غرسها الله في الروح ولقد خلق الإنسان على الأرض كاختبار له. إن الله يختبره بما وهبه له. ومن ثم فإنه لما كانت الروح هي جوهر الإنسان، فإنها هي التي يجري عليها الاختبار. أما الجسد فإنه على الأكثر سيكون شاهداً على كيفية استخدامها له. ولهذا فإن على الروح أن تعتني عناية كبيرة بالجسد.

وفضلاً عن ذلك، فإنه لكي يمكنه تنمية قدرات الروح، فإن الله قد أباح له أن يأخذ من خيرات الأرض ومنحه القوة فيها. وهنا أيضاً فإن القوة هي إحدى صفات الروح ولهذا فإن الروح يجري اختبارها من خلال الطريقة التي تستخدم بها هذه القوة في معالجة خيرات الأرض وثرواتها. وفكرة القرآن هنا تتمثل في أن من يجتاز الاختبار بنجاح سوف يستحق الجنة.

إن إعطاء الأرض للإنسان لتكون خادمة وطيعة له هو ما يعنيه القول بأن الإنسان « خليفة » في الأرض. ويقول الله إنه سبحانه وتعالى قد اختار الإنسان ليكون خليفة في الأرض تفضيلاً له عما عداه. وعلى أية حال، فإن هذا الوضع وهذه المسئولية التي أعطيت للإنسان المقصود منها هو الاختبار.

---

(١) انظر الملخص الجيد عن التناول الفلسفي لعلاقة الروح بالجسد والطريقة التي يحتاج كل منهما إلى الآخر وعلاقتهما ببعضهما البعض الذي كتبه محمد أبو القاسم بعنوان : « أخلاقيات الغزالي ـ الأخلاقيات المتكاملة في الإسلام » ماليزيا ـ ١٩٧٥ ص ٤٣ ـ ٧١.

ولا شك أن كلمة « خليفة » تعني الشخص الذي أعطيت له القوة. ولكن ينبغي التأكيد على أن مثل هذه القوة هي قوة مفوضة فقط، ومن ثم فهي ليست قوة مطلقة. وبمعنى آخر فإن القوة المقصودة هنا هي القوة الممنوحة كوديعة (أو أمانة) ويتعين بالتالي ممارستها طبقاً لإرادة وشروط الذي منحها.

يقول الله في القرآن : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان، إنه كان ظلوماً جهولا »[1]. إن هذه الآية توضح بشكل مثير وواضح أن الإنسان قد أساء إلى الأمانة، أي أنه كخليفة قد تصرف بطريقة غير مسئولة وانتهى به الأمر إلى أن صار ظلوماً وجهولاً على الأرض. إنه في هذه الآية يتحدد بوضوح معنى التناقض الإنساني الظاهري. ذلك أن نفس القدرات والخيرات التي قصد بها اختبار الإنسان ومساعدته على التكامل، قد استخدمت لتكون العقبات التي تمنعه من التقدم على طريق التكامل. ويمكن توضيح التناقض الإنساني الظاهري أكثر من ذلك على النحو التالي : إن الله يمنح الروح قدرات للمعرفة والقوة (أو السيادة). كما أنه يعطي الإنسان الجسد وخيرات الأرض لمساعدة هذه القدرات على الظهور لتأخذ شكلاً محدداً من خلال العمل في الحياة المادية والعلاقات الاجتماعية. وأن الطريقة التي تظهر بها هذه القدرات والأسلوب الذي يستخدم به الجسد وخيرات الأرض إنما هي جميعاً اختبار للإنسان. غير أنه باستخدام هذه القدرات وتلك الخيرات تحولت معرفة الإنسان إلى جهالة وانحدرت قوته (أو سلطته) إلى ظلم. وهذه في الحقيقة هي مأساة الوضع الإنساني عبر التاريخ وفي العالم الحديث.

أسباب الإساءة للأمانة :

قبل أن نناقش الحل الإسلامي للتناقض الإنساني الظاهري، فإنه من الضروري أولاً معرفة أسباب إساءته للأمانة. والأفكار الرئيسية هنا لها علاقة بعنصر من عناصر طبيعة الإنسان وكذلك بوجود « ميثاق » له مع الله.

---

(١) سورة الأحزاب آية ٧٢.

ويقول الله في القرآن : « وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم، ألست بربكم، قالوا بلى، شهدنا، أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين »[1]. وتعني هذه الآية أنه من طبيعة الإنسان أو تكوينه العقلي القبول بأن الله هو ربه، وأن فهمه أو ذلك الجزء العاقل من روحه هو الذي يشهد بوحدانية الله. غير أن الإنسان بما ركب فيه من جسد فيه ضعف معين يظهر في شكل النسيان. وعصيان آدم يعتبر في المقام الأول نسياً للميثاق الذي ذكرناه آنفاً. يقول الله في القرآن : « ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً »[2]. وهنا نجد مرة أخرى شكلاً من أشكال التناقض : جانب يتذكر فيه الإنسان الميثاق وجانب آخر ينساه فيه ـ وكلا الجانبين ينتمي إلى طبيعته البشرية التي تشكله.

وهناك نظرة أخرى إلى نسيان آدم أو الإنسان قد تكون لها علاقة بما علمه الله أو غرسه فيه. وكما يقول القرآن : « وعلم آدم الأسماء كلها »[3]. ويقول بعض الفلاسفة المتصوفين المسلمين إن هذه الأسماء تشير إلى « الصفات » الإلهية أو ما يعرف « بالأسماء الحسنى ». ومن وجهة النظر المنطقية فإن نسيان الإنسان لميثاقه مع الله يعادل نسيانه لبعض الصفات الإلهية التي يتصف بها الله كرب له، ذلك أن نسيان الله كرب هو في الحقيقة نسيان أنه هو مصدر القوة والمعرفة ـ وهما صفتان من الصفات الإلهية. إن نسيان الله كمصدر للقوة أو « مالك الملك » هو الذي أدى بآدم إلى الوقوع في الغواية. وهذه الغواية التي أدت بآدم إلى العصيان، ويصفها القرآن بإيجاز على النحو التالي : « فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى[4] ». وهذه الآية هي التي تكشف النزعتين اللتين أدتا بالإنسان إلى الشرور والآلام على هذه الأرض عبر مراحل التاريخ وهما : الرغبة في القوة المطلقة، والاعتقاد بأنه يستطيع أن

---

(١) سورة الأعراف آية ١٧٢.

(٢) سورة طه آية ١١٥.

(٣) سورة البقرة آية ٣١.

(٤) سورة طه آية ١٢٠.

يعيش إلى الأبد فوق هذه الأرض. ومعنى هذا الاعتقاد هو أن القوة التي تمارس على الأرض تعتبر قوة غير مسئولة على الإطلاق إذا لم يكن هناك أحد يحاسب الإنسان على كيفية ممارستها بالثواب أو العقاب. وينبغي أن نذكر هنا أنه يمكن اعتبار المعرفة نوعاً من أنواع القوة حيث أنه بالمعرفة يستطيع الإنسان أن يسيطر على غيره وعلى الموارد المادية من أجل الخير أو من أجل الشر.

ونؤكد مرة أخرى أن سوء استعمال القوة يؤدي بالإنسان إلى أن يكون ظالماً غير عادل، كما أن نقص المعرفة أو سوء استعمالها يؤدي به إلى أن يكون في نهاية الأمر جاهلاً. وفي كلتا الحالتين ينسى الإنسان أن الله هو مصدر القوة (أو السيادة) كما أنه هو مصدر المعرفة، إنه يفشل في إدراك أن القوة والمعرفة هما صفتان من صفات الروح ويتعين أن يحافظ عليهما كأمانة، أي أن يستعملها لتنفيذ أوامر الله التي ترتبط بالهدف من وجوده على الأرض وبمصيره النهائي فيها. فيبين الله أن من ينسى الله فإن الله ينساه. ويحذر الإنسان بقوله: « ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم، أولئك هم الفاسقون »[1]. ومن الواضح أنه عندما ينسى الإنسان نفسه، فإنه ينسى الهدف من خلق هذه النفس وهذا الجسد أيضاً ـ إنه في الحقيقة ينسى طبيعته وهدف وجوده على الأرض. وإذا نسي طبيعته فإنه ينسى ميثاقه مع الله ـ ذلك الميثاق الذي يؤكد على أن طبيعة الإنسان ذاتها تقبل الله رباً. إن مثل هذا النسيان من شأنه أن يؤدي بالإنسان إلى أن يرتكب الظلم في حق نفسه. وغني عن القول أن الإسلام يؤكد على أن الإنسان الذي يرتكب الظلم في حق غيره إنما هو في الحقيقة يرتكب الظلم في حق نفسه لأنه بهذا يخالف طبيعة نفسه ذاتها.

---

(١) سورة الحشر آية ١٩.

٤ ـ دلالتان على فشل البشرية في النظر إلى قدرة المعرفة ومضامينها على أنها أمانة من الله :

أ ـ فكرة أن الإنسان يستطيع بالجهد العقلي وحده أن يصل إلى الحـــق :

إن هذه الفكرة تنكر أن الله خلق الروح ووهبها القدرة على المعرفة وأن لهذه القدرة هدفاً معيناً في نطاق هداية الله. إنها إنكار للوحي الإلهي على أنه مصدر المعرفة والحق. وهي تعني أن قدرة الإنسان على المعرفة يمكنها أن تكون بديلاً لوحي الله أو حتى تجعله غير ضروري. كما أنها تعكس كبرياء قارون عندما زعم أن ما يملكه إنما هو نتيجة لمعرفته وحدها وليس للقدرة الإلهية دخل فيها. وهذا الإنكار موجود أيضاً فيما يعتقده بعض المفكرين من أن مذاهب أو نظم الفكر التي وضعها الإنسان في المجالات الاجتماعية تستطيع وحدها وبنفسها أن توجد الحياة الطيبة والسعادة على الأرض. ويمثل هذا الإنكار ليس فقط ما يسمى بخطيئة الكبرياء ولكنه يعتبر أيضاً نوعاً من الشرك من حيث أنه يضع الأنظمة التي وضعها الإنسان على نفس مستوى الأنظمة التي وضعها الله. وبهذه المثابة فإنه يعتبر من أكبر الكبائر في الإسلام. وفضلاً عن ذلك فإن خطيئة الكبرياء تعتبر نسياناً لحقيقة أن الله وحده هو « المتكبر ».

وهناك نتيجة أخرى لهذا الإنكار السالف الذكر، وتتمثل في هذا النوع من العلمانية المنتشرة الآن في العالم الحديث. وهنا ينظر الإنسان في بحثه عن المعرفة ومضامينها على أنها بعيدة تماماً عن الأهداف والحوافز الدينية. ومن ثم فإن نضاله وجهده يفقدان معناهما بالنسبة لطبيعته الحقيقية ويصبح هذا النضال والجهد بلا هدف لأنهما يتجهان نحو غاية قصيرة الأمد. وبمواجهتها للعديد من أنظمة الفكر والفلسفات المختلفة وأنظمة القيم المتصارعة، فإن الإنسان في العصر الحديث يصير مضطرباً إن لم يكن متعسفاً في أحكامه وأعماله. وبتأرجحه كالبندول بين نظام أخلاقي فردي ونظام يغرقه فيه المجتمع إغراقاً تاماً وبمحاولته أحيانـاً البحث عن وسيلة بين هذه الأنظمة المتعارضة فإن الأمر ينتهي به إلى أن يكبت في نفسه قرار

الاختيار النهائي وبهذا يرتكب مرة أخرى خطيئة الكبرياء والشرك.

ومن الجدير بالملاحظة أن بعض فلاسفة المسلمين في الماضي قد تطرفوا في تأكيد قدرة العقل على الوصول إلى الحق. وأحد هؤلاء على سبيل المثال هو أبو بكر محمد بن زكريا الرازي (المتوفى عام ٩٢٥ أو ٩٣٢) الذي كان يرى أن النبوة (وبالتالي الوحي) لم تكن ضرورة لازمة حيث أن العقل كاف للوصول إلى معرفة الله والروح وغيرها من الأشياء.[١] ولقد كان من بين الأسباب التي دفعت أبا حامد محمد الغزالي (١٠٥٨ – ١١١١ م) إلى الدخول في جدل طويل مع غيره من الفلاسفة المسلمين هو زعمهم بكفاية العقل للوصول إلى أنواع معينة من الحقائق. وباستعماله الأسلوب المنطقي وكذلك الأفكار الفلسفية التي كان يستعملها الفلاسفة الآخرون، استطاع الغزالي أن يبرهن بشكل فعال ليس فقط على أن هناك حدوداً للفلسفة بل أيضاً على أن الكثير من الأشياء التي كانوا يريدون إثباتها لا يمكن معرفتها إلّا بالوحي. وبهذا استطاع أن يكشف بعض التضارب في أقوال الفلاسفة وأن يدفعهم إلى أن يكونوا أكثر تواضعاً فيما يتعلق بالحديث عن العقل.

إن تأثر بعض المفكرين المسلمين بالمنطق الإغريقي ونتائجه قد أدى بهم، ليس إلى حد إنكار الوحي ولكن إلى فصل حقائقه عن جهودهم الذهنية، وبهذا فقد حجبوا عن هذه الجهود المصادر الكبرى للإلهام التي أدت بأسلافهم إلى توسيع نطاق معارفهم على أساس من الدعاء القرآني: « وقل رب زدني علماً »[٢]. على أن ما نرمي إليه هنا على وجه الخصوص هو أن الإيمان بالإسلام في قرونه الأولى هو الذي دفع بمعتنقيه إلى العمل على نشر الرسالة. وبإيمانهم وعملهم على نشر الرسالة كانوا يريدون أن يزدادوا معرفة بها. وقد أدى بهم ذلك إلى دراسة وتطوير العلوم وغيرها من مجالات الدراسة كأشكال لما يصفه الوحي الإلهي. ومن ثم فإن ما دفعهم إلى أن

---

(١) ماجد فخري – تاريخ الفلسفة الإسلامية – مطبعة جامعة كولومبيا (نيويورك ولندن – ١٩٧٠) ص ١٢٤.

(٢) سورة طـه آية ١١٤.

يصبحوا علماء هو الحافز الديني. وبهبوط هذا الحافز الديني أو على الأقل عندما نحّوه جانباً في جهودهم الفكرية، بادعاءاتهم بقدرات العقل دون مساعدة، بدأوا يفقدون القوة الدافعة. وأكثر من ذلك، فإنهم بفصلهم الحقائق التي يكتشفها العقل عن تلك التي جاء بها الوحي كانوا يفتحون الأبواب ببطء ودون إدراك أمام النظرة العلمانية تجاه العالم المادي. وقد تفسر كل هذه الأسباب جزئياً كيف أن المسلمين بصفة عامة قد تركوا مشعل المعرفة ينتقل من أيديهم إلى أيدي غيرهم.

ولقد شهد العالم الحديث بحقيقة أمر الاكتشافات السريعة والخطى الواسعة في مجال العلوم والتكنولوجيا، في الوقت الذي تهدف فيه إلى ما تعتقد أنه يحقق تقدم الإنسان وسعادته في الحياة، قد جلبت الألم للإنسان في الكثير من الأحيان وصارت في الوقت.نفسه تشكل تهديداً لحياته ذاتها.

وهذا مثل محدد على التناقض الظاهري. والمحنة التي يواجهها بسبب هذا التناقض هي ماذا يمكن أن يفعل حيالها. وباختصار، فإنه يعتقد أنه إذا أوقف هذه السرعة وهذه الاكتشافات، فإن ذلك سيؤدي به إلى الركود، في حين أنه إذا استمر فيها فإنه سيعرض وجوده للخطر.

وتتمثل محنة المسلم في العالم الحديث في الوضع التالي : **أولاً** : إنه يرى التقدم الكبير في مجال العلوم والتكنولوجيا بالدول الغربية وكيف أنه أعطاها القوة للسيطرة والتحكم في الدول الإسلامية. **ثانياً** : إنه يرى كيف أن الدول الإسلامية، في الوقت الذي تتمسك فيه بالحوافز الدينية في المجتمع، فإنها تجد نفسها متأخرة عن ركب هذا التقدم. إن المسلم يرغب في أن تمتلك الدول الإسلامية مثل هذه القوة ولكنه ينتقد القيم المرتبطة بها على أنها مخالفة للروح الإسلامية. وفي نفس الوقت فإنه يدرك دائماً أنه جاء وقت كان فيه أعظم العلماء والأطباء والمفكرين والقضاة من المسلمين، وأن قدراً كبيراً من معلومات العلوم الحديثة قد أسهم فيها أو أوحى بها فكر ومؤلفات العلماء والمفكرين المسلمين.

ب ـ فكرة أنه لا يمكن تحقيق المعرفة سواء بجهود الإنسان أو بمساعدة الله :

وتمثل هذه الفكرة الثانية موقف التشكك التام وهي على العكس تماماً من الفكرة الأولى. فهي تنكر منذ البداية الوحي وكذلك قدرة الروح على المعرفة. كما أنها تعني عدم وجوب الشكر للخالق الشكور. ويظهر هنا أيضاً نسيان الإنسان. فقد وهب الله روح الإنسان القدرة على الشكر من خلال الروح التي نفثها فيه. ومن ثم فإن عدم الشكر يعتبر منافياً لطبيعة الإنسان وميثاقه.

وبشرط أن يكون مقيداً بحدود معينة، فإن أسلوب التشكك يمكن أن يكون مفيداً كأسلوب علمي فقط. ولكنه إذا صار غاية في حد ذاته فإن نتائجه تصبح مدمرة، ومن شأنه أن يؤدي على وجه الخصوص إما إلى الكفر أو إلى الإلحاد. إن الروح العملية التي يخلقها يمكن أن تولد السخرية والأنانية وفقدان الضمير الاجتماعي في الأعمال اليومية.

٥ ـ دلالتان على فشل النظرة إلى القوة واستخدامها كأمانة :

أ ـ فكرة أن القوة يمكن ممارستها بشكل مطلق وأن من يملكها ليس محاسباً عليها أمام أي أحد :

تنكر هذه الفكرة أن القوة مستمدة في النهاية من الله وأنه يجب ممارستها بأقصى درجة من الإحساس بالمسئولية أمام الله الذي سيحاسب عليها. وتتمثل في نسيان أن الله وحده هو الذي « لا يُسْأَلُ عما يفعل وهم يُسْأَلُون ».

وكما ذكرنا من قبل فإن غواية آدم كانت ترتكز على وعد الشيطان له بالقوة التي لا تضمحل وبالملك الذي لا يبلى، أي بالقوة المطلقة. وتأخذ القوة أشكالاً متعددة، منها المادية والفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية.. الخ. وتظهر هذه القوة في أغلب الأحيان في قدرة الفرد على التأثير أو السيطرة على أفعال شخص آخر مثل دفعه إلى عمل شيء ما. ومن ثم فإن امتلاك القوة يعد أمراً مروعاً، ويظهر سوء استعمالها بالتمييز على

الآخرين أو استغلالهم باحتكار الثروات الطبيعية واستبعاد الآخرين الذين هم أيضـاً في حاجة للمشاركة في خيراتها لتنمية أنفسهم، بإزهاق الأرواح بلا عدل أو ضرورة، وبإلحاق الأذى بالآخرين أو حتى بالنفس. ويظهر سوء استخدام القوة في المجال السياسي في شكل حكومات طاغية وظالمة ومفروضة على الشعب. وكمثال على ذلك كانت هناك حكومة فرعون المذكورة في القرآن. وفي المجال الاقتصادي يظهر سوء استعمال القوة في شكل الاستغلال الإنساني والاحتكارات الضارة. ولا شك أن الإسلام يعارض احتكار الثروة. وفي المجال الفكري يظهر سوء استعمال القوة في التطبيق التعسفي للأفكار والتعاليم والمبادىء كما يظهر أيضاً في حجب المعارف المهمة والنافعة عن الآخرين بشكل متعمد وأناني، واستعمال القوة لأغراض ذاتية وشخصية محضة ضد مصلحة المجتمع. وفي أغلب الأحيان يمنع بعض الرجال المسلمين زوجاتهم من التعليم الذي يبين لهن حقوقهن في الإسلام وذلك من أجل إحكام السيطرة وممارسة القوة عليهن، وهم بهذا العمل إنما يضعون الأمة في حقيقة الأمر.

ب ـ فكرة أن ثروة الشخص وقوته ترجع إلى جهوده فقط وأن دور الله فيها غير ذي موضوع :

وتوجد هذه الفكرة فيما حكاه القرآن في سورة الكهف حيث يفخر صاحب الجنتين بثروته وقوته ناسياً أن الله هو القادر وهو المغني. ويظن صاحب الحديقة أنه غني عن الله، في حين أن الله هو الغني وحده. لقد ظل صاحب الجنتين يزهو بفخره ظناً منه بأنه ليس هناك أحد يحاسبه على ثرواته. لقد سقط هو الآخر، مثل آدم، في حبائل الغواية عندما قال عن ثروته وقوته « ما أظن أن تبيد هذه أبداً »، لقد نسي حقاً أن الدنيا فانية وأن الله وحده هو الباقي، وعندما أصابته الكارثة ندم قائلاً : « يا ليتني لم أشرك بربي أحداً »[1]. ومن الواضح أن صاحب الحديقة قد ارتكب خطيئة الشرك. ذلك أنه برفضه رد قوته وثروته إلى الله، وبزعمه أنه استطاع أن يحقق هذه الثروة بدون

---

(١) سورة الكهف آية ٤٢.

الله، قد جعل من نفسه في نهاية الأمر إلهاً. ومن ثم فقد جعل لله شريكاً، وهو بهذا العمل ارتكب ظلماً في حق نفسه، وهو ما يماثل الإقرار بنسيان الميثاق أو التعدي عليه. ومن ثم فقد عمل ضد طبيعته الحقيقية وضد مصيره.

ولا يصعب أن نستنتج من دراسة تاريخ الأوضاع السياسية للخلافة والسلطنة في الامبراطورية الإسلامية أن بعض أسباب اضمحلالها إنما يرجع إلى انحرافها عن مبدأ : أن كل القوة السياسية والاقتصادية إنما هي أمانة مودعة في أيدي أصحاب هذه القوة. وكم كانت هناك أسر حاكمة تعتقد بأن مصائر الإسلام وكذلك مصائر ومصالح الأمة إنما تتفق وتتماثل مع مصائرها ومصالحها الضيقة. ومن ثم صارت مصالح المجتمع تتشكل طبقاً لمصالح الطبقات الحاكمة. ولقد كانت الحروب بين الأسر الحاكمة في أغلب الأحيان صراعات من أجل السيطرة على هذه المصالح بصرف النظر عن رفاهية ورخاء الأمة. وكانت المعارك بين الحكام وأقاربهم وبين الحكام وعمالهم وبين القبائل العربية وقبائل البربر في أسبانيا الإسلامية.. الخ ؛ إنما هي مجرد نزاعات من أجل السلطة الشخصية أو الأسرية. ومن ثم كان ضياع أسبانيا الإسلامية أمراً حتمياً في القرن الخامس عشر الميلادي. كذلك كانت أغلب الحروب بين مختلف الأسر الإسلامية الحاكمة في الهند وإيران والأراضي العربية وكذلك بين الأتراك العثمانيين بقيادة بايزيد والتتار بقيادة تيمورلنك في حوالي عام ١٤٠٠م ـ كانت كل هذه الحروب لا علاقة لها بالإسلام ولكنها كانت في الحقيقة ترتبط بالمصالح الاستعمارية أو القبلية أو العرقية. وبهذا تمت تجزئة الأمة الإسلامية. إن القوة في هذه الحروب لم تستخدم كأمانة لتحسين أوضاع الأمة أو حمايتها، ولكنها استخدمت من أجل المصالح الاستعمارية أو الأسرية، ولا عجب فقد كان الكثير من الخلفاء والسلاطين من الطغاة. وكانت النتيجة أن ضعف تأييد أتباعهم لهم وقلة انقياد المحكومين لهم. ولقد اختلط الأمر بالنسبة للمسلم العادي الذي كان لا يعرف ما إذا كان يحارب من أجل الإسلام أم من أجل مسلمين بعينهم. وهناك بالتأكيد فرق كبير بين الاثنين. وينبغي ألا ندع أمجاد الإسلام في الماضي تجعل الدارسين المسلمين يغفلون هذا الفرق.

وعلى أية حال فإن كل ذلك لا يعني إنكار وجود قادة مسلمين أتقياء مستنيرين، كانوا حماة للعلوم والفنون في الوقت الذي كانوا فيه قادة عسكريين عظماء حموا حدود دار الإسلام وحافظوا على وحدتها.

وفضلاً عن ذلك، فإن زيادة الفقر بين الجماهير الإسلامية ـ نتيجة ضعف البنيان السياسي للامبراطوريات أو الممالك الإسلامية، والضرائب الباهظة المفروضة عليها لتمويل الحروب والمشروعات الباذخة للحكام ـ أدى إلى إضعاف فريضة الزكاة التي من المفروض أن تجبى من أجل الأغراض الإسلامية المحضة. ومن ثم فإن القوة الاقتصادية للمجتمع لم تعد أمانة من أجل مصلحة المجتمع. والواقع أنه لا يمكن القول بأنه لم يكن هناك استغلال في المجتمع الإسلامي، ليس فقط بين الحاكم والمحكوم، وإنما أيضاً بين الفقير والغني من المحكومين.

ويرجع الكثير من المسلمين في العالم الحديث القوة الاقتصادية التي تتمتع بها القوى الغربية المتقدمة إلى المذاهب والبنيان الاجتماعي للمجتمعات التي تملكها هذه القوى. وهم يريدون من الآن أن يعتنقوا ويستوعبوا ويطبقوا مثل هذه المذاهب وهذا البنيان. غير أن قيمهم الإسلامية التقليدية تبين أن مثل هذه المذاهب هي في جوهرها مادية وأن مثل هذا البنيان يمكن أن يقوم فقط بين أناس لهم قيم وتجارب تاريخية مختلفة. وبهذا تظهر المحنة مرة أخرى.

وفي التحليل النهائي، فإن العلمانية والمادية هما النتيجتان المباشرتان للتخلي عن مبدأ كون المعرفة والقوة هي قدرات تتمتع بها الروح المخلوقة ويتعين أن تكون أمانة عندها. وتعني هذه الفكرة أن الروح محاسبة أمام الله فيما يتعلق بتنمية هذه القدرات واستخدامها وتطبيقها في المجتمع والعالم المادي. إن سوء استخدام هذه القدرات ينبع من إنكار مبدأ الأمانة وكذلك مبدأ أن الله هو مصدر كل المعرفة والقوة وأنه بدونه لا يمكن تحقيق أي شيء. وتكمن مأساة أكثرية العالم الحديث في أن إنكار هذه المبادئ قد أدى بالإنسان إلى أن يصبح « ظلوماً جهولاً » بالنسبة لنفسه وبالنسبة لغيره على السواء.

٦ ـ الحل الإسلامي لنسيان الإنسان واستعادة فكرة الأمانة :

إن الإسلام كنظام شامل ومتكامل تكمن في داخله كافة العناصر الكفيلة بحل هذا التناقض الإنساني الظاهري وكذلك حل المشاكل الناتجة عنه. والفكرة الأساسية للحل الإسلامي تتمثل في « الذكر » أو التذكر.

يقول الله في القرآن : « فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون »[1]. ان كلمة « ذكر » هنا غنية بالمعاني والإيحاءات. وعلى الرغم مما تحمله من إيحاءات متعددة إلا أنها ترتبط جميعاً ارتباطاً وثيقاً بخيط واحد.

ففي مجال المعرفة، فإن ذكر الله أمر ضروري لأنه علم الإنسان ما لم يعلم. ويتصل بذلك أن أهل العلم هم وحدهم الذين يذكرون الله ويعرفون أن هناك غاية مقدسة من الخلق. ويتضمن الذكر معرفة أن الله هو الخالق وأنه لا يمكن تحقيق شيء بدونه. كما أنه يعني إدراك معنى المسئولية والحساب، ذلك أن من يذكر لا ينسى يوم الحساب. ويتضمن الذكر إرجاع الفضل لله على نعمه وهوايته وتوجيهه وإلهامه. كما يعني الذكر عبادة الله والصلاة له. ويأمر الله الإنسان أن يذكر الميثاق الذي بينه كعبد وبين الله كرب. وبيَّن الله أن الإنسان سيحاسب يوم القيامة عن الجانب المتعلق به في الميثاق، ولا عجب أن يصف بعض الفلاسفة المسلمين المتصوفين الميثاق بأنه « الذكر الأول ».

وكما يعلم السيد عبيده ويوفر لهم السبل التي يطيعونه بها بشكل أفضل، فإن الله كرب قد وهب الإنسان قدرات وطاقات معينة. ولما كان الله قد غرس في آدم شيئاً من روحه، فقد أصبح من واجب الإنسان أن ينمي هذه القدرات ليعبد الله بأفضل السبل الممكنة. ومن ثم فإن أداء هذا الواجب يصبح معادلاً من الناحية المنطقية لأداء ميثاقه، ولكن الشيطان هو الذي يسبب نسيان الله وكانت غوايته هي التي أدت بآدم إلى أن ينسى الميثاق وبالتالي الواجب المفروض عليه وهو تنمية قدراته الروحية لتعبد الله حق عبادته. ومن ثم انحرفت هذه الطاقات في اتجاه غايات أخرى.

---

(١) سورة البقرة آية ١٥٢.

ولكن الله برحمته الواسعة غفر لآدم وأعطاه كلمات الوحي ووعده بالهداية. وقد ظهرت هذه الهداية عبر تاريخ البشرية في شكل الوحي الذي يعتبر في حقيقة الأمر تذكيراً. فالقرآن تذكير للإنسان حتى لا ينسى الإنسان الميثاق والواجبات المنبثقة عنه « فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكراً »[1]. كما أن النبي محمداً ﷺ قد أرسله الله إلى البشرية للذكر والتذكير وشرح الوحي الذي أوحى إليه.

والقرآن كذكر يعلم البشر كيف يمتنعون عن إساءة استعمال قوى الروح التي ينتج عنها الكثير من المحن الإنسانية.

وفيما يتعلق بمشكلة المعرفة، فإن أول مبدأ ينبغي **تقريره هو أن الله** هو العليم وأنه هو مصدر كل المعرفة، وأن كل المعارف الحقيقية في الروح لا يمكن الحصول عليها دون مساعدة الله. **والمبدأ الثاني هو أن** قدرة الروح على المعرفة تأتي من الله ومن ثم فإنها يجب أن تسير على هديه ـ وهي عبادته وطاعته. **والمبدأ الثالث هو أنه** يجب تنمية قدرة الروح على المعرفة، وأن تنمية هذه القدرة وامتلاك مضامين المعرفة يجب أن يكون بمثابة أمانة. وهذا يعني أنه ينبغي استخدام هذه المعرفة في الخير فقط، وليس في الشر وبهداية من وحي الله. **والمبدأ الرابع هو أنه** في حين أن تنمية هذه المعرفة تؤدي إلى التكامل الفردي فإنها يجب ألا تستخدم لأغراض أنانية ولكن لتحسين أحوال الأمة التي خلقها الله أيضاً لتكون شاهدة على ممارسة الأمانة على الأرض. كما ينبغي على الإنسان أن يدعو الله كي يساعده على زيادة معارفه كما يقول القرآن « وقل رب زدني علماً »[2]، ويبارك له في أعماله الفكرية ويزداد إلهامه وقوته فيها. كذلك فإن الصلاة وسيلة من وسائل الحفاظ على الذكر.

وعلى وجه الدقة، فإنه يتعين على الدارسين المسلمين أن ينظروا إلى العبادات ليس بمعناها المحدود ولكن بمعناها الشامل المقصود من ورائها.

---

(١) سورة الطلاق آية ١٠.

(٢) سورة طـه آية ١١٤.

وينبغي أن يكون موقفهم من العلوم وغيرها من الأنظمة مصحوباً بالخشية الدينية. ويجب أن تكون نظرتهم إلى العلوم الطبيعية (من جوانبها المادية والبيولوجية) على أنها محاولات لمعرفة المزيد من كيفية ظهور الصفات الإلهية في الإنسان وفي الطبيعة. وبهذا فإنهم سينظرون إلى الأحداث الطبيعية على أنها علامات وإيحاءات من الله، كما تقررها العديد من الآيات القرآنية. والحقيقة أن هذه العلامات تساعد على التذكير بأن الله هو رب العباد.

كذلك يجب على الدارسين أن ينظروا إلى العلوم الاجتماعية ليس فقط على أنها وصف للحياة الاجتماعية بأبعادها المختلفة ولكن أيضاً على أنها معلومات لدراسة واكتشاف كيف أن المبادىء والقيم الإسلامية يمكن تطبيقها عليهم من أجل تحسين أوضاع الحياة الإنسانية. وفي العلوم الإنسانية أيضاً فإن على الدارس المسلم أن يبذل جهده لزيادة قدراته الخلاقة مستوحياً الصفة الإلهية « المصور » كي يجعل الحياة أكثر جمالاً واتساعاً، ذلك أن الله قد أودع في روح الإنسان القدرة على إبداع وتشكيل الأشياء الجميلة كما يشهد بذلك الفن والمعمار والنقش الإسلامي. وبهذه المواقف كلها فإن العبادات تعني من بين أشياء أخرى واجب الروح في تنمية قدراتها على أسس فكرية تتميز بطاعة الله. وبهذا تختفي النظرة العلمانية والمادية من عقل العالم أو الدارس. ولذلك فإن من واجب العالم المسلم حينئذ ألا يخاف من المعلومات والاكتشافات الجديدة في مجالات العلوم المختلفة، وذلك أن استعمالها سيكون أمراً ثانوياً بالنسبة للمواقف آنفة الذكر.

كذلك يجب المشاركة في المعرفة. ذلك أن ليس هناك أحد ـ في الحقيقة ـ يملك وحده معارفه. إن الله وحده هو العليم وهو مصدر المعرفة. ومن ثم فإن كل المعرفة تعتبر وديعة أو أمانة يجب المشاركة فيها. وبهذا فإن المعرفة لن تستخدم من جانب بعض الأشخاص للتميز على الآخرين. إن امتلاك المعرفة مع إدراك أنها أمانة من شأنه أن يجنب من يمتلكها من تنمية خطايا الكبرياء والشرك التي تنتهي به إلى أن يكون « جهولاً » بل إنها بالأحرى تغرس فيه فضائل الإسلام المتصلة بالوحدة الفكرية والتواضع والرغبة

في توسيع نطاق المعرفة من أجل التكامل الفردي ومن أجل منفعة الأمة الإسلامية بصفة خاصة والإنسانية بصفة عامة.

وفيما يتعلق بقدرات القوة والسياسة فإن ذكر الله ضروري أيضاً لنفس الأسباب التي ذكرناها عند حديثنا عن قدرة المعرفة. والقرآن وهو الذكر، يذكر الإنسان دائماً بأن الله هو « مالك الملك » وهو القوي القادر على كل شيء، والمالك لكل شيء والغني عن كل مخلوقاته. وليس الإنسان سوى خليفة على الأرض. وقد أعطاه الله القوة والسيادة عليها ليعبده ويؤدي الواجبات الأخرى المنوطة به. وكل ذلك يعني أن قدرات الروح مثل القوة والسيادة ما هي إلا وديعة أو أمانة، ومن ثم فإن الروح ستحاسب أمام الله على كل أعمالها. وينبغي لهذا أن يكون امتلاك كل أشكال القوة واستعمالها من أجل الخير وليس من أجل الشر وذلك طبقاً للتوجيهات والأوامر الإلهية. وينبغي توجيه القوة إلى التكامل الشخصي والمصلحة الاجتماعية وليس إلى المنفعة الذاتية أو النزوات الشخصية كذلك فإنه ينبغي أن تكون كل أشكال السيادة كمظهر من مظاهر ممارسة القوة قائمة على أساس الاستحقاق والكفاءة، وليس على مجرد العلاقات الأسرية، حيث أنه وإن كان من سلالة بعض الأنبياء مثل إبراهيم الذي أعطاه الله السيادة فإن منهم من أثبت أنه مخطئ في عمله.

والثروة كلها في الإسلام هي ملك لله الذي يعطيها للإنسان. ومن ثم فإن كل ما يسمى بحقوق الإنسان في الملكية لا يمكن أن تكون حقوقاً مطلقة له ولكن لا بد أن تكون خاضعة لأوامر الله. وبهذا المعنى فإن كل الملكية أمانة لدى الإنسان. ويقف الإسلام ضد كل أشكال الاستغلال واحتكار الثروة أو خيرات الأرض لمصلحة البعض وليس لمصلحة المجموع. والأسباب هنا واضحة وهي أن الاستغلال يحط بالكرامة الفطرية للفرد، كما يجب أن ينال كل شخص نصيبه العادل والكافي من ثروات الأرض إذا استطاع أن ينمي في نفسه تلك القدرات التي وهبها الله للروح كي تساعده على طاعة الله. ولهذا السبب فإن للمحتاجين حقوقاً معلومة في ثروات المؤمنين. والهدف من أداء الزكاة في الإسلام هو جعل هذا الحق قائماً في

المجتمع. على أن هذا الحق المعلوم في نهاية الأمر هو ملك الله لأنه هو الذي جعل الأرض قابلة للإخصاب والإنبات. وكما حدث في الماضي من اختبار للمسلمين في تعليمهم وقوتهم السياسية والعسكرية، فإن بلادهم يجري عليها الاختبار في الوقت الحاضر أيضاً من خلال كيفية استخدامهم لثرواتهم الهائلة الجديدة المستخرجة من الأرض.

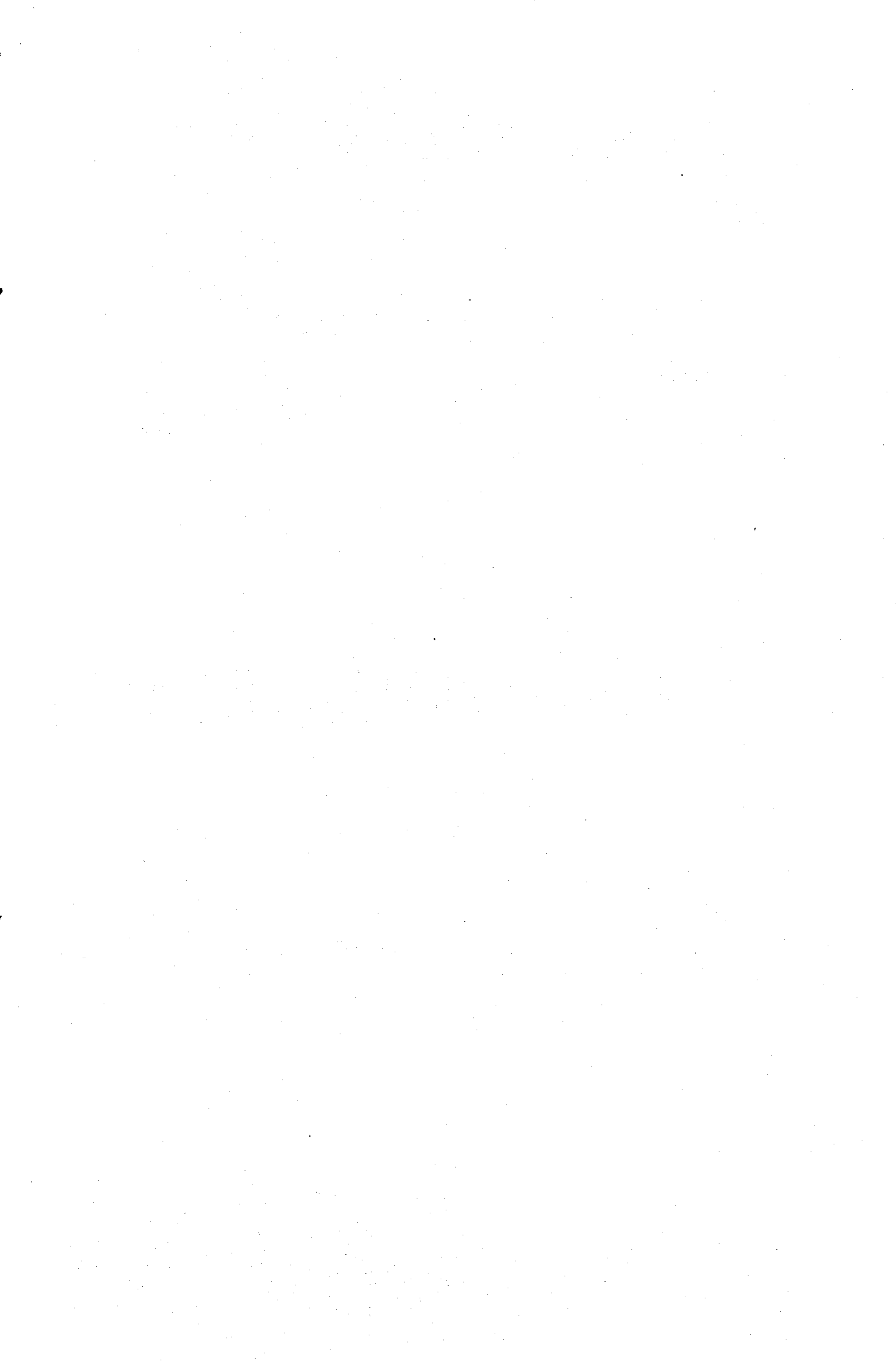
ومن أشكال القوة المنتحلة التي حرمها الإسلام بحق هي القوة الكهنوتية، حيث إن القوة الكهنوتية تعني تحويل المعرفة الدينية إلى قوة مادية. وكثيراً ما كان القساوسة والرهبان ينسون رسالتهم التي كرسوا حياتهم لها ويستخدمون دينهم كوسيلة لجمع الثروات من أجل الحياة الرغدة أو من أجل السلطة السياسية. وتشكل مثل هذه الأعمال استغلالاً للميول الدينية للمؤمنين وكذلك استغلالاً لممتلكاتهم المتواضعة.

وتدور الفكرة الإسلامية حول التأكيد على أن كافة أشكال القوة والسيطرة على الثروات إنما هي أمانة. ولهذه الفكرة مدلولات كثيرة لا يمكن حصرها كلها. ولكن يكفي أن نذكر قليلاً منها. إن الحياة نفسها هي شكل من أشكال القوة، والحياة كلها تأتي من الله وهو الحي والمحيي. ومن ثم فإنه لا يمكن للإنسان أن يقضي على حياته أو حتى يعرضها للخطر. ولا يمكن أن يقضي على أية حياة إلا بالعدل. ويبلغ احترام الحياة في الإسلام إلى الحد الذي يحرم فيه على المسلمين قتل الحيوانات إلا إذا كانت للأكل أو لخطرها أو أذاها للإنسان. وعند قتل الحيوانات الأليفة التي أعطيت للإنسان كأمانة ليستفيد منها في طعامه فإنه يجب ذكر اسم الله عليها. كما أنه يجب قتل مثل هذه الحيوانات بأقل قدر ممكن من الألم لها. ذلك أن القضاء على الحياة بأي شكل من الأشكال يعتبر مسئولية رهيبة لأن الله هو المحيي وهو المعطي. وباحترام حياة الآخرين فإن الإنسان يصبح أكثر قرباً من الله لأنه هو وحده مصدر كل حياة.

كذلك فإن النساء والأطفال أمانة لدى الرجال وليسوا ملكاً لهم بأي حال من الأحوال. إن الوالدين هما مجرد أداتين خلقهما الله من أجل حفظ النوع وهما بهذا لا يملكان أبناءهما. كذلك فإن رعاية الأبوين الكبيرين تعتبر أمانة في أعناق أولادهما.

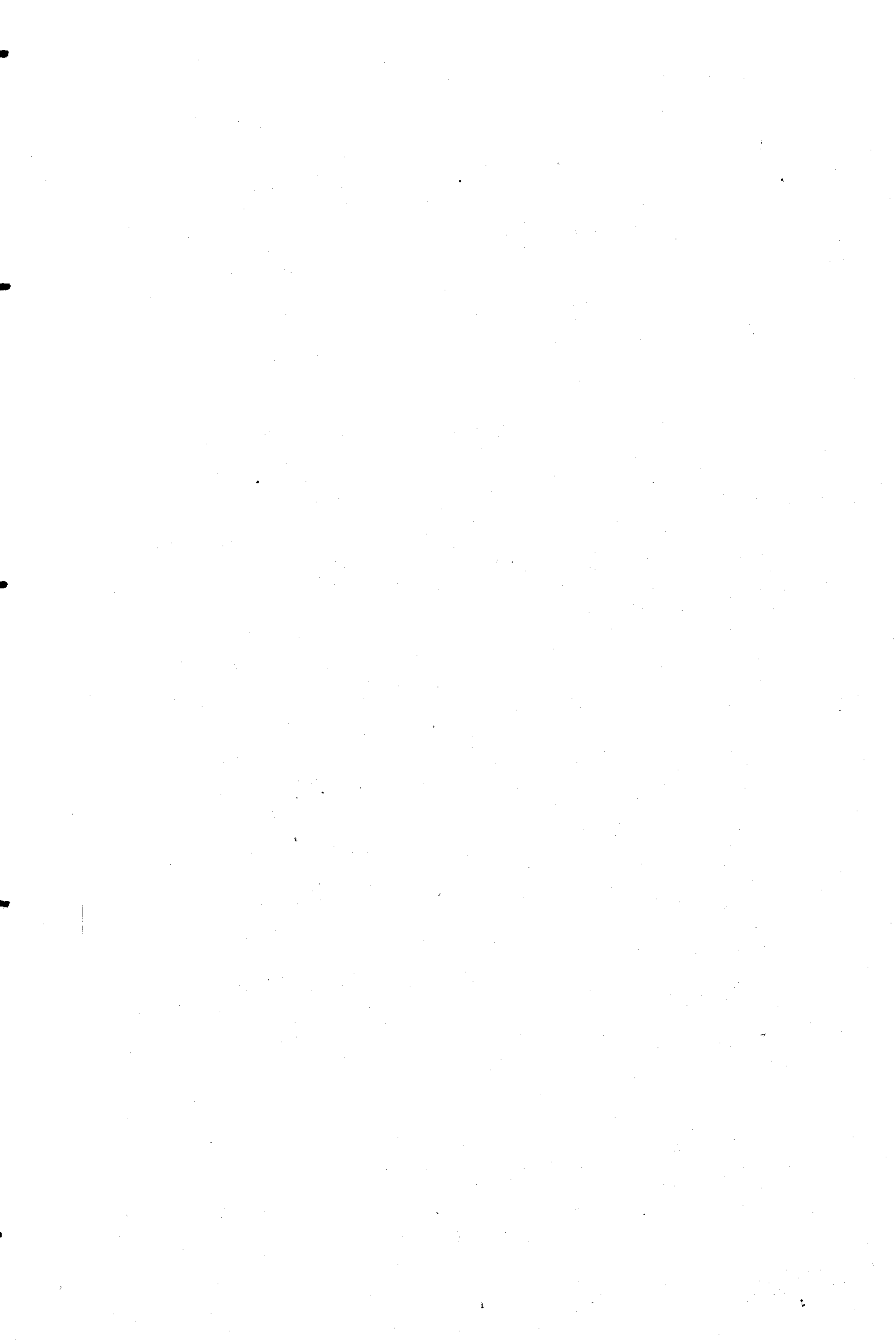
ولقد فرضت الصلاة لله على المسلمين، ليس لمجرد إبعاد الغواية أو النسيان عنهم، ولكن أيضاً لتولد فيهم ذلك الإحساس بالقداسة الذي يساعدهم على ممارسة كافة أشكال القوة واستخدام ثرواتهم في الطريق المستقيم. وباختصار فإنه إذا واظب الإنسان على ذكر الله باستمرار، وإذا استخدم المعرفة ومارس كافة أشكال القوة على أنها أمانة في نطاق وحدود وحي الله، فإن الشرين اللذين ابتلي بهما العالم الحديث، وهما العلمانية والمادية، سيختفيان في نهاية الأمر. كذلك فإن الجهل والظلم والطغيان ستقل إلى حد كبير. وعندئذ سيبدأ الإنسان من جديد في تحقيق ذاته الحقيقية، أي روحه بما وهبها الله من قدرات. وبهذا فإنه سيكون انعكاساً للكثير من الصفات الإلهية التي أراد الله له أن يكون مثلاً لها. وحينئذ، وحينئذ فقط يمكن القول بأن الإنسان قد عرف ربه بصورة أفضل.

* * *



منجزات الحضارة الإسلامية في مجال العلوم والفنون

للاستاذ حكيم امتياز حسين



بسم الله الرحمن الرحيم

لم يكن لشبه الجزيرة العربية قبل الإسلام أي أثر للثقافة أو العلوم أو المعرفة الواسعة أو الاقتصاديات، ولأسباب جغرافية كان العرب يعيشون في فقر ومسغبة، فريسة للخرافات ومنعزلين عن التيارات العالمية. ولقد غيّر الإسلام كل ذلك، وراحت الحضارة التي خلقها تفتح قلوب الناس وعقولهم في كل مكان أمام إمكانيات جديدة. وباختصار شديد رفعت القبائل المتخلفة في العالم إلى مستوى رفيع في كافة المجالات. ولقد كانت معجزة الإسلام الكبرى تتمثل في ظهوره بصورة بالغة الرشد الروحي في بيئة بالغة الانحطاط والفقر. وكانت معجزته الثانية تتمثل في قدرته على رفع مستوى هذه البيئة إلى درجات لم يسبقه إليها أحد بفضل قوته الايحائية وبدون أية مساعدات خارجية. والثالثة تتمثل في قدرته على خلق مركز ثقافي يشع بإشعاعات قوية، ويقوي عوامل النهضة بين الشعوب الأخرى ذات البيئات المتباينة في مختلف أرجاء العالم. والرابعة تتمثل في الدعوة إلى الإيمان بمخاطبته الهادئة للعقل والمنطق وبعمقه واتساع نظرته. والخامسة والتي تعتبر أكثرها تألقاً تتمثل في قدرته على التأثير على الأمم الأخرى من كافة المعتقدات بنظرته السامية الروحية والعقلية جميعاً.

إن العلماء المحدثين، حتى أولئك الذين تدفعهم عصبيتهم إلى اتخاذ موقف نقدي ومعاد للإسلام، يزداد اهتمامهم كل يوم بالسرعة التي تم بها

انتشار الإسلام وبالنتائج الخيرة لقوى البشرية في الفكر والدراسة وبتقدمية الأفكار التي جاء بها إلى الحضارات الراكدة.

على أنه يتعين على كافة « التقدميين » في كل مكان أن يلاحظوا أن هذا التقدم المتألق لكل البشرية كان ملازماً لتنظيم روحي ذاتي وتجنب للملذات التي تصحب ترك العنان للشهوات وضبط متأن للغرائز الخلاقة من شأنه توجيهها إلى خلق أعمال فنية وفكرية واجتماعية جديرة بالإنسان الناضج. إن هذا التنظيم الداخلي الذي يحتاج إليه الإنسان من شأنه أن يقوي الحرية الداخلية التي يبتغيها وهو أحد أسباب سيطرة الإسلام الواسعة على عقول الناس في أوائل العصور الوسطى. ذلك أن الإسلام لم يوفر للإنسان مجرد أشكال خارجية للحياة ولكنه أعاد تأكيد جوهر الروح فيه. كما قضى الإسلام على روح الاضطهاد التي كانت وليدة التعصب الأعمى وضيق الأفق.

ففي أوروبا العصور الوسطى وفي الوقت الذي كانت فيه الكنيسة تفرض سيطرة على مختلف القوميات وتكبلها بقيود تحد من جريتها، كان الإسلام يقيم ثقافة متعددة الجوانب تضع الأساس لازدهار العلوم والمعرفة والأعمال الفنية و « التكنولوجية الخلاقة » التي تبعث ذلك وصارت تسمى « بالنهضة ». كان ذلك يتم في الوقت الذي كانت فيه الكنيسة تدين « جاليليو » لتأكيده على نظرية « كوبرنيكوس » عن دوران الأرض حول الشمس.

يقول الدكتور « جوستاف لوبون »، في كتابه عن الحضارة الإسلامية والعربية : « لقد سار المسلمون في طريق العلوم بتطبيقات عميقة. وفي كل مدينة كانوا يأخذونها، كان أول عمل يقومون به هو إقامة مسجد ثم مدرسة. وقد أدى ذلك إلى إقامة مؤسسات رائعة للتعليم في عدد هائل من المدن ».

ويضيف : « لقد وضع المسلمون العلم على طريق الدقة والتجربة والاكتشاف المتطلع إلى المستقبل عن طريق الفرضيات بحماس منقطع النظير، في الوقت الذي أصدروا فيه الكتب والأبحاث وبنوا فيه المدارس التي كانت تنشر أعمالهم الفكرية في كافة أرجاء المعمورة. وبهذا فقد فتحوا

لأوروبا الطريق أمام نهضتها. ومن ثم فانه يمكن بحق إضفاء لقب « أستاذ أوروبا » على القوة النامية الجديدة حيث أنه تمّ من خلالها إعادة اكتشاف كنوز علوم الإغريق والرومان القديمة وتطويرها وإعادتها إلى أوروبا حين بدأت تخرج من أسار العصور الوسطى ».

وعن القرون الأولى لتقدم الإسلام في مجال الثقافة يقول « جوزيف ما كاب » في كتابه « عظمة المسلمين في أسبانيا » (ص ١١٧) : « إنه حتى أدنى الطبقات في المجتمع كانت تتعطش لتعلم القراءة. وكان العمال البسطاء يقصرون نفقاتهم على الطعام والكساء وينفقون ما يتبقى معهم على شراء الكتب. وكان أحد العمال يجمع مكتبة يقصد إليها رجال العلم. وقد دخل العبيد المحررون طبقة المتعلمين. كما أن رجالاً من أمثال « ابن خلكان » وضعوا أسس هذا التقدم الكبير.

وفي الصفحات التالية سنورد بعض المنجزات العظيمة للحضارة الإسلامية والتي تم جمعها من المصادر الموثوق بها :

العلــوم الطبيــة :

إن اهتمام العرب بالطب لم يبدأ بظهور الطب العربي الحقيقي. فحتى في زمن النبي ﷺ لم يكن الطب محصوراً فقط في مدرسة الطب الشهيرة في « جوندي سابور » ببلاد الفرس. كما أنه في أكثر كتب الحديث وثوقاً وهو كتاب البخاري نجد في بداية المجلد الرابع بابين في موضوع الطب. فإلى جانب النصائح ذات الصفة الروحية الخاصة يتحدث محمد ﷺ عن أنواع العلاج العربي التقليدية مثل الكي والحجامة وتناول العسل. وتشمل الأمراض التي يشير إليها، أمراض الشقيقة (الصداع النصفي) والرمد وذات الجنب والصرع والطاعون. وينصح النبي ﷺ أتباعه بعدم الذهاب إلى البلاد التي ينتشر فيها الطاعون، وربما يكون ذلك هو أول معرفة ـ وإن كانت غير واضحة ـ بالعدوى.

وتزخر المؤلفات الإسلامية العربية والفارسية بالعديد من القصص والحكايات ذات الطبيعة الطبية، مما يعكس مدى الاهتمام الكبير بالأمور

الطبية وقد شاعت على وجه الخصوص تلك القصص التي تتناول ما لا يمكن تسميته بالطب « المباشر » ولكن ما يطلق عليه اسم « العلاج النفساني » أو « الطب النفسي » وهو العلاج الذي يتم بالإيحاء والأساليب « السيكولوجية »، مثل إثارة غضب المريض أو فرحه أو إحداث صدمة له. وتستحق بعض الأساليب التي كان يستخدمها ابن سينا اسم التحليل النفسي، ذلك أن العلاج الذي كان يطبقه كان يتمثل في إرجاع مريضه إلى ذكرياته المبكرة ليسترجع منها إحدى الحوادث المنسية والتي كانت بكمونها في « اللاشعور » سبباً في مرض جسماني من حيث طبيعته، وإن كان نفسياً من حيث أصله.

ولقد كان الأطباء المسلمون يستفيدون كثيراً من إيمان المريض. ولما كان الإيمان يسيطر على كل من علوم المتعلمين وعلى حياة العامة، فإن الأطباء لم ينسوا قط تلك الوحدة القائمة بين الروح والمادة، وبالتالي كانوا يلجأون إلى القوى الدينية التي تحرك مرضاهم مثلما يلجأون إلى العناصر « البيولوجية » و « الفسيولوجية » فيهم. ومن ثم فإن التفرقة الموجودة حالياً بين الطب الشرعي والتحليل النفسي والعلاج بالإيمان لم تكن موجودة في الطب العربي، مثلما أن العلوم الإسلامية نادراً ما كانت تنفصل عن الفلسفة أو الدين، إن الله سبحانه، والغيبيات، والسموات، والعالم بأسره لم يكن يغيب عن ذهن الطبيب. وكما هو الحال في الرياضيات وعلوم الفلك، كان الأمر كذلك في الطب العربي ـ لم يكن الدين بأي حال من الأحوال عائقاً أمام التقدم وإنما كان حليفاً قوياً له.

ولقد كان أول طبيب مسلم هو أبو بكر محمد أبو زكريا الرازي الذي ظهر في القرن التاسع وصار مشهوراً في كل أنحاء العالم واحتل مكاناً بارزاً في تاريخ الطب وصار أحد مراجعه المرموقة. وقد ألف الرازي ما يزيد على عشرين كتاباً، وكان أول شخص وصف بدقة مرض « الحصبة » ومرض « الجدري ». وأهم مؤلفاته هو كتاب « الحاوي » وهو موسوعة طبية مفصلة للغاية ظل يستفيد منها الأطباء والدارسون ليس فقط في الشرق ولكن أيضاً في كافة أرجاء أوروبا.

أما ثاني أكبر موسوعة طبية أصدرها أحد المسلمين، فهي موسوعة « قانون ابن سينا » الذي يعتبر أشهر الفلاسفة والعلماء المسلمين. لقد كان ابن سينا أستاذاً في الشريعة الإسلامية والفلسفة والعلوم الطبيعية والرياضيات. وعندما بلغ الثامنة عشرة من عمره وصلت شهرته كطبيب إلى الحد الذي كان يحدو بالأمراء من الحكام إلى السعي في خدماته. وقد وضع ابن سينا ستة عشر كتاباً في الطب من بينها كتابه الشهير « القانون » الذي تبلغ عدد كلماته نحو مليون كلمة. وتتناول هذه الموسوعة كافة الأمراض والعلاج والأدوية المعروفة حتى ذلك الحين والتي وضعتها المراجع الإغريقية والعربية. وقد صدرت من هذه الموسوعة نحو ثلاثين طبعة باللاتينية وغيرها من اللغات الأخرى. وكانت تشكل نصف المنهج الطبي بالجامعات الأوروبية خلال القرن الخامس عشر.

ويقول الدكتور « ماير هوف » عن كتاب القانون لابن سينا : إنه تحفة للعلوم الطبية وقد أثبت قيمته من خلال طبعه ست عشرة طبعة في نهاية القرن الخامس عشر، خمس عشرة منها باللاتينية، وواحدة بالعربية، وفي القرن السادس عشر تم طبعه عدة مرات بسبب قيمته كإنجاز علمي، ولقد استمرت فائدته خلال القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر إلى أن صار أشهر المباحث الطبية وأوسعها انتشاراً. وما زال هذا الكتاب مرجعاً هاماً بمدارس الطب حتى يومنا هذا.

وقد تبع هؤلاء علماء آخرون نذكر منهم : أبا القيس وابن زهر بالأندلس، وعباس الإيراني، وعلي بن رضوان في مصر، وابن بلطان في بغداد، وابن منصور موفق في حبرات، وابن وفيد في أسبانيا، وماسويا ببغداد، وعلي بن عيسى في بغداد، وعمار في الموصل، وابن رشد في الأندلس. وقد ترجمت أعمالهم إلى اللاتينية وكانت تدرس في الجامعات الأوروبية. ولم تكن أوروبا تعرف شيئاً عن جراثيم « الكوليرا » عندما دخل العرب أسبانيا. وكان الناس هناك ينظرون إلى هذا المرض على أنه عقوبة نزلت عليهم من السماء لتكفر عنهم الخطايا التي ارتكبوها. ولكن الأطباء المسلمين كانوا قد برهنوا بالفعل على أنه حتى الطاعون ليس سوى أحد الأمراض المعدية.

كذلك أحرزت الجراحة تقدماً مماثلاً على أيدي الجراحين المسلمين الذين استخدموا حتى أساليب التخدير، على الرغم مما يعتقد بأنها من الأمور الحديثة. وكانوا يستخدمون في ذلك البنج المستخرج من أحد النباتات المخدرة.

وكان من بين ابتكارات الرازي استخدام الماء البارد لمعالجة الحمّى المستمرة، والحجامة الجافة لعلاج مرض السكتة ومرهم الزئبق ومعدة الحيوان لعلاج الجروح وغيرها.

كذلك كان تشخيص مرض السل من أظافر اليد، وعلاج اليرقان واستخدام الماء البارد لمنع نزيف الدم، وكذلك تفتيت الحصا في الكلى والكبد لتسهيل إزالته وجراحة الفتاق ـ كل ذلك كان من اكتشاف الحضارة الإسلامية.

ولقد كان أعظم الجراحين المسلمين هو « أبو القاسم بالأندلس» والذي لم يكن جراحاً جيداً فحسب، بل كان أيضاً مخترعاً لكثير من الأدوات الجراحية ومؤلفاً للعديد من الكتب التي تصفها وتشرح طرق استعمالها.

أخيراً وليس آخراً، كان العرب هم أول من أنشأ مدارس الطب الخاصة التي تعقد امتحانات صحيحة، ومن ثم مهدوا الطريق أمام إنشاء كليات الطب في أوروبا. كما كانوا أول من أنشأ المستشفيات مقسمة إلى عنابر حسب الأمراض المختلفة، ومن ثم قدموا المثل للمؤسسات ذات الصبغة المماثلة.

المستشفيات :

في خلال قرنين من وفاة النبي ﷺ كانت هناك مستشفيات في مكة والمدينة وغيرها من المدن الإسلامية الكبيرة. وكان الحكام العباسيون ووزراؤهم يتنافسون فيما بينهم على إنشاء أفضل هذه المؤسسات لرعاية المرضى في أقاليمهم. وكان في بغداد وحدها أربعة مستشفيات هامة. وفي القرن الثالث الهجري أقام الحاكم عضد الدولة الديلمي المستشفى

العضدي، والذي كان يضم أربعة وعشرين إخصائياً كل منهم أستاذ في مجال تخصصه. وقد اكتسب هذا المستشفى شهرة فاقت ما عداه من المستشفيات في العالم الإسلامي.

ويقول الدكتور جوستاف لوبون في كتابه « الحضارة الإسلامية والعربية » : « كانت المستشفيات الإسلامية تمارس الطب الوقائي والمحافظة على الصحة مثلما تقوم بعلاج المرضى، وكانت جيدة التهوية وبها الكثير من المياه الجارية. وقد صدر أمر السلطان إلى محمد بن زكريا للبحث عن أفضل الأماكن الصحية المجاورة لبغداد لإقامة مستشفى جديد فيه. وقام الرازي بزيارة كافة الأماكن بالمدينة وما حولها وعلق قطعة من اللحم في كل منها وتركها في الوقت الذي ظل فيه يدرس موضوع الأمراض المعدية والأحوال الجوية وكذلك حالة المياه في المناطق المجاورة. وبعد ذلك راح يزيد كل هذه الاختبارات التجريبية إلى أن وجد أنها جميعاً تشير إلى أن آخر مكان حدث فيه تعفن وظهور للبكتريا المعدية في قطعة للحم هو أنسب مكان لإقامة المستشفى. ولقد كانت بهذه المستشفيات عنابر عامة كبيرة كما كانت بها عنابر خاصة للأفراد، وكان الدارسون يقومون بعمليات التشخيص ويدونون الملاحظات ويجرون التجارب للوصول إلى أفضل النتائج في دراساتهم كما كانت توجد مستشفيات خاصة للأمراض العقلية وصيدليات تقوم بصرف الأدوية مجاناً ».

الصيدلة :

يقول الدكتور جوستاف لوبون : « إلى جانب استعمال الماء البارد في علاج التيفود ـ وهو علاج ترك فيما بعد على الرغم من أن أوروبا تأخذ بهذا الاكتشاف ـ ظهرت فعالية هذا العلاج الإسلامي ثانية في العصر الحديث بعد مرور عدة قرون عليه ـ فقد اخترع فن مزج المواد الكيميائية في شكل أقراص ومحاليل، ومازال الكثير منها حتى يومنا هذا على الرغم مما يقال من أنها اختراعات جديدة تماماً أدخلها في قرننا الحالي بعض الكيميائيين ـ وهم في الحقيقة يجهلون تاريخنا. ويوجد في تاريخ الإسلام نظام العيادات التي كانت تكتب الوصفات للمرضى، وفي المناطق التي لم تكن بها

مستشفيات كان الأطباء يقومون بزيارات إليها ومعهم معداتهم لحماية الصحة العامة ».

الكيميــاء :

اشتهر جابر بن حيان، تلميذ جعفر الصادق أحد أحفاد نبي الإسلام ﷺ، في كل أرجاء العالم بأنه « أبو الكيمياء »، وقد كان أثره على الكيمياء في الغرب عميقاً ومستمراً، ويوجد له حتى الآن نحو مائة مؤلف. ويقول عنه المرحوم « سيد هبة الدين ستاني » ـ وكان وزيراً للتعليم في إيران ـ : « لقد رأيت نحو خمسين مؤلفاً من مؤلفات جابر بن حيان كلها مهداة إلى سيده الإمام جعفر الصادق وقد طبع له أكثر من خمسمائة مؤلف وتوجد معظمها بين كنوز المكتبات الوطنية في باريس وبرلين. ويطلق عليه علماء أوروبا لقب « أستاذ الحكمة » وينسبون إليه فضل اكتشاف تسعة عشر عنصراً من المادة ووصفها ووزنها... الخ ويقول جابر بن حيان إن كل شيء يمكن إرجاعه إلى جسيم أساسي بسيط يتكون من شحنة من الضوء (الكهرباء) والنار، والذرة هي أصغر وحدة من المادة لا يمكن انقسامها. وتقترب هذه الأفكار من علوم الذرة في العصر الحديث ».

ولقد كان مزج المواد الملونة والصباغة واستخراج المعادن وصناعة الصلب ودبغ الجلود من بين الأساليب الفنية الصناعية المبكرة التي اتقنها المسلمون. وقد أنتجوا حامض النتريك، وحامض الكبريتيك والنتروجلسرين وحامض الهيدروكلوريك والبوتاسيوم ومحلول الأمونيا وكلوريد النشادر ونترات الفضة وكلوريد الكبريت ونترات البوتاسيوم والكحول والقلوي (وهما مازالا يعرفان باسميهما العربيين) وكبريتور الزرنيخ الأصفر والبوراكس. فضلاً عن ذلك فقد كانت هناك فنون كثيرة أخرى شائعة في ظل الخلافة العباسية مثل التقطير والتبخير والتكرير واستخدام الصوديوم والكربون والبوتاسيوم والكلوريد والأمونيا.

الــرياضيــات :

يشير البارون كارادينو مؤلف فصل « الفلك والرياضيات في تراث

الإسلام » إلى أن كلمة « الجيبرا » هي الترجمة اللاتينية لكلمة « الجبر » العربية (أي تحويل الأعداد المركبة إلى لغة الرموز البسيطة). وبهذا يكشف ما يدين به العالم للعرب بهذا الاختراع. كذلك فإن الأعداد المستعملة هي أعداد عربية ليس فقط بالاسم ولكن أيضاً في الحقيقة. وفضلاً عن ذلك فإن إدراك العرب لقيمة الرمز الهندي للصفر قد وضع أساس كل التكنولوجيا الحديثة التي تعتمد على الكمبيوتر ».

ويضيف دينو : « باستعمال الأصفار صار العرب مؤسسي علم الحساب الذي يستخدم في الحياة اليومية. كما وضعوا الجبر على أسس علمية دقيقة وطوروه تطويراً كبيراً. كذلك وضعوا أساس علم الهندسة التحليلية. كما أنهم بلا منازع هم مؤسسو هندسة المثلثات البحتة والكروية. كما كان الأسطرلاب من اختراع الرزقالي العربي الذي عاش في أسبانيا في الفترة من ١٠٢٩ ــ ١٠٨٧م. كذلك نظام العدِ العشري في الحساب والذي يسمى باللاتينية « الخورزم » هو الترجمة اللاتينية لاسم مخترعه الخوارزمي. لقد أحيا العرب الحياة الفكرية السامية ودراسة العلوم في الوقت الذي كان فيه الغرب المسيحي يحارب بعضه بعضاً بصورة بربرية.

الجغـرافيـــا :

في أحد أيام عام ١٥٢٠م أسر قراصنة البحر الإيطاليون « حسناً الوزان » وهو شاب عربي يبلغ من العمر خمسة وعشرين عامـاً. وقد تأثـروا كثيراً بمعارفه الجغرافية لدرجة أنهم أخذوه إلى الفاتيكان ليمثل أمام البابا « ليو » العاشر الذي تأثر بدوره بمعارف الشاب العربي. وتقديراً لصفات الشاب العربي أعطاه الباب اسمه « ليو ». وقد كان حسن الوزان من أصل مغربي ولكنه ولد في غرناطة عام ١٤٩٥م وتعلم في فاس. وقد بدأ ليو رحلاته الإفريقية في سن مبكرة، وفي الوقت الذي أسر فيه كان يعتبر أعظم خبير في شئون القارة « السوداء » التي كانت حتى ذلك الحين شبه مجهولة. وبإيحاء من البابا كتب تقريراً عن رحلاته وقام بنفسه بترجمته عام ١٥٢٦ من اللغة العربية إلى اللغة الإيطالية. وقد اعتبر هذا الكتاب في العالم بأنه المرجع الأول الموثوق به عن إفريقيا. على أن « ليو » لم يكن سوى الحلقة الأخيرة في

سلسلة طويلة من الجغرافيين العرب البارزين الذين أسهموا كثيراً في معرفتنا بالعالم. ولا شك أن طبيعة الإسلام من ناحية واتساع الامبراطورية العربية من ناحية أخرى هما السبب في ظهور العديد من المؤلفات الجغرافية العربية.

ولعل من أعظم الرحالة العرب ابن بطوطة الذي سافر إلى كل البلاد العربية وكذلك إلى تركيا وبلغاريا وجنوبي روسيا وبلاد الفرس ووسط آسيا. وفي الهند التي قضى بها عدة سنوات عين كبيراً للقضاة في دلهي ثم سفيراً إلى أمبراطور الصين. وفي الصين استمر أيضاً في رحلاته دون انقطاع إلى أن وصل إلى بكين شمالاً وإلى كانتون جنوباً. وأثناء رحلة العودة زار كافة بلاد شمال أفريقيا. وقد أخذته رحلته الثانية عبر أسبانيا وأجزاء من غرب أفريقيا وتشمل أقاليم مالي والنيجر. وعلى الرغم من أنه لم يكن جغرافياً متخصصاً إلا أنه جمع قدراً هائلاً من المعلومات تجعله في مصاف أكبر الجغرافيين في كافة العصور. ولا بد أن ما قطعه من مسافات تبلغ نحو ٧٥٠٠٠ ميل في وقت كانت تنحصر فيه وسائل النقل في الحصان والجمل والقارب الشراعي. وإلى جانب المعلومات الجغرافية فإن ابن بطوطة أورد كافة التفاصيل المتعلقة بالجوانب السياسية والإدارية والاجتماعية والاقتصادية للبلاد التي زارها.

على أن العلماء الغربيين لم يعرفوا كتاب « رحلات ابن بطوطة » إلا في القرن التاسع عشر. ويعتبر هذا الكتاب هو أول كتاب عربي يتضمن تفصيلات كثيرة عن الهند والصين وروسيا.

وأسماء أبي ريحان البيروني وأبي الحسن وأبي زيد وابن فضلان تعتبر من الأسماء البارزة في علم الجغرافيا. وتعتبر ملاحظاتهم الدقيقة وكتاباتهم المضنية من المنجزات التي تدعو للفخر في علم الجغرافيا الحديث.

ويعترف العلماء الغربيون في أوروبا وأمريكا في العصر الحديث بأن ما كتبه الحجاج المسلمون أفضل مما كتبه الحجاج الأوربيون. ويؤكدون على القيمة العلمية لما كتبه الرحالة المسلمون من يوميات وكتب عن رحلاتهم، من أمثال ابن جبير ومحمد بن رشيد والهراوي. وقد وجه الكثير من الرحالة العرب اهتمامهم بصفة خاصة إلى المعارف النباتية وبهذه الطريقة زودوا معرفة

العالم بكثير من النباتات التي لم تكن معروفة، ولعل أعظم هؤلاء من علماء النباتات الجغرافيين هو ابن بيطار الذي يعتبر أعظم عالم نباتات في العصور الوسطى.

وهناك أسماء بارزة أخرى من الجغرافيين العرب نذكر منهم المسعودي والإدريسي وياقوت. وقد جمع المسعودي موسوعة جغرافية تاريخية تعتبر بما حوته من معلومات مختلفة فريدة في نوعها. فإلى جانب ما تضمنته من حقائق جغرافية كانت تحتوي على معلومات كثيرة عن العلوم الأخرى حتى إنها تضم نظرية بدائية عن التطور.

أما الإدريسي فقد فاق كل معاصريه من الجغرافيين في الشرق والغرب. وقد ولد الإدريسي في وسط مراكش عام ١١٠٠ وعندما قرر الملك النورماندي روجر الثاني وضع أطلس للعالم دعا العالم المسلم العربي الإدريسي إلى عاصمته لهذا الغرض وكانت النتيجة أنه تم وضع « الكتاب الروجري » (كتاب روجر) وكان أفضل كتاب يصف : العالم في العصور الوسطى. ويحتوي الكتاب على معلومات عن كل من البلاد المسيحية والإسلامية. وتكمن قيمته الأساسية في الخرائط السبعين التي تضمنها وتصور بعضها مناطق من العالم لم تكن معروفة من قبل، كذلك أعد الادريسي للملك رسماً للكرة الأرضية من الفضة.

وقد اشتهر عبد الله ياقوت (١١٧٠ ـ ١٢٢٩) بأنه مؤلف أحد أقدم القواميس الجغرافية التي تتناول علوم الفلك والرياضيات وقواعد النمو والتاريخ وتاريخ حياة العلماء.

وتدين علوم البحار بدَيْن آخر للجغرافيا العربية أو بتعبير أدق للمعارف البحرية العربية. وكما هو معروف فإن « فاسكودي جاما » هو أول من اكتشف الطريق إلى الهند عام ١٤٩٨م. فبعد أن أبحر حول أفريقيا وصل إلى مالندي على الساحل الافريقي الشرقي. وكان البحار العربي « أحمد بن ماجد » هو الذي أرشده إلى الطريق ومن ثم فتح هذا الطريق الهام أمام البحارة الغربيين. وقد كان أحمد بن ماجد يملك خريطة ممتازة أعدها العرب

ولم تكن معروفة في أوروبا. وكان يستخدم في إبحاره معدات بحرية لم تكن معروفة للأوربيين على الإطلاق.

الفــــن :

يعتبر مسجد قرطبة من أرقى آثار المسلمين في أوروبا. وكانت عمارته وبناؤه نتاجاً للعبقرية المحلية التي قدمت الكثير من الابتكارات، وقد برز المسلمون في فنون تركيب الفسيفساء والترصيع والنقش والزخرفة بكافة أشكالها. وهناك الكثير من الأبواب والمنابر والأسقف الرائعة والمزينة في كثير من المساجد القديمة المنتشرة في العالم الإسلامي. وتزين هذه المساجد تصميمات مزركشة من الفسيفساء والعاج المحفور والخشب والجص وكذلك قطع ماسبة من الخشب المحفور متداخلة مع بعضها البعض بشكل فني رائع. ويوجد الخشب والعاج المحفور في كل مكان منها.

أما الصناديق والحقائب والتوابيت المرصعة بالجواهر فهي منتشرة في كل مكان وإن كان أفضلها معروضاً في متاحف دمشق والقاهرة. وكان المسلمون أيضاً أساتذة في فن الجص المحفور والملون بأسلوب مازال قائماً حتى اليوم على الرغم من أن « التكنولوجيا » الحديثة تزيد بمرور الوقت من مثل هذه المهارات. وتوجد أمثلة من فنون القرن العاشر المزخرفة أيضاً في الأندلس. وتحتوي الحمراء على تحف من القرن الثالث عشر مازالت تلمع مثل الخزف الإيطالي المزخرف. وتعتبر زهرية الحمراء الشهيرة والتي يبلغ ارتفاعها متراً ونصف المتر فريدة من نوعها في هـذا المضمار. ولقد كان استعمال قطع الرخام ذات الألوان المتعددة على واجهات المباني لتكوين أشكال رائعة لبعض الكنائس الإيطالية الفخمة قد سبق إليه العرب من قبل.

كذلك حظيت صناعة الفخار العربية بشهرة كبيرة بين الخبراء الأوربيين وكان كثير من الأمراء المسيحيين يستدعون صانعي الفخار العرب لينتجوا لهم مصنوعات فخارية للعرض. وكان من أشهر أنواع الفخار تلك التي كانت تأتي من مصر وسوريا ومراكش.

ومن أكثر الأشياء شهرة تلك التي كانت تحمل بالخطأ اسم

« الصيني الأزرق » والحقيقة أن هذا الأزرق لم يكن صينياً وإنما كان اختراعاً عربياً. وكان الصينيون يستوردون المواد اللازمة له من الشرق الأوسط ويطلقون على ما ينتج منها اسم « المحمدي الأزرق ». وفي القرن السابع عشر كان التجار الهولنديون يستوردون « الصيني الأزرق » الذي ينتجه العرب على أنه من الصناعة الصينية.

ومن الفنون العربية « الصغرى » التي حافظت على مكانتها العالية في كل أنحاء العالم حتى يومنا هذا هي صناعة الجلود. وحتى اليوم يطلق الغربيون من منتجي البضائع الجلدية على أفضل منتجاتهم اسم الجلد « المراكشي ». ففي فترة مبكرة جداً تم في مراكش التوصل إلى وسائل متقدمة لدبغ الجلود (وخاصة جلود الماعز) لتكون في نعومة الحرير وكذلك صبغها بأصباغ نباتية تحتفظ بلونها على الدوام. ولعل صناعة الجلود التي تركت أعمق الأثر في أوروبا هي فن تجليد الكتب وكتابة أسمائها محفورة بالذهب على أغلفتها. وكان فن تجليد الكتب يقلد كثيراً في البندقية وفلورنس حيث مازال أسلوب العرب في تجليد الكتب وصناعة بعض المواد الجلدية موجوداً فيهما حتى اليوم.

ولقد كانت الحضارة الإسلامية هي التي أدت إلى استبدال الورق المصنوع من نسيج القطن بالرقاع القديمة وكان هذا الاختراع هو الأساس الذي قام على أساسه اختراع الطباعة في أوروبا باستخدام أسلوب صيني قـديـم.

وقد وجدت مخطوطة من الورق عام ١٠٠٩ في مكتبة أسكوريال ويعتقد بأنها أقدم مخطوطة في الوجود لكتاب نسخ باليد على الورق. ولا شك ان الورق المصنوع من نسيج الحرير يعتبر اختراعاً صينياً حيث أن الحرير كان منتشراً في الصين ونادر الوجود في أوروبا. وتتمثل العبقرية الإسلامية في البحث عن إمكانية إحلال القطن محل الحرير وبذلك وفرت لأوروبا المادة الموجودة بكثرة لإنتاج الكتب.

وقد كتب « فيليب حتي » في كتابه « تاريخ العرب » : إن فن بناء الطرق كان فناً متطوراً للغاية في البلاد الإسلامية حتى إنه كان في قرطبة

أميال من الطرق المعبدة التي تضاء ليلاً من البيوت القائمة على جانبيها حتى يسير فيها الناس آمنين مطمئنين، في الوقت الذي كان فيه الشخص في لندن أو باريس إذا تجرأ بالخروج في ليلة ممطرة يغوص بقدميه في الطين. وقد ظل هذا الوضع قائماً فيهما لمدة سبعة قرون بعد رصف شوارع قرطبة، وكان رجال أكسفورد يعتقدون في ذلك الحين أن الاستحمام من أعمال الوثنية في الوقت الذي كان فيه الدارسون في قرطبة يستمتعون بالحمامات العامة الفاخرة.

ومن الاختراعات الرائعة للعلماء المسلمين صناعة الساعات وخاصة تلك التي تتحرك بالماء أو الزئبق أو حتى بالشموع المحترقة. ولم يكتف المسلمون بصناعة العديد من الساعات الرائعة من مختلف الأنواع ولكنهم عكفوا كذلك على كتابة الكتب عنها. وقد اكتسبت هذه الكتب شهرة تماثل شهرة الأشياء الموصوفة فيها وفي واحد من أشهر هذه الكتب يصف « رضوان » الساعة المائية التي صنعت في أوائل القرن الثالث عشر على يد والده « محمد بن علي ». وكانت هذه الساعة موضوعة بالقرب من إحدى بوابات دمشق وكانت تعتبر في نظر المسلمين في كافة أنحاء العالم إحدى عجائب الدنيا. وفي عام ٨٠٧م أهدى الخليفة العباسي هارون الرشيد إلى شارلمان ساعة صنعها علماؤه تدق جرساً كل ساعة. وقد انبهر وأعجب بها كل بلاط الأمبراطور الروماني الجديد.

كذلك وجه العلماء المسلمون اهتمامهم إلى موضوعات أخرى أكثر جدية أيضاً. ففي عام ٩٦٠ أصدر أبناء موسى بن شقير كتاباً عن الصنائع المبتكرة وصفوا فيه مائة صناعة فنية منها : إقامة الآبار ذات المستوى الثابت وصناعة أواني الماء البارد والماء الساخن. ومن بين مؤلفي الكتب العلمية الأصيلة نجد واحداً من أوائل الفلاسفة العرب وهو الكندي يكتب عن الأوزان والبصريات وانعكاس الضوء والمد والجزر. كما أن فيلسوفاً آخر أكثر شهرة وهو ابن سينا يكتب عن تكوين الجبال والمعادن. وقد كان العرب المسلمون هم أول من استخدم الإبرة المغناطيسية في الملاحة البحرية. كذلك يجمع الخبراء المحدثون على أن البصريات التي اخترعها

المسلمون الأوائل كانت تفوق بكثير تلك التي كانت موجودة في أوروبا في العصور الوسطى. ولقد ظلت أوروبا لقرون طويلة تعتمد اعتماداً كبيراً على كتاب عربي صدر في هذا المجال وهو « كتاب المناظير » لابن الهيثم البصري الذي ترك أثره على الفكر العلمي لمدة ستة قرون على الأقل.

الفيـزيـاء :

اهتم العرب اهتماماً بالغاً بكل شيء يتعلق بعلوم حركة المياه (الهيدروليكا) وكانوا أول من نقل إلى أوربا الحقائق المتصلة بالميكانيكا الأرشميدية الهيلينية، .كما اهتم العرب بدراسة كثافة المادة وخاصة المعادن والأحجار الكريمة. وقد اتجهوا إلى هذا الموضوع في القرن التاسع. وهنا يتعين ذكر بعض الأسماء الشهيرة مثل الرازي والبيروني وابن سينا وعمر الخيام... الخ وقد كتب الخزيني أهم المؤلفات في هذا المجال في القرن الثاني عشر. وإلى جانب تناوله لكافة علوم الفيزياء يتضمن الكتاب جداول عن الجاذبية الخاصة بالمواد الصلبة والسائلة ويدل على شمولية الكتاب ذلك الحشد الهائل من الموضوعات التي يتناولها ومن بينها نظريات الجاذبية والخاصية الشعرية والروافع والقياس والأحمال... الخ.

* * *

لقد حاولت في هذه الصفحات أن أعرض باختصار كنوز العقل والروح التي تدين بها البشرية للحضارة الإسلامية. ولقد ظلت هذه الكنوز مهملة ومنسية لفترة طويلة من الزمن ليس فقط من جانب الذين استفادوا منها بطريقة غير مباشرة ولكن أيضاً من جانب أحفاد أصحاب هذه الكنوز أنفسهم.

ولكن إذا استطاعت البشرية أن تعيش كأسرة موحدة وهي دعوتنا ومصيرنا فإن ذلك لن يتم إلا على أساس احترام وتقدير بعضنا لبعض.

إن هذا التقويم الناضج يزداد نمواً، فالعلماء المحدثون يظهرون الآن امتنانهم لما قام به القائد العربي طارق بن زياد عام ٧١١ من إنزال قواته بالجبل الذي يسمى حتى الآن باسمه وهو « جبل طارق ». ولقد كانت قواته

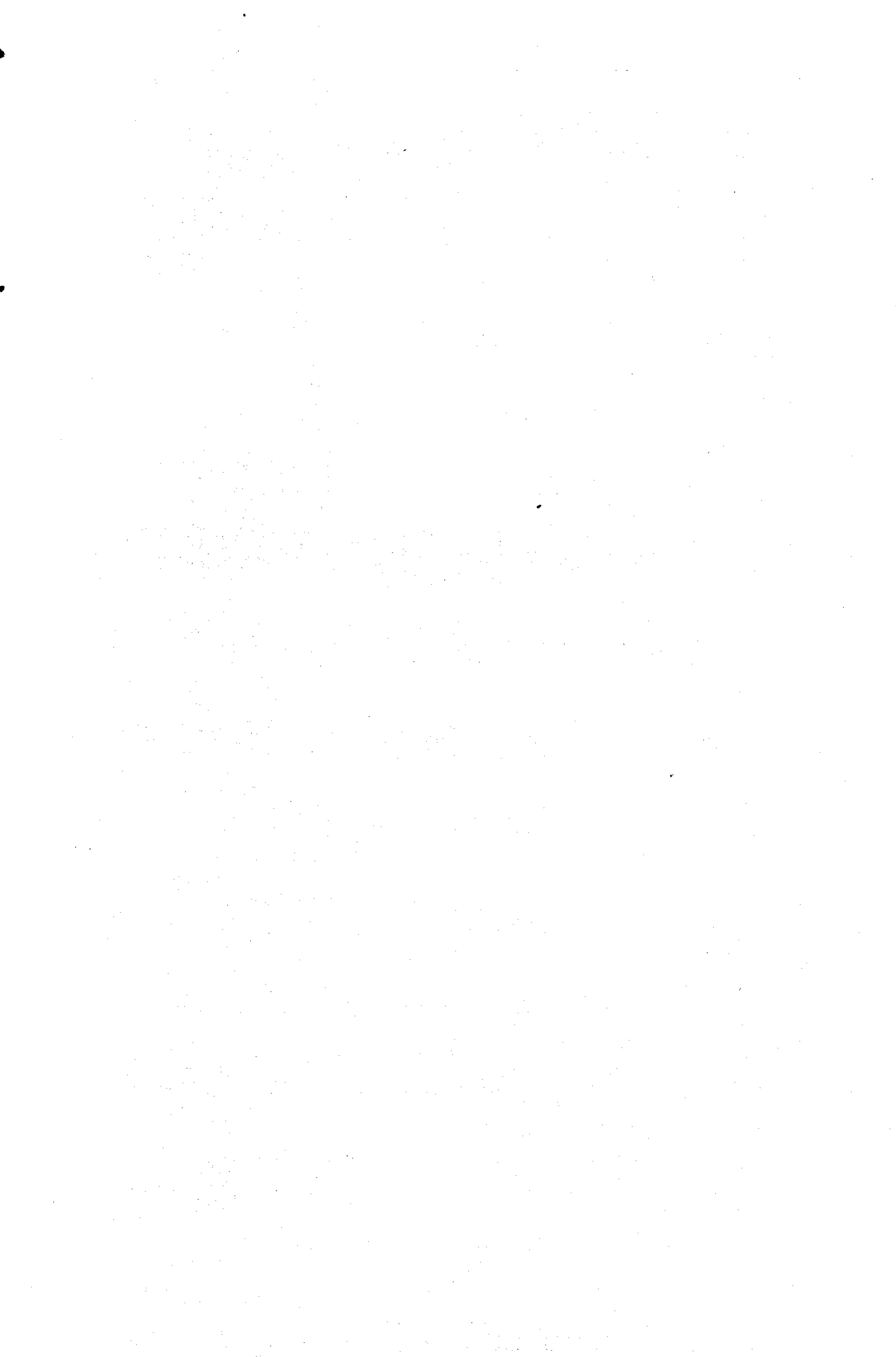
في ذلك الحين بمثابة قوات غزو لم يتم الترحيب بها، لقد كانت فترة نسيت فيها أوروبا فوائد الوحدة الرومانية والتقدم الثقافي وغرقت مرة أخرى في ظلام العصور الوسطى تحت جحافل البرابرة التي اجتاحتها من الشمال. وبقدوم العرب جاء معهم حافز جديد لتنشيط العقول من خلال نقل الفكر الإغريقي واليوناني إلى أوروبا وحثها على التعلم والبحث العلمي والفلسفي وإيقاظ روح الخلق الفني فيها.

واليوم يعترف العلماء والمؤرخون الأوروبيون والأمريكيون بالإسهام الكبير الذي قدمه الإسلام لكافة أوجه التقدم الحديث من علوم ورياضيات وتكنولوجيا وفلسفة. وليكن أملنا في مستقبل مشرق بل أكثر إشراقاً من الماضي ولندع الله العلي القدير أن يمنحنا الحكمة والمعرفة حتى تصبح الحضارة الإسلامية مرة أخرى منارة للدنيا، وليعنّا الله على الخروج من إسار الجهل والأمية إلى آفاق العلم والمعرفة والثقافة وإلى السمو بأخلاقنا الاجتماعية وسلوكنا القويم. آمين.



المــراجــع

(١) الحضارة الإسلامية والعربية ـ دكتور جوستاف لوبون.
(٢) نظرات في تاريخ العالم.
(٣) العظمة الإسلامية في اسبانيا ـ جوريف مارك كاب.
(٤) عقيدة الإسلام ـ جيولوم وارنولد.
(٥) التراث العربي في الحضارة الغربية.
(٦) تاريخ العرب ـ فيليب حتي.
(٧) الإسلام ـ جي. اي. جرونبوم.
(٨) محمد في مكة ـ دبليو. ام. وات.
(٩) أصول الشريعة المحمدية ـ جي. شاخت.
(١٠) قلب الشرق الأوسط ـ آر. كوك.
(١١) ثورة في الصحراء ـ تي. اي. لورانس.
(١٢) الدولة والاقتصاد في الشرق الأوسط ـ اي. بون.
(١٣) اسلام العصور الوسطى ـ جي. اي. جرونبوم.
(١٤) دين الإسلام ـ اي. اس. تريتون.
(١٥) العقل والوحي في العصور الوسطى.
(١٦) روح فلسفة العصور الوسطى ـ اي. جيلسون.
(١٧) الحضارة العربية في نظر المسلمين ـ تي. آر. جولدنج.
(١٨) الثقافة الإسلامية ـ دبليو. يار تهولد.
(١٩) العـالم والغــرب.
(٢٠) بحث عن العلوم والفلسفة والدين ـ جي. اي. جرونبوم.



المحتويـــات

الصفحة